بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــــــــداء

إلى من احتضنني بكل عطف و حنان احتضان الأب المربي، ثم أضاء لي دروب الأدب العربي، و كم كنت في حاجة إلى هذا العطف والحنان في مصر بعيدا عن أهلي، وإلى تلك التوجيهات والإرشادات التي فارقت من أجلها أهلي و وطني، إنه أستاذي الدكتور رزق مرسي ابو العباس علي- حفظه الله تعالى- الذي تفضل بقبول الإشراف على تلك الرسالة المتواضعة التي نلت بها درجة التخصص " الماجستير " في الأدب والنقد من الأزهر المعمور، جزاه الله تعالى عني وعن كل تلاميذه خير الجزاء.

وإلى أستاذي و والدي فضيلة الشيخ محمد عبد الحكيم شرف القادري- أطال الله بقاءه بالصحة والعافية- الذي رباني فأحسن تربيتي و غرس في قرارة نفسي حب العلوم الإسلامية والعربية، و وهبني للعلم و الدين الحنيف منذ طفولتي و مازلت في سبيل العلم و قد قضيت أربعة وثلاثين ربيعا من عمري، ولما رجعت بشهادة التخصص الماجستير إلى الأهل بعد قضاء أربع سنوات في ظلال الأزهر الوارفة انحدرت من عيني والدي دموع الفرح، فقضيت مع الأهل فترة لا بأس بها و لما استأذنته للعودة إلى رحاب الأزهر مرة أخرى حتى أكمل رسالة العالمية الدكتوراة لم يستطع أن يوافق على عودتي إلى مصر الأزهر في أول وهلة، إلا أنه ما لبث أن تماسك و أعانه على ذلك فضل الله فأذن لي بالعودة إلى كعبة العلوم و منارة الإسلام و الحصن الحصين للغة القرآن وأدب العرب مرة أخرى لما للأزهر الشريف من مكانة في قلوب المسلمين على امتداد العالم الإسلامي. سخرني وإياه لخدمة الإسلام والمسلمين.

و إلى والدتي التي هي المربية والمعلمة الأولى فقد أرضعتني ما يغذي جسمي و روحي، والتي غمرتني بعطفها و حنانها رضيعا فطفلا ثم شابا، وأكرمتني وما زالت تتحفني بدعواتها الصالحة، حفظها الله تعالى، ولا حرمني من دعواتها وعطفها و حنانها..

وأسأل الله – سبحانه وتعالى- أن يجزى خيرا كل من له فضل عليَ، ومن ساهم في تكويني العلمي من قريب أو بعيد، آمين يا رب العالمين، رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ و على والدى، وأن أعمل صالحا ترضاه، و أدخلني برحمتك في عبادك الصالحين.

تحريرا في

٣ من شهر رجب ١٤٢٢هـ

٢٠ من شهر سبتمبر ٢٠٠١م

كتبه

ممتاز أحمد سديدى

الباحث بالأزهر

كلمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العليم الأعلم الذى وعد عباده الشاكرين بالمزيد من الأنعم ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المعلم الأعظم الذى علم أتباعه الشكر لله وعباده بقوله: من لم يشكر الناس لم يشكر الله " صلوات الله وتسليماته الدائمتين عليك ياسيدى يا رسول الله ، فقد نصحت الأمة ، وكشفت بتوفيق الله الغمة ، وبلّغت ما أنزل إليك ،لا حرمنا الله من شفاعتك " يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه " وبعد .

فقد سخر الله ـ سبحانه وتعالى ـ بفضله ومنّه وكرمه كاتب السطور لهذا الكتاب الذى يتناول حياة علم من أعلام الأمة الإسلامية فى العصر الحديث ، وشاعر من شعراء العربية فى شبه القارة ـ بما فيها كل من باكستان وبنجلاديش والهند ـ إنه الشيخ أحمد رضا خان الذى جعل موهبته الشعرية والثقافة الدينية وسيلتين لنهوض الأمة الإسلامية ، والذى نتحدث عن سيرته وثقافته وشعره العربى فيما يأتى من الفصول المخصصة لها .

إن أصل هذا الكتاب رسالة جامعية نال بها صاحبها درجة التخصص الماجستير فى الأدب والنقد من قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الدراسات الإسلامية والعربية (بنين القاهرة) جامعة الأزهر، وتمت مناقشة هذا البحث فى ١٢ من شهر ربيع الآخر عام ١٤٢٠ الموافق ٢٥ من شهر يوليو عام ١٩٩٩م ، وكانت لجنة المناقشة مكونة من السادة الأساتذة .

١ . الأستاذ الدكتور محمد السعدى فرهود - رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته - أستاذ الأدب والنقد المتفرغ (آنذاك) بكلية الدراسات الإسلامية والعربية (بنين القاهرة)

جامعة الأزهر، ورئيس جامعة الأزهر سابقا، عضوا.

٢ . الأستاذ الدكتور القطب يوسف زيد - حفظه الله تعالى - أستاذ ورئيس قسم الأدب والنقد بكلية اللغة العربية (فرع إيتاى البارود) جامعة الأزهر، عضوا.

٣ . الأستاذ الدكتور رزق مرسى أبوالعباس علي - حفظه الله تعالى - أستاذ الأدب والنقد المساعد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية (بنين القاهرة) جامعة الأزهر، مشرفا.

وبعد مناقشة استمرت ثلاث ساعات أكرمت اللجنة هذا البحث بالامتياز، وذلك بعد التوجيه والإرشاد النابعين من العلم الغزير لدى الأساتذة الأجلاء، ومما أدلى به أستاذ الأجيال فضيلة الأستاذ الدكتور محمد السعدى فرهود - خلال المناقشة - بالنسبة للشاعر موضوع البحث قوله: إننا أمام مجاهد مسلم يحرص على اللغة العربية باعتبارها لغة القرآن، والحمد لله هناك مؤسسات تعليمية متعددة ومتنوعة تدرس اللغة العربية وآدابها، وتدرس كثيرا من العلوم باللغة العربية ونحمد الله على هذا، وإن كانت الهند تعرضت إلى غزوة إنجليزية، وكان هناك صراع بين الذين ينحازون إلى الخط الإسلامى ومايتصل به من اللغة العربية، وهؤلاء الآخرين الذين نقلوا العلم الأجنبى إلى شبه القارة الهندية، ومن هنا وجد صراع سياسى واجتماعى ولغوى وثقافى كان الشيخ أحمد رضاخان قطبا من أقطاب هذا الصراع، والحمد لله الأمور تعتدل، واللغة العربية تأخذ مكانها ومكانتها هناك، ويأتى الباحثون وخصوصا شباب الباكستانيين ليتزودوا من الزاد العربى، ومن الطبعى أنهم يعودون إلى بلادهم الأولى ليقودوا حركة لصالح الإسلام وصالح اللغة العربية. نستطيع أن نثنى على ممتاز ثناء ممتازا، ونستطيع أن ندعى أنه أحسن اختيار موضوعه، فقد عثر على غنيمة وعلى جوهرة من جواهر البحث والعلم فى شخصية الشيخ أحمد رضا خان.

كما تحدث فضيلة الأستاذ الدكتور القطب يوسف زيد - المناقش الآخر - عن البحث قائلا:

"... وأما البحث فقد سعدت به وبما يمثله، لأنه يقدم لنا شخصية عظيمة فى تاريخ الحياة الإسلامية الحديثة، وكم نحن بحاجة إلى التعرف على أمثال الشاعر الشيخ أحمد رضا خان فى

عـالمنا الإسلامى تحقيقا للتواصل بين أبناء الأمة الإسلامية الواحدة ، وإعلانا عن سعة عطائها فى كل زمـان ومـكان ، وهذا العطاء عطاء فكرى وأدبى فى كل العصور وفى كل الأماكن كما قلت ، وإبرازا لـمـواهب أبنائها ممن حباهـم الله تعالى علما وفضلا وفكرا حتى يتعرف الناس عليهم ، فكثير من أبناء الإسلام الذين يعيشون خارج نطاق الأرض العربى ولهذا سعدت بهذه الدراسة كل السعادة إذ قدمت لـى كـمـا سـتـقـدم لغيرى عندما تطبع فى كتاب حشدا هائلا من أعلام الإسلام فى شبه القارة الهندية لانـعـرف الـكثيـر عـنـه ، كـمـا قدمت شاعرا كبيرا يجب الاحتفاء به كما تجب دراسة آثاره وتحليل أخباره بالقدر الذى تجلى لنا حياته وأفكاره وأدبه الذى أجاد فيه وعبر عن فكره من خلاله "

وكـان الأسـتـاذ الـدكـتـور الـمشـرف على الرسالة قد أدلى بكلمة قيمة ـ خـلا ل المناقشة ـ والتى جعلتها بعد إذنه مقدمة لهذا الكتاب . جزاه الله عنى وعن بحثى هذا خيرا الجزاء .

شـكـر الله لهـم حسـن تـوجيهاتهم ينتفع بها الباحث طوال حياته داعيا لهم ربه تبارك اسمه بالخير، معترفا بالجميل .

ولايـفـوتـنـى فـى هـذا الـمقام أن أتوجه بالشكر إلى أستاذى فضيلة الأستاذ الدكتور محمد رجـب البيـومـى الـذى رفـع من شأن هذا البحث بتفضله بإهداء الباحث كلمة عن بحثه بعد أن أسعد الـرسـالة بـإلـقاء نظرة عليها ، نرجو أن تكون الرسالة هذه أهلا لتلك اليد الفاضلة التى أمسكت بالقلم لتضئ الطريق أمام الباحث ، إنها يد الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى ، بارك الله فى عمره بطول بقائه لنا ولسائر تلامذته وأحبابه وللفكر والشعر العربيين الإسلاميين .

ولاأنسـى الشـكـر لـرائـد الأدب الإسـلامى المقارن ، مربى الأجيال فضيلة الأستاذ الدكتور حسيـن مجيب المصرى الذى أكرم البحث وصاحبه بكلمته العلمية الضافية الحانية ، والذى هو بحق صـاحـب أسلوب متميز من بين كتاب مصر المحمية ، نفع الله الأدب الإسلامى بطول بقائه بالصحة والعافية مجدا لمصر المحروسة وعميدا للأدب الإسلامى المقارن .

وأرى من الواجب أن أقوم بواجب الشكر لفضيلة الأستاذ الدكتور القطب يوسف زيد الذى

أكرم بحثي المتواضع بالمناقشة أولا ثم بالكلمة المستفيضة وقد ربى أجيالا من الطلاب وغرس في نفوسهم حب اللغة العربية ، وذوّقهم حلاوتها ، وأبان لهم معارفها ، إنه واحد من رواد الأدب العربي الحديث ، جزاه الله خيرا عن لغة القرآن وأدب العرب وعن البحث الذي شرفه بكلمة قيمة .

في نهاية المطاف أتوجه بخالص شكري وعظيم امتناني إلى فضيلة الأستاذ الدكتور سمير عبدالجواد أستاذ النحو والصرف بكلية اللغة العربية (القاهرة) جامعة الأزهر الذي تكرم بمراجعة البحث بعد المناقشة رغم ظروفه الصحية الصعبة ونبه الباحث على الأخطاء الإملائية بدقة الأستاذ الحاذق مما جعل البحث - إلى حد كبير - بريئا من الأخطاء المطبعية ، رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته ، فقد لقي أستاذنا هذا ربه قبل طباعة هذا البحث ، لقد كان صديقا حميما لأستاذي الدكتور رزق مرسي ابو العباس ، ومن هنا كان يكرمني بعطفه وحنانه ، جزاه الله كل خير عني وعن جميع تلاميذه وأحبابه .

ولا حرمنا الله - سبحانه وتعالى - من هؤلاء الأعلام مشاعل النور وأعلام الأدب العربي ، وجعل أفضالهم الجمة على الباحث في ميزان حسناتهم يوم القيامة ، إنه سميع قريب مجيب .

وبعد ذكرى لهؤلاء جميعا ليس علي إلا أن استرحم الله عزوجل وأسترضيه في شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان الذي أمتعني بالنظر في شعره وفكره ، شعره العربي خاصة لأنه محور البحث ، وفكره عامة للتعرف عليه عن قرب ، وإني لأشكره شكرا يليق بالعلماء وأحبه حبا يليق بالشعراء لأنه عرفني بكل هؤلاء ، وماذا أقول أكثر من أنني أتمنى أن أكون قد وفقت ولو بعض الشيء تجاه الواجب العلمي . والله المستعان أولا وآخرا .

٩ ذوالحج ١٤٢٢ هـ

٢٢ فبراير ٢٠٠٢ م

كتبه

ممتاز أحمد سديدي

الباحث في الأزهر المعمور حاليا

في مرحلة العالمية الدكتوراه

كلمات الأساتذه

كلمة أستاذ الأجيال الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى .

كلمة رائد الأدب الإسلامى المقارن الأستاذ الدكتور حسين مجيب المصرى .

كلمة الأستاذ الدكتور القطب يوسف زيد.

كلمة الأستاذ الدكتور رزق مرسى ابو العباس على .

كلمة
أستاذ الأجيال الأستاذ الدكتور/ محمد رجب البيومي

بسم الله الرحمن الرحيم

اشتهرت في العالم العربي أسماء كثيرة لزعماء أفاضل من القارة الهندية ومن بينها اسم العلامة الباحث الفقيه الأديب الإمام احمد رضا خان، ولكن هذا الإشهار ولم يشمل تاريخ حياته، وجليل مواقفه، وزعامته الدينية السياسية في وطنه، لذلك كانت اللغة العربية في حاجة إلى كتاب يتحدث عنه حديثا مفصلا، فهو جدير بأن تذكر سيرته وينتشر صداه.

وقد أراد الباحث الفاضل "ممتاز أحمد سديدي بن محمد عبد الحكيم شرف القادري" أن يعطى القارئ العربي ما ينبئ عن عظمة الشيخ، فقدم رسالة جامعية تتحدث عن الإمام شاعرا أديبا، وإذا كان الأدب العربي محور هذه الرسالة، فإن الباحث الفاضل لم يغفل الحديث في المقدمة عن الأحوال السياسية والاجتماعية والثقافية في عصره، ثم عن جهاده السياسي وآرائه في الأزمات المتلاحقة التي شملت العالم الإسلامي بعامة والعالم الهندي بخاصة في حياته المباركة، كما أفاض في بيان اتجاهه الفكري بما جعل الإمام الكبير ذا صورة واضحة في مرآة اللسان العربي. وهو جهد مشكور مستطاب.

وإذا كانت ظروف العصر قد مرت بأعاصير عاتية إذ نشأت فتن وأحداث حول الاحتلال الإنجليزي الغادر، و سقوط الخلافة الإسلامية في تركيا، والدعوة إلى الهجرة من البلاد، والمطالبة بعدم الولاء إلا للإسلام، فإن هذه الأحداث وجدت من قلم الأستاذ ممتاز أحمد سديدي ما يظهرها تمام الظهور من مبدئها إلى منتهاها

كاشفا عن حوادث مجهولة لم تر النور واضحا إلا بمعاناته الفكرية، وقد كان مؤيدا كل أعمال الشيخ ومواقفه عن الاقتناع، وليس في ذلك ما يؤخذ عليه، لأنه لم يكتب عنه هذه الرسالة إلا عن حب وإخلاص دافعهما الإعجاب الشديد بمواقف الرجل وصلابته القوية وإيمانه الوطيد.

ولم يكتب الباحث بالإفاضة عن حياة الشيخ ومولده وموطنه وأخلاقه وأسرته ورحلته إلى الحرمين الشريفين وشيوخه وقيامه بالتدريب وجلوسه للإفتاء وقيامه بالتصنيف والتأليف ومواهبه الأدبية وجهوده في نشر اللغة العربية بل أضاف إلى ذلك تحليلا بارعا لما نظم الإمام في مديح خير المرسلين صلى الله عليه وسلم ومديح السادة الأخيار من علماء الإسلام مثل الشريف أبي الحسين النورى ومولانا صالح المكى والمولى عبد القادر البدايونى وعبد القادر الجيلانى ومحمد رضا النقشبندى ومحمد نقى على خان القادرى ومعين الدين الأجميرى، كذلك شرح ماجادت به قريحة الإمام في رثاء الصفوة من الراحلين، وكلهم خيار من خيار .

وكذلك لم ينس ما قام به الشيخ من أهاج، خاصة ممن يخالفهم الرأي لانحرافهم عن مذهب أهل السنة والجماعة الخارجين عليها، وقد يكون الهجاء مذموما إن كان دافعه شخصيا ذاتيا،أما إذا كان محاربة لفكرة منحدرة أو اتجاه مغرض فالهجاء حينئذ يحقق رسالة علمية اجتماعية يعتقدها الشيخ ويدعوا إليها ما استطاع.

أما الدراسة التحليلية في الباب الأخير فقد جاءت مستوفاة كاملة حيث شملت أيضا الخصائص الأسلوبية اللغوية ومكانة الشاعر بين شعراء الهند،وهو باب مهم جدا في الدراسة المقارنة. وقد بذل فيه الباحث عناء نلمس أثره في كل سطر من سطوره.

والرجل الكبير في حاجة إلى رسالة مماثلة توضح جهاده الفقهي وأثره التشرعي. وقيامه بواجب الإفتاء والهداية، وهذا ما نرجو أن يقوم به باحث أخر في الكلية، لان تخصص الأستاذ ممتاز قد حجزه في الحديث عن الناحية الأدبية وحدها

وهي لم تكن وحدها مجال تبريز، وإن يكن أشار إلى عناصر طيبة في هذا الاتجاه تصلح أن تكون بذور الرسالة الأخرى في حقل التشريع.

لقد أدى الباحث دوره الأدبي فأطلع أبناء اللغة العربية على تراث لم يكونوا عارفين به من قبل، وبذلك يستحق جزيل الشكر، ووافر الثناء.

١٢/٢/٢٠٠٠م

أ.د. محمد رجب البيومى

عضو مجمع البحوث لإسلامية.

كلمة

فضيلة الأستاذ الدكتور / حسين مجيب المصري

رائد الأدب الإسلامي المقارن.

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله

عندما دعيت لكتابة تقدمة لهذا الكتاب طابت نفسي كما لم تطب من قبل، وأيقنت أن الله أراد خيرا على يدي فحمدته حق الحمد. فهذا البحث دراسة جامعية على المنهج العلمي الأقوم لعلم من أكبر وأشهر أعلام الإسلام في القرن العشرين هو مولانا أحمد رضا خان، ذلك الداعية الإسلامي الذي تأتي له التبحر في علوم الدين والعربية كافة والتضلع من لغات الشعوب الإسلامية خاصة علاوة على ما كان له من نزعة إصلاحية تتناول الدين والدنيا على سواء. لقد كان من أهل الفتيا تصدر للفتيا من حداثة سنه مما يدل على غزارة علمه منذ بدايته الأولى، كما أبدى رأيه في السياسة، وكان عليما ببواطنها، أما الأدب عموما والشعر خصوصا فكان له فيه علو القدر ومستفيض الشهرة، ولكن ينبغي أن نقف هنا وقفة لنحدد كلامنا فيما نبغي الإشارة إليه والتعريف به، فهذا العالم النحرير والأديب والشاعر الكبير كان له قلم في اللغة العربية والفارسية والأردية، كما كانت له عبقرية في نظم الشعر بهذه اللغات، ويعنينا في هذا المقام على الخصوص أن الشيخ أحمد رضا خان كان عالما باللغة العربية علما قلما تيسر لغيره في عصره وبيئته، كما كان ذا شغف بلغة القرآن فكانت لسانه في تأليف أهم كتبه التي أخرجها وما أكثرها.

انه كان محبا للعرب وقد عقد الصلة الوثقي بينه وبين علماء الدين في مكـ
المكرمة والمدينة المنورة وغيرهما من الأمصار العربية، وذهبت به الصيت فـ
افاق العالم العربي شرقيه وغربيه. وحقيقة الحال أنه يلفتنا إلى حقيقة ربما خفيـ
حتى على كثير من أهل العلم ألا وهى أن في شبه القارة الهندية من اقصاها الـ
اقصاها من أهل العلم والأدب من ملكوا ناصية اللغة العربية وبذلك يذكروننا بمـ
يعرفون بأصحاب اللسانين من الفرس، بل نتجاوز ذلك لنقول: إن من أهل الهند من
تميزوا من أصحاب اللسانين وألفوا كتبهم بالعربية وذلك مما جعل اللغة العربية فـ
شبه القارة الهندية لغة دين وأدب في وقت معا.

إن أحمد رضا خان شاعر عظيم في لغات بلاده على الأعـم وفـى اللغـ
العربية على الأخص وهذا ما يعرفه عنه أبناء وطنه الذين أخرجوا ما أخرجوا مـن
دراسات عن أدبه. وكانت الكتب التى أخرجوها بالأردية وهذا ما جعلها محجوبـة
عن فهم العرب. ومن أسف أن في مصـر من لم يعرفوا كثيرا أو قليلا عن أحمد
رضا خان على حين كانت معرفتهم له من أوجب الواجب وهي ضرورة ثقافية، لأن
تراثه الأدبي جزء لا ينبغي أن يتجزأ من التراث الإسلامي على حال من الحـال،
لذلك لم تكن لأحمد رضا خان شهرة في مصـر مثلا وكذا في غيرها مـن البـلاد
العربية. ودار الزمان ولم يجدّ جديد في هذا الأمر حتى قيض الله لعالمين من علماء
مصـر أن يعكفا على دراسة أحمد رضا خان في شعره العربي وكان ذلك بـاكورة
لدراسات سوف تنجز في مقبل الأيام ولكن الفضل للمتقدم. وهذا مافيه الحاجة إلـى
فضل إيضاح وتعريف، فإن ديوان أحمد رضا خان العربي لـم يقـدم أحـد علـي
إخراجه في شبه القارة الهندية بل كان شعره العربي معروفا بالنظر فـي أشـتات
الكتب. وكان هذا الشعر متفرقات لا يجمعها نسق حتى اسـتطاع الأسـتاذ حـازم
المحفوظ أن يجمع هذا الديوان تحت عنوان بساتين الغفران، وبذلك بزغ نور تفجـر
بعد ليل طويل وانكشف كنز آن له أن يرى النور بعد أن طال اختفاؤه في ظلمـات
الثرى.

ومما يبعث على الإعجاب أن الأستاذ ممتاز أحمد السديدى الباكستاني أخلى ذرعه للعكوف على دراسة أحمد رضا خان في ديوانه العربي فكان صنيعه هذا فتح باب للخير ما في ذلك من ريب، لقد تقدم إلى جامعة الأزهر الشريف بهذا البحث الذي بذل فيه الوسع وطرقه في جميع أبوابه وجمعه من جميع أطرافه وعالج من خلال ذلك مطلبا صعبا إلا أن الله يسر له العسير فأخرجه بحثا أجازته جامعة الأزهر بدرجة الامتياز، إن الأستاذ ممتاز أحمد السديدى أحسن صنعا وأظهر خفاء وعلم القارئ العربي ما لم يك يعلم، وما كان للقارئ العربي أن يتعرف لهذا الشاعر العربي الهندى لولا أن وفق الله الأستاذ ممتاز أحمد السديدى إلى إخراج هذه الدراسة، إن هذه الدراسة في واقع الحال تعد نقطة تحول في العلم لأنها أظهرت للعربي على العموم وأهل مصر على الخصوص على حقيقة ما كان ينبغي أن تغيب عن علمهم، فألا يعرف العرب أحمد رضا خان صاحب ديوان بساتين الغفران يبعثنا على القول في صراحة: إنه يعد معرفة منقوصة التراث الإسلامية العربي، فمن المتعارف المعلوم أن وحدة التراث هي الوحدة الإسلامية بكل ما تنطوى عليه الكلمة من معني ، إن لهذا الديوان خصيصة أخرى لا ينبغي أن تعزب عن البال أن أحمد رضا خان يعد بحق أعظم مداح للنبي صلى الله عليه وسلم، وفى هذا الديوان من المدائح النبوية ومدائح الأولياء الصالحين ما لا نقع على مثله في ديوان آخر مما يجعل لهذا الكتاب مكانه ومكانته في المكتبة العربية الإسلامية، إن هذا الشاعر جمع الشعوب الإسلامية على اختلاف لغاتها وأجناسها على حقيقة لها مرموق من أهميتها ألا وهي التعرف لشاعر هندى صاحب ديوان عظيم بالعربية.

إن الأستاذ ممتاز أحمد السديدى لاشك أنه أضاف إلى العلم جديدا ومزيدا، فهو مشكور بحسنى صنيعه، والله أدعو أن يلهمه السداد والرشاد، وأن يتابع سلوكه في ذلك الطريق الذى شقه ومهده، والمأمول أن يسير غيره فى نور نبراسه وينظر إليه على أنه أسوة في هذه الدراسة التى اختارها لنفسه، فبهذا يعم الخير ويتيسر كل النفع.

إن هذا أهم مايسترعي الانتباه مما يتضمنه هذا الديوان نعني مدائح الرسول صلى الله عليه وسلم. ولكن من تتمة القول أن نشير إلى أن الشاعر تقلب شعره في جميع فنون القريض أى أنه لم يقتصر على المديح النبوي الشريف وهذا زيادة في الخير ما في ذلك من شك مما يجعل لهذا الشاعر رفيع المنزلة بين شعراء العربية، وأنه كان غير عربي ولكنه مسلم ، وما من فرق بين مسلم ومسلم، فهذه ظاهرة توضح لنا هذه الحقيقة وهذا الديوان يمكن أن يعد صلة موصولة بين أهل الأدب من المسلمين أجمعين.

ومما يلحظ على هذا الشاعر أنه يستخدم ألفاظا غريبة لم يجر عادة الشعراء المحدثين باستخدامها لغرابتها لا شيء سوى أنها غير مأنوسة، أما السبب في ذلك فهو تضلعه من اللغة العربية وعلمه بالكثير والكثير من ألفاظها، فهذه الألفاظ تنسال على خاطره وهو ينظم شعره دون أن يلتفت إلى أنها قد تقع موقع الغرابة من المتلقي، إنه في ذلك يشبه شعراء العرب القدامي من جاهليين وأمويين وعباسيين ولكن مع فارق فهؤلاء الشعراء القدامي كانوا يصدرون عن محصولهم من اللغة منطلقين على سجيتهم، فهم لا يلتفتون إلى أن هذه الألفاظ غريبة لأنها في عصرهم وبيئتهم لم تكن غريبة عن القوم، ولكنها غريبة مهجورة في العصر الحديث، هذا هو التحليل الواضح لصنيع الشيخ أحمد رضا خان وهو استخدام بعض الألفاظ تمس الحاجة فيها إلى الرجوع إلى معاجم اللغة لأن العادة لم تجر باستخدامها، ففي العصر الحديث يشترط أن تكون الألفاظ مأنوسة معروفة غير مهجورة.

فمن الخطأ مثلا أن نقول: إن امرء القيس مثلا كان يستخدم ألفاظا مهجورة بل بالنقيض والصحيح أن ما هو مهجور في زماننا كان مألوفا في عصره مثال ذلك قوله:

"في الخد إن شاء الخليط رحيلا　　دمع تزيد به الخدود ذبولا"

فإذا أورد شاعر معاصر كلمة الخليط على أنه حبيب كان ذلك خروجا على المألوف ولا يسوغ في الذوق.

أما المعاني فهي رقيقة جيدة لا عيب فيها، إنه ليس شاعر عاطفة، إنه تقي نقي لا يعبر عن عاطفة المحبة ولكنه يستطيع أن يعبر كما يعبر شعراء الغزل لأن شاعريته متعددة الجوانب يستطيع أن يقول في كل فن ويجيد وغزله دليل على ذلك، إنه يتكلف عاطفة المحبة والهيام ويتغزل رياضة أي اقتداء بشعراء الغزل، إنه في شعره هذا يعبر عن شعر غير صوفي، ذلك أن شعراء التصوف يجمعون في غزلياتهم بين الخمر والحسناء والغناء وهم يرمزون بهذا إلى مبادئ وأصول التصوف، فهم مثلا لا يقصدون بذلك الخمر على الحقيقة وإنما هي رمز للمعرفة الصوفية أو العلم اللدني، إنهم ما تغزلوا في شيء من محاسن المرأة ما تعزلوا ولكنه رمز للكثرة التي تدل على الوحدة أي هذا الكون بما فيه من مخلوقات كثيرة لا تقع تحت حصر إنما هو دليل على أن خالقه وصانعه واحد هو الله، وكل جارحة من جوارح المرأة عندهم رمز إلى شيء من أصول مذهبهم فللكلام في الغزل ظاهر غير مقصود، وباطنهم لا يحيط بشيء من علمه إلا الراسخون في العلم وهم يضنون بمعرفته على غير أهله وكلامهم رمز من ألفه إلى يائه، والكلام يحتمل معنيين في وقت معا، ولكن أحمد رضا خان لا يذكر الخمر ولا الغناء وهما عنصران أساسيان من عناصر الغزل الصوفي، وبذلك يختلف عن الصوفية.

ولا يفوتنا في هذا المقام أن نشير إلى الأستاذ الدكتور رزق مرسي أبو العباس أستاذ الأدب والنقد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية من جامعة الأزهر فقد تولى الإشراف على هذا البحث وأحاطه بكل عناية ورعاية وبذل مجهودا في التوجيه الرشيد مما ترتب عليه أنه كان ذا فضل لا سبيل إلى نسيانه أو تناسيه وبذلك شارك في الخير أحسن الله له المثوبة.

كلمة

الأستاذ الدكتور القطب يوسف زيد

فى حياة الأمة الإسلامية نجوم ساطعة . . شاء الله وأراد أن تكون مصابيح هداية على طريق الحياة . . لاينطفئ لها بريق ولا يضل فى ضوئها خطو إنسان . . دفعته همته إلى متابعة هداها . . وتتبع مداراتها فى مطالع الأيام والسنين وهى ترسل إشعاعات الحق وضاءة على دروب المؤمنين . فترة عنفوان الباطل . . وأن تمادى فى صلفه وغروره وخطف الأبصار ، لأن أصحاب البصائر النيرة يستمدون وهج الحياة من فيض نور الله .

ولاشك أن الإمام الشيخ أحمد رضا خان واحد من أصحاب البصائر الذين فجروا فى الحياة الإسلامية الحديثة طاقات الخير والهدى بما قدم ـ مخلصا ـ من عطاء تجلى فى كثير من ألوان العلم والأدب والفكر . . وبما دار على دروب الحياة فى مجال الإصلاح السياسى والثقافى والدينى والأدبى فى زمن كادت فيه قيم الخير والحق أن تذوب فى مواجهة شراسة الاحتلال الوافد من الخارج بهدف الهيمنة والتطوى ، وكذلك فى مواجهة الضعف والتشرزم والانقسام وغير ذلك مما كان كائنا تحت مظلة الاستعمار وتموج به أرجاء الحياة فى داخل شبه القارة الهندية فكان الشيخ أحمد رضا خان مصباحا مضيئا للحياة ، وشعلة هادية لكل من يريد أن يستمد القوة من ذاته ودينه ليقيم أمجاد الإسلام .

وشيخنا الإمام ـ كمايؤكد تاريخه ـ لم يصدر فيما صدر عنه من فراغ وإنما أهله لإداء دوره فى الحياة الإسلامية أصالة منبت وعراة نسب . . إذ أن المتتبع لسلسلة آبائه وأجداده يرى أنهم جميعا من أصحاب الوجاهة والقوامة فى المجتمع الهندى . . قد أسندت إلى معظمهم الوظائف

العامة التى تتمثل فيها معالم القيادة والولاية .. فضلا عن اتسامهم جميعا بالإصلاح والتقوى والانصياع إلى فضائل الدين والخلق القويم .. وإيثارهم العمل من أجل رفعة الإسلام وإبلاغ أمره بالحسنى بين الناس أجمعين على كل متاع فى الحياة .. مدفوعين إلى ذلك بميل فطرى فى تكوينهم .. وجههم إلى النشاط الدينى دعما للحياة الروحية .. ونهوضها بمهمة الحفاظ على الشخصية الإسلامية ـ

ومن هنا كانت الكتابة عن الشيخ الإمام ضرورة تفرضها تلك المجابهة الشرسة لكل ما هو إسلامى من كتائب أنصار التغريب الذين يزكمون أنوفنا بما يعلنونه على الناس صباحا ومساء فى أجهزة الإعلام من ضرورة التعلق بالغرب وثقافته الإلحادية على وجه الخصوص أملا فى التقدم والارتقاء .. مؤكدين أن ذلك لن يحدث إلا إذا أدرنا ظهورنا لثقافة الإسلام ورموزه فى القديم والحديث على السواء..

فجاءت الكتابة عن الشيخ الإمام فى أخريات القرن العشرين إعلانا عن التواجد الإسلامى الواعى وعن قدرة مايمثله من حضارة ووعى على مجابهة جحافل التغريب .. وإسقاط نشاطهم ـ

ومن دوافع السعادة أن تكون هذه الكتابة فى رسالة علمية أكاديمية .. وفى جامعة الأزهر .. تلك الجامعة التى تحمل عبء الدفاع عن الإسلام ولغته ماضية على طريق الحق لا يعوقها أبدا خداع المارقين من أعداء الدين .. ولايعطل مسيرتها العملاقة ضباب الإلحاد ولواحقه الفكرية .. لأنها تنطلق من إيمان مطلق بأن الحق قوة ، والإسلام نور ، والله متم نوره ولو كره الكافرون ـ

أما الرسالة فموضوعها: (الشيخ أحمد رضا خان البريلوى الهندى شاعرا عربيا) وأما الباحث فهو : ممتاز أحمد سديدى بن محمد عبدالحكيم شرف القادرى ذلك الدارس الذى جمع بين العلم والأخلاق .. إذ هو باحث يملك أدوات البحث العلمى بما توافر لديه من ثقافة ووعى ، وهو إنسان متواضع ، فى شخصه لين المؤمن ، وسماحته، وورعه ورحمته ـ وقد هيأ الله له أستاذا جليلا عالى القدر فى العلم والأدب والحياة .. فأشرف عليه ووجهه أرشده ..وأخذ بيده إلى أن

من الله تعالى عليه بإتمام البحث .. ألا وهو الأستاذ الدكتور رزق مرسى أبو العباس .. الأستاذ بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بجامعة الأزهر، حرسها الله .

وقد أقام الباحث موضوعه على مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة . فى المقدمة أبان عن منهجه فى بحثه، كما أبان عن شخصية شاعره ومقامه الكريم، وما اتسمت به تلك الشخصية من علم غزير وأخلاق سامية .. كما كشف جهوده الكثيرة فى التصنيف والتاليف، ودوره فى الإصلاح السياسى والاجتماعى .. فضلا عن أدبه بصفة عامة، وشعره العربى على وجه الخصوص .. وأنه كتب الشعر بأسلوب عربى عذب لا مثيل له عند أدباء العربية من شعراء العجم .. حتى إنه ليعد بحق فى طليعة أدباء العربية الذين ساهموا بدور ريادى من أجل نشر العربية وأدبها فى بلده .

ومن هنا كانت رغبة الباحث فى تعريف العالم العربى به .. وبدوره الريادى على الساحة السياسية، والثقافية، والدينية، والأدبية .

أما الباب الأول : فقد جعل عنوانه (أثر البيئة فى الشاعر الشيخ أحمد رضا خان) واستطاع من خلال الفصول الأربعة كشف البيئة العامة والخاصة التى كان لها أثر كبير فى الشاعر وشعره .

ففى الفصل الأول من هذا الباب (الوضع الثقافى والاجتماعى والسياسى لشبه القارة الهندية فى عصره) كشف عن الأوضاع المتردية التى عاصرها الشاعر من خلال ثلاثة مباحث . فى الأول منها أبان الوضع الثقافى المتهالك مبينا أسباب هذا التهالك .. وأن السبب الرئيسى يكمن فى وقوع البلاد فى قبضة الاستعمار الإنجليزى الذى كان من سياسته فى كل البلاد التى أرهقها باستعماره لها : محاولة طمث معالمها .. إفساحا لما يمليه عليها من ثقافته وفكره ونظمه التعليمية .. ليعزز وجوده الاستعمارى بتياره الفكرى تمكينا لنفسه .

وفى المبحث الثانى الذى خصصه للكشف عن الواقع الاجتماعى فى عصر الشاعر أبان ملامح التدهور الاجتماعى والاقتصادى الذى عاشه المجتمع الهندى .. نتيجة لهيمنة المستعمرين على البلاد ومقدراتها .. وإفسادهم فى الأرض بقتل النفوس، وسلب النفيس، وتدمير القيم الأصيلة

فحل الفقر، وحل الفساد، وعومل المسلمون معاملة خاصة تهدف إلى كسر شوكتهم وإضعاف قوتهم .. ولكنهم على الرغم من ذلك كله .. لم تتوقف حركتهم فى مقاومة تيار الاستعمار . بنشر الوعى الإسلامى، وإحياء المفاهيم الدينية .. وقد كان الشاعر واحدا من الرواد فى هذا المجال .

أما المبحث الثالث فقد تناول (الوضع السياسى) وفيه ألقى الباحث الضوء على الحركات السياسية التى تواجدت على الساحة الهندية مثل (حركة الخلافة) و(حركة عدم التعاون مع الإنجليز) و(حركة الهجرة) .. وإتماما للفائدة رأى أن يلقى بعض الضوء على (حركة استقلال باكستان) باعتبار أن الشاعر الإمام وضع حجر الأساس للنظرية التى عرفت فيما بعد بتمايز الأمتين .. حيث كان يرى أن المسلمين أمة، والكفار أمة أخرى أيا كان ولاؤهم وانتماؤهم .. وأنه لا موالاة للكفار لأن غير المسلمين لن يمكنوا المسلمين من الحكم .. فلا يصح أن نتخذهم بطانة .

ومن هنا أبان الباحث مواجهة الشاعر الشيخ أحمد رضا خان لكل من تابع المستعمرين أو والاهم .. أو حاول عن طريق تياره الفكرى المنحرف فتح دروب الشقاق والخلاف بين المسلمين .. ولذلك واجه الشيخ الدهريين بشدة، وجابه القاديانيين بعنف .. فضلا عن مواجهته للزعماء المسلمين الموالين للهنادكة .. وكان ـ رضى الله عنه ـ قد بذل جهدا مشكورا فى إعداد الكوادر العلمية، والشخصيات الإيمانية التى قامت على أكتافها حركة استقلال باكستان .

وفى الفصل الثانى من الدراسة (موطنه ومولده ووفاته) تناول الباحث بالبيان اسم الشاعر ومولده، وأحوال جدوده ونشأته المتميزة فى بيئته وبيته .. والموطن الذى عاش فيه، كاشفا جانبا كبيرا من سماته الأخلاقية، وحياته الأسرية .. على اعتبار أن إيضاح ذلك كله يعطى الباحثين مفاتيح التعرف على فكره وشعره، ويمنحهم القدرة على تفسير الظواهر الأدبية بما يدعمها من الواقع المعاش، والبيئة الفاعلة فيها .

أما الفصل الثالث فقد خصصه الباحث لثقافة الشاعر ومؤلفاته . وفيه تناول بالعرض والبيان تعليمه، وشيوخه، وصلته بأعلام عصره، وعمله بالتدريس، واشتغاله بالإفتاء .. كاشفا موهبته

الأدبية ، وقدراته العلمية . . التى أعلنت عن نفسها فى كثير من التآليف والتصانيف . . والتى حاول من خلالها نشر الوعى الإسلامى ، ومقاومة البدع والمنكرات السائدة فى شبه القارة . . متخذا من إصلاح المجتمع دينا وفكرا وسياسة محورا لقلمه ومنطلقا لتوجهاته . وكانت سمة الموسوعية فى عطاء الشيخ علامة بارزة فيما أخذ نفسه به من علوم وفنون . . فقد نظم وكتب بالفارسية والأردية والعربية ، وألف فى علوم الدين والفلسفة والرياضة ، والفلك ، والأدب .

وكان مما أكده الباحث وأبرزه متصلا باللغة العربية وأثرها فى نتاجه الأدبى . . أن منظوماته باللغتين الفارسية والأردية لم تخل من تأثر بالعربية . . مما يدل على شغفة بها وهو ينظم فى لغة غيرها .

وفى الفصل الرابع (حال اللغة العربية والأدب العربى بشبه القارة الهندية تحت الاحتلال الإنجليزى) كشف الباحث عن ذلك الحال من خلال مبحثين مهد لهما بعرض وجيز عن دخول الإسلام شبه القارة . . وأنه كان منذ وقت مبكر عن طريق التجار العرب ، حيث أشرق نور الإسلام فى سماء الهند بفضلهم .

أما المبحث الأول فقد أفرده للحديث عن (جهود المسلمين لنشر اللغة العربية) وفيه أبان وضع اللغة العربية تحت الاحتلال ، وأنها كانت محل اهتمام المسلمين ، إذ هى لغة القرآن الكريم . . دستور الدين ومنهج الهداية . فقد (خلفت اللغة العربية بيئتها فترعرعت فى جو دينى يستهدف فهم الدين قرآنا وسنة . . وكان للمدارس الدينية والكتاتيب دور بارز فى هذا المجال كما كانت سببا فى بقاء اللغة العربية وانتشارها فى الهند) وأبرز الباحث كيف استمرت رغم العراقيل التى وضعها الاستعمار . . وأن ذلك كان بجهود العلماء المخلصين الغيورين على لغة القرآن والدين . . إضافة إلى المدارس الدينية .

وأما المبحث الثانى (دور الإنجليز فى نشر اللغة العربية) فقد تناول الباحث فيه بالعرض اهتمام الإنجليز باللغة الغربية وعملهم على نشرها . . وأن ذلك لم يكن منهم تعبيرا عن حب لها . .

وإنمـا (تـلبية لـمـصـالـحهـم) وتمكينا لنشر أفكارهم بهدف تدعيم الاحتلال بوجود ثقافي يؤصل لأفـكـارهـم ، ويـنـشـر عادتهم وتقاليدهم ، ومن هذا المنطلق (قاموا بإنشاء المدارس والكليات لنشر الـلـغـات والـعلوم الثقافية وكانت العربية من بينها) مثل كليات (فورت ويليام) (ودلهى) (ولاهور الحكومية) (وجامعة بنجاب) وإلى جانب ذلك أشار الباحث إلى عدد من المستشرقين الذين كانت لهُـم إسهـامـاتهـم فـى هذا المجال . . وكان الإنجليز قد جاؤا بهم لنشر النصرانية ، ودراسة أوضاع المسلمين للإفادة منها فى التمكين للاحتلال .

وبـعـد ذلك عرض الباحث للباب الثاني من الدراسة وهو الأغراض الشعرية فى ديوان الشيخ أحـمد رضا خان وفيه تناول إبداعات الشيخ الشعرية من خلال أربعة فصول ، كان الأول منها عن فن (الـمـديـح) . . وفيـه تـحدث عن منزلة هذا الغرض فى الشعر العربى ، وذكر شيئا عن نشأته وتوجه الشـعـراء فيـه . . وأن الشـاعر الشيخ لم يمدح رغبا ولا رهبا واحدا من ذوى السلطان والوجاهة . . فـقـد تـخـلـى عـن مـدح أهـل الـدنيا بـمنطق الرغبة فى العطاء وإنما وجه المدح إلى من اتسموا فى مسالكهم ومناهج حياتهم بالصلاح ، والتقوى ، والتمسك بالشريعة الإسلامية والمبادئ العظمى التى جـاء بهـا الـنبـى ﷺ ومـن هـنا لانعجب مع الباحث إذا وجدنا شيخنا الإمام يوجه وجهه شطر النبى الـكـريـم ﷺ متتبـعا أثر حسان وكعب وغيرهما من شعراء الرسول عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام . . كـمـا لا نـعـجـب إذا وجـدنـا من هذا المنطلق يتوجه أيضا إلى العلماء والأولياء على اعتبار أنهم نجوم هداية ، وأعلام يقين .

وفى المبحث الأول من هذا الفصل أبان الباحث (جهود الشاعر فى المديح النبوى الشريف وأنـه فـى معظم ماصدر عنه يوجه موهبته الشعرية فى مدح من هو أحق بالمدح على وجه البسيطة وأن شـعـره فـى هـذا المجال يتسم بالصدق العاطفي والصفاء القلبى ، ويعلن عن الحب الصميم . . لسيد المرسلين.

أمـاالـمـبـحـث الثـانـى فـقـد تـنـاول فيه بالدراسة والتحليل (جهود الشاعر فى مدح الأولياء الصالحين ، وعلماء الدين . . من خلال عشرة مطالب قدم لها بتمهيد . . وقد تمثلت تلك المطالب

فـي مـدحـه لـلـعـد د من الأعلام ذكر منهم الشريف أبو الحسين أحمد النورى وإسماعيل بن خليل وأخـوه وأبـوه ، و صـالـح كمال المكى ، وعبد القادر البدايونى ،وعبدالقادر الجيلانى، و عبدالمجيد البـدايونى ،و فضل الرسول البدايوني، و محمد رضا على خان، ومحمد نقى على خان، والشيخ معين الـديـن الـجشتـى، مـحـلـلا فـى كـل ما عرض نماذجه الشعرية ، ومبينا توجهها الفنى والموضوعى ، وعناصر الأداء الشعرى المتميز عند الشاعر .

وفى الفصل الثانى من هذا الباب تناول بالدراسة والتحليل في الرثاء باعتباره الفن الثاني بعد المديح فى ديوان الشاعر . . وقد عالج ذلك فنيا وعلميا من خلال مبحثين . . قدم لهما بتعريف هذا الغرض . . وأبان منطلقه الفني۔

وفى المبحث اللأول تحدث عن قصائد الشاعر فى رثاء وتاريخ أعوام رحيل كل من : مولانا مـحـمـد إسماعيل القادرى ، مولانا محمد عبد الغنى ، ومولانا محمد عبيد الله ، ومولانا محمد عمر الـحـنبـلـى الـحيـد ر آبـادى حيث عرض بالتحليل لأشعار الشاعر فيهم وفى مناقبهم معبرا عن فداحة مـصـابـه فيهـم . . وذاكرا ما يرجوه لهم عند الله تعالى من رحمة وعطاء . . وفاء لحقهم وذالك فى عبـارات رصينة تـدل عـلـى تـمـكـنـه من ناصية اللغة والبيان . . كما تدل على اعترافه بفضلهم على المسلمين فى شبه القارة .

أما المبحث الثانى فقد جعل عنوانه (مقطوعات شاعرنا ورباعيتاه وبيتاه فى الرثاء والتاريخ) مـقـدمـا مـن خلاله أشعار الشيخ أحمد رضا خان فى رثاء وتاريخ أعوام رحيل عدد من الأعلام إضافة إلـى ماسبق . . ولم يشأ الباحث أن يضعهم فى إطار المبحث الأول . . لأن الأشعار التى تناولهم لم تـأت فـى قـصـائد مستقلة . وإنما جاء ت ضمن مقطوعات أو فى صورة أبيات متناثرة ليس لها صفة الاستـقـلال . . وقد بذل الباحث جهدا كبيرا فى تتبع هذه الظاهرة حتى لا يتجاوزه بيت قيل فى هذا الغرض دون عرض وتحليل .

ثـم كـان الفصل الثالث عن (الهجاء) وفيه عالج نتائج شاعره فى هذا الفن من خلال عرض تـمهيـد ى أتبـعـه بـخـمـس وقـفـات استـوعبـت كـل مـاقاله فى الهجاء . أما التمهيد فقد عرف فيه

بهـذاالغرض وأبان قيمته فى عالم الفن . . وأما الوقفات فقد جعل الأولى فى هجاء مولانا عبدالبارى الفرنجى محلى . وكانت الثانية فى هجاء القائلين بإمكان كذب الله ـ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ـ وأمـا الثـالثة فـكـانت فى هجاء أشخاص لم يذكر أسماء هم . وفى الرابعة تناول هجاء الشاعر للفرق المخالفة . وكانت الوقفة الخامسة فى هجاء الخارجين على إجماع أهل السنة والجماعة .

أمـا الـفصل الرابع فقد تناول فيه شعر الشاعر فى غير المدح والرثاء والهجاء وذلك من خلال ثلاثة مباحث جعلّ الأول منها للمناجاة ، والثانى للغزل ، والثالث للمشاعر الدينية الفياضة وبعض السيرة

وفـى تـنـاولـه للمناجاة عند الشاعر بين تمسكه بأساليب من سبقوه من الصوفية ، حيث سار عـلـى نهـجهم فى التسبيح والحمد مأخوذا بشوقه ووجده ، محبذا التوسل والاستغاثة برسول الله فى مواجهة مظالم الحياة . مستغفرا ربه ومستعيذا به . . إلى غير ذلك مما حفلت به أشعار الصوفية . . مبيناأن أشعاره فى هذا المجال لم تأت فى صورة قصائد متفردة وإنما جاء ت متناثرة على امتداد الديوان .

أمـا مبـحـث (الـغـزل) فـقـد كشف فـى مـقـدمة الحديث عنه عند الشاعر مكانة هذا الفن الـمـرموقة فى الشعر العربى ، وتعدد ألوانه ، وأن العرب شغفوا به . . وأثاب حكامهم عليه ، ورأوا فيه تهـذيـبا لـلـوجدان ، وأن الدين لم ير فيه بأسا مادام على طريق العفة . . وأنه على هذا الشرط نظم فيه كثيـر مـن الـعلماء والفقهاء . . ثم انطلق من ذلك إلى عرض موقف الشاعر من هذاالفن . . وأنه نظم فيه (لإثبات تمكنه من مختلف ألوان الشعر العربى . . ومجاراة شعراء العربية . وقد تمثل مانظمه فيه فـى عـدد من الأبيات جاء ت فى مقدمة قصيدة تعددت أغراضها ولـم يكن الغزل هو الغرض الحقيقى وإنـمـا ورد فـى مـطلعها . وأن الشاعر كان (منتهجا منهج الصوفية فى تعبيره عما يجيش فى نفسه) وقـد حـاول البـاحـث نفى القصد إلى الغزل فى توجه الشاعر . . على اعتبار أن الشاعر نفسه لم يرض عـنـه . . لتنافى صدوره عنه مع ما أخذ نفسه به ورع وجهاد فى سبيل الدين . . ومن أجل ذلك جاء تمهيدا للمدح . . وتقليدا لمن سبقه من الشعراء . . فى الصدور عن المطلع الغزلى ـ

أمـا المبحث الثالث فقد خصصه الباحث لتناول ما ورد من بعض الأبيات المتناثرة فى ديوان الشاعر . . تعبيرا عن مشاعره الدينية الفياضة ووجده الصوفى الخالص .

وفي الباب الثالث الذى جعل عنوانه (دراسة تحليلية لديوان الشيخ أحمد رضا خان) ففيه عالج عناصر الأداء الفنى وملامحه من خلال عدة فصول .. جعل الأول منها لبيان الخصائص الأسلوبية . ثم جعل مبحثا ثالثا تناول فيه بالعرض والتحليل (بيت القصيدعند الشاعر) . وقد ذكر السهولة من خصائص لغته . وأنها جاء ت في جانب كبير من ديوانه .. وأن هذه السهولة جاء ت سمة بارزة في مراثيه .. حيث استخدم اللغة العربية التي تجرى على ألسنة الأدباء في عصرنا الحديث . (فقد اختار الكلمات السهلة ، والجمل القصيرة المتسمة بالفصاحة) وفي جانب آخر من شعره وجد الشاعر يميل إلى استخدام لغة العصر الجاهلي ، وأساليب شعرائه وموضوعاتهم . وضرب على ذلك مثلا بقصيدة (رن الحمام على شجون البان) وبين أن ذلك صدر عن الشاعر إعلانا عن مقدرته اللغوية .. وإلمامه بمعاجم اللغة .

أما الخصائص الأسلوبية فقد أفاض الدارس في ذكرها .. حيث أبرز اهتمام الشاعر بالاقتباس من القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف وأقوال الأئمة . كما تحدث عن التضمين ، والتشطير ، والتخميس ، والطباق ، والجناس ، ومراعاة النظير ، والمراجعة، والتوكيد ، وبراعة الاستهلال ، ورد العجز على الصدر ، والمجاز واستخدام القوافي المقيدة ، والتاريخ بالشعر ، والجرى على طريقة أبي العلاء المعرى في التزامه بما لايلزم ، إلى غير ذلك مما عرضه الباحث ، وكان جيدا في عرضه وتحليله

وأما المبحث الثالث من هذالفصل فقد خصصه الباحث للحديث عن (بيت القصيد عند الشاعر) . وفيه تجلت براعته فيما توجهت إليه نفسه ، وفيما انجذبت إليه مسامعه من أبيات مغردة توقف عندها معجبا بها .. وهو في هذا المبحث لا يعتمد على المقاييس النقدية التي يحتكم النقاد إليها في الحكم على الأدب وظواهره .. وإنما يجعل من نفسه حكما من خلال ذوقه الشخصي ، مع تحليل البيت وبيان مظاهر الجمال فيه . وقد اثبت بما اختار رقيا في حسه ، ونبلا في مشاعره وأن نفسه جبلت على ذوق جمالي رفيع . (إذ ماكانت النصوص الأدبية في نظره إلا أزهارا لطيفة الذوق رائعة التركيب يحسن ممن يعرض لها أن يتنسم عبيرها ، ولا يضغط عليها .. لأن شأن الأزهار أن

تمس ولا تفرك) .

أمـا الـفصل الثاني والأخير فقد جعل عنوانه (شاعرنا بين شعراء العربية فى الهند) وفيه تناول بـعـض الشـعـراء الهنود مترجما له وذاكرا لبعض نصوصهم . . ثم ختم ذلك بعرض أراء العلماء ونقاد الأدب الـعـربـى فـى الشاعر وفى شعره وشاعريته . . منتهيا من ذلك إلى أن الشاعر الشيخ أحمد رضا خان . . كان علما من أعلام اللغة العربية وأدبائها فى شبه القارة الهندية . . بما قدم من عطاء شعرى تـمثـلـت فيه ملامح الفن . . وتجلت فيه روعة الأداء . وقد كان الباحث موفقا فى كل ما عالج وبين مالكا لأدوات بحثه عن قدرة وبراعة . . يستحق عليها التقدير .

وبعد فإذا كان من حق أهل الفضل أن نعترف بما قدموه ، وأن نعلن على الدنيا عطاء هم . . فـلايـفـوتـنـى فـى هذاالمجال أن أذكر القارئ الكريم بالسيد الأستاذ المفضال حازم محمد محفوظ الـذى يسـر طريق البحث أمام الباحثين بجمعه وترتيبه وإخراجه لأشعار الشيخ الإمام على نسق فريد ، فى ديوان أسماه (بساتين الغفران) . وقد كانت بصماته واضحة على البحث والباحث . . إذ كثيرا مـا استـرشد بآرائه وتعليقاته فى معالجة قضايا الدراسة ومنعطفاتها الفكرية . ومما تجدر الإشارة إليه ويجب التأكيد عليه فى النهاية ، إن الاحتشاد للاحتفال بالذكرى الثمانين لرحيل الإمام العظيم يجب أن يـوجه الأذهان إلى ضرورة تكثيف البحث عن جوانب الفكر ومجالاته التى ازدحم بها تراثه الخالد . . أمـلا فـى مـزيد من الكشف والتعريف . . بالقدر الذى يتناسب ويتلاء م مع ريادته لنجوم الهدى فى أمته الإسلامية التى آن لها أن تنهض فى الزمن المعاصر لتحقق بعون الله . قوامتها على الحياة .

والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون .

الأستاذ الدكتور/ القطب يوسف زيد

الشهير باسم الأستاذ الدكتور/ صفوت زيد

رئيس قسم الأدب والنقد بكلية اللغة العربية من جامعة الأزهر

فرع إيتاى البارود.

جماد الأول ١٤٢٠ هـ - اغسطس ١٩٩٩ م

كلمة

الأستاذ الدكتور رزق مرسي أبو العباس علي

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علي المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد النبي الأمين وعلي آله وأصحابه أجمعين.وبعد فهذه مناسبة طيبة وجاسة كريمة. ذلك لأنها في سبيل العلم وللعلم الخالص لوجه الله تبارك اسمه نجتمع اليوم لننظر في بحث مقدم إلي قسم اللغة العربية وآدابها كلية الدراسات الإسلامية والعربية جامعة الأزهر، إنه بحث أدبي بذل فيه طالبه وباجثه جهدا لا بأس به جهد يذكر فيشكر صاحبه تتبع شخصية عظيمة قد يكون الكثيرون لم يقرؤا عنها ولكن تتبعها من وجهتها العربية مما كتبه باللغة العربية وهو ليس بعربي إلا أنك حين تقرأ لهذا الشاعر تفاجئ بأنه شاعر عربي له قيمته، ولو لم تعرف أنه غير عربي لأيقنت أنه عربي، نجتمع اليوم لننظر في بحث موضوعه "الشيخ أحمد رضا خان البريلوي الهندي شاعرا عربيا" ننظر في ديوانه الذي يبلغ اثنين وتسعين وسبعمائة بيت، بيتا من الشعر العربي الرائع، تعددت أغراضه، وتنوعت مقاصده وسلك إلي كل غرض طريقه من الأغراض التي رأى أن يتحدث فيها دون أن يلم بأغراض أخرى ، ذلك لأن عقل الشاعر وقلبه اشتركا معا في صياغة هذا الشعر، ونحن إذ نذكر للشاعر بيتا يقال له بيت القصيد إننا نجد عند شاعرنا أحمد رضا خان أكثر من بيت في قصيدة واحدة، وربما كانت مقطوعة قليلة الأبيات، إلا أنك تعجب بأكثر من موطن من مواطنها، ومهما قلنا فلن نستطيع أن نوفى شاعرنا حق الوفاء كما

وفاه الباحث، في نظرى أن الشاعر عظيم يستحق هذا التقدير، رجل من الهند اهتم بلغه القرآن وأدب العرب اهتماما رائعا، رجل تفوق في أكثر من فن وعلم حتى بلغت تلكم الفنون والعلوم التي نبغ فيها خمسة وخمسين فنا وعلما،رجل ولد في السنة السابعة والخمسين بعد الثمانمائة والألف للميلاد، واستمرت حياته إلي أن بلغ الثامنة والسبعين من عمره، ثم فارق الدنيا في العام الحادى والعشرين من هذا القرن، إذن فقد أمضى مدة طويلة في دراسة اللغة العربية وآدابها وأحبها ووهبه الله موهبة استغلها في الشعر تارة وفي التأليف أخرى، ألف بأكثر من لغة وكتب شعرا بالعربية والفارسية والأردية، ولكن شعره العربي أكثر غزارة كما قال عنه أولئك الذين قرؤا عنه بمختلف اللغات، إذن فشاعرنا احتفى باللغة العربية أيما احتفاء،كان علينا أن نهتم به كما اهتم بلغتنا، وبالتالي عرض الأستاذ حازم لديوانه العربي فجمعه وحققه وبذل فيه جهدا نشكره عليه ،مع أن شعره كان متناثرا بين طيات الكتب والصحف إلا أنه جعل من هذا الديوان شيئا يزيد المكتبة العربية غني على غناها، ما أحسن أن نعرض أولئك الذين لم نعرف عنهم شيئا اللهم إلا قليلا.

عاش شاعرنا في عصر مليء بالحوادث السياسية وذلك لأن الإنجليز كانوا قد وضعوا أقدامهم علي أرض الهند قبل أن يخرج شاعرنا إلي الدنيا بعام واحد، وتوطدت أركانهم في شبه الجزيرة الهندية وأخذوا السلطة من أولئك الذين كانوا يحكمون، وكان الله تعالي قد من علي المسلمين بحظ وافر في بلاد الهند، إلا أن الإنجليز جاؤا فنازعهم هذا وبدأت هذه المشاكل التي انتهت بتحرير هذه الجزيرة وتقسيمها علي نسق الدين، والدين هو الحكم في ذلك، وكان شاعرنا أيضا ممن راي هذا مما سمي بنظرية التمايز بين الأمتين، وقسمت الهند علي هذا الأساس إلي باكستان المسلمة والهند غير المسلمة المتعددة الأديان.

وكان لشاعرنا سهمه في التأليف والسياسية وفي الفقه وفي علوم العقيدة، إذن فقد برز قلمه كما ذكر عنه في خمسة وخمسين فنا وعلما وهذا بعض الشيء عن شاعرنا، ولكننا نحب أن نسمع إلي الكثير عنه، وسوف نستمع إلي ملخص

لهذه الرسالة أعدها الطالب ممتاز أحمد سديدي باكستاني الجنسية ابن محمد عبد الحكيم شرف القادري، وقد ساعدته ظروفه علي أن يبحث الكتب التي تضمنت الحديث عن شاعرنا، والعلماء الذين عرضوا له، والأدباء الذين تناولوه، والشعراء أيضا الذين كانوا في عصره، وذلك لغني المكتبة العربية هناك في باكستان بمثل هذه المؤلفات، والطالب من أولئكم الطلاب الذين سعد قسم اللغة العربية بانتسابهم إليها، وذلك لأنه طالب جاد، مثالي في بحثه -علي ما أرى - الطالب مجتهد لايمضي مدة طويلة علي مفارقته لأستاذه بل هو دائم الاتصال به والله أسأل أن يكون هذا العمل في ميزان حسناتي وحسناته، إنه سميع قريب.

الأستاذ الدكتور رزق مرسى أبو العباس علي
أستاذ الأدب والنقد المساعد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية
(بنين،القاهرة) جامعة الأزهر.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة البحث

الحمد لله الذي أنزل القرآن بلسان عربي مبين وسنه دستورا ونبراسا للعالمين الأمر الذي جعل اللغة العربية في حصن وحمى على مر السنين، شغف بها العجم كالعرب فكانوا على درب أعلام العربية سالكين، ظهر منهم أدباء أجلاء تركوا آثارا عربية خالدة تبهر وتستلفت أنظار الباحثين، والصلاة والسلام على أفضل الأنبياء والمرسلين المبعوث رحمة للعالمين، الذي علمه شديد القوى فجعله أفصح الناطقين، وكان بيانه النبوي - ومازال وسيظل - نبراسا للمهتدين وحجة للسالكين، وعلى أهل بيته الطاهرين المطهرين وصحابته نجوم الهداية وتابعيهم، وسائر علماء المسلمين، والأولياء الصالحين رضوان الله عليهم أجمعين.

أما بعد. فيعد الشيخ أحمد رضا خان شخصية معروفة لها قدرها ومنزلتها في الأوساط العامة والخاصة بباكستان وبنجلاديش والهند، إنه عاش في القرن الرابع عشر الهجري وفيه مرت بلاده شبه القارة بأحداث جسام كان لها عظيم الأثر في التاريخ الإسلامي لهذه البلاد، فقد سقطت الدولة المغولية الإسلامية - آخر دولة إسلامية حكمت شبه القارة - وفرض الغاصب الإنجليزي سيطرته وحكمه على تلك البلاد الشاسعة بمكره وخداعه، وأوقع بالمسلمين مظالم لا تقف عند حد، مما ترتب عليه أن ساءت الأحوال السياسية والاجتماعية والثقافية بهذه البلاد، فأفضى الأمر بالمسلمين إلى أن عاشوا أحلك عصورهم في شبه القارة بعد أن عاشت أزهى عصورها في العهد الإسلامي الذي استمر ما يقرب من ألف عام.

وعلى الرغم من تلك الأحداث السيئة التي مرت بها شبه القارة إلا أن الله – عز وجل – قد قدر أن يُخرج من تلك البيئة وتلك الظروف الصعبة رجالا يقودون حركة البعث بهذه البلاد من جديد، وكان من أعلام هؤلاء القادة الشيخ أحمد رضا خان الذي استطاع – بشخصيته الموسوعية، وعلمه الغزير، ومؤلفاته الكثيرة، ومنظوماته الإصلاحية المناهضة، وإرادته القوية، وإيمانه الراسخ، وإخلاصه للأمة الإسلامية في بلاده – أن يقود حركة النهضة والإصلاح والبعث الإسلامي من جديد ببلاده شبه القارة. وعلى الرغم من دوره الريادى فى ميادين الأدب والسياسة والإصلاح الدينى ظلت شخصية هذا العلم الإسلامى الكبير وأعماله المتعددة مجهولة فى عالم العرب حتى اليوم، فلم يتطرق إلى التعريف به باللغة العربية غير نفر قليل فى وقت متأخر، على الرغم من أن الشيخ أحمد رضا خان كانت له صلة وثقى بعلماء العرب المعاصرين له، فقد اجتمع معهم أثناء قيامه بأداء مناسك الحج مرتين، وبالتالى نال إعجاب وتقدير وثناء علماء العرب كلهم الذين التقوا به وهم من مكة والمدينة المكرمتين، ومصر الأزهر، والشام، والعراق، وفلسطين، والمغرب.

إن الشيخ أحمد رضا خان كان نسيج وحده في شبه القارة من حيث تمكنه وإجادته التامة باللغة العربية واطلاعه على علومها. إنه اتخذ من لغة القرآن – التي هام بها إلى أبعد حد– أسلوب التعبير له، فرأيناه يؤلف أفضل مؤلفاته واشهرها باللغة العربية وبأسلوب سهل ممتنع يمت إلى العربية بصلة ويدل على أنه عربي البيان فطرة، ولم يحرم مؤلفاته بغير العربية من طعم العربية فقد توجها بأسماء عربية تدل على محتويات وتأريخ عام تأليفها – بحساب الجمل – وإلى جانب ذلك رأينا قريحته تفيض شعرا عربيا عذبا قلّ أن نجد مثيلا له عند أدباء العربية من العجم، مما جعل له الريادة بين أدباء العربية في شبه القارة، بل لا نكون مبالغين إذا قلنا: إنه في طليعة أدباء العربية الذين ساهموا بدور ريادى من أجل نشر العربية وآدابها في بلده.

إن رغبتي في تعريف العالم العربي عامة ومصر الأزهر بعلمائها الأجلاء خاصة بهذا العلم الإسلامي - ودوره في نشر العربية إلى جانب دوره الريادى الإصلاحي على الساحة السياسية والثقافية والدينية فى شبه القارة - كان سببا أساسيا في إقدامي على التصدى لهذا العمل العلمى فى رسالة جامعية.

إن جامعة الأزهر الشريف كما عهدناها دائما لها الريادة في كل الميادين، وإن هذه الرسالة المتواضعة حول أدب هذا العلم الإسلامي هي الأولى من نوعها في الوطن العربي قاطبة، وهذا فضل لجامعة الأزهر الشريف لا ينكر.

إن ثقافة الشيخ أحمد رضا خان درست في شبه القارة في رسائل جامعية، وبحوث علمية، ومقالات منشورة غير أن هذه الدراسات خرجت إلى الوجود باللغة الأردية على وجه الأخص، كما أن كل هذه الدراسات لم تعتمد على ديوان شعر يتضمن ما نظمه الشيخ أحمد رضا خان بالعربية، لأن هذه الدراسات خرجت إلى الوجود قبل جمع وترتيب ونشر ديوان بساتين الغفران، وهو الديوان العربي للشيخ أحمد رضا خان، إن أدباء العربية في شبه القارة لم يستطيعوا - على مدار سبعين عاما بالتمام - جمع الديوان، بل اعتمدوا على ما وقعت عليه أيديهم من أشعار الشيخ أحمد رضا خان وهي قليلة في الأغلب، ولما كنت قد اعتزمت على دراسة شعر هذا العلم الإسلامي أحسب أنني أفضل حظا ممن سبقني لأنني درست شعره العربي باللغة العربية التي أكتب بها هذا البحث، إلى جانب اعتمادي على ديوانه بساتين الغفران الذي قام بجمعه وترتيبه أحد رجالات الأزهر الشريف الأستاذ حازم محمد المحفوظ - المدرس المساعد بكلية اللغات والترجمة قسم اللغة الأردية، جامعة الأزهر - وصدر في باكستان عام سبعة وتسعين بعد التسعمائة والألف للميلاد، ولا شك أن هذا الديوان قد أفادني كثيرا وأعتبره المرجع الأساسي في دراستى لشعر الشيخ أحمد رضا خان.

جعلت بحثي تحت عنوان: "الشيخ أحمد رضا خان البريلوى الهندي شاعرا عربيا"، وهو في مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة، أما المقدمة فقد شرحت فيها منهج الدراسة.

والباب الأول عنوانه: "اثر البيئة في الشاعر الشيخ أحمد رضا خان" أما الفصل الأول فعنوانه "الوضع الثقافي والاجتماعي والسياسي بشبه القارة الهندية في عصره" بحثت فيه الأوضاع الثقافية والاجتماعية والسياسية التي عاصرها الشيخ أحمد رضا خان حتى وفاته، وبينت أثر تلك الأحداث في حياته، كما أوضحت دوره الريادي فيما مرت به بلاده من أحداث، وكيف تفاعل مع ظواهر عصره.

وأما الفصل الثاني فكان بمثابة المرآة التي انعكست عليها صورة شاعرنا وإذا بنا حين نفتحه نقرأ "موطنه ومولده" فتحدثت عن مسقط رأسه بريلي، ثم تحدثت بعد ذلك عن أسرته، ومولده، ونشأته ثم وفاته.

والفصل الثالث بعنوان: "ثقافته ومؤلفاته" أشرت فيه إلى مراحل التعليم، وأساتذته. وشغفه بالعلم، وإقباله على التعليم، وتضلعه في العلوم المختلفة وقيامه بالتأليف في كثير من العلوم.

والفصل الرابع عنوانه: "حال اللغة والأدب العربي في شبه القارة تحت الاحتلال الإنجليزي"، أشرت فيه إلى جهود علماء المسلمين من أجل إحياء اللغة العربية وآدابها مرة أخرى في شبه القارة، كما أشرت إلى قيام الإنجليز بافتتاح بعض الكليات من أجل المساهمة في تعليم مواطنيهم من الإنجليز اللغات الشرقية ومنها العربية إلى جانب تعليم أبناء شبه القارة هذه اللغة.

الباب الثاني بعنوان: "الأغراض الشعرية في ديوان الشيخ أحمد رضا خان" وقسمته إلى تمهيد وأربعة فصول، تناولت في التمهيد التعريف بالديوان العربي بساتين الغفران.

والفصل الأول بعنوان: "المديح" وقسمته إلى مبحثين تناولت فيهما المديح النبوي عند الشاعر موضوع البحث إلى جانب مدحه للأولياء الصالحين وعلماء الدين الحنيف.

والفصل الثانى تحت عنوان: "الرثاء" وهو فى مبحثين أيضا الأول عنوانه: "قصائد شاعرنا فى الرثاء والتاريخ"، تناولت فيه ما نظم شاعرنا فى فن القصيد من رثاء للعلماء، والأولياء الصالحين، والمبحث الثانى تحت عنوان: "مقطوعات شاعرنا ورباعيته وبيتيه فى الرثاء والتاريخ" تحدثت فيه عن الرثاء والتاريخ لوفاة العلماء والصالحين وذلك فى مقطوعاته، ورباعيتيه، وبيتيه الواردين فى بساتين الغفران.

والفصل الثالث تحت عنوان: "الهجاء" تناولت فيه قيام الشاعر - موضوع البحث - بالنظم فى هذا الغرض فى نطاق محدود بهدف الإصلاح وتوجيه النصح للخارجين على إجماع أهل السنة.

والفصل الرابع تحت عنوان: "في غير ذلك من الأغراض" أشرت فيه إلى الأغراض الأخرى الواردة في بساتين الغفران وبالطبع غير المدح، والرثاء، والهجاء، قد استطعت أن ألمس هذه الأغراض وأضع لها العناوين التي تدل على مضمونها وهى: المناجاة، الغزل، مشاعر دينية فياضة وشئ من السيرة.

وأما الباب الثالث فهو عبارة عن "دراسة تحليلية نقدية لديوان الشيخ أحمد رضا خان" وهو في فصلين، الفصل الأول عنوانه: "الخصائص الأسلوبية واللغوية في ديوانه العربي" وقسمته في ثلاثة مباحث، أولها في "الخصائص الأسلوبية عند شاعرنا" وثانيها في "الخصائص اللغوية عنده" وثالثها في "بيت القصيد عند شاعرنا" في هذا الفصل تحدثت بشكل مستفيض عن سمات شاعرنا الأسلوبية واللغوية في ديوانه بساتين الغفران قدر ما وفقني الله - عز وجل - مع ذكر بعض النماذج، كما

خصصت المبحث الثالث لإبراز جماليات شعره - كما هو في نظري - وأرجو أن توافق هواي عند الكثيرين ممن يتفضلون بالنظر في هذا البحث.

والفصل الثاني من الباب الثالث عنوانه: "شاعرنا بين شعراء العربية في الهند" أوردت فيه من استطعت أن أقف على أسمائهم من شعراء العربية الذين عاصروه في بيئته، وحاولت أن أعقد موازنة بينه وبين هؤلاء، ثم أردفت ذلك بأقوال أدباء العربية من علماء العرب وشبه القارة في أدبه لإبراز مكانته الأدبية.

ثم تأتي الخاتمة وقد ذكرت فيها ما توصلت إليه من نتائج في هذا البحث، ثم أردفت ذلك بقائمة المراجع.

وللحق فقد واجهتني عدة صعوبات في إنجاز هذا البحث لعل أهمها قلة مصادر هذا البحث في مصر على أنني حاولت أن أتغلب على هذه الصعوبة بفضل من كتبت إليهم وكتبوا إلي في باكستان أذكر منهم فضيلة الشيخ المفتي محمد عبد القيوم القادري - شيخ الجامعة النظامية الرضوية بلاهور، والأمين العام لمنظمة المدارس (أهل السنة) باكستان - ومولانا محمد عبد الحكيم شرف القادري - أستاذ الحديث النبوي الشريف والعلوم الإسلامية بالجامعة النظامية الرضوية، بلاهور - وأستاذنا الدكتور محمد مسعود أحمد - راعي مركز بحوث الإمام أحمد رضا، كراتشي، ومولانا الشريف وجاهت رسول القادري - رئيس مركز بحوث الإمام أحمد رضا، كراتشي، والاستاذ الدكتور مجيد الله القادري - نائب رئيس مركز بحوث الإمام أحمد رضا، كراتشي - والشيخ مقبول أحمد القادري - مؤسس أكاديمية رضا، بلاهور - فلهم مني جزيل الشكر، وأخص بالذكر والدي الفاضل الذي كان أكثر الناس أداء لهذه المهمة، وبالطبع لم يكتف بإرسال المراجع التي كنت أطلبها بل كان يمدني بالمراجع التي يمكن أن تمت إلى موضوعي بصلة، على أنه كان يشفع ذلك بدعواته الصالحات التي أسأل الله - عز وجل - ألا يحرمني منها ولا من الأجر الذي يجود به ربنا - تبارك وتعالى - علي بواسطتها، ولقد ساعدتني

مكتبة الأستاذ حازم محمد المحفوظ - مرتب ومحقق بساتين الغفران - أيضا في التغلب على مشكلة قلة المصادر والمراجع فضلا عن لقاءاتي الكثيرة معه بمكتبته العامرة مما أطلعني على معلومات أفدت منها، فأتقدم إليه بجزيل الشكر والتقدير.

واتوجه بخالص الشكر إلي فضيلة الشيخ حميد الدين شيخ الطريقة الجشتية بالزاويه المعظمية الذى كان ومازال يكرمني بدعواته الصالحة.

ومهما يكن من أمر فإن كانت مشيئة الله - عز وجل - التي شرفتني بأن أنتقل من باكستان إلى كعبة العلم، إلى الجامعة العتيدة، إلى الركن المتين في دراسة العربية بخاصة وعلوم الإسلام بعامة، إلى الأزهر المعمور الذى نسأل الله - جل وعلا - أن يديم عمارته، وأن يرفع ذكره على الدوام ليؤدى ما أعتقد أن الله - عز وجل - قد وكله إليه ، وأن الأزهر الشريف لون من ألوان الحفظ الذى تضمنته الآية الكريمة **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** [1] أقول: إن كانت مشيئة الله - جل جلاله - قد أتت بي من باكستان إلى مصر مفارقا والدى هناك إلا أنني بفضله - سبحانه - وبعونه - جلت قدرته - وجدت في مصر أساتذة كراما فتحوا لي قلوبهم وعقولهم، وهذا دأبهم مع سائر تلاميذهم، إن من بينهم أستاذي الفاضل فضيلة الدكتور رزق مرسى أبو العباس علي، موجهي ومشرفي لإخراج هذا البحث، والذى رافقني مع الشاعر - موضوع البحث - صفحة بصفحة، بل سطرا سطرا، حتى استطعت أن أكمل هذا البحث بفضل توجيهاته القيمة بعد فضل الله - عز وجل - لقد وجدته خير أستاذ مشرفا وأبا، ولا أجد خيرا من أن أقول له: جزاك الله - سبحانه وتعالى - عن تلميذك وعن العلم خير الجزاء على أفضالك الكثيرة وأياديك البيضاء وأعانك على أن تظل حصنا من حصون العربية تأخذ بيد تلامذتك إلى حيث يريد الله - جل جلاله - لهم من توفيق، ولا حرمنا الله منك.

---

(١) سورة الحجر ١٥/٩.

وإننى أتوجه بالشكر الجزيل إلى أستاذنا الجد فضيلة الأستاذ الدكتور محمد السعدى فرهود - رئيس جامعة الأزهر سابقا - الذى عرضت عليه موضوع الإشراف أول الأمر، فاستقبلنى فى مكتبه العامر بكل كرم ولطف، ولازال عطر مقابلته هذه عالقا بقلبى وروحى حتى اليوم.

كما أتوجه بخالص الشكر إلى أستاذنا الدكتور محمد عرفه المغربى، ولما كان أستاذنا الدكتور من أهل فضل لا يقف توجيه عند حد بالنسبة لتلامذته فقد أسعدنى الحظ بأن أسمع توجيهاته حول هذا البحث بعد أن كمل بعون الله - عز وجل.

كما لا يفوتنى الشكر لفضيلة الأستاذ الدكتور ضياء الدين الكردى - أستاذ العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين، جامعة الأزهر الشريف - ولا أنسى الشكر لفضيلة الشيخ أحمد حسن جابر رجب - عضو مجمع البحوث الإسلامية، جامعة الأزهر الشريف - وأتقدم بخالص الشكر لكل من ساعدنى وعاوننى فى إنجاز هذا البحث.

وبعد فقد حاولت جهدى أن أؤدى بعض ما على من واجب علمى تجاه حبيبة الأحباب لغة العرب ولسان حبيبنا المصطفى - صلى الله عليه وسلم - قدر استطاعتى. فإن كنت قد أصبت فمن الله - جل جلاله - الخير كله، وإن كانت الأخرى فهو التقصير من الإنسان الذى قال عنه ربه **وخلق الإنسان ضعيفا** (٢) والله - سبحانه وتعالى - أسأل أن يتقبل صالح عملى وأن يلحقنى بالنبيين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

الطالب الباكستانى

ممتاز أحمد سديدى

---

(٢) سورة النساء ٤/٢٨.

الباب الأول

أثر البيئة في الشاعر الشيخ أحمد رضا خان

ويحتوي هذا الباب على تمهيد وأربعة فصول.

الفصل الأول: الوضع الثقافي والاجتماعي والسياسي لشبه القارة الهندية في عصره.

الفصل الثاني: موطنه، ومولده، ووفاته.

الفصل الثالث: ثقافته ومؤلفاته.

الفصل الرابع: حال اللغة والأدب العربي بشبه القارة الهندية تحت الاحتلال الإنجليزي.

تمهيد

لم تشهد شبه القارة الهندية عهداً أفضل من العهد الإسلامي على مر عصورها، ذلك العهد الذى سطعت أنواره على أيدى الجيوش العربية التى قادها الفاتح العربى محمد ابن القاسم الثقفى في العام الثانى والتسعين من القرن الأول الهجرى الموافق للعام الحادى عشر من القرن الثامن الميلادى، ثم تبعه على حكم هذه البلاد حكام مسلمون من غير العرب قاموا بتشييد دول إسلامية استمرت تحكم هذه البلاد بما أوجبه الشرع الحنيف ما يقرب من ألف عام، وإن شبه القارة الهندية لم تعرف قبل هذا العهد الإسلامى المديد الأمن والاستقرار والرخاء الذى شهدته في العهد الإسلامى والذى ما تزال آثاره الحافلة تتجلى أمامنا في عصرنا الحاضر، غير أن مما يؤسف له أن هذا الحكم الإسلامى المديد قد تعرض لجحافل المستعمرين الغربيين الذين تربصوا بحكامه وبشبه القارة الهندية ونجحوا نهاية الأمر وبالتحديد في العام الثالث والسبعين من القرن الثالث عشر الهجرى الموافق للعام السابع والخمسين من القرن التاسع عشر الميلادى في طوى صفحة العهد الإسلامى والحكم الإسلامى بهذه البلاد مجتمعة على إثر هزيمة الثورة الإسلامية

الهندية التي قادها المسلمون من أجل إخراج الإنجليز من بلادهم واسترجاع الحكم الإسلامى المسلوب من أيدى هؤلاء.

وعن كيفية مقدم الإنجليز بهدف احتلال شبه القارة والقضاء على الحكم الإسلامى بها يقول الدكتور عبد المنعم النمر[1]: "إنهم تمكنوا من القضاء على الحكم الإسلامى بحيلة وخدعة حيث إنهم جاءوا تجارا وضيوفا فوجدوا من الملوك والشعب كل إكرام، ثم جلسوا في مجالس الملك، ثم بالتدريج سيطروا على الهند وعزلوا حكام الهند، وبالتالى آل الأمر إليهم"، ولكن الشعب الهندى الغيور الذى تمتع بالحرية ونعيم العيش منذ مئات السنين لم يقبل الدكتاتورية والاستبداد البريطانى ولم يرض بأغلال العبودية، فلم تلبث جذوة الحرية في صدور الهنود - مسلمين وغيرهم - أن حاولت القضاء على الاستبداد البريطانى، وذلك في العام السابع والخمسين من القرن التاسع عشر الميلادى، ولكن هذه المحاولة لم تكلل بالنجاح بل أتاحت الفرصة للإنجليز أن يكشروا عن أنيابهم ويظهروا عداءهم المستشرى، وبالتالى اغتصبوا الأمر كله وأصبحت الهند تئن تحت وطأة سطوتهم، وعن هذه الأوضاع المأساوية يحدثنا الدكتور نجيب الكيلانى[2]: "لقد لوث جمالها وشاب جلالها وجود الاستعمار الغربى الذى لا يقدس حرية، ولا يبقى كرامة، لأن أجواء الحرية لا تعطى الفرصة له كي يتنفس ويعيش، وهما عدوان لدودان للغاصبين، فلن يستطيع الإنجليز أن يسودوا إلا حيث تهدر كرامة الأحرار وتداس عزتهم".

ولقد كانت مساهمة المسلمين في الثورة الهندية أكثر من غيرهم، وذلك لأنهم كانوا اصحاب الحق المسلوب والملك المنهوب، وقد لعب علماء الدين الحنيف

---

(١) تاريخ الإسلام في الهند، للدكتور عبد المنعم النمر، (ط: الهيئة القومية العامة للكتاب بالقاهرة، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م)، ص ٢٧٨.

(٢) اقبال الشاعر الثائر. للدكتور نجيب الكيلانى، (ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٠هـ)، ص ٧.

ومشايخ الطرق الصوفية دورا رياديا ملموسا في قيام هذه الثورة[١] حيث إنهم رفعوا راية الجهاد ضد الإنجليز الصليبيين، وفى مقدمة هؤلاء العلماء والمشايخ مولانا فضل حق الخير آبادى ومولانا الشريف كفايت على الكافى، ومولانا عبد الجليل على كرهى، ومولانا إمام بخش الدهلوى، ومولانا الشريف أحمد الله شاه، ومولانا المفتى صدر الدين الدهلوى، ومولانا المفتى عنايت أحمد الكاكوروى، ومولانا وهاج الدين، ومولانا معين الدين الأجميرى.

ومن الجدير بالذكر أن مولانا محمد رضا على خان النقشبندى - جد شاعرنا موضوع البحث - قام بدور فعال في الثورة الهندية، وعن هذا يخبرنا الدكتور مجيد الله القادرى قائلا[٢]: "كان مولانا محمد رضا على خان من المناضلين لاسترداد الحرية والحكم الإسلامى، ولما قام علماء أهل السنة والجماعة بإصدار فتوى الجهاد ضد الإنجليز في العام السابع والخمسين من القرن التاسع عشر الميلادى قام مولانا محمد رضا على خان بتأييد هذه الفتوى، وذلك بجانب مساهمته الفعالة في حركة الجهاد، فكان يقدم كل ما في وسعه من العون للمجاهدين، وقد وقف رباط الخيل للمجاهدين ابتغاء وجه الله تعالى، كما كلف ابنه مولانا محمد نقى على خان القادرى بمهمة إمداد المجاهدين بالمؤن، وقام كذلك بمساندة الجنرال بخت خان الذى أذاق الإنجليز مرارة الهزيمة في بريلى". فلبى المسلمون نداء علمائهم وقامت الثورة الهندية ضد الإنجليز، ولكن انطبعت تصرفات الثوار بطابع الثورة التى تسيطر عليها العواطف المتأججة، وعواطف حب الوطن التى دفعتهم إلى التضحية بالنفس والنفيس، وعواطف الغضب التي دفعتهم إلى صب جام غضبهم على ظالميهم ومغتصبى بلادهم وحرياتهم فوقعت تصرفاتهم هوجاء راح ضحيتها بعض

---

(١) للاطلاع على بطولات هؤلاء العلماء والمشايخ في الثورة الهندية هذه انظر: أنوار رضا لصفوة من العلماء، (ط: ضياء القران ببلى كيشنز لاهور، ١٩٨٦)، ص ٤٣٥ : ٤٤٨.

(٢) "مولانا محمد رضا على خان": بحث مستخرج من "معارف رضا" لصفوة من العلماء (ط: إدارة تحقيقات إمام احمد رضا كراتشي باكستان، ١٤١٤هـ)، جـ ١٧، ص ١٩٦.

الأبرياء من نساء الإنجليز وأطفالهم أيضا، ولكن لم تحظ هذه الثورة بالنجاح، وكان الفوز حليفا للإنجليز، فحكموا على آخر ملوك الهند السلطان بهادور شاه ظفر بالنفي المؤبد مع أفراد أسرته إلى رانجون، وأعلنوا من بعد ذلك ضم شبه القارة الهندية كلها إلى امبراطوريتهم[١] وبالتالي فعلوا بالثائرين وبغيرهم مالا يمكن لعقل أن يتصوره، ولا لضمير أن يتحمله حتى وجد التاريخ من عقلاء الإنجليز أنفسهم من يتبرؤن من أفعال بني قومهم الوحشية، ويصمونها بأبشع ما يمكن أن يوصم به عمل في التاريخ[٢] وعن وحشية الإنجليز يقول الدكتور عبد المنعم النمر[٣]: "لقد فقد الإنجليز بعد انتصارهم كل معاني الإنسانية وتجاوزوا في انتقامهم كل ما يتصوره الإنسان، رأوا أن القتل بالرصاص سهل على المقتولين فاستعملوا المشنقة، وكانوا يشنقون الثوار في كل مكان، ويقفون حول المشنقة يضحكون ويصفقون، وكانوا يشدون ضحاياهم على فم المدافع ثم يطلقونها فتتناثر أشلاؤهم في كل مكان، وكانوا يلفون أجساد الضحايا المسلمين بجلود الخنازير ويخيطونها عليهم أو يدهنونهم بشحومها ثم يحرقونهم... ولم يتركوا وسيلة للتنكيل والتعذيب يتفنن العقل في إخراجها إلا فعلوها بضحاياهم... صور مخزية تمت على يد مدعي الحضارة، ستظل وصمة عار على جبينهم، وكم على جبينهم من وصمات !!"

لم يكن حقد الإنجليز على المسلمين وليد الصدفة بل كانت له جذور مسبقة حيث كانت أوروبا قد تحركت كلها لمصارعة المسلمين فيما يسمى بالحروب الصليبية، وإذا كان الفشل باء إليهم بسوريا ومصر فإن الروح الصليبية كانت متأججة في نفوس الصليبيين، وكان دخول الإنجليز الهند امتدادا لما يتطلعون إليه من محاولات للصراع ضد الدين الحنيف[٤].

---

(١) تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتها، للدكتور أحمد محمود الساداتي (ط: مكتبة الآداب بالجماميز، دون تاريخ الطبع)، جـ ٢، ص ٢٩٥.
(٢) تاريخ الإسلام في الهند، للدكتور عبد المنعم النمر، ص ٤٤٩.
(٣) المرجع السابق، ص ٤٥٥، ٤٥٦.
(٤) راجع: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، للدكتور أحمد شلبي (ط: مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٨٣م)، جـ ٨، ص ٣٢٢.

هكذا نجم التدهور الثقافى والاجتماعى والسياسى عن تصرفات الانجليز العشوائية، وإننى إذ أحاول دراسة هذه الأوضاع وقتها أتخذ مدخلاً لدراسة شخصية الشاعر وشعره، فبدأت بالثقافة باعتبارها علما يهذب الفكر وتسهم في إعداد الشخصية الإنسانية، وأتبعت ذلك بالناحية الاجتماعية، حيث إن شاعرنا قام بدور مصلح دينى وداعية إسلامى، ثم انتقلت إلى الجانب السياسى المعاصر لشاعرنا لكى نعرف دوره الايجابى وسعة أفقه في الشئون الساسية، لما للسياسة من تأثير عميق في النتاج الأدبى، لذا تطرقت لهذه النواحى الثلاث، وحاولت التعرف عليها لأخرج بعد ذلك بفكرة واضحة عن نشأة شاعرنا والإلمام بشئ عن مجتمعه، والنظر بإيجاز إلى عصره، وسنحاول أن يكون حديثنا هيناً للإحاطة بمنبت شاعرنا حتى نتفرغ لدراسته بعد معرفة الظروف السياسية التى ألمت به، وهاكم أيها القارئ الكريم حديثنا الموجز عن هذه المباحث الثلاثة والتى وضعت لها العنوانات الآتية:

أولاَ: الوضع الثقافى في عصره.

ثانياَ: الوضع الاجتماعى فى عصره.

ثالثاَ: الوضع السياسى في عصره.

هذه المباحث الثلاثة هى مكونات الفصل الأول، فأقول وبالله التوفيق..

الفصل الأول

الوضع الثقافي والاجتماعي والسياسي

لشبه القارة الهندية في عصره

ويشتمل هذا الفصل على ثلاثة مباحث

المبحث الأول: الوضع الثقافي في عصره.

المبحث الثاني: الوضع الاجتماعي في عصره.

المبحث الثالث: الوضع السياسي في عصره.

المبحث الأول

الوضع الثقافى فى عصره

اهتم حكام شبه القارة الهندية المسلمون بتثقيف الشعب الهندى اهتماما لا ينكر، فازدهرت الحالة العلمية في عهدهم، فقد بذلوا الأموال الطائلة لتوفير العلم على أبناء الشعب، وكانت القيم الإنسانية والخلقية نصب عيون الأساتذة والمدرسين والهدف الأسمى للتعليم، ولم يكن التعليم إلا لتكوين الشخصية المتزنة والتحلى بالأخلاق الفاضلة، ولم تكن الشهادة وسيلة للحصول على الوظائف بل كانت المواهب المصحوبة بالثقافة تأخذ بأيدى الناس إلى المناصب الحكومية، يحدثنا الدكتور عبد المنعم النمر عن تطور التعليم في عهد أورنجزيب[١]: "لقد ازدهر التعليم في عهده أيما ازدهار، ولم يكن ذلك عجبا فقد كان أورنجزيب عالما محبا للعلم والعلماء فكثرت المدارس في عهده كثرة لم يسبق لها مثيل، وأجرى الأرزاق على العلماء والطلاب ليتفرغوا لدراستهم، وأنشأ المساجد الكثيرة، ورتب الأرزاق للقائمين عليها.. وكانت عنايته فائقة بالثقافة والآداب الإسلامية".

هذا وقد اهتم كذلك الأغنياء من الشعب الهندى المسلمون والهنادكة من الأمراء وسادة القبائل وعامة الناس بشأن الثقافة والتعليم كل فيما ينتسب إليه من عقيدة، فكانوا يتبرعون للمؤسسات التعليمية العليا والابتدائية، فكانت للمسلمين مؤسسات فى مساجدهم وللهنادكة مؤسساتهم التعليمة في معابدهم، على أن اللغة الفارسية كانت محل الدراسة من المسلمين والهندوس لكونها اللغة الرسمية في الهند

---

(١) تاريخ الإسلام في الهند، للدكتور عبد المنعم النمر، ص ٢٨٧

آنذاك، وكانت المؤسسات التعليمية العليا تختار الأساتذة المتميزين بدرجة عالية من الثقافة، وكان الطلاب يدرسون دون سداد أي رسوم كما كان الأساتذة لا يتقاضون إلا مرتبات منخفضة، إلا أن بعض الحكام كان يقطع لبعض الأساتذة شيئا من المقاطعات وبذلك يحسن الدخل وتعم الفائدة، هذا وكان هناك نوع آخر من الأساتذة الأغنياء الذين كانوا يقومون بتدريس تلاميذهم مجانا، ومع هذا كانوا يتحملون تكلفة إعاشة هؤلاء التلاميذ(١).

هكذا كان الوضع الثقافى السائد في الهند قبل سيطرة الإنجليز على شبه القارة الهندية، ولكنه لما تمكن أدعياء المدنية والحضارة من السيطرة الغاشمة - المبنية على الخداع والخيانة - على شبه القارة الهندية قضوا على منابع النور والمعرفة، حينئذ عم الظلام في الشعب الهندى مسلمهم وغير مسلمهم من أصحاب الديانات الأخرى، وها هو ذا أحد المستعمرين مستر لدلو يعترف بآثارهم السيئة التى باءت إلى ثقافة الشعب الهندى فيقول(٢): "في العصور الماضية كانت المدارس الكثيرة في كل قرية، وأبناؤها كانوا يتعلمون فيها، ولكن بعد ما سيطرنا عليها أغلقنا المدارس، فأصبحوا جهالا" والخير ما شهد به الأعداء، لعلها كانت هذه هى المكافئة الأولى من الإنجليز للهنود حكومة وشعبا مقابل الترحيب والإكرام سالفى الذكر، وإن هؤلاء الغاصبين أقدموا على فرض أنظمة التعليم الإنجليزية - في المرحلة الثانية - على الشعب الهندى المقهور وذلك لتحقيق أهداف مدروسة يحدثنا عنها الدكتور عبد المنعم النمر(٣): "إن الإنجليز لما بدأوا في تنظيم سيطرتهم على الهند منذ أوائل القرن التاسع عشر الميلادى كانت أمامهم أهداف ولكنهم أخذوا يضعونها فى قوالب براقة ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب، وكان من أعمالهم ثم من خططهم

---

(١) انظر: تاريخ تعليم هند (تاريخ التعليم في الهند)، للشريف نور الله (ط: ساوتهـ ايشين ببلشر كراتشى، ١٩٨١م)، ص ٤٩، ٥٠.

(٢) تاريخ الإسلام في الهند، للدكتور عبد المنعم النمر، ص ٣٧٩.

(٣) المرجع السابق، ص ٣٩٨.

أن يقضوا على التعليم الوطنى الحر الذى كان يقوم به الملوك السابقون والأغنياء من الشعب، وكان تعليما غير مدخول يهدف إلى تربية النفس وتقويمها وإعدادها لخدمة دينها وبلادها، وطبعا وجد الإنجليز في هذا التعليم خطرا عليهم فقضوا عليه، ثم لم يقيموا بدله شيئا يذكر، فقد كانت خطتهم أن يعصبوا عيون الشعب حتى لا يرى مهازلهم ويحصى مفاسدهم ويقوم في وجههم كما حدث في أمريكا، وكانوا يعلمون ذلك تماما ويعملون بما قاله أحدهم وهو مستر سميدى: "إذا غلب شعب أو قطر على أمره فلابد أن القوة الفاتحة تفسد على المفتوحين تعليمهم وتأخذ زمامهم بأيديها طوعا أو كرها، فمما لاريب فيه أن العلم لا يمكن أن يرضى بالعبودية ".

هكذا قام الاستبداد الإنجليزى بإفساد النظم التعليمية الهندية وسلب روح الدين والوطنية من التعليم بفرض النظم التعليمية المعينة للمستعمر، حيث كانت هذه النظم الجديدة منبثقة من رغبة الإنجليز في امتداد حكمهم على شبه القارة الهندية، ولكن المسلمين - بصفة خاصة - لم يتاثروا بالنظم التعليمية الإنجليزية، وفي هذا يقول المفكر الإسلامى عباس محمود العقاد[1]: "وكانت الثقافة الفارسية هى ثقافة المسلمين، فجاءت المدارس الأوروبية الحديثة، ولم يقبل عليها المسلمون لأنها كانت على الأكثر في أيدى المبشرين المتفرنجين".

وفعلا كان الإنجليز استقدموا معهم طوائف المبشرين لتمهد في الهند طرق الاستقرار أمام الدكتاتورية البريطانية، ولكى تغزو الصليبية ميدان الثقافة منفسة عن حقدها، لذا أصيب المسلمون بالصدمة العنيفة والهزة النفسية الشديدة نتيجة للإجراءات العدوانية التى اتخذها الاستبداد الإنجليزى ضد الشعب الهندى بصفة عامة والمسلمين بصفة خاصة، فإن الإنجليز استبدلوا المناهج الدراسية الهندية القديمة بمناهج حديثة تعادى مبادئ الإسلام وتثبت الأفكار المسيحية في نفوس

---

(١) القائد الأعظم محمد على جناح، للعباس محمود العقاد (ط: دار الهلال بالقاهرة، ١٣٧٢هـ)، ص ٤٢.

التلاميذ، فأبعد المسلمون أولادهم عن هذه المدارس التبشيرية ولكن كثيرا من الهندوس انتهزوا هذه الفرصة، وفي هذا يقول الدكتور إحسان حقي[1]: "رأى المسلمون ما حل بهم وما يقاسونه من سوء معاملة الإنجليز فلجأوا إلى سياسة الانكفاء، وأصدر العلماء فتاواهم بعدم جواز التعامل مع الإنجليز بأية صورة كانت، فاغتنم الهنادكة هذه الفرصة ومدوا أيديهم إلى الإنجليز، وأخذوا يتعلمون لغتهم ويتعاونون معهم فاحتلوا بعض المناصب الحكومية فأصبحوا هم والإنجليز يتولون أمر البلاد". وبهذا ازداد خسران المسلمين بيد أن الهنادكة استطاعوا تحقيق مصالحهم الثقافية وبالتالي الاجتماعية فاجتمعت مصالح الهنادكة مع مصالح الإنجليز وبالتالي اتحد الاثنان على عداء المسلمين، وخلاصة القول: إن عقول الإنجليز تمركزت على إضرار المسلمين ثقافياً ليقعوا فريسة التخلف عن ركب الثقافة وعن هذا يحدثنا الدكتور محمد البهي قائلاً[2]: "إن الإنجليز سلبوا أوقاف المساجد والمدارس، ونفوا علماءهم وعظماءهم إلى جزيرة إندومان رجاء أن تفيد هذه الوسيلة في رد المسلمين عن دينهم بإسقاطهم في أغوار الجهل بعقائدهم حتى يذهلوا عما فرضه الله عليهم".

لقد حاول أولئك الحكام الجائرون كل المحاولة لدفع المسلمين إلى ظلام الجهل بإغلاق المدارس الدينية والمساجد وسلب أوقافهما، وإعدام جماعة من علماء الدين الحنيف المناضلين، كما تم نفي بعضهم إلى جزيرة إندومان، ولكن ثقة المسلمين في عقيدتهم جعلت تلك المحاولات تبوء بالفشل، وفي هذا يقول الشيخ مشتاق أحمد

---

(١) محمد على جناح باني باكستان. حياته وسياسته، للدكتور إحسان حقى (ط: دار الفكر، دمشق، ١٤٠٧هـ)، ص ٢٤.

(٢) انظر: الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى، للدكتور محمد البهى (الطبعة: الثانية، ١٩٦٠م)، ص ١٥، ١٦، ١٩، ٣٠.

شاه(١): "وفي مثل هذه الظروف الصعبة قام بعض العلماء لتنشيط الحركة العلمية، وعلى رأسهم الإمام ولي الله المحدث الدهلوي، وابنه سراج الهند الإمام عبد العزيز المحدث الدهلوي، وتبعهما علماء كثيرون سلوكا ومنهجا، فقاموا بإضاءة الهند بنور العلم والمعرفة، منهم الإمام أحمد رضا خان الذي يتصل سنده بالإمام عبد العزيز المحدث الدهلوي بواسطة الشيخ آل رسول المارهروي، فقام بدوره في سد الفراغ الذي نشأ بسبب استشهاد بعض العلماء ونفي بعضهم على يد الإنجليز".

ومن المعلوم أن شاعرنا الفقيه الشيخ أحمد رضا خان كان قد أقام معهدا علميا في مدينة بريلي وذلك لنشر العلوم الإسلامية والعربية في عصر الانهيار الثقافي الذي عايشه شاعرنا، والذي أصاب المسلمين للأسباب التي سبق أن أشرنا إليها، وبالتالي قام تلاميذه بإنشاء المعاهد الدينية في ربوع الهند لنشر تلكم العلوم التي أراد الإنجليز إبعاد المسلمين عنها باتخاذ الإجراءات المشددة سالفة الذكر.

ومن عداء شاعرنا للنظم التعليمية الإنجليزية أنه لم يتحدث بها رغم علمه بها، هذا ما أميل إليه، فقد كان يعرف اللغة العربية والفارسية والأردية والهندية، فلم يكن صعبا عليه أن يتعلم اللغة الإنجليزية، ولكنه ترفع عن التحدث بها نظرا للعدوان الإنجليزي على المعاهد الدينية - معاقل اللغة العربية - في شبه القارة الهندية، واعتدائهم على اللغة الفارسية - لغة الهند الرسمية في العهد الإسلامي بالهند - وقيامهم بإعدام بعض كبار علماء الدين الحنيف، ونفي بعضهم إلى جزيرة إندومان، وما إلى ذلك، فكل هذا جعل شاعرنا يكره الإنجليز ولغتهم كل الكراهية وفي هذا يقول شاعرنا الفقيه(٢): "إن الإنجليزية والمقررات الفارغة الأخرى التي لا

---

(١) انظر: الإمام أحمد رضا خان وأثره في الفقه الحنفي، للشيخ مشتاق أحمد شاه، رسالة ماجستير مخطوطة بمكتبة رسائل الماجستير بكلية الشريعة والقانون بجامعة الأزهر الشريف، تحت رقم ٣١٥٩، ص ١٢٤.

(٢) رسائل رضوية (الرسائل الرضوية) للشيخ احمد رضا خان / رتبه مولانا عبد الحكيم أختر شاهجا نفوري (ط: مكتبة حامدية لاهور، ١٣٩٦م)، جـ ٢، ص ٩٣.

تعود بالنفع على الدين والدنيا، وقد فرضت على الطلاب لكى يظلوا غافلين عن دينهم مشتغلين بها، وحتى لا تنشأ فيهم الحمية الدينية، ولا يعلم الشباب عن دينهم شيئا".

هذا ونجد الشيخ أحمد رضا خان ينتقد الدراسة الغربية التى جاء بها الاستبداد الإنجليزى، حيث إن شاعرنا اقترح عشر نقاط تعليمية للمسلمين وعلى رأسها(١): "يجب أن تحتل الدراسة الإسلامية مكانة جوهرية، وأصلية من بين المقررات الدراسية، وأن يكون الإسلام هو قطب رحى التعليم، حتى يعرف كل فرد من أبناء الأمة الإسلامية هويته ودينه".

هذا هو إحساس شاعرنا نحو التعليم، ولم يكن هذا الشعور إلا رد فعل في مواجهة النظم التعليمية التى فرضها اللورد ماكولى على الشعب الهندى لإعداد جيل هندى اللون والدم وإنجليزى الفكر والعقلية، ولم يكن شاعرنا بمعزل عن معاصريه من المفكرين في اتخاذ موقفه هذا من التعليم حسب النظم التعليمية الإنجليزية بل اتحدت فكرته مع المصلحين المفكرين الذين عاصرهم، فعلى سبيل المثال نجد صدى موقفه في أدبى الدكتور محمد اقبال وأكبر إله آبادى.

وإذا كان الإنجليز قد أحلوا النظم التعليمية الحديثة محل النظم التعليمية الهندية الحرة فقد شنوا حملة ثقافية أخرى تستهدف زعزعة إيمان المسلمين بالمبشرين أولا ثم بإنشاء طائفة من المفكرين المخدوعين من داخل صفوف المسلمين باسم الحركة التقدمية – من المنظور الغربى – في الإسلام(٢)، فاتخذ شاعرنا موقفا حاسما من الاجتماعات التبشيرية التى كانت تثار فيها الشكوك في الإسلام، حيث كان المسلمون يستمعون إليهم فقام شاعرنا بتنبيه المسلمين إلى مغبة تلكم المحاضرات

---

(١) إمام أحمد رضا، كانظرية تعليم (نظرية الإمام أحمد رضا التعليمية)، لمولانا جلال الدين القادرى (ط: مركزى مجلس رضا لاهور، ١٩٨٤م). ص ٥٥

(٢) راجع: الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى، للدكتور محمد البهى، ص ١٥.

فنجده يقول[١]: "إن عامة الناس من إخواننا في الإيمان والإسلام يقعون في أشد أنواع الجهل وذلك عند تلبيتهم لنداءات المسيحيين بشأن تنظيم اجتماع لإثبات مبادئ المسيحية، أيها الاخوة أنتم أكثر دراية بنفعكم أم الله – سبحانه وتعالى –؟ فإن الله – تعالى – ورسوله – ﷺ – يأمرانكم بطرد الشيطان وتكذيبه بمجرد مجيئه إليكم حتى لا تسمعوا كلمات ملعونة عن ربكم ونبيكم وقرآنكم، وإن أولئكم القسس لا ينادونكم للحضور إلى اجتماعهم إلا طمعا في زعزعة إيمانكم بأسلوب مخطط ومدروس حيث إنهم يأتون باتهامات شيطانية ملعونة تفتق أكبادنا، وإن أهل الخرافة هؤلاء لا يتفوهون بإساءة إلى ربنا – تبارك وتعالى – وحبيبنا المصطفى – ﷺ – والقرآن الكريم إلا لاستماعكم إليهم، فليتكم اتحدتم على عدم الانصات إلى تلك الطائفة، ثم بعد ذلك هل تتوجه تلك الطائفة بخرافاتها إلى الجدران والأحجار؟ أنتم تدفعونهم إلى مثل هذه الخرافات بالاستماع إليهم، ومن هنا فمن يكون موضع العقاب الإلهى كنتيجة لتلك الخرافات".

واتخذ شاعرنا موقفا واضحا كذلك من حركة التغريب أو ما يسمى حركة التقدمية في الإسلام وكان السير سيد أحمد خان[٢] على رأس المخدوعين الذين تحمسوا لهذه الحركة، وكانت هذه الحركة مقدمة وتمهيدا لنشأة القاديانية في الهند، وكل ذلك لزعزعة إيمان المسلمين وبالتالى لتثبيت أقدام الإنجليز في الهند[٣]، ولم

---

(١) انظر: العطايا النبوية في الفتاوى الرضوية، للشيخ أحمد رضا خان (ط: الشيخ غلام على وأبنائه بلاهور بدون تاريخ الطبع)، جـ ١، ص ٢١٥.

(٢) ولد السير سيد أحمد بن المتقي في عام ١٢٣٢هـ بدهلى، وتربى في حجر أمه وجده لأمه فريد الدين، قرأ مختلف العلوم النقلية والعقلية على علماء عصره، ولما ثار الشعب ضد الإنجليز سنة ١٢٧٣هـ وقف إلى جانب الإنجليز، ولما أخمدت الثورة عين له الإنجليز راتبا شهريا قدره مائتا روبية طيلة حياته ولولده الكبير كذلك، وسافر مع ولديه حامد ومحمود إلى بريطانيا سنة ١٢٨٦هـ وأقام في لندن سنة وخمسة أشهر زار خلالها المراكز الثقافية والمجامع العلمية وبعض الجامعات والمصانع الكبيرة، واطلع على بعض المشاريع العلمية والفنية، والتقى بكبار المفكرين وأعيان الدولة، وقابل الملكة فيكتوريا أيضا، توفى سنة ١٣١٥هـ.
راجع نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، للشريف عبد الحى اللكنوى (ط: دائرة المعارف الإسلامية بحيدر أباد الدكن الهند، سنة ١٤٠٢هـ)، جـ ٨، ص ٣٠ : ٣٤.

(٣) انظر: الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى، للدكتور محمد البهى، ص ١٦، ١٩، ٣٠.

يلبث شاعرنا أن انخرط في سلك المتصدين للهجوم الثقافي الذي شنه الإنجليز، فكان شاعرنا من بين زعماء حركة المقاومة للاستعمار والاستشراق، فكان شديد الكراهية للإنجليز لم لا فقد توارث هذه الكراهية من والده وجده واقتنع بها، وكان دأبه أن يكتب العنوان على المظروف البريدي بحيث يجعل رأس الجورج الخامس البريطاني - الذي طبعت صورته على مظاريف البريد - إلى الأسفل[١]، وكان يفخر بتصرفه هذا بغضا وكراهية للإنجليز[٢]، ولقد طلبته المحكمة الإنجليزية - ذات مرة في قضية سجلت ضده ولكنه أبى أن يمثل أمام المحكمة قائلا: إني لا أعترف بالحكم الإنجليزي فكيف أخضع لمحكمته طالبا منها العدل والانصاف؟! وبالتالي لم يحضر المحكمة حتى بعد تسجيل قضية إهانة المحكمة ضده بسبب عدم حضوره إلى المحكمة[٣] إلى أن استردت المحكمة هذه القضية دون المحاكمة وذلك نظرا لمكانة شاعرنا في قلوب الشعب، وخوفا من رد فعل المسلمين ضد الإنجليز حيث إنهم كانوا قد تلقنوا درسا من الثورة الإسلامية الهندية، فقد كان للمسلمين في قيامها دورا بارزا، وكانت حماية الله - سبحانه وتعالى - قد أظلته فوقته شر كيد الأعداء الصليبيين.

فإذا كان ثمة أناس تأثروا بالإغراءات الإنجليزية البراقة في ظاهر الأمر، فإن شاعرنا كان من الذين ازدادوا تحمسا للدين الحنيف فلم يتأثر من الأساطير العلمية التي نسجتها عقول الإنجليز باسم التقدمية وذلك لإخضاع عقول الهنود المقهورين، فلم يزل شاعرنا يقوم بدوره كداعية إسلامي ومصلح ديني يغرس حب الإسلام وبغض الكفر والكفرة في قلوب المسلمين، وقد أسهم في إعداد الكوادر العلمية أيضا وبعثهم إلى شتى أرجاء الهند لمواجهة الثقافة الغربية، وإعداد الأذهان لاستقبال القيم

(١) انظر الصورة الشمسية لهذا المظروف ورأس جورج المنكس في الملحق لهذه الرسالة.

(٢) كناه بى كناهي (جريمة البراءة) للأستاذ الدكتور محمد مسعود أحمد (ط: أكاديمية رضا بلاهور ١٩٨٨م)، ص ٣٨.

(٣) جهان رضا (عالم الدراسات الرضوية) لمولانا مريد أحمد الجشتي (ط: مركزى مجلس رضا لاهور، ١٤٠١هـ)، ص ١١٨.

الإسلامية، ومقاومة البدع التى تسربت في المسلمين خلال عصر الانحطاط نتيجة لتخطيط الإنجليز، فتصدى شاعرنا لما يسمى بالحركة التقدمية في الإسلام، وبالطبع وجه شاعرنا نقده إلى الطائفتين اللتين غرستهما يد الإنجليز لإهانة العقيدة الإسلامية وزعزعة إيمان المسلمين، وقد عرفت هاتان الطائفتان بالدهرية والقاديانية، فقد اتخذ شاعرنا موقفا حاسما غيورا منهما، وبالتالى تصدى للرد عليهما نظما ونثرا، حيث إنه ألف في الرد على الدهريين تحت عنوان: "الدلائل القاهرة في الرد على الكفرة النياشرة" (أى الطبيعين) كما نظم بالعربية قصيدة في أربعة وسبعين ومائة بيت في الرد على الفرق المخالفة لإجماع أهل السنة والجماعة – وعلى رأسها الدهرية – وذلك تحت عنوان: "آمال الأبرار وآلام الأشرار"[١] وكان شاعرنا شديدا على القاديانيين كذلك فألف أربعة كتب في الرد على القاديانية باللغة الأردية وأسماؤها كالتالى: المبين في ختم النبيين، قهر الديان على المرتد بقاديان، السوء والعقاب على المسيح الكذاب، الجراز الديانى على المرتد القاديانى، وكان شاعرنا قد نظم قصيدة عربية طويلة في الرد على المتنبئ القاديانى أشار إليها مولانا محمود أحمد القادرى[٢] والأستاذ حازم محمد أحمد عبد الرحيم المحفوظ[٣]، ولكن لم يعثر الباحث على هذه القصيدة بيد أن الأمل مازال يراود قلبه في الإطلاع على القصيدة

---

(١) إننا نحاول دراسة هذه القصيدة في الفصل الثالث من الباب الثانى لهذا البحث.

(٢) إمام أحمد رضا كى كياره عربى أشعار (أحد عشر بيتا عربيا للإمام أحمد رضا) لمولانا محمود أحمد القادرى (ط: الإصلاح پبلى كيشنز ملتان، بدون سنة الطبع)، ص ٣، ٤.

(٣) هو الأستاذ حازم محمد أحمد عبد الرحيم المحفوظ، المدرس المساعد بقسم اللغة الأردية كلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر الشريف، حصل على درجة التخصص الماجستير من قسم لغات الأمم الإسلامية بكلية الآداب جامعة عين شمس في عام ١٩٩٣م في اللغة الأردية وادابها، وإنه خلال الفترة الدراسية أجاد وأتقن اللغة الأردية، وبعد حصوله على درجة التخصص الماجستير قام بالتسجيل لدرجة الدكتوراه، وبعدها سافر عام ١٩٩٥م إلى جامعة بنجاب بمدينة لاهور استاذا زائرا بها وأمضى هناك خمسة عشر شهرا، وإنه خلال إقامته في باكستان قام بجمع وترتيب وتحقيق أشعار الشيخ أحمد رضا خان في ديوان عنوانه "بساتين الغفران".
راجع: بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان / رتبه الاستاذ حازم محمد أحمد (ط: ١، طبع بمشاركة أكاديمية رضا بمدينة ستاك بورت إنجلترا، ومجمع بحوث الامام احمد رضا، ورضا دار الاشاعة ١٤١٨هـ)، لاهور، ص ١٨:٢٤، ٤٤.

- المشار اليها - في المستقبل باذن الواحد الأحد، علما بأننى سألت محقق الديوان عن هذه القصيدة فأخبرنى بأنه علم بوجودها ولكنه لم يطلع عليها. وبذلك أكون قد أتيت على الحديث عن الوضع الثقافى في عصر شاعرنا، ولعلي أكون قد استطعت أن أوضح الأوضاع الثقافية التى عاصرها شاعرنا في وقت كانت الهند ترزح تحت نير الاستعمار وممارسة شرسة ضد التعليم الهندى المحلى، سواء كانت الثقافة إسلامية أم تتصل بموروثات الهندوس، وما دمنا قد حاولنا الوقوف على بعض سمات الوضع الثقافى الذى عاصره شاعرنا فلنربط الآن بينه والوضع الاجتماعى إبان وجوده، وهذا هو موضوع المبحث الثانى.

المبحث الثانى

الوضع الاجتماعى فى عصره

لقد حاولنا في المبحث الأول أن نبين أسباب قيام الإنجليز بتغيير الأوضاع الثقافية من الاستقرار إلى قلاقل في الهند فلننظر الآن إلى الحالة التى آلت إليها شبه القارة الهندية من الناحية الاجتماعية والاقتصادية، فنجد أن التدهور الاجتماعى والاقتصادى كان قد ألم بالمجتمع الهندى بشكل رهيب نتيجة لتصرفات الإنجليز الوحشية، حيث إنهم قتلوا النفوس وسلبوا النفيس ودمروا البلاد لترهيب الهنود المقهورين فحل بالمسلمين - على الأخص - دمار نتج عنه تدهور أحوالهم الاقتصادية أكثر من مواطنيهم الهندوس والسيخ كما اعترف الزعيم الهندوسى باندت جواهرلال فكتب في سيرته الذاتية أنه: "بعد سنة سبع وخمسين من القرن التاسع عشر الميلادى كانت اليد القوية للبريطان أشد وطأة على المسلمين منها على الهندوس"[١]

هذا ويخبرنا الكاتب الإنجليزى ويليام هنتر عن سياسة الاضطهاد التى قام بها الإنجليز ضد المسلمين بقوله[٢]: "إنه لن يجدينا أن نصم آذاننا عن هذه الحقيقة الماثلة من أن المسلمين الهنود قد ارتكبنا ضدهم أمورا خطيرة لم ترتكبها حكومة من الحكومات، إنهم يستطيعون مقاضاتنا عن هذه الأمور، يقاضوننا عن إغلاق كل

---

(١) العلامة محمد اقبال حياته وآثاره، للدكتور أحمد معوض (ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة، ١٩٨٠م)، ص ١١٨، ١١٩.

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامى، للدكتور أحمد شلبى، جـ ٨، ص ٣٢٣.

حياة كريمة في وجوههم، ويقاضوننا عن نظام الاقتصاد الذى حكم عليهم بالفقر، لقد عاش ملايين المسلمين في الهند بعد سقوط دولة المغول في تعاسة وشقاء بعد أن فقدوا كبرياءهم وأملاكهم وقوتهم".

ومن المعلوم أن الهنادكة قاموا جنباً إلى جنب مع المسلمين خلال الثورة الهندية حيث إنهم عاشوا مع المسلمين عدة قرون جيلاً بعد جيل في وفاق ووحدة، فساهموا في حركة استقلال الهند بالنفس والنفيس وإن كان المسلمون أكثر تحمساً لاسترداد الحرية والاستقلال، وهذا التضامن لم يكن في صالح الإنجليز إنما كان التفكك والشقاق ضامنين لتثبيت أقدامهم، لذا أخذ الإنجليز يخططون ويفكرون في خرق هذا الوفاق وبالتالى استجلاب الهنادكة. وعن هذا يخبرنا الدكتور أحمد محمود الساداتى قائلاً[١]: "إن المستعمرين البريطانيين أخذوا يزيفون تاريخ الحكم الإسلامى بالهند ويظهرون سلاطين المسلمين وعمالهم مظهر الطغاة، ثم انطلقوا من بعد ذلك يدعون الهنادكة إلى إحياء ماضيهم القديم قصد إثارتهم بذلك على مواطنيهم من المسلمين لينجلى كل ذلك فيما بعد عن مذابح رهيبة متكررة بينهم وخلافات عميقة متواصلة شغلتهم جميعا حينا طويلا من الدهر حمله مناوءة الحكم البريطانى بالهند... لقد بلغ من عداء الحاكم البريطانى لورد ألنبرو للمسلمين أنه أمر بنزع بعض بوابات رآها بغزنة حين دخل البريطانيون أفغانستان بزعم أنها أجزاء من معبد سومنات حملها محمود الغزنوى معه من الهند بعد أن خرب معبد الهنادكة في أوائل القرن الخامس الهجرى تقرباً إلى الهنادكة وتذكيراً لهم بما كان بين المسلمين وبينهم، وإشعالا لنار العداوة التى لم تكن موجودة قبل مجيئ الإنجليز إلى الهند". فكان كيد الإنجليز ناجحا بمعنى الكلمة فحل البغض والكراهية بين المسلمين والهنادكة محل الود والوحدة، واقترب الهنادكة من الإنجليز مبتعدين عن المسلمين، وهكذا تغير الحب والتوافق بين المسلمين والسيخ إلى كراهية وتنافر بل حروب

---

(١) تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية، للدكتور أحمد محمود الساداتى، جـ ٢، ص ٢٩٨.

حين تطلب الأمر وذلك بعد الجهد الذى بذله الاستعمار البريطانى في سبيل إيجاد الهوة بين المسلمين وغيرهم من شعوب الهند المختلفة. وهكذا نجح الإنجليز في استقطاب السيخ وتعكير صفو العلاقات بين المسلمين وطائفة السيخ أيضا. فاجتمع الإنجليز والهنادكة والسيخ على عداء المسلمين، واستملح الإنجليز فرصة الاضطهاد للمسلمين بكل بشاعة ووحشية مما أدى إلى تدهور المسلمين اجتماعيا واقتصاديا، وبهذا تحقق للإنجليز إذلال المسلمين للتنفيس عن الهزيمة في الحروب الصليبية والسيطرة على خيرات شبه القارة الهندية.

لقد اعترف ميكلم لويتس - أحد قضاة الإنجليز بمدينة مدراس - بكل ما ارتكبه بنو جلدته من جرائم تنافى الإنسانية فيقول[١]: "نحن أذللنا السادة في الهند ومسخنا قانون وراثتهم، وغيرنا قواعد الأعياد وعقود النكاح، وما وقرنا شعائر مذاهبهم بل كنا نضحك عليهم، ونجعل شعائرهم سخرية، وأخذنا أوقاف المساجد... وخربنا جميع البلاد، وفرضنا عليهم الضرائب الباهظة، وجعلنا أعزة أهلها أذلة يتيهون في الأرض". ومع ذلك لم ينقطع خوفهم من المسلمين فتعددت هجماتهم عليهم دون مراعاة لضمير أو شرف أو قانون وعن هذا يحدثنا الاستاذ عباس محمود العقاد قائلا[٢]: "إن الإنجليز عملوا على إضعاف شوكة المسلمين وإقصائهم من الوظائف كبيرها وصغيرها، وكان المسلمون أثناء إقامة دولتهم قانعين من الحياة العامة بالوظيفة الحكومية" وقد كشف الدكتور ويليام هنتر غطاء عن إقدام الإنجليز رسميا على إبعاد المسلمين من الوظائف الحكومية وذلك تقريبا للهنادكة فنجده يقول[٣]: "المسلمون وإن كانوا يملكون المؤهلات لوظيفة ولكنهم كانوا يمنعون عن

---

(١) تاريخ الإسلام في الهند، للدكتور عبد المنعم النمر، ص ٣٨٣.
(٢) القائد الأعظم محمد على جناح، لعباس محمود العقاد، ص ٢٨.
(٣) الإمام عبد الحى اللكنوى علامة الهند وإمام المحدثين والفقهاء، للدكتور ولى الدين الندوى (ط: دار القلم، دمشق، ١٤١٥هـ)، ص ٣٢.

ذلك ببلاغ رسمى، وقد أعلن في بعض البلاغات الرسمية أن الوظائف الفلانيـــة لا يقبل فيها إلا الهنادكة".

ويشير الدكتور أحمد شلبى إلى بعض الوظائف التى لـــم يصـــرح بذكرهـــا الدكتور وليام هنتر، تلكم الوظائف التى حرم المسلمون منها ببلاغات رسمية، ففـــي هذا يقول[١]: "إن الإنجليز من أجل استقرار الأحوال بالهند - كما يرغبون ويرون رؤيتهم في هذه الأمور - اتخذوا كل الوسائل التى تضعـــف المســـلمين ووضعـــوا قوانين جديدة لحكم البلاد، وعينوا قضاة للحكم بهذه القوانين من الإنجليز والهندوس، واستولوا على أموال الأوقاف التى كانت تنفق منها على التعليم ومراكز العبـــادة... واستبعد المسلمون كذلك من المناصب الكبرى، وكل هذا الوضع وضـــع حواجـــز ضخمة بين الإنجليز والمسلمين بوجه خاص".

هكذا تحققت أطماع الإنجليز في السيطرة على شبه القارة الهندية والحصـــول على ثرواتها وخيراتها مما جعل شبح الخراب يخيم على البلاد فتجرع الهنود بصفة عامة والمسلمون بصفة خاصة كأس الذل والفقر بعد أن كانوا أعز الناس وأغنـــاهم الأمر الذى دفع ولسن يرثى الهند قائلا[٢]: "إن جلب المال من الهند لإنجلترا جـــعل الهند جسما بلا روح، فإن استنزاف الدم من رجل مريض بفقر الدم يقضى عليه".

هكذا انتشر اليأس في أجزاء شبه القارة، وكل من استسلم للإنجليز اســـترجع مكانته الاجتماعية من الناحية الاقتصادية، فنشأ جو انتهازى، وكان المسلمون أكـــثر خسارة من غيرهم وذلك لعدم إقدامهم على الاستسلام للإنجليز اللـــهم إلا القليلـــون منهم الذين اشتروا الدنيا بالآخرة، وفي ضوء هذه الظروف نرى الكثيرين من علماء الدين الحنيف ومشايخ الطرق الصوفية حاولوا أن يقوموا بنشر الوعى الإســـلامى، واسترجاع المسلمين إلى مبادئهم الدينية، لعلهم في ذلك يجدون منفذا من مأزقـــهم،

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامى للدكتور أحمد شلبى، جـ ٨، ص ٣٢٣.
(٢) تاريخ الإسلام في الهند للدكتور عبد المنعم النمر، ص ٢٩٤.

وكان شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان من بين أولئكم المصلحين الصفوة الذين قاموا بدورهم كداعية ديني حينما كان الوضع الاجتماعي متدهورا من الناحية الاقتصادية ولم يكتف شاعرنا بأن يكون من الدعاة إلى التحلي بالأخلاق الفاضلة و القيم النبيلة فقط، بل كان رجل تفكير وتصميم وعمل، وفي هذا يقول الاستاذ الدكتور محمد مسعود أحمد[١]: "كان الشيخ أحمد رضا خان يقول: إن آمال الأمة وتطلعاتها لا تتحقق بمجرد العواطف، وإنما يلزم عنده التدعيم الاقتصادي للمنعة القومية والوطنية، مع توعية الشعب توعية صحيحة، وإصلاح أخلاقه وعاداته، وتقويم عقائده ونظرياته، فنظرا إلى الأوضاع الاقتصادية المتدهورة لمسلمي شبه القارة الهندية تقدم الشيخ أحمد رضا خان بالمبادئ الآتية من أجل تحسين تلك الأوضاع في العام الثاني عشر من القرن العشرين (أي قبل نهاية الحكم الإنجليزي بخمس وثلاثين سنة):

(١) يجب للمسلمين أن يحكموا في قضاياهم فيما بينهم سوى القضايا التي تتدخل فيها الحكومة الإنجليزية لئلا تستنزف الملايين من الروبيات (العملة الهندية) في المخاكمات.

(٢) وأن ينشئ الموسرون من المسلمين البنوك لإخوانهم في بومباي وكلكته ورانجون، ومدراس وحيدر آباد الدكن.

(٣) وألا يشتروا من غير إخوانهم المسلمين.

(٤) وأن يسعوا ويجدوا في نشر التعليم الديني".

من كان لا يعرف الشيخ أحمد رضا فسوف يتصور بعد الاطلاع على هذه النقاط الأربعة - أنه عالم اقتصاد، ولا أدري بأي الأمرين كانت ولادة هذه النقاط،

---

(١) انظر: الشيخ أحمد رضا خان البريلوي وشيء من حياته وأفكاره وخدماته للأستاذ الدكتور محمد مسعود أحمد، تعريب مولانا محمد عارف الله المصباحي (ط: مؤسسة رضا بلاهور، ١٤١١هـ)، ص ٧٧، وانظر: تدبير فلاح ونجاة واصلاح (تدبير الفلاح والنجاة والإصلاح) للشيخ أحمد رضا خان (ط: كلكته، ١٣١٣هـ).

بالإحساس أم الفكر أم بهما جميعا، وهذا ما أراه، انظر أيها القارئ الكريم كيف فكر الشاعر، وكيف أحس العالم الفقيه بما يصلح معه أمر المسلمين، إنه احساس شاعر وفكر عالم قد أملى هذه النقاط الأربعة، ومثل هذا الذى استوقفني وجعلني أختار الشيخ أحمد رضا خان لهذه الدراسة، ونلاحظ أن المبدأ الرابع، وإن لم يكن وثيق الصلة - في ظاهر الأمر - بعلم الاقتصاد ولكنه في نظر الشيخ أحمد رضا خان أساس للاقتصاد الإسلامى، لأن الاقتصاد إذا انفصل عن الدراسات الدينية كيف يحتفظ اتجاهه الإسلامى، فلابد إذن أن يكون الدين مصحوبا بكل علم حتى تتدفق العلوم من ينبوع الإسلام، وتنصب في بحره الذى لا ساحل له، وحينئذ يسقى العالم بعضه بعضا، ولا ننسى أن الدين الإسلامى أساسا عنى بسائر الأشياء المحيطة بالإنسان والتى فيها سعادته، ومن أهمها الناحية الاقتصادية، فقد تناولها الدين بالبحث والتفصيل زكاة وصدقة ومعاملات وغير ذلك مما يعين على إقامة الحياة الاقتصادية السليمة، ومن هذا المنظور نستطيع معشر المسلمين أن نتعلم كل علم معتزين بديننا الحنيف، دون التأثر بأى حضارة مهما كانت تدعى الرقى فإن الإسلام دين علم وفكرة وحضارة وعاطفة، فلا جهل ولا جمود ولا تنطع في الإسلام، وبهذا أعتقد أننى تحدثت عن الوضع الاجتماعى في عصر شاعرنا وقيامه بأداء مهمته.

المبحث الثالث
الوضع السياسى فى عصره

تمهيد

عرضنا فيما سبق لسيطرة الإنجليز على الهند وإحلالهم الزعزعة محل الاستقرار، والاهانة مكان الكرامة، والفقر موضع الغنى، والجهل في أرض كانت تنشر نور العلم، وإنهم بعد إحباطهم الثورة الهندية بلغوا القمة في الظلم والاستبداد لتغمر هيبتهم البلاد المقهورة ولا تقوم لأهلها قائمة، ولكنهم أحسوا بحاجة إلى حزب سياسي يكون حلقة الاتصال بين الشعب وحاكميه "فقام موظف إنجليزى مستر هيوم بوضع دستور حزب سياسي في العام الخامس والثمانين من القرن التاسع عشر الميلادى، وسمى هذا الحزب بـ "المؤتمر الهندى الوطني" فكان أول حزب سياسي أنشئ في البلاد، وإنه وإن كان من صنع الإنجليز فلم ير بعض المسلمين من بأس في الانضمام إليه"[١] فكان من المتوقع أن تقع رئاسة هذا الحزب في يد الهنادكة وهذا ما حدث فعلا، لأنهم كانوا مقربين من الإنجليز بينما كان المسلمون متباعدين مباعدين لدى الإنجليز، وكان المسلمون ينتظرون حسن التعامل من الهنادكة نظرا للتعايش السلمى الطويل معهم، لذا انخرطوا في سلك المؤتمر الهندى في بداية الأمر طمعا ورغبة في استقلال الهند من يد الإنجليز، وسعادة المسلمين تبددت بعد مرور

---

(١) محمد على جناح بانى باكستان، للدكتور احسان حقى، ص ٣٠.

عدة سنوات، فإنهم اكتشفوا سوء نية الهنادكة خلال التعامل معهم، وقد تمثلت هذه الظاهرة في تقسيم بنغال[١] وعلى إثر ذلك انسحب بعض المسلمين من حزب المؤتمر وأدركو أنهم لا يستطيعون أن يعتمدوا على الإنجليز ولا على الهنادكة لنيل حقوقهم بل عليهم أن يعتمدوا على الله - سبحانه وتعالى - ثم على أنفسهم، وأسفر هذا التفكير عن إنشاء حزب سياسى آخر يخبرنا عنه الدكتور إحسان حقى قائلا[٢]: "اجتمع زعماء المسلمين في شهر ديسمبر من العام السادس من القرن العشرين للميلاد في مدنية داكا عاصمة ولاية بنغال الشرقية، ووضعوا أسس منظمة سياسية إسلامية سموها "الرابطة الإسلامية" فكان لها من الأنصار أكثر مما يتوقع لأنها أصبحت لسان حال فريق كبير من المسلمين".

ومما هو جدير بالذكر أن شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان كان في نهاية العقد الثالث من عمره عند تأسيس "المؤتمر الهندى الوطنى" ولكنه لما سئل عن مساندة المسلمين للمؤتمر الهندى رد على هذا السؤال بحكمة الشيوخ فقال[٣]: "يجب على المسلمين ذوى التدبير والرأى المنظم وأصحاب النظر الدقيق في العواقب أن يمعنوا ويمحصوا جديا وبنظر دقيق فيما إذا كانت هذه المساندة للمؤتمر لا تبوء بالضرر والخسارة على المسلمين عاجلا أو آجلا فيصح لهم المشاركة في أنشطة المؤتمر الهندى وإلا فلا".

فكان شاعرنا الفقيه واثقا تمام الثقة فيما قال الله - سبحانه وتعالى - بشأن الموالاة للكفار والمشركين، فكان يرى الإنجليز والهنادكة من منظور واحد، يراهم غير مخلصين للإسلام والمسلمين، لم لا فالكفر ملة واحدة، ولما أحس شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان أن المسلمين المصابين بالانهيار الثقافى الطويل سيبتعدون

---

(١) المرجع السابق، ص ٣١

(٢) المرجع السابق. ص ٣٢

(٣) الشيخ أحمد رضا خان البريلوى وشئ من حياته وخدماته، للأستاذ الدكتور محمد مسعود أحمد، (ط: مؤسسة رضا لاهور، ١٤١١هـ)، ص ٥٢.

عن دينهم باندماجهم في المؤتمر الهندى أقدم على تشكيل منظمة باسم "رضائى مصطفى" (رضى المصطفى) بهدف إصلاح المجتمع وتنظيم المسلمين وذلك في العام الخامس والثمانين من القرن التاسع عشر الميلادى، وقد برزت هذه المنظمة فيما بعد على المسرح السياسى باسم "الجمعية العالية المركزية" وقامت بدور ملموس فى حركة استقلال باكستان[١] وإن شاعرنا لم ينضم إلى حزب المؤتمر ولا ليوم واحد، ولم يفكر في إيجاد الوحدة بين المسلمين والهنادكة، ونرى أن استقالة محمد على جناح من حزب المؤتمر - بعد قضاء خمسة وعشرين سنة عضوا بالمؤتمر الهندى الوطنى كداعية للوحدة والتقريب بين الهنادكة والمسلمين - خير دليل على إصابة موقف شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان بشأن عدم الثقة في الكفار، سواء كانوا نصارى إنجلترا أم هنادكة الهند، وقد عاصر شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان حركات سياسية مقرونة بالعواصف العاطفية، فكان بعض المسلمين اتخذوا غاندى زعيماً لهم وأخذوا يقتدون به بينما كان شاعرنا من الرجال الذين فطنوا إلى الجوانب السلبية لهذه الحركات في وقت مبكر وبالتالى وجه نقده إلى الذين اتخذوا غاندى قائداً لهم، وهذه الحركات تتمثل في حركة الخلافة، وحركة عدم التعاون مع الإنجليز، وحركة الهجرة، ولم يعاصر شاعرنا حركة استقلال باكستان فقد كان تلاميذه وخلفاؤه ضمن المؤيدين لحركة استقلال باكستان وذلك امتداد لفكر الشيخ أحمد رضا خان وجهوده الرامية إلى وقاية المسلمين من الوقوع في هاوية الموالاة للهنادكة والإنجليز، وهاكم فكرة موجزة عن الحركات السياسية التى حاولت القيام بدراستها والتى ألقيت عليها بعض الضوء.

(١) المرجع السابق، ص ٥١.

المطلب الأول
حـركة الخـــلافة

كانت حركة الخلافة أول حركة إسلامية بعد فشل الثورة الهندية، والتي كانت تتصف بالروح الثائرة ضد الإنجليز، فإن مسلمي شبه القارة الهندية بعد ما خسروا بلادهم واستقلالهم باستيلاء الإنجليز على آخر معقل من معاقلهم سنة سبع وخمسين بعد الثمانمائة والألف الميلادية، وكانوا يتطلعون إلى الإمبراطورية العثمانية باعتبارها ملاذا لهم، وكأنها بلدهم على اعتبار أنها بلد الخلافة الإسلامية، ويرون في وجودها سالمة تعزية لما أصابهم وتقوية لمعنوياتهم، ولذلك فقد كانوا يتمنون بقاء الخلافة الإسلامية سليمة قوية عزيزة ليظل لهم ظهر يستندون إليه[١]، ولكن هذا الحلم لم يتحقق مما أثار موضة الغضب في الأوساط الإسلامية بالهند، الأمر الذى أسفر عن نشأة حركة الخلافة، وفي هذا يقول الدكتور أحمد معوض[٢]: "ولما انتهت الحرب العالمية الأولى في الحادى عشر من شهر نوفمبر من العام الثامن عشر بعد التسعمائة والألف للميلاد كان من بين نتائجها أن الحلفاء قرروا فيما قرروا إنهاء الخلافة الإسلامية في تركيا (مع تقسيم تركة المريض) فكان لذلك رد فعل واسع في شبه القارة الهندية، الأمر الذى أدى إلى قيام حركة الخلافة... وهكذا قامت حملة واسعة في شبه القارة ترمى إلى دعم الخلافة الإسلامية وأنشئت لجنة الخلافة شاملة كل الهند، واتخذت مقرا لها في مدينة بومبائى، وفي العام العشرين

(١) محمد على جناح بانى باكستان، للدكتور إحسان حقى، ص ٣٣، ٣٤.
(٢) العلامة محمد إقبال حياته وآثاره، للدكتور أحمد معوض، ص ١٢٧، ١٢٨.

من القرن العشرين أختير الشاعر الإسلامى الدكتور محمد إقبال عضوا في لجنة البنجاب".

تولى مولانا محمد على جوهر وأخوه شوكت على زعامة حركة الخلافة في بداية الأمر، ولكنه لما رأى غاندى شعبية هذه الحركة رأى من الحكمة ألا يقف أمام التيار الذى يدعو إلى الخلافة العثمانية، بل لم يكتف بهذا فكان أبعد نظرا فاختار أن ينضم إلى هذه الحركة ويصبح من أعوانها مع كونه غير مسلم، ولم يكن هذا إلاذرا للرماد في عيون المسلمين، أو بعدا عن أن تناله سهام نقد المسلمين، أو طمعا في شعبية، حتى إذا ما حانت له الفرصة وواتته الظروف خرج على الحركة، وقد تزعم المسلمين العاطفيين أيضا، وقتها لم يفطن المسلمون لما وراء مبادرة غاندى، وها هو الدكتور اشتياق حسين القريشى يعرب عن موقف غاندى من حركة الخلافة فيقول[١]: "سرعان ما رأى غاندى أن الفرصة سانحة لجذب المسلمين إلى المؤتمر الهندى مع أن ذلك كان صعبا جدا، لذلك لم يتوان عن بسط نفوذه وهيبته على حركة الخلافة ومعه معظم أعضاء المؤتمر الهندى".

إن حركة الخلافة أحدثت ضجة في شبه القارة الهندية ولكنها لم تدرّ على المسلمين نفعا فظل محمد على جناح بعيداً عن السياسة في هذه الفترة[٢] كما كان الدكتور محمد إقبال قد استقال عن عضوية لجنة الخلافة للبنجاب[٣] وقال عن أعضاء لجنة الخلافة[٤] "إن جميع أعضاء لجان الخلافة لا يستحقون الثقة، فإن

---

(١) سيرة ميلاد الأمة، للدكتور اشتياق حسين القريشى، ترجمه إلى العربية الدكتور خليل جواد (ط: مؤسسة علا للطباعة والتوزيع بالدمشق، ١٩٩٦م)، ص ٥٠.

(٢) حقيقة باكستان الإسلامية أكبر دولة إسلامية في العالم، للدكتور محمد حسن الأعظمى (ط: مكتبة سليم الحديثة بالقاهرة)، ص ١١٦.

(٣) الإمام أحمد رضا خان الحنفى البريلوى وشخصيته الموسوعية، للأستاذ كوثر النيازى (ط: أكاديمية رضا لاهور، ١٤١٦هـ)، ص ٣١.

(٤) زنده رود (النهر الخالد) للدكتور جاويد اقبال، (الشيخ غلام على وأبنائه، لاهور)، جـ ٢، ص ٢٤٩.

بعضهم يبدون مسلمين في ظاهر الأمر ولكنهم إخوان الشياطين باطناً، ولذا كنت قد أقدمت على الاستقالة من الأمانة العامة للجنة الخلافة بإقليم بنجاب".

بينما كانت عاصفة غاندى تغمر العديد من الزعماء المسلمين فضلاً عن ألوف عامة الناس إذا بمصيبة أخرى تلم بالمسلمين يشير إليها المفكر الإسلامى عباس محمود العقاد قائلا[١]: "بينما الهند تغلى مراجلها بالثورة والمقاومة تارة والمقاومة الايجابية أخرى إذا بمصطفى كمال يلغى الخلافة، وينفى آخر الخلفاء العثمانيين من القسطنطينية".

نزلت هذه الفاجعة على المسلمين فأذهلتهم ودفعتهم إلى القنوط واليأس الشديدين، ومن هنا وجد غاندى فرصة لتحويل مجرى حركة الخلافة إلى حركة عدم التعاون مع الإنجليز، وذلك بعد الحيازة على الشعبية التى لم يكن حزب المؤتمر الهندى متمتعا بها، وبهذا وصلت حركة الخلافة إلى نهايتها المأساوية، وفي مثل هذه الظروف العصيبة انقسم الزعماء المسلمون فيما بينهم إلى قسمين، قسم يساند حزب المؤتمر، وقسم آخر نفض يده من السياسة يأساً وقنوطاً، وذلك لسيطرة غاندى على قلوب بسطاء المسلمين، ولكن شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان لم يزل بعيدا عن حركة الخلافة منذ تولية غاندى زعامة هذه الحركة، وكيف يثق في غير مسلم حين يتولى زعامة حركة الخلافة، فكان إيمانه القوى يمنعه من الاقتداء بغاندى ولا ليوم واحد، وقد برهنت الأيام على صدق موقف الشيخ أحمد رضا خان، والدكتور محمد إقبال، ومحمد على جناح من حركة الخلافة في حال زعامة غاندى لما قد ساير غاندى ومشى في صفه متخذا منه قائداً له، سواء كانت هذه القيادة للدعوة إلى حركة الخلافة أو لعدم التعاون مع الإنجليز، أو حين تولى المؤتمر الهندى، ومادمنا قد حاولنا أن نوفى الكلام حقه عن حركة الخلافة فلننتقل الآن إلى الحديث عن حركة عدم التعاون مع الإنجليز.

---

(١) القائد الأعظم محمد على جناح، لعباس محمود العقاد، ص ٦٠.

المطلب الثانى

حركة عدم التعاون مع الإنجليز

لقد كان غاندى تحقق له من الشهرة الواسعة والشعبية الهائلة والتبرعات الكثيرة باسم الخلافة ولكنه لما رأى المسلمين المصابين بالحزن والأسى الشديدين نتيجة لنهاية الخلافة العثمانية على يد مصطفى كمال أتا تورك أقدم على تغيير مسار العواطف الجياشة إلى حركة عدم التعاون مع الإنجليز؛ فلم يكن لدى المسلمين بصيص الأمل في عودة الخلافة، كما لم يكن لدى غاندى رغبة في عودة الخلافة العثمانية التى كان غاندى يلقى كلمات متحمسة للدعوة لها، على كل فإن غاندى غير مجرى حركة الدعوة إلى الاحتفاظ بالخلافة، وذلك بأسلوب لم يدرك المسلمون المخدوعون خطورته وغواقبه، فإنهم سرعان ما تناسوا الخلافة العثمانية وانكبوا على حركة عدم التعاون، وأخذوا ينقادون لغاندى حتى يقعوا فريسة مكره مرة أخرى، وذلك عند نشأة حركة عدم التعاون مع الإنجليز التى نشأت في العام العشرين من القرن العشرين الميلادى، وكانت هذه الحركة تهدف إلى إثارة الضغط على الإنجليز بمقاطعة مصنوعاتهم، ومقاطعة المؤسسات التعليمية الحكومية والأهلية - من المدارس والكليات والجامعات - التى تستمد من الحكومة معونتها، كما كانت هذه المقاطعة متمثلة في الامتناع عن سداد الضرائب الحكومية، والاستقالة من الوظائف الحكومية، وحاول غاندى أن يلحق بالمسلمين كل الضرر كنتيجة لهذه المقاطعة، - كما سنذكر ذلك - وأن تحظى الحركة بالنجاح على حساب المسلمين فقط، دون أن يتضرر الهنادكة، وقد استطاع أن يستميل بعض

علماء الدين الحنيف الذين تحمسوا لحركة عدم التعاون ووصفوا مقاطعة الإنجليز بحركة عدم الموالاة للإنجليز وإن كان غاندى في الحقيقة لم يناد إلا بعدم التعاون. وإنهم لم يدركوا أن المقاطعة في واد والموالاة في واد آخر، كما أنهم لم ينتبهوا إلى خطورة النازلة التى كانت على أهبة الاستعداد للإلمام بالمسلمين على يد غاندى مرة أخرى. وفي هذا يقول الأستاذ محمد صديق[١]: "إن تسمية هذه الحركة بحركة عدم التعاون مع الإنجليز سليم وصحيح، والإسلام لا يمنع من التعامل مع الكفار في الشئون المادية الدنيوية، لذا لا يعتبر المسلم كافرا وملحدا نظرا لتعامله مع الكفار، ولكن بعض المسلمين العاطفيين وصفوا هذه الحركة بحركة عدم الموالاة للإنجليز منطلقين من منظور الحكم الإلهى بهذا الشأن، وبالتالى وصفوا المسلمين المعارضين لهذه الفكرة بالملحدين، إلا أنهم اعتبروا أنفسهم مسلمين مع موالاتهم المفرطة للهنادكة المشركين".

إن كثيرا من علماء الدين الحنيف - في هذه الظروف - كانوا يرون عدم الموالاة للإنجليز والهنادكة معا، وكان منهم شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان ايضا، وفي هذا يقول الاستاذ كوثر النيازى[٢]: "إن الشيخ أحمد رضا خان كان يقول: إن الإسلام يطالب بعدم الموالاة للكفار، ولا يمنع من معاملتهم، والإضراب تتعلق بالمعاملة لا بالموالاة، وإن قاعدة عدم الموالاة لا تنطبق على الإنجليز فقط بل تنطبق على الهندوس أيضا، فتخصيص الإنجليز فقط دون الهنادكة لا مبرر له، وإن مقاطعة مشرك مع الموالاة لمشرك آخر لا تتمشى مع الإسلام، هذه خلاصة موقف الشيخ أحمد رضا خان من حركة عدم الموالاة للإنجليز التى نادى بها غاندى" وإن كان في حقيقة الأمر لم يناد إلا بعدم التعاون.

(١) بروفيسر مولوى حاكم على (الأستاذ المولوى حاكم على)، للأستاذ محمد صديق (ط: مكتبة رضوية لاهور، ١٩٨٨م)، ص ١٣٤.

(٢) الإمام أحمد رضا خان الحنفى البريلوى، للأستاذ كوثر النيازى، ص ٣٠، ٣١.

يقول الدكتور اشتياق حسين القريشي مبررا موقف الشيخ أحمد رضا خان من حركة عدم التعاون مع الإنجليز فيقول(١): "لما اجتمع مولانا محمد علي جوهر وأخوه مولانا شوكت على مع الشيخ أحمد رضا خان للحصول على الفتوى بشأن تأييد حركة عدم التعاون مع الإنجليز رد عليهما قائلا: إن سياستي تختلف عن سياستكما، أنتما تؤيدان الوحدة الإسلامية الهندوكية وأنا أرفضها مع أنني لا أخالف حرية المسلمين السياسية ولكنني أخالف ثقة المسلمين في الهنادكة".

ومن نفس المنطلق يقول الأستاذ إعجاز الحق القدوسي(٢): "إن الشيخ أحمد رضا خان كان شديد الكراهية للإنجليز ولكنه بثاقب نظره تفطن لعواقب حركة عدم التعاون مع الإنجليز (بالاعتماد على الهنادكة المشركين) فإنه كان يرى بفراسته الإيمانية أن المسلمين الهنود هم الأقلية، وأن هذه الحركة ليست إلا خدعة تستهدف الأغلبية الهندوسية بها أن تسحق الأقلية المسلمة، وإذا حظيت هذه الحركة بالنجاح فتؤثر الأغلبية الهندوسية في الأقلية المسلمة، من كل النواحي الاجتماعية، وليس ببعيد أن تذوب الأقلية المسلمة في الأغلبية الهندوسية في نهاية المطاف" وللأسف هذا ما حصل سياسيا واجتماعيا، أما من ناحية العقيدة فلم يستطع أحد أن يثني المسلمين عن عقيدتهم ولا يزحزحهم عنها مهما كانت السيطرة للهندوس باعتبارهم أزيد عددا.

وكان أبو الكلام آزاد ومولانا محمد على جوهر، ومولانا شوكت على من أبرز علماء المسلمين المتحمسين لحركة عدم التعاون مع الإنجليز، وكان غاندى يصطحب أبا الكلام آزاد في جولاته السياسية، ونرى غاندى يحث المسلمين - بمكر هندوسي وخدعة مميتة - على الامتناع من تعليم أبنائهم في المؤسسات

---

(١) Ulma in politic by Ishtiaq Husain Qureshi (Ma'aref Limited Krachi 1974 A.D.) p. 264.

(٢) إقبال اور علمائى بالــ وهند (إقبال وعلماء شبه القارة الباكستانية الهندية) للأستاذ إعجاز الحق القدوسى (ط: إقبال اكيدمى لاهور باكستان، ١٩٩٧م)، ص ٢٠٨.

التعليمية الحكومية والمؤسسات الأهلية التي تستمد من الحكومة معونتها، فيقول[١]: "إن فيكم أناسا وأبناؤهم يدرسون في الكليات والمدارس - الحكومية والأهلية - وإن مولانا آزاد أفتى بحرمة تعليمهم في تلكم المؤسسات. وإن شئتم فلا ترسلوا أبناءكم إلى تلكم المؤسسات من الصباح المقبل".

كان هذا موقف غاندى من إبعاد أبناء المسلمين عن المؤسسات التعليمية، وبالتالى إغلاق باب هائل من أبواب العلم، لا سيما أنه يقصد المؤسسات التعليمية الحكومية وغيرها من المؤسسات الأهلية التى تسهم الحكومة في معونتها وقد عضد كلامه برأى أبى الكلام آزاد، وبالتالي ينصب الحرمان من التعليم على أبناء المسلمين وما أخبثها من فكرة، وتعال معى أيها القارئ المفضال لننظر معاكيف كانت فكرة غاندى خبيثة، وإلى أى مدى بعيد كان رأيه حقيرا، استمعنا إلى رأيه ونصحه لأبناء المسلمين واستشهاده لهم برأى واحد من علمائهم ولكنه عندما قام بزيارته إلى جامعة بنارس - وللعلم هذه جامعة هندوكية معانة من الإنجليز - أبدى موقفا مختلفا عما سبق، وقد استند إلى رأى عالم هندوسى متطرف فوجه النصحية إلى الطلبة الهنادكة قائلا[٢]: "إننى أوافق باندت مالوى في رأيه حين قال: "على الطلبة أن يتخذوا قرارا بشأن عدم التعاون مع الإنجليز نظرا لتوصية ضميرهم" وإننى أقول لكم بكل تأكيد ألا تنفذوا قاعدة عدم التعاون مع الأنجليز إذا لم تقتنعوا بأدلتى بشأن هذه الحركة".

ومن هنا تتجلى شخصية غاندى ذات الوجهين، وجه للمسلمين ووجه آخر للهنادكة، وهذا منه إن دل على شئ فإنما يدل على ميله إلى أبناء دينه الهندوكى، كما يدل على حيدته وانحيازه للهنادكة وكراهية النفع للمسلمين مما يدل على عدم

---

(١) بروفيسر مولوى حاكم على، للأستاذ محمد صديق، ص ٩٨.

(٢) هندون سي ترك موالاة (الامتناع من الموالاة للهنادكة) للمنشى تاج الدين أحمد (ط: لاهور، ١٩٢٠م). ص ٢٠.

استواء نظرته لسائر الشعب الهندى، ومع ذلك لم يتبين أمره لبعض الزعماء المسلمين، فشهدت حركة عدم التعاون مع الإنجليز عصر العواصف العاطفية، فقد اعتمد المسلمون على العواطف أكثر من اعتمادهم على المبادئ الدينية والسياسية. فكان مكر غاندى وخداعه السياسي في قمة النجاح - من وجهة نظر غاندى - حيث لم يكن عامة المسلمين وبعض زعمائهم ينصتون إلى من يخالف حركة عدم التعاون، وإنما كانوا يتهمونه بعمالة الإنجليز، وغير ذلك الكثير من الافتراءات، وفي مثل هذه الظروف كان محمد على جناح صامتا ينتظر هدوء العاصفة، وفي هذا يقول الأستاذ رئيس أحمد الجعفرى[1]: "لم كان السكوت مسيطرا على زملاء محمد على جناح؟ ولماذا توقفت أنشطتهم؟ هل أصيبت قواهم العملية بالشلل؟ وألسنتهم بالبكم؟ وأذهانهم بالجمود؟ كلا، لم يكن ذلك كله بل كانت نظرات جناح تنظر في مرآة الحال وتبحث عن المستقبل فإنه لم يكن من المستسلمين لفيضان العواطف".

إن شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان كان من الذين لم ينقادوا لفيضان العواطف، والأمر الذى يميزه عن معاصريه هو أنه صمد في وجه الساسة المسلمين المخدوعين من غاندى والمستسلمين لفيضان العواطف، وقد جعله إيمانه القوى بالله - تعالى - لا يخاف في الحق لومة لائم، فكان رفع راية الحق عنده أهم مما يراه البعض احتفاظا بالكرامة مؤقتا، وفعلا قد استهدف شاعرنا بالاتهامات والافتراءات، ولكنه عندما هدأت العاصفة وسكنت العواطف المتأججة انجلت الحقائق، وبالتالي برز صدق النظرة عند شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان وصحة التفكير، فلم يكن شاعرنا وحيدا في اتخاذ موقفه من حركة عدم التعاون بل كان هذا موقف لفيف من علماء الدين والساسة ومنهم الدكتور محمد إقبال ومحمد على جناح أيضا.

---

(١) حيات محمد على جناح (حياة محمد على جناح)، للأستاذ رئيس أحمد الجعفرى، (ط: كتب خانه افس بومبائى، الهند)، ص ١٠١.

هذا وتحققت توقعات شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان بشأن اتخـــاذ المســلمين العاطفيين شخصية غاندى زعيما لهم واستغل غـــاندى صفـو العلاقــات الطيبــة والتعاون ما بين المسلمين المخدوعين والهندوس حيث كان المسلمون المخدوعــون قد اقتربوا من الهندوس وكان سوء النية عند الهندوس الذين كانوا يخططون لــــهم، ومن ضمن حيل غاندى في السطو على فكر بعض المسلمين حيلته التى قام ينـــادى بها، وفحواها أن يتجنب المسلمون ذبح البقر في يــوم الأضحـــى مشــاركة منــهم للهندوس الذين يحرمون ذلك وفق ديانتهم، والذى ينادى به غاندى هو تحريم هــــذا العمل في يوم واحد من العام، وكأن ذلك أمر يهون على المسلمين حتـــــى تكتمــل الدعوة إلى القومية المتحدة وتتحقق بذلك الألفة بين أبناء الشعوب التى تقيم فى شـبه القارة. وقد إرتآى بعض المسملين من ذوى الرأى الضعيف أن طلب غاندى أمــــر هين لا بأس بالانقياد له فتصدى شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان لـــهاتين الفكرتيــن أيضا، ورفع راية الشريعة الإسلامية وعزز موقف كل من الدكتور محمد إقبـــال و محمد على جناح، ونرى بعد نظره في أوضاع عصره من خلال مطالعة موقفه من هاتين الفكرتين.

المطلب الثالث
حـــركة الهجـــــرة

نشأت حركة الهجرة بعد حركة الخلافة وحركة عدم التعاون مـــع الإنجلـــيز وذلك في العام العشرين من القرن العشرين الميــــلادى، فحركـــة الـــهجرة ثالثـــة الحركات التى نشأت في الهند، ونظرا لأن الهند لم تكـــن مـــن الناحيـــة السياســـية تستطيع الوقوف على قدميها وكانت نشأة هذه الحركات الثلاث متتابعة واحدة بعـــد الأخرى، ولم تكن تجتمع حركة مع حركة ثانية بل تعد هذه الحركات متولدة بعضها من بعض، فالإنجليز ينالون من كل دعـــاة السياســـة ويخططـــون للـــهند لتصبـــح إمبراطوريتهم العظيمة في الشرق حيث كانت نيتهم ألا يفارقوا هذه الأرض وبالتالى لأن لهم رغبة في أن يرسخوا جذورهم في الهند وأنى لهم ذلـــك؟ وإن كـــانوا قـــد استطاعوا أن يسوموا أهلها ألوان الخسف والهوان كما هو الحال المنتظر مـــن أى مستعمر غاصب، لا سيما إن كان ذلك هو الجندى البريطانى الـــذى تعـــود علـــى الخروج من بلده والمعيشة في أرض غير أرضه يسقى أهلها كأس المرارة ويـــأخذ بخناقهم، فلا يستطيع واحد منهم أن يشم هواء إلا إن كان فاسدا يرضى المســـتعمر عن مروره إلى صدره، وهذا ما كان من أمر الهنود لا سيما أولئك الذيـــن خافـــهم الاستعمار وحسب لهم ألف حساب، وسلط عليهم بنى وطنهم ليعادوهم أيضا، إذا كل من الإنجليز والهنادكة كانوا يتمنون عدم عودة الحكم الإسلامى فقد حاول الإنجلـــيز كل المحاولة أن يتم انهيار المسلمين اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا وسياسيا، وفعلا لحق بالمسلمين من الضرر ما لم يحدث في الماضى، ولكن الهنادكة ظلوا خـــائفين مـــن

النهضة الإسلامية حتى بعد اطمئنان الإنجليز على انهيار المسلمين، فأخذوا يخططون لتنفيذ نواياهم، ولقد خسر المسلمون المنكوبون خلال حركة الخلافة وحركة عدم التعاون ما خسروا وبالتالى فإن غاندى لم يطمئن بعد كل هذا، فقد دبر خدعة أخرى انطلت كذلك على بعض علماء الدين الحنيف السائرين في ركبه، فأخذ أولئكم العلماء ينشرون في ستار من الدين فكرة غاندى المعادية للإسلام في حقيقتها، يقول الاستاذ حبيب الله خان[١]: "إن اللجنة المركزية للخلافة قامت بتوجيه المسلمين إلى الهجرة بوصاية من غاندى فحسب عامة المسلمين - وبالطبع غير المثقفين - أن الهجرة فريضة دينية مقدسة فقاموا بالهجرة إلى أفغانستان".

يقول أحد كبار المحققين الأتراك مبينا حركة الهجرة من منظورها الحقيقى[٢]: "كان غاندى يخاف الكفاح الإسلامى المسلح للاستقلال فشجع اقتراح الهجرة، وتقول الوثائق العلمية أن ثلاثين ألف مسلم من الموظفين والتجار تركوا وظائفهم وتجارتهم وبيوتهم قاصدين الأناضول عن طريق أفغانستان، ولكن لقى عدد كبير منهم مصرعهم نظرا لظاهرة الجوع وتفشى الأمراض". وهنا يطرح السؤال نفسه: ماذا أصاب الإنجليز من ضرر كنتيجة لهذه الحركة، وما الذى أفاده المسلمون من الهجرة؟ وإنما نرى أن الإنجليز لم يتضرروا، وأن المسلمين لم ينتفعوا بل تجرع المسلمون كأس الخسارة، منهم الذين لقوا مصرعهم في سبيل الهجرة ومنهم من استطاعوا أن يعودوا إلى أرض الهند ولكنهم لم يتمكنوا من استرداد نعيم الحياة، وبالطبع عاشوا بؤساء تعسين تحت حد الفقر، وفي هذا يقول

---

(١) برصغير باك هندكى سياست مين علماء كاكردار (دور العلماء في سياسة شبه القارة الباكستانية الهندية) للأستاذ حبيب الله خان (ط: قومى إدارة براى تحقيق وتاريخ وثقافت إسلام أباد، ١٩٨٥م)، ص ١٦٤.

(٢) تحريك خلافة (حركة الخلافة) للدكتور ميم كمال اوكى (ط: سنك ميل ببلى كيشنز لاهور، ١٩٩١م)، ص ١٤٨.

الاستاذ رئيس أحمد الجعفرى[١]: "لما نشأت حركة الهجرة هاجر ثمانية عشر ألفا من بسطاء المسلمين بعد أن باعوا بيوتهم وعقاراتهم بثمن بخس ودراهم معدودة، وكانت أغلبية المشترين من الهنادكة، ولكن المسلمين طردوا من أفغانستان إلى الهند، فرجعوا بالآمال الخائبة والأحلام الضائعة، ولقد لقى البعض حتفه في سبيل هذه الهجرة، والذين تمكنوا من العودة إلى بلادهم عادوا منهارين طريدين ومصابين بالفقر والإفلاس الرهيبين لا يجدون من يمد إليهم يد العون، وإذا لم تكن هذه الفجيعة هلاكا فما هى"؟.

وهكذا وصلت حركة الهجرة إلى نهايتها المأساوية التى دبرها ذهن غاندى ولم يفطن إليها الساسة المسلمون العاطفيون، وكان لبعض علماء الدين الحنيف دور في دفع هذه الحركة إلى الأمام حيث إنهم أفتوا بأن الهند دار الحرب وكانت حركة الهجرة نتيجة منطقية لاعتبار الهند دار الحرب حيث كانت المناقشات حائمة حول هذه المسألة، ولقد كان اعتماد بعض العلماء السائرين في ركب غاندى على فتوى بعض العلماء الذين ذهبوا إلى أن الهند دار الحرب، أما شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان فكان من بين من أمعن النظر في هذا الأمر، وفي نهاية المطاف أدلى برأيه الذى لم يكن بمعزل عن موقف الكثيرين من أصحاب البصيرة الثاقبة من معاصريه من هذه المسألة فنراه يقول[٢]: "إن هناك ثلاثة أمور تحول دار الإسلام إلى دار الحرب على رأى إمامنا الأعظم أبى حنيفة النعمان: منها أن تكون أحكام الشرك مفروضة على المرأى والمسمع، ولا يتمكن المسلمون من العمل بأحكام الشريعة الإسلامية، ولا تحظى شعائر الإسلام بالحرية، ولكنه لا يوجد في الهند ما ينطبق عليه القاعدة المذكورة آنفا"، ومن هذا المنطلق رأى شاعرنا الفقيه أن الهند دار

---

(١) قائد أعظم اورأن كاعهد (القائد الأعظم وعصره)، للأستاذ رئيس أحمد الجعفرى (ط: مقبول اكيدمى لاهور، ١٩٦٢م)، ص ١٠٢، ١٠٣.

(٢) إعلام الأعلام بأن الهند دار الإسلام، للشيخ أحمد رضا خان (ط: حسنى بريس بريلى، دون تاريخ الطبع)، ص ٢.

الإسلام، ولم يكن بمعزل عن معاصريه في هذا الرأى، بل جرى على هذا النحو الشيخ جمال ابن عبد الله مفتى الأحناف بمكة المكرمة، والعلامة أحمد زينى دحلان مفتى الشافعية بمكة المكرمة، والشيخ حسين بن إبراهيم مفتى المالكية بمكة المكرمة[١] والشيخ كرامت علي الجونفورى – خليفة السيد أحمد البريلوى[٢] – ومولانا عبد الحى الفرنجى محلى[٣] والشيخ أشرف على التانوى[٤] والشيخ صديق حسن خان البوفالى[٥].

هذا كان موقف شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان في شأن كون الهند دار الإسلام وكذلك موقفه من حركة الهجرة التى أسفرت عن نهاية مأساوية، فكان لا يرى هذه الهجرة من الإسلام بشئ بعدما ثبت من الأدلة الدامغة أن الهند دار الإسلام، ولكن العلماء السائرين في ركب غاندى لم يستسلموا للحكم الشرعى الذى بينه الشيخ أحمد رضا خان وأيدته آراء علماء الحرمين الشريفين وعلماء الهند، وهكذا تصدى شاعرنا للحركات السياسية التى عاصرها ولم يخف في إعلاء كلمة الحق لومة اللائمين.

لقد صب الإنجليز على المسلمين بحار المصائب وأنواع العذاب فأقدموا على إذلالهم بكل قسوة ووقاحة حيث إنهم قتلوا النفوس وسلبوا النفيس متناسين الإنسانية والمبادئ الخلقية وزرعوا الأحقاد في قلوب طائفتى السيخ والهنادكة ضد المسلمين، فحاول الهنادكة أيضا أن ينالوا من المسلمين، وكانوا قاب قوسين أو أدنى من بغيتهم

---

(١) إسلامى مجلس مذاكره علميه (الندوة الإسلامية للمناقشة العلمية) للشيخ كرامت على الجونفورى (ط: نولكشور، لكهنو بالهند، دون تاريخ الطبع)، ص ٢٩ : ٤٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٣.

(٣) مجموعه فتاوى (مجموعة الفتاوى) لمولانا عبد الحى الفرنجى محلى (ط: مطبع يوسفى بلكنوء، دون تاريخ الطبع)، جـ ١، ص ٣٠٢.

(٤) تحذير الإخوان، للشيخ أشرف على التانوى (ط: تهانه بهون الهند) ص ٩.

(٥) ترجمان الوهابية (لسان حال الوهابية) للشيخ صديق حسن البوفالى (ط: مطبع محمدى لاهور)، ص ١٥.

ولكن شاءت القدرة الإلهية أن تخرج الأمة الإسلامية من مأزقها، فانتخب ربنا - تبارك وتعالى - من عباده شخصيات مثل شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان، والدكتور محمد إقبال، ومحمد على جناح، وغيرهم الكثير والكثير، فتحققت - بإذن الله - أحلام الأمة الإسلامية الضائعة بميلاد حركة باكستان.

المطلب الرابع

حركة استقلال باكستان

إن حديثنا عن حركة استقلال باكستان من باب إتمام الفائدة، وذلك لأن شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان لم يمتد به العمر حتى يشهد هذه الحركة ولكنه ساهم في نهضة الأمة الإسلامية وبث روح الذاتية في النفوس المؤمنة بالله تعالى في وقت مبكر، والامتناع عن الموالاة للهنادكة والإنجليز، فتقدم برسالة تحمل اسم "تدبير الفلاح والنجاة والإصلاح" وذلك في العام الواحد والثلاثين بعد الثلاثمائة والألف للهجرة، الموافق للعام الثانى من القرن العشرين الميلادى، كما ألف رسالة أخرى في العام التاسع والثلاثين من القرن الرابع عشر الهجرى الموافق للعام العشرين من القرن العشرين الميلادى، وفيها نبه على عواقب حركة عدم التعاون مع الإنجليز وإقدام المسلمين على الموالاة للهنادكة، وإنه أسمى هذه الرسالة "المحجة المؤتمنة في الآية الممتحنة"(١) وبهذا فقد وضع شاعرنا حجر الأساس للنظرية التى عرفت فيما بعد بتمايز الأمتين (حركة استقلال باكستان) فإنه كان يرى أن المسلمين أمة والكفار أمة أخرى، سواء كانوا بشكل الإنجليز أو الهنادكة، فلا موالاة للكفار، ولا يستطيع غير المسلمين أن يمكنوا المسلمين من الحكم، ولا نستطيع أن نتخذهم بطانة، فقام بالرد على الدهريين حينا وعلى القاديانيين الموالين للإنجليز حينا آخر، كما وجه نقده للزعماء المسلمين الموالين للهنادكة أيضا، وكان شاعرنا قد أعد

---

(١) تحريك ازادى هند اور السواد الأعظم (حركة استقلال الهند وموقف السواد الأعظم منها)، للأستاذ الدكتور محمد مسعود أحمد، (ط: ضياء القران يبلى كيشنز، لاهور ١٩٨٨م)، ص ١٤٣

كوادر علمية وشخصيات متماسكة بالمبادئ الإسلامية الذين قاموا بدفع حركة استقلال باكستان إلى الأمام.

هذا وقام محمد على جناح - على الصعيد السياسى - بمحاولة سياسية مخلصة دامت ربع قرن للتقريب بين المسلمين والهنادكة ولكن دون جدوى، فتأكد محمد على جناح أنه لا يمكن إيجاد وحدة بين هاتين الأمتين، أما الدكتور محمد إقبال فيعرب عن موقفه من الوحدة الإسلامية الهندوكية حيث يقول[١]: "إننى أيضا كنت ضمن المسلمين المؤيدين لنظرية القومية الهندية الواحدة، ولعلى أول من نادى بهذه النظرية ولكن التجارب (المرة) وسعة الأفق غيرت فكرتى هذه". وبهذا اجتمعت أفكار هؤلاء الثلاثة على التمسك بالمبادئ الدينية والابتعاد عن الموالاة للكفار، الأمر الذى أسفر عن قيام أكبر دولة إسلامية في العالم، والتى كانت ثمرة كفاح طويل حوالى سبع عشرة سنة، بدأ صريحا من العام الثلاثين من القرن العشرين للميلاد، فكان كل من الإنجليز والهندوس وطائفة من السيخ يضيق ذرعا أن يعود الحكم إلى المسلمين، وليس هذا فحسب بل كانوا يريدون أن يعيش المسلمون أقلية محرومة من حقوقها، والمصيبة الكبرى التى ألمت بالمسلمين وفاقت بلايا الإنجليز والهنادكة والسيخ تمثلت في انحراف التفكير عند بعض المسلمين ذوى العقل السطحى، والذين استغل مكر غاندى وخداعه بساطتهم وسذاجتهم فأوقعهم في هاوية الموالاة للهنادكة تحت ستار حركة الخلافة تارة وحركة عدم التعاون مع الإنجليز تارة أخرى وحركة الهجرة تارة ثالثة، فأخذوا يسيرون في ركب غاندى مؤيدين لفكرة "القومية الهندية الواحدة" وتمثل هؤلاء المخدوعون في

(١) زنده رود، للدكتور جاويد إقبال، جـ ٢، ص ٢٤٩.

جمعية علماء الهند[١]، ولقد تمكن الدكتور محمد إقبال ومحمد علـــي جنـاح مـن الصمود في وجه الإنجليز والهنادكة ولكن لولا تلاميذ شاعرنا الشيخ أحمـد رضـا خان ومريدوه وصفوة علماء أهل السنة ومشايخ الطرق الصوفية المساندون لحركـة استقلال باكستان لما تمكن الدكتور محمد إقبال ومحمد على جناح مـــن التصـدى لهؤلاء العلماء الغانديين الذين أصروا على الموالاة للهنادكة والتمسك بقاعدة القومية الواحدة، واستمرار المساندة لحزب المؤتمر الهندى الوطني، ونلاحظ أن شـــاعرنا الشيخ أحمد رضا خان قام بدور الجندى المجهول حيث إنه نادى بفكرة عدم الموالاة للكفار - كما سبق أن ذكرنا - في العام العشرين من القرن العشرين، وبهذا وضـع أساسا لفكرة "التمايز القومى" في حين لم يجاهر بها أحد في تلك الآونة، وكان ابنـه مولانا محمدحامدرضاخان، وابنه مولانا محمد مصطفى رضاخان وتلاميـــذه ضمـن علماء أهل السنة والجماعة الذين أيدوا فكرة التمايز بين الأمتيـــن، وســاهموا فـــي حركة استقلال باكستان، ووقفوا في وجه مكائد غاندى، كما تصـــدوا للـرد علـــى البسطاء من الزعماء المسلمين المخدوعين بآراء غاندى، وبهذا أعتقد أننى أكملـــت حديثى عن الأوضاع السياسية التى عاصرها شاعرنا الشيخ أحمد رضا خـــان، وإن كانت باكستان نالت استقلالها بعد وفاته بسنوات غير أنه دون أدنى شك كان نتيجـة لفكرة عدم الموالاة للكفار التى نادى بها شاعرنا الشيخ أحمد رضا خــــان، والتـــى عرفت فيما بعد بفكرة التمايز بين الأمتين، وكان تلاميذ شاعرنا ومريـــدوه امتـــدادا لجهوده الرامية إلى استقلال المسلمين من أغلال الموالاة للإنجليز والهنادكة.

---

(١) يقول الشيخ محمد مصطفى محمد جميعة عن طائفة علماء الدين الحنيف الذين أصيبـــوا بخدعـــة غاندى والذين تمثلوا في جمعية علماء الهند: تقدم جماعة العلماء الهندية بصيغة سياســـية بنـــاءة تهدف إلى قبول المسلمين بشرعية الدولة الهندية والمشاركة في سياســـتها... وعـــارضت قيـــام باكستان، وأيدت حزب المؤتمر في كفاحه ضد الاستعمار البريطانى. انظر: رحلة الإمام الأكـــبر إلى الهند للشيخ محمد مصطفى جميعة (ملحق مجلة الأزهر لشهر رجب ١٤١٧هـ)، ص ٤٤.

لاحظنا من خلال دراسة الأوضاع السياسية المعاصرة لشاعرنا الشيخ أحمد رضا خان أنه لم يتخذ موقفه من الحركات السياسية المعاصرة له في عجالة اعتمادا على العواصف العاطفية أو التوجيهات من غير المسلمين، لذا لم نجده مضطرا إلى التخلي عن رأيه في اتخاذ الموقف الصائب من عضوية المؤتمر الهندى الوطنى، ومساندة حركة الخلافة، وحركة عدم التعاون مع الإنجليز، وحركة الهجرة، فإنه صمد في وجه الموالاة للإنجليز مرة وللهنادكة مرة أخرى بكل ثقة وفهم دقيق لما قال الله – سبحانه وتعالى – ورسوله – ﷺ – بشأن الموالاة للكفار، الأمر الذى دفع الدكتور محمد إقبال إلى أن يقول عن الشيخ أحمد رضا خان[1]: "إنه تعود على التفكير العميق قبل إظهار الرأى (في المسائل المطروحة عليه)، وهذا هو السبب في تصلبه بآرائه وعدم احتياجه إلى الرجوع في فتاواه".

(١) مقالات يوم رضا، للأستاذ عبد النبى كوكب، (ط: دائرة المصنفين، لاهور، دون سنة الطبع)، جـ ٣، ص ١٠.

الفصل الثاني

موطنه، مولده، وفاته

يشتمل هذا الفصل علي النقاط التالية:

= اسمه ومولده.

=أحوال أجداده.

= نشأته.

=موطنه.

=خلقه.

=حياته الأسرية.

=وفاته.

الفصل الثانى

موطنه ، مولده ، ووفاته

تفتحت عين شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان البريلوى قبل الثورة الهندية بعام في الظروف القلقة والأحداث الرهيبة، وعاصر الحركات السياسية التى سبق أن أشرت إلى طرف منها، وكانت الهند آنئذ تغلى كالمرجل من ظلم الاستعمار البريطانى الغاشم فكان لذلك تأثير قوى في حياة الشيخ أحمد رضا خان من حيث حبه للإسلام والمسلمين وكراهيته للاستعمار البريطانى بل كل ملة تخالف دين الإسلام.

ولد شاعرنا - موضوع البحث - في أسرة عريقة ميسورة حال، اشتهرت بالعلم والعمل الصالح والمحافظة على شعائر الدين، يشير إلى مولده الأستاذ الدكتور محمد مسعود أحمد[١] حيث يقول[٢]: "ولد الشيخ أحمد رضا خان في العاشر من شهر شوال من العام الثاني والسبعين بعد المائتين والألف للهجرة، الموافق للرابع عشر من شهر يونيو من العام السادس والخمسين بعد الثمانمائة والألف للميلاد بمدينة بريلى".

---

(١) هو الأستاذ الدكتور محمد مسعود أحمد، المولود سنة ١٩٣٠م بمدينة دهلى، يعرف برائد الدراسات الرضوية ليس في باكستان وحدها بل في الهند أيضا، وقد قام فضيلته بتأليف مصنفات علمية تتجاوز المائة، ويرأس فضيلته اليوم مجمع بحوث الإمام أحمد رضا بمدينة كراتشى، وإنه شيخ الطريقة النقشبندية، تدرج في الدرجات العلمية حتى وصل إلى درجة أستاذ وعمل عميدا لبعض الكليات وسكرتيرا لوزارة التعليم بإقليم السند حتى بلغ سن المعاش.
انظر: بساتين الغفران للشيخ أحمد رضا خان، ص أ (مقدمة).

(٢) الشيخ أحمد رضا خان، للأستاذ الدكتور محمد مسعود أحمد، ص ١٦.

يقول مولانا محمد ظفر الدين البهارى[١] عن اسم شاعرنا[٢]: "إنه سمى محمدا، والمخت
اسمه التأريخى[٣]، وسماه جده بأحمد رضا فاشتهر (شاعرنا موضوع البحث) بهذا الاسـ
هذا والأستاذ حازم محمد أحمد المحفوظ قام بالجمع بين الاسمين فمال إلى أن يكتب: محم
أحمد رضا خان[٤] وهو أول من جاء بهذا الأسلوب المبدع في تسمية شـــاعرنا، ويعتقـ
كذلك أنه فعل هذا نظرا لعادة أهل السنة في شبه القارة الباكستانية الهندية حين يضيفـــو
لاسم كل واحد منهم لقب محمد في بداية الاسم، ولكننى استخدمت اسم الشاعر حيث اشتهر
في الأوساط العلمية منذ زمان.

أحوال أجداده

ينحدر شاعرنا من أسرة أفغانية نزحت من مدينة قندهار الواقعة حاليا في أفغانستان
واستوطنت بمدينة لاهور الواقعة فى باكستان حاليا، ثم تركتها إلى مدينة دلهى – عاصمـة
الهند اليوم – واقاموا فيها ما شاء الله لهم أن يقيموا، ثم إنتقلوا إلى مدينة بريلى الواقعة فـي
إقليم يوبى (أوتار برديش) في الهند، يقول الأستاذ إعجاز الحق القدوسى في هذا الصدد[٥]:

(١) هو من خيرة تلاميذ الشيخ أحمد رضا خان ممن أغرم بالجلوس إليه ليستقى من علمه فـي
المعهد الذى أقامه شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان باسم منظر إسلام، ولد مولانا محمد ظفر الديـن
البهارى في عام ١٣٠٣هـ الموافق للعام ١٨٨٠م تنقل من مدينة لأخرى لدراسة العلوم الإسلامية
والعربية، وألقى عصا الترحال حين وصل إلي الشيخ أحمد رضا خان في عام ١٣٢٢هـ وبعـد
سنة أخذ يدرس في منظر إسلام ودام يدرس أربعة سنوات هناك حيث تشرف بالإفادة العظيمة من
علوم الشيخ أحمد رضا خان، ويرجع إليه الفضل أنه من أوائل الكتاب الذين ترجموا حياة الشـيخ
أحمد رضا خان في كتابه الشهير بالأردية تحت عنوان "حيات أعلى حضرت".معناه بالعربية "حياة
الحضرة العالية" وللأسف الشديد لم تعرف ثلاثة أجزاء من هذا الكتاب طريقها إلى المطبعة حتـى
اليوم، توفى مولانا محمد ظفر الدين البهارى في عام ١٣٨٢هـ الموافق للعام ١٩٦٢م.
انظر: تذكره علماء أهل سنت (تراجم علماء أهل السنة) لمولانا محمود أحمد القادرى (ط: سـنى
دار الاشاعت فيصل اباد باكستان ١٩٩٢م)، ص ١٠٩ : ١١٢.
وانظر: حياة ملك العلماء (حياة ملك العلماء)، للأستاذ الدكتور مختـار الديـن أحمـد (ط: إدارة
معارف نعمانية لاهور، باكستان، ١٩٩٣م)، ص ٩.

(٢) حياة اعلى حضرت (حيات الحضرة العالية) لمولانا ظفر الدين البهارى (ط: المكتبـة الرضويـة
كراتشى الطبعة الأولى)، جـ ١، ص ٢.

(٣) لقد اعتاد بعض أهل الهند بتسمية أولادهم اسما تاريخيا والذى يدل على عام ولادة المولود حسـب
أعداد الحروف وفق النظام بحساب الجمل.

(٤) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان، ص أ (المقدمة).

(٥) إقبال اور علمائ ياكـ وهند، لاعجاز الحق القدوسى، ص ٢٠٥.

كان الشيخ أحمد رضا خان ينتسب إلى قبيلة أفغانية كريمة ذات وجاهة تسمى برهيج، وهو أحد الفروع من الباتان".

وكان أجداد شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان أصحاب مناصب في حكومة الدولة المغولية وفيما يلى أحوال أجداده بالإيجاز حيث وجدت في المصادر والمراجع.

(١) شجاع الحرب سعيد الله خان القندهارى:

هو الجد الخامس للشيخ أحمد رضا خان من جهة والده، يقوم بتعريفه مولانا بدر الدين أحمد حيث يقول(١): "كان محمد سعيد الله خان منحدرا من القبيلة الأفغانية برهيج باتان، أحدى القبائل المعروفة في أرجاء قندهار، نزح إلى مدينة لاهور في عصر الدولة المغولية حيث عين في منصب رفيع... ثم انتقل إلى دلهى واستوطنها".

ويحدثنا مولانا حسنين رضا خان ابن أخ شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان عن جده الأعلى سعيد الله خان فلنستمع إليه حيث يقول(٢): "إن هناك رواية عن جدنا الأعلى سعيد الله خان يرويها أفراذ أسرتنا جيلا بعد جيل مجملها أنه كان قد عهد له والده بولاية العهد من بعده بدولته التى كان يتخذ من مدينة قندهار عاصمة لها، وحدث أن ماتت أمه وهو مازال صغيرا وعندما بلغ سن الرشد حاولت زوجة والده الثانية أن تجعل من ابنها وليا للعهد بدلا من سعيد الله خان، وسعت من أجل الوقيعة بين سعيد الله خان ووالده مما ترتب عليه حدوث الحقد بين الوالد وولده، فاضطر إلى مغادرة مسقط رأسه والهجرة إلى مدينة لاهور، وقد رافقه بعض أصدقائه في هذه الهجرة، وعند وصوله إلى مدينة لاهور استقبلهم حاكم لاهور بكل ترحيب وأرسل خطابا إلى البلاط المغولى بدلهى مخبرا فيها بأن أميرا قندهاريا غادر وطنه لظروفه الخاصة به ونزل بمدينة لاهور، فأمر الملك باستضافة الأمير القندهارى وإنزاله بالقصر الزجاجى (بقلعة لاهور أمام المسجد الملكى).

---

(١) سوانح إمام أحمد رضا (أحوال الإمام أحمد رضا) لمولانا بدر الدين أحمد القادرى (ط: مكتبه نوريه رضويه سكهر باكستان، ١٤٠٧هـ)، ص ٩٣.

(٢) سيرت أعلى حضرت (سيرة الحضرة العالية) لمولانا حسنين رضا خان، ص ٤٠.

يخبرنا مولانا محمد ظفر الدين البهارى بشأن انتقال الأمير سعيد الله خان القندهارى من مدينة لاهور إلى دهلى فيقول[١]: "جاء سعيد الله خان إلى دهلى في عصر السلطان محمد شاه حيث تولى هناك منصب "الستة آلاف" [وهو من المناصب الرفيعة في الجيش آنذاك] وأقطعه السلطان محمد شاه إقطاعا في مدينة رامفور (الواقعة في الهند) كما لقبه البلاط الملكى "بشجاع الحرب" وذلك نظرا لبسالته وصموده".

(٢) سعادت يارخان:

هو الجد الرابع للشيخ أحمد رضا خان من جهة والده، يحدثنا عنه مولانا محمد ظفر الدين البهارى قائلا[٢]: "إنه كان وزير الاقتصاد في عهد السلطان محمد شاه، وقد أقطعه السلطان إقطاعا في محافظة بدايون، وهذه الأراضى مازالت في ملك أولاده حتى اليوم[٣] وقد أرسلته الحكومة إلى مدينة روهيل كند لإنجاز مهمة حربية هناك، وعرضت عليه منصب رئيس الوزراء بروهيل كند، ولكنه توفى إلى رحمة الله تعالى قبل تنصيبه في هذا المنصب".

(٣) الشاه محمد أعظم على خان:

هو الجد الثالث للشيخ أحمد رضا خان يحدثنا عنه مولانا محمد ظفر الدين البهارى حيث يقول[٤]: "تولى الشاه محمد أعظم على خان منصب الوزارة لفترة محدودة ولكن نفسه كانت تميل إلى الزهد وإيثار الباقية على الفانية، لذا استقال من منصبه تفرغا للعبادة".

وعن إقدامه على تبليغ الإسلام يحدثنا مولانا بدر الدين أحمد حيث يقول[٥]: "إنه ملأ كأسه من رحمة الله - سبحانه وتعالى - فاشتغل بالتبليغ ودعوة الناس إلى تعاليم الإسلام،

---

(١) حيات أعلى حضرت، لمولانا محمد ظفر الدين البهارى، جـ ١، ص ١٣.
(٢) المرجع السابق، جـ ١، ص ١٣.
(٣) كتب مولانا ظفر الدين البهارى هذا الكلام بعد سنوات عديدة على وفاة الشيخ أحمد رضا خان.
(٤) حيات أعلى حضرت، لمولانا محمد ظفر الدين البهارى، جـ ١، ص ١٣.
(٥) سوانح إمام أحمد رضا، لمولانا بدر الدين أحمد القادرى، ص ٦٧.

وبدأ يعلمهم مبادئ دينهم، فكان ينتقل من بلد لآخر للقيام بمهمته حتى دخل مدينة قندهار وقام بنشر العلم فيها لفترة لا بأس بها، وأفاد منه عشر قبائل قندهار، واستقر في آخر أيام حياته بمدينة بريلى حيث توفى ودفن بها".

(٤) مولانا الحافظ كاظم على خان:

هو الجد الثانى للشيخ أحمد رضا خان يتحدث عنه مولانا بدر الدين أحمد قائلا[١]: "إنه تولى منصب تحصيلدار (الصرافة في الجيش) وكان يرأس كتيبة مكونة من مائتى جندى في مدينة بدايون، وقد أقطعته الحكومة ثمانى قرى مع الإعفاء الضريبى له ولأسرته من بعد، وذلك نظرا لخدماته، كما كلفته الحكومة بإيجاد حل للصراع الدائر بين الحكومة المغولية والإنجليز فكان قد ذهب إلى مدينة كلكتا مندوبا من طرف الحكومة بهدف التفاوض مع الإنجليز بهذا الشأن".

(٥) مولانا محمد رضا على خان النقشبندى[٢]:

هو جد الشيخ أحمد رضا خان، وكان من كبار العلماء والصالحين، وهو الذى صبغ أسرته بالصبغة الروحية الخالصة حيث كان أسلافه يتولون المناصب الحكومية وفي آخر أيام حياتهم يتنازلون عنها تفرغا لعبادة الله - سبحانه وتعالى - والنشاط الروحى ولكن مولانا محمد رضا على خان النقشبندى لم يفكر في المناصب الحكومية أبدا، إنما عاش حياته في مجال الزهد والتقوى والتصوف الإسلامى المتبع لشريعة النبيﷺ[٣].

ويخبرنا الدكتور مجيد الله القادرى عن مولد مولانا محمد رضا على خان حيث يقول[٤]: "إنه ولد في العام الرابع والعشرين من القرن الثالث عشر الهجرى الموافق للعام التاسع من القرن التاسع عشر الميلادى".

---

(١) المرجع السابق، ص ٩٣.

(٢) هكذا كتب حفيده الشيخ أحمد رضا خان بخط يده، انظر: الزلال الانقى من بحر سبقة الأتقى للشيخ أحمد رضا خان، (المخطوط بحوزة الشيخ محمد عبد الحكيم شرف القادرى بلاهور)، ص ٥.

(٣) سوانح إمام أحمد رضا، لمولانا بدر الدين أحمد، ص ٩٤.

(٤) معارف رضا، لصفوة من العلماء، (ط: إدارة تحقيقات امام أحمد رضا، كراتشى، ١٩٠٠م)، جـ ١٧، ص ١٩٦.

وعن إقدامه على دراسة العلوم الإسلامية والعربية يحدثنا الشريف عبد الحى اللكنوى حيث يقول[١]: "إنه سافر للعلم إلى مدينة طوك فلازم القاضى خليل الرحمن الرامفورى، وقرأ عليه الكتب الدرسية ثم رجع إلى بلده وتصدر للتدريس".

وعن ثقافته يقول مولانا محمود أحمد القادرى[٢]: "إنه أكمل دراسة العلوم العربية والإسلامية السائدة في عصره ولم يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره، ومما اتسم به من سمات بارزة هو الزهد في الدنيا، والتواضع لله – سبحانه وتعالى – والوعظ المؤثر في القلوب".

وعن وفاة مولانا محمد رضا على خان يحدثنا الدكتور مجيد الله القادرى قائلا[٣]: "إنه توفى إلى رحمة الله – سبحانه وتعالى – في العام الثاني والثمانين من القرن الثالث عشر الهجرى"[٤].

(٦) مولانا محمد نقى على خان القادرى:

كان مولانا محمد نقى على خان – والد الشيخ أحمد رضا خان – من كبار علماء الأحناف والأولياء الصالحين، يحدثنا عنه الشريف عبد الحى اللكنوى حيث يقول[٥]: "إنه أحد فقهاء الحنفية، ولد في غرة رجب سنة ست وأربعين ومائتين وألف للهجرة، وأخذ عن أبيه، وقرأ عليه ما قرأ من الكتب الدرسية، ثم أخذ الطريقة عن الشريف آل رسول

---

(١) نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، للشريف عبد الحى اللكنوى (ط: مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر اباد الدكن الهند، ١٣٩٩هـ)، جـ ٧، ص ٣٨٧.

(٢) تذكره علماء أهل سنت، لمولانا محمود أحمد القادرى، ص ٨٩.

(٣) معارف رضا، لصفوة من العلماء، جـ ١٧، ص ١٩٧.

(٤) اختلف مؤرخو سيرة مولانا محمد رضا على خان في عام وفاته فذكر مولانا محمود أحمد القادرى ومولانا محمد شهاب الدين الرضوى أن وفاته كانت عام ١٢٨٦هـ، انظر: تذكره علماء أهل سنت، لمولانا محمود أحمد القادرى، ص ٨٩، مولانا نقي على خان، لمولانا محمد شهاب الدين الرضوى (ط: عالمى دعوت اسلامية لاهور ١٩٩٦م)، ص ٢٨. غير أننا نرى أن الصواب ما ذكرناه بالمتن، لأن حفيده هو الذى ذكره كما أن أكثر مؤرخى سيرته رجعوا ما ذكره الشيخ أحمد رضا خان فى تاريخ وفاة جده، أنظر: بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان، ص ١٨٤.

(٥) نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، للشريف عبد الحى اللكنوى، جـ ٧، ص ٥٣٣، ٥٣٤.

المارهروى وأسند الحديث عنه سنة أربع وتسعين ومائتين وألف للهجرة".

وعن رحلته للحج يحدثنا مولانا محمود أحمد القادرى حيث يقول[١]: "إنه سافر للحج قبل نهاية القرن الثالث عشر بخمسة أعوام حيث أخذ الإجازة من الشيخ أحمد زينى دحلان وغيره من علماء بلد الحرام، وتوفى فى شهر ذى القعدة من العام السابع من القرن الثالث عشر الهجرى الموافق للعام الثمانين من القرن التاسع عشر الميلادى".

إنه خلف مؤلفات علمية وابنه الشيخ أحمد رضا خان، كما ترك الأراضى الزراعية الشاسعة يحدثنا عنها مولانا محمد شهاب الدين الرضوى حيث يقول[٢]: "كان مولانا محمد نقى على خان يملك الأراضى الشاسعة في محافظة بدايون، وبعد خمود شرارة الثورة الهندية طلبت منه الحكومة الإنجليزية إثباتا بشأن ملكية هذه الأراضى، وكانت الوثائق قد ضاعت خلال أيام الثورة فلم يتمكن من تلبية مطلبهم حتى قامت الحكومة الإنجليزية بمصادرة هذه الأراضى... هذا وكان مولانا محمد نقى على خان يملك ست قرى بمحافظة بدايون ومازالت قرية كبيرة تدعى "كرتولى" في ملك المنحدرين من نسله، وكانت لديه المساحات الزراعية الكبيرة بما يمكن أن يقدر في مصر بعشرات الأفدنة، وقد تزيد بعض القرى عنده على ما ذكرنا، فكان مولانا محمد نقى على خان يشرف على الأراضى بالاعتماد على الموظفين حيث إنه كان يزور أراضيه مرتين في سنة، وبعد رحيله إلى عالم البقاء قام الشيخ أحمد رضا خان بالإشراف على الأراضى، ولم يتجاوز هذا الإشراف أكثر من عام وأحد وذلك لرغبته الملحة في التصنيف والإفتاء، لذا كلف أخاه الأصغر مولانا حسن رضا خان بهذه المهمة، فقام أخوه بهذه المهمة خير قيام حيث إنه أغنى الشيخ أحمد رضا خان عن متاعب الإشراف على الأراضى مما جعله يتفرغ لخدمة الإسلام والمسلمين".

وهكذا حظى شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان بالأسرة التى كانت تتمتع بالتقوى والصلاح ونعومة العيش، وحب الإسلام والمسلمين، والكراهية للاحتلال الإنجليزى.

---

(١) تذكره علماء أهل سنت، لمولانا محمود أحمد القادرى، ص ٢٥١، ٢٥٢.

(٢) مولانا محمد نقى على خان، لمولانا محمد شهاب الدين الرضوى، ص ٤١.

نشـأته

نشأ الشيخ أحمد رضا خان وترعرع في أسرة قد نبغت في العلوم الإسـلامية والعربية حيث مالت إليها ووجدت فيها ما يبل صداها ويشبع رغبتها في البحث والدرس، يقول مولانا افتخار أحمد القادرى في هذا الصدد[1]: "نشأ الإمام (يعني الشيخ أحمد رضا خان) فى أسرة إسلامية كريمة ونبيلة وفي جو العلوم الدينية، كان والده مولانا محمد نقى على خان وجده مولانا محمد رضا على خان عالمين كبيرين ومتخلقين بالخلق القويم المستمد من القرآن والسنة".

هكذا نشأ وتربى شاعرنا على يد والده وجده، فلم يسمع منهما طوال طفولته غير آيات الله البينات، والأحاديث النبوية الشريفة، والحديث عن مكارم الأخلاق، والأعمال الصالحة، ولقد شرفت أذناه بالاستماع عن جده مولانا محمد رضا على خان لمدة وإن كانت قصيرة، ولا ننسى أنه يمت ببذور إلى أسرة عرفنا عنها ما عرفنا من اهتمامها بالدين دراسة وبحثا، وواصل والده بمهمة تربيته وتعليمه، إنه ربى ابنه فأحسن تربيته، وأدبه فأتقن تأديبه، فكان مربيا لروحه مع جسده، مهذبا لعقله كتهذيبه لأعماله، فهو يعد لكل أمر عدته، وهكذا قضى شاعرنا طفولته البريئة بين يدى والده وجده، وقد ظهرت آثار هذه التربية فى صغر سنه، من ذلك - على سبيل المثال لا الحصر- " في يوم من أيام رمضان المبارك انعقد حفل في بيت مولانا محمد نقي على خان بمناسبة أنه أول رمضان يأتى عليه ابنه (الشيخ أحمد

(١) أنظر: جد الممتار على رد المحتار للإمام أحمد رضا خان (ط: المجمع الإسلامى بمباركفور الهند، ١٣٩٨هـ)، جـ ١، ص ٢٥.

رضا خان) وقد أعدت ألوان من الطعام المختلفة بمناسبة هذا اليوم السعيد لأسرته، فلما بلغت الشمس نصف النهار واشتدت الحرارة أخذ الوالد ابنه إلى غرفة فيها جميع المأكولات(١) وناوله بعضها وذلك بعدما أغلق الباب جيدا وطلب منه أن يتناول فأجابه الولد في احترام: "كيف أتناولها وأنا صائم"؟ فقال له الوالد الحكيم: "قد أغلقت الباب ولن يراك أحد من الأقارب". فأجابه ولده البار قائلا: "إن لم يرني أحد من الأقارب فإنني في مراقبة من أمرنا بالصيام" فانهمرت دموع الفرح من عين الوالد لهذا الموقف"(٢).

ومن آثار حسن التربية ما حدث في كتاب الحي حيث أقام شاعرنا في صغر سنه، يحكي مولانا محمد ظفر الدين البهاري قائلا(٣): "كان مدرس الكتاب مشغولا في تدريس الطلاب الصغار إذ سلم عليه أحد الأولاد، فرد عليه المدرس قائلا: "طال عمرك" فلفت أحمد رضا الصغير نظر أستاذه إلى أمر مهم قائلا: كان المطلوب من فضيلتك أن ترد على تحية التلميذ قائلا: "وعليك السلام"، وطال عمرك ليس برد على السلام، فلم يغضب الأستاذ من كلام تلميذه الصغير بل أبدى سروره من هذا التوجيه داعيا له بالخير واليمن والبركات"، نلمس في هذا الجرأة في قول الحق، على أن المناخ الذي يتنسم شاعرنا عبيره كان مناسبا، فكل من حوله وقّاف عند الحق.

(١) هذه عادة اجتماعية دأب المجتمع في شبه القارة على المحافظة عليها، وهي عبارة عن احتفال في نطاق الأسرة فقط بذالكم الصبي الذي يصوم رمضان لأول مرة، ولازالت هذه العادة شائعة حتى يومنا هذا بين مسلمي شبه القارة الباكستانية الهندية.

(٢) حيات أعلى حضرت لمولانا محمد ظفر الدين البهاري، جـ ١، ص ٢٤.

(٣) المرجع السابق، جـ ١، ص ٢٤.

يشير الدكتور محى الدين الألوائى[١] إلى بعض الآثار الخلقية في طفولة الشيخ أحمد رضا خان حيث يقول[٢]: "وقد بدت في سلوك (الشيخ) أحمد رضا منذ الصغر آثار الزهد في متعة الحياة الدنيوية، والتمسك بالأخلاق الفاضلة، والتواضع، والحلم، في معاملته مع الناس".

في ضوء هذا الكلام يمكننا أن نقول: "إن الشيخ أحمد رضا خان تربى تربية إسلامية عالية على يد والده وجده، وكان لهذه التربية أثر عميق في تكوين شخصيته الإسلامية حيث تمسك طوال حياته بالصبغة الإسلامية منذ نعومة أظفاره على نحو ما سبق أن استشهدنا به، وإذا كان حاله هو هذا وهو صغير فكيف به عند النضج وبلوغ العقل من التمام ما أراد الله – سبحانه وتعالى – أن يبلغ، لا شك في أننا وجدنا ذلك واضحا جليا حين عرفنا كيف يفكر سياسيا وعلميا، وسوف نستشهد على ذلك فيما بعد.

(١) ولد الدكتور محى الدين الألوائى بقرية وليتساد بقرب مدينة ألوائى في ولاية كيرالا في غرة شهر يونيو من عام ١٩٢٥م، أكمل الدراسة الابتدائية والثانوية والجامعية في ولاية كيرالا بالهند ونال شهادة أفضل العلماء عام ١٩٤٩م من جامعة مدراس الحكومية، وفي عام ١٩٥٠م توجه إلى القاهرة فالتحق بمرحلة التخصص فى كلية أصول الدين ونال شهادة "العالية مع الإجازة" وفي اواخر عام ١٩٦٣م عاد إلى القاهرة ميمما وجهه شطر جامعة الأزهر العريقة في دراسة الإسلام والعربية وخدمة الدين واللغة وحسبها من ذلك مقصدا فالتحق بالدراسات العليا بكلية أصول الدين ونجح في امتحان التخصص في فترة ١٩٦٥م، وحصل على درجة العالمية الدكتوراه في عام ١٩٧١م ليعود بعد ذلك إلى بلده. انظر: الأدب الهندى المعاصر للدكتور محى الدين الألوائى (ط: دار العلم بالقاهرة دون سنة الطبع)، ص ٧.

(٢) "مولانا أحمد رضا البربلوى" بحث مستخرج من مجلة صوت الشرق (الصادرة من السفارة الهندية بالقاهرة) عدد فبرائر ١٩٧٠، ص ١٦.

موطـنه

عاش شاعرنا حياته كلها في مدينة بريلى حيث ولد وشب واكتهل، فاشتهر بانتسابه إلى هذه المدينة كما اشتهر كثير من أسلافنا نسبة إلى بلادهم كالبخارى والترمذى والنسائى يقول السيد يوسف السيد هاشم الرفاعى[١] مؤكدا هذا الأمر[٢]: "ولد الشيخ أحمد رضا خان في مدينة بريلى ولذلك صار يلقب بالبريلوى نسبة إلى هذه المدينة كما هى عادة العلماء والرجال المشهورين في بلاد الهند".

أما الأستاذ إعجاز الحق القدوسى فيرى[٣] أن شهرة مدينة بريلى ترجع إلى الشيخ أحمد رضا خان الذى نشأ بها فانتسب إليها فاشتهرت مدينة بريلى بكونها

(١) هو الشيخ يوسف الشيخ هاشم الرفاعى، عالم دينى جليل وشيخ الطريقة الرفاعية، يمتد نسبة إلى العارف بالله الإمام أحمد كبير الرفاعى، وانتخب الشيخ يوسف هاشم الرفاعى امينا عاما لمجلس الأمة في عام ١٩٦٣م وذلك بعد قيام دولة الكويت، كما تولى منصب وزير المواصلات والبريد والكهرباء سنة ١٩٦٤م، كما كان وزيرا للدولة خلال الفترة من عام ١٩٦٥م إلى عام ١٩٧٠م، وانه إذ كان وزيرا جعل الحكومة الكويتية تصدر قانونا بشأن تحريم الخمر في البلاد رسميا، كما رفع صوته ضد النظام التعليمى المزدوج، وله عدة جهود دينية أخرى، منها إقدامه على إقامة معهد الإيمان الشرعى على غرار الأزهر الشريف، لتعليم العلوم الإسلامية والعربية، متع الله الإسلام والمسلمين بطول بقائه وحياته.
انظر: إسلامى عقائد (العقائد الإسلامية) للشيخ يوسف الشيخ هاشم الرفاعى، ترجمه إلى الأردية مولانا محمد عبد الحكيم شرف القادرى (ط: مكتبه قادريه لاهور، ١٤١٠هـ)، ص ١٨:٢٢، مقدمه.

(٢) من عقائد أهل السنة، لمولانا محمد عبد الحكيم شرف القادرى، (ط: منظمة الدعوة الإسلامية، لاهور، ١٤١٥هـ)، ص ١٥.

(٣) إقبال اور علمات باك وهند، للأستاذ إعجاز الحق القدوسى، ص ٢٠٥.

موطنا للشيخ أحمد رضا خان" وقد أرخت له دائرة المعارف الإسلامية كذلك في مادة بريلى[١] والنص كالآتى: "وكان من أهلها أحمد رضا خان وهو متكلم وعالم" فالشيخ أحمد رضا خان أفغانى النسب وهندى الموطن وبريلوى المولد والنشأة والتعليم والمدفن.

(١) دائرة المعارف الإسلامية لمجموعة من المستشرقين، ترجمه إلى العربية صفوة من العلماء والمحققين، (ط: دار الشعب بالقاهرة، مصر، ١٣١٩هـ)، المجلد السابع، الجزء ٥١، ص ١٩٣.

خلقــه

إن الشيخ أحمد رضا خان كان مستمسكا بالأخلاق الفاضلة والقيم النبيلة من التواضع، والحلم، والتقوى، وبعد النظر، ورث هذا عن أبيه وجده، يحدثنا مولانا محمد ظفر الدين البهارى عن خلق الشيخ قائلا[١]: "كانت كل أعماله لله – سبحانه وتعالى – فقط، ولم يكن يرغب في مدح أحد، كما لم يخف في الله لومة لائم، وكان خير مصداق لقول الرسول ﷺ[٢]: "**من أحب لله وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله فقد استكمل الإيمان**" فلم يكن يحب أحدا إلا لابتغاء وجه الله، وبالتالى لم يكن يبغض أحدا إلا لله – سبحانه وتعالى – وإذا أعطى أعطى لله – عز وجل، وإذا منع منع لله – جل جلاله – وقد عبر شاعرنا عن هذا الخلق في واحدة من رباعياته بالفارسية[٣] وترجمة النص الفارسى كالآتى: لا أهتم بالثناء على من قبل أحد، كما لا يهمنى هجاء أحد إياى، وليس عندى فرصة للتوجه إلى مدح أو للالتفات إلى ذم أحد، إننى في خلوة ليس فيها غيرى إلا بعض الكتب والقلم والدواة".

---

(١) حيات أعلى حضرت، لمولانا محمد ظفر الدين البهارى، جـ ١، ص ٦٦-٦٧.

(٢) سنن أبى داود للإمام أبى داود سليمان بن الأشعث (ط: مطبعة السعادة بالقاهرة دون سنة الطبع) ج، ٤، ص ٢٠٤، كتاب السنة باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه حديث رقم ٤٦٨١.

(٣) والرباعى بالفارسية كمايلى

نه مرانوش زتحسين نه مرانيش زطعن نه مرا كوش بمدح نه مراهوش ذمے

منم وكنج خمولي كه نه كنجد دور وے جز من وجند كتابے ودواتے وقلمے

ويحكى مولانا محمد ظفر الدين البهارى قصة تدل على حلم شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان فنجده يقول[١]: "جاءت رسالة إلى الشيخ أحمد رضا خان ضمن الرسائل اليومية فقرأت منها بعض السطور (كان مولانا محمد ظفر الدين البهارى قد اعتاد قراءة الرسائل للشيخ أحمد رضا خان) فوجدتها مليئة بالشتائم، فوضعتها في جانب وأخبرت الشيخ عما فيها بإيجاز فحملها أحد المريدين الجدد للشيخ أحمد رضا خان وأخذ يقرأها، فتألم كثيرا، وبعد صلاة المغرب حين أراد الشيخ أن يدخل بيته طلب منه هذا الرجل برفع القضية في المحكمة ضد كاتب الرسالة نظرا للإهانة التى قام بها كاتب الرسالة حتى تكون محاكمته عبرة للآخرين، فما كان رد الشيخ إلا أن طلب إليه أن يجلس وينتظره قليلا ثم دخل البيت، فلما خرج كانت في يده مجموعة من الرسائل، فناولها للرجل وطلب إليه أن يقرأها، فبدأ وجهه مشرقا فرحا ومسرورا بقراءة هذه الرسائل، ولما انتهى من قراءتها توجه إليه الشيخ قائلا: "لتكرم هؤلاء الناس أولا بالهدايا والأموال والأقطاع ثم تفكر فى أمر الشاتمين" هكذا واجه شاعرنا شتائم المخالفين، ولكنه مع حلمه هذا كان غيورا على الشريعة الإسلامية الغراء، فلم يكن يسمع ولو كلمة عن الشريعة إلا تصدى لقائلها.

ويحدثنا مولانا محمد إبراهيم الفريدى عن سمة خلقية أخرى اتسم بها شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان فلنستمع إليه حيث يقول[٢]: "سمعت الشيخ مهدى حسن - شيخ الطريقة القادرية بزاوية المارهرة - وهو يقول: بعثت إلى الشيخ أحمد رضا خان برسالة فتأخر في الرد عليها على غير عادته، ولما أرسل اليّ برسالة ذكر فيها سبب تأخيره في الرد على رسالتى قائلا: "إنه لم يكن يملك ما يشترى به طوابع البريد، فتخيلت أن الشيخ تنقصه الفلوس، فأرسلت إليه حوالة بريدية قيمتها مائتا

(١) حيات أعلى حضرت، لمولانا محمد ظفر الدين البهارى، جـ ١، ص ٦٩.
(٢) حياة أعلى حضرت، لمولانا محمد ظفر الدين البهارى، جـ ١، ص ٥٨.

روبية، ولكنه بعد أيام عدة بعث الى بنفس المبلغ بالحوالة البريدية قائلا بكل احترام: إن من عادتى أننى أدخر مبلغا معينا من المال على قدر متطلباتى وأتصرف في الباقي على نحو معين، وكانت النقود قد انتهت قبل مجيئ رسالتكم، ولم تكن النقود وصلتني من القرية[١] وإننى لا آخذ من أحد لسداد حاجاتى" هكذا كان شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان يربأ بنفسه أن تكون محل جميل من أحد، ويرى أن عزتها أغلى من أى شئ من أمور الدنيا، ومع هذا إذا أتيحت له فرصة العطاء لغيره فإنه يمد يده إلى كل من يكون في حاجة إليها، وعن ذلك يحدثنا الشريف أيوب علي قائلا[٢]: "إنه لم يكن يرد سائلا دون أن يعطيه ويمد له يد المعونة، وعلاوة على هذا كان يخصص بعض المال لمساعدة الأرامل والمحتاجين، ولم تكن هذه المساعدات قاصرة على أهل حيه فقط بل كان يبعث بها إلى مدن أخرى أيضا".

ويستطرد ذكاء الله خان في الحديث عن جود شاعرنا فيقول[٣]: "كنا في فصل الشتاء عند الشيخ أحمد رضا خان وهو يودع الزوار عند البوابة، وسألنى حينما رآنى: هل عندك لحاف؟ فسكت فأكرمنى بإعطاء لحافه الذى لم يكن عنده سواه، وبعد يومين أو ثلاثة أيام هيأ لحافا آخر، فلم يمض عليه أيام حتى سأله أحد المسافرين لحافا في المسجد فلم يمنعه عنه، ورأى أن إعطاءه هذا اللحاف الجديد أفضل من أن يحتفظ به لنفسه مهما كانت حاجته إليه، لاسيما وقد أعده ولم يكن له غيره"، ولعله كان يستحضر قول الله – عز وجل – { **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** }[٤]، وكان هذا دأبه طيلة حياته، فإنه كان يسعد بالإنفاق في

---

(١) من المعلوم أن الشيخ أحمد رضا خان كان يملك الأراضى الزراعية، وكان أخوه محمد رضا خان يتولى مهمة الإشراف على الزراعة، فكان يرسل إلى الشيخ نصيبه من النقود، والتفاصيل ذكرنا في موضعها.

(٢) حيات أعلى حضرت، لمولانا محمد ظفر الدين البهارى، جـ ١، ص ٥١.

(٣) المرجع السابق، جـ ١، ص ٥٠.

(٤) سورة الحشر ٥٩/٩.

سبيل الله، حتى أنه كان في أحيان كثيرة ينفق كل ما يملكه في سبيل الله، ولم يهتم بجمع المال طيلة حياته، فقد كان يؤثر الصدقة على الزكاة، فلم تبق له الصدقات مجالا لأن يؤدى الزكاة، ليس بعدا عن أداء الفريضة، وإنما نزاهة نفس وكرم يد، ورغبة في الإسراع بالتقرب إلى الله عن طريق الصدقة تقربا حال دون أداء الزكاة، يحكى مولانا محمد ظفر الدين البهارى عن عدم حيازة الشيخ أحمد رضا خان المال يمر عليه حول كامل طيلة حياته ونقل عنه قوله[١]: "ما أديت زكاة المال طيلة حياتي ولو بيسة" (أدنى عملة في الهند)، وهذا كلام سليم لأنه لم يجمع قط مالا حال عليه الحول، بل كان يأتيه المال فينفقه على أصحاب الحاجات بكرمه البالغ.

داوم الشيخ أحمد رضا خان على المحافظة على الصلاة مع الجماعة، ولم يستطع أن يثنيه عن هذه الفضيلة أى شئ، وفي الفترة الأخيرة من حياته عندما داهمه المرض حافظ كذلك على صلاة الجماعة[٢].

---

(١) حيات أعلى حضرت لمولانا ظفر الدين البهارى، جـ ١، ص ٥٣.

(٢) المرجع السابق، جـ ١، ص ٣٠، ٦٧.

حياته الأسرية

تزوج شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان من السيدة إرشاد بيجوم بنت الشيخ فضل حسين وذلك في العام الحادى والتسعين من القرن الثالث عشر الهجرى الموافق للعام الرابع والثمانين من القرن التاسع عشر الميلادى، وبعد سنة من الزواج أنجبت له زوجته إبنه الأول محمد حامد رضا خان وذلك في العام الثانى والتسعين من القرن الثالث عشر الهجرى، وفي العام العاشر من القرن الرابع عشر الهجرى أنجبت له ولده الثانى محمد مصطفى رضا خان[١].

ولقد روى مولانا محمد ظفر الدين البهارى عن أولاد الشيخ أحمد رضا خان[٢]: "إنه ولد للشيخ سبعة أولاد، ابنان وخمس بنات"، وأورد الآن الحديث في شيئ من الإيجاز عن مولانا محمد حامد رضا خان.

مولانا محمد حامد رضا خان

اسمه محمد وشهرته حامد رضا خان، ولقبه حجة الإسلام، ولد بمدينة بريلى في شهر ربيع الأول من العام الثاني والتسعين من القرن الثالث عشر الهجرى، الموافق للعام الرابع والثمانين من القرن التاسع عشر الميلادى كما أسلفنا، وهو

---

(١) فاضل بريلوى علماء حجازكى نظرمين (الفاضل البريلوى من منظور علماء الحرمين الشريفين) للأستاذ الدكتور محمد مسعود أحمد (ط: ضياء القران ببلى كيشنز، لاهور، ١٩٨٨م)، ص ٨٣.

(٢) حيات أعلى حضرت لمولانا محمد ظفر الدين البهارى، جـ ١، ص ٨١.

أكبر أولاد الشيخ أحمد رضا خان، تلقى العلوم الدينية الرائجة آنذاك عن والده، وقد أكمل دراسته وهو ابن تسع عشرة سنة[١]. وبعد إكمال الدراسة قام بالتدريس في "منظر الإسلام" (لقد سبق أن عرفت بهذا المعهد الدينى) وعين مديرا لهذا المعهد الدينى بعد إنشائه مباشرة في العام الثالث والعشرين من القرن الرابع عشر الهجرى الموافق للعام الرابع من القرن العشرين الميلادى، وكانت له اليد الطولى في حل المسائل الفقهية وإصدار الفتوى على المذهب الحنفى شأنه في ذلك شأن ابيه.

يقول مولانا محمود أحمد القادرى مشيرا إلى مكانة مولانا محمد حامد رضا خان في الأوساط العلمية[٢]: "ذاعت شهرته في قيامه بتدريس التفسير والحديث، وكانت له مكانة رفيعة في مجال العلم والعمل، وكان صاحب أسلوب خاص في مجال الأدب العربى نظما ونثرا، وكان خير خلف لوالده الشيخ أحمد رضا خان حيث أخذ منه الإجازة والخلافة، وقد أخذ الطريقة من الشريف أبى الحسن أحمد النورى الذى أكرمه بالخلافة أيضا".

وكان مولانا محمد حامد رضا خان خطيبا ذا أسلوب خطابى مؤثر على سامعيه، كما كان عليه الحال من محاضراته التى كان يلقيها، فقد تركت مواعظه تاثيرا عظيما في قلوب مستمعيه، وأقلعت الكثير من مخالفيه عن معتقداتهم المغايرة وبالتالي لم يكن تأثيره قاصرا على المسلمين بل تخطاهم إلى غير المسلمين مما نتج عن ذلك أن دخل كثير من الهنادكة إلى الإسلام بفضل أسلوبه الرائع وحجته الواضحة وعرضه الأسمى لمبادئ الإسلام"[٣].

(١) تذكره خلفاء أعلى حضرت (ذكر خلفاء الحضرة العالية) للأستاذ محمد صادق القصورى، وللدكتور مجيد الله القادرى (ط: إدارة تحقيقات إمام أحمد رضا، كراتشى ١٤١٣هـ)، ص ٢٣٤، ٢٣٥.

(٢) تذكرة علماء أهل سنت، لمولانا محمود أحمد القادرى، ص ٨٠، ٨٢.

(٣) تذكرة خلفاء أعلى حضرت، للأستاذ محمد صادق القصورى والدكتور مجيد الله القادرى، ص ٢٣٨.

وعن وفاته يحدثنا مولانا محمود أحمد القادرى قائلا[١]: "توفى مولانا محمد حامد رضا خان في شهر جمادى الأولى من العام الثانى والستين من القرن الثالث عشر الهجرى، الموافق للعام الثالث والأربعين من القرن العشرين الميلادى.

مولانا محمد مصطفى رضا خان

اسمه محمد وشهرته مصطفى رضا خان وهو ثانى ابنى الشيخ أحمد رضا خان، ولد في الثانى والعشرين من شهر ذى الحجة من العام العاشر من القرن الرابع عشر الهجرى، الموافق للعام الثانى والتسعين من القرن التاسع عشر الميلادى[٢].

يقول الشريف شاهد على النورانى[٣]: "إن مولانا محمد مصطفى رضا خان تلقى تعليمه الابتدائى عن أخيه مولانا محمد حامد رضا خان ثم انتقل إلى كل من الشيخ رحم على المنكلورى، والشريف بشير أحمد على كرهى، والشيخ ظهور الحسن الفاروقى الرامفورى، وفي خاتمة المطاف اتجه إلى والده حيث أكمل الدراسة المعهودة آنذاك فى العام الثامن والعشرين من القرن الرابع عشر الهجرى الموافق للعام العاشر من القرن العشرين الميلادى".

يقول مولانا محمود أحمد القادرى[٤]: "إن مولانا محمد مصطفى رضا خان أخذ الطريقة عن الشريف المخدوم أبى الحسن أحمد النورى، واستلم الإجازة في الطريقة عن والده الشيخ أحمد رضا خان أيضا".

عاش حياته مدرسا مربيا ثم مفتيا، وبالتالى كان عمله أن يتعهد العقول يرعاها تدريسا ثم افتاء، وقام بدور فعال في نشر الوعى الإسلامى في أرجاء شبه

(١) تذكرة علماء أهل سنت لمولانا محمود أحمد القادرى، ص ٨٢.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٢٣.
(٣) انظر: مولانا محمد مصطفى رضا خان، للشريف شاهد على النورانى، (ط: اداره معارف رضا، لاهور، ١٩٩٤م)، ص ١٧، ١٨.
(٤) تذكرة علماء أهل سنت، لمولانا محمود أحمد القادرى، ص ٢٢٤.

القارة الهندية، ولعب دورا ملموسا في حركة استقلال باكستان حيث إنه شارك في اجتماع المؤتمر السنى بعموم الهند، وذلك لتأييد حركة استقلال باكستان[١].

يقول الشريف شاهد على النورانى[٢]: "إن مولانا محمد مصطفى رضا خان انتقل إلى رحاب ربه في الرابع عشر من شهر المحرم من العام الثانى من القرن الرابع عشر الهجرى، الموافق للعام الحادى والثمانين من القرن العشرين الميلادى".

ولا أحسبنى قد أطلت حين تحدثت عن حياة شاعرنا الأسرية، فلم يكن له من الذكور سوى اثنين اقتبسا من العلم ما شاء الله لهما أن يقتبسا، وأضيئت حياة كل منهما بالفتيا والتدريس على النحو الذى سلف، فما قصدت إلا أن أبين أن هذه الشجرة مضت على طريق واحد في النشأة والمعيشة والتلقى، ومضت حياتهم جميعا على نسق واحد، ولم أجد فيما قرأت دورا لإناث شاعرنا الخمسة أكثر من أسمائهن، ويبدو أن الأسرة قد آثرت تعليم الذكور فقط شأنها في ذلك شأن أغلبية الأسر في الهند آنذاك.

---

(١) مولانا محمد مصطفى خان رضا، للشريف شاهد على النورانى، ص ٣١، ٤١، ٧١.
(٢) المرجع السابق، ص ٩١.

وفـــاته

إن شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان عاش مناضلا مـــن أجـــل قضايـــا الأمـــة الإسلامية وخدمة الإسلام والمسلمين، وإصلاح المجتمع بمقاومة البدع والمنكـــرات، وبث روح النهضة في المسلمين بشبه القارة الهندية، وبعد حيـــاة حافلـــة بالعطـــاء والجهاد والعمل للدفاع عن مصالح الأمة الإسلامية لبى شاعرنا داعى ربه فارتحلت نفسه المطمئنة إلى ربها راضية مرضية، وفي هذا يقول الأســـتاذ حـــازم محمـــد أحمد[١]: "بعد عمر طال خمسة وستين عاما (حسب التقويم الميلادى) تنبـــأ الشـــيخ أحمد رضا خان بوفاته وتحقق ما تنبأ به، وتوفى في نفس السنة التى تصور أنـــــها زمان وفاته، فقد أقدم في الثالث من شهر رمضان المبارك عام تسعة وثلاثين بعـــد الثلاثمائة والألف للهجرة الموافق للعاشر من شهر مايو عام واحد وعشرين بعـــد التسعمائة والألف للميلاد، أى قبل رحيله بأربعة أشهر واثنين وعشرين يوما علـــى استخراج عام رحيله بحساب الجمل وذلك من الآية القرآنية **ويطـــاف عليـــهم بآنية من فضة وأكواب** (١٣٤٠هـ)[٢] وفي الساعة الثانية وسبع وثلاثين دقيقـــة من ظهر يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر صفر عام أربعين بعد الثلاثمائـــة

---

(١) الإمام الأكبر المجدد محمد أحمد رضا خان والعالم العربى، للأستاذ حـــازم محمـــد أحمـــد (ط: رضافاونديشن لاهور باكستان، ١٤١٩هـ)، ص ٤٧، ٤٨.
وانظر: سوانح إمام أحمد رضا لمولانا بدر الدين أحمد، ص ٣٩١.
وانظر: إمام أحمد رضا اور ردبدعات ومنكرات (الإمام أحمد رضا ودوره في مقاومـــة البـــدع والمنكرات) لمولانا يسين أختر المصباحى (ط: مدنى كتب خانه ملتان ١٤٠٥هـ)، ص ٤١٥.

(٢) سورة الإنسان ١٥/٧٦.

والألف للهجرة الموافق للثامن والعشرين من شهر أكتوبر عام واحد وعشرين بعد التسعمائة والألف للميلاد رحل الشيخ أحمد رضا خان إلى الرفيق الأعلى، وعندما شاع خبر رحيله أقبل الألوف من علماء وأدباء وساسة أهل السنة للمشاركة في تشييع جنازته، وقد روى مولانا يسين أختر المصباحى أنه قد شوهدت الشوارع المؤدية من مدينة بريلي إلى الميدان الفسيح المخصص لصلاة العيدين - والذى شهد صلاة الجنازة - يزدحم بالآلاف من أهل السنة والجماعة، الذين اشتركوا في أداء صلاة الجنازة، وبدأت الجرائد والمجلات في جميع أنحاء شبه القارة تنشر خبر وفاته مع معلومات عن حياته ومؤلفاته وخدماته الدينية والعلمية، وتصفه بأنه الإمام والعالم الجليل الذى ترك بوفاته فراغا لا ينسد".

وهكذا تفجعت قلوب مسلمى الهند بوفاة الشيخ أحمد رضا خان وأصيبوا ببالغ الحزن والأسى، وكانت جريدة"بيسه أخبار" من المقدمين على الكتابة بهذه المناسبة فجاءت معربة عن قلق الشعب الهندى وخسارة الأمة الإسلامية بمايلى[١]: "إنه [أى الشيخ أحمد رضا خان] كان منقطع النظير في العلوم الإسلامية في بلاد الهند، كما كان فريد عصره ونسيج وحده وعالما متبحرا، حرمت الهند بوفاته من عالم كبير لا يرى أن أحدا يمكن أن يسد مكانه، وكان مثالا صادقا للإنسان المسلم الصادق، عاملا بالشريعة الإسلامية مواظبا عليها".

رحمه الله رحمة واسعة وجزاه خيرا عن الإسلام والمسلمين.

---

(١) الشيخ أحمد رضا خان البريلوى، للأستاذ الدكتور محمد مسعود أحمد، ص ٣٢.
وانظر: جريدة بيسه أخبار الصادرة فى ١ نوفمبر ١٩٢١م، ط: لاهور، ص ٢.

الفصل الثالث

ثقافته ومؤلفاته

يحتوي هذا الفصل علي النقاط السبعة الآتية:

أولا: تعليمه.

ثانية: رحلته إلي الحرمين الشريفين.

ثالثا: شيوخه.

رابعا: إقدامه على التدريس.

خامسا: جلوسه للإفتاء.

سادسا: قيامه بالتصنيف والتأليف.

سابعا: موهبته الأدبية

الفصل الثالث

ثقافته ومؤلفاته

تعرضنا فيما سبق لعصر شاعرنا لنصعد الصرح الشـــــامخ لشــخصيته ذات الأبعاد الكثيرة، والمثيرة للدهشة والاستغراب لمن يحاول معرفتها، وبالتالي حــاولت أن أعرف القارئ الكريم بالمعلومات الأساسية عن حياة شــاعرنا حيــث تطرقــت لتاريخ ميلاده، وأسرته، ونشأته وموطنه، وخلقه، وحياته الأسرية، ووفاتـــه، والآن أحاول دراسة ثقافته، ومؤلفاته، ويتكون هذا الفصل من النقاط السبعة الآتية:

أولا: تعليمه.

ثانيا: رحلته إلى الحرمين الشريفين.

ثالثا: شيوخه.

رابعا: إقدامه على التدريس.

خامسا: جلوسه للإفتاء.

سادسا: قيامه بالتصنيف والتأليف.

سابعا: موهبته الأدبية.

هذه هي النقاط السبعة التي يدور في فلكها الفصل الثالث مــن البـــاب الأول، فأقول وبالله التوفيق.

أولا: تعليمه

اشتغل شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان بالدراسة منذ نعومة أظفاره حينما ألحقه والده بكتاب الحى وفيه تلقى تعليمه الأول حيث درس بكل اهتمام منذ اليوم الأول وأقبل على التعليم بشغف كبير، وظهرت عليه مخايل الذكاء ومواهب الإقبال على العلوم الإسلامية والعربية، فتعلم القرآن في سن مبكر، وفي هذا يقول الأستاذ الدكتور مختار الدين أحمد[١] معجبا بذكائه الخارق[٢]: "إن طفولة الشيخ أحمد رضا خان المدهشة تختلف تماما عن طفولة الآخرين من معاصريه حيث إنه ختم قراءة القرآن الكريم ولما يتجاوز الرابعة من عمره".

ويبين لنا مولانا محمد ظفر الدين البهارى إقبال الشيخ أحمد رضا خان بشغف كبير على قراءة القرآن حيث يقول[٣]: "إنه كان يذهب إلى الكتاب بنفسه حتى أنه ذات يوم قصد الكتاب في يوم العطلة الأسبوعية أى يوم الجمعة" ولم يتغيب عن الدراسة ليوم وذلك لشدة شوقه إلى قراءة القرآن".

هكذا بدأ شاعرنا تعليمه ناشئا على حب العلم والمعرفة حيث إنه كان حاد الذكاء، كما كان موهوبا وحريصا على تلقى العلوم الإسلامية والعربية، خاصة القرآن الكريم، فبدأت موهبته الصافية تنمو وقريحته النافذة تصقل، ولما أكمل الشيخ

---

(١) وهو ابن مولانا محمد ظفر الدين البهارى ويعمل رئيسا بجامعة مسلم على كرة بالهند

(٢) انوار رضا، لصفوة من العلماء، ص ٣٥٥.

(٣) حياة أعلى حضرت لمولانا محمد ظفر الدين البهارى، جـ ١، ص ٢٦.

أحمد رضا خان قراءة القرآن وجهه والده إلى مرحلة أخرى يحدثنا عنها مولانا محمد ظفر الدين البهارى حيث يقول(١): "ولما اجتاز المرحلة الدراسية الأولى انتقل إلى المرحلة الثانية حيث إنه أخذ يدرس مبادئ علم الصرف على يد مولانا غلام قادر بيك، ولما تأهل لتلقى العلوم تتلمذ على يد والده فتعلم على يده العلوم الإسلامية والعربية حتى أنه أكمل دراسة العلوم والمقررات السائدة وقتئذ".

ويشير الشيخ أحمد رضا خان إلى إكمال دراسته قائلا(٢): "وذلك لمنتصف شعبان سنة ست وثمانين ومائتين بعد الألف للهجرة (الموفق سنة تسع وستين وثمانمائة والألف للميلاد) وأنا إذ ذاك ابن ثلاثة عشر عاما وعشرة أشهر وخمسة أيام، وفي هذا التاريخ فرضت علي الصلوة وتوجهت إلى الأحكام". وهذا منه كان بتوفيق الله- سبحانه وتعالى - بالموهبة الصافية، ثم التربية الصالحة من قبل أبيه وجده وحسن اهتمامهما بتعليمه وثقافته.

لقد قام الشيخ أحمد رضا خان بزيارة إلى مدينة رامفور حوالى عام الحادى والتسعين من القرن الثالث عشر الهجرى، وذلك لحاجة شخصية فتعرف هناك على أستاذ كبير في علم الهيئة وهو مولانا عبد العلى الرامفورى، فقرأ عليه جزءا من شرح جغمينى في علم الهيأة(٣).

وإنه تلقى تعليم الطريقة عن مرشده الشريف آل رسول المارهروى، ونهل من ينابيع شيخه ومرشده زهاء ثلاث سنوات بدءا من العام الرابع والتسعين إلى العام السادس والتسعين من القرن الثالث عشر الهجرى، وإنه قبل لحاقه بالرفيق

---

(١) نفس المرجع السابق، جـ ١، ص ٣٢.

(٢) رسائل رضوية (الرسائل الرضوية)، للشيخ أحمد رضا خان، رتبه مولانا محمد إحسان الحق، (ط: المكتبة الحامدية، لاهور ١٩٧٦م)، ج ٢، ص ٣٠٩.

(٣) حيات أعلى حضرت، لمولانا محمد ظفر الدين البهارى، جـ ١، ص ٣٣.

الأعلى جعل الشيخ أحمد رضا خان تحت إشراف خليفته ونائبه وحفيده الشريف أبى الحسين أحمد النورى حيث أخذعنه بعض علوم الطريقة وعلم التكسير وعلم الجفر"[١].

ويحدثنا الأستاذ الدكتور محمد مسعود أحمد عن استمرار شاعرنا في السير على دروب العلم وقيامه بتثقيف نفسه بنفسه فيقول[٢]: "ولم يزل بعد تخرجه يبحث ويكتب ويستزيد بدراسته ومطالعته أنواعا من العلوم والفنون حتى برع في خمسة وخمسين علما وفنا".

تلقى شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان واحدا وعشرين علما وفنا عن والده، والتفصيل كما بينه الشيخ بنفسه[٣] كالتالى: "القرآن، الحديث، أصول الحديث، الفقه، أصول الفقه، التفسير، أصول التفسير، العقائد، الكلام، النحو، الصرف، الحساب، الهيئة، الهندسة".

هذا وقد تضلع في أربعة وثلاثين علما وفنا غير المذكورة آنفا، أخذ بعضها عن غير أبيه من العلماء، وبرع في بعضها بذهنه الحاد وذكائه الخارق الموهوب، ويدلى شاعرنا بأسماء هذه العلوم حيث يقول[٤]: "القراءة، التجويد، السلوك، الأخلاق، أسماء الرجال، السير، التاريخ، اللغة، الأدب بجميع فنونه، الإرثماطيقى، الجبر والمقابلة، الحساب الستينى، اللوغارثمات، التوقيت، المناظر والمرايا، الأكر، الزيجات، المثلث الكروى، المثلث المسطح، الهيئة الجديدة، المربعات، الجفر،

---

(١) المرجع السابق، جـ ١، ص ٣٤، ٣٥.
(٢) الشيخ أحمد رضا خان البريلوى للأستاذ الدكتور محمد مسعود أحمد، ص ١٧.
(٣) رسائل رضوية، للشيخ أحمد رضا خان، جـ ٢، ص ٣٠١.
(٤) المرجع السابق، جـ ٢ ص ٣٠١

الزائجة، النظم العربى، النظم الفارسى، النظم الأردى، النثر العربى، النثر الفارسى، النثر الأردى، خط النستعليق، الفرائض وغيرها".

أما عن إتقانه للعربية والفارسية والأردية فيحدثنا عن ذلك الأستاذ حازم محمد أحمد حيث يقول[١]: "كان الشيخ أحمد رضا خان محبا للغته الأم اللغة الأردية، بالإضافة إلى اللغتين العربية والفارسية، وكان قد وهب ذاكرة لاقطة فأقبل على آداب هذه اللغات ينهل منها بشغف شديد ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وكان لوالده الفاضل مولانا محمد نقى على خان دور كبير في هذا المضمار حيث إنه غرس هذا الحب في قلب ابنه، وكانت نظرة الوالد إلى اللغتين العربية والفارسية بأن تعلمهما شيئ أساسى لا غنى عنهما لأى عالم أو أديب يعيش على أرض شبه القارة لعمق الصلة بين هاتين اللغتين واللغة الأردية، فاللغة العربية لغة الدين الإسلامي كما أن اللغة الفارسية لغة الحضارة والتراث الإسلامى الضخم في شبه القارة بالنظر إلى أنها كانت قبل هيمنة الاستعمار الإنجليزى الغاشم على شبه القارة اللغة الرسمية بهذه البلاد، وقد رأينا الشيخ أحمد رضا خان يعرف هذه الحقيقة منذ صباه فأقبل بشغف شديد على هذه اللغات يتعلمها ويطلع على آدابها وقد رأيناه يؤلف وينظم بهذه اللغات، وبمطالعة آثاره الخالدة بهذه اللغات يتبين أن مؤلف هذه الآثار الأدبية على الأخص – ما هو إلا أديب عربى، وعندما نطالع مؤلفاته النثرية التى كتبها بالعربية نتحير من مدى تمكنه التام من اللغة العربية وآدابها بل إننا وجدناه ينظم شعرا عربيا اتسم بلغة فصيحة وأسلوب سلس".

(١) انظر: الإمام الأكبر محمد أحمد رضا خان والعالم العربى، للأستاذ حازم محمد أحمد، ص ٢٩، ٣٠.

ثانياً: رحلته إلى الحرمين الشريفين

كان قلب شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان عامرا بحب الحبيب المصطفى- صلى الله عليه وسلم - فكان يعيش في لهف وشوق شديدين لزيارة الحرمين الشريفين. ولم يزل حب النبي - صلى الله عليه وسلم - يزيد ويقوى مع الأيام، وكانت عيناه تذرفان بالدمع الغزير إذا ذكرت المدينة المنورة في مجلسه، فكان شاعرنا يحن إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة ويتمنى زيارتهما مهما كانت الظروف والأحوال، وأخيرا آن الأوان لتحقيق أحلامه وإرواء أشواقه، وإشباع نفسه التي كانت تهفو إلى رؤية الحرمين الشريفين، فقد أسعده الله - سبحانه وتعالى - بزيارتين ورحلتين عظيمتين، فكأن الله - سبحانه وتعالى - يشبع ري هذه النفس، فعطاؤه واسع، ومنّه عظيم، ونعمته إن أراد لا تحدها حدود، فبدلا من أن يروى ظمأه مرة واحدة تفضل فأشبع هذه النفس برؤيتين لا رؤية واحدة، وفيما يلي تفصيل هاتين الرحلتين.

رحلته الأولى إلى الحرمين الشريفين

لقد تشرف شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان بزيارة الحرمين الشريفين مع والده سنة خمس وتسعين ومائتين وألف للهجرة، الموافق لثمانية وسبعين وثمانمائة وألف للميلاد. وفي هذه الرحلة الميمونة المباركة أخذ الشيخ أحمد رضا خان إجازة الحديث عن الشيخ أحمد زيني دحلان المكي، والشيخ عبد الرحمن سراج، والشيخ حسين بن صالح جمل الليل. لقد فوجئ الشيخ أحمد رضا خان في يوم من الأيام بعد

انتهائه من صلاة المغرب عند مقام سيدنا إبراهيم – عليه السلام – إذ جاءه شيخ الشافعية وإمام المسجد الحرام آنئذ الشيخ حسين بن صالح جمل الليل فأمسك بيده وأخذه إلى بيته، ولم تكن بينهما معرفة مسبقة، وهناك وضع الشيخ حسين بن صالح يده على ناصية الشيخ أحمد رضا خان قائلا: "إني لأجد نور الله في هذا الجبين" ثم منحه إجازتين في الصحاح الستة والطريقة القادرية، وحينئذ اقترح عليه إمام الحرم المكي المذكور آنفا أن يكتب شرحا على كتابه الجوهرة المضية، فأخذ الشيخ أحمد رضا خان الكتاب وكتب بما فتح الله به عليه في فترة بسيطة لا تزيد عن يومين، وأسماه "النيرة الوضية في شرح الجوهرة المضية"(١) وأورد فيه آراء علماء الفقه الحنفي جنبا إلى جنب آراء المذهب الشافعي"(٢).

كان شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان عقلية علمية مضيئة شأنه في ذلك شأن المصباح الذى يوضع في أى مكان فيضيئه، وهذا ما كان من أمر شاعرنا بحيث إنه طلب منه الشرح والتعليق فأدى ذلك خير أداء كما لو كانت لديه فكرة مسبقة عما يطلب منه وأنا أستطيع هنا أن أقول إن إمام الحرم تفرس في وجه شاعرنا النجابة، فكان شاعرنا عند حسن ظنه.

(١) الجوهرة المضية عبارة عن أرجوزة فى الفقه الشافعى، وقد رأى شاعرنا أن يتناولها بإيجاز طبقا لما طلب إليه الشيخ حسين بن صالح جمل الليل لعل أهل الهند الذين لم يعرفوا عنها شيئا يلموا بها ويقفوا على بعض ما فيها حيث يقوم شاعرنا بشرح هذه الأرجوزة باللغة الأردية ليتمكن أكثر أهل الهند من الاطلاع عليها، على أنه سوف يعرض لمواطن الخلاف بين المذهب الشافعي والذى عليه الأرجوزة ومذهب الأحناف والذى يعتنقه أكثر أهل الهند، مشيرا إلى ذلك بوضوح ليبين لأهل الهند الذين استقر فى نفوسهم معرفة المذهب الحنفى ما عليه الشافعية فى هذه النقطة التى يعرضها.

(٢) انظر: من هو أحمد رضا_ للشيخ شجاعت على القادرى (ط: منظمة الدعوة الإسلامية لاهور ١٩٨٦م)، ص ١٢٥.
وانظر: نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، للشريف عبد الحى اللكنوى، جـ ٢، ص ٤٢.

لقد رجع شاعرنا من هذه الرحلة المباركة بعد أن غنم من نعمة الله - سبحانه و تعالى - الكثير، فقد تمتع بحج وزيارة للمسجد النبوى والقبر الشريف مباركتين كما عاد واصطحب معه إجازات ثلاثا في الحديث، والفقه، والطريقة القادرية، كما تمتع بالبيئة العربية بمعنى الكلمة والروح فازدادت ثقافته العربية نظما ونثرا.

رحلته الثانية إلى الحرمين الشريفين

ومرة أخرى يسعد قلبه الملتاع ونفسه التائقة بروئية مباركة للحرمين الشريفين وهذه المرة لم تكن زيارته هذه قصدا في بادئ الأمر وإنما دفعه إلى هذا حبه واتجاه قلبه وميول غامرة في نفسه إلى الحرمين الشريفين، اجتمع كل ذلك عليه فقاده فضل الله إلى الحرمين الشريفين مرة ثانية، وذلك أنه ذهب ليودع أخاه الأصغر محمد رضا خان وابنه الأكبر محمد حامد رضا خان حيث إنهما كانا ينويان حج البيت العتيق وزيارة الحرم النبوى الشريف. فجاء شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان إلى الميناء بمدينة بومبائى ليودعهما ثم رجع إلى مدينة بريلى ولكن حب الحرمين الشريفين كان قد سيطر على قلبه وروحه، وقد اشتد شوقه ولهفه إلى ديار الحرمين الشريفين، فحضر إلى أمه واستأذنها بكل احترام في هذه الرحلة، وبعد إذن أمه أسرع شاعرنا إلى الميناء ليلحق بركب الحجيج، فكانت الباخرة لحسن حظه متأخرة بالميناء فلحق شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان بأخيه وابنه، وتمت هذه الرحلة في العام الثالث والعشرين من القرن الرابع عشر الهجرى الموافق للعام السادس من القرن العشرين الميلادى(١).

---

(١) انظر: سوانح إمام أحمد رضا، لمولانا بدر الدين أحمد القادرى، ص ٢٩٨، ٢٩٩.
وانظر: من هو أحمد رضا خان، للشيخ شجاعت على القادرى، ص ١٢٤.

وإذا كانت الرحلة الأولى لم تخل من العلم اطلاعا وتأليفا فإن الرحلة الثانية أيضا أضيئت بالعلم، ففى الرحلة الثانية قام شاعرنا الفقيه بمهمة الإفتاء، والتأليف خلال إقامته بأرض الحرمين الشريفين، وفي هذا يقول الشريف أبو الحسن على الندوى[١]: "إنه سافر إلى الحرمين الشريفين عدة مرات وذاكر علماء الحجاز في بعض المسائل الفقهية والكلامية وألف بعض الرسائل أثناء إقامته بالحرمين، وأجاب عن بعض المسائل التى عرضت على علماء الحرمين الشريفين، وأعجبوا بغزارة علمه وسعة إطلاعه على المتون الفقهية، والمسائل الخلافية، وسرعة تحريره وذكائه".

هكذا استطاع شاعرنا أن يتمتع بالبيئة العربية التى شغف بلغتها وآدابها وذلك بعد زيارة الحرمين الشريفين، كما قام بتأليف بعض كتبه بالعربية للعرض على علماء العرب، فما برحت هذه الكتب إلا نالت إعجاب علماء الحرمين الشريفين من ناحية المادة العلمية والبراعة اللغوية، ومما تجدر الإشارة إليه أن شاعرنا مدح بعض من علماء الحرمين الشريفين بشعره العربى، كما مدحه بعضهم أيضا بالشعر العربى، الأمر الذى أهاج في قلب شاعرنا الموهبة الأدبية وسوف نحاول دراسة الأبيات المشار إليها في مواضعها.

---

(١) نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، للشريف عبد الحى اللكنوى / والشريف أبى الحسن على الندوى، جـ ٨، ص ٤١.

ثالثاً: شـــيوخـه

إن لشاعرنا الشيخ أحمد رضا خان أساتذة وشيوخا من نوعين منـــهم شــيوخ الإقراء ومنهم شيوخ الإجازة، أما شيوخ الإقراء فنذكر فيما يلي أسماءهم.

١- مولانا الشريف آل رسول المارهروى.

٢- مولانا الشريف أبو الحسين أحمد النورى.

٣- مولانا محمد نقى على خان القادرى.

٤- مولانا عبد العلى الرامفورى.

٥- مولانا غلام قادر بيك.

وأما شيوخ الإجازة من أرض الحرمين الشريفين الذين منحوا للشــيخ أحمــد رضا خان إجازة في الحديث والفقه وغيرهما من العلوم الإسلامية والعربية فنســرد أسماؤهم فيما يلي:

١- الشيخ أحمد زينى دحلان المكى.

٢- الشيخ عبد الرحمن سراج المكى.

٣- الشيخ حسين بن صالح جمل الليل.

هذا ولم نعثر على اسم الأستاذ الذى قرأ عليه الشيخ أحمد رضا خان القــرآن الكريم، والباقى من شيوخ الإقراء خمسة، أما شيوخ الإجازة فثلاثة.

إطلالة خفيفة على هؤلاء

١) مولانا الشريف آل رسول المارهروى:

هو مرشد شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان، الذى أفاض على شاعرنا من علومه، ومنه أخذ شاعرنا الطريقة القادرية والإجازة في الحديث والطرق الصوفية.

كان مولانا الشريف آل رسول المارهروى - المولود في العام التاسع من القرن الثالث عشر الهجرى - من كبار أولياء الله الصالحين، تلقى العلوم الابتدائية في الزاوية البركاتية عن مولانا عبد المجيد البدايونى ومولانا سلامت الله كشفى البدايونى، وتلقى آخر دروسه الدينية على يد علماء فرنجى محل، ثم التحق بدروس الإمام عبد العزيز المحدث الدهلوى حيث حصل على إجازات لسلاسل الحديث والطرق الصوفية فأصبح أستاذاً في الحديث وشيخا في الطريقة، عاش حياة حافلة في خدمة الإسلام والمسلمين وتوفى إلى رحمة الله - سبحانه وتعالى - في العام السادس والتسعين بعد المائتين والألف للهجرة الموافق للعام السابع والسبعين بعد الثمانمائة والألف للميلاد(١).

٢) مولانا الشريف أبو الحسين أحمد النورى:

هو حفيد مولانا الشريف آل رسول المارهروى وخليفته، ومنه أخذ شاعرنا بعض علوم الطريقة وعلم التكسير وعلم الجفر، ولد المترجم له في العام السابع والخمسين من القرن الثالث عشر الهجرى الموافق للعام التاسع والثلاثين من القرن التاسع عشر الميلادى، توفيت أمه وهو لم يتجاوز السنة الثالثة من عمره، وفي العام السادس والستين من القرن الثالث عشر الهجرى توفى والده أيضا، فنشأ وتربى في

---

١) انظر: تذكرة علماء أهل سنت، لمولانا محمود أحمد القادرى، ص ٢١، ٢٢.
وانظر: رسائل رضوية، للشيخ أحمد رضا خان، جـ ٢، ص ٣٠٩.
وانظر: الشيخ أحمد رضا خان، للأستاذ الدكتور محمد مسعود أحمد، ص ٢٦.
وانظر: نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، للشريف عبد الحى اللكنوى، جـ ٧، ص ٤.

حضن جديه وتلقى دراسته في الزاوية البركاتية على يد أساتذة أجلاء منهم مولانا محمد سعيد البدايونى، ومولانا نور أحمد البدايونى، ومولانا فضل الله الجاليسرى، ومولانا هدايت على البريلوى، أخذ الحديث والطريقة عن جده مولانا الشريف آل رسول المارهروى، كما أخذ المسلسل بالأولية عن الشيخ أحمد حسن المراد آبادى، عن الشيخ أحمد بن محمد الدمياطى، عن الشيخ المعمر محمد بن عبد العزيز، عن الشيخ المعمر أبى الخير بن عموس الرشيدى، عن شيخ الإسلام زين الدين زكريا بن محمد الأنصارى، وهو سند عال جدا [على حد قول الشريف عبد الحى اللكنوى]، توفى المترجم له إلى رحمة الله تعالى بعد حياة حافلة قضاها مشتغلا بإصلاح المسلمين ظاهرهم وباطنهم وذلك في العام الرابع والعشرين من القرن الرابع عشر الهجرى، الموافق للعام السادس من القرن العشرين الميلادى[١].

(٣) مولانا عبد العلى الرامفورى:

قرأ عليه الشيخ أحمد رضا خان شرح جغمينى [اسم كتاب في علم الهيئة] وهو أحد العلماء البارزين في علم المنطق والحكمة والهيئة، درس وأفاد مدة عمره، وأخذ عنه غير واحد من العلماء، تلقى المترجم له دراسته الابتدائية عن المولوى حيدر على تونكى، والمفتى شرف الدين الرامفورى، ودرس الحديث على يد مولانا محمد إسحاق الدهلوى، كما قرأ كتب الطب على الحكيم صادق على الدهلوى، ودرس على يد مولانا فضل حق الخير آبادى "حاشية قديمة" [هذا اسم كتاب في علم الحكمة]، وكان شغوفا بعلوم الحكمة، عمل مدرسا بالمدرسة العالية بمدينة رامفور، وتوفى إلى رحمة الله في السنة الثالثة من القرن الرابع عشر الهجرى[٢].

(١) انظر: تذكرة علماء أهل سنت، لمولانا محمود أحمد القادرى، ص ٢٨.
وانظر: الشيخ أحمد رضا خان، للأستاذ الدكتور محمد مسعود أحمد، ص ٢٦.
وانظر: نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، للشريف عبد الحى اللكنوى، جـ ٨، ص ٨، ٩.

(٢) انظر: تذكره علماء أهل سنت، لمولانا محمود أحمد القادرى، ص ٢٨.
وانظر: تذكره كاملان رامبور، للحافظ أحمد على شوق، (ط: دهلى، ١٩٢٩م)، ص ٢٢٨.
وانظر: نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، للشريف عبد الحى اللكنوى، جـ ٨، ص ٢٧٥، ٢٧٦.

٤) مولانا غلام قادر بيك اللكنوى:

هو غلام قادر بيك اللكنوى بن حسن جان بيك اللكنوى، ولد في العام الثاني الثلاثين من القرن الثالث عشر الهجرى الموافق للعام السابع والعشرين من القرن التاسع عشر الميلادى بمدينة لكنو، نزح والده من مدينة لكنو إلى مدينة بريلى حيث أقام في المسجد الجامع بجوار القلعة.. وكانت أسرته في الأصل قد نزحت من إيران إلى الهند واشتغل أجداده في الجيش المغولى حيث منحوا لقب "ميرزا" و "بيك" وذلك نظرا لخدماتهم في الجيش.

كان مولانا غلام قادر بيك من أصدقاء مولانا محمد نقى على خان فأقدم بنفسه لتدريس ابن صديقه حيث تعلم الشيخ أحمد رضا خان على يده بعض المواد التي كانت تدرس بالمرحلة الابتدائية في عصره.

نزح مولانا غلام قادر من مدينة بريلى إلى مدينة كلكته في أواخر أيامه، فكان يقوم بزيارة إلى شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان، وكان تلميذه هذا يعامله بكل الإجلال والتكريم كلما ذهب إليه، وكان مولانا غلام قادر يرسل إلى الشيخ أحمد رضا خان الاستفتاءات من مدينة كلكته بعد تحوله إليها طالبا منه الفتوى فيها، وهذه الاستفتاءات مع أجوبتها موجودة في ثنايا الفتاوى الرضوية، وقد ألف الشيخ أحمد رضا خان رسالته: "تجلى اليقين بأن نبينا سيد المرسلين" ردا على استفتاء مولانا غلام قادر اللكنوى.

توفى مولانا غلام قادر بيك إلى رحمة الله - سبحانه وتعالى - في السنة السادسة والثلاثين من القرن الرابع عشر الهجرى الموافق للسنة السابعة عشر من القرن العشرين الميلادى[١].

---

١) انظر: حياة أعلى حضرت، لمولانا محمد ظفر الدين البهارى، جـ ١، ص ٣٢.
وانظر: تجلى اليقين بأن نبينا سيد المرسلين. للشيخ أحمد رضا خان، (ط: بروكريسو. ببلشرز، دون سنة الطبع). ص ١٤.
وانظر: مولانا غلام قادر بيك اللكنوى، بحث مستخرج من مجلة سنى دنيا (الصادرة من مدينة بريلى) بقلم عبد الوحيد بيك البريلوى في عدد يونيو ١٩٨٨م، ص ٣٧.

(٥) ومن أساتذته أيضا والده مولانا محمد نقى على خان القادرى، وقد سبق أن ذكرت ترجمته ضمن آباء الشيخ أحمد رضا خان. وبالتالى فوالده يضاف إلى شيخوخه الذين أقرأوه وأجازوه إلى جانب هؤلاء جميعا.

هذه كانت وقفتنا مع شيوخ الإقراء للشيخ أحمد رضا خان أما شيوخ الإجازة لشاعرنا الذين اجتمع معهم على أرض مكة المكرمة خلال زيارته الأولى إلى الحرمين الشريفين حيث تتلمذ على أيديهم وأفاد من علمهم وأخذ منهم الإجازة في الحديث، والفقه والتصوف فهاكم نبذة عن حياة أولئك الذين أجازوه.

(١) الشيخ أحمد بن زينى دحلان المكى:

ولد الشيخ أحمد زينى دحلان بمكة المكرمة في العام الحادى والثلاثين من القرن الثالث عشر الهجرى وتعلم بها، وأخذ العلم عن محمد سعيد المقدسى، وعلى سرور، وعبد الله سراج الحنفى، وبشر الجبرتى، وأخذ الفقه الحنفى عن السيد محمد الكتبى، ويروى عن الوجيه الكزبرى، والشيخ عثمان الدمياطى، والقاضى ارتضى على خان المدراسى الهندى وغيرهم، وكان أكثر اعتماده على أسانيد المصريين[١].

وصفه إسماعيل باشا البغدادى برئيس العلماء وشيخ الخطباء[٢] كما يلمح عمر رضا كحاله إلى مكانته العلمية قائلا[٣]: "فقيه، مؤرخ، مشارك في أنواع من العلوم ، مفتى الشافعية بمكة المكرمة". ويعرفنا به الزركلى قائلا[٤]: "فقيه مكى مؤرخ، ولد بمكة وتولى فيها الإفتاء والتدريس". وعن اهتمامه بتدريس الحديث النبوى الشريف يحدثنا الكتانى حيث يقول[٥]: "كان مدمنا على الدرس، خصوصا الحديث حتى قالوا: صار البخارى عنده ضروريا كالفاتحة" وله مؤلفات قيمة وكلها

(١) فهرس الفهارس، لأبى جعفر الكتانى، (ط: دار العرب الإسلامى، دون سنة الطبع)، جـ ١، ص ٣٩٠.
(٢) هدية العارفين، أسماء المؤلفين واثار المصنفين، لإسماعيل باشا البغدادى (ط: المكتبة الإسلامية بطهران، دون سنة الطبع)، جـ ١، ص ١٩١.
(٣) معجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة، (ط: دار احياء التراث العربى)، جـ ١، ص ٢٢٩.
(٤) الأعلام، لخير الدين الزركلى، (ط: دار العلم، بيروت، ١٩٨٦م)، جـ ١، ص ١٢٩.
(٥) فهرس الفهارس، لأبى جعفر الكتانى، جـ ١، ص ٣٩١.

مطبوعة[١] أخذ عنه مولانا محمد نقى على خان القادرى والشيخ أحمد رضا خان إجازة الحديث في العام الخامس والتسعين من القرن الثالث عشر الهجرى[٢].
وتوفى المترجم له في العام الرابع من القرن الرابع عشر الهجرى[٣].

(٣) الشيخ عبد الرحمن سراج:

ولد الشيخ عبد الرحمن سراج بمكة المكرمة سنة تسع وأربعين ومائتين وألف للهجرة، وحفظ القرآن المجيد وكثيرا من الفنون، وتتلمذ على والده شيخ علماء مكة، مفتى الأحناف الشيخ عبد الله سراج، كما تلقى العلم على يد مفتى مكة الشيخ جمال عبد الله شيخ علماء مكة الذى تولى مشيختها بعد وفاة الشيخ عبد الله سراج، كما درس على الشيخ أحمد زينى دحلان مفتى الشافعية بمكة المكرمة، وعلى الشيخ رحمة الله الهندى مؤسس المدرسة الصولتية، وكان مجتهدا في الطلب مجدا فيه، متميزا بين الأقران فصار أوحد علماء هذا العصر وفقهائه وشعرائه، وحصل على إجازات أقطاب العلماء في زمانه تفنن في علومه وأجاد في منثوره ومنظومه، فأصبحت له حلقة في المسجد الحرام، وتتلمذ عليه طلاب العلم وتخرج جماعة منهم على يده، ولما توفى الشيخ جمال عبد الله مفتى الأحناف ولى الشيخ عبد الرحمن هذا المنصب الذى أسنده إليه الشريف عبد الله بن عون أمير مكة[٤].

توفى الشيخ عبد الرحمن سراج بعد حياة حافلة عاشها في نشر العلم في العلم الرابع عشر بعد الثلاثمائة والألف للميلاد[٥] وأخذ عنه مولانا محمد نقى على خان

---

(١) انظر للتفصيل: الأعلام، للزركلى، جـ ١، ص ١٣٠، وهدية العارفين، للبغدادى، جـ ١، ص ١٩١.
(٢) نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، للشريف عبد الحى اللكنوى، جـ ٨، ص ٤٢.
(٣) فهرس الفهارس، لأبى جعفر الكتانى، جـ ١، ص ٣٩١.
(٤) انظر: أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر الهجرى وبعض القرون الماضية، للأستاذ محمد على المغربى (مطبعة المدنى بالقاهرة، ١٤٠١هـ)، جـ ٣، ص ٣٣٩، ٣٤٠.
وانظر: المختصر من كتاب نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر، للشيخ عبد الله مرداد أبو الخير (ط: عالم المعرفة، جدة، ١٤٠٦هـ)، ص ٢٣٤، ٢٤٤.
(٥) معجم المؤلفين، لعمر رضا كحاله، جـ ٥، ص ١٤٩، ١٥٠.

و الشيخ أحمد رضا خان إجازة الفقه في العام الخامس و التسعين من القرن الثـــالث عشر الهجرى[١].

(٣) الشيخ حسين جمل الليل:

هو الشيخ حسين جمل الليل بن صالح بن سالم الشافعى المكى الخطيب، الإمام بالمسجد الحرام، ولد بمكة المشرفة ونشأ بها و أخذ العلم عن أفاضل أهلها، وتولـــى منصب مشيخة الخطباء و الأئمة بمكة سنة تسع وتسعين ومائتين و ألـــف للـــهجرة، نصبه إياه أمير مكة يومئذ الشريف عبد المطلب، ولبث فيه إلى أن توفي بمكة ســنة خمس وثلاثمائة و ألف للهجرة، صلى عليه عند باب الكعبة ودفن في المعلاة، وكــان لطيفا حسن المفاكهة ناظما للشعر[٢].

وبهذا أعتقد أننى إستطعت أن أسلط بعض الضوء على شيوخ شاعرنا الشـــيخ أحمد رضا خان الذين قاموا بإسهاماتهم في تكوين شخصية هذا الشاعر و المصلـــح الدينى، ومن الجدير بالذكر أن كلا من الشيخ عبد الرحمن سراج و الشيخ حسين كان شاعرا عربيا أيضا ومن المؤكد أن شاعرنا أفاد منهما من هذه الناحية أيضا و إن لـم يذكر شئ عن ذلك في المراجع المعنية بشاعرنا.

---

(١) تذكره علماء اهل سنت. لمولانا محمود أحمد القادرى. ص ٤٣.
(٢) المختصر من كتاب نشر النور و الزهر، للشيخ عبد الله مرداد أبو الخير، ص ١٧٧.

رابعا: إقدامه على التدريس

تخرج شاعرنا في العلوم العربية والإسلامية في العام السادس والثمانين ومائتين وألف للهجرة الموافق للعام التاسع والستين بعد الثمانمائة والألف للميلاد. عندئذ وجد شاعرنا بنى جلدته من المسلمين الهنديين في تخلف ثقافى هائل، وهم يعانون من الأمية التى نتجت عن تصرفات الإنجليز حيث إنهم أغلقوا المعاهد الدينية والكتاتيب، وقاموا بإعدام الكثير من علماء الدين الحنيف شنقا في الشوارع، كما أرسلوا بعضهم إلى جزائر لا تتناسب لصحتهم وذلك للتخلص منهم، حتى يضرب التخلف أطنابه في عقول المسلمين ولا تقوم لهم قائمة، فما كان من شاعرنا الفقيه إلا أنه وجه اهتمامه إلى تدريس العلوم العربية والإسلامية نظرا للعدوان الإنجليزى على المسلمين، وفي هذا يقول مولانا محمد ظفر الدين البهارى[١]: تولى الشيخ أحمد رضا خان بعد تخرجه تدريس الطلاب لعدة سنوات مع قيامه بالإفتاء... وكان والده مولانا محمد نقى على خان أنشأ بمدينة بريلى معهدا علميا دينيا في العام التاسع والثمانين بعد المائتين والألف للهجرة، الموافق للعام الثانى والسبعين من القرن الثامن عشر الميلادى، وسماه مصباح التهذيب، واشتهر فيما بعد باسم مصباح العلوم درس فيه الشيخ أحمد رضا خان بنفسه سنوات عدة ثم أقام معهدا علميا أخر في العام الثانى والعشرين من القرن الرابع عشر الهجرى، الموافق للعام الرابع من القرن العشرين الميلادى، وسماه منظر الإسلام، وإنه تولى إدارة هذا المعهد بنفسه أولا ثم عين ابنه مولانا محمد حامد رضا خان مديرا لهذا المعهد لانشغالاته العلمية الأخرى.

---

(١) جودهوين صدى كے مجدد (مجدد القرن الرابع عشر). لمولانا محمد ظفر الدين البهارى (ط: مركزى مجلس رضا، لاهور، ١٩٨٠م). ص ٥٩، ٦٠.

وفي هذا يقول الدكتور حامد على خان[١]: "لما توجه الشيخ أحمد رضا خان إلى تدريس العلوم الإسلامية والعربية روى غليل الطلاب الكثيرين بالعلوم الإسلامية والعربية، ولم يكتف بهذا بل أنشأ معاهد دينية أخرى في أرجاء شبه القارة الهندية، وذلك عن طريق تلاميذه الذين تعلموا على يديه".

ويخبرنا الدكتور محى الدين الألوائى عن دور شاعرنا في نشر اللغة العربية في الهند فيقول[٢]: "يعد مولانا أحمد رضا خان البريلوى من طليعة علماء الهند المسلمين الذين ساهموا مساهمة فعالة في خدمة العلم والدين واللغة العربية في أنحاء شبه القارة الهندية، وله صفحات مجيدة في تاريخ نشر العلوم العربية والإسلامية في ربوعها". ولم أشأ أن أذكر تلاميذه وما حاولت أن أذكر بعضهم خوف الإطالة وإن كانوا كثيرين.

---

(١) أنوار رضا، لصفوة من العلماء، ص ٥٦٤.

(٢) "مولانا أحمد رضا" بحث مستخرج من مجلة صوت الشرق (القاهرة)، بقلم الدكتور محى الدين الألوانى، عدد يناير ١٩٧٠م، ص ١٦.

خامسا: جلوسه للإفتاء

لقد عاش شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان أربعا وخمسين سنة من حياته الحافلة مؤديا واجبه نحو الفقه الإسلامي والمذهب الحنفي، فقد مضى في هذه المدة كلها مفتيا على المذهب الحنفي مصدرا فتواه تبعا لآراء علماء الحنفية، لم لا وقد ولد في بيت علم وفضل حيث كان أبوه وجده من علماء الأحناف، وقد قاموا بإصدار الفتوى جيلا بعد جيل على المذهب الحنفي كما سبق أن ذكرنا، وتبلغ مدة إفتاء الشيخ أحمد رضا خان وأبيه وجده حوالي إحدى وتسعين سنة كما سيأتي ذكرها، فكان شاعرنا ثمرة مباركة لهؤلاء الأعلام في الفقه الحنفي.

أقدم شاعرنا على الإفتاء في حياة والده ولم يكن يصدر الفتوى إلا بعد نظرة ثاقبة من أبيه الفقيه، على أن أول هذه الفتاوى كانت بدايتها في الرابع عشر من شهر شعبان من العام السادس والثمانين من القرن الثالث عشر الهجري الموافق للعام التاسع والستين من القرن التاسع عشر الميلادي وهو إذ ذاك دون الرابعة عشرة من عمره، وحصل شاعرنا من والده إجازة تامة في الإفتاء في العام الثاني والسبعين من القرن التاسع عشر الميلادي كنتيجة لإجادته في الإفتاء، ولما توفي والده – إلى رحمة الله – في العام السابع والتسعين من القرن الثالث عشر الهجري الموافق للعام الثمانين من القرن التاسع عشر الميلادي أخذ يصدر الفتوى وهو يتحمل وحده مسئولية الإفتاء[1].

ويحدثنا الشيخ أحمد رضا خان عن أنه كان يعرض على والده فتياه فيقرأها ويصلح ما يرى أنه يستحق ذلك ويجيز له ما يراه بعيدا عن الخطأ، وبالتالي فقد

---

(١) حيات مولانا أحمد رضا خان، للاستاذ الدكتور محمد مسعود أحمد (ط: إدارة تحقيقات إمام أحمد رضا، بومباي، الهند، ١٤١٠هـ)، ص ١٢٠.

كان والده مرجعا يلوذ به ويعرض عليه فكره ونسمع إليه حيث يقول[١]: "فجعلت أفتي ويهذبني - قدس سره - [يعني والده] فيما أخطي فبعد سبع سنين أذن لي - عطر الله مرقده النقي العلي - أن أفتي ولا أعرض عليه، ولكن لم أجري بذلك حتى قبضه الرحمن إليه".

ويقول شاعرنا مشيرا إلى سنده في الفقه الحنفي[٢]: "سند الفقير في الفقه المنير مسلسلا بالحنفية الكرام والمفتيين والمصنفين والمشايخ الأعلام. له - بحمد الله تعالى - طرق كثيرة من أجلها أني أرويه عن سراج البلاد الحرمية مفتي الحنفية بمكة المحمية مولانا الشيخ عبد الرحمن السراج ابن المفتي الأجل مولانا عبد الله السراج، عن مفتي مكة سيدي جمال بن عبد الله بن عمر، عن الشيخ الجليل محمد ابن عابد الأنصاري المدني - إلى أن قال - عن الإمام الحجة أبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني، عن الإمام الأعظم أبي حنيفة عن حماد عن إبراهيم، عن علقمة والأسود، عن عبد الله بن مسعود - رضي الله تعالى عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم".

واستمر الشيخ في نشاطه في الإفتاء كتابة وشفهيا ويقول مولانا محمد ظفر الدين البهاري[٣]: "كان الشيخ أحمد رضا خان يرتجل في الرد على الأسئلة الشفهية حين يستفتى شفهيا وذلك نظرا لاستحضاره المسائل الفقهية في ذاكرته، ولم يذكر أنه كان يراجع أمهات الكتب الفقهية قبل الإفتاء شفهيا".

ولم تكن الفتيا من الشيخ أحمد رضا خان بلغة واحدة بل تعددت اللغات لتمكنه من الرأي الفقهي تارة - ومن اللغة تارة أخرى - يقول الأستاذ الدكتور محمد مسعود أحمد مشيرا إلى اللغات التي استخدمها الشيخ أحمد رضا خان لفتاواه[٤]:

(١) العطايا النبوية في الفتاوى الرضوية، للشيخ أحمد رضا خان، جـ ١، ص ٨٨.
(٢) العطايا النبوية في الفتاوى الرضوية، للشيخ أحمد رضا خان، جـ ١، ص ٨٨.
(٣) حيات اعلى حضرت، لمولانا محمد ظفر الدين البهاري، ج ١، ص ١٣٨.
(٤) الشيخ احمد رضا خان البريلوى، للأستاذ الدكتور محمد مسعود أحمد، ص ٨٩، ٩٠.

"إنه أصدر فتاواه بالعربية والفارسية والأردية، فكتب بهذه اللغات. وقد ترجمت بعض فتاويه إلى اللغة الإنجليزية التي كتبها ردا على أسئلة شرعية".

وكان الشيخ أحمد رضا خان في رده على الاستفتاءات يهتم بالنثر والنظم كاهتمامه بلغة المستفتي، فإذا ورد عليه السؤال نثرا رد عليه نثرا، وإذا جاءه السؤال منظوما رد عليه في فتوى منظومة[١].

ويشير مولانا محمد عبد الحكيم شرف القادري إلى ميزة من مزايا فتاوى الشيخ أحمد رضا حيث يقول[٢]: تتجلى حقيقة مدهشة بعد مطالعة "العطايا النبوية في الفتاوى الرضوية" إن أكثر طالبي الفتوى من الإمام أحمد رضا خان كانوا من أصحاب العلم والفضل فمنهم المفتون، والمصنفون، والقضاة، والمحامون [وهذا أفضل عن ثقة العامة، ولا غرابة فإذا كانت الثقة من الخاصة فلا يكون ذلك إلا عن مكنة في العلم وسعة في العقل ومتانة في الرأي وإصالة في الدراسة] وقد أقدم مولانا خادم حسين على كتابة مقال يحمل عنوان: "الإمام أحمد رضا مرجعا للعلماء" وذلك في العام العاشر من القرن الخامس عشر الهجري بعد دراسة تسعة مجلدات من فتاوى الشيخ أحمد رضا خان التي كانت قد طبعت حينئذ، فاتضح له أن ربع طالبي الفتوى تقريبا هم علماء الدين الحنيف، وهذه الأعداد كما وردت في مقدمة الفتاوى الرضوية وهي كما تلي: "عدد أسئلة المستفتين في الأجزاء المطبوعة [وهي كانت تسعة وقتذاك] للفتاوى الرضوية أربعة وتسعون وأربعمائة وأربعون الآف، أما عدد المستفتين من علماء الدين فهو واحد وستون بعد الألف"[٣].

تتضح من منظور ما درسناه المكانة المرموقة للشيخ أحمد رضا خان بين فقهاء الأحناف في أقطار شبه القارة الهندية، ولم يكن الشيخ أحمد رضا خان مرجعا

---

(١) حيات مولانا احمد رضا، للأستاذ الدكتور محمد مسعود أحمد، ص ١٢٤.

(٢) فتاوى رضوية كى انفرادى خصوصيات (مزايا الفتاوى الرضوية)، لمولانا محمد عبد الحكيم شرف القادري (ط: رضا اكيدمى، لاهور، ١٤١٦هـ).

(٣) العطايا النبوية في الفتاوى الرضوية، للشيخ أحمد رضا خان، جـ ١، ص ٥١.

لمسلمى شبه القارة الهندية فقط بل كان مرجعا لمسلمى بلاد أخرى، وسيأتى ذكرها، على أنه لم يكن يتقاضى أى أجر على قيامه بالفتوى، وقال في هذا الصدد حينما سأله أحد المستفتين عن المقابل المادى للفتوى[1]: "لا نأخذ مقابلا ماديا نظير إصدار الفتوى والحمد لله على ذلك، وتأتينا الاستفتاءات بفضل الله تعالى من أقطار الهند كبنجاب وبنغال، ومليبار، وبلاد أخرى كأفغانستان، وبورما، والصين، وإفريقيا، وأمريكا، والعراق، والحرمين الشريفين فتجتمع عندنا في بعض الأونة حوالى أربعمائة استفتاءات، وإننى بعون الله تعالى أقوم بهذا العمل منذ إحدى وخمسين سنة، والحمد لله نقوم بالإفتاء منذ عهد جدنا الشيخ محمد رضا على خان حتى يومنا هذا أى العام السابع والثلاثين من القرن الرابع عشر الهجرى الموافق للعام الثامن عشر من القرن العشرين الميلادى، وتبلغ هذه الفترة إحدى وتسعين سنة، وليس من السهل إحصاء الفتاوى الصادرة في هذه الفترة إلا أن هذا العبد الفقير كتب إثنى عشر مجلدا في الفتاوى، وخلال هذه الفترة الطويلة لم نأخذ أى مقابل مادى نظير الفتوى، ولو بيسة واحدة[2] ولن تؤخذ بعونه تعالى والحمد لله، ولا أعرف السبب الذى دفع البعض إلى اختيار الإفتاء كمهنة مربحة مما دفع بعض الناس الذين يقدمون أسئلتهم للحديث عن تقديم مقابل مادى نظير إفتائى وإجابتى عن أسئلتهم، إخوة الإيمان والإسلام: **وما أسئلكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين**[3]. وفي هذا دلالة على نزاهة الشيخ وعدم حبه للمال خاصة إذا أتى من سبب لا ترتاح له نفسه، وهو لا يتحدث عن ذلك السبب فقط بل يستنكر على غيره أن يشرب من هذا المورد، فهو لا يراه صافيا يروى ظمأ النفس وتطلعها إلى المال، إنه يتجنب الحصول على الرزق من هذا المورد ويدعو غيره إلى التأسى بفعله وإن كان لا يطلب ذلك بصراحة.

---

(١) المرجع السابق، جـ ٣، ص ٢٣٠.

(٢) بيسه واحدة تساوى مليما بعملة مصر.

(٣) سورة الشعراء ٢٦/١٠٩.

لقد تمكن شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان من القيام بالعدد الكبير من الفتاوى بتوفيق الله – تبارك وتعالى – فإنه كان موهوبا في الإفتاء فقام بهذه المهمة خير قيام وأمضى أربعة وخمسين عاما في القيام بالإفتاء، وقد اعترف أهل العلم بنزاهته وطول باعه في الفقه الحنفي، ونستأنس لذلك بقول الدكتور محمد إقبال حيث يقول[١]: "كان الشيخ أحمد رضا خان عالما زكيا دقيق الفكر ذا المرتبة الرفيعة في التفقه، تتجلى مواهبه الاجتهادية من مطالعة فتاوية، وكان من نوابغ الهند، ويصعب علينا أن نجد فقيها بالطبع ورجلا زكيا مثله في عصر المتأخرين". ولم يكن هذا الرأى للدكتور محمد إقبال فقط بل نوه بشاعرنا وفتياه أناس كثيرون لم أشأ أن أذكرهم خوف الإطالة.

هكذا كانت لشاعرنا إسهامات قيمة في إثراء الفقه الحنفي الأمر الذى دفع الطالب الباكستانى الشيخ مشتاق أحمد شاه إلي أن يقوم بإعداد رسالة التخصص الماجستير والتى موضوعها: "الإمام أحمد رضا خان وأثره في الفقه الحنفي" وذلك في كلية الشريعة والقانون جامعة الأزهر الشريف، وقد منحته الكلية درجة التخصص الماجستير في العام الثامن والتسعين من القرن العشرين الميلادى.

---

(١) مقالات يوم رضا، للشيخ عبد النبى كوكب، جـ ٣، ص ١٠.
قام الدكتور أحمد على برواية هذا الرأى حيث إنه سمع هذه الكلمات عن الدكتور محمد إقبال وبالتالى ضبطها في مقاله الذى يتضمنه الكتاب المذكور أعلاه.

سادسا: قيامه بالتصنيف والتأليف

إن الشيخ أحمد رضا خان وجه اهتمامه البالغ إلى التصنيف و التأليف لنشر الوعي الإسلامي و الحث على حب الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتحريك العواطف للارتواء من هذا الحب، ومقاومة البدع و المنكرات السائدة في شبه القارة آنذاك. فصنف في موضوعات شتى وعلوم كثيرة، وفي هذا الصدد يقول مولانا محمد ظفر الدين البهاري[١]: "إن الله تعالى جعله جامعا لعلوم وفنون حيث إنه بتوفيق الله تعالى وبفضل جهوده في مجال العلم وذكائه الموهوب استطاع أن يؤلف في خمسة وخمسين علما وفنا".

ويقول مولانا محمد حسين الجشتي معبرا عن إحساس الشيخ أحمد رضا خان بمسئولية التصنيف و التأليف[٢]: "كان الشيخ أحمد رضا خان نحيلا قانعا بأقل الطعام، وإذ انشغل بشئ من ألوان التصنيف أحاط بعقله ما يؤلف فيه إحاطة تجعله يأنف من كثرة الكلام فلا يميل إلى الزائرين ليتجنب ما يلهيه عن التأليف" "على أن ساعة العصر كانت هي الوقت الذي يتفرغ فيه لزواره و الذين كانوا يتحلقون حوله ويكتنفونه من جميع أقطاره، في هذه الفترة كان يملي الرد على الرسائل ويحادث مع الزوار ويجيب على سؤال المستفتي"[٣] على أن هذه الأوصاف حفلت بذكرها بعض الكتب التي عرضت لحياة الشيخ أحمد رضا خان.

ويقول الشيخ أحمد رضا خان موضحا تأدبه مع والده[٤]: "كنت أقدم إلى والدي كل ما أكتبه للمراجعة، وكان في بعض الأحيان يصلح بعض الأشياء، كما

---

(١) حياة أعلى حضرت، لمولانا محمد ظفر الدين البهاري، جـ ١، ص ٢٥.
(٢) المرجع السابق، ص ٣٠.
(٣) المرجع السابق، ص ٦٧.

كان يسعد لرؤية الموضوعات العلمية وتحقيقى للمسائل وعندئذ كان يكرمنى بأدعيته الجليلة، ومازالت هذه المراجعة مستمرة طوال حياته".

هذا ولم يجلس شاعرنا ليدلى بدلوه في فن الأدب إلا إذا كانت نيته أن يكتب نصا، شعرا كان أو نثرا على نحو ما مثلنا لذلك وما سوف نعرض لنصوصه الشعرية، في البابين الثانى والثالث، أما النقد فما قرأنا له شيئا في ذلك، وما أخبرنا أحد بأن قلم شاعرنا قد عرض للنقد الأدبى وإن كانت له بعض التعليقات القليلة، وإنما اتخذ من إصلاح المجتمع دينا وفكرا وسياسة محورا لقلمه، وقد ألف باللغة العربية عددا من الكتب لا يستهان به وقد برئت هذه المؤلفات من أى لكنة أعجمية بل جاءت بلسان فصيح عرف للعربية قيمتها فكتب بها وتذوق من العربية طعمها فجعل من هذا الطعم وهذه اللطافة في الأسلوب منهجا ومنوالا يسير عليه في تأليفه ونضرب لذلك مثلا بمؤلفاته الثلاثة التى ألفها بالعربية خلال إقامته في الحرمين الشريفين، ونالت إعجاب علماء الحرمين الشريفين.

١- الدولة المكية بالمادة الغيبية. (في العلوم التى أكرم الله تعالى بها نبيه صلى الله عليه وسلم)

٢- كفل الفقيه الفاهم في أحكام قرطاس الدراهم. (في أحكام الأوراق المالية).

٣- حسام الحرمين على منحر الكفر والمين. (في الرد على بعض الفرق الزائغة)

هذا ولم يكن طعم العربية ومذاقها قاصرا على ما يؤلفه بالعربية، وإنما عمد إلى مؤلفاته بغير العربية فاتخذ من عنوانها سبيلا يذيع من خلاله الحروف العربية فيعنون لبعض مؤلفاته بغير العربية عنوانا بالعربية محتفظا فيه بالسجع اللطيف المنبئ عن مضمون الكتاب المراعى لحساب الجمل، وفي هذا يقول الأستاذ حازم

محمد أحمد[١]: "إنه اختار لأغلب مصنفاته أسماء "مسجوعة" دالة على عام تأليفها بحساب الجمل، وكان يراعى عند اختيار أغلب مؤلفاته الآتى:

١- أن يكون اسم الكتاب مسجوعا ومقفى.
٢- مراعاة موضوع الكتاب أو الفن الذى ألفه فيه، فلما يقال: "العنوان دليل على ما فيه" [وإن كان المثل: "الكتاب يقرأ من عنوانه"] فنجد هذه المقوله منطبقة تماما على عناوين مصنفاته.
٣- استخراج عام التأليف من عنوان الكتاب.
٤- اختيار العنوان باللغة العربية لكل مؤلفاته بالعربية، على أنه كان يختار عنوانا عربيا لأكثر مؤلفاته غير العربية.
٥- اختيار كلمات مفهومة للعامة والخاصة من العرب [وغيرهم] على حد سواء، أى اختيار كلمات فصيحة من اللغة العربية المعاصرة".

وهاك بعض الأسماء على سبيل المثال لا الحصر.

١- العطايا النبوية في الفتاوى الرضوية.
٢- الفضل الموهبى فيما إذا صح الحديث فهو مذهبى.
٣- الزبدة الزكية فى تحريم سجود التحية.

ومما هو جدير بالذكر أن عنوان "مؤلفات الشيخ أحمد رضا خان يحمل طعم الشعر وكأن العنوان بيت من القريض له قافيته ذات نغمة تدعو إلى قراءة المضمون.

---

(١) انظر: بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان، ص ٢٣٣، ٢٣٤.

سابعا: موهبتـه الأدبيـة

تحدثنا فيما سبق عن ثقافة الشيخ أحمد رضا خان وذكرنا إلمامه بالعلوم الإسلامية والعربية، ونتحدث الآن عن موهبته الأدبية في الآداب العربية والأردية والفارسية، وكما هو معلوم أن موهبته الأدبية ظهرت منذ حداثة عهده فبدأ يكتب في الآداب العربية والأردية والفارسية في الفترة المبكرة من حياته، وإلى جانب هذا نظم الشعر باللغات المشار إليها آنفا، ومما هو جدير بالذكر أن شبه القارة الهندية بدأت علاقتها باللغة العربية بمهبط التجار العرب على أرض الهند، ولكنها بعد قدوم العرب بقيادة محمد بن القاسم إلى أرض السند - الواقعة بباكستان حاليا - أخذت تتبوأ منزلتها في نفوس علماء وأدباء شبه القارة، واستمرت مسيرة اللغة العربية تمضى قدما هكذا حتى عصر شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان وإلى الآن.

أما اللغة الفارسية فكانت لها الريادة في شبه القارة منذ القرن الرابع الهجرى وحتى نهاية الحكم الإسلامى بشبه القارة باعتبارها اللغة الرسمية، ومع هذا وذاك ظهرت اللغة الأردية على المسرح الرسمى قبيل انتهاء الحكم الإسلامى وأصبحت لغة رسمية بشبه القارة طيلة فترة الحكم الإنجليزى، فكانت الهند ملتقى الحضارات والآداب.

وبمطالعة ما كتب عن الشيخ أحمد رضا خان نجده وقد تأثر بكل هذه اللغات الثلاث. وعرف أنه لابد من إتقانها جميعا للوقوف على الآثار الثقافية الإسلامية، وقد مكنه من إجادة هذه اللغات بيئته الخاصة التى نشأ بها بالإضافة إلى تثقيفه نفسه بنفسه، فوصل إلى منزلة سامية في هذه اللغات وترك آثارا نثرية وشعرية، وعن ذ

يحدثنا الدكتور محى الدين الألوائى[١]: "قديما قيل: إن التحقيق العلمى الأصيل والخيال الذهنى الخصيب لا يجتمعان في شخص واحد (إلا نادرا) ولكن مولانا أحمد رضا خان كان محل اجتماع التحقيق العلمى الأصيل والخيال الذهنى الخصيب، تشهد له بذلك دواوينه الشعرية باللغات الفارسية والأردية والعربية. وديوانه المعروف باسم حدائق بخشش (حدائق العطيات) في مدح الرسول مشهور في أوساط شعراء الهند، وذلك بجانب مؤلفاته في علوم الفلسفة، والفلك. والرياضة، والدين. والأدب".

نظم شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان الشعر الأردى في عصر كان الشعر الأردى قد بلغ درجة ليست بالقليلة، وقتها عاصر شاعرنا الكثير من شعراء الأردية المشاهير أمثال الدكتور محمد إقبال، والميرزا أسد الله خان غالب، وداغ الدهلوى، ومولانا ألطاف حسين حالى، وعن مكانة شاعرنا بين معاصريه في المديح النبوى الشريف يقول الدكتور رياض مجيد[٢]: "نال الشيخ أحمد رضا خان منزلة عالية بين كبار شعراء الأردية. وعلى الأخص إنه يعد الشاعر الأوحد الذى ترك اثرا كبيرا عند كل من تصدى للنظم في المديح النبوى الشريف، ولا نجد صنوه في تاريخ المديح النبوى بالأردية، وقد تربت عنده ملكة المديح النبوى نتيجة لكل ما قرأه عن ذلك الفن بمختلف اللغات، وقد اقتبس في شعره العربى والفارسي والأردى من القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف، كما كانت منظوماته في المديح النبوى الشريف مزدانة بمصطلحات من المنطق، والرياضة، والهيئة، والنجوم، والهندسة، وغير ذلك من العلوم [لم لا وقد سبق أن اشرت إلى نبوغه في فنون عدة]، ومما تجدر الإشارة إليه أنه كان ملما إلماما تاما بأصول النظم كما كانت لغته واسلوبه أفضل مثال في المديح النبوى الشريف، وكان الدافع وراء نظمه الشعر الأردى في

(١) مولانا احمد رضا خان" بحث مستخرج من مجلة صوت الشرق (القاهرة) بقلم الدكتور محي الدين الالوائى عدد يناير ١٩٧٠م، ص ١٦. ١٧.

(٢) اردومين نعت كوئى (المديح النبوى في الأدب الأردى) للدكتور رياض مجيد (ط: اقبال أكيدمى لاهور. ١٩٩٠م). ص ٤٠٩.

المديح النبوى الشريف إبلاغ رسالته السامية القائمة على تعظيم النبى الأكـرم وآل بيته الأطهار وصحابته الكرام.

ويقول الدكتور محمود حسين البريلوى[١] والدكتور محمد طاهر الفاروقى[٢] في شأن موهبة الشيخ أحمد رضا خان: "من المثير للدهشة والغرابة أن الشيخ أحمد رضا خان لم يتتلمذ على يد أستاذ في نظم الشعر بل إنه اعتمد كل الاعتماد على الموهبة التى أكرمه الله تعالى بها". وإن كنت لا أوافق على ما رآياه من عدم وجود الأستاذ للشيخ أحمد رضا خان في نظم الشعر؛ وذلك لأننى أعتبر أن ما طالعه من كتب في المديح النبوى الشريف وما وقع تحت نظره من نتاج شعراء العربية كل هذا كاف بأن يكون أستاذا يلقنه طريقة نظم الشعر، ويغرس في سمعه العبارة تلو العبارة والصورة الشعرية إثر الصورة، مما جعله بعد ذلك يخوض هذا المضمار بفضل ما اطلع عليه والأدب الذى قرأه، ولا ينبغى أن يفوتنا المقام الأعظم محل المدح. أعنى بذلك مقام الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - حيث تتجاوب العواطف الشعرية مع الحب القلبى، وإن شئت فقل: الحب النابع من كل إحساس في الفرد لديه الاستعداد الذى يمكنه من تجاوب الأدب مع المحبوب وانسجام الشعر وانقياده للمقام الأسمى - صلوات الله وتسليماته عليه - ولم أكن مبالغا في حديثى عن قيمة ما أهدى إليه من حبه للمصطفى - صلى الله عليه وسلم - واطلاعه على أشعار العرب وذلك حين نسمع قول شاعرنا نفسه فى رباعية من رباعياته حيث يقول[٣]: "تكفينى اللوعة والدمعة زادا وآهات القلب المشجون حاديا، إذا احتجت إلى مساعدة في مدح الهادى - صلى الله عليه وسلم - استرشد بآثار قدم سيدنا حسان".

---

(١) معارف رضا. لمجموعة من العلماء والمحققين. جـ ١٢، ص ١٣٨.

(٢) اقبال اور محبت رسول (إقبال وحب الرسول) للدكتور محمد طاهر الفاروقى (ط: اقبال اكيدمى لاهور ١٩٩٥م)، ص ١٢٤.

(٣) حدائق بخشش للشيخ أحمد رضا خان (ط: رضوى كتاب كهر بهيوندى الهند ١٤٠٥هـ)، جـ ٢، ص ١٧٥.

والنص الأردى للرباعية كما يلى:

توشه ميرغم واشك كاسامان بس هے — فغان دل زارحدى خوان بس هے
رهبركى ره نعت مين گرحاجت هو — نقش قدم حضرت حسان بس هے

وهكذا دام شاعرنا ينظم شعره باللغة الأدرية حتى نال منزلة رفيعة في آفاق الأدب الأردى، وكان شاعرنا فريدا في أسلوب نظمه للمدائح النبوية فيتجلى من أسلوبه مدى هيامه وعشقه للحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - وقد اتسمت أشعاره الفارسية والعربية بمثل هذه السمات.

إن شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان نظم في مدح الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - بالأردية وقد طبع ديوان شعره الأردى في حياته في جزئين باسم "حدائق بخشش" وهذا الديوان يحتوى على منظومات أردية وفارسية وعربية في مدح الرسول - عليه الصلاة والسلام - وأهل بيته الطيبين الطاهرين، وأصحابه الكرام، والأولياء الصالحين، وخاصة الشيخ عبد القادر الجيلانى[١] ولقد قام مولانا محبوب على خان اللكنوى بجمع منظومات أردية وفارسية وعربية لا توجد بالجزئين الأول والثانى من "حدائق بخشش" وذلك بعد وفاة شاعرنا بسنتين، وسمى هذه المجموعة "حدائق بخشش الجزء الثالث"[٢].

هذا عن آثاره ومكانته في الشعر الأردى، أما نثره الأردى فنجد النماذج الرائعة في كتبه التى ألفها بأسلوب نثرى رصين وبلغة أردية سلسة، ومن أشهر كتبه الأردية المشار إليها نذكر: تمهيد إيمان، تدبير فلاح ونجاة، الزبدة الزكية في تحريم سجود التحية"[٣].

والآن نتحدث بشئ من الإيجاز عن براعة شاعرنا في الأدب الفارسى نظما ونثرا. وعن شعره الفارسي يقول الدكتور محمد إنعام الحق كوثر[٤]: "إن هذا

(١) بساتين الغفران للشيخ أحمد رضا خان ، (المقدمة). ص ١١

(٢) نفس المرجع السابق. (المقدمة) ص ١٣

(٣) للمزيد من الاطلاع انظر: إمام أحمد رضا كے نثرى شه پار (النماذج النثرية [الأردية] الرائعة في ادب الإمام أحمد رضا خان) للشريف رياست على القادرى، (ط: إدارهٔ تحقيقات 'إمام أحمد رضا كراتشى ١٤٠٥هـ).

(٤) أرمغان رضا (هدية رضا) للشيخ أحمد رضا خان / رتبه الأستاذ الدكتور محمد مسعود أحمد (ط: المختار ببلى كيشنز كراتشى ١٩٩٤م)، ص ٧، ٨.

الشاعر الجليل أبدع في تعبير مشاعره وأحاسيسه باللغة الفارسية، فاتخذ اللغة كوسيلة لبيان ما في ذهنه وقلبه من أفكار شعرية سامية وعواطف جياشة بأسلوب بديع بشأن المديح النبوى الشريف، وذلك على الرغم من كون اللغة الأردية لغتـه الأم، إنه كان مغرما بالنبى - صلى الله عليه وسلم - وقصائده الفارسية في مدح الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - تمثل عظمة العشق النبوى الشريف، ومن مزايا شعره الفارسى مقدرته على التعبير واستعمال الكلمات المناسبة والأفكار النقية، ويتميز أسلوبه بكثرة إيراد تشبيهات واستعارات، وأهم من كل هذا أن طبعه الموزون وروحه المتصفة بحب خاتم النبيين - صلوات الله وتسليماته عليه - جعله في مرتبة كبار الناظمين في مدح أشرف الأنبياء والمرسلين بالفارسية [في شبه القارة الهندية] وهذا هو سر شعره المحبب إلى القلوب.

وفي هذا المعنى قال الأستاذ خضر النوشاهى[١]: "إن الشيخ أحمد رضا خان محب صادق عشق جمال الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - وقد نظم بالفارسية في مدح خير البرية، - صلوات الله وتسليماته عليه - حيث يفوح شذى الحب النبوى الشريف من كل كلمة وردت في منظوماته الفارسية، وتعطر قلوب أهل الإيمان وأرواحهم، وتجعلهم في هيام روحى فريد.. وإنه ليس شاعر اللغة العربية والفارسية والأردية فقط إنما هو مبلغ نور الحب النبوى الشريف، وبهذا النور اضاء قلوب المسلمين في شبه القارة، وإن شعره الفارسى مفعم بوجد الحب وحرقة العشق بكل ما تحمله من معان، ومتسم بالمحاسن البديعية، يتميز بأسلوبه البلاغى باتصافه بالحقائق وبعده عن التكلف حيث يجذب القلوب ويثير الدموع".

إن شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان لم ينظم بالفارسية إلا قليلا ولكنه أجاد وأبدع فيما نظم، ورتب الأستاذ الدكتور محمد مسعود أحمد ديوان شعزه الفارسى وقد ركز على الأبيات والقصائد الفارسية الواردة في المديح النبوى الشريف، وهناك الكثير من الأبيات الفارسية لشاعرنا الشيخ أحمد رضا خان في أغراض شعرية

---

(١) المرجع السابق، ص ٥.

أخرى والتى مازالت متفرقة في كتبه بصفة عامة وفي ثنايا ديوان شعره الأردى بصفة خاصة، وكان شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان بارعا في النثر الفارسى إلى جانب كونه شاعرا في الفارسية، حيث أنه كان يجيب بالفارسية الأدبية على من يطرح عليه الأسئلة الدينية بالفارسية، وتوجد الفتاوى الفارسية ضمن مجموعة فتاويه التى تحمل اسم "العطايا النبوية في الفتاوى الرضوية".

وإننى لأستسمح القارئ الكريم أن يغتفر لى عدم الاستشهاد أو استحضار بعض الصور فيما كتبه شاعرنا بالأردية أو الفارسية، لأن مجال الرسالة في الأدب العربى ولن يظهر جمال الصورة ودقة العبارة ولطف التركيب إلا أن أستحضرها بلغتها التى كتبت بها، ولما كان ذلك يتعارض مع مجال رسالتى رأيت أن أحجم عنه مكتفيا بتلك الإشارات الخفيفة، على أن نظرتى لموهبته الأدبية فيما كتبه بلغة العرب سوف أستشهد وأستحضر على أننى أرجو ألا أزيد لا سيما وموهبة الشيخ فياضة.

ولقد بدأت علاقة شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان باللغة العربية منذ حداثة سنه فمعلوم أن والده وجده أجادا هذه اللغة، وقد ترك هذا أثرا واضحا على ثقافته وميوله حيث إنه بدأ تعليمه للغة العربية على يديهما، فمنذ ذلك العهد بدأت صلته وعلاقته باللغة العربية، وحين كنا نتحدث عن بداية دراسة الشيخ أحمد رضا خان قد رأيناه يدرس ويتطلع إلى هذه اللغة حتى أنه بدأ التأليف بشرح كتاب هداية النحو لأبى حيان محمد يوسف الأندلسى باللغة العربية وهو في الثالثة عشر من عمره وذلك في العالم الخامس والثمانين من القرن الثالث عشر الهجرى الموافق للعام الثانى والستين من القرن التاسع عشر الميلادى، وبعد ذلك بعامين قام بشرح كتاب في أصول الفقه يحمل اسم "مسلم الثبوت للعلامة محب الله البهارى"[١]. ومازال بعد ذلك يهتم بهذه اللغة على مرور الأيام حتى عرف عنه واشتهر بكونه عالما ضليعا في اللغة العربية وآدابها، وتجلت موهبته الأدبية في مؤلفاته القيمة، ومما يدل على امتلاكه ناصية اللغة العربية إقدامه على اختيار عناوين أغلب مؤلفاته الأردية باللغة

(١) انظر: أنوار رضا، لصفوة من العلماء والمحققين، ص ٣١.

العربية، ليس هذا فقط بل نجده يقدم على كتابتها دالة على تاريخ تأليفها بحساب الجمل مع خلوها من التكلف و التصنع وقد أشاد أهل العلم بموهبته في الأدب العربى – نظما ونثرا[١] – وها أنذا استشهد ببعض ما يمكن أن يكون قد ترك أثرا في نفسي بعدما قرأته، لذلك سأختار قليلا من كثير، وهاك اختيارى من البيت الثامن والثلاثين بعد المائتين إلى البيت الثالث والأربعين بعد المائتين، إننى إخترت نموذجا مما نظمه شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان في الصلاة والسلام على خير الأنام – صلى الله عليه وسلم – ذكرت سابقا أن الحب النبوى كان قد امتلك ذلك القلب وجرى فيه جريان الماء في الزهر اليانع، وكان هذا الحب اتباعا لما جاء في الحديث النبوى الشريف مما قاله الحبيب المصطفى – صلى الله عليه وسلم – "**لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**"[٢] وأكاد أرجح أن هذا الحب الشديد أكبر دافع إلى حب الشيخ أحمد رضا خان للغة العربية وتمكنها من قلبه، واندفاع الشيخ أحمد رضا خان إلى نظم شعر المديح باللغات العربية والفارسية والأردية، وإننى أعجبت بما نظمه الشيخ أحمد رضا خان مصليا ومسلما على الحبيب المصطفى – صلى الله عليه وسلم – ولنسمع صوت شاعرنا حيث يقول[٣]:

وصلاة ربى دائما أبدا على	خير البرية سيد الأكوان
والآل والصحب والأحباب والـ	نواب والأصهار والأختان
صلى المجيد على الرسول وفضله	ومحبه ومطيعه بجنان
صلى عليك الله يا ملك الورى	ما غرد القمرى في الأفنان
صلى عليك الله يافرد العلى	ما أطرب الورقاء بالألحان
صلى عليك الله يا مولاى ما	رن الحمام على شجون البان

(١) سوف أذكر هذه الأراء في الفصل الثانى من الباب الثالث.

(٢) صحيح البخارى. للإمام محمد بن إسماعيل البخارى كتاب الإيمان، باب حب الرسول – صلى الله عليه وسلم – من الإيمان (ط: مطبعة الفجالة الجديدة بالقاهرة. ١٣٧٧هـ)، الجزء الأول. ص ٩.

(٣) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٨٨.

نظم شاعرنا هذه الأبيات في قصيدته التى سماها بالاسم التـــاريخى بحســاب الجمل "مدائح فضل رسول" و التى تشتمل علي مائتين وثلاثة و أربعين بيتا و مطلعها:

رن الحمــــام على شجون البان ياما أميلح ذكــر بيض البان

تبكى دما وتقول في أسجاعها الله يضحك سن من أبكانى[١]

نلاحظ أن شاعرنا تتبع نهج شعراء العصر الجاهلى وذلك في مطلع القصيـدة، يقول مرتب بساتين الغفران الأستاذ حازم محمد أحمد المحفوظ في هذا الصــــدد[٢]: "مما تجدر الإشارة إليه وبخصوص أشعار التشبيب التى افتتح بها الشيخ أحمد رضا خان هذه القصيدة أنها على غرار مطلع قصيدة بانت سعاد لكعب بن زهير بن أبـــى سلمى، وتلك من خصائص أسلوب وموضوعات نظم الشعر في العصر الجــــاهلى، وعندما ندقق النظر في تلك القصيدة لا نجد فيها لفظا خارجا عن حدود الأدب فــهو غزل عذرى عفيف، ولا نجد له أى أشعار عربية في الغزل العذرى ضمن بســاتين الغفران إلا في مطلع هذه القصيدة... ثم بعد ذلك نجده يخاطب نفسه قائلا في البيت رقم ستة وعشرين:

دع عنك هذا لست أهل بطالة وانهض إلى ما كنت فيه تضانى

وكأنه يقول لنفسه: "إن أشعار التشبيب التى افتتح بها كعب بن زهير بن أبـــى سلمى قصيدته ولم ينهه الرسول – صلى الله عليه وسلم – لأن كعبا كان حديث عهد بالإسلام، ولم تكن لديه معرفة مسبقة بكل ما نزل على الرسول – صلى الله عليـــه وسلم – لذلك التمس له الرسول – صلى الله عليه وسلم – العذر، وأنت الآن يارضا ليس لك من عذر لكى تنظم في الغزل وإن كان أسلوبك عفيفا، فعليك بالابتعاد عــن النظم فيما فيه شبهات وعد إلى ما أخذته على عاتقك عن تحمل كل صعــــاب فـــي طريق التقوى والهدى والرشاد والدعوة".

(١) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان . ص ٧٢.
(٢) المرجع السابق. ص ١٠٦.

كان هذا رأى الأستاذ حازم حيث إنه حاول أن يوازن بين ما هو من أشهر القصائد في المديح النبوى الشريف، وإن شئت فقل: إنها بداية هذا الفن الرائع الذى كان يشبع النفس العربية من جهتين، الأولى الشعرية ونفس العربى إليه أميل وبه أحفل، والثانية حب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - وقلب مشبع وطرب بذكر اسمه - صلى الله عليه وسلم - أوصفة من صفاته الشريفة - صلوات الله وسلامه عليه - أو ذكر صحابته وغزواته، وأى شئ في حياته - صلى الله عليه وسلم - أو في حياتنا مرتبط بشأنه - عليه الصلاة والسلام - قولا أو فعلا، إرشادا أو تقريرا إلى آخره، وقد حاول الأستاذ حازم محمد الموازنة بين القصيدة الأولى ظهورا في المديح النبوى وبين قصيدة للشيخ أحمد رضا خان في نفس الغرض، وكم كنت أود أن تكون الموازنة شاملة لعدة أمور.

أولا: علمنا الغرض الذى سيقت من أجله قصيدة "بانت سعاد" على حين أن قصيدة الشيخ أحمد رضا خان كانت في مدح أحد العلماء، ألا وهو مولانا فضل الرسول البدايونى، وإن كان الأستاذ حازم لم يعرض لذلك وإنما استهواه ما قاله في المقدمة.

ثانيا: طول النفس فقد بلغت قصيدة الشيخ أحمد رضا خان ثلاثة وأربعين ومائتى بيت على حين أن قصيدة "بانت سعاد" تشتمل على ثمان وخمسين بيتا.

ثالثا: كثرة الأغراض التى اشتملت عليها قصيدة الشيخ أحمد رضا خان على حين قلتها في "بانت سعاد".

رابعا: لا نستطيع أن ننسى ذلك الغزل العفيف المصحوب بالأوصاف المتعددة والتى لا تنقص من عفته شيئا، فرغم الصفات التى اشتملت عليها قصيدة بانت سعاد إلا أن الغزل لا يخرج عن نطاق التهذيب بل ظل الغزل جديرا بأن سمعه الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولم ينكر على قائله، على حين أن الغزل

عند الشيخ أحمد رضا خان في القصيدة التى بين أيدينا لم يشتمل على تلك الصفات. وإن كان قد زين ببعض الحكم.

خامسا: لم يقف الأستاذ حازم عند الطرب الناتج من القافية النونية التى استخدمها الشيخ أحمد رضا خان والتى أكسبت القصيدة روعة وطربا وغناء، حيث وجدت النون بين الألف والياء فكان النطق بها من أحلى ما يمكن، وإن كان ذلك الطرب أقل في القافية اللامية التى استخدمها سيدنا كعب بن زهير، ولو أضفنا ما أشرنا إليه من طول النفس لعلمنا أين الطرب في القصيدتين ولانسجمنا أى انسجام من قصيدة مليئة بالطرب لقافيتها من ناحية وطول نفسها من ناحية أخرى.

سادسا: لا ننسى البحر البسيط ولطافته وهو ما جاءت عليه قصيدة كعب بن زهير على حين أننا نحفل بظرف بحر الرجز وخفته وسرعة الحركة التى يمكن أن يكون عليها لكونه معرضا لكثير من الزحافات، ولعل ذلك ما دفع بعضهم بتسمية بحر الرجز حمار الشعراء.

إن شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان استطاع بموهبته الشعرية أن ينظم الشعر بأسلوب شعراء العصر الجاهلى عند العرب، فقد أتى بالتشبيب على نهجهم فأجاد وأبدع الغزل حيث إنه مع كونه رجل دين عاش في القرن الرابع عشر الهجرى الذى يتميز بخصائص وسمات وموضوعات تختلف عن العصر الجاهلى، وهذا يدل على مقدرته على النظم في أسلوب وموضوعات كل عصر أدبى.

ولقد تجلى أثر اللغة العربية على المنظومات الأردية والفارسية التى نظمها الشيخ أحمد رضا خان، وهذا إن دل على شيئ فيدل على مدى شغفه بالعربية حتى وهو ينظم بلغة غيرها، فبمطالعة ديوان شعره "حدائق بخشش" في أجزائه الثلاثة تتجلى لنا هذه الظاهرة، مثال ذلك ما وجدناه من أشعار أردية وفارسية نظم شاعرنا صدر البيت فيها بالعربية، وكذلك ما وجدنا من أشعار أردية وفارسية نظم شاعرنا عجز البيت منها بالعربية، بالإضافة إلى أن هناك أشعارا قد استخدم فيها الشاعر ما

يسمى في علم البديع "الاقتباس" من آيات القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف. وقد جمع مرتب بساتين الغفران الأستاذ حازم محمد هذه النماذج وضمها بملحق ورد في نهاية بساتين الغفران(١).

ونجد في حدائق بخشش قصيدة للشيخ أحمد رضا خان التى نظمها بأربع لغات في كل بيت، وهذ اللغات هى بالترتيب العربية، والفارسية، والأردية، والهندية(٢)، وهذه القصيدة لا نكاد نجد لها نظيرا في الشعر الأردى، ومطلع هذه المنظومة هو :

"لم يأت نظيرك في نظر مثل تونه شديدا جانار
جگ راج کوتاج تورے سرسوہےتجھ کوشه دوسرا جانار"

الترجمة: "لم يأت نظيرك في نظر، ولم يلد مثلك يا حبيبى – صلى الله عليك وسلم – يا سيد الدارين إن تاج السيادة على العالم أجمعه لا يليق إلا بك".

إنه التزم بهذا الأسلوب والمنهج في تسعة أبيات حيث يأتى صدر البيت بالعربية والفارسية، وعجز البيت بالهندية والأردية، وقد استطاع شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان أن يسير على هذا المنوال حتى نهاية هذه المنظومة، وهذا منه يدل على تمكنه من اللغات الأربعة، بحيث إنه مستعد بأن يقول شعره باللغات الأربعة في وقت واحد، ومدى إشباع ذلك القلب بحب المصطفى – صلى الله عليه وسلم – إشباعا يملك عليه العاطفة في الأحوال كلها، فإذا أراد أن يعبر عن ذلك الحب بأى لغة من اللغات الأربع فعن طريق ثلاثة لغات استعرض مقدرته على الصياغة وتمكنه من ناصية الإفصاح باللغات الأربعة بحيث جعل منها نسيجا متكاملا، ويعتبر هذا خطا جديدا لم يلجه أحد قبله اللهم إلا أن يكون بين لغتين وليس بين أربع كما

---

(١) راجع: بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٢٩٠.

(٢) حدائق بخشش، للشيخ أحمد رضا خان، ص ١٩، ٢٠.

فعن الشيخ أحمد رضا خان، ومما هو جدير بالذكر أنه استخدم اللغة الهندية أيضا ببراعة في صياغة هذه المنظومة، ولكنه رغم معرفته هذه اللغة وبراعته في النظم بها لم يبذل جهده في النظم بهذه اللغة بصفة مستقلة، بل ركز اهتمامه على ثلاثة لغات فقط فأبدى موهبته فيها.

هذا كما أبدى شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان موهبته الفياضة في الإتيان بالنثر العربى المتميز فقد ظهرت براعته النثرية في فتاويه التى كان يقوم بها باللغة العربية. وذلك عندما كان يسأله المستفتى باللغة العربية، ويوجد في الفتاوى الرضوية ما يؤكد هذا، وكان قد اعتاد تصدير مؤلفاته الأردية والفارسية بخطب عربية موجزة مشتملة على حمد الله تعالى والصلاة والسلام على سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - وبمطالعتها تتجلى أمامنا مدى مقدرته وتمكنه من العربية وشغفه بكتابة النثر العربى بأسلوب سلس واضح لا لبس ولا غموض ونذكر على سبيل المثال مما كتبه في بداية "العطايا النبوية في الفتاوى الرضوية" قوله[١]: "الحمد لله هو الفقه الأكبر، والجامع الكبير لزيادات فيضه المبسوط، الدرر الغرر، به الهداية، ومنه البداية، وإليه النهاية، بحمده الوقاية ونقاية الدراية وعين العناية وحسن الكفاية.

والصلاة والسلام على الإمام الأعظم للرسل الكرام، مالكى وشافعى أحمد الكرام، يقول الحسن بلا توقف: محمد الحسن أبو يوسف، فإنه الأصل المحيط لكل فصل بسيط، ووجيز ووسيط، البحر الذخار، والدر المختار، وخزائن الأسرار وتنوير الأبصار، ورد المحتار على منح الغفار، وفتح القدير، وزاد الفقير، وملتقى الأبحر، ومجمع الأنهار، وكنز الدقائق، وتبيين الحقائق، والبحر الرائق، منه يستمد كل نهر فائق، فيه المنية وبه الغنية، ومراقى الفلاح، وإمداد الفتاح، وإيضاح الإصلاح، ونور الإيضاح، وكشف المضمرات، وحل المشكلات، والدر المنتقى

(١) العطايا النبوية في الفتاوى الرضوية، للشيخ أحمد رضا خان، (ط: رضا فاونديشن لاهور ١٤١١هـ)، جـ ١، ص ٨٣، ٨٤.

ينابيع المبتغي، وتنوير البصائر، وزواهر الجواهر، البدائع النوادر، المنزه وجوبا عن الأشباه والنظائر، مغنى السائلين، ونصاب المساكين، الحاوى القدسي، لكل كمال قدسي وإنسي، الكافى الوافى الشافي، المصفى، المصطفى، المستصفى، المجتبى، المنتقى، الصافى، عدة النوازل، وأنفع الوسائل لإسعاف السائل بعيون المسائل، عمدة الأواخر وخلاصة الأوائل، وعلى آله، وصحبه وأهله، وحزبه مصابيح الدجى ومفاتيح الهدى، لا سيما الشيخين، والختنين الكريمين، كل منهما نور العين ومجمع البحرين، وعلى مجتهدى وأئمة أمته، خصوصا الأركان الأربعة، والأنوار اللامعة وابنه الأكرم الغوث الأعظم، ذخيرة الأولياء، وتحفة الفقهاء، وجامع الفصوليين، فصول الحقائق والشرع المهذب بكل زين، وعلينا معهم وبهم ولهم يا أرحم الراحمين، آمين، آمين، والحمد لله رب العالمين".

افتتح الشيخ أحمد رضا خان هذه الخطبة العربية بالحمد لله تعالى والصلاة والسلام على خير الأنام – صلوات الله وتسليماته عليه – وعلى آله وصحبه وعلماء أمته والمسلمين أجمعين، ولكنه من خلال هذا وذاك استطاع بمقدرته النثرية أن يشير إلى ثمانية وسبعين مرجعا لتأليفه "العطايا النبوية في الفتاوى الرضوية" كما أشار إلى ثلاثة عشر شخصية، نجد أسلوبه يغلب عليه السلاسة والبساطة والفصاحة والوضوح مع انتقاء الألفاظ المناسبة، فلا يشعر القارئ بملل وهو يطلع على هذه وغيرها من الخطب التى كتبها الشيخ أحمد رضا خان في بداية كتبه.

إن المسلمين في شبه القارة – المتمثلة في باكستان وبنجلاديش والهند – كانوا ومازالوا يميلون إلى حب أهل البيت، شأنهم في ذلك شأن أهل مصر الأزهر جميعا، وإن كان ذلك الحب يغذو قلوب جميع السملمين فالباكستان ومصر الأزهر والهند بذلك أحفل، وكان الشيخ أحمد رضا خان أيضا من المحبين للنبى – صلى الله عليه وسلم – وآله وأصحابه، فكتب بالعربية صلاة وسلاما على الحبيب المصطفى – عليه الصلاة والسلام – وأتى بأسماء بعض مشايخه من الأشراف ضمن هذه العبارة، وهذه الأسماء المذكورة بها لا تؤثر على معناها الحقيقى وهو الصلاة على

النبى - صلى الله عليه وسلم - واستخدم الشيخ أحمد رضا خان أسماء مشايخه كصفات لسيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أو كذكر لبعض آل بيته - عليه الصلاة والسلام - متخذا من هذه الأسماء صفات واضحة لسيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أو ذاكرا بعض آل بيت النبوة دون أن ينسى مشايخه هؤلاء، ومن ذلك عبارته الآتية:

"اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد المصطفى رفيع المكان، المرتضى على الشان، الذى رجل من أمته خير من رجال من السابقين، وحسين من زمرته أحسن من كذا وكذا حسنا من السابقين، السيد السجاد زين العابدين، باقر علوم الأنبياء والمرسلين، ساقى الكوثر، ومالك كوثر وتسنيم وجعفر، الذى طلب موسى الكليم رضا ربه بالصلاة عليه"(١).

هذا وكان شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان واسع الإطلاع وملما بكل ما يتعلق باللغة العربية. مثال ذلك ما قام بذكره العلامة الشريف محمد أمين بن عابدين الشامى من فعل "طف" فقال الشيخ أحمد رضا خان(٢): لم أر هذا الفعل ولا مصدره فى الصحاح، ولا الصراح، ولا المختار، ولا تاج العروس، ولا المفردات، ولا النهاية، ولا الدر النثير، ولا مجمع البحار، ولا المصباح، وإنما فى القاموس: طف المكوك والإناء، وطففه محركة، وطفافه، ويكسر ما ملأ أحباره، (قال فى الصراح: أى جوانبه) أو ما بقى فيه بعد مسح رأسه، أو هو جمامه أو ملؤه إلى أن قال: وإناء طفان بلغ الكيل طفافه، وفى تاج العروس هذا: طف الميكال وطفافه: إذا قارب ملأه". وهذا منه إن دل على شئ فإنما يدل على سعة إطلاعه على المعاجم وكتب الحديث فقد ذكر عشرة منها من أجل تحقيق لفظ، وهذا يدل كذلك على حبه للتحقيق فى كل ما يتعلق باللغة العربية وآدابها.

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان، ص ٣٠٨.
(٢) جد الممتار على رد المحتار، للشيخ أحمد رضا خان، ج ١، ص ١٢٩.

الفصل الرابع

حال اللغة العربية والأدب العربي بشبه القارة الهندية تحت الاحتلال الإنجليزي

وهذا الفصل يحتوي على تمهيد ومبحثين:

المبحث الأول: جهود المسلمين في نشر اللغة العربية.

المبحث الثاني: دور الإنجليز في نشر اللغة العربية.

تمهيد

إن علاقة الهند مع العرب قديمة جدا حيث إن منتجات الهند كانت تجذب العالم - بما فيه العرب - إلى أرضها، وكانت البضائع الهندية تصل إلى أرض الحجاز لما لها من مكانة تجارية مرموقة حيث إنها كانت ملتقى الطرق، ومن هنا نشأ احتكاك قوى بين الهنود والعرب، ولكن علاقة الهند مع العرب لم تبق تجارية فقط بل أصبحت فيما بعد ثقافية أيضا، فدار التأثر والتأثير فيما بين الشعبين، وبلغت هذه العلاقة ذروتها بظهور الإسلام، وبالتالى اعتناق الهنود للإسلام عن طريق الاحتكاك التجارى، وكما حاول العرب تأمين المسلمين فى الهند، وعملا على نشر الدعوة فانتقلوا إلى الهند، وانقادت لهم عقول الهنود معتنقين الإسلام مختارين لما رأوه من خلق أولئك العرب الذين هذبهم الإسلام وأعلى نفوسهم، وبالتالى رأت شعوب الهند أن تسمو أفكارها وتصح عقولها بهذا الدين الحنيف، فاعتنقوه وبدأوا في التعرف على لغته التى نزل بها، وهى لغتنا العربية، فانتقل الناس من الهند إلى بلاد العرب لكى يتعلموا هذه اللغة بدافع العقيدة من ناحية، وبدافع الثقافة من ناحية أخرى، لأن ابن الهند الذى عرف شيئا عن الإسلام أراد أن يقف على أكبر قدر منه، فإذا كان الهنود انتقلوا إلى العرب ليتعلموا اللغة العربية فقد انتقل العرب أيضا إلى الهند تجارا ودعاة، الأمر الذى كان حافزا على نشر اللغة العربية في ربوع شبه القارة الهندية، ومن هنا نستطيع القول: إن الهنود عرفوا اللغة العربية أكثر من مصدر، ونرى أن أناسا وقفوا على ثقافة إسلامية عالية، ولا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق معرفة اللغة العربية من ناحية، والإلمام بالكتب المؤلفة باللغات الشائعة في الهند من ناحية أخرى.

أما عن إشراقة الهند بنور الإسلام فيحدثنا عنها الدكتور حبيب الله خان قائلا(١): "دخل الإسلام في جنوب الهند أول ما دخل حيث يرجع تاريخ دخوله في جنوب الهند إلى وقت مبكر من التاريخ الإسلامى، والذى ساعد على ذلك هو العلاقات التجارية الوطيدة التي كانت قائمة بين جنوب الهند والبلاد العربية، ولقد كانت منطقة جنوب الهند وخاصة إقليم مالابار مسرحا عظيما لمزاولة التجارة الهندية العربية، وكان العرب قابضين على زمام النشاط في بحر العرب منذ زمن بعيد، ولما ظهر الإسلام في جزيرة العرب، ودخلت القبائل العربية في دين الله زرافات ووحدانا كان من بين من أسلم بعض هؤلاء التجار الذين تعودوا القدوم إلى هذه المنطقة من جنوب الهند، فأشرق هذا النور في سماء الهند بفضل هؤلاء التجار".

وحين ننتقل إلى عصر شاعرنا نجد أن عصره يتمثل في الثانى والسبعين من القرن الثالث عشر الهجرى الموافق للعام السادس والخمسين من القرن التاسع عشر الميلادى إلى العام الأربعين من القرن الرابع عشر الهجرى الموافق للحادى والعشرين من القرن العشرين الميلادى، وإن عصر شاعرنا ينطوى ضمن العصر الأدبى والتاريخى الحديث، والذى يبدأ من العام الثامن والتسعين بعد السبعمائة والألف للميلاد، وهذه الفترة تصادف بالعصر الذى عرف في تاريخ الأدب العربى بالعصر الحديث حيث إن الفرنسيين شنوا حملة على أرض الكنانة ومصر الأزهر في الثامن والتسعين من القرن الثامن عشر الميلادى(٢) وهذه هى بدايات العصر

---

(١) اللغة العربية وأدباؤها في الهند منذ دخول الإسلام إلى نهاية الاحتلال الإنجليزى (رسالة دكتوراه) للدكتور حبيب الله خان، مخطوط بمكتبة الرسائل العلمية بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر الشريف بالقاهرة تحت رقم ١٤٣٧، ص ٨٠.

(٢) الأزهر تاريخه وتطوره، تأليف اللجنة العليا للاحتفال بالعيد الألفى للأزهر، (ط: الأزهر الشريف، القاهرة، ١٤٠٣هـ)، ص ٤٣.

الحديث، بينما أقدمت الحكومة الإنجليزية على إنشاء شركة تجارية في الهند تحمل اسم شركة الهند الشرقية، وذلك في العام التاسع من القرن الحادى عشر الهجرى الموافق للقرن السادس عشر الميلادى[١]: تلك هى بداية العصر الأدبى الحديث في الهند أيضا، وبذلك زرعت إنجلترا بذور الاستعمار في شبه القارة الهندية، وذلك بعد أن كانوا ضيوفا وتجارا على شبه القارة الهندية، وانتظروا طويلا للحصول على ثمار مازرعوه بكل صبر حتى أمكن لهم قطافها في العام السابع والخمسين من القرن الثامن عشر الميلادى حين أسفرت إنجلترا عن وجهها القبيح، وفرضت وجودها على أهل الهند بالقوة، ومن هذا المنطلق رأيت من المناسب أن أجعل محاولتى لدراسة الفصل الرابع من الباب الأول من منظور العصر الأدبى الحديث المعروف في الأوساط الأدبية العربية، حيث إننى كنت جعلت هذا الفصل تحت عنوان: "حال اللغة والأدب العربى بشبه القارة الهندية تحت الاحتلال الإنجليزى" وسوف أجعل هذا الفصل في مبحثين أولهما تحت عنوان: "جهود المسلمين لنشر اللغة العربية" وثانيهما جهود الإنجليز في نشر اللغة العربية، هذا وبالله التوفيق.

---

(١) تاريخ الإسلام فى الهند، للدكتور عبد المنعم النمر، ص ٢٤٢.

المبحث الأول

جهود المسلمين فى نشر اللغة العربية

إننى لا أحصى جهود المسلمين في سبيل نشر اللغة العربية فى شبه القارة الهندية على مر العصور إنما أحاول أن أركز فكرى وبراعى على عصر الاحتلال البريطانى حيث إن هذا الفصل الذى نحن بصدد مبحثه الأول يحمل العنوان: "حال اللغة والأدب العربى في شبه القارة الهندية تحت الاحتلال الإنجليزى". فأحاول ذكر كلمة وجيزة عن انتشار اللغة العربية قبل سيطرة الإنجليز على الهند تارة وعن حال اللغة العربية وآدابها في عصر الاحتلال البريطانى للهند تارة أخرى، فقد قام الإنجليز بمحاولة إحباط اللغة العربية كل المحاولة ولكن العلماء المتمسكين بالقرآن والسنة لم يتركوا اللغة العربية تمحى من شبه القارة الهندية رغم كل الصعوبات التى أنشأها الإنجليز في سبيل تعليم وتعلم اللغة العربية، ولكن الإنجليز اضطروا إلى بعض الاهتمام باللغة العربية وذلك تلبية لمصالحهم الإدارية، فاهتموا بها بعض الاهتمام رغم أنفهم، لذا جعلت هذا الفصل في مبحثين الأول في جهود المسلمين لنشر اللغة العربية في عصر الاستعمار الإنجليزى، رغم كل العوائق والصعوبات، والثانى في دور الإنجليز لنشر اللغة العربية برغم كراهيتهم لهذه اللغة.

لقد كانت الثقافة الإسلامية واللغة العربية في شبه القارة الهندية في حالة جيدة حين بدأت شركة الهند الشرقية توطد أقدامها على أراضى شبه القارة مع طموحها وآمالها. وكانت الثقافة العربية مركزة حول الثقافة الإسلامية بدافع العقيدة، وكان في الهند من أتقنها حتى بلغ هذا الإتقان التفاعل مع موهبته فقال بها الشعر، وكانت

العربية سوقا رائجة وقتذاك حيث كانت الثقافة تحسب لها حسابا أيما حساب، ولـــذا نستطيع القول: إن اللغة العربية والثقافة الإسلامية كانتا موجودتيـــن وقـــت قـــدوم الإنجليز على الهند مهما مكروا ومهما كادوا، لذا كانت الكتب مؤلفـــة فـــي فنـــون عربية، وعلوم إسلامية، ولم تكن للعربية حوافز مادية في الهند حيث إنها لم تكـــن في يوم من الأيام لغة البلاط الحاكم، ولا لغة التخاطب فيما بين الشعب الهندى، فلم تكن البيئة متلائمة لتطورها وازدهارها، ولكن لغة العرب شـــقت طريقـــها بعـــزم وتصميم حتى بلغت العقول ثم القلوب، وقد كان طريقها يتمثل في كونها لغة الديـــن الحنيف الذى اعتنقه أهل الهند بعد معرفتهم إياه، ودراستهم للغته التـــى نـــزل بـــها القرآن ألا وهى لغة العرب، ولقد خلقت العربية بيئتها فترعرت في الهند في جـــو دينى تستهدف فهم الدين قرآنا وسنة، فكان للمدارس الدينية والكتاتيب دور بارز في هذا المجال عبر العصور، حيث كانت هذه المدارس والكتاتيب سببا هاما في بقـــاء اللغة العربية وانتشارها في أرجاء الهند، وفي هذا يقول الأستاذ أبو الحســـن علـــى الندوى[١]: "ومن سمات علماء الهند البارزة أنهم قادوا الحركة الأدبية الإنشائية فـــي شبه القارة الهندية، وكانوا من الدعائم القوية السامقة التى قام عليـــها قصـــر الأدب الرفيع، والنثر الفنى بعد ثورة السابع والخمسين من القرن التاسع عشر الميـــلادى، وكان كل واحد منهم مؤسس مدرسة أدبية خاصة لا يـــزال لـــها أنصـــار وأتبـــاع ومقلدون، وكان كثير منهم رائد نشاط جديد في الإنشاء، والتحرير، والنقد، وتـــاريخ الأدب، والشعر ولا تزال مؤلفاتهم هى المرجع الأصيل والعمدة في هذا الموضـــوع، ولم يكن في الهند ذلك الفصام النكر بين علوم الديـــن، والأدب العصـــرى ولغـــة البلاد، ولم تكن تلك الفجوة التى وقعت في بعض البلاد بين علماء الدين والشـــادين

---

(١) نظرات فى الأدب، للأستاذ أبى الحسن على الندوى (ط: دار القلم، دمشق، ١٤٠٨هـ)، ص ٧٥.

بالأدب والشعر والهائمين بهما، الفجوة التى جنت على الدين والآداب في وقت واحد".

ويحدثنا الدكتور حبيب الله خان عن تطور الثقافة العربية في عصر الاستعمار البريطانى رغم جميع الحواجز والصعوبات فلنستمع إليه حيث يقول(١): "لقد استمرت اللغة العربية في الانتشار في هذه الفترة رغم الظروف التى مرت بها البلاد، ورغم العراقيل التى وضعت من جانب الاستعمار في سبيل انتشار هذه اللغة آنذاك.. فلقد انتشرت اللغة العربية في هذه الفترة انتشارا ملموسا بجهود العلماء الغيورين من المسلمين وخاصة الأثرياء منهم، وقد تجلى هذا الانتشار في نشأة المدارس العربية واستمرت حركة إنشاء المدارس على قدم وساق رغم الصعوبات السياسية والاقتصادية، وعلى الرغم مما كان يعانيه المسلمون من الاضطهاد".

ولم تكن حركة إنشاء المدارس العربية هى الوحيدة التى استمرت رغم الأوضاع الثقافية والاجتماعية والسياسية المتدهورة بل كانت حركة التأليف بالعربية أيضا مستمرة، حيث ألف علماء الإسلام كتبهم بالعربية في الأدب العربى وغيره من العلوم والفنون، وفي هذا يقول الدكتور محمود محمد عبد الله المصرى(٢): "استمرت حركة التأليف بالعربية في فترة الاحتلال البريطانى، فقد استمرت بغير ضعف بل ازدادت قوة وصلابة [كرد فعل للاضطهاد الإنجليزى للمسلمين] ودفعت الأنشطة الأدبية إلى مستوى عال، وكثر روادها، ويشهد على ذلك ما خلفه العلماء من المؤلفات العربية التى تدل على رسوخهم في العلم، وتعمقهم في اللغة أمثال العلامة عبد الحى اللكنوى صاحب نزهة الخواطر، والنواب صديق حسن

---

(١) اللغة العربية وأدباؤها في الهند، للدكتور حبيب الله خان، ص ٨٣.

(٢) اللغة العربية في باكستان دراسة وتاريخ، للدكتور محمود محمد عبد الله المصرى (ط: مجلة العرب، كراتشى، ١٤٠٤هـ)، ص ٦٨.

خان صاحب أبجد العلوم، و المفتى أحمد رضا خان صاحب الفتاوى الرضوية، و الشيخ أشرف على التهانوى الذى ترك عددا ضخما من الكتب الثمينة، و غيرهم من العلماء".

هذا وثمة مدارس دينية أسهمت في نشر الثقافة الإسلامية و العربية في عصر الاحتلال البريطاني. وقامت بالذود عنهما، و اذا كنت سأعرض لذكر بعض المدارس التي كانت في هذا العصر فأحب أن أذكر أنه ليس المراد بكلمة المدرسة ما عرف في عصرنا من نحو المدارس التى تدرس المراحل التعليمية المختلفة. وإنما تطلق كلمة المدارس ويراد منها نظما معينة في التعليم و هي بالطبع تضم مقررات منذ البداية العلمية إلى أن يصل الطالب إلى ما يعتبر دراسة عالية، و إليكم أسماء المدارس الدينية الشهيرة التى لعبت دورا هاما في نشر اللغة العربية و آدابها في عصر الاحتلال البريطاني.

دار العلوم ديوبند: تأسست في الثالث و الثمانين من القرن الثالث عشر الهجرى الموافق للسابع و الستين من القرن التاسع عشر الميلادى بمدينة ديوبند التى تقع على بعد مائة ميل شمالى دهلى العاصمة، قام بتأسيسها جماعة من أهل العلم و الفضل [و على حد قول الدكتور محمود محمد]، و في طليعتهم الشيخ محمد قاسم النانوتوى. وتقوم دار العلوم بأنشطة مختلفة إلى جانب تدريس العلوم الإسلامية حيث إنها تهتم بالعلوم العصرية وتعليم الحرف، وتعليم الخط، وتعليم الطب اليونانى [١].

مدرسة مظاهر العلوم: أسست هذه المدرسة في العام الذى أنشئت فيه دار العلوم ديوبند، وكان من بين كبار أساتذتها و القائمين بها الشيخ رشيد أحمد

---

(١) اللغة العربية في باكستان ، للدكتور محمود محمد عبد الله المصرى، ص ٤٢٦.

الكنكوهى، والشيخ أشرف على التانوى، وتخرج فيها علماء كثيرون[١].

دار العلوم أشرفية بمدينة رانديرسورت غجرات: هى من أقدم المدارس التى أنشأت في هذه المنطقة في عهد الاستعمار، لقد أسست في العام السبعين من القرن التاسع عشر الميلادى، ونسبت إلى الشيخ إسماعيل أشرف الذى وضع حجر أساسها. لقد أنشأت هذه المدرسة فيما بعد حوالى ثمانين كتابا لتعليم الأطفال شعائر الدين ومبادئ اللغة العربية تحت رعايتها[٢].

مصباح العلوم: أنشأ مولانا محمد نقى على خان هذا المعهد بمدينة بريلى في العام التاسع والثمانين من القرن الثالث عشر الهجرى، الموافق للعام الثانى والسبعين من القرن التاسع عشر الميلادى، كما سبق أن ذكرنا، وفي هذا يقول الأستاذ حازم محمد[٣]: "نشأ الشيخ أحمد رضا خان في أسرة لها مع اللغة العربية وآدابها باع وتاريخ طويل حافل، فكان والده وجده - على سبيل المثال - ممن يجيدون العربية إجادة تامة، وقد ألفوا بها، كما وجدنا والده يفتتح مدرسة للغة العربية وآدابها في موطنه مدينة بريلى تحت اسم "مصباح العلوم" من أجل تعليم ونشر اللغة العربية وآدابها ليس في مسقط رأسه فحسب بل في كل ربوع شبه القارة، وقد توافد على هذه المدرسة طلاب من جميع الأنحاء، وإن عمل مولانا محمد نقى على خان دليل على مدى شغفه باللغة العربية ومعرفته بإنها المطلب الأول لكل داعية صادق إلى الله تعالى على بصيرة وهدى".

الجامعة النظامية بحيدر آباد الدكن: أسسها الشيخ أنوار الله الحنفى في العام الثالث والتسعين من القرن الثالث عشر الهجرى، وأسس مجمعا علميا للتأليف والنشر، ولا تزال هذه الجامعة تقوم بدورها في نشر اللغة العربية وادابها إلى جانب

---

(١) اللغة العربية وأدباؤها في الهند، للدكتور حبيب الله خان، ص ٨٤.
(٢) المرجع السابق، ص ٨٤، ٨٥.
(٣) الامام الأكبر المجدد محمد أحمد رضا خان، للأستاذ حازم محمد أحمد، ص ٦٣.

العلوم الإسلامية، فلنستمع إلى ما قاله فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الدكتور محمد سيد طنطاوى لدى زيارته لهذه الجامعة العريقة[١]: "ويعجبني في هذه الجامعة أنها اشتملت على عدد كبير من الكليات، وعدد كبير من الأقسام، مع الاهتمام الواضح باللغة العربية وآدابها، وتدريس اللغات على اختلاف أنواعها وعلى مجهودها الفذ في تحقيق التراث العربى الإسلامى".

الجامعة المعظمية: أسست هذه الجامعة في السنة الأولى من القرن الرابع الهجرى الموافق للعام الثالث والثمانين من القرن التاسع عشر الميلادى، وذلك لتدريس القرآن وتحفيظه، ومازالت تنشر نور القرآن حتى جاءها طلاب العلم لتلقى العلوم الإسلامية والعربية فوجدوا بغيتهم على مر العصور، وقد أشتهرت مؤخرا بالاسم المذكور أعلاه، وذلك تخليدا لذكرى العارف بالله الشيخ معظم الدين صاحب الفضل في إنشاء هذه الجامعة، وقد أقدمت مؤخرا على تدريس المواد السائدة في المدارس والكليات الحكومية وذلك لجعل مناهجها ومقرراتها الدراسية شاملة وأكثر نفعا[٢].

دار العلوم نعمانية: لقد قام كل من المولوى خليفة تاج الدين والحكيم سليم الله، والمنشى سراج الدين بتأسيس الجمعية النعمانية بهدف نشر اللغة والعلوم الإسلامية وذلك في العام الخامس من القرن الرابع عشر الهجرى الموافق للعام الثامن والثمانين من القرن التاسع عشر الميلادى[٣].

دار العلوم ندوة العلماء لكنوء: تأسست جمعية ندوة العلماء في العام الحادى عشر من القرن الرابع عشر الهجرى، الموافق للعام الرابع والتسعين من

---

(١) رحلة الإمام الأكبر إلى الهند، للشيخ محمد مصطفى جميعة، ص ١٢٤.

(٢) ملفوظات سديدية للأستاذ معين النظامى (ط: مكتبه سديديه، معظم اباد، سركودها. ١٤١٠هـ)، ص ١٢. وانظر : تذكرة أكابر أهل سنت، لمولانا محمد عبد الحكيم شرف القادرى، ص ١٧٩.

(٣) اللغة العربية فى باكستان، للدكتور محمود محمد عبد الله المصرى، ص ٦٩.

القرن التاسع عشر الميلادى، أسسها نخبة من رجال الفكر و الأدب، وقد عقدت حفلتها الأولى بكانفور في نفس العام بدعوة من السيد محمد على المونكيرى، وبعد عام من إنشاء جمعية الندوة أسسوا مدرسة عربية "دار العوم" تابعة لجمعية ندوة العلماء ويرأسها السيد محمد على المونكيرى سالف الذكر، والحق يقال [والقول للدكتور محمود محمد]: إن هذه الدار لعبت دورا هاما في إنعاش اللغة العربية الفصحى في بلاد بعيدة عن العرب والعربية، بل بين شعب متمسك ومغتبط بلغته ولغاته المتعددة"(١)

منظر الإسلام: إن شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان نادى بتعليم العلوم الإسلامية والعربية ضمن النقاط الاقتصادية الأربعة مرة والنقاط التعليمية العشرة مرة أخرى والتى ذكرناها فيما سبق، وأقام بنفسه معهدا علميا باسم منظر الإسلام في العام الثانى والعشرين من القرن الرابع عشر الهجرى الموافق للعام الرابع من القرن العشرين الميلادى، فكان له التلاميذ والذين أنشأوا معاهد إسلامية وعربية في أنحاء الهند بعد تخرجهم على يد شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان(٢).

الجامعة الحسينية: تقع هذه الجامعة في مدينة رانديـر محافظة سورت، أسستها جماعة من أصحاب العلم وذوى المال من المسلمين في السنة السابعة عشر من القرن العشرين، تدرس فيها جميع العلوم العربية والإسلامية الرائجة في الدرس النظامى(٣).

الجامعة الأشرفية : تقع هذه الجامعة بمدينة مباركبور في ولاية أوتار برديش، وتم تأسيسها في العام السادس والعشرين من القرن الرابع عشر الهجري الموافق للعام التاسع من القرن العشرين الميلادي لتوفير الدراسات الإسلامية

---

(١) المرجع السابق ص ٦٩، ٧٠.

(٢) انظر: اللغة العربية وأدباؤها في الهند، للدكتور حبيب الله خان، ص ٨٤.

(٣) انظر: المرجع السابق ص ٨٥

ِ العربية في انحاء شبه القارة الهندية، وتقوم هذه الجامعة بواجبها حتى اليوم خير قيام. (١)

الجامعة العثمانية بحيدر آباد الدكن: اقام أعلى حضرت (الحضرة العالية) نظام هذه الجامعة في العام الثامن عشر من القرن العشرين الميلادى، والتى لاتزال تنشر أنوار العلم، هذه الجامعة تحتل مكانة رفيعة بين جامعات الهند، وذلك لأن اللغة الأردية كانت لغة التعليم فيها[٢]. وكانت هذه الجامعة - ولا تزال - تهتم باللغة العربية أيضا كما هو معروف في الأوساط العلميّة الباكستانية والهندية.

الجامعة النعيمية بمراد آباد: أسسها مولانا الشريف محمد نعيم الدين المرادابادى في العام الثامن والعشرين من القرن الرابع عشر الهجرى، فكانت تدعى بمدرسة جمعية أهل السنة والجماعة في بادئ الأمر، ولكنها بعد فترة وجيزة اشتهرت في الأوساط العلمية بالجامعة النعيمية[٣]. ومازالت تساهم في نشر العلوم الإسلامية والعربية.

دار العلوم المحمدية الغوثية: أرسى حجر أساسها العارف بالله الشيخ محمد شاه في الخامس والعشرين من القرن العشرين الميلادى وعين أفاضل عصره للتدريس هناك، وكان الشيخ محمد كرم شاه أول تلميذ في هذه الجامعة، وورد هذا المنهل الكثيرون من الطلبة لإرواء ظمئهم العلمى، وفي العام السابع والخمسين من القرن العشرين الميلادى أثار الشيخ محمد كرم شاه ثورة علمية حيث إنه جمع بين العلوم الإسلامية والعربية وبين العلوم العصرية وذلك عند عودته من جامعة الأزهر الشريف، ومازالت هذه الجامعة تقوم بنشر العلوم الإسلامية والعربية

(١) مجلة الثقافة (نيودلهى) الصادرة في جمادى الأخرى ١٤١٨هـ ص ٣٥ ٣٦ ملخصا
(٢) تاريخ تعليم هند. للشريف نور الله، ص ٢١٤
(٣) حياة صدر الافاضل. لمولانا غلام معين الدين النعيمي (ط: ادارة نعيمية رضوية) ص ٣٠

بفروعها في أرجاء باكستان[١].

دار العلوم حزب الأحناف: لقد قام مولانا الشريف محمد ديـــدار علـــى شـــاه بإنشاء جمعية حزب الأحناف المركزية في العام الخامس والعشــرين مــن القــرن العشرين، وبالتالى أقدم على تأسيس دارا لعلوم حزب الأحناف[٢] ومازالت أبوابــها مفتوحة لطلاب العلم والمعرفة حيث تدرس العلوم الإسلامية والعربية.

وأعتقد أن ثمة مدارس أخرى ولكنى لم أقرأ عنها ولم أشأ أن أدونها خـــوف الإطالة. على أن هناك نظاما للتعلم ليس بالمدرسة التى تقام إنما تمثل ذلك النظـــام فى بيوت العلماء الذين أسعدهم الحال بأن يفتحوا بيوتهم لاستقبال طلاب العلم وتلقى العلم وإضاءة هذه البيوت بالعلم، بعلوم الدين تارة وعلوم العربيـــة تـــارة أخـــرى، وبالطبع لم تكن هذه البيوت بمثابة المدارس لذلك لم نسجلها وإنما اكتفينا بالإشـــارة إلى أن مثل هذا النظام العلمى كان قائما فى الهند، وبالطبع سوف تكون له إسهاماته وتنشيطه للعلم، وإن كان العالم سوف يلقى بظلال فهمه وثـــقافته إلى الطالب الـــذى يدرس على يديه، مما يكون أقل من عطاء المدرسة ذات العلماء الكثر، وبهذا أعتقد أننى أكملت حديثى عن دور المسلمين في نشر اللغة العربية وآدابها في أرجاء شـــبه القارة الهندية في عصر شاعرنا - موضوع البحث - وألمحت إلى دور شاعرنا في هذا المجال، فلننتقل الآن إلى المبحث الثانى حيث أحاول دراسة دور الإنجليز فـــي هذا المضمار.

---

(١) تذكره أكابر أهل سنت، لمولانا محمد عبد الحكيم شرف القادرى، (ط: مكتبـــة قادريـــه لاهـــور. ١٤٠٩هـ)، ص ٤٧٧.
وانظر: مقالات للشيخ محمد كرم شاه الأزهرى / رتبها الأستاذ الحافظ أحمد بخـــش (ط: ضيـــاء القران ببلى كيشنز لاهور ١٩٩٠م)، ص ٤٤، ٤٥.

(٢) تذكره محدث دكن (أحوال محدث الدكن)، للدكتور عبد الستار خان (ط: الممتـــاز ببلـــى كيشـــنز لاهور ١٩٩٨م)، ص ٣٧٢.

المبحث الثانى

دور الإنجليز فى نشر اللغة العربية

لقد حاولنا في المبحث الأول دراسة دور علماء الدين في رفع رايـــة اللغـة العربية عالية في العصر الذى قام الإنجليز بتحطيم نظم التعليم الهندية وبالتالى سلط على الهنود نظم التعليم الحديثة التى دبرتها عقول المستشرقين البريطـــانيين، وقـد سبق أن حاولنا دراسة أفكارهم الحاقدة على الإسلام والمسلمين، وقد يندهش القارئ، عند قراءته لهذا العنوان "دور الإنجليز في نشر اللغة العربية" وأول ما يفاجئـــه أن يسأل نفسه: هل من الممكن أن يساهم الإنجليز في نشر اللغة العربية؟ أقول: نعم قد يعملون على نشر اللغة العربية ليس حبا ولا كرامة لها وإنمـــا تلبيـة لمصالحــهم وتغطية لما صنعوا باللغة العربية حيث إنهم احتلوا بلاد الهند.

تعود حركة الاستشراق من حيث الرغبة الكامنة في نفوس من توجهوا إليـــها واختصوا بها إلى أمد بعيد في الماضى، فإن المسيحيين المصابين بالهزائم العسكرية لما عجزوا عن مواجهة المسلمين عسكريا أخذوا يفكرون في شــن هجــوم ثقــافى سرى على المسلمين وذلك رغم قوتهم العسكرية الهائلة وكثرتهم العدديـــة، فلجــأوا إلى دراسة مواطن الضعف في المسلمين والمنافذ للغزو الثقافى على المسلمين دون إراقة الدماء ومواجهة المسلمين، لأنهم رأوا في الغزو الثقافى منفذا يحميهم مــن أن

يسفروا عن وجوههم ونياتهم الخبيثة، فنجد السير روز دينسون يقول[١]: "إن اهتمام المستشرقين بتركيا وإيران والعرب كان قد بدأ في عصر الحروب الصليبية".

وتقول الدكتور رضيه نور محمد عن بداية اهتمام المستشرقين بشبه القارة الهندية[٢]: "إزداد اهتمام المستشرقين بتركيا وإيران والعرب في مستهل القرن التاسع عشر الميلادى، ولما تحولت الهند إلى مستوطنة إنجليزية وجاءت تحت التاج البريطانى بعد الاستيلاء الشامل على الهند". عندئذ توجه المستشرقون إلى دراسة أوضاع مسلمى آسيا وليس ذلك إلا ليكيلوا الصاع بالصاعين، وعند تمكنهم من الاستيلاء على الهند بالمكر والخدعة قاموا بأبشع المظالم التى فاقت مظالم جنكيز خان وعسكره الوحشى، وبالطبع أنشأت هذه المظالم حاجزا بين الحكام المغتصبين والمحكومين المخدوعين، فأخذت العقول الإنجليزية تفكر في التقرب إلى الهنود - مسلمين وغيرهم - وبالتالى بث الأفكار الإنجليزية في قلوبهم تحت شعار العلوم الجديدة (ويعنون بها الثقافة الغربية).

وتحدثنا الدكتور رضية عن خطة الإنجليز لإزالة الحاجز الناشئ بين الحكام والمحكومين الهنود وهى تقول[٣]: "رأى المستشرقون أنهم لا يقدرون على استمالة قلوب الهنود إلا بأن يأخذوا على عاتقهم مهمة تعليمهم، وكانوا يعلمون تماما أنهم بحاجة ماسة إلى معرفة نفسية أولئكم الهنود الذين أراد الإنجليز استغلالهم، فلم يكن

---

(١) Both Ends of the candle By Sir Roos Densan (Febn ltd London.,1931 A D). p. 261.

(٢) اردو زبان وادب مين مستشرقين كى علمى خدمات كاتحقيقى وتنقيدى جائزه از ١٤٩٨ ء تا ١٩٤٧ ء (الاستعراض التحقيقى والنقدى لإسهامات المستشرقين في تطور اللغة الأردية وادابها من العام ١٤٩٨م الى ١٩٤٧م). للدكتور رضية نور محمد (ط: لائن ارت بريس لاهور ١٩٨٥ ء). ص ٢٥٩.

(٣) اردو زبان وادب مين مستشرقين كى علمى خدمات. للدكتور رضية. ص ١٤٧ (بتصرف).

من المتوقع أن تقرب الطبقة المثقفة من الثقافة الغربية لذا اضطر الإنجليز إلى إيصال الثقافة الغربية إلى الهنود مترجمة إلى لغتهم تحت اسم تعليم اللغات الشرقية والنهوض بها والعربية من بينها طبعا، حينئذ رأى المستشرقون إبقاء جزء من الثقافة الشرقية لخدمة مصالحهم بنشر أفكارهم الغربية عن طريق شيوع ثقافتهم على أن يبدأوا بتثقيف جماعة محدودة من الهنود على أن تقوم هذه الجماعة بنشر الثقافة الغربية بنفسها في الشعب الهندى وتثير فيه الرغبة تجاه العلوم الغربية، وكان اهتمام المستشرقين - في بداية الأمر - باللغات التقليدية من العربية والفارسية والسنسكريتية، وبالتالى اكتفوا بأن تكون هذه اللغات وسيلة لإرسال ثقافتهم إلى العقول الهندية، وهى اللغات الشائعة عندهم المحبوبة لديهم المتوطنة في نفوسهم".

انتهت الدكتور رضية إلى أن الإنجليز ارتضوا بعض اللغات ذات القيمة العالية في نفوس الهنود ومن بينها العربية، وجعلوا منها الوسيلة التى تصل عن طريقها ثقافة هؤلاء وأفكارهم، والإنجليز على رأس الغربيين بالطبع.

على كل أقدم الإنجليز على تعليم الهنود وتثقيفهم بعد إلغاء نظم التعليم الهندية بفرض نظم التعليم الحديثة، والتى دبرتها عقول المستشرقين البريطانيين، وعن بداية إقدام الإنجليز على الاهتمام بتعليم الهنود يحدثنا الدكتور غلام حسين حيث يقول[١]: "لقد أوصى منتظموا شركة الشرق الهندية بإنفاق مائة ألف روبية على تعليم الهنود أول مرة في العام الرابع عشر من القرن التاسع عشر الميلادى، وقد حظيت هذه التوصية بالتنفيذ بعد عشر سنوات في العام الرابع والعشرين من القرن التاسع عشر الميلادى، فأخذت حكومة الشركة تمديد المساعدة إلى بعض المعاهد

---

(١) تاريخ أورينتيل كالج (تاريخ الكلية الشرقية). للدكتور غلام حسين (ط: جديد اردو نائب بريس لاهور ١٩١٢م). ص ١

المحلية و المعاهد التبشيرية الواردة في الهند، ومن هذا المنطلق تم افتتاح كلية دهلى في العام الخامس و العشرين من القرن نفسه، وتم تأسيسها في معهد قديم لدراسة العلوم و الألسنة الشرقية، الذى كان يدعى "بمدرسة غازى الدين فيروز جنك" وهكذا حظيت العربية و الفارسية و السنسكريتية وغيرها من اللغات و العلوم الشرقية بالمظلة الحكومية. وبدأت هذه اللغات و العلوم تخرج من مساجد المسلمين ومعابد الهندوس وتتبوأ مكانها في الكليات حديثة النظم".

لقد أقامت حكومة الشركة لجنة تعليمية لإعداد نظم التعليم للهند وذلك بعد أن مضى ربع القرن التاسع عشر الميلادى، وكان اللورد ماكولى رئيسا لهذه اللجنة يقول الدكتور غلام حسين[١]: "وفي اجتماع لهذه اللجنة انقسم أعضاؤها إلى قسمين قسم يرى تعليم الهنود باللغات المحلية بينما يرى القسم الآخر تعليم الهنود بالإنجليزية، فكانت إحدى الطائفتين ترغب في محو العلوم الشرقية بينما كانت الطائفة الأخرى تؤيد نشر العلوم الشرقية وإحيائها إلى جانب نشر العلوم الحديثة في شبه القارة الهندية [لمصلحة الإنجليز، وإلا فكانت أحقاد هاتين الطائفتين على الإسلام مشتركة وجروح الحروب الصليبية مازالت تنزف وتنال منهم] ولما استوت أصوات الطائفتين جعل اللورد ماكولى صوته في كفة تعليم الهنود بالإنجليزية. ومن هنا بدأت نظم التعليم تقيم مبناها على أسس معوجة وأصبحت الإنجليزية وسيلة لتدريس العربية و الفارسية و السنكريتية فضلا عن دورها في تدريس العلوم الحديثة".

إن الإنجليز كانوا قد قرروا تدريس الهنود بالإنجليزية غير أن هذا لم يستمر وذلك بناء على رواية الدكتور عبد الحق بشأن اضطرار الإنجليز إلى التراجع عن

---

(١) تاريخ أورينيل كالج، للدكتور غلام حسين، ص ٢٠١.

موقفهم من اتخاذ اللغة الإنجليزية وسيلة التدريس في المؤسسات التعليمية بالهند، و بالتالى عادت اللغات الشرقية في المؤسسات التعليمية الهندية، ولم نستطع أن نعرف سبب تراجعهم عن هذا القرار، ولعلها محاولة إرضاء الشعب الهندى ونوع من أنواع الخداع و المهادنة حتى يكسروا حدة العداء ضدهم، ولا يتصور الهندى أن الإنجليزية أصبحت كل شئ ويكرهها، على كل يقول الدكتور عبد الحق[١]: "كان العام الخامس و الثلاثون من القرن التاسع عشر الميلادى عام التغيير الجذرى في تاريخ التعليم بالهند وخلاصة ما انتهجه التعليم من أسلوب:

أحدها: اعتبار اللغات الشرقية لغة التدريس في أغلب المدارس الهندية - الحكومية و الأهلية - فبدأت دراسة اللغات و العلوم الشرقية فيها مرة أخرى.

ثانيها: إقدام الحكومة الإنجليزية على إعطاء أغلب طلاب المدارس الحكومية و الأهلية المنح الدراسية.

ثالثها: إقدام الحكومة على الدعم المالى الكبير للترجمة إلى اللغتين العربية و السنكريتية، ومن المثير للدهشة أن الإنجليز وجهوا اهتمامهم إلى اللغة العربية حيث إنهم خصصوا اثنين وثلاثين ألف روبية لترجمة كتاب بهاتين اللغتين، وكانوا في بعض الأحيان إذا وجدوا صعوبة في فهم الترجمة طلبوا إلى المترجم القيام بشرح الترجمة نظير مقابل مادى كما كانوا ينفقون أموالا طائلة على طبع الكتب المترجمة"، ومن الممكن أن يكون اهتمام الإنجليز بالترجمة إلى العربية و السنسكريتية لتنال الثقافة الغربية بعض المكانة في قلوب وعقول أهل الأرض المحتلة كما دخل عسكرهم.

---

(١) راجع: مرحوم دهلى كالج (كلية دهلى المرحومة). للدكتور عبد الحق (ط: أنجمن ترقى اردو، دهلى ١٩٨٩م)، ص ٢٤، ٢٥.

هكذا قام الإنجليز بشن هجوم ثقافي على أهل شبه القارة الهندية بعدما شنوا عليهم هجوما عسكريا، وكانت نظم التعليم تستهدف إلى تمجيد حضارة الإنجليز ومبادئ المسيحية، كما كانت تستخف بحضارة الشرق بوجه عام وأمجاد شبه القارة الهندية والمسلمين بصفة خاصة، وإنهم جاؤا بأساطير التقدم التكنولوجي في الغرب وحاولوا أن يبهروا بها عقول الهنود لتستسلم لهم بكل خضوع وطاعة، فكانت الأحقاد المكنونة في صدورهم نحو المنتصرين في الحروب الصليبية متمثلة تماما في نظم التعليم التي خططوها لتثقيف أهل الهند بثقافتهم وإبعاد الهنود عن إنجازات أسلافهم، وإن أحقاد الإنجليز لم تهدأ بإلغاء نظم التعليم الهندية وإحلال نظم التعليم الحديثة مكانها بل خطت خطوة أخرى باتخاذ اللغة الإنجليزية لغة التدريس، وإن كان بعضهم لا يرون هذا الاعتداء في صالح الإنجليز، على كل فإنهم بدأوا يفكرون في تنفيذ نظم التعليم الحديثة التي جاؤا بها حتى تقتربه الأذهان الهندية بالثقافة الغربية، بالابتعاد عن الحضارة الشرقية، وفي هذا يقول الدكتور غلام حسين[1]: "يتصف العام الرابع والخمسون بأهمية كبيرة في التاريخ التعليمي لشبه القارة الهندية، حيث إن الحكومة الإنجليزية أنشأت هيئة تعليمية بكل ولاية هندية، وقررت تمويل المؤسسات التعليمية التي لم تكن تابعة للحكومة، كما تقرر قيام جامعة بمدينة كلكته، ومدراس، بومبائي، وتم تنفيذها هذا القرار في العام السابع والخمسين من القرن التاسع عشر الميلادي".

ومن هذا المنطلق قام الإنجليز بإنشاء المدارس والكليات تنفيذا لأفكارهم المتمثلة في نظم التعليم الحديثة، وإنهم خلال إنشاء هذه المؤسسات التعليمية أنشأوا بعض الكليات لنشر اللغات والعلوم الثقافية وكانت العربية من بينها، وإن أول كلية أسهمت في نشر اللغات والعلوم الشرقية - في رأيي - هي "كلية فورت ويليام"

---

(١) تاريخ أورينتيل كالج، للدكتور غلام حسين، ص ٣.

يحدثنا الأستاذ الدكتور وقار العظيم عن نشأتها والدوافع إلى إنشائها حيث يقول[١]: "نشأت كلية فورت وليام تلبية لبعض المصالح الحكومية، وتفصيل ذلك أنه لما جاء اللورد ولزلى ليتولى منصب الحاكم العام بالهند رأى أن الموظفين الإنجليز الذين يتولون مهام إدارية في عدة أقسام إدارية لا يتمكنون من إنجاز أعمالهم إلا بعد تربيتهم بالأساليب المدروسة وإعلامهم بالطبائع الهندية، لذا اقترح اللورد ولزلى قيام كلية تتولى تدريس بعض اللغات المحلية إلى جانب تدريس اللغات الأوروبية وشتى العلوم الغربية، وكان هذا المشروع يشمل اللغة العربية وغيرها من بعض اللغات التى كانت معروفة في الهند، كما كان يشمل العديد من العلوم، ولكن حكومة الشركة لم توافق على المشروع ككل بل وافقت جزئيا حيث إنها أذنت بقيام كلية تقوم بتدريس اللغات المحلية فانتهز الحاكم العام بالهند اللورد ولزلى هذا القدر من موافقة الحكومة فأقدم على إنشاء الكلية في الثامن من شهر مايو من نهاية القرن الثامن عشر الميلادى، وسماها بـ "كلية فورت وليام" وأخذت هذه الكلية تمهد للموظفين الأجانب الطرق المؤدية إلى فهم الطبع الهندى حتى يحسن تعامل الحكام الإنجليز مع محكوميهم الهنديين، وبالتالى تزداد قوة سيطرتهم يوما فيوما".

أما الكلية الثانية - في نظرى - التى قامت بإرساء دعائم اللغات الشرقية في الهند فهى "كلية دهلى الشرقية" يحدثنا عنها الدكتور عبد الحق قائلا[٢]: "لقد تم تأسيسها - بشكلها الحديث - في الخامس والعشرين من القرن التاسع عشر الميلادى بهدف تدريس العلوم واللغات الشرقية ومن بينها العربية، وذلك بعد تأسيسها بما يقارب ثلاثة وثلاثين سنة... وحظيت هذه الكلية بالقبول والنجاح وذلك

---

(١) فورت وليم كالج (كلية فورت ويليام) للدكتور وقار العظيم، (ط: الوقار يبلى كيشنز لاهور ١٩٩٥م)، ص ١٩.
(٢) مرحوم دهلى كالج، للدكتور عبد الحق، ص ١٢، ٢٥.

لكون اللغة الأردية وسيلة لتدريس العربية والفارسية والسنسكريتية إلى جانب تدريس بعض العلوم ضمن المقررات".

أما الكلية الثالثة التى ساهمت في نشر اللغة العربية ضمن اللغات الشرقية - في نظرى - فهى كلية لاهور الحكومية، والتى تم افتتاحها في شهر يناير من العام الرابع والستين من القرن التاسع عشر الميلادى، وعين الدكتور ويليام لايتنر أول عميد لها والذى تولى هذا المنصب في شهر نوفمبر من السنة نفسها، والذى قام بدور فعال لنشر اللغة العربية وآدابها حيث إنه كان قد سبق له أن درس اللغة العربية وادابها والعلوم الإسلامية في مدرسة العلوم الإسلامية بمدينة قسطنطينية، ثم تحول إلى مدينة لندن حيث التحق بالكلية الملكية وذلك في العام الثامن والخمسين من القرن التاسع عشر الميلادى، واستمر في دراساته العليا وبحوثه القيمة حتى نال منصب الأستاذية في اللغة العربية وآدابها بالكلية الملكية نفسها. وانتخب كذلك عضوا بالجمعية الأسيوية الملكية في السنة نفسها، وفي السنة الثانية والستين من القرن التاسع عشر الميلادى نال شهادة الماجستير ثم الدكتوراه من جامعة فرى بورج [ولم نستطع الاطلاع على العام الذى نال فيه الدكتور ويليام لايتنر درجة الدكتوراه وأعتقد أنه نال درجة الدكتوراه قبل العام الرابع والستين من القرن التاسع عشر الميلادى حيث نصب عميدا لكلية لاهور الحكومية لأنه كان حائزا على الدكتوراه وقتذاك] وإنه قبل توليته منصب العميد بكلية لاهور كان أستاذ اللغة العربية وادابها بالكلية الملكية بلندن، كما كان أستاذ القانون الإسلامى أيضا بنفس الكلية"(١).

---

(١) مقدمة النحو العربى الفلسفى، للدكتور ويليام لايتنر (ط: المجمع العربى الباكستانى، لاهور وانظر: تاريخ أورينتيل كالج، للدكتور غلام حسين، ص ٣، ٤.

إذا كنا تحدثنا عن ثلاث كليات حكومية لعبت دورها في نشر اللغة العربية وآدابها في شبه القارة الهندية فإن أمامنا خضما هائلا من الثقافة العربية التى تمثلت فيما بعد في جامعة بنجاب بمدينة لاهور والتى كانت نتيجة لخطوات اتخذها الدكتور وليام لائتنر من أجل نشر اللغات الشرقية ومن بينها اللغة العربية، يحدثنا الأستاذ الدكتور ظهور أحمد أظهر عن دور الدكتور وليام لايتنر لإنشاء جامعة بنجاب فيقول[١]: "ومن الخطوات الجريئة التى اتخذها الرجل من أجل النهوض بالتعليم ورفع مستواها على أوسع نطاق ممكن في إقليم بنجاب خاصة وفي شمال الهند عامة هو إنشاء جمعية بنجاب... وكان من أهم أهداف هذه الجمعية إنشاء جامعة في مدينة لاهور والتى بإمكانها أن تلبى حاجات المواطنين التعليمية والثقافية بالإضافة إلى عدة أهداف أخرى، وفي العام التاسع والستين والعام والسبعين من القرن التاسع عشر الميلادى حققت حركة الدكتور لايتنر التعليمية أول نجاح باهر وأتت بثمرة مفيدة وذلك أن جمعية بنجاب وفقت في إنشاء كليتين في الوقت نفسه. إحداهما الكلية الشرقية وكان عميدها المؤسس هو الدكتور لايتنر نفسه، والكلية الثانية هى كلية بنجاب الجامعية، وأصبح الدكتور وليام لايتنر المسجل المؤسس أيضا لهذه الكلية التى أصبحت جامعة بنجاب فيما بعد، واستمر هذا المستشرق في محاولاته الجدية من أجل ترقية الكلية وتقدمها ورفعها إلى المستوى الذى يليق بها حتى تمكن الوصول إلى اللورد ليتون نائب الملك البريطانى على الهند فأخذ منه الموافقة الرسمية في السنة السادسة والسبعين من القرن التاسع عشر الميلادى برفع الكلية إلى درجة الجامعة المستقلة وأقر بذلك المجلس الملكى الذى عقد اجتماعه في السنة السابعة والسبعين من القرن نفسه، ثم تحقق حلم الدكتور وليام لايتنر في

---

(١) مقدمة النحو العربى الفلسفى، للدكتور وليام لايتنر، ص ١٩، ٢٠ (مقدمة).

الثانى و الثمانين من القرن التاسع عشر الميلادى حين صدر المرسوم الرسمى بإنشاء جامعة بنجاب بلاهور فخرجت إلى حيز الوجود رسميا".

هكذا حلت اللغة العربية و آدابها محلها مرة أخرى في لبسة جديدة على مستوى الكلية و الجامعة على يد الحكومة الإنجليزية بعدما ألغى حكام الإنجليز المغتصبون دراستها بالقضاء على نظم التعليم الهندية التقليدية، و أحلوا محلها نظم تعليم خططها الأذهان البريطانية لتخضع لهم قلوب الهنود و أذهانهم، وكانت هذه المحاولة المدروسة تستهدف الغزو الثقافى بعد الغزو العسكرى المصحوب بالجبن و المكر و الخدعة ولكن حكمة الله تبارك وتعالى و مشيئته غلبت كيد الكائدين و أنقذت المسلمين بمفكريهم من أمثال شاعرنا موضوع البحث و الدكتور محمد إقبال و الشاعر المفكر أكبر إله آبادى الذين قاموا بتوجيه المسلمين إلى الأضرار الكامنة في نظم التعليم الإنجليزية، الأمر الذى دفع الطلاب المسلمين إلى الاحتفاظ بهويتهم، و الاعتزاز بدينهم ولغاتهم، و هكذا عادت حياة هذه اللغات إلى عروقها و شرايينها مرة أخرى وذلك على يد الإنجليز الذين حاولوا محوها.

لقد تحدثنا عن قيام الإنجليز بإنشاء الكليات لإحياء اللغات الشرقية بعدما أصيبت بالخراب و الدمار على يد هؤلاء الغاصبين المغتصبين، نتقدم الآن بالحديث عن الجهود الفردية التى بذلها علماء الإنجليز في سبيل نشر اللغات الشرقية بما فيها اللغة العربية وذلك تحقيقا لخطتهم المدروسة، إلا أننا لم نستطع الاطلاع على تراجمهم أو على أحد التاريخين تاريخ الميلاد أو الوفاة، لذا لم نرتب أسماءهم حسب الترتيب الزمنى وكان جل اهتمامنا على ترتيب أسمائهم حسب الترتيب الأبجدى، فمن تقدم اسمه ابجديا تقدم ذكره، ومن تأخر اسمه تأخر ذكره أيضا.

لقد تحدثنا عن الدكتور ويليام لايتنر فيما سبق ذكره خلال الحديث عن كلية لاهور الحكومية، وجامعة بنجاب، لذا لم نكرر اسمه تجنبا للملل والكلل، وسوف نتناول أسماء بعض المستشرقين الذين وصلت يدى إلى خدماتهم وجهودهم نحو اللغة العربية وآدابها.

(١) **إسبرنغار:** إنه كان طبيبا من الناحية المهنية تم تعيينه في بنجال حيث كان يعمل طبيبا جراحا، ولكن نظرا إلى معرفته واهتمامه بالعربية وآدابها شغف بالفارسية والأردية أيضا، لذا نصب عميدا لكلية دهلى في الخامس والأربعين من القرن الثامن عشر الميلادى.. وإنه قام بتوفير النسخ المطبوعة من ديوان الحماسة وديوان المتنبئ لكلية دهلى فأفاد المقررات العربية لدى الكلية.. وإنه تقدم باقتراح الإصلاح في أساليب الترجمة من العربية والفارسية[١]، وبالتالى كل ماكان بينه وبين اللغة العربية حب وشغف ومنصب ومحاولة لزيادة المكتبة العربية بدليل إتيانه بالنسخ من الكتابين، ثم قيامه بالاقتراح بشأن الإصلاح في أساليب الترجمة من العربية والفارسية، وإن كنا لم نعثر على نص الاقتراح.

(٢) **إيدوارد هنرى بالمر:** إنه من طائفة المستشرقين المشهورين [في شبه القارة الهندية] بمطالعته العميقة للعربية والفارسية والأردية علاوة على براعته في اللغات الأوربية، إنه ولد بإنجلترا بمدينة كيمبرج [حيث نشأ وترعرع] وتم لقاؤه مع البروفيسور الهندى الشريف عبد الله بن الشريف محمد خان بهادور الأستاذ بجامعة كيمبرج، ساعتها شغف باللغة الأردية وبدأ بتعلمها على يد الشريف عبد الله الهندى حتى أتقنها، ولم يكتف بالأردية فقط فقد برع في اللغة العربية والفارسية أيضا، وأخذ ينطق هذه اللغات الثلاثة بكل طلاقة، إنه عرض بعض أبياته التى كان

---

(١) كارسان دتاسى اوراس كى همعصر بهى خواهان أردو (غارسان ديتاسى والمعاصرون له من المتعاطفين مع الأردية)، للشريف محى الدين القادرى (ط: سب رس كتاب كهر حيدر اباد دكن ١٩٦١م)، ص ٩٣، ٩٤.

قد نظمها بالعربية الفصحى على البروفيسور تومس برستن وذلك في الثامن والستين من القرن التاسع عشر الميلادى، وإنه أخذ ليسانس في السابع والستين من القرن نفسه. ثم أخذ الماجستير بعد سنوات ثلاث. لقد قام إيدوارد هنرى بالمر بجمع وترتيب قائمة المخطوطات العربية والتركية الموجودة لدى كلية ترينى بإنجلترا، وإنه عند إقدامه على الهند قام بطبع مقالاته العربية والفارسية في الجرائد بمدينة "أودهـ" وبالتالي في جرائد الهند الأخرى أيضا، وكتب عند وفاة الشريف محمد خان بهادور مقالا بالإنجليزية تحت عنوان "الحديث مع الهند" [وأعتقد أنه شاطر الهند أحزانها بفقد الشريف محمد خان بهادور] ولقد قام بزيارتين إلى جزء من الوطن العربى ومن بينها فلسطين ومصر وذلك في العام السابع والستين من القرن التاسع عشر الميلادى، وعند عودته إلى الهند قام بطبع مقالات بأكثر من لغة ومن بينها العربية، وإنه ألف كتابا في قواعد اللغة العربية والذى يعتبر من نوادر الكتب وأنفعها للدارسين [على حد قول الدكتورة رضية ولم أشأ أن أناقشها حتى لا أتجاوز الموضوع الذى أتناوله] وفي العام الثانى والثمانين من القرن التاسع عشر الميلادى بعثته الحكومة الإنجليزية بالهند إلى مصر للقيام بمهمة سرية هناك، ولكنه لم يوفق حيث لقى حتفه على يد أحد المصريين[١] ونلاحظ أنه كان عاما يقف التاريخ أمامه باكيا حيث كان الإنجليز يحاولون دخول مصر وبالتالى نجحوا في محاولتهم. فيبدو أنه راح ضحية للشك وكراهية المصريين للاحتلال الإنجليزى.

(٣) **بريتن:** هذا هو ثالث المستشرقين - حسب ترتيبى - الذين قاموا باسهاماتهم في نشر اللغة العربية ضمن اللغات الشرقية فإنه قام بتأليف كتاب عن مختلف أعضاء جسم الإنسان تحت عنوان: A Vocabulary of the Names of

---

(١) اردو زبان وادب مين مستشرقين كى علمى خدمات، للدكتور رضية، ص ٢٠٩، ٢١٠، (ملخصا).

various of the Parts of the Human body and medical technical Terms قائمة أعضاء جسم الإنسان و المصطلحات الطبية".

وكانت هذه الأسماء بثلاثة لغات العربية و الفارسية و السنسكرينية، وقد طبع هذا الكتاب فى مدينة كلكته في السابع و العشرين من القرن التاسع عشر الميلادى[1].

(٤) **الدكتور جون بارت وك غل كرست:** إنه أحد الأساتذة المدرسين بكلية فورت وليام، وقد قام بتأليف العديد من الكتب في اللغات الشرقية - وبالطبع للأهداف المنشودة - فكان من ضمن مؤلفاته باللغة الأردية "مرآة الهندية و العربية" جاء فيه بالكلمات العربية التي تتداول في اللغة الأردية وتحدث الدكتور وقار العظيم عنه بأنه اهتم بالخط العربى وتحدث عنه في كتابه بالأردية "كتاب القصة في الهند"[2].

(٥) **زنكن فوربس:** إنه خامس المستشرقين المهتمين باللغات الشرقية ومن بينها اللغة العربية، ومن الذين وصلت يدى إلى أسمائهم، وكلما عرفت عنه أنه ظل أستاذا بأكاديمية كلكته من العام الثالث و العشرين من القرن التاسع عشر الميلادى حتى العام السادس و العشرين من القرن نفسه... وإنه ألف بالعربية و الفارسية و الأردية و البنجالية عددا لا بأس به[3] هذا ولم نعرف على أسماء مؤلفاته العربية.

(٦) **ويليام ناسوليس:** هذا هو سادس المستشرقين الإنجليز - حسب ترتيبى - ومن المهتمين باللغات الشرقية من بينها اللغة العربية، ولم تصل يدى إلا إلى

---

(١) اردوزبان وأدب مين مستشرقين كى علمى خدمات، للدكتور رضية، ص ١١٠.
(٢) فورث وليم كالج، للدكتور الشريف وقار العظيم، ص ٢٠، ٢٧ (ملخصا).
(٣) اردوز بان وادب مين مستشرقين كى علمى خدمات، للدكتور رضية، ص ١٢٦.

معلومات ضئيلة عن دوره في نشر اللغة العربية، تحدثنا عنه الدكتور رضية حيث تقول[١]: "إن أكبر شهرته تعود إلى قيامه بخدمة اللغة الفارسية، كما عرفت عنه بعض الأعمال العلمية باللغة العربية فاعتبر من أصحاب الفضل على اللغة العربية أيضا".

ها هم المستشرقون السبعة الذين استطعت أن أتعرف إسهاماتهم في نشر اللغة العربية. أحدهم مجرى الجنسية، ألا وهو الدكتور ويليام للايتنر، ولكنه اشتغل في الهند كمبعوث إنجليزى، والذى تحدثت عنه فيما سبق، وأما بقية المستشرقين الستة فكانوا إنجليزى الجنسية، على كل كانت لهؤلاء جميعا أهداف معينة والتى أشرنا إليها في بداية هذا المبحث حيث إن الإنجليز كانوا قد جاؤا بالمبشرين لنشر النصرانية مباشرة. وإنهم جاؤا كذلك بالمستشرقين لدراسة أوضاع المسلمين خاصة وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى في الهند بصفة عامة، حتى يشقوا الطرق للغزو الثقافى على المحكومين الهنود بصفة عامة والمسلمين بصفة خاصة، فقد كانت ذكرى الهزائم الساحقة في الحروب الصليبية تتغلغل فى أحشائهم وتلتهب في قلوبهم الحاقدة على الإسلام والمسلمين، وإنهم بواسطة تقارير هؤلاء المستشرقين استطاعوا التفرقة بين أفراد الشعب الهندى فحلت الخلافات الطائفية بين المسلمين والسيخ تارة والهنادكة تارة أخرى رغم أن المسلمين كانوا قد حكموا شبه القارة الهندية بكل عدل وإنسانية تطبيقا للمقولة المأثورة عن الاستعمار "فرق تسد" وإنهم بناء على تقارير المستشرقين قاموا بمحاولات بشعة لتشويه وجه الإسلام وتغريب عقول الشرقيين بصفة عامة، لقد حاول المستشرقون كل المحاولة لتوطيد حكم الإنجليز في شبه القارة الهندية ولكن أنى للظلم والإحتلال استقرار؟ وكان الاهتمام باللغات الشرقية إحدى المحاولات لتوطيد الحكم الإنجليزى في الهند، وهكذا قام الإنجليز بنشر اللغة العربية ليس حبا لها وإنما تلبية لمصالحهم، وتنفيذا لأهدافهم، ولكنهم أفادوا اللغة العربية في شبه القارة الهندية بعض الإفادة بعد تدميرها تماما وإحلال الإنجليزية محلها.

---

(١) انظر: اردو زبان وأدب مين مستشرقين كى عملى خدمات، للدكتور ضيه، ص ٥٧ (ملخصا).

الباب الثاني

الأغراض الشعرية في ديوان الشيخ أحمد رضا خان

ويحتوي هذا الباب على تمهيد وأربعة فصول

تمهيد :التعريف بالديوان

الفصل الأول: المديح.

الفصل الثاني: الرثاء.

الفصل الثالث: الهجاء.

الفصل الرابع: في غير ذلك من الأغراض.

تمهيد

التعريف بالديوان

إن شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان كان قد رتب ديوانه الأردى في حياته في جزئين وقد صدر الجزء الأول والثاني في مجلد تحت عنوان حدائق بخشش [حدائق الغفران] وذلك في العام الخامس والعشرين من القرن الرابع عشر الهجرى الموافق للعام السابع من القرن العشرين الميلادى، ولكنه لم يقم ولم يفكر في ترتيب ديوانه العربى وكذلك ديوانه الفارسى واكتفى بما تضمنه حدائق بخشش من بعض المنظومات العربية والفارسية إلا أن بعض مؤلفاته قد توجت بذكر بعض قصائده، وقد ذكرها ضمن مؤلفاته بمناسبة الكلام مخافة عدم قدرته على جمع الديوان العربى والفارسى في حياته، وهذا ما حدث بالفعل.

ومما تجدر الأشارة إليه أن الأدباء والعلماء بشبه القارة الباكستانية الهندية اهتموا بالمنظومات العربية التى نظمها شاعرنا، وبدأ الاهتمام بشعره في أواخر حياته وبعد رحيله وإلى يومنا هذا، فأقدم عدد منهم على وضع إحصائية عدد الأبيات العربية لشاعرنا الشيخ أحمد رضا خان، بل زاد الاهتمام إلى أن وضعت بعض أبياته الأردية حيث الترجمة لقصيدته المسماة "بالمنظومة السلامية" وعدد أبياتها بالأردية مائة وسبعون بيتا، وقد قام بهذه الترجمة محقق ديوانه العربى بساتين الغفران الأستاذ حازم محمد أحمد، وقد قام بصياغة هذه الترجمة شعرا

الأستاذ الدكتور حسين مجيب المصرى[1] وقد رأيت أصول هذه الترجمة والصياغة الشعرية، وأعتقد أن القارئ سوف يسعد بها قريبا بعد أن تلم بها المطبعة، على أننى لم أشأ أن أضعها في ظلال بساتين الغفران وذلك لأن موضوعنا شـعره العربـى وليس المترجم إلى العربية، رحم الله شاعرنا عربيا وأرديا وفارسيا، وفيما يأتى ذكر أولئك الذين اهتموا بالشعر العربى عند الشيخ أحمد رضا خان إلا أننـا لا نعـرف مدى صحة ما ذهبوا إليه في هذا الإحصاء نظرا لعدم قيامهم بالإقدام على إصـدار ما جمعوه على الرغم من مضى سنوات طويلة على هذه الإحصائية.

ومن بين من وضعوا إحصائية نذكر الدكتور حامد على خان الذى ذكر أنـه إطلع بنفسه على ثلاثمائة وتسعين بيتا عربيا للشيخ أحمد رضا خان[2].

كذلك مولانا محمود أحمد القادرى الذى قال: "إنه جمع مـن بيـن مؤلفـات شاعرنا المختلفة الفنون - المطبوعة والخطية - خمسين ومائة بعـد الألـف مـن الأبيات العربية إضافة إلى أنه لم يستطع الحصول على منظومة نظمها شاعرنا فـي

---

(1) ولد المترجم له فى القاهرة فى ١٦ فبراير عام ١٩١٦م، تلقى تعليمه الابتدائى فى مدرسـة شبرا الابتدائية ومدرسة السعيدية الثانوية، ثم التحق بقسم اللغة العربية واللغات الشرقية بجامعـة فواد الأول (جامعة القاهرة حاليا) وتخرج فيها عام ١٩٣٩م، ودرس إحدى عشرة لغة يجيد منـها ثمانى لغات. من هذه الثمانية التركية والإنجليزية، ثم التحق بقسم لغات الشعوب الإسلامية بمعـهد الدراسات الشرقية التابع للجامعة المذكورة سنة ١٩٤٠م، ونال منه درجة الماجستير سنة ١٩٤٣م، ثم سافر إلى استنبول للاطلاع على المخطوطات المتعلقة بالشاعر التركى "فضولى البغدادى" وقدم رسالة عنه نال بها درجة الدكتوراه عام ١٩٥٥م.

يعمل حاليا أستاذ الدراسات الفارسية والتركية والأدب الإسلامى المقارن فى قسـم لغـات الشعوب الإسلامية بجامعة عين شمس بالقاهرة، وخبير وعضو لجنة المعجـم الكبيـر بـالمجمع اللغوى والأعلام والتاريخ والآثار بالقاهرة.

منحه الرئيس الباكستانى محمد ضياء الحق وسام الامتياز (تمغة امتياز) عام ١٩٨٨م، لـه اثنان وستون كتابا منها ستة دواوين باللغة العربية، كما أن له ديوانا فارسيا واخر بالتركية، ولـه شعر غير مطبوع بالفرنسية.

انظر: نخبة من اراء مفكرى العرب حول محمد إقبال، جمعه وقدم له الدكتور محمد السيد جمـال الدين والدكتور أمجد حسن سيد أحمد (ط: السفارة الباكستانية بالقاهرة، ١٩٩٨م). ص ٥٢

(2) أنوار رضا، لصفوة من العلماء، ص ٥٦٦.

الرد على المرزا غلام أحمد القاديانى، إلا أنه أشار إلى أن عدد تلك المنظومة تضم مئات الأبيات باللغة العربية[١] ومع قوله هذا لم يقدم على إصدار إلا ثلاثين بيتا لشاعرنا في كتيب تحت عنوان "أحد عشر بيتا عربيا للإمام أحمد رضا خان" وإن أردت التعبير السليم فلا تقل كتيبا وإنما قل ملزمة عبارة عن ستة عشرة صفحة.

ونذكر أيضا الدكتور محمود حسين البريلوى الذى ذكر أنه قام بجمع ألف ومائة وثمانية وأربعين بيتا عربيا لشاعرنا الشيخ أحمد رضا خان[٢] وذلك بالطبع بعد مجهود كبير بذله في هذا الصدد، وإنه مع قوله هذا ذكر أنه من الصعب إحصاء عدد منظومات الشيخ أحمد رضا خان نظرا لتفرقها بين كثير من مؤلفاته باللغات العربية والفارسية والأردية تلك المؤلفات التى لا توجد في مكتبة واحدة وذكر أيضا أن مؤرخى سيرة الشيخ أحمد رضا خان أشاروا إلى مزيد من أبياته العربية.

ظل الحال هكذا عند من اشتغل بالبحث الشعرى وتصدى بهدف وضع إحصائية لعدد الأشعار العربية لشاعرنا الشيخ أحمد رضا خان دون إقدام احد من أهل شبه القارة - باكستان الهند وبنجلاديش - على التفكير الجاد بهدف جمع وترتيب وإصدار منظومات شاعرنا في ديوان مستقل.

ومما تجدر الأشارة إليه أن هذا الوضع استمر منذ أواخر حياة شاعرنا وبعد رحيله إلى العام الخامس والتسعين من القرن العشرين الميلادى، وحين قدم باكستان الأستاذ حازم محمد أحمد عبد الرحيم المحفوظ - أحد أبناء الأزهر الشريف - وبعد ما علم بعدم إقدام أحد من الأدباء والعلماء على التصدى إلى جمع وترتيب وتحقيق

---

(١) امام أحمد رضا كے گیاره عربى اشعار. لمولانا محمود أحمد القادرى، ص ٣.
(٢) معارف رضا، لصفوة من العلماء، ج ٨، ص ٧٥.

وإصدار المجموعة الشعرية العربية لشاعرنا عكف على إنجاز هذا العمل، وعن بداية مطالعته لمنظومات شاعرنا يقول[١] "بدأت معرفتى بالشيخ أحمد رضا خان في كلية اللغات والترجمة من جامعة الأزهر الشريف حين قدم الأستاذ الدكتور محمد مبارز ملك أستاذا زائرا بقسم اللغة الأردية وآدابها في العام التاسع والثمانين بعد التسعمائة والألف للميلاد فقام سيادته بإهدائى مجموعة من الكتب - كما أهدى مجموعة أخرى لمكتبة كلية اللغات والترجمة - حول حياة ومصنفات الشيخ أحمد رضا خان، وكانت أول أشعاره باللغة العربية التى قرأتها بعض أبيات من قصيدته الشهيرة "حمائد فضل رسول".

وعن بداية تصديه لإنجاز هذا العمل يقول[٢]: "وشاءت الأقدار أن أقدم إلى جمهورية باكستان الإسلامية أستاذا زائرا بقسم اللغة العربية وآدابها بجامعة بنجاب بمدينة لاهور - قلب باكستان - في الخامس من شهر يناير عام خمسة وتسعين بعد التسعمائة والألف للميلاد وبعد أن عرفت أنه لم يقدم أحد على جمع ديوان الشيخ أحمد رضا خان [جمعا يحيط بسائر نتاجه الشعرى] حتى ذلك الوقت فعقدت العزم على المضى قدما في القيام بهذا العمل، فقد توفرت لى الوسائل في باكستان حيث يوجد أغلب مصنفات الشيخ أحمد رضا خان التى تحتوى على العديد مما نظمه باللغة العربية، وقد رأيت مدى رغبة علماء أهل السنة والجماعة هنا في مدينة لاهور [بجمهورية باكستان الإسلامية] وتشجيعهم لى للقيام بهذا العمل فعكفت على جمع أشعار الشيخ أحمد رضا خان". وعن المؤلفات المطبوعة والمخطوطات شاعرنا والتى اعتمد عليها في جمع وترتيب هذا الديوان العربى يقول[٣]: "قمت بالاعتماد في ترتيب هذا الديوان على مؤلفات الشيخ أحمد رضا خان التى وصلت

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان (المقدمة)، ص ٤١.
(٢) المرجع السابق، (المقدمة) ص ٤٢.
(٣) انظر : المرجع السابق (المقدمة)، ص ٤٢-٤٣.

إليها يدى [و الكلام للأستاذ حازم محمد أحمد المحفوظ] ومن بين الكتب التى أرخت لحياته ككتاب "حيات أعلى حضرت" [وترجمته: حياة الحضرة العالية] لتلميذ وخليفة الشيخ أحمد رضا خان وهو مولانا محمد ظفر الدين البهارى وغيره من الكتب الموثوق فيها والتى يعد مؤلفوها من خير من أرخوا لحياة الشيخ أحمد رضا خان وكذلك عثرت على بعض أشعاره من بعض مؤلفات كبار معاصريه مثل كتاب سراج العوارف في الوصايا والمعارف لفضيلة الشيخ أبى الحسين أحمد النورى، وأيضا من بعض المجلات التى قامت بنشر بعض أشعار فضيلته مثل المجلة الشهرية الرضا (بريلى) وكذلك بعض الكتب التى أرخت في الأونة الأخيرة لحياة شاعرنا، أمثال المصنفات التى ألفها الأستاذ الدكتور محمد مسعود أحمد. وأيضا من بعض المقالات العلمية التى كتبت حول الأشعار العربية لفضيلة إلى غير ذلك مما أوردته في حواشى هذا الديوان الذى بين أيدينا الآن".

أما عن المنهج العلمى الذى اتبعه مرتب الديوان فيقول(١): "وكان منهجى في جمع وتحقيق أشعار هذا الديوان بأننى لم أكتف بقراءة وجمع ما أعثر عليه من أشعار من مخطوط أو مصدر أو مرجع بل عندما كنت أجد نفس هذه الأشعار بمصدر آخر كنت أقوم بمطابقتها بما جمعته وعندما أجد اختلافات في بعض ألفاظ بعض أبيات أو إبدال كلمة موضع كلمة أخرى تقديما أو تأخيرا قمت بالاشارة إلى ذلك بالحاشية تحريا للدقة، وأيضا قمت بالتعليق على كل قصيدة ومرثية وقطعة ورباعية وفرد أوردته بمتن هذا الديوان، وقمت بوضع عناوين لكل القصائد والمراثى والقطع والأفراد [المراد بالفرد البيت الواحد وكذلك أفراد المراد بها عدة أبيات كل منها في مجاله] والتواريخ وغيرها لتسهيل معرفة وفهم مضمونها وكذلك أوردت الهوامش المناسبة، والسنة التى نظمت فيها إن وجدت".

وهذا الديوان الذى بين أيدينا الآن قام محقق الديوان باختيار عنوان له هو

---

(١) انظر: المرجع السابق (المقدمة)، ص ٤٥-٤٦.

بساتين الغفران وعن هذا يقول[1]: "عندما أقدمت على اختيار عنوان لهذا الديوان – بعد الانتهاء من جمعه وترتيبه وتحقيقه – رأيت من الواجب مراعاة ما اختاره الشيخ أحمد رضا خان من عنوان لديوانه الأردى "حدائق بخشش" لذلك أقدمت على تسميته بـ "بساتين الغفران".

ويقع هذا الديوان في ثلاثمائة وخمسين صفحة مقاس ٢٠ × ٣٠ سم ويبدأ هذا الديوان بتمهيد في ثمان صفحات تحت عنوان التعريف بالإمام محمد أحمد رضا خان تحدث المرتب فيه عن حياة وأعمال ومصنفات وعقيدة الشيخ أحمد رضا خان، وبعده تقديم بقلم الشيخ محمد عبد الحكيم شرف القادرى – الأستاذ بالجامعة النظامية الرضوية بمدينة لاهور ومراجع هذا الديوان – استغرق هذا التقديم اثنتى عشرة صفحة تحدث فيها عن الشيخ أحمد رضا خان وموهبته الأدبية في اللغات العربية والفارسية والأردية كما تحدث فيها عن بساتين الغفران والمجهود الذى بذله المرتب من أجل إتمامه، وتحدث كذلك فيه عن السيرة الذاتية والعلمية والأدبية لمرتب هذا الديوان[2]

ثم تأتى تواريخ التاريخ لطبع هذا الديوان بحساب الجمل والتى نظمها الشيخ القاضى عبد الدائم دائم وعددها تسعة وعشرون، ومنها العنوان الذى وضعه لهذا الديوان بحساب الجمل وهو "إشعار الفهام بأشعار الإمام" (١٤١٦هـ) [3].

وبعد ذلك قصيدة باللغة العربية في مدح الشيخ أحمد رضا خان نظمها الشاعر الدكتور محمد حسين إقبال القادرى في خمسة وأربعين بيتا[4] ثم تأتى مقدمة مرتب هذا الديوان وتقع في إثنتى عشرة صفحة يبين فيها سبب إقباله على إنجاز هذا

---

(١) المرجع السابق (المقدمة)، ص ٥٢.
(٢) المرجع السابق (المقدمة)، ص ٣ : ٢٥.
(٣) المرجع السابق، (المقدمة) ص ٢٣ : ٢٦.
(٤) المرجع السابق. (المقدمة) ص ٣٧ : ٤٠.

الديوان الذى جمعه ورتبه وضبطه وحققه ومهد وقدم له وأردفه بملحق[١].

أما عن هذا الديوان فيقول الجامع والمحقق[٢] وقمت بتقسيم هذا الديوان "بساتين الغفران" إلى :

أولا: القصائد.

ثانيا: المراثى والقطع.

ثالثا: الرباعيات.

رابعا: الأفراد.

خامسا : أشعار عربية ضمن منظومات أردية أو فارسية.

سادسا: أشعار عربية تتخللها كلمات أو حروف أعجمية.

سابعا: التواريخ".

وبعد ذلك أردف هذا المتن بملحق يقول عنه المرتب[٣]: "ثم أردفت

هذا المتن بملحق موسوم بـــ "أثر اللغة العربية في ديوان حدائق بخشش" و يتضمن الآتى:

أولا: نماذج من أشعاره أول شطرة فيها باللغة العربية.

ثانيا: نماذج من أشعاره ثانى شطرة فيها باللغة العربية.

ثالثا: نماذج من أشعاره تتخللها عبارات باللغة العربية [ما عرف في علم البديع بالاقتباس] من آيات القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف.

رابعا: نماذج من أشعاره تتخللها عبارات باللغة العربية".

وبعد ذلك نماذج من المخطوطات وتليها قائمة بالمصادر والمراجع ثم الفهرس الذى يتضمن موضوعات الديوان.

---

(١) المرجع السابق، (المقدمة) ص ٤١ : ٥٢.

(٢) المرجع السابق، (المقدمة) ص ٤٦.

(٣) لمرجع السابق، (المقدمة) ص ٤٦.

وعلى الرغم من هذا المجهود الكبير الذى بذله المرتب من أجل إتمام هذا العمل إلا أننا نجده يشير إلى أن هناك أشعارا لشاعرنا لم يدرجها في هذا الديوان وعن السبب وراء ذلك يقول المرتب[١] "ولا بد لى أن أشير هنا إلى أن هناك بعض أشعار التبس على الأمر فيها، اهى للشيخ أحمد رضا خان أم لغيره، وهذه الأشعار توجد بين مصنفاته ومصنفات غيره فتحريا للدقة لم أقدم على إدراجها في متن هذا الديوان.. وقد وقع هذا اللبس لأن الشيخ أحمد رضا خان أوردها هو وغيره ولم يذكر أهى له أم لغيره".

كما أشار المرتب إلى أن هناك أشعارا أخرى لشاعرنا ولم يتمكن من جمعها فيقول[٢]: "وأيضا تحريا للأمانة العلمية لابد لى أن أشير إلى أن هناك بعض أشعاره لم أتمكن من جمعها على الرغم من أننى بذلت مجهودا كبيرا في البحث عنها بعديد من المكتبات الخاصة والعامة بمدينة لاهور، وقمت بمراسلة العديد من العلماء الأفاضل من أجل السؤال عن إمكانية وجودها - من أمثال ذلك ما أشار إليه مولانا محمود أحمد القادرى في تأليفه "أحد عشر بيتا للإمام أحمد رضا" على المنظومة التى نظمها الشيخ أحمد رضا خان في الرد على المرزا غلام أحمد القاديانى، فقمت بالبحث عن هذه القصيدة ولكن دون جدوى ولو وفقت في المستقبل القريب بإذن الله تعالى في العثور عليها وعلى غيرها من أشعار شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان أقوم بإضافتها لهذا الديوان في طبعته الثانية.

هكذا يتجلى أمامنا أن مرتب بساتين الغفران قام بهذا العمل في مدينة لاهور بجمهورية باكستان الإسلامية وهذا يبين لنا مدى ما تحتويه المكتبات الباكستانية - خاصة مكتبة الجامعة النظامية الرضوية - على أكثر مؤلفات ومخطوطات الشيخ أحمد رضا خان على الرغم من أن مسقط رأسه مدينة بريلى - بالهند الآن - كما

---

(١) المرجع السابق، (المقدمة) ص ٤٣.

(٢) المرجع السابق، (المقدمة) ص ٤٤.

يتجلى لنا أن هذا العمل الكبير قد بذل فيه مجهود مشكور وقد تمنى عديد من العلماء والأدباء إنجاز هذا العمل منذ رحيل شاعرنا وحتى العام الخامس والتسعين من القرن العشرين الميلادى، إلى أن تم إصداره تحت رعاية مجمع بحوث الإمام أحمد رضا خان بمدينة كراتشى، ورضا دار الإشاعة بمدينة لاهور بجمهورية باكستان الإسلامية. وأكاديمية رضا ستاك بورت بإنجلترا.

هذا ولم أكتف بإحصاء غيرى أبيات هذا الديوان، وذلك لأن غيرى نظر فأحصى فأما نظرنا فقد حاولنا أن نلقيه إلى الديوان لننظر ما فيه إحصاء ومعنى وفكرا وعاطفة، وأغراضه المتعددة سواء كانت هذه الأغراض محل عناية من الشاعر أو ألم بها إلماما خفيفا، وهاك أيها القارئ الفاضل الإحصاء بعد نظرتنا. فقد وجدت الديوان مشتملا على ثلاث قصائد طويلة، وغير ذلك من المقطوعات والرباعيات والأفراد، والقصيدة عنده تمثل الوحدة الموضوعية، يعنى لها بداية ولها نهاية، وما بين ذلك حاول شاعرنا أن يتحدث عن الموضوع الذى أراده، فالقصيدة الأولى عبارة عن إثنين وسبعين بيتا من صفحة ثمانية وخمسين إلى صفحة تسعة وستين - ومطلع هذه القصيدة كالآتى:

الحمد للمتوحد	بجلاله المتفرد
وصلاة مولانا على	خير الانام محمد

وتنتهى هذه القصيدة بالصلاة والسلام على خير الأنام، وقد حاول شاعرنا أن يسجل اسمه في نهاية القصيدة دون ملل ولا تكلف فقال سائلا ربه:

وادم صلاتك والسلا	م على الحبيب الاجود
واجعل بها احمد رضا	عبدا بحرز السيد

أما القصيدة الثانية فتتمثل في مائة وثلاثة وأربعين بيتا - من صفحة إثنين وسبعين إلى صفحة ثمانية وثمانين - تستهل هذه القصيدة بالغزل حيث يقول شاعرنا:

رن الحمام على شجون البـــان ــــــ ياما اميلح ذكر بيض البـــان

تبكى دما وتقول فى اسـجاعها ــــــ الله يضحك سن من ابكـــانى

أما نهاية هذه القصيدة فهى أيضا بالصلاة و السلام على خير الأنام وذلك بعـد انتقاله من الغرض لآخر يقول شاعرنا:

صلى عليك الله يا فرد العلـــى ــــــ ما اطرب الورقاء بالالحـــــان

صلى عليك الله يامولاى مـــا ــــــ رن الحمام على شجون البـان

أما القصيدة الثالثة التى سماها شاعرنا بـــ "آمال الأبرار وآلام الأشرار" فقـد نظمها في الرد على بعض الأفكار السائدة المعاصرة له، وتقع هذه القصيدة في مائة وأربعة وسبعين بيتا – من صفحة مائة وستة عشـــر إلـــى صفحـــة مائـــة وســـتة وعشرين. تستهل هذه القصيدة بذم الدنيا حيث يقول شاعرنا في مطلع القصيدة:

هـــى الدنيـــا تبيـــد ولا تفيـــد ــــــ فاف لمن يريد ومـــن يـــرود

نفـــوس الجـــهل تائقـــة إليـــها ــــــ فملتمـــس واخـــر مســـــتزيد

انتقل شاعرنا في هذه القصيدة أيضا من غرض لآخر، وقد تنـــاول الغـــرض الذى صاغ لأجله هذه القصيدة، وهو الرد على بعض الأفكار السائدة المعاصرة له. وقال في نهايتها:

سليمان الصلاح هناك اشـــرف ــــــ وصاحب ندوة الجهلا فســـــيد

لاحظت أن القصيدة الأولى في المدح من بحر الكامل المجزوء، والثانية أيضا في المدح من بحر الكامل التام، أما الثالثة فهى من بحر الوافر وهى في الرد علـــى بعض المعاصرين له من أصحاب الأفكار الزائغة – كما رآهم شاعرنا الشيخ أحمـد رضا خان – فبدأ شاعرنا قصيدته الأولى بالحمد لله تعالى، والثانية بالغزل، والثالثـة بذم الدنيا، فهذه القصائد الثلاثة متنوعة المقدمات، وهذا ما يدل على القدرة الفائقـــة عند الشاعر وتنوع النفس عنده، وهو في نظره قيمة واحدة بدليل أنه نظم القصـــائد الثلاثة وحاول أن يتجنب الملل ويستعرض قوته الشعرية، ولا شك أنه بين المقدمات الثلاث رابطة نفسية، فإنه يحمد ربه في الأولى ثم مروحا عن نفسه بـــالغزل فـــي الثانية، ثم متبرما من الدنيا ومن فيها من أصحاب الأفكار الزائعة، لذلك أقدم علـــى

ذمها في القصيدة الثالثة، فكأنه يريد أن يقول: "إن الغزل ليس قصدي وإنما القصد الشعر الذى يروح عن النفس ويذهب بعض ما فيها فلجأ إلى حيث الطرب، ألا وهو مجال الغزل، وفي هذا يقول[١]:

"مالى وللغزل المهيج فلا اكـن	غزلا ولم ار مرتـع الغـزلان
مالى وللاهوا إلى مهوى الـهوى	افلي غناء فـى غنـاء غـوان
مـا كـان هـذا ديدنـى لكنـه	تشـبيت شـعر لادد الشـبان
إذ ما ددمنـى ولا انـا مـن دد	إذ جئت امدح رحْلـة لاوانـى"

فهذه المقدمات الثلاثة بينهن ارتباط نفسى، هذا وأرى أن هناك ارتباطا بين هذه القصائد الثلاثة من جهة أخرى فإنه صاغ القصيدة الأولى والثانية في مدح مولانا فضل الرسول البدايونى، أما القصيدة الثالثة فنظمها في الرد على بعض الأفكار الزائغة المعاصرة له، ولكنه في نظرى مدح للشريعة لأنه يدافع عنها، ويرد عنها كيد الكائدين ويقاوم الأغلاط التى يحاول البعض أن ينسبها لها.

هذا والمقطوعات تتمثل في إحدى وأربعين مقطوعة بما فيها الكبيرة والصغيرة حجما في الأغراض الشعرية المختلفة من المدح والرثاء والهجاء والتاريخ، أما عدد الرباعيات فهو لا يتجاوز خمسا، أما الأفراد من الأبيات فهى ثلاثون بيتا، والمجموع يساوى سبعمائة وإثنين وتسعين بيتا، والناظر إلى هذا الإحصاء يجد أنه أقل مما ذكره بعضهم، وهذا خير من إحصاء يفيد الكثرة ولكنه لم يصل إلينا، وحتى يزداد هذا الإحصاء ننتظر العثور على غير ذلك من الشعر العربى، ونحن في ذلك متأسون بما قاله محقق الديوان، على أننى سوف أجتهد بنفس الاهتمام الذى يحاوله الأستاذ حازم محمد أحمد، فإن صح لى شعر وتحقق أمام عينى نسبته الصحيحة وإلى شاعرنا لعله يكون نصيبا جديدا من بحث يساعدنى على نشر ما لم تصل إليه أيدينا من شعر الشيخ أحمد رضا خان باللغة العربية.

---

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان، ص ٧٤.

الفصل الأول

المديح

وقوامه تمهيد ومبحثان

تمهيد: في التعريف بفن المدح وعلى رأسه المديح النبوي الشريف

المبحث الأول: جهود شاعرنا في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم.

الفصل الثاني: جهود شاعرنا في مدح الأولياء الصالحين وعلماء الدين.

تمهيد

فى التعريف بفن المدح والمديح النبوى الشريف

فن المدح أحد الأغراض الأساسية في الشعر العربى لأن المديح إظهار لإحساس إنسانى، والعرب أمة استطاعت أن تسجل إحساسها الإنسانى ومن بينها المديح، وقد أبدع الشعراء في هذا الفن على مر العصور من العصر الجاهلى إلى عصرنا الراهن، ويعد هذا الفن من الأهمية بمكان في الأدب العربـى. وأنا أعتقد أنه لو سجل التاريخ لشيىء قبل العصر الجاهلى قبل انضباط الشعر بهذه الطريقة التى عرض لها خليل بن أحمد لوجدنا من بين هذا الشعر الذى لم يسجل والذى لم يكن طبق القواعد العروضية شعرا يشتمل على هذا الفن لأنه كما قلنا فن لإبراز الإحساس الإنسانى في وقت معين.

إن معظم الممدوحين الذين ذكرهم الشعراء كانوا من الملوك والأغنياء والعظماء والشجعان والأصدقاء، وكان الهدف من مدحهم تخليدا وتسجيلا لعظمتهم وإنسانيتهم، واعترافا بما لهؤلاء من فضل على وطنهم وعلى الإنسانية جمعاء، كما أنشد الشعراء هذه المدائح بدافع من الحب الغامر والإعجاب الصادق، ومازال شعر المدح يعبر عن صدق العاطفة ولكنه افتقد مكانته عند بعض الشعراء الذين نظموا في هذا الفن بهدف التكسب، فحولوا شعر المدح إلى البقرة الحلوب الثرارة بكرم وسخاء.

يقول الأستاذ نجيب عقيقى في هذا الصدد[١]: "مازال يخصب المدح وينمو في العصور العباسية متوكئا على معانى الأقدمين، مفيدا من ترجمات المحدثين، متلونا

(١) من الأدب المقارن، لنجيب عقيقى (دون ذكر الطابع وسنة الطبع)، ص ١٣٩ : ١٤١.

بألوان الحضارة الطريفة، ولكنه يفقد في معظمه ذلك الإخلاص الذى كان الباعث على مدح الأوائل للكرام والأقوياء والشجعان بعد أن اصبح أكثره أداة تكسب... فبشار الذى ركز مدحه على أصل واحد في طبعه وهو التكسب، لا تستهويه مناقب الممدوح ولا تستخفيه عطاياه إلا على قدر يوفق إلى الكثير من المعانى الفريدة... وكان أبو تمام يتكسب بالمدح كالكثير من الشعراء ولكن بإباء يحفظ عليه كرامته... ومعظم ديوان البحترى في المدح، فقد كان محبا للمال مدركا لكثير من الخلفاء".

هذا وقد عاش شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان في عصر بلغ الشعر الأردى قمته وكان شعراء الأردية - من المعاصرين له - يترددون على بلاط الأمراء والحكام فينشدون القصائد في مدحهم، وأصبح أكثرهم كالموظفين في القصور فكان نتيجة هذا أن نالوا كل ما كانوا يتطلعون إليه من رغد العيش وجمع المال، وإذا كان شعر المدح قد أصبح حرفة عند كثير من الشعراء إلا أن شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان لم يكن من هؤلاء المداحين الذين جعلوا شعر المديح حرفة للتكسب، والذين كانوا يحملون قصائدهم إلى أبواب الوجهاء والأمراء فيؤذن لهم بالوقوف بين أيدى هؤلاء، فلم ينظم شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان بيتا واحدا في مدح الملوك والأمراء، ويتجلى لنا هذا في عدم وجود أى قصيدة لا في الأردية ولا الفارسية ولا العربية في مدح الأمراء والحكام بهدف جمع المال، فكان المدح عند شاعرنا نتيجة لإحساسه بالرضا عن ممدوحه فكان يرضى بالرضى الخلقى، ولم يكن المدح لديه من أخذه مالا أو عطية أو إنعامات معينة، وأنا أراه أن نفسه أرفع من أن تتدنى للتكسب بشعره ولو كان في حاجة إلى المال، فقد اشتهر عنه اعتزازه بنفسه، واستقامته، وغيرته الدينية، وعزة نفسه، كما كانت له منزلة كبيرة في نفوس الناس، ولعله كان لانتمائه إلى أسرة غنية بالثروة الدينية والمالية أثر كبير بالإضافة إلى ما ذكرنا - في زهده عن طلب ما في يد الآخرين - ومعروف أنه شب على رغد من العيش حيث كان آباؤه يملكون الأراضى الزراعية الشاسعة، وكان قد ورث عن أبيه ميراثه من الأراضى الزراعية وغيرها من الأموال، والعقارات - كما ذكرنا

سابقا - وأنا أرى أنه لو لم يكن منتميا لهذه الأسرة الواسعة الثراء لكان قد ترفع أيضا بنفسه عن أن يطلب المال بشعره، لأن الرجل أنفق الشعر في مدح سيد الخلق، أى أنه مدح من هو أهل لذلك المدح وهذا هو الذى حال دون المديح للأمراء والملوك.

إن شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان لم يقبل أى هدية من الأمراء المسلمين، ولم يسع هو ولا أحد من أسرته للحصول على أى لقب من الإنجليز كلقب "السير" [أى السيد] و"خان بهادور" [أى الرجل الشجاع] و"شمس العلماء" كما كان عليه حال كثير من معاصريه المتلهفين على هذه الألقاب[١] فكان شاعرنا زاهدا في هذه الألقاب كما كان معتزا بكرامته وكرامة آبائه الغيورين، والسبب الأكبر بالطبع في عدم إقباله على مطامع الدنيا ومدح الأمراء هو حبه الشديد لسيد المرسلين الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - الذى فاق كل حد فهام به عما سواه، فقد أغناه المديح النبوى الشريف عن مدح الملوك والأمراء، وتبدو رقة المتصوفة وتفانيهم في حب الرسول - صلى الله عليه وسلم - في منظوماته التى نظمها في المديح النبوى الشريف باللغات العربية والفارسية والأردية.

ومما يجدر بالتنويه أن بعض الناس طلبوا من شاعرنا أن ينظم قصيدة في مدح الملك بأمارة "نان باره" حتى يكرمه الملك بعطاياه السخية فأصيب شاعرنا بصدمة نفسية لهذا العرض الرخيص الذى لم يكن يتوقعه من أحد، ولم يغضب منهم فأجابهم باسلوب يدل على صفاء باطنه وعفة لسانه، ولم يظهر مدى تألمه نفسيا بل أنشد على الفور قصيدة في مدح حبيبه وحبيب المسلمين جميعا سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - ليبين فيمن يكون المدح، حيث قال بالأردية في مطلع القصيدة ما ترجمته: إن جمال سيدنا ومولانا محمد - صلى الله عليه وسلم - في أكمل صورة ولا تشوبه شائبة من النقص، فهذا هو الورد إلا أنه بدون أشواك، وهذا هو الشمع

(١) إن الانجليز لقب بعض العلماء بهذه الألقاب اعترافا بعلمهم وإن شئت فقل: استرضاء لهم ليكون للإنجليز عليهم يد، على حين كافح بعض الناس بهذه الألقاب لخدماتهم للإنجليز، وكان بعض الناس يترددون على الإنجليز حرصا في هذه الألقاب حتى نالوا ما أرادوا. (الباحث).

إلا أنه بدون دخان[١] [رغم إضاءة الجو] وجاء في مقطع القصيدة ما يدل على شغفه في النظم في الحب النبوى الشريف، ونفوره عن مدح الملوك و الأمراء يقول شاعرنا ما ترجمته: أنا صعلوك أكرم البشر – صلى الله عليه وسلم – فهل ينتظر منى أحد أن أمدح ملوك الدنيا؟! فليس دينى بقطعة خبز[٢] فلم يمدح شاعرنا طيلة حياته أحدا من الملوك و الأمراء[٣].

بهذا الاسلوب بين شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان موقفه من مدح أهل الدنيا، وليس معنى هذا أنه لم يوظف موهبته الشعرية في مدح غير النبي – صلى الله عليه وسلم – بل إنه مدح الكثيرين لله وفي الله – باللغات الثلاثة العربية و الفارسية و الأردية – وذلك نظرا لتقواهم وورعهم و انتمائهم لله تعالى ورسوله – صلى الله عليه وسلم – وتمسكهم بالشريعة الإسلامية الغراء و الإنسانية النبيلة التى جاء بها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولما كان الرسول – صلى الله عليه وسلم – على رأس هؤلاء المتقين المتسمين بسمات الإنسانية و المثل العليا ركز شاعرنا اهتمامه على المديح النبوى الشريف مقتفيا بآثار سيدنا حسان بن ثابت وكعب بن زهير و غيرهما من شعراء الصحابة و التابعين ومن و الاهم من اللاحقين، كما نراه يمدح الأولياء الصالحين وعلى رأسهم سيدنا الشيخ عبد القادر الجيلانى، ويمدح العلماء المعاصرين له على أن أبدأ بالكلام عن تقسيم الأنواع الواردة في المدح إلى خمسة أقسام، و أقوم الآن بعرض و تحليل منظوماته في هذه الأقسام، أما الظواهر الفنية و اللغوية فأذكرها في مواضعها، و أستهل هذه الأقسام بتناول جهود شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان في المديح النبوى الشريف.

---

(١) لعله في هذه الكلمات تأدب بما قاله سيدنا حسان بن ثابت – رضى الله عنه –:

و اجمل منك لم ترقط عينى ... و احسن منك لم تلد النساء

خلقت مبرا من كل عيب ... كانك قد خلقت كما تشاء

وجدت هذين البيتين تحت عنوان: "خلقت مبرءا"، وليس لهما ثالث.
ديوان حسان بن ثابت (ط: دار صادر بيروت، دون سنة الطبع). ص ١٥.

(٢) قد أشار شاعرنا "بقطعة خبز" إلى اسم الامارة، فقد قام بقلب هذا الاسم فاستخدمه في معنى قطعة خبز مع الإيحاء الى اسم الإمارة مما يدل على دقة اختياره من الكلمات في شعره.

(٣) اقبال اور علما باكــ و هند، للأستاذ إعجاز الحق القدوسى، ص ٢٠٨.
حدائق بخشش، للشيخ أحمد رضا خان، ص ٦٧.

جهده فى المديح النبوى الشريف

يعد المديح النبوى الشريف مقصدا لكثير من الشعراء الذين خاضوا هذا المضمار وقد نشأ هذا الفن بعد أن لفظ العصر الجاهلى أنفاسه الأخيرة، وكان نور الإسلام قد بدأ يبدد ظلمات الجاهلية وينقذ البشرية من الضياع بصفة عامة والأمة العربية بصفة خاصة لأنهم أول من سعدوا بتلقى هذا النور، وذلك بالبعثة المحمدية - على صاحبها الصلاة والسلام - وأخذ النبى - صلى الله عليه وسلم - يدعوا الناس إلى الأسس العادلة، والقيم الأخلاقية، والإنسانية السامية، والمساواة، بإعادة صلتهم بربهم، وإقلاعهم عن عبادة الأوثان، وإخراجهم من مخالب تقاليد العصر الجاهلى، فلم تطب هذه الدعوة - في بداية الأمر - قلوب رؤساء القبائل العربية الذين كانوا قد استعبدوا الناس، وانقسم الناس أمام هذه الدعوة السمحة إلى قسمين، فقد رفضها المستبدون الاستغلاليون وهالهم أمر هذه الدعوة، وأذهلهم خطرها عليهم، لأنهم أحسوا بأن سيادتهم وسيطرتهم الغاشمة على الناس مهددة بالضياع، وعلى صعيد آخر أقبل المظلومون على هذه الدعوة، واستظلوا بالمبعوث رحمة للعالمين، فأخذ هؤلاء القساة يفكرون ويدبرون خططا لهدم هذه الدعوة سالكين مسلك الترغيب حينا والترهيب حينا آخر، ولم يكتفوا بهذا القدر من المخالفة بل تجاوزوا حدود الأخلاق والإنسانية، وذلك بإيذاء النبى - صلى الله عليه وسلم - وأتباعه، كما شجعوا الشعراء المشركين على تجريح مشاعر المسلمين بإنشاد هجائهم وهجاء من هو أعز عليهم من أنفسهم وأموالهم، ولما اشتدت هجماتهم اللسانية على الإسلام قام الشعراء المسلمون للدفاع عن النبى - صلى الله عليه وسلم- وبيان بعض ما هو متصف به من نبل خلق، وعظمة إنسانية، وكمال

بشرى ليس عليه أحد من الناس، وإظهار بعض أغراض الإسلام العليـــا، ومبادئـــه السامية، والتي يجب أن يتحلى بها كل عاقل ويستمسك بها ذو النفوس السامية، فأتوا بقصائد في قمة الفصاحة والبلاغة، تتسم بالأحاسيس الصادقة وبالطبع لم تدفعهم إلى نظمها الرغبة في التكسب بالشعر بل كانوا مندفعين إليها لحبهم الغامر وإعجابـــــهم الصادق بمن هداهم إلى الإيمان، وبين لهم طريق السعادة في الدارين فكـــان أعـــز عليهم من ملوك الدنيا وأمرائها.

يقول الدكتور محمود علي مكي(١) في هذا الصدد(٢) هاجر الرسول - صلـــى الله عليه وسلم - إلى يثرب بعد أن ظل في مكة المكرمة ثلاث عشرة سنة يدعــــو إلى الدين الجديد فيلاقي هو وأصحابه من تعنت قريش وعنادهم بلاء كبيرا وكـــانت هجرته إلى يثرب التي أصبحت تسمى بالمدينة المنورة مفتتح طور جديد في تـــاريخ الإسلام، إذ التف حوله أهلها، ولم يمض وقت قليل حتى اعتنق معظم أهلها الإســـلام في صدق وإخلاص، على أن المعركة ظلت حامية الوطيس بين المسلمين من جهـــة وقريش ومن والاهم من العرب من جهة أخرى، وكان الشعر من أمضى الأســـلحة في هذه المعركة [ولا شك فالكل عرب وللشعر في حياة العرب ماله مـــــن قيمـــة عظمى، فهو السجل الحافل بكل ما مرّ على العرب في جاهليتهم، وبالتالي ســـــوف يتبوأ مكانة عليا في الدفاع والمناهضة بالنسبة لهذا الدين الجديد الذى ملـــــك علـــى البعض عقولهم وقلوبهم وهم أولئك المهتدون، على حين أن أعــــداءه تصـــدوا لـــه بالكلمة كما تصدوا له بالسلاح ولكن جرح السنان قد يندمل أما جرح اللسان فسوف يبقى دون علاج إلا أن يتصدى لعلاجه لسان آخر، من هنا كانت أهمية الشعر فـــي الحديث عن الإسلام خلقا ومبادئ ومبعوثا به - صلى الله عليـــه وســـلم - وهـــواة

(١) أستاذ الأدب الأندلسي، كلية الآداب جامعة عين شمس، القاهرة.
(٢) المدائح النبوية، للدكتور محمود علي مكي، (ط: الشركة المصرية العالميـــة للنشـــر، لونجمـــان، القاهرة. ١٩٩١م)، ص ١٢.

هادين ومهديين وهم صحابته - عليه الصلاة والسلام - وتابعوهم وأتباع تابعيهم وكل الهادين المهتدين إلى أن تقوم الساعة] فقد عمد شعراء قريش من المشركين إلى هجاء الرسول وأصحابه من المهاجرين ومن آواهم في المدينة من أنصار، وكان من أبرز هؤلاء الشعراء أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعبد الله بن الزبعرى، وضرار بن الخطاب الفهرى، وابو عزة الجمعي، وهبيرة بن أبي وهب المخزومي، وعمرو بن العاص السهمى، فاستأذن بعض المسلمين الرسول في أن ينتدب على بن أبى طالب للرد على هؤلاء غير أن الرسول آثر أن يضطلع شعراء الأنصار بهذه المهمة، إذ يؤثر عنه قوله: "ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم؟" فقال حسان بن ثابت: "أنا لها"[١] ومنذ هذه اللحظة أصبح حسان بن ثابت شاعر الرسول الأول وأبرز المدافعين عن الإسلام ومناقضي خصومه".

ولقد كان حظ الرسول - صلى الله عليه وسلم - من المدائح النبوية الشريفة التى أنشدت في مدحه والدفاع عنه أوفى الحظوظ بين الأنبياء والمرسلين لأن النبى - صلى الله عليه وسلم - مرسل في قوم عرب لغتهم العربية، ومعجزته الكبرى القرآن الكريم، وكان من اللازم أن يؤلف شيئا عظيما للمناهضة والدفاع عن هذا الدين ولما يكون الأمر كذلك وربنا يقول: **وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه** [٢]، وكذلك يقول ربنا: **هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم** [٣] وكان المطلوب أن يكون الرد على المخالفين من العرب بلغتهم العربية، فقام الشعراء المسلمون بالرد على الشعراء المشركين، دفاعا عن النبى - صلى الله عليه وسلم -

---

(١) أسد الغابة لمعرفة الصحابة، للإمام عز الدين على بن محمد بن الكريم الجزرى، (ط: المكتبة الإسلامية بطهران، دون الأشارة إلى عام الطبع)، جـ ٢، ص ٥٠٤.

(٢) سورة ابراهيم ٤/١٤

(٣) سورة الجمعة ٢/٦٢.

وقد سبق الشعراء المسلمين وأدباءهم ربهم - سبحانه وتعالى - بالثنـــاء عليـه صلى الله عليه وسلم - فيقول سبحانه وتعالى - مخاطبا إياه: **وإنك لعلـــى خلـق عظيم** (١) وقد رأينا المداحين لحضرة سيد المرسلين متأدبين بآداب الكتاب المبيـــن فكل نبى قامت حوله بعض القصص، وصورت شمائله بألوان صيغ أكثرهـــا مـن وحى الخيال أما النبى محمد - صلى الله عليه وسلم - فحجته الباقية هى القـــرآن وهو كتاب لم يضف إليه ولم يضع منه سطر واحد [ولا حرف واحد] بعد مـــوت ذلك الرسول فسبحان من قال عنه(٢) **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفـه تنزيـــل من حكيم حميد** (٣).

وهذا بوعد من منزله جل شأنه حيث قال: **إنا نحن نزلنا الذكـــر وإنـــا لـــه لحافظون** (٤) فكان القرآن الكريم المصدر الأساسى والينبوع النقى الذى استقى منه شعراء المديح النبوى معانيهم وأفكارهم على مر العصور، وإنهم لا يزالون يـــردون هذا المنهل العذب فتهتز وتهيم قلوب المحبين لجمال حضرة النبى - صلى الله عليه وسلم - لقراءة هذه المدائح النبوية.

تطور فن المدائح النبوية على مر العصور و بلغ مبلغا لا بأس به في عصـــر الرسول - صلى الله عليه وسلم - وما زال يتطور في كل عصر حتى يومنا هـــذا، يقول الشيخ أبو الحسن على الندوى مشيرا إلى مكانة المدائح النبوية بيـــن الفنـــون الأدبية(٥): "إن الملم بلغات العالم وآدابها وثروتـــها الأدبيـــة ومكتبتـــها الشـــعرية،

---

(١) سورة القلم ٦٨/٤.
(٢) سورة فصلت ٤١/٤٢.
(٣) انظر: المدائح النبوية. للدكتور محمود على مكى. ص ١٥.
(٤) سورة الحجر ١٥/٩..
(٥) جوانب المدائح النبوية فى المدائح النبوية الفارسية والأردية. لأبى الحسن على النـــدوى، (ط: دار الصحوة. القاهرة. ١٤٠٩هـــ)، ص ٣ : ٥.

والمشتغل بالدراسات الأدبية المقارنة يعرف أن صنف المديح النبوى (أو النبويات) ثروة أدبية معنوية من أغنى الثروات الأدبية والإنتاج الشعرى، وفيض القريحة ورشحاتها، وتوليد المعانى والانطلاق في عرصاتها، من بين لغات البشر المحفوظ تراثها، الباقية آثارها، وذلك لعمق تأثير البعثة المحمدية في العالم وفي الأجيال والنفوس البشرية، ولكون سيرة سيد الأنبياء وخاتمهم معلومة محفوظة، متداولة متناقلة على اختلاف الأزمنة والأمكنة، والأمم والبلاد، وأخيرا لا آخرا لتعلق قلوب هذه الأمة وارتباطها عقديا وعقليا، ونفسيا وعاطفيا بنبيها - صلى الله عليه وسلم - تعلقا لم يعرف في تاريخ الديانات وفي واقع الأمم لأى أمة بنبيها... وذلك شأن المدائح النبوية (او النبويات) مع ثروة المدائح البشرية وشعر المديح في تاريخ الأدب والشعر فإن الأول (المديح النبوى) يفوق شعر المديح والوصف وقصائد المدح والرثاء كما وكيفا، وقامة وقيمة، وذلك لأسباب نفسية واقعية، تحليلية طبيعية وعقلية، فإن الأول تقترن به العقيدة المتغلغلة في الأحشاء المسيطرة على الأعصاب وقوى الفكر والشعور العميق بالسعادة والتوفيق والأمل في النجاة، والمغفرة في بعض الأحيان، والزلفى عند الله، والرجاء في شفاعته - صلى الله عليه وسلم - وكل ذلك كفيل بإثارة المواهب الدفينة، وتدفق القريحة الخامدة، وإثارة المعانى، والحماس البيانى، مع رقة الشعور الإنسانى، فإن الشاعر إذا كان مدفوعا من داخل نفسه، مسوقا من إيمانه، متجردا عن الأغراض الخسيسة، والمنافع المادية، متجاوبا لقلبه وروحه غرف من بحر لا ساحل له، واقتنص نجوما كانت فوق متناول يده".

يقوم الأستاذ الدكتور محمود سالم محمد بتعريف فن المديح قائلا[١]: "لقد مدح الشعراء الرسول المختار - صلى الله عليه وسلم - بإظهار صفاته الكريمة وشمائله

(١) انظر: المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكى، للدكتور محمود سالم محمد (ط: دار الفكر المعاصر، دمشق، ١٩٩٦م)، ص ٥١، ٥٣، ٥٧.

الطيبة، ومكانته السامية، وأفعاله الميمونة، وكان حيا بينهم، ولكن مدحه - صلى الله عليه وسلم - لم ينقطع بموته، فظل الشعراء يمدحونه إلى يومنا هذا وكأنه حي يسمع ويجزى، ولم يسم هذا المديح رثاء أو ما يشابه الرثاء... فإن الشعر الذى يقال في ميت يسمى رثاء، لكنه فى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مديح، وكأن في ذلك ما دل على أنه - صلى الله عليه وسلم - موصول الحياة، لأن شريعته لازالت حية... وإن المديح النبوى في بدايته قسم من المديح العام الذى عرف في أدبنا العربى ولكنه انفرد عنه لأنه كل ما يرد في المدحة النبوية يلتزم نهجا خاصا في التأدب والسمو ولا نجده في المدائح الأخرى، وافترق المديح النبوى عن الرثاء بعد أن اتجه الشعراء نحو الإشادة بفضائله الكريمة، وشمائله العطرة، وأفعاله المباركة دون التعرض للحزن والأسى، وهما من خصائص الرثاء وبعد أن استقر في أذهان الشعراء تواصل حياة النبى المصطفى - صلى الله عليه وسلم - اتسع نطاق المديح النبوى الشريف طلبا للمغفرة والرحمة، وتحقيقا للأهداف المختلفة أرادها الشعراء من وراء تسابقهم إلى المديح النبوى".

يحدثنا الدكتور محمد علوى المالكى عن فن المديح النبوى الشريف قائلا[١]:

"توالت المدائح النبوية منذ عهد الرسالة تمجيدا للإسلام ورسوله حتى وقتنا الراهن، ومع أن المدائح النبوية الإسلامية مثل غيرها من أنواع المديح شعورا فياضا وبلاغة رائعة وفصاحة بارعة، وإبداعا فنيا، وتصويرا خياليا، إلا أنها تفتخر عليها بتأثر أصحابها بمشاهدة الجمال المحمدى والكمال النبوى، والفضل الإسلامى في رسالته وحضارته، إنها تمتاز بميزة ظاهرة واضحة لا يشاركها ولا يزاحمها فيها أى مديح على وجه الأرض إلا إذا كان تابعا لها، ومندرجا تحت لوائها، ذلك هو

---

(١) المديح النبوى بين الغلو والإنصاف، للدكتور محمد بن علوى المالكى (ط: دار وهدان للطباعة والنشر . القاهرة، دون الإشارة إلى عام الطبع)، ص ١٤٠، ١٤١.

الإخلاص المجرد والحب الصادق والعاطفة الإيمانية القلبية التى لا يدفع صاحبها هوى، ولا يسوقه غرض، ولا يصدر عن طمع لأنها توجه لله تعالى - ولرسوله الكريم - صلى الله عليه وسلم -.

إذا كان المديح النبوى الشريف نشأ منذ حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - فقد بلغ قمته في العصر المملوكى وفي هذا يقول أستاذنا الدكتور رزق مرسى أبو العباس[١]: "المدائح النبوية هى غرض نظم فيه الشعراء في عصر المماليك ولونوه بلون جديد، وضمنوه الكثير من الحكم والأمثال التى سارت مسير الشمس وجرت على الألسنة، وحلقت في سماء الروحانيات، وصورت شعور صاحبه نحو المقام الكريم، مقام الرسول - صلى الله عليه وسلم - وكل ذلك جديد لم يطرقه شاعر قبل البوصيرى المتوفى في الخامس والتسعين من القرن السابع الهجرى، باستثناء ما كان في العصر الإسلامى، وذلك الشاعر المبدع الذى برع في هذا الباب حتى استحق أن يسمى مخترع المدائح النبوية... لقد ابتكر البوصيرى في مصر هذا اللون من المدح، مديح الرسول - صلى الله عليه وسلم - استجابة لداعى نفسه المتعلقة بالرسول الأمين، وقد أحسن في شعره كل الإحسان، وأصابت الشعراء موجة التقليد، فأخذوا ينظمون في مدائح الرسول تقليدا لقصيدة البوصيرى المسماة بالبردة تقليدا استمر إلى عصرنا هذا، ولكنهم لم يأتوا منها بدليل على تأسيهم بصفات الرسول - صلى الله عليه وسلم - وشعورهم نحو مقامه الكريم إلا القليل منهم، وذلك الشعر الذى لا يدع للشاعر مجالا إلا لحشو شعره بالمحسنات البديعية فجاء صورة مشوهة لقصيدة البوصيرى.

واذا تلمسنا طريق المدح للحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - لنمسك بأول خطوة من خطواته ولنتعرف على أولى حبات ذلك العقد الثمين لوجدنا أن من أولى القصائد التى اتجهت إلى ذلك المضمار هى اللامية المنسوبة إلى أبى طالب،

---

(١) ملامح الأدب والثقافة في العصر المملوكى، للدكتور رزق مرسى أبو العباس، (ط: مصدر للخدمات العلمية للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٩٧م)، ص ١٠٦، ١٠٧.

وفي هذا يقول الدكتور محمود على مكي[١]: "لعل أول ما نعرفه من الشعر الذى قيل في مدح الرسول – صلى الله عليه وسلم – في الدور المكى من حياته هو الشعر المنسوب إلى أبى طالب عم الرسول وكافله بعد وفاة جده عبد المطلب".

ويقول الدكتور صلاح عيد عن فن المديح النبوى قبل الهجرة النبوية حيث كان هذا الفن في مرحلته الأولى[٢]: "هذه هى مرحلة الطفولة [لفن المديح النبوى] فمديح الرسول مازال في بدايته قليلا في كمه، كما أنه يرتكز على أساس بدوى في الغالب، إلى جانب تصورات اجتهادية لطبيعة الجانب الدينى للرسول، فقد مدحه شاعران لم يسلما، أولهما وأهمهما عمه أبو طالب بن عبد المطلب، وثانيهما أعشى قيس".

إذا كان الدكتور صلاح عيد قد قرر أن شعر أبى طالب في دور الطفولة بالنسبة للمديح النبوى الشريف، ولكنه على أى حال من أولى الخطوات على درب المديح، وكيف لا وصاحب الشخصية هو مصطفى الله عز وجل من خلقه، وإن كانت عاطفة أبى طالب الشعرية قليلة الانفعال، فهذا أمر آخر وهو كون هذا المديح من البذور الأولى في هذا الفن، ومن الأمر الطبعى أن تكون قليلة محدودة في نسجها وكيانها، ولم لا نقول أن الله عز وجل قد أجرى مديح الرسول – صلى الله عليه وسلم – على لسان أبى طالب ليبين لمن أراد معرفة شئ عن شخصية رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وليعرف أنه الشخصية التى حركت ألسنة الشعراء سواء آمنوا به أو لم يؤمنوا، كما كان لأبى طالب نونيته التى يبلغ بها ذروة المديح، وذلك بالنسبة لشاعر لم يؤمن بالممدوح لكن هذه القصيدة قد تضمنت شهادة حق أراد بها قائلها أن يقف بلسانه وينصر بشعره كما نصر بمكانته في قريش وذلك عندما جاءت قريش إلى أبى طالب يطالبونه بمنع الرسول – صلى الله عليه وسلم ـ

(١) المدائح النبوية، للدكتور محمود على مكى، ص ١٧.

(٢) مديح الرسول في فجر الإسلام، للدكتور صلاح عيد، (ط: دار المعرفة، القاهرة، دون سنة الطبع)، ص ٤٣.

عن نشر دعوته، وتمام القصة كما ذكرها ابن كثير فيما يلي[١] قال يونس بن بكير عن طلحة بن يحيى بن عبد الله عن موسى بن طلحة، أخبرني عقيل بن أبي طالب قال: جاءت قريش إلى أبي طالب فقالو: إن ابن أخيك هذا آذانا في نادينا ومسجدنا فانهه عنا. فقال [أبو طالب]: يا عقيل انطلق فأتني بمحمد، فانطلقت إليه فاستخرجته من كنس – أو قال خنس –يقول بيت صغير، فجاء به في الظهيرة في شدة الحر، فلما أتاهم قال: إن بني عمك هؤلاء زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم ومسجدهم، فانته عن أذاهم، فحلق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ببصره إلى السماء فقال: ((ترون هذه الشمس؟ قالوا: نعم، فقال: فما أنا بأقدر أن أدع ذلك منكم على أن تشتعلوا منه بشعلة، فقال أبو طالب: والله ما كذب ابن أخي قط فارجعوا)) رواه البخاري في التاريخ عن محمد بن العلاء عن يونس بن بكير ورواه البيهقي عن الحاكم عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار عنه به – وهذا لفظه – ثم روى البيهقي عن طريق يونس عن ابن إسحاق – حدثني يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس أنه حدث أن قريشا حين قالت لأبي طالب هذه المقالة بعث إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال له: "يا ابن أخي إن قومك قد جاؤني وقالو لي كذا وكذا فأبق علي وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر مالا أطيق أنا ولا أنت فاكفف عن قومك ما يكرهون من قولك". فظن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن قد بدا لعمه فيه، وأنه خاذله ومسلمه، وضعف عن القيام معه، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – "ياعم لو وضعت الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك في أمره" ثم استعبر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فبكى، فلما ولى قال له حين رأى ما بلغ الأمر برسول الله – صلى الله عليه وسلم– "يا ابن أخي" فأقبل عليه، فقال: "أمض على أمرك وافعل ما أحببت، فو الله لاأسلمك لشييء ابدا" قال ابن إسحاق ثم قال أبو طالب في ذلك:

---

(١) السيرة النبوية، لابن كثير الدمشقي، تحقيق صدقي جميل العطار، (ط: دار الفكر، بيروت، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م)، جـ ١، ص ٢٢٩، ٢٣٠.

"والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا
فامض لأمرك ما عليك غضاضة أبشر وقر بذاك منك عيونا
ودعوتني وعلمت أنك ناصحي فلقد صدقت وكنت قدم أمينا
وعرضت دينا قد عرفت بأنه من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذارى سبة لوجدتني سمحا بذلك مبينا"

ولما رأى أبو طالب استنكار قريش للدعوة النبوية قام بنظم ثلاثة أبيات أشاد فيها بالرسول - صلى الله عليه وسلم - ليستجلب عونهم للنبى - صلى الله عليه وسلم - وذلك بتذكيرهم نسب النبي - صلى الله عليه وسلم - ففي هذا يقول(١):

"إذ اجتمعت قريش لمفخر فعبد مناف سرها وصميمها
وإن حصلت أشراف عبد منافها ففي هاشم أشرافها وقديمها
وإن فخرت يوما فإن محمدا هو المصطفى من سرها وكريمها"

وما زال استنكار قريش يزداد يوما فيوما، وظلت دائرة الصراع تتسع بينهم من جهة وبين الرسول - صلى الله عليه وسلم - وعمه أبى طالب من جهة أخرى، وزادت شدة هذا الصراع في موسم الحج حيث قام الرسول - صلى الله عليه وسلم - بدعوة الوفود العربية للإسلام على حين بث زعماء قريش أكاذيبهم في نفوس هذه الوفود ضد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ووصفوه بأنه ساحر يفرق بين المرء وأهله مستدلين في ذلك بما حدث من انقسام قريش نتيجة الدعوة إلى الإسلام، وفي هذه الظروف "خشى أبو طالب دهماء العرب أن يركبوه مع قومه" فنظم لاميته التى تعوذ فيها بحرم مكة ومكانه منها وتودد فيها إلى أشراف قومه، فهو يخبر رؤساء قريش - الذين كانوا يريدون سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من عمه أبى طالب حتى ينتقموا منه - أنه غير مسلم ابن أخيه ويتركه إليهم أبدا،

---

(١) السيرة النبوية. لأبى محمد عبد الملك بن هشام المعافرى، (ط: دار المنار، القاهرة، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م). جـ ١، ص ٢٦٠ .

ويذكر في لاميته ما لقيه الرسول – صلى الله عليه وسلم – من عنت قريش وتكذيب سائر بطون قريش فنجده يقول[1]:

"كذبتم وبيت الله نبزى محمدا ... ولما نطاعن دونه ونناضل
ونسلمه حتى نصرع حوله ... ونذهل عن أبنائنا والحلائل
وينهض قوم فى الحديد إليكم ... نهوض الروايا تحت ذات الصلاصل
وما ترك قوم لا اباالك سيدا ... يحوط الذمار غير ذرب مواكل
وابيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يلوذ به الهلاك من آل هاشم ... فهم عنده فى رحمة فواصل"

أقدم أبو طالب في هذه الأبيات على إبراز شخصية الرسول من ناحية نسبه الزكى العالى، وقد امتدح أسرته وذكر فضائله التى منها العطف على الضعاف واليتامى والأرامل، وبعد هذه المرحلة يتقدم أبو طالب فيستعطف خصومه ويقول[2]:

"حليم رشيد عادل غير طائش ... يوالى إليها ليس عنه بغافل
فو الله لولا ان اجيئ بسبة ... تجر على اشياخنا فى المحافل
لكنا اتبعناه على كل حالة ... من الدهر جدا غير قول التهاذل
لقد علموا ان ابننا لا مكذب ... لدينا ويعنى بقول الاباطل
فأصبح فينا احمد ذو ارومة ... تقصر عنها سورة المتطاول
حدبت بنفسي دونه وحميته ... ودافعت عنه بالذرا والكلاكل
فايده رب العباد بنصره ... واظهر دينا حقه غير باطن"

في هذه الأبيات مدح أبو طالب ابن أخيه بمكارم الأخلاق ثم نفى عنه الكذب،

(1) السيرة النبوية. لابن هشام. جـ ١. ص ٢٦٢، ٢٦٣.
(2) المرجع السابق. جـ ١، ص ٢٦٨.

وأخيرا أشار إلى علاقة النبى – صلى الله عليه وسلم – بربه الذى لا يغفل عنه وكذلك أشار إلى صدقه وتأييد الله له، وهذه اللامية عبارة عن أربعة وتسعين بيتا.

ذهب ابن سلام إلى أن أبا طالب أحد أبرع شعراء مكة(١) ويقول عنه(٢): "كان أبو طالب جيد الكلام، أبرع ما قال [قصيدته اللامية] التى مدح فيها النبى" – صلى الله عليه وسلم – هذا هو أول شعراء المديح النبوى الشريف".

أقول وأما الشاعر الآخر الذى مدح النبى – صلى الله عليه وسلم – قبل هجرته إلى المدينة المنورة فهو الأعشى بن قيس، وتعد قصيدته في المدح النبوى الشريف من الأهمية بمكان، نظرا لمكانة صاحبها بين شعراء العصر الجاهلى، وإن كان الأعشى لم يتم مشواره، ولم يبلغ من المدح غايته بل قصرت همته وحالت إرادة الله دون أن يبلغ ما انتواه يقول ابن هشام في هذا الصدد(٣): إن الأعشى خرج إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقد أعد قصيدة يمدح الرسول فيها، فلما كان بمكة أو قريبا منها اعترضه أحد المشركين من قريش، وكان من طبيعتهم العمل على التنفير من الدعوة والبعد قدر الاستطاعة عن صاحبها – صلى الله عليه وسلم – قابل المشرك الأعشى وسأله عن وجهته، فلما أخبره الأعشى بحسن الوجهة وقرب العقل من النور ما كان من هذا المشرك إلا أن حاول صرفه عن هذه الوجهة حيث عز عليه أن يزداد النبي – صلى الله عليه وسلم – نصرة لا سيما إن كانت من شاعر، فطفق يقول هذا المشرك للأعشى: "إن الإسلام يحرم الزنا" فلم يبال الأعشى بذلك فلما قال له: "إنه يحرم الخمر" توقف أعشى وأزمع الانصراف لكى يرتوى من الخمر في عامه ثم يأتى الرسول في العام القابل ليسلم، ولكنه مات في هذا العام، ولم يعد إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم –.

---

(١) طبقات فحول الشعراء، لمحمد بن سلام الجمحى، تحقيق محمود محمد شاكر، (ط: مطبعة المدنى، بالقاهرة)، ص ٢٤٤.
(٢) نفس المرجع، ص ٢٣٣.
(٣) السيرة النبوية، لابن هشام، جـ ١، ص ٣٨٦-٣٨٨.

هكذا نجح المشرك القرشي في صرف الأعشى عن الإسلام رغم عدم نزول تحريم الخمر حتى ذلك الوقت، ولكنه استغل شغف الأعشى بالخمر التي كان يعشقها، وأقنعه بتأجيل اعتناقه للإسلام وربما يكون ذلك توقعا من المشرك ولعله بنى توقعه هذا على أن الإسلام دين يحارب كل ما يتدنى بالإنسان ويهبط به إلى مهاوى الرزيلة، والخمر كما يراها كل عاقل أم الخبائث، فالإسلام لا محالة متصد لها، وهذا ما جاء به في المستقبل، وفي هذا يقول الدكتور صلاح عيد[١]: "والصحيح أن الأعشى قد قصد مكة ولم يقصد يثرب" وإن كان بعض الأدباء المحدثين يرون أن ذكر مكة فيه خطأ وأن النبى - صلى الله عليه وسلم - كان قد هاجر، ولعلهم أنسو بموضوع تحريم الخمر، وإن كنت أرى أنه لا بأس إن كان الأعشى قصد النبى - صلى الله عليه وسلم - بعد الهجرة وهو في المدينة، وبالتالي حرمت الخمر وإن كانت الرواية على حقيقتها بمكة، إذن أراد المشرك أن ينفره من الدعوة وقد علم ولوعه بالخمر فأراد أن يصرفه عن الإسلام، هذا إذا كانت رواية مكة صحيحة، أما إذا كان - كما أشار إليه بعض الأدباء - أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قد هاجر بعد فيكون المشرك قد ذكر أمرا حقيقيا بتحريم الخمر، يعنى نزل هذا الحكم والنبى - صلى الله عليه وسلم - في المدينة.

تبدأ قصيدة الأعشى التى تقع في ثلاثة وعشرين بيتا بتجربة صاحبها في الحياة الذى يبدو مسهد الجفن لا من عشق النساء ولكن بسبب الزمان المتقلب الذى أفقد الخلان والمال[٢] وأرى أن هذا يدل على زهد الأعشى في حياة الدنيا ومتعها الفانية وذلك بعدما تذوق الأعشى حلاوة الثراء الناتج من عطايا الملوك والأمراء، ومع ذلك فإن عطاياهم لم تشبع رغبته الروحية وهى الاطمئنان، ولما سمع الأعشى عن نبى الإسلام ورسالته ودعوته وأتباعه وجد بغيته فسعى للتقرب منه، واعتناق الإسلام، ونجده يشير إلى ما يجيش بخاطره في مطلع القصيدة حيث يقول[٣]:

(١) مديح الرسول في فجر الإسلام، للدكتور صلاح عيد، ص ٤٩.

(٢) المرجع السباق، ص ٤٩. (٣) السيرة النبوية، لابن هشام، جـ ١، ص ٣٥٠.

ألم تغتمض عيناك ليلـــة ارمــدا | وبت كما بات السليم المســـهدا
وماذاك من عشق النساء وإنمـــا | تناسيت قبل اليوم خلة مـــهددا
ولكن ارى الدهر الذى هو خـائن | إذا صلحت كفاى عاد فافســـدا
كهولا وشـــبانا فقـدت وثـروة | فلله هذا الدهر كيـــف تـرددا
ومازلت ابغى المال مذ انا يــافع | وليدا وكهلا حين شب وامــردا

ثم نراه يكبد ناقته للوصول إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - ولا يرحمــها لتعبها بل يمنيها بما ستلقاه من راحة وكرم عند باب ابن هاشم فيقول[١]:

واليت لا ارثى لها مـــن كلالــة | ولا من وجى حتى تزور محمدا
متى ما تناخى عند باب ابن هاشم | تريحى وتلقى من فواضله يـــدا

ثم ينتقل إلى الغرض الذى صيغت لأجله القصيدة وإن كان قد مهد لذلك فمــن الممكن أن نعتبر أبيات قبل ذلك الغرض ممهدة للغرض الرئيسي، وهو مدح النبــى - صلى الله عليه وسلم - فنراه يصف النبى - صلى الله عليه وسلم - ببعد النظــر وذيوع الصيت، كما يصفه بالجود، ثم يبدى أسفه على عدم استماعه إلـــى وصايـــا النبى - صلى الله عليه وسلم - حتى ذلك الوقت فيقول في هذا الشأن[٢]:

نبى يرى ما لاتــــرون وذكـره | اغار لعمرى فى البلاد وانجـدا
له صدقات مـــــا تغـب ونـائل | وليس عطاء اليوم ما نعه غـدا
اجدك لم تسمع وصــــاة محمـد | نبى الإله حيث اوصى واشــهدا

ثم ينتقل الأعشى إلى نظم ما استمع إليه من دعوة نبى الإســـلام وإرشـــاداته، وبالطبع ما ذكره الأعشى مروى له عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وليـــس مشافهة وسماعا من فمه الشريف - صلى الله عليه وسلم - فنراه يوجز هذه التعاليم

---

(١) المرجع السابق. جـــ ١، ص ٣٥١.
(٢) المرجع السابق. جـــ ١، ص ٣٥١.

التى هى من عقائد الإسلام الأساسية، وهذا مما يوحى إلى رغبته في حياة الآخرة فيقول[1]:

إذا انت لم ترحل بزاد من التقى	ولاقيت بعد اليوم خلة مهددا
ندمت على ألا تكون كمثله	فترصد للموت الذى كان ارصدا

ففى ضوء هذا نرى أن اسلوب الأعشى في مدح رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هو نفس الاسلوب الذى كان متبعا عند أقدم الشعراء في العصر الجاهلى على مدح أى عظيم في قومه، فكأنما يسير في مدحه على الطريقة الجاهلية المألوفة، فنجده يمدح النبى -صلى الله عليه وسلم- بالمآثر والأخلاق، وذيوع الذكر، وبعد الصيت، والقوة والنفوذ في عشيرته إلى غير ذلك من المعانى التى درج شعراء الجاهلية على ترديدها في مدائحهم[2] ولم يمدحه بالطريقة التى مدحه بها شعراء المسلمين فيما بعد، وذلك راجع لأمرين إما لأن هذا النوع من المديح لم يكن قد عرف بعد، وإما لأن الأعشى لم يسلم، وبالتالى لم يكن قلبه قد تشبع بحلاوة الإسلام، ولم يعرف نور الإيمان الذى يضئ القلب ويحرك رغبته في قول الشعر منسجما بكل ما يملأه من فضائل الإيمان وضوئه وحبه للمبعوث بتلك الهداية العظمى وبالطبع من الصعب تنصل الأعشى مما درج عليه طوال حياته، فلم يكن يستطيع التغيير حتى يتم له إصلاح العقيدة، وبصلاحها يسهل تغيير النسق الشعرى حيث الوجدان والصدق في الانفعال المعروف عن العرب، وبالتالى فإن مدح الأعشى يعتبر من المدائح النبوية الأولى، فكل شئ يكون في بداية الأمر صغيرا وينمو ويتطور مع مرور الوقت، وهكذا حدث فعلا في المدائح النبوية، فإن الشعراء الذين جاؤا بعد الأعشى قاموا بتطوير هذا النوع من المديح ورقيه مع الأخذ في

(1) السيرة النبوية، لابن هشام، جـ ١، ص ٣٥١.
(2) انظر التصوف في الشعر العربى، للدكتور عبد الحكيم حسان، ص ٣٠٧.

الاعتبار تلكم الأمور النفسية التي عرضنا لذكرها في شعر أبي طالب والأعشى فوصل المديح النبوى الشريف إلى هذا الشكل الذى نراه عليه اليوم وإن كنت لا أميل إلى ما ذكره الدكتور زكى مبارك الذى لا يرى قصيدة الأعشى من المديح النبوى بشئ ونجده يقدم على إيراد الدافع من وراء قوله هذا فيقول[١]: "لأن الأعشى لم يقل هذا الشعر وهو صادق النية في مدح الرسول، وإنما كان أراد به التقرب من نبى الإسلام، وآية ذلك أنه انصرف حين صرفته قريش، ولو كان صادقا ما تحول".

لا ندرى كيف قام الدكتور زكى مبارك بقياس صدق عاطفة الأعشى من عدمه، وإن كان الدكتور زكى مبارك عبر عن صدق العاطفة بصدق النية، ولكن ما المانع من أن ينتوى الإنسان شيئا ويصدق في ذلك إقبالا وإخلاصا ثم يطرأ عليه ما يحول الإقبال إعراضا والاخلاص اتجاها إلى الناحية الأخرى، ولا أرى لذلك مانعا، فإن الأعشى - كما أراه - لم يقصد النبى - صلى الله عليه وسلم - إلا استجابة لعاطفته الصادقة وعقله المنقاد لنبى الإسلام وإلا لما قال "ندمت" وما قبله وما بعده، فنحن لم نشق عما في قلبه، وإنه لم يرغب في التقرب من الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلا ليتشرف بنور الإسلام كما هو ظاهر من أبيات قصيدته، ولم يثبت أنه قصد النبى - صلى الله عليه وسلم - رغبة في المال أو المنصب، وإن كان قد عرف الأعشى بالتكسب من وراء شعره، وقد كانت ظروف المسلمين الاقتصادية - عندئذ - ظاهرة للجميع، وإن الأعشى لم ينصرف عن النبى - صلى الله عليه وسلم - لعدم تحقيق ميوله ورغباته النوالية، بل رجع ليعود ثانيا بعد إشباع رغبته في الخمر كما ذكرت بعض الروايات، فقد وقع الرجل فريسة لخداع الكفار

---

(١) المدائح النبوية، للدكتور زكى مبارك، (ط: مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر ١٣٥٤هـ). ص ١٩.

المشركين له، وبالتالى فلا يمنعنى هذا القول من اعتبار قصيدة الأعشى في مقدمة المدائح النبوية التى قالها أصحاب العواطف الصادقة في مدح الرسول - صلى الله عليه وسلم -، ومما يؤيد رأينا هذا هو موقف ابن نباته المصرى من قصيدة الأعشى هذه وإقدامه على تسميتها نبوية واستحسانه لها فنجده يقول في هذا الصدد(١): "ومن محاسن شعره قوله في القصيدة النبوية".

ويعلم الكل أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان أزهد أهل الدنيا في الدنيا فكيف يطلب منه الأعشى عطية أو نوالا بعشره، وماذا يفيده التقرب من رجل اجتمع على معاداته في مكة بالمظاهر التى عرفت عن مشركى مكة ومواجهتهم لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم ما عرف بعد ذلك من أمر الغزوات والسرايا ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - في المدينة المنورة، ولولا فضل الله ونصرته وعونه ما نهض هذا الدين، فمن أين للأعشى بالفائدة؟ التى تعود عليه إذا رغب في التقرب من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رغبة في العطاء، اللهم إلا أنها كانت شهادة حق وأحسبه راغبا في الإسلام رغبة لم يقدر الله النجاة لصاحبها والفوز بالجنة.

وقد أنشأ كذلك كعب بن زهير لاميته الشهيرة في مدح النبى - صلى الله عليه وسلم - التى تبلغ عدد أبياتها ثمانية وخمسين بيتا، استهلها بأبيات في الغزل الحسى على غرار شعراء العصر الجاهلى حيث قال في مطلعها:

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول ... متيم إثرها لم يفد مكبول

نرى الدكتور زكى مبارك يقول في قصيدة "بانت سعاد"(٢) "إنها لم تنظم بعاطفة دينية قوية تسمو به إلى روح التصوف، إنما هى من قصائد المديح يقولها

---

(١) سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، لابن نباته المصرى (ط: دار الفكر العربى. مطبعة مدنى، القاهرة، مصر، ١٣٨٣هـ) ص ٤١٧.
(٢) المدائح النبوية، للدكتور زكى مبارك، ص ٢٠، ٢٢.

الرجل حين يرجو أو يخاف، وليست من المدائح النبوية بشئ".

القصيدة في رأى الدكتور صيغت للنجاة من القتل فقط وليست مقرونة بالعاطفة الدينية القوية، وخالية من روح التصوف، وليست من المدائح النبوية بشئ، فلا ننكر أن كعب بن زهير جاء طائعا تائبا معتذرا إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فخوفه هذا لا ينافى ما كان يكنه من حب وتقدير لنبى الإسلام قد جاءه نادما تائبا، والخوف حرك عاطفته فنجده يقول:

أنبئت أن رسول الله اوعدني والعفو عند رسول الله مامول

فلم يحضر إليه إلا معترفا برسالته ومادحا كرمه وعفوه، والقرآن الكريم الذى بعث به إلى البشرية جمعاء، وإن ما يرشدنا إلى صدق عاطفته وحبه الصادق للرسول – صلى الله عليه وسلم – هو أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – لم يكتف بقبول عذره فقط بل أكرمه ببردته على قصيدته التى نحن بصددها، حتى أنها صارت عنوانا على لاميته هذه فأصبح يقال بردة كعب بن زهير.

ولما كان مديح رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ذا تأثير حاول بعض الشعراء أن يتصدى للدعوة إمعانا وطعنا في الكيد لها، وطعنا في صاحبها – صلى الله عليه وسلم – وصحابته الأطهار، وهم بذلك يردون على عاطفة المسلمين الشعرية والتى تجلت مدافعة عن الدين بالكلمة كما دافع أصحابها بالسيف، وربما يكون هجاء المشركين هذا تنفيسا عن أنفسهم بعد هجرته – صلى الله عليه وسلم –

إلى قوم منعوه من كل يد آثمة، فأكثر شعراء المشركين في هجاء الرسول – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه من الأنصار والمهاجرين وذلك لعدم كون المسلمين في متناول أيديهم الظالمة، وكانوا في حياتهم المكية هدف مظالم المشركين المتمردين، وفي حياتهم المدنية موضع سهام شعرهم، فانبرى الشعراء المسلون للرد عليهم، وقد تفضل الدكتور محمود على مكى بإحصاء الهجائين من المشركين متبعا ذلك بأسماء

من ردوا عليهم وتصدوا لهم وهاك ما قاله الدكتور محمود على مكى في ذلك[١]: "ثلاثة من جلة الأنصار بذلوا أنفسهم للدفاع عن الإسلام والمنافحة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والرد بسلاح الشعر على مشركى قريش، أولهم وأشعرهم في نظر القدماء وأكثرهم شعرا هو حسان بن ثابت، أما الإثنان الباقيان فهما كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة، وقد مدح الرسول شعراء آخرون [من المهاجرين] ويحسن بنا أن نشير إلى بعضهم... فمن هؤلاء أبو قيس بن صرمة بن أبى أنس، وكعب بن زهير، وعبد الله بن الزبعرى، وأبو سفيان بن الحارث، وأنس بن زنيم الديلمى، إن كل هذه المدائح تعد نواة لفن المديح حينما تحول إلى غرض مستقل من أغراض الشعر على أن بعضهم كان قد تعرض بشعره لهجاء الرسول - صلى الله عليه وسلم - وصحابته، وبالطبع كان ذلك قبل إيمانهم".

وما تعدد الشعراء الذين عرضوا لفن المديح وسلكوا خطواته الأولى من مهاجرين وأنصار إلا أن الريادة كانت من نصيب سيدنا حسان بن ثابت شاعر الرسول - صلى الله عليه وسلم - فقد فاق الجميع، ولعله أراد أن يعوض بالسلاح بما نسج لسانه من شعر ورأى في القصيدة العربية التى تدافع عن الدين ومن جاء به ومن آمن، السيف الذى يهز رقاب أعداء الإسلام وبالطبع لم يكن شعر حسان محل تأثير في غيره في هذا العصر فحسب وإنما تعدى ذلك العصر بتأثيره حتى بلغ عصرنا الحديث، أقول هذا لأن شاعرنا موضوع بحثنا الشيخ أحمد رضا خان أفتتن أيما افتتان بحسان بن ثابت - رضى الله عنه -، وقد صرح بذلك في موطن غير عربى حيث قال[٢]: "تكفينى اللوعة والدمعة زادا، وآهات القلب المشجون حاديا، وإذا احتجت إلى مساعدة في مدح الهادى [صلى الله عليه وسلم] استرشد

---

(١) المدائح النبوية، للدكتور محمد على مكى، ص ٢٧، ٣٥، ٣٦.

(٢) حدائق بخشش، للشيخ أحمد رضا خان، جـ ٢، ص ١٧٥.
ونص هذين البيتين باللغة الأردية كالتالى:

توشه ميں غم واشک كا سامان بس هے — فغان دل زار حديخوان بس هے
رهبركى ره نعت ميں گرحاجت هو — نقش قدم حضرت حسان بس هے

بآثار قدم سيدنا حسان" لعله اكتفى بهذه الإشارة اجتنابا عن التكرار، وبالتالي فقد تأثر به شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان في شعره العربى أيضا، نعم كان حسان بن ثابت النموذج والمثل الأعلى للشعراء الذين نظموا بعده في المديح النبوى في شتى العصور على وجه البسيطة ، وكان شاعرنا سائرا على غرار من سبقه من شعراء المديح النبوى الشريف فقد أخذ على عاتقه التوجه في شعره إلى الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - يمدحه بمنظوماته الرائعة، ويتوسل به إلى الله تعالى لعله يكشف عن الأمة المسلمة الضر ويفرج الكرب.

يقول الأستاذ كوثر النيازى بعد ذكر بعض الجوانب المهمة لشخصية الشيخ أحمد رضا خان[١]: "الشعر مجال آخر والمديح النبوى أصعب أنواع الشعر من الغزل وغيرها من الأنواع الشعرية يزل فيه الإنسان بدون شعور الخطورة، وبدون التزام صور الأدب والحزم فيضع الشاعر قدمه على جسر الصراط، حيث هناك محبة في جانب والشريعة في جانب آخر... فالحق أن مراعاة الشريعة مجردة من مشاعر المحبة لا تبقى الشعر شعرا، كما أن مراعاة المحبة فقط قد تسبب انحرافا عن الشريعة وانزلاقا، فالأمر في الحقيقة صعب جدا... ولقد كان الشيخ أحمد رضا خان يحس هذه المشكلة التى يشعر بها مادح الرسول إحساسا صادقا".

ويقول مولانا محمد أحمد المصباحى عن شعر الشيخ أحمد رضا خان[٢]: "يمتاز شعره بالطابع الإسلامى والفكر الدينى، وتتجلى فيه الروعة الأدبية والبراعة الفنية، ويتقوى بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية وأقوال الأئمة، وإلى جانب ذلك فكره القويم وذوقه السليم، وكل ذلك يعجب الأسماع، وينشط الأذهان وينير الأفكار، ويهز المشاعر، ويرهف العواطف، وأكثر شعره [باللغة العربية والفارسية والأردية] في المديح النبوى وليس ذلك إلا لعميق صلته بالنبى - صلى الله عليه

---

(١) الإمام أحمد رضا خان الحنفى وشخصيته الموسوعية، للأستاذ كوثر النيازى، ص ٢٣-٢٤.

(٢) بحث مستخرج من مجلة الدراسات الإسلامية الصادرة في شهر مارس ١٩٨٤م، (ط: مجمع البحوث الإسلامية بالجامعة الإسلامية بإسلام اباد باكستان)، ص ٣٧.

وسلم – وتمكن حبه من سويداء قلبه، فكان لا يكاد يمسك ما في قلبه من عواطف الحب ودواعى التعظيم والإجلال، فتشكل صورة الشعر، ومع ذلك لا يتضمن أى بيت غلوا ولا تقصيرا، ولا أى لفظ مما لا يحسن استعماله في حضرة النبى الكريم – عليه أفضل الصلاة وأكرم التسليم –.

لم يكن هدف شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان من نظمه لشعر المديح حصول مال أو أى مطمع دنيوى كالحصول على مكانة اجتماعية، أو السعى من أجل الحصول على المنصب العالى، أو الوظيفة الحكومية؛ بل كان نظمه لغرض تكسب محمود الذى لا يذم صاحبه، وهو أن يحظى بمكانة أخروية عند الله – تعالى – ورسوله – صلى الله عليه وسلم – وهو المكسب المرغوب في الحصول عليه، وكان كل ذلك استجابة لعاطفته المشبوبة، شأنه في ذلك شأن الشعراء الذين ليس لهم أى هدف غير ما ذكرناه، فقد ترفعوا عن التكسب المادى بنظم المدائح للملوك والرؤساء وفي هذا يقول الدكتور زكى مبارك[١]: "إن أدباء الصوفية هم الذين رحموا تاريخ الأدب العربى من تلك الوصمة؛ وصمة التزلف بالمديح إلى الملوك والأمراء والوزراء، هم الذين استطاعوا أن يكدروا الحياة على المتحكمين والمسيطرين، فكان الخلفاء والملوك يحسبون لهم ألف حساب، وكان من الخلفاء من يزهد في الحج حتى لا يتعرض له بعض الواعظين... وأدباء الصوفية هم الذين جعلوا السلامة من باب السلطان كالسلامة من باب الطبيب، فكانت عندهم سلامة الأرواح فوق سلامة الأبدان، أدباء الصوفية هم الذين عطروا الأدب العربى بأريج الكرامة، والعزة، والصيانة والعفاف، وهم الذين وصلوا المشرق بالمغرب وحفظوا الإسلام بإذاعة المعانى الروحية والذوقية، وهم الذين جعلوا الأدب ترجمان المنطق والعقل، ولم يقفوا على الحس والخيال كما صنع أكثر الأدباء في عصر بنى العباس".

(١) التصوف الإسلامى في الأدب والأخلاق، للدكتور زكى مبارك، (ط: دار الكتاب العربى بمصر، ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م)، جـ ١، ص ٣٩٢، ٣٩٣، أصل هذا الكتاب رسالة قدمها المؤلف إلى الجامعة المصرية [جامعة القاهرة حاليا] فى سنة ١٩٣٧م ونال به إجازة الدكتوراه في الفلسفة برتبة الشرف، كما هو مذكور في غلاف الكتاب.

المبحث الأول

جهوده فى المديح النبوى الشريف

قام شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان بمدح النبى - صلى الله عليه وسلم - كما يتجلى لنا في مواضع كثيرة من ديوانه بساتين الغفران، وذلك في مقدمات أو ثنايا أو خواتيم القصائد، وبعضها مقطوعات، وجملة ما قاله في هذا الغرض في الديوان الذى نحن بصدده تسعة وثلاثون بيتا، لقد مدح النبى - صلى الله عليه وسلم - في الأبيات من البيت رقم سبعة وستين إلى البيت رقم إثنين وسبعين من نهاية القصيدة التى صاغها في مدح مولانا فضل الرسول البدايونى[1]: "فقد استهل هذه القصيدة بالحمد لله تعالى وختمها بمدح الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيقول هائما في حب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - [2]:

(١) هو مولانا فضل الرسول بن مولانا عبد المجيد العثمانى البدايونى، أحد فقهاء الحنفية، ولد في شهر صفر سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف، وقرأ العلم على جده ثم سافر إلى لكنوء ودرس على نور بن أنوار اللكنوى، ثم تعلم الطب على الحكيم بير على الموهاني ببلدة دهولفور وأقام بها زمانا، ثم طلبه والده إلى بدايون وأقام بها مدة من الزمن، ثم سافر إلى بنارس واشتغل بالتطبيب مدة طويلة، ثم رجع إلى بلدته وأخذ الطريقة عن أبيه، وسافر إلى الحجاز وأدى فريضة الحج سنة ١٢٥٦هـ وأخذ عن الشيخ عبد الله سراج المكى والشيخ عابد السندى المدنى ورجع إلى الهند وأقام بها مدة، وعاد إلى الحجاز وأدى فريضة الحج مرة ثانية وزار بغداد وأخذ الطريقة عن السيد على نقيب الأشراف بها، ثم عاد الى الهند فحصل له القبول بحيدر أباد... ومن مؤلفاته المعتقد المنتقد، والبوارق المحمدية، وتصحيح المسائل، وسيف الجبار، وفوز مبين. وتلخيص الحق، وإحقاق الحق، وله كتب وشروح وتعليقات أخرى، توفى لثلاث ليال خلون من جمادى الأخرة سنة تسع وثمانين ومائتين وألف للهجرة، وله من العمر سبع وسبعون سنة.
انظر: علماء العرب في شبه القارة الهندية، للشيخ يونس الشيخ ابراهيم السامرائى، (ط: وزارة الأوقاف والشئون الدينية بالعراق، دون سنة الطبع)، ص ٢٦٢-٢٦٣.
وانظر: تذكرة علماء أهل سنت، لمولانا محمود احمد القادرى، ص ١٣٥، ١٣٦.
وانظر: نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، للسيد عبد الحى اللكنوى، جـ ٧، ص ٣٨٦.

(٢) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان، ص ٦٩.

"هـذا وصلـى ربنـا	بتكـرر وتمجـد
دوما على من يوصف	بمحمـد وبـاحمد
والال والاصحاب هـم	ماوای عنـد شـدائد
ما غرد الورقا علـى	بـان كخـير مغـرد
وادم صلاتك والسـلا	م على الحبيب الاجـود
واجعل بها احمد رضـا	عبدا بحـرز السـيد"

إن شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان بعد ما صلى على النبي - صلى الله عليه وسلم - وعلى آله وأصحابه - رضوان الله عليهم أجمعين - يتقدم ويسأل ربه أن يجعله ببركة هذه الصلاة والسلام مثل عبد مأمون في حرز سيده، وتلوح من خلال هذه الابيات - والتى ستأتى - شبح الظروف القلقة التى كان المسلمون يواجهونها في الهند، حيث إنهم كانوا في أسوأ أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية، والسياسية، فالشيخ أحمد رضا خان يبين مشاعره الجياشة في نونيته التى تحتوى على ثلاثة وأربعين ومائتى بيت نظمها في مدح مولانا فضل الرسول البدايونى، فقد افتتحها بالغزل حيث قال في مستهل القصيدة[١]:

"رن الحمام على شجون البـان	ياما أميلح ذكـر بيـض البـان"

وقد رأيناه ينتقل من غرض إلى اخر حتى أنه في نهاية مطافه انتهى إلى الصلاة والسلام على الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - وذلك من البيت الثامن والثمانين بعد المائتين إلى البيت الثالث والتسعين بعد المائتين فيقول[٢]:

"وصلاة ربى دائمـا ابـدا علـى	خير البريـة سـيد الاكـوان
والآل والصحـب والـ	نواب والاصـهار والاختـان
صلى المجيد على الرسول وفضله	ومحبـه ومطيعـه بجنـان
صلى عليك الله يا ملـك الـورى	ما غرد القمرى فى الافنـان

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان، ص ٧٢.
(٢) المرجع السابق، ص ٨٨.

صلى عليك الله يـا فـرد العلـى ما أطرب الورقاء بالالحـان

صلـى عليـك يـامولاى مـا رن الحمام على شجون البان"

ففى هذه الأبيات يتجلى أمامنا أن شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان يـسهيم فـي العشق المحمدى ويقدم على بعض صفات الرسول - صلى الله عليه وسلم - فنراه يصف الرسول - صلى الله عليه وسلم - بملك الورى، وأعتقد أن شاعرنا لم يقصد من هذه الكلمة شخصية الملك دستوريا، المتعارف عليها في بعض الـدول، وإنما أراد أن النبى - صلى الله عليه وسلم - ملك في خلقه، نظرا لعلوه وارتفاعه، فهو في رفعته وعلو مكانته كأنه ملك للورى جميعا فلا يعلـى عليـه - صلـوات الله وسلامه عليه - وكما أن الملك فرد في مجتمعه فهو - صلى الله عليه وسلم - ملك في الخلق لا يبلغ أحد مبلغ كماله البشرى وذلك لأنه على خلق عظيم كما وصفـه ربه القائل عنه[١]: **وإنك لعلى خلق عظيم** ولم لا وقد تولى ربه تأديبه بنص قوله عليه الصلاة والسلام[٢]: "**أدبنى ربى فأحسن تأديبى**" ويذكر ربنـا - تبـارك اسمه - نعمته على النبى - صلى الله عليه وسلم - فيذكرنا بهذا الفضـل العظيـم قائلا[٣]: **وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما** ولا بأس بأن يكون شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان قد أخذ فكرة لفظة الملك معبرا عـن سـيادته - صلى الله عليه وسلم - على سائر الكون، ولا غرو فهو القائل[٤] - صلـوات الله وسـلامه عليـه - "**أنـا سـيد ولـد آدم يـوم القيامـة، وبيـدى لـواء الحمـد، ولا فخر**" فلا تعارض بين لفظ ملك الورى وبين سيادته - صلى الله عليه وسـلم - على ولد آدم.

---

(١) سورة القلم ٦٨/٤.

(٢) كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، للعلامة إسـماعيل بـن محمد العجلونى (ط: دار التراث، القاهرة، دون سنة الطبع)، ص ٧٢.

(٣) سورة النساء ٤/١١٣.

(٤) سنن الترمذى، للإمام عيسى محمد بن عيسى الترمذى (ط: مكتبة مصطفى البابى الحلبـى وأولاده بمصر، ١٣٨٥هـ)، ج ٨، ص ٥٨٧.

نرى شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان أنه اختتم قصيدته بالشطرة التى كان قد استهل بها نونيته، وأنه كان قد افتتح قصيدته بالغزل واختتمها بالصلاة والسلام على الحبيب المصطفى - صلوات الله وتسليماته عليه - وإنه مع ذلك نجح في تصوير هذه المقطوعة صياغة في القالب الغزلى مصدرا بها هذه القصيدة بلون من الغزل العفيف، حيث إنه ذكر تغريد القمرى، وإلحان الورقاء، وغناء الحمام على شجون البان، فمن خلال هذه الكلمات يبدو بوضوح هيام الرجل في حب من هو خير البرية وسيد الأكوان، وأنه أقبل على هذا العمل ليجعل القارئ يتمتع ويهتز بقراءة هذه الأبيات.

إننا نرى شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان يحذر المسلمين من الفتن المحيطة بهم، وذلك في قصيدته التى تشتمل على أربعة وسبعين ومائتى بيت وقد استهلها بذم الدنيا حيث يقول[١]:

"هى الدنيا تبيد ولا تفيد ... فأف لمن يريد ومن يرود"

ومن المعلوم أن الاستعمار البريطانى أثار الفتن المحيرة لإبقاء سيطرته على أهل شبه القارة الهندية من المسلمين وغيرهم، فنرى شاعرنا ينبه المسلمين على هذه الفتن ويرشدهم إلى اللياذة في أحضان الإسلام والتمسك به وذلك من البيت التاسع والخمسين بعد المائة إلى البيت الحادى والستين بعد المائة، فيقول[٢]:

"أمسلم عذ بوجه الله منهم ... فإن معاذة الركن الشديد

ولذ برسوله فلياذه الحق ... وعاهده من الله العهود

جوار لا يضام ولا يرام ... وركن لا يهد ولا يهيد"

شأنه في هذا شأن الإمام البوصيرى متأسيا ببعض المعانى التى وقعت للبوصيرى في ميميته من نحو قوله[٣]:

---

(١) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان، ص ١١٦.

(٢) المرجع السابق، ص ١٢٥.

(٣) بردة المديح المباركة للإمام شرف الدين محمد البوصيرى / شرح وتقديم دكتور أحمد عمر هاشم. (ط: دار المقطم قاهرة ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م)، ص ٤٩.

"يا اكرم الخلق ما لى من الوذ بـــه ... سواك عند حلول الحادث العمــم"

ثم ينتقل شاعرنا إلى الصلاة والسلام على خير الأنام فيقول[١]:

"على المولى من الأعلى صلاة ... تفيض فتستفيض بها العبيـد
على الوالى من العالى ســــلام ... يجود فيجتدى منه العبـــود
صـــلاة لا تحـــــد ولا تعـــد ... ولا تفنى وإن فنيت ابـــود
ســـلام لا يمـــن ولا يمـــــانى ... ولا يبلى متى بليت عـــهود"

ثم ينتقل إلى خطاب الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم فيقول راجيا جوده[٢]:

"رسول الله أنت لنــــا الرجـــاء ... وفضلك واسع وجـــداك جـــود
حبيب الله مــــن تقربــه حفظـــا ... فكـــل كريهـــة عنـــه بعيــــد
ومن يدرى علاك وقد علا العر ... ش قدرك والسماء سما الوصيد
وليى ثــــم أنــت بنـــا لأولـــى ... من انفســـنا ورب بــذا شـــهيد
غليمك الوحيد رجــــا رضاكـــا ... إذ انت العدل والقاضى الوحيـد"

لاحظنا في هذه الأبيات أن شاعرنا خلال مخاطبته الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - وصفه في ضوء قصة المعراج وأظهر عجز البشر عــــن إدراك علاه، وقد أسند الشيخ أحمد رضا خان إلى نفسه صيغة التصغير "غليم" ورأيناه فـــي البيت قد أشار إلى آية قرآنية حيث قال الله تبــــارك وتعـــالى[٣]: **النبـــى أولـــى بالمؤمنين من أنفسهم** .

إن شاعرنا يمدح جود النبى - صلى الله عليه وسلم - في المقطوعـــــة التـــى عارض بها منظومة أمية بن أبى الصلت، وقد قام باقتباس البيتين الأولين، ونظـــم

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان، ص ١٢٥.
(٢) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان، ص ١٢٥.
(٣) سورة الأحزاب ٦/٣٣

على منوالهما الأبيات الثلاثة وحول أبيات أمية بن أبى الصلت أيضاً إلى مدح الرسول فيقول[١]:

"أأذكر حاجتي أم قد كفاني	حياءك أن شيمتك الحياء
اذا اثنى عليك المرء يوما	كفاه من توضئك الثناء"
كريما لا يغيره صباح	عن الخلق الكريم ولا مساء
رسول الله فضلك ليس يحصى	وليس لجودك السامى انتهاء
فإن أكرمتنا دنيا وأخرى	فليس البحر ينقصه الدلاء

وعندما قام محقق ديوان بساتين الغفران بمقارنة هذه الأبيات مع ما ورد منها برسالة "عروس المعطار في زمن دعوة الإفطار" وجد أن البيت رقم ثلاثة به تبديل في بعض الألفاظ هكذا[٢]:

كريما لا تغيره ذنوب	عن الخلق الكريم ولا جفاء

إن شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان اقتبس فكرته تجاه جود النبى - صلى الله عليه وسلم - من الحديث النبوى الشريف حيث قال النبى - صلى الله عليه وسلم - "**إنما أنا قاسم والله يعطى**"[٣] وقد وردت هذه الأبيات في رسالة تحمل اسم "النور والنورق لإسفار الماء المطلق"[٤] وهو يقول بعد بيان الفوائد الفقهية[٥]:

---

(١) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١٤٨-١٤٩.
(٢) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان. ص ١٥٠.
(٣) صحيح البخارى للإمام محمد بن إسماعيل البخارى (ط: مكتبة النهضة الحديثة. ١٣٧٧هـ). ج ١. ص ٢١.
(٤) انظر الفتاوى الرضوية. للشيخ أحمد رضا خان. جـ ١. ص ٥٢٥.
(٥) بساتين الغفران للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١٥٤، ١٥٥.

"فهذه ستون بحثا فاخرا — حمدا لربي أولا وآخرا
وقد تقدمت كثير غيرها — وليس يخفى خيرها وميرها
وكل خير من عطاء المصطفى — صلى عليه الله مع من يصطفى
الله يعطي والحبيب قاسم — صلى عليه القادة الأكارم
ما نال خيرا من سواه نائل — كلا ولا يرجى لغير نائل
منه الرجا منه العطا منه المدد — في الدين والدنيا والأخرى للابد"

نظم شاعرنا من بين ما نظمه في المديح النبوى الشريف بفن يعرف بالتخميس[1] وهذه الأبيات تتعلق بالقيام عند ذكر ميلاد خير الأنام – صلى الله عليه وسلم – ولم يكن شاعرنا الفقيه سابقا في النظم الذى يشيد بفضل الحبيب بل كان تابعا للحبيب المصطفى – صلى الله عليه وسلم – إنما استحسنه علماء المسلمين قديما وحديثا[2] منهم – على سبيل المثال لا الحصر – الإمام على بن برهان الدين الحلبى إنه يقول[3]: قد وجد القيام عند ذكر اسمه – صلى الله عليه وسلم – من عالم الأمة ومقتدى الأئمة دينا وورعا الإمام تقى الدين السبكى – رحمه الله تعالى –

---

(١) التخميس هو أن يقدم الشاعر على البيت من شعر غيره ثلاثة أشطر على قافية الشطر الأول فتصير خمسة أشطر، ولذلك سمي تخميسا.
انظر ميزان الذهب في صناعة شعر العرب، للسيد أحمد الهاشمى، (ط: المكتبة التجارية الكبرى. بمصر. دون الإشارة إلى سنة الطبع)، ص ١٤٣.

(٢) للمذيد من الأدلة في هذا الموضوع انظر:
(أ) إقامة القيامة على طاعن القيام لنبى تهامة، للإمام أحمد رضا خان (ط: مكتبة قادرية. لاهور، ١٤١٩هـ).
(ب) الاحتفال بالمولد النبوى الشريف بين المويدين والمعارضين، مناقشة وردود، للسيد أبى الحسنين عبد الله الحسيني المكى الهاشمى (ط: ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م)، ص ٨٢ : ٨٨.

(٣) السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، للعلامة على بن برهان الدين الحلبى (ط: دار المعرفة. بيروت. لبنان. دون سنة الطبع)، ج ١، ص ١٣٧

وتابعه على ذلك مشايخ الإسلام في عصره، فقد حكى بعضهم أن الإمام السبكي اجتمع عنده جمع كثير من علماء عصره فأنشد منشد في مجلسه قول الصرصري(١) في مدحه – صلى الله عليه وسلم –:

قليل لمدح المصطفى الخط بالذهب	على فضة من خط أحسن من كتب
وأن ينهض الأشراف عند سماعه	قياما صفوفا أو جثيا على الركب

فعند ذلك قام الإمام السبكي وجميع من في المجلس، فحصل أنس كبير بذلك المجلس، ويكفي مثل ذلك في اقتداء".

ولما التقت هذه الرباعية(٢) بسمع شاعرنا المغرم بالإنشاد في الحبيب المصطفى – صلى الله عليه وسلم – أحدثت نغمة عذبة في سمعه، وأثارت وجدا في

(١) هو يحيى بن يوسف الأنصاري. فقيه، أديب، لغوي. كان حسان وقته في المديح النبوي الشريف، قتله التتار عند دخولهم بغداد سنة ٦٥٦هـ. وكان أعمى.
انظر: المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي. للدكتور محمود سالم محمد، ص ٣٣.
وانظر كذلك: ديوان الصرصري. ظاهرية رقم (٣٣٣٢) ورقه ١.

(٢) تبين الدكتورة إسعاد معنى الرباعية فتقول: الرباعي فن أصيل من فنون الشعر الفارسي الإسلامي. ولا يكاد ديوان من دواوينهم يخلو من هذا الضرب من النظم، وقد نقل العرب عن الفرس فن الرباعي في أزمنة متأخرة، ذلك أن هذا الضرب من النظم لم يكن معروفا بينهم في الشعر العربي القديم، ومن أجمل ما عرف من الرباعيات في العربية ما جاء في ديوان [شاعر الحب الالهي] عمر بن الفارض من النوع المعروف بالدوبيت، والرباعي من حيث الشكل عبارة عن بيتين من الشعر يشتملان على أربعة مصاريع تجرى على وزن واحد وقافية واحدة، غير أن المصراع الثالث قد يتفق مع المصاريع الثلاثة الأخرى في القافية وقد لايتفق معها. فلا يشترط في الرباعي الا تقفية المصاريع الأربعة المقفاة بالرباعي الكامل، وذو المصاريع الثلاثة المقفاة بالرباعي الأعرج. ومن حيث الوزن يختلف وزن الرباعي عن جميع أوزان العربية المعروفة، فقد تفنن الفرس في أوزان الرباعي فجعلوها على أربعة وعشرين وزنا من مستخرجات بحر الهزج. واستعملوا فيه من الزحاف ما لم يعرف في الشعر العربي القديم وجعلوا من العبارة: "لا حول ولا قوة الا بالله" ميزانا للوزن الأساسي للرباعي.
انظر: فنون الشعر الفارسي. للدكتور إسعاد عبد الهادي قنديل، (ط: دار الأندلس. بيروت، ١٤٠٢هـ). ص ١٦٧، ١٦٨.

نفسه، فأقدم شاعرنا على التعبير عما بداخله من مشاعر فياضة، وأحاسيس رقيقة، وعاطفة مشبوبة، واختار فن التخميس لإبراز إعجابه بهذه الرباعية وبالتالى إشباعا لرغبته فنجده يقول[١]:

سواد عيون العين سنا ذهب ولوح نحور الحور لاح كما يجب

فإن يمل جبريل لقال أولو الأدب قليل لمدح المصطفى الخط بالذهب

على فضة من خط أحسن من كتب

يقوم بحق المدح قوم فلاته توله وقم بالوجد قومة واله

فحق خضوع الوجه رغما لكباره وان ينهض الاشراف عند سماعه

قياما صفوفا أو جثيا على الركب

إذا كانت عاطفة شاعرنا تحركت عند استماعه لرباعية الصرصرى فأقدم شاعرنا على تخميس هذه الرباعية فقد دفعته عاطفته القوية إلى رحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حيث يحلق شاعرنا بأجنحة خياله القوى وقلبه الولوع الحنون، ويتحدث إلى الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - عن أمته والمصائب التى ألمت بها نظرا للظروف التى أنشأتها يد الاستعمار البريطانى فى الهند، فقد فقدت الأمة الاسلامية سيادتها وكرامتها وهبطت من قمة المجد والشرف وبدأت تعانى من الذل والهوان على يد الأعداء من المسيحيين والسيخ والهنادكة المنبوذين، وشاعرنا في هذه الظروف القارسة لم يستسلم لليأس والقنوط بل إنه متأكد تمام التأكيد أن كيد الكافرين لا يدوم بل ينتهى عن قريب ولنستمع إليه حيث يقول[٢]:

"رسول الله أنت المستجار فلا اخشى الاعادى كيف جاروا

بفضلك ارتجى أن عن قريب يمزق كيدهم والقوم باروا"

أما الرباعية الثانية التى يمكن أن نسميها بالرباعى الكامل نظرا لتقفية

---

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١٧١.

(٢) المرجع السابق، ص ١٦٢.

المصاريع الأربعة[١]. والتى تشتمل على المشاعر نفسها التى كانت فى الرباعية الأولى. ولكنه يتذكر الماضى المشرق أولا فيقول: يارسول الله - صلى الله عليك وسلم - بعثت فينا رحمة من الله سبحانه وتعالى - فوجدتك الأمة كريما، كما كنت حصنا حصينا للأمة بالتعاليم السامية التى جئت بها، ولم تكن أمتك يارسول الله - صلى الله عليك وسلم - ترهبها قوة عسكرية بل كانت أمتنا على الدوام قوة يحسب لها ألف حساب. والآن يخوفنا الأعداء بالمكائد. أجرنى يا أمان الخائفين من كيد الكائدين ومكر الماكرين. وعن هذه المشاعر يعبر شاعرنا قائلا[٢]:

رسول الله أنت بعثت فينا ... كريما رحمة حصنا حصينا

تخوفنى العدى كيدا متينا ... اجرنى يا امان الخائفينا

هذه صرخات شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان التى انبعثت من قلبه الجريح، وهكذا كان شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان يستنجد برسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى أبياته بكل لسان استطاع أن يستنجد به سواء كان ذلك اللسان عربيا أو فارسيا أو أرديا. وليس هذا الاستنجاد بالرسول - صلى الله عليه وسلم - إلا توسلا به - صلى الله عليه وسلم - إلى الله - سبحانه وتعالى - فإن المستغاث به حقيقة هو الله - تبارك وتعالى - يقول الإمام تقى الدين السبكى مشيرا إلى أنواع الاستنجاد أو الاستغاثة بالحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم -[٣]: ولا فرق فى هذا المعنى بين أن يعبر عنه بالتوسل أو الاستغاثة أو التشفع، أو التجوه (قول القائل بجاه النبى - صلى الله عليه وسلم -).

ولم يكن شاعرنا مبتكرا لهذا اللون من النظم وليست هذه لهجته فقط بل هذه لهجة الكثيرين من الشعراء، وهذه طبيعة الشاعر من الناحية النفسية يعنى الانفعال. فكل إنسان عندما يصاب بأى شئ يلجأ إلى القوة التى هو متمسك بها، فالشيخ أحمد رضا خان رجل متدين يعرف ربه فيتوسل بالحبيب المصطفى - صلى الله عليه

---

(١) وجه تسميتها بالكاس اتباعا لما قاله الدكتور اسعاد عبد الهادى فى تاليفه فنون الشعر الفارسى، ص ١٦٧.

(٢) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان. ص ١٦٢.

(٣) شفاء السقام. للإمام تقى الدين السبكى (ط: دار كنز السعادة، درب الأتراك القاهرة، دون سنة الطبع)، ص ١٧٥.

وسلم - فيلجأ إلى باب ربه ليطرقه رجاء العطاء والمن والفضل، ومادام يطمع في كرم ربه - عز وجل - يتكلم عن الحبيب - عليه الصلاة والسلام - لعلته يأخذ بوسيلته - صلى الله عليه وسلم - طريقا إلى فضل الله، وهذا شأن الشعراء المسلمين فالكل يلجأ إلى الله طالبا منه العون مستشفعا بحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذى تفيض به أشعارهم، وكان شاعرنا يستهدف بالاستنجاد بالرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى السياسة مرة، وإلى التغلب على أصحاب العقائد الزائغة مرة أخرى باحثا عن الدواء للمجتمع، فلعله يجد ذلك فى الاستنجاد، إذن هذا منه تدين، وسياسة، وإصلاح اجتماعى، وإصلاح علمى، ولاغرو فالدين هو كل ذلك، يعنى لو صحت العقيدة يصح الإنسان، وإذا صلح الإنسان عقديا صلحت بقية الاتجاهات فى المجتمع.

نشأ هذا اللون من المديح النبوى الشريف فى عصر الحروب الصليبية وفى هذا يقول أستاذنا الدكتور رزق مرسى أبو العباس[١]: "إن مدائح الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى الأندلس اشتملت على الكثير من الشكوى والاستغاثة والاستنجاد، وهذا لما أحاط بالأندلس من البلايا والكوارث التى صبها المسيحيون على رؤوس المسلمين باستيلائهم على بلاد أندلس الزاهرة، وفى هذه الحوادث المدلهمة كانت سيوف المسيحيين تعمل فى رقاب المسلمين وترتكب فى حرمات الإسلام أفظع الآثام، وطبعى أن ترتفع أصوات الشعراء فى هذه الأحوال بالاستنجاد برسول الله - صلى الله عليه وسلم - الأولياء الصالحين، وقد ظهر ذلك فى شعر لسان الدين ابن الخطيب وغيره من شعراء هذا العصر".

ولما دخل الصليبيون فى الهند بالمكر والخداع والنوايا الطامعة والنفوس الحاقدة على الإسلام وأهله وبالتالى أخذوا يبسطون نفوذهم وسلطانهم على شبه القارة الهندية، وأخيرا تحقق لهم ما طمعوا فيه، وعندئذ توجه شعراء الهند إلى ربهم وإلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - [يعنى متوسلين به إلى الله تعالى] يبتغون النجاة".

ويحدثنا الدكتور ماهر حسن فهمى عن نشأة هذا اللون من الشعر فى مصر حيث يقول[٢]: وفى القرن السابع الهجرى كانت الحروب الصليبية مشتعلة يمتد

(١) ملامح الأدب والثقافة فى العصر المملوكى، للدكتور رزق مرسى أبو العباس. ص ١٠٦.
(٢) شوقى وشعره الإسلامى، للدكتور ماهر حسن فهمى، ص ١٨٠.

لهيبها إلى مصر، وشالع الويلات يوقد العاطفة الدينية ويجعل الناس يلجأون إلى رحاب ربهم متوسلين ومستنجدين برسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولنستمع إلى أصوات بعض الشعراء الهنديين يقول الإمام ولى الله المحدث الدهلوى[١]:

"وصلى عليك الله يا خير خلقه ... ويا خير مأمول ويا خير واهب
ويا خير من يرجى لكشف رزية ... ومن جوده قد فاق جود السحائب
وأنت مجيرى من هموم ملمة ... إذا انشبت فى القلب شر المخالب"

ويقول الشيخ صديق حسن خان البوفالى[٢]:

"يا سيدى يا عروتى ووسيلتى ... يا عدتى فى شدة ورخاء
قد جئت بابك ضارعا متضرعا ... متأوها بتنفس صعداء
مالى وراءك مستغاث فارحمن ... يا رحمة للعالمين بكائى"

ويقول الشيخ أشرف على التانوى[٣]:

"يا حبيب الإله خذ بيدى ... ما لعجزى سواك مستندى
كن رحيما لذلتى واشفع ... يا شفيع الورى إلى الصمد
اعتصامى سوى جنابك لى ... ليس يا سيدى إلى أحد"

ويقول الشيخ إعزاز على الديوبندى[٤]:

"رسول الله جئتك مستعينا ... عليك صلاة ربى والسلام
رسول الله جئت إليك ضيفا ... وحق الضيف تعرفه الكرام

---

(١) أطيب النغم. للامام ولى الله الدهلوى (ط: مجتبائى، دلهى) ص ٢٢.
(٢) هدية المهدى. للشيخ وحيد الزمان، ص ٢٠.
(٣) ضمان التكميل. للشيخ أشرف على التانوى (ط: مجتبائى، دلهى) ص ١٧٣.
(٤) شعر المديح النبوى الشريف بالعربية فى الهند بقلم الأستاذ الدكتور محمد إسحاق القرشى، بحث مستخرج من مجلة "أوج" الصادرة من كلية شاهدره الحكومية، لاهور، للعام الجامعى ٩٢-١٩٩٣م، ص ٢٧٢، ٢٧٣.

حريمك آمن من كـل هـول وبابك حولـه عكـف الأنـام"

ويقول الشيخ حبيب الرحمن العثمانى[١]:

لذ بباب المصطفى خير الـورى ملجاء المكروب مفتاح العقل

واقرع البـاب ملحـا مدمنـا من أدام القرع لابـد يصـل

فإذا كنا سمعنا إلى صوت الشعراء الهنديين باللغة العربية فلنسمع إلـى مـا ترجمه إلى العربية الدكتور عبد المنعم النمر من الشعر الذى جـرى علـى لسـان شاعر الأردية وآخر الملوك المسلمين بالهند بها دور شاه ظفر فى منفـاه بمدينـة رانجون يقول الدكتور عبد المنعم النمر[٢]:

"يارسول الله: ما كانت أمنيتى إلا أن يكون بيتى فى المدينة بجوارك".

"ولكنه أصبح فى رانجون وبقيت أمنياتى مدفونة فى صدرى"

"يارسول الله كانت أمنيتى أن أمرغ عينى فى تراب أعتابك"

"ولكن ها أنذاك أتمرغ فى تراب رانجون"

"وبدلا من أن أشرب ماء زمزم بقيت هنا أشرب الدموع الدامية"

"فهل تنجدنى يارسول الله ولم يبق من حياتى إلا عدة أيام"

ولنستمع الآن إلى شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال الذى أعرب عن آلامـه ومصائب أمته بالفارسية وترجمها إلى العربية وصاغها شـعرا الأسـتاذ الدكتـور حسين مجيب المصرى[٣]:

"ويبدى المسلم المحبوب فقره يصعد مثل حـر النـار زفـره

(١) المرجع السابق، ص ٢٧٠.

(٢) تاريخ الإسلام فى الهند، للدكتور عبد المنعم النمر، ص ٤٧٥.

(٣) هدية الحجاز للدكتور محمد إقبال / قدم لها وشرحها وترجمها شعرا عن الفارسية الأستاذ الدكتور حسين مجيب المصرى (ط: مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة،١٩٧٥)، ص ٥٠.

شكى منه الفؤاد وليس يدرى   فهبنا يارسول الله نظره"

مهما قال شاعرنا مدحا فى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومهما قال غيره فى هذا المضمار، ومهما عرض الباحث أو الكثيرون من الباحثين. فلا نستطيع مجتمعين أن نوفى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حقه علينا مما هو أهل له من المديح والثناء، ولو قسنا ذلك بهدايته - عليه الصلاة والسلام - وبالضياء الذى بلغنا اياه، وأنار به السبيل أمامنا للفلاح فى الدنيا والأخرة ما استطعنا أن نوفيه حقه على أى واحد منا. أضف إلى ذلك ما طبعه الله عليه من كريم الخصال، ونبيل الفعال وغير ذلك مما هو لائق بكمال بشريته - صلى الله عليه وسلم - لأيقنا أننا فى مدحنا دون المستوى اللائق به - صلى الله عليه وسلم - ولو كنا مجتمعين.

اذا كنا درسنا ثلاث مقطوعات من ثلاث قصائد لشاعرنا الشيخ أحمد رضا خان فى مدح النبى - صلى الله عليه وسلم - ومقطوعتين مستقلتين عارض بالأولى أمية بن أبى الصلت، كما درسنا أيضا تخميس شاعرنا لبيتين نظمهما الصرصرى، ورباعيتين فى مدح الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - فقد بقى لنا بيتان نظم كلا منهما باللغة العربية ضمن منظومتين أرديتين فى المديح النبوى الشريف، نظم أولهما ضمن منظومة أردية تحت عنوان: "قصيدة فى المديح النبوى الشريف المتضمنة لبعض مصطلحات علم الهيئة والنجوم"، فيقول شاعرنا وهو يخاطب الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - قائلا: إن الله تبارك وتعالى - خالق لكل الورى ولا خالق غيره. ونور هدايتك غطى كل الورى، ولم يتشرف أحد من الأنبياء بالمرتبة التى شرفك الله بها فى أى زمن من الأزمان، وكأن الشاعر يشير إلى الميثاق الذى أخذه الله تعالى من الأنبياء، وقد كشف ربنا - سبحانه وتعالى - غطاء عن هذا الميثاق لبيان شرف الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم -

حيث قال في القرآن الكريم[١]: **وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه، قال: ءأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري؟ قالوا: أقررنا، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين، فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون** ومن هذا المنظور القرآني يشير شاعرنا إلى شرف لحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - مبينا مرتبته الرفعية فيقول[٢]:

خالق كل الورى ربك لا غيره نورك كل الورى غيرك لم ليس لن

استوقفتني كلمات ثلاثة لم، ليس، لن، أعجبت بهذا الإيجاز الذي أدى معنى واسعا، وهذه الكلمات الثلاث تدل على النفي وإن النفي ينصب على الماضي والحاضر والمستقبل. وكأن شاعرنا يقول: إن نور هدايته لا يضارعه نور أبدا، ولم يسبق إليه، ولن يأتي بعده نور آخر مثله، ومن هناك كأنه أشار إلى ختم النبوة حيث لا نبي بعد الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم -

والبيت الثاني الذي أردت أن أذكره هنا هو ما ذكره شاعرنا في منظومة أردية أخرى غير التي أشرت إليها، وجاء شاعرنا بهذا البيت ضمن منظومة باللغة الأردية في مدح وبيان أفضال الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه على المسلمين. وفي هذا البيت أيضا يشير شاعرنا إلى سمو مكانة الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - التي أكرمه الله تعالى بها، وعبر شاعرنا عن رفعة النبي - صلى الله عليه وسلم - كأنما يعبر عن مبنى شاهق ولم لا والنبي - صلى الله عليه وسلم - أساسا مدرج من مدارج الخير -، فأخلاقه ترفعنا وتعلينا وتعلى كل من

---

(١) سورة آل عمران، ٣/٨١، ٨٢.

(٢) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان، ص ٢٢٣.

تحلى بها. فالتشبيه قائم على تشبيه شئ بشئ في محله، لأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - معراج المعارج من ناحية البناء الخلقي فهو مستكمل لكل كمال بشرى يليق برفعة مكانته - عليه الصلاة والسلام - وعظمة بشريته، ومما هو جدير أن نأخذ في الاعتبار أن اتباع الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - وسيلة من وسائل الارتفاع للمسلمين. والارتفاع عند النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يكن ارتفاعا ماديا إلا أن شاعرنا عبر عنه بأسلوب الارتفاع المادى لتكامل الارتفاع المعنوى في شخص رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كفى برفعته رفعة أن يكون الرافع هو الله. وليست الرفعة المعنوية إلا لرفعة الخلق الذى كان يتحلى بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم لا وقد قال عنه الحق - تبارك وتعالى -[١]: **{وإنك لعلى خلق عظيم}** فرفع الله - تبارك وتعالى - قدر النبي - صلى الله عيه وسلم - بإتيان حرف "على" فإنه يفيد العلو والتمكن والارتفاع، وأى ارتفاع أعظم من أن يكون الرسول - صلى الله عليه وسلم - فوق الخلق كأن الله عز وجل قد أعد له صرحا من الخلق عظيما فأجلسه عليه. وما أحلى صوت شاعرنا، إذا تناول معنى ارتفاع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتفوقه في الكمال البشرى، ومهما يكن من أمر فالشاعر أحلى منا عبارة وأندى منا صوتا، وألطف منا وقعا على الأسماع والقلوب. ها هو يقول[٢]:

رفيع المدارج منيع المعارج ... سمى المراتب سنى المناقب

وإن إتيان شاعرنا هذين البيتين ضمن المنظومتين الأرديتين يدل على حبه للغة العربية لكونها لغة الدين، ولغة القرآن، ولغة الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - فعندما يقدم شاعرنا على مدح النبي - صلى الله عليه وسلم - باللغة

---

(١) سورة القلم. ٦٨/٤.
(٢) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان . ص ٢١٥.

الأردية تدفعه عاطفته الجياشة، وبراعته الفائقة فى اللغة العربية إلى النظم بلغة الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - وهذا منه خير دليل على تمكنه من النظم بأكثر من لغة، ولا سيما فى غير لغته الأم.

وهكذا وظف شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان موهبته الشعرية فى مدح من هو حق بالمدح على وجه البسيطة، وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على صدق عاطفته، وحبه البالغ للحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - ونجد شعره الأردى والفارسى كذلك حافلا بالمديح النبوى، وإن كان المديح النبوى باللغة الأردية أكثر مما نظمه باللغة العربية والفارسية، وذلك لأن هذه اللغة يفهمها أغلب مواطنيه فى شبه القارة الهندية.

وهكذا أكون قد حاولت إلقاء بعض الضوء على جهود شاعرنا فى المديح النبوى الشريف، تلكم الجهود التى تمثلت فى تسعة وثلاثين بيتا، علما بأنه ما وصلت إليه يدى بالنسبة للديوان، أما شعره العربى فى المديح النبوى الشريف الذى لم نقف عليه، ولم يجمع حتى الآن لأى سبب من الأسباب فسوف يكون به لقاؤنا إذا يسر الله لنا هذا.

وما دمنا قد انتهينا من أرفع ألوان المديح عند شاعرنا ألا وهو المديح النبوى الشريف فلننتقل الآن إلى مدحه للأولياء والصالحين، وعلماء الدين الحنيف، ومن كانت له منزلة فى قلبه، والدين هو المقياس فى ذلك، ولنطبق هذا فنقول:

المبحث الثاني

جهود شاعرنا في مدح الأولياء الصالحين وعلماء الدين

ويشتمل هذا البحث على تمهيد وأحد عشر مطلبا

المطلب الأول : مدحه لمولانا الشريف أبو الحسين أحمد النوري.

المطلب الثاني : مدحه لمولانا إسماعيل بن خليل وأخيه وأبيه.

المطلب الثالث : مدحه لمولانا صالح كمال المكي.

المطلب الرابع : مدحه لمولانا عبد القادر البدايوني.

المطلب الخامس: مدحه لمولانا للشيخ عبد القادر الجيلاني.

المطلب السادس : مدحه لمولانا عبد المجيد البدايوني.

المطلب السابع : مدحه لمولانا فضل الرسول البدايوني.

المطلب الثامن : مدحه لمولانا محمد رضا علي خان النقشبندى.

المطلب التاسع : مدحه لمولانا محمد نقي على خان القادري.

المطلب العاشر : مدحه للشيخ معين الدين الجشتى الأجميرى.

المطلب الحادي عشر :مدح أثناء الهجاء.

تمهيد

إن شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان لم ينظم شعر المديح من أجل هدف دنيوى - كما سبق أن ذكرنا - فقد نظم مدح النبى - صلى الله عليه وسلم - كما نظم فى مدح بعض الشخصيات الدينية - دون انتظار لأى مقابل، وقد ترفع عن مدح الأغنياء والملوك. ولم يكن شأنه شأن أغلب معاصريه من الشعراء الذين كانوا ينظمون من أجل التكسب ولمثل هذا أشارت الدكتور إبتسام صالح الدين حين تحدثت عن الأغراض والموضوعات التى نظم فيها الشعراء المعاصرون لشاعرنا الشيخ أحمد رضا خان[1]: "كان المدح هو الموضوع الأول للقصائد. خاصة ما ألقى منها فى المناسبات الخاصة بالبلاط مثل الأعياد الرسمية والاحتفال بتولى العرش، ولهذا نجد معظم المديح موجها إلى الملوك والأمراء وأصحاب المناصب العليا فى الدولة. وقليل منه موجه إلى الشخصيات الدينية، وقد حظى الملوك والأمراء، بمعظم المدح فى النصف الأول من القرن التاسع عشر".

ولم يكن مدح شاعرنا للشخصيات الدينية إلا لتقواهم وتقربهم إلى الله تعالى، فقد مدح الشخصيات الدينية من الأسلاف ومن المعاصرين له قاصدا بذلك التقرب - ببركتهم - إلى الله تعالى، وهنا تتجلى رغبة شاعرنا فى الاقتفاء بآثار هذه الشخصيات الدينية الذين قاموا بمهمة إرشاد الخلق إلى الخالق وأذاقوا البشرية حلاوة الحب الإلهى والحب النبوى مما يساعد على تمكنه من قلوبهم.

(١) الشعر الأردى منذ نشأته حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى. للدكتور ابتسام صالح الدين ص ٢١٣، ٢١٤ (ط: القاهرة. ١٤١١هـ - ١٩٩١م).

فالننقتل الآن إلى ما نظمه شاعرنا فى مدح الأولياء الصالحين وعلماء الديـن الحنيف عبر العصور المختلفة، وقد رتبت هذه المدائح حسب ترتيب الأسماء أبجديا، وهذا المبحث الذى نحن بصدده يتكون من تمهيد وأحد عشر مطلبا، ويحتوى علـــى أربعة عشر وثلاثمائة بيت.

المطلب الأول

مدحه لمولانا السيد أبو الحسين أحمد النورى[١]

نظم شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان ستة عشر بيتا من بحر الكامل فى مدح مولانا السيد أبو الحسين أحمد النورى، وكذلك فى الثناء على تأليفه المسمى "العسل المصفى فى عقايد أرباب [المراد بها الأحباب والأصحاب جريا على كثرة استعمالها عندنا بهذا المعنى] سنة المصطفى" وقد استخرج فى آخر القصيدة تاريخ عام الانتهاء من تصنيف وطبع هذه الرسالة، وبدأ أبياته بخطاب صاحبيه وذلك على غرار شعراء العصر الجاهلى فمدح مدينة ممدوحه وهى "مارهرة" ومما تجدر الاشارة إليه أن شاعرنا أحب هذه المدينة لكونها موطنا لمرشده مولانا السيد آل رسول المارهروى وكذلك لحفيده مولانا الشريف أبى الحسين أحمد النورى، وفى هذه المدينة قام الممدوح - بعد وفاة جده - بإرشاد الخلق إلى الخالق وتربيتهم بالتربية الروحية الإسلامية، وقد نال شاعرنا فى هذه المدينة تربية روحية بالغة منه مبلغ الإقبال على الدين وحبه والتفانى فى سبيله، وأداء شعائره على خير منهج ذلك من الشريف آل رسول المارهروى والشريف أبى الحسين أحمد النورى، ففى هذا يقول شاعرنا[٢]:

"يا صاحبى قفا لما يعنينا	واد شممنا منه نفحة سينا
انست من مارهرة نارا على	طور أشا طورا به يهدينا
فعزمت فى ممشاى هذا أننى	ما لم أنلها لن أذوق هدونا

---

(١) سبق أن ذكرنا ترجمته فى الفصل الثانى من الباب الأول.

(٢) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١٦٠-١٦١.

أمضى على سنني ولا أصغى إلى ... قول من الأغوال والمردينا

سيرا معي أولا فلست براجع ... إني لفي شان أراه يقينا

طوبى لأبناء السبيل إذ اهتدوا ... ومشوا لهذا النور منقادينا"

وبعد هذا التمهيد الموجز يمدح شاعرنا ممدوحه بالضوء الذى نشره فى أرجاء الهند. وبالطبع هذا الضوء يشع من نور الهداية ليستقبل القادم، ونور الهداية هو الذى أشار إليه فيما بعد، فبكل تأكيد أن نور الهداية وشعاعه قد استطاعا أن يلهما الشاعر مدح ممدوحه هذا، ثم يمدحه بنور الهداية الذى أضاء به الأطراف، ولم يكن النور سطحيا بل تعمق فى داخله فأوجد التقوى، وما أعظمها إذا كانت مترببة على هذا النور، وكذلك يمدحه بنسبه الممتد إلى سيدنا الحسين – رضى الله عنه – الذى رضى البلاء فى ميدان كربلاء ففى هذا يقول[١]:

اكرم بنار ضوؤها يجلو الدجى ... من احمد النورى جاء مبينا

نور الهدى بحر التقى بدر النقى ... اضحى له حفظ الإله معينا

من ال من رضى البلا فى كربلا ... من اهل من خلق الحسين حسينا

وبالطبع نلاحظ الجناس التام بين الكلمة وجزء منها وهو فى قوله: "من آل من رضى البلا فى كربلا" ولم يكن الشعاع ونور الهداية وتقوى الممدوح بالأمر الكافى للمدح بل عرض شاعرنا لعقل ممدوحه وفكره ونتاج قريحته ونعنى بذلك مؤلفات لممدوحه. فقال يا قوم هذا هو حق وسبب نجاة إن عملتم به، وفى هذا يقول[٢]:

ياقوم هذا الحق هذا المنتقى ... هذا النجاة إن اتخذتم دينا

عسل مصفى باليقين فلم يذر ... بذواقه ظنا ولا تخمينا

---

(١) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان . ص ١٦١.
(٢) المرجع السابق. ص ١٦١

تعسا لمن اهوى إلى مهوى الـهوى ... وراى بدين السنة المفتونـا

لم يـــات شـــئ للصـــواب بديـــلا ... ما كان حق بالجدال قمينـا

فعليك يـــا هـــذا بجمـــع اوقـــدوا ... مصباح دين الله فى نادينـا

وفى نهاية المدح يخاطب شاعرنا نفسه قائلا: يا رضا لك أسوة فـــى الذيـــن أوقدوا مصباح دين الله فى مدينة مارهرة فلا تتبع غيرهم مـــن المبتدعيـــن، وفـــى الشطرة الثانية من البيت الأخير استخرج شاعرنا تاريخ عام جمع وتأليف وطبع تلك الرسالة التى ألفها ممدوحه فى بيان العقائد الصحيحة المستمدة من الســـنة النبويـــة، ففى هذا يقول شاعرنا[١]:

"لك اسوة فيهم فلذ بجنابـــــهم ... لا تتبع مـــن غـــيرهم مجنونـــا

قال الرضا ارخ رسالة سيدى ... هذا هو الحق الصريـــح مبينـــا"

وهكذا توجه شاعرنا بالمدح إلى مولانا الشريف أبو الحسين أحمد النـــــورى، كما أثنى على تأليفه "العسل المصفى" وقد أقدم على مدح الممدوح نفســـه وتأليفـــه الآخر. ولما كان المدح للتأليف أكثر جعلت اسمه فى العنوان، ولازال شاعرنا يمدح مولانا الشريف أبا الحسين أحمد النورى، وإن شئت فقل: يمـــدح تـــأليف مولانـــا الشريف ابى الحسين أحمد النورى، فلنستمع إليه وهو يقول، وقبل أن نستمع نمـــهد السبيل. ولننظر كيف كان المدح لهذا التأليف قبل أن نسمع صوت شاعرنا.

(١) المرجع السابق. ص ١٦١

فی تاریخ جمع وتألیف وطبع رسالة "سراج العوارف فی الوصایا والمعارف"

أقدم شاعرنا على التاريخ لعام جمع وتأليف وطبع رسالة "العسل المصفى في عقائد أرباب سنة المصطفى" وخلال هذا التاريخ مدح مؤلف هذا الكتاب وهو مولانا الشريف أبو الحسين أحمد النورى - كما أسلفنا - وتعد هذه المرة الثانية التى يقدم فيها شاعرنا على مدحه، فقد أورد مدحه فى قيامه بتاريخ عام جمع وتأليف وطبع رسالة "سراج العوارف فى الوصايا والمعارف" وعن عدد الأبيات التى نظمها شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان فى الغرض المذكور آنفا يقول مرتب ومحقق بساتين الغفران[1]: ذكر الدكتور حامد على خان أن الشيخ أحمد رضا خان نظم أحد عشر بيتا ضمن تقريظ كتبه لكتاب "سراج العوارف فى الوصايا والمعارف" إلا أنه لم يورد منها إلا ستة أبيات وهى التى أوردتها بالمتن [فى ديوان بساتين الغفران] وقمت بالبحث عن هذا الكتاب فى طبعته القديمة إلا أننى لم اتمكن من العثور على نسخة منه، وقد تمكنت من العثور على نسخة من هذا الكتاب فى طبعته الجديدة، والذى قام بترجمته إلى الأردية الدكتور سيد محمد أمين مدرس بقسم اللغة الأردية بكلية سينت جانسن بمدنية آجره والتى صدرت منها الطبعة الثانية عام ثمانية وأربعمائة وألف للهجرة الموافق للعام ثمانية وثمانين بعد تسعمائة وألف للميلاد، وذلك من ضياء الدين ببلى كيشنز بمدينة كراتشى، وعند تصفحى لهذه النسخة لم أجد فيها الأشعار التى أوردتها بالمتن، ولا باقى هذه الأشعار أى خمسة أبيات أخرى".

---

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان، ص ١٩٥.

مدح شاعرنا ممدوحه بطريقة لا ينصب فيها المدح على الشخصية مباشرة فقد مدح ذلك المؤلف، ومدح المؤلف للجهد العلمى مدح للعلم و العقل، ومدح العقل مدح لجزء من الإنسان، إن لم يكن للإنسان كله. فالإنسان هو العقل و الفكر . و غير ذلك ينبع من العقل أيضا. مثل كريم الصفات و الإذعان و الانقياد للدين، إلى غير ذلك مما يمدح العاقل به. ومهما يكن من أمر، فإننا نجد شاعرنا فى الأبيات الستة التى نظمها من بحر المتقارب يستهلها بالاشارة إلى التتلمذ على يد مولانا أبى الحسين أحمد النورى من طريق ايراد لفظ "سيدى"، نقوم بدراسة هذه الأبيات الستة التى بين أيدينا فضلا عن فقداننا أبياتا خمسة، فالإحصاء الذى سوف أقوم به إنما هو إحصاء لنصف القطعة تقريبا لأنها ستة أبيات من أحد عشر بيتا، هذا الإحصاء الذى أريد أن أعمله أركز فيه جهدى على "النور" "المعرفة" "المصطفى" "كلامك" فإننى أجد الشيخ أحمد رضا خان أنه وصف ممدوحه بصفات ما أحسنها لو اجتمعت لعالم من العلماء، فهنا الوصف المفضل لدى أهل العلم جميعا، نور ومعرفة وسراج ومصفى وبعد عن الزيغ. هذا مدح ظاهره أنه يقضى حقا عليه لكنه ملئ بالشاعرية وشاعريته تأتى من هذا الإحصاء البسيط الذى أجرى هذه الأبيات، أبيات ستة ذكر فيها كلمة النور مرتين. وذكر فيها المصفى، وذكر فيها بعد الممدوح عن الزيغ وذكر فيها المعرفة التى صاغ منها اسم التفضيل على النحو الذى ذكرناه، وإضافة النور إلى المعرفة تفيد ما تفيد من عظمة المعنى، يشرف هذا كله بأن يقول "كلامك" يعنىَ علمك و إنتاجك، وما يجود به عقلك، وما يخرجه قلمك. فهذه هى الأوصاف التى مدح بها شاعرنا ممدوحه تتجلى منها مدى ما كان له من أسلوب خلاب جذاب مؤثر فلنسمع إليه حيث يقول(١):

أنا سيدى يابن عز غطارف ويا أحمد النور نور الأعارف

---

(١) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١٩٥.

كلامك نور بـــهاء السلاســـل — وشهد مصفى عن الزيغ صارف
وتحقيق ترويح كشف القلـــوب — دليل اليقين ســـراج العـــوارف

في مستهل هذه الأبيات أشار شاعرنا إلى التتلمذ على يد مولانا أبي الحســـين أحمد النوري، كما وصفه بالأوصاف المذكورة آنفا، وإنه في بداية هذه الأبيات جاء بكلمة "الأعارف" والظاهر من هذه الكلمة أنها جاءت للقافية ولكننـــي لا أرى هـــذا الظاهر بل إذا نظرت إليها وجدتها كلمة ذات مدلول أعمق من أن تكون قد جيئ بها للوزن، لأن كلمة معارف كان الممكن أن تحل محلها لتغطية الوزن، إلا أنها اضاف النور إلى الأعارف، والأعارف كلمة تفيد الجمع ومفردها أعرف، وهو بذلك جمـــع اسم التفضيل كأنه أثبت إليه المعرفة ثم فضله وقال أعرف، ثم جمع فقال أعـــارف، وأضاف إليها كلمة النور، وبالتالي وصفه بوصف ما أحسن أن يوصف به أهل العلم وقلما يوصف به أهل العلم، والاشتقاق بهذه الطريقة مبتكر، ووجه الابتكار إضافـــة اسم التفضيل المجموع إلى كلمة "النور" وهو مما لم نجده عند غيره، وهـــو مـــدح ولكنه لا ينصب إلا على العلم، وأفضل أنواع المدح هو تلك الصفات وتلك الألـــوان التي تكون بسبب، وهنا السبب العلم. وبعد ذلك نراه يقدم على تشبيه تأليف ممدوحه بالسراج الذي يتجلى نوره في الظلام، وهكذا تأليفه الثاني الذي أنار الطريق أمـــام السالكين ليلا ونهارا، بل يضيف إلى هذا القول بأن السراج - أي الكتاب المؤلف - ليس سراجا عاديا، بل هو سراج وهاج، وكأنه الشمس في ضوئها، وإن هذا الضوء لا يغيب ليل نهار، فيقول في هذا الشأن[1]:

ولا غرو أن جاء منك ســراج — فانك نـــوري نـــادي المعـــارف
ارانا سراجك بـــالليل شمســـا — وشمس بليل عجيـــب وطـــارف
فهل مثله في تليد وطـــــارف — واين فـــاين تـــراه الطـــوارف

(١) بستين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان. ص ١٩٥.

نلاحظ الكناية فى كلمة "الليل" و"سراج"، فقد وصف شاعرنا علم ممدوحه بأنه سراج، وذكر كلمة الليل كناية عن حالة مسلمى الهند وحاجتهم إلى من يبصرهم بأمور دينهم ودنياهم، وإضافة السراج إلى الليل تدل على الأثر الذى تركه علم ممدوحه هذا، ولم يشأ شاعرنا أن يترك هذا الأثر دون وضوح فوضحه بقوله "شمس" وأما نسبة الممدوح إلى النور فيستغل شاعرنا اسم ممدوحه، وإنه أتى بهذه النسبة ليوجد علاقة بين الأثر والوصف وبين النسب.

هكذا قام شاعرنا بمدح الشيخ أبى الحسين احمد النورى – أستاذه ومرشده – فى منظومتين، وبالتالى جملة ما نظمه يتمثل فى إثنين وعشرين بيتا دون أن ندخل فى حسابنا الأبيات المفتقدة لو وجدناها لأصبحت سبعا وعشرين بيتا، على أننى سأحاول أن أبحث عن الأبيات الخمسة المفتقدة والتى بالطبع ستتضمن التاريخ، ويتجلى لنا مدى حبه لهذا الشيخ واحترامه اياه كما وجدناه عند مدح كل معاصريه من أهل السنة والجماعة الذين تحدث عنهم.

المطلب الثانى

مدحه لمولانا السيد إسماعيل بن خليل وأخيه وأبيه

مدح شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان مولانا السيد إسماعيل بن خليل - وأخا مولانا السيد مصطفى خليل، وكذلك والدهما السيد خليل آفندى وقد استخدم شاعرنا - فيما نظم - الأسماء المذكورة آنفا بأسلوب يستقيم المعنى والوزن الشعرى معا وقد نظم شاعرنا هذه المقطوعة من بحر الكامل - خلال إقامته بمكة - ضمن رسالة أرسلها إلى مولانا السيد إسماعيل وأخيه مولانا السيد مصطفى خليل، وفى هذه الرسالة أجازهما شاعرنا المحدث الفقيه ومنحهما إجازات الحديث وسائر مروياته من قديم وحديث وقد أرسل هذا الخطاب فى التاسع عشر من شهر شوال من عام ألف وثلاثمائة وستة وعشرين للهجرة[١] يقول شاعرنا فى مدح هذه الشخصيات الثلاثة مستهلا بمدح مولانا السيد خليل آفندى المكى[٢]:

الله أرسل للخلال خليلا	سد الخلال ولم يخل خليلا
منحت بنوه خلال خير طبقة	عن طبقة وتعم جيلا جيلا
ياعز بيت جاء فيه المصطفى	للمصطفى العز الجليل انيلا
خلت القرون وماخلا ذا البيت من	لطف الإله ولن يرى تحويلا
بمن الخليل مع الحبيب توافقا	ليديمه الرب الجليل جليلا

---

(١) رسائل رضوية. للشيخ أحمد رضا خان، جـ ٢، ص ٢٩٠.
(٢) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١٦٣.

إذا كانت الأبيات الثلاثة – فى مدح مولانا صالح كمال مكى – قد استوقفتنى بعاطفتها الفياضة وشاعريتها التى خلت من التكلف، وروعتها التى أثرت فى الممدوح قبل أن تؤثر فى القارئ فكيف بهذه الأبيات الخمسة التى صاغها مدحا لأخوين عالمين جليلين وأبيهما ولعل الشاعر كان يعرف التسلسل الأسرى ولم لا والأصول تدل على الفروع، وهو فى هذه الأبيات الخمسة يستعرض ثروته العربية من معرفة باللغة والصياغة الشعرية والمحسنات البديعية من جناس وتورية حتى أن البيت الثالث فيه التورية ما يجعله – حلو العبارة لطيف الصياغة، ولو استغنينا عن التورية وأردنا باللفظ معناه القريب لزادت حلاوة البيت أيضا، وذلك لأن الكلام والمدح سينصرف إلى الحبيب المصطفى – عليه الصلاة والسلام – وثمة رابطة قوية تجمع بين النبى – صلى الله عليه وسلم – والعلماء الأتقياء وأهل الفضل، فهو – صلى الله عليه وسلم – إمام لهؤلاء جميعا، ولنا الفخر كل الفخر بأن يكون أعظم الخلق إماما لنا. علما، وتقوى، وفضلا، وغير ذلك من خلال الخير، وبالتالى لا بأس من أن يراد بالبيت الثالث المعنى القريب.

المطلب الثالث

مدحة لمولانا صالح كمال المكى[١]

سافر شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان إلى أرض الحرمين الشريفين للمرة الثانية فى العام الثالث والعشرين من القرن الرابع عشر الهجرى الموافق للعام الخامس من القرن العشرين الميلادى، وخلال زيارته تلك نال شاعرنا إجازة الحديث والفقه من ثلاثة أجلاء من علماء مكه[٢] على حين أقبل عليه لفيف من علماء الحرمين الشريفين يستجيزونه فى رواية الحديث، والفقه، فأجازهم، وكان على رأس هذا اللفيف مولانا الشيخ صالح كمال المكى، فعندما كتب شاعرنا المحدث الفقيه إجازة الحديث والفقه لمولانا صالح كمال كتب ضمنها بعض الأبيات من بحر الكامل فى مدح مولانا الشيخ صالح كمال حبا وتقديرا له، وفى هذا يقول مرتب الديوان ومحققه الأستاذ حازم محمد المحفوظ[٣]: لما سافر الشيخ أحمد رضا خان للحج والزيارة مرة ثانية أتاه زائرا أجل العلماء الكرام مولانا الشيخ صالح كمال المكى مع بعض آخرين من بيت دحلان، بيت الفضل والكمال، فسألوه إجازة الحديث وسائر مروياته من قديم وحديث فكتب لهم نسخة الإجازة وسماها "الإجازة الرضوية لمبجل مكة البهية".

(١) سبق أن ذكرت ترجمته فى الفصل الثالث من الباب الأول.
(٢) وقد أشرنا الى هذا فى الفصل الثانى من الباب الأول لهذا البحث.
(٣) انظر: بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان، ص ١٩٣.

نظم شاعرنا بعض الأبيات ضمن هذه الإجازة التى قدمها إلى مولانا الشيخ صالح كمال أورد فيها شاعرنا اسم ممدوحه على سبيل التوريه، وقبل أن نسمع صوته نقرأ كيف مهد لهذا الصوت قبل أن يخرج. فنجده يقول مخاطبا ممدوحه[١]:

"أما بعد فاسمع ياسعد، جعلنى الله واياك وأحبابنا ممن رزق السعد، وسبق له من ربه حسن الوعد، قبل خلق السماء وصوت الرعد، ونصر فى الدين أوفر من عدة كل ذى وفرة. وذات جعدو خذل عداى وعداك، من عدا منهم ومن لم يعد وهو يريد العدوان من بعد. ياحسنة الزمان، وبركة الأوان. ياطيب الوجود، وطيب الجود، من وجهه أنضر من روض مجود، وفيضه أجود من جود يجود، أمجيد المجيد الجيد الجائد، مردى الأمارد، مجدى الأماجد، ياصالح الأفعال، وصديق الأقوال، ياأبا الأفضال وابن الكمال، ألا ياسامعين هل عرفتم الإسم؟ وإن لم تعرفوا فهذا نظم خذوا منه رؤس الشطور تنبئ باسم مبين نور":

صلحت قلوب العارفين فاصلحت	اعضاءهم فى طاعة المفضال
لا غرو إن بحسن احوال الملك	حسنا لملك الملك فى الاحوال

ونجد شاعرنا بعد ذلك يورد صفة تميز الشيخ صالح كمال من بعض علماء الدين الذين لا يتجاوزون حدود القول، ثم يتوجه شاعرنا إلى نفسه بالنصيحة قائلا: إن أصحاب العلم قليلون فالزم الشيخ صالح كمال المتصف بالعلم والعمل، فيقول فى هذا الشأن[٢]:

"كم عالم فى عالم الدنيا بدا	ما علمه إلا شقاشق قال
العلم قل وبعد فيه تكثر	لكن عليك بصالح لكمال"

---

(١) رسائل رضوية. للشيخ احمد رضا خان . جـ ٢. ص ٢٨٢.
(٢) بساتين الغفران. للشيخ احمد رضا خان . ص ١٩٧.

نلاحظ الجناس غير التام بين كلمتى "عالم" و"عالم"، كما نجد هنا التورية، وذلك عند قوله "صالح لكمال" فإن شاعرنا لم يقصد الصفة فقط من كلمة "صالح وكمال" بل قصد العلم أيضا.

هذا وقد نظم شاعرنا ثلاثة أبيات أخرى من بحر الطويل. وقد أدرج بها ضمن الإجازة وأشار فيها إلى فترة استأنس فيها بصحبة الشيخ صالح كمال خلال إقامته بمكة المكرمة، ويرى شاعرنا فيما نظم أن فترة وصل الحبيب مضت بسرعة وكأنها كانت فترة قصيرة، ثم يتحدث شاعرنا فى تواضع شديد فيبين أنه ناقص أمام هذا الشيخ الكامل، ويقصد الشيخ صالح كمال ومع هذا يرجو شاعرنا أن يجمعه الله تعالى مع ممدوحه هذا فى الجنة، ثم يشير إلى أنه سمع هاتفا غيبيا يخبره بأن أمله هذا سوف يتحقق، ومهد شاعرنا لأبياته الثلاثة هذه قائلا[١]: يا أهل مكة والبلدة المباركة ألم تعلموا من هذا الذى سميت؟ وهذا الخطاب لمن نميت؟ أليس إمامكم والقائد أمامكم؟ علم العلماء الأعلام، المشتهر كالركن بالبلد الحرام، أليس هذا الأبيض أقدم وأسود، ومستلم اليد كالركن الأسود، سيد مسود، جيد مجود، ألا فاعرفوا الحق من الأباطيل، وميزوا الصدق من الخزعبيل، فرب أحمق سفيه يقال له فقيه، ففيه ما فيه، ورب شعب أو شعيب من شعاب الضلال يدعى جبل الفضائل والأفضال. هذا وحب حبى قد حبى قلبى قبل أن ألقاه، وأحيى محياه، بفضل الله طار إلى الهند رياه، فلما تواجهنا توافقنا وتصادقنا بل تعاشقنا فإن **الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف**"[٢] بل صار كنفس واحدة، وهو الذى نصرنى ووقانى قبل أن يلقانى، وبغيب رعانى وبعد ما رآنى، وذلك لأنه محب السنن [للحبيب المصطفى - عليه الصلاة والسلام] وناصر أصحابها [أى أهل

---

(١) انظر: رسائل رضوية، للشيخ أحمد رضا خان، جـ ٢، ص ٢٨٤.

(٢) صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج القشيرى، ج ٢، ص ٢٠٧.

السنة والجماعة] فجزاه الله عنى وعن الدين كل خير، وحمى حماه عن كل ضر وضير، ولقاه سرورا، ووقاه شرورا، آمين، يا من كان عزيزا غفورا، ولقد طال بنا المجالس، وحصل بها انس آنس، فتذاكرنا العلوم، وتحاورنا الفهوم، فرأت الأعيان ووعت الآذان فوق ما كان فى تصور الأذهان، فمازاد أحد منا طول الجلوس إلا لوعة فى القلوب وشوقا فى النفوس، وأنشدنى لسانى ما أنشأه جنانى.

"فياليتها طالت ولكن مضى قضا … بان مدى وصل الحبيب قصير

وكيف وذا نجل الكمال وإننى … اخو النقص حظى فى الكمال يسير

وأرجو لقاء دار الهنا وكان قد … قد اسعد بختى هاتف سيصير"

ومما تجدر الاشارة إليه أن من يطالع البيت الأول ولم يطلع على المناسبة التى أنشد من أجلها هذا البيت، يعتقد أنه فى الغزل العذرى، وهذا ما لم يقصده شاعرنا، فهذه الأبيات فى مدح عالم ورجل دينى كبير، - كما أشار إليه شاعرنا أيضا - وهذا إن دل على شئ فلا يدل إلا على صدق العاطفة والحب المتدفق فى قلب شاعرنا نحو ممدوحه هذا.

هذا وقد نظم شاعرنا بيتين آخرين من بحر الطويل فى مدح الشيخ صالح كمال، يمدحه فيهما قائلا: إن عين الرضى كليلة عن رؤية كل عيب فى الحبيب، فتحسب مثلى صالحا للكمال، ويقول شاعرنا - تواضعا - لست أهلا للكمال، كما بدى لعين الرضى، وأرى أنه يقصد من هذه العين عين ممدوحه الذى أثنى على علم شاعرنا كثيرا[١] فقد استأنس بقول الشاعر عبد الله بن معاوية ونظم بيتين فى مدح الشيخ صالح كمال، وقد مهد لهذين البيتين قائلا[٢]: "فيا من من منه علينا بهذا اللقيا، كلما روينا وظمينا، فزدنا السقيا، واجمع بيننا يا قريب المجيب، على حوض الحبيب، وفى دار التقريب، - صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله وصحبه وبارك

---

(١) انظر تقريظا للشيخ صالح بن كمال المكى على "حسام الحرمين على منحر الكفر والمين". للشيخ أحمد رضا خان، (ط: ليتهو بريس كانبور ١٣٧٩هـ)، ص ١١٦، ١١٧.

(٢) رسائل رضوية، للشيخ أحمد رضا خان، ج ٢، ص ٢٨٦.

وكرم، سبحان الله مالي غبت غبا أن خاطبت، ولذة الخطاب بغية الأحباب، نعم يـــا عالم العلام. يا علامة، يا من علمه علم غنى عن علامة، فعلام تطلب علامــــة؟ - رفعك الله - كم تتواضع، هذا مسكك فائح، أمثلي يوازيك، بل هل يدانيك، فتسأل منه إجازة الحديث، وسائر مروياتي ومحوياتي من قديم وحديث، نعم فهمت الأمـــــر أن اسمي رضا وصرت عيني، فانت عين الرضا" وبعد هذا يستأنس شاعرنا بقول عبد الله بن معاوية[١] فيقول[٢]:

"وعين الرضا عن كل عيب كليلــة	فتحسب مثلي صالحــــا لكمــال
وما بي صلاح للكمال كمــــا لــها	كما لا قذى في صالح بن كمال"

يذكر شاعرنا أن ممدوحه ظنه مثله لذلك المراد من "عين الرضا" نظرة مولانا الشيخ صالح كمال، وقد أورد شاعرنا اسم الشيخ صالح واسم الشيخ كمـــال المكـــي على سبيل التوريه، ونلاحظ الجناس غير التام في هذين البيتين.

وهكذا يكون شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان قد انتهى من مدح تلميـــذه بـــهذه الأبيات التسعة التي حشد فيها ألوانا من البديع كعادته، حقا هو يتحدث عن تلميـــذه ولكنه يحبه ويقدره حب الأستاذ لتلامذته النجباء، ولولا أنه رأى منه إقبالا على العلم

---

(١)

وعين الرضا عن كل عيب كليلـــة	وعين السخط تبـدى لــك المســاويا
وأنت أخي مالم تكن لــــي حاجـــة	فـإن عرضــت فـإني لا أخاليــــا

الشعر لعبد الله بن معاوية بن عبد الله الجعفري. يقول للحسين بن عبـــد الله بـــن عبيـــد الله بـــن العباس. هكذا ذكر مصعب الزبيري. وذكر مورج فيما أخبرنا به اليزيدي عن عمه ابـــي جعفـــر عن مورج - وهو الصحيح - أن عبد الله بن معاوية قال هذا الشعر في صديق له يقال له قصـــي بن ذكوان. وكان قد عتب عليه. وأول الشعر:

رأيت قصيــا كــان شــيئا ملففــا	فكشفه التمحيـــص حتـــى بـــدا ليــا
فلا زاد ما بينـــي وبينــك بعدمــا	بلوتــك فـــي الحاجــات إلا تنائيــــا

انظر: كتاب الأغاني. للإمام أبي الفرج الأصفهاني (ط: مطبعة التقدم بشارع محمد على بمصـــر)، جـــ ١١. ص ٦٣.

(٢) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١٩٧.

ونجابة فيه ما قدره بهذا التقدير، إن شاعرنا يرى أن الشيخ صالح كمال المكى يعلى قدره حيث يظن المثلية قائمة بينهما، ولكن شاعرنا يرى نفسه أقل من هذا الممدوح، أى حب هذا يجمع بين الأستاذ وتلميذه على هذا النحو، وإنه حب الدين والعلم به والإسهام فى نشره، وازدهار ثقافته فى مختلف علومه من فقه وحديث وغير ذلك مما منح فيه شاعرنا تلميذه النجيب صالح بن كمال، على أن لشاعرنا أبياتا أخرى يمدح فيها هذا التلميذ النجيب.

كان شاعرنا خلال إقامته بمكة يقوم بزيارة أربعة من علمائها على رأسهم مولانا الشيخ صالح كمال المكى، وكانوا يأتونه يوميا، وقد مرض شاعرنا فى شهر محرم فكان يعوده مولانا صالح كمال مرتين فى بعض الأيام، ولكنه ذات مرة لم يتمكن من القدوم إلى شاعرنا مدة يومين، ولما اشتد شوق شاعرنا إلى زيارة هذا العالم الجليل نظم ثلاثة أبيات من بحر البسيط عفو الخاطر وأرسلها إليه ضمن رسالة، وعندما وصلت هذه الرسالة إلى الشيخ كمال جاء من فوره لزيارة شاعرنا، وبعد ذلك عاد ليزوره كل يوم[١] والأبيات التى قالها فى هذا الصدد هى كالآتى[٢]:

"هذان يومان ما فزنا بطلعتكم ... ولو قدرنا جعلنا الراس قدما

قالوا لقاء الخليل للعليل شفاء ... الا تحبون أن تبروا لنا سقما

عودتمونا طلوع الشمس كل ضحى ... وهل سمعتم كريما يقطع الكرما"

وفى الأبيات نلحظ أن الشاعر يفصح عن شوقه إلى ممدوحه وشاعرنا إن كان قد صاغ مدحه فى ثلاثة أبيات فقط إلا أنه كان لين العبارة لطيف الأسلوب، لذلك استطاع أن يؤثر فينا وأحسبه يؤثر فى قارئيه أيضا وقد عرضت لهذه الأبيات مع قلتها لأبين اتجاهه وكيف كان انفعاله ومدى يقظة العاطفة الشعرية عنده، وبالتالى الرجل يمدح الشخصيات فيما عدا حبيبنا – صلى الله عليه وسلم – يمدحهم بما مدح الله به متأسيا بقوله عز وجل[٣]: {**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**} وهكذا تكون التقوى

(١) انظر: تذكرة خلفاء اعلى حضرت، للدكتور مجيد الله القادرى / والأستاذ محمد صادق القصورى، ص ٣٧، ٣٨.

(٢) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان، ص ١٥٩.

(٣) سورة الحجرات ١٣/٤٩.

والورع والاشتغال بالعلم ومجالسة العلماء والود بينهم أمورا تحرك عاطفة شاعرنا فتملي عليه المدح في مكانه، وأردت كذلك أن أبين كيف أن اليومين قد تركا أثرا دفعه إلى التعبير بالشعر وذلك شأن العواطف المتوقدة عند الشعراء حين يهيجها ويشعلها حنين أيما حنين من أى مصدر كان.

وما أحسن الشاعر إذا أراد من ممدوحه أمرا وقد يظن أن ذلك الأمر مال أو عطية أو غير ذلك، ولكن النوال عند شاعرنا مطمعه في ممدوحه ينحصر في شئ يقتنع الشاعر به، وقد جربه وعرف أن فيه خيرة، إنها تلك الزيارة التى حرم منها وهو يرى أن فيها الشفاء، واستدر عاطفة الممدوح بهذا الأسلوب من أساليب الاستفهام وهو قوله: "ألا تحبون أن تبروا لنا سقما" وما أحلي هذه العاطفة ربما كانت بين المحبوبين ولكنها هنا بين أهل العلم والفضل يعبر بها عالم شاعر يستقيها من نفس ملتاعة، وسب التياعها حرمانها من زيارة هذا العالم الجليل.

وكم كان الشاعر لطيف التعبير وحلو البيان حين شبه الممدوح وزيارته بأنها الشمس التى تطالعه كل ضحى ولا شك أننا حين نقرأ هذا التشبيه يتبادر إلى ذهننا الدفء والإضاءة، وبالتالى الراحة والهداية التى نفيدها من الشمس، ولو علم شاعرنا كوكبا لأشار إليه، ولكنه شبه بأكبر الكواكب فى هذا الدفء، والإضاءة، سبحان الله، وقد كنت أنتظر من الشاعر أن يشير إلى تكرار الزيارة التى ربما وقعت من الممدوح، وكم كنت أود أن تكون تلك الشمس التى تطالعه كل ضحى تلقاه في وقت آخر لعله اكتفى بالضحى لأنه مظنة طلوعها.

وكم كان الشاعر لطيفا حين أشار إلى زيارة الممدوح بأنه كرم منه، وبين له أنه لا ينبغى أن ينقطع الكرم، وليس هذا بمحتمل عمن يفيد من الكرم، ولا أدل على ذلك من بيته الثالث. وهكذا يبلغ عدد أبيات الشيخ أحمد رضا خان - في مدح مولانا صالح كمال المكى - إثنى عشر بيتا.

المطلب الرابع

مدحه لمولانا عبد القادر البدايونى[١]

مدح شاعرنا شخصية دينية أخرى، هى شخصية مولانا عبد القادر البدايونى، وذلك فى نونيته من البيت رقم إثنين وثلاثين بعد المائة إلى البيت رقم ستة وأربعين بعد المائة[٢] ولقد تسلسل الشاعر فى مدحه مقتديا بالتاريخ فكما بدأ جده من ناحية الوجود ثم تلا ذلك أبوه ثم الممدوح الذى معنا ونحن بصدد الحديث عنه انتهج الشاعر نفس المنهج فبدأ بمدح مولانا عبد المجيد البدايونى[٣] ثم ثنى بابنه مولانا فضل الرسول البدايونى[٤] ثم أتى بعد ذلك بابنه مولانا عبد القادر البدايونى، وقد استغرق فى مدحه خمسة عشر بيتا كان عرضه فيها على النحو الآتى، بدأ مدحه له ببيان مكانته العلمية ومدى شهرته الواسعة فيقول شاعرنا بعدما خاطب نفسه ناصحا

(١) هو العالم الفقيه الشيخ عبد القادر البدايونى بن مولانا فضل الرسول البدايونى. حد العلماء المشهورين فى بلاد الهند من ذرية عثمان بن عفان - رضى الله عنه - ولد ببلدة بدايون سنة ١٢٥٣ للهجرة ونشأ بها وقرأ العلم على الشيخ نور أحمد البدايونى. والعلامة فضل حق الخير ابادى. وأدى فريضة الحج ثم درس فى مكة الحديث على الشيخ جمال عمر المكى ثم رجع إلى الهند. وكان على جانب من العلم والمعرفة، وقد ألف عدة كتب، توفى إلى رحمة الله فى سنة ١٣١٩ للهجرة.

انظر: علماء العرب فى شبه القارة، للشيخ يونس الشيخ ابراهيم السامرائى. ص ٧٩٨.

وانظر: نزهة الخواطر. للشيخ عبد الحى اللكنوى، جـ ٨، ص ٢٧٦.

وانظر: تذكرة علماء أهل سنت، لمولانا محمود أحمد القادرى، ص ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧.

(٢) اشرنا إلى بيانات القصيدة فى الفصل الثانى من الباب الأول.

(٣) سوف نذكر ترجمته فى المطلب السادس من الفصل نفسه .

(٤) سوف نذكر ترجمته فى المطلب السابع من الفصل نفسة .

بالتوجه إلى مدح من سمى باسم الشيخ عبد القادر الجيلانى، وهو مولانا عبد القادر البدايونى. يقول[١]:

ثم الدعاء فارجع غنيا غانما	واقصد سمى السيد البغدادنى
العالم العلامة العلم الذى	ذكراه فائحة بكل معان

ثم يمدح شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان ممدوحه هذا فيشبهه ببحر ماؤه ذو وصفين مختلفين. أحدهما ماء صاف وذلك لأحبابه، وآخرهما ماء مهلك، وذلك لأولى الأضغان. وهذا النوع الثانى تهيج أمواجه وتموج وتفعل بأولى الأضغان ما يجعلهم عبرة للآخرين فيقول شاعرنا متعجبا فى هذا الصدد[٢]:

اعظم ببحر فيه انهار بها	ماء له وصفان مختلفان
فهلاهل مرو لارباب الولا	او هلهل مرد اولى الاضغان
امواجها بيض قوالب البست	حللا ممشقة من الإثخان
هاجت وماجت والسماء تفيض وال	الإحبال ليس يذب عن كنعان
فعلت بهم ما فيه عبرة مثلهم	فعلت على نجد سيول رثان
حتى تداعت للخراب ربوعه	وبكت بواكى النجد فى الميدان

وبعد هذا الوصف يتوجه شاعرنا إلى الدعاء لممدوحه مولانا عبد القادر البدايونى. فيدعو بأن يبقيه الله بالإتقان والإيقان والإبقان[٣] وأن ينضر الله وجهه،

---

(١) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان، ص ٨٠-٨١.
(٢) نفس المرجع. ص ٨١.
(٣) يقول الزبيدى موضحا معنى كلمة الإبقان: (أبقن) أهمله الجوهرى وقال ثعلب عن ابن الأعرابى (بقن) اذا اخضب جنابه. واخضرت نعاله، والنعال الأرضون الصلبة.
تاج العروس من جواهر القاموس. للامام محب الدين محمد مرتضى الزبيدى (ط: المطبعة الخيرية. المنشأة بجمالية مصر، ١٣٠٦هـ). ج ٩. ص ١٤٣.

هنا يظهر على شاعرنا أثر الثقافة التى نالها فى مختلف العلوم الإسلامية ومنها علمه بالحديث الشريف سندا ومتنا فهو يستأنس بما علم فيأتى بلفظ التسلسل المعروف فى رواية الحديث، وبعض ألفاظه على نحو ما دعا له بأن ينضر الله وجهه مستأنسا بحديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى ذلك: "**نضر الله وجه امريء سمع مقالتى فوعاها فبلغها، فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه**"[1].

وأرى الشاعر قد استخدم مصطلحات الحديث فى مدح مولانا عبد القادر البدايونى مما يدل على مدى إلمام شاعرنا بالثقافة الدينية الممتزجة بالبراعة الشعرية فنراه يقول[2]:

فالله ربك سيدى ابقاك بالـ	الإيقان والإتقان والإبقان
ربى ينضر وجهك الاسنى كما	تروى حديث العلم والعرفان
غضا طريا كابرا عن كابر	عن مالك عن نافع امان
ومسلسلا بالمجد والافضال عن	إتقان ضبط ليس فيه توان
ما فيه تدليس ولا وهم ولا	عيب الشذوذ ووصمة الإهان

وبعد هذا المدح الحافل بمصطلحات الحديث يقول شاعرنا يا طالب النجاة إلزم صحبة مولانا عبد القادر البدايونى حيث إنه يحميك عند الشدائد بفضل الله، كما أنه من الذين لا يشقى جليسهم، ومكارمه التى أوردتها حقة - دون ريب - وليست كما يفعل أهل النفاق ففى هذا يقول[3]:

ياباغيا لنجاتك الزم غرزه	يحميك عند طوارق الإيهان

(1) سنن ابن ماجه. للامام ابي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، جـ١ ص ٨٤
(2) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٨١.
(3) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٨١.

فالقوم لا يشقى بهم جلساؤهم والطيب حفظ فيه للندمان

تلك العلى تلك المكارم حقة لاما ادعته عشيرة الإدهان

وبهذه النصيحة أتم شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان مدح مولانا عبد القادر البدايونى، الذى أحبه لتقواه وورعه ولكونه سميا للشيخ عبد القادر الجيلانى ومتربيا بالتربية الإسلامية على يد والده مولانا فضل الرسول البدايونى، هذه هى الأمور الثلاثة التى حركت عواطف وأحاسيس شاعرنا فنظم ما أوردناه من أبيات هذه القصيدة.

المطلب الخامس

مدحه للشيخ عبد القادر الجيلانى(١)

إن الشيخ عبد القادر الجيلانى من أكبر الشخصيات الدينية التى اهتم شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان بمدحها، تعد شخصية الشيخ عبد القادر الجيلانى - مؤسس

(١) ولد الإمام العارف بالله الشيخ عبد القادر الجيلانى بمنتصف شهر شعبان سنة إحدى وسبعين وأربعمائة بجيلان - وهى مجموعة من القرى الفارسية وموقعها الآن شمال ايران - وأمضى بها فترة شبابه الأول إلى أن بلغ الثامنة عشر من عمره فارتحل إلى بغداد ودخلها سنة ثمان وثمانين وأربعمائة. واستمر فيها إلى نهاية حياته.

ابتدأ حياته العلمية بقراءة القران الكريم ودرسه على يد أبى الوفاء على بن عقيل وابى الخطاب محفوظ الحنبليين، أما الحديث النبوى الشريف فدرس على أيدى كثير من مشاهير عصره من الحفاظ كابى غالب محمد بن الحسن الباقلانى، وتفقه على أيدى مشاهير عصره من الفقهاء كابى سعد المخرمى الذى تلقى عنه الشيخ عبد القادر الجيلانى الإجازة فى التصوف أيضا واسهم حماد الدباس فى تعليمه الطريقة أيضا، وتعلم الأدب واللغة على يد أبى زكريا يحيى بن على التبريزى.

جلس للوعظ فى شوال سنة إحدى وعشرين وخمسمائة فى مدرسة أبى سعد المخرمى بباب الأزج فى بغداد وذاع صيته فى الزهد فضاقت المدرسة بالناس مما اضطره إلى توسعتها، حتى نقل مجلسه إلى خارج بغداد عند المصلى، فقد أصبح يحضر مجلسه عدد كبير من الناس قدر بسبعين ألف، وتتلمذ على يديه عدد كبير من العلماء والفقهاء والمحدثين وأرباب الأحوال والمقامات.

انتقل الشيخ - رحمه الله تعالى - إلى جوار ربه فى عاشر ربيع الأول سنة إحدى وستين وخمسمائة، وشيعه خلق لا يحصون، ودفن بمدرسته بباب الأزج ببغداد حيث يزار قبره حتى اليوم.

وإن نسب الشيخ عبد القادر الجيلانى محل خلاف والأكثرون على أنه عبد القادر بن أبى صالح جنكى دوست وبعضهم يدخل موسى قبل أبى صالح، على أن الكثير من الكتب حافلة بذكره فمن أراد التحقيق المزيد فليرجع إلى هذه الكتب ولم أشأ أن أطيل حتى لا أخرج عن الموضوع الذى بين أيدينا.

انظر: سير أعلام النبلاء، للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى. (ط: مؤسسة الرسالة. ١٤١٠هـ)، ج ٢٠، ص ٤٣٩ : ٤٥١.

وأنظر: الشيخ عبد القادر الجيلانى الإمام الزاهد القدوه، للدكتور عبد الرازق الكيلانى. (ط: دار القلم، دمشق)، ص ٨٥، ٨٦، ٨٨، ٩٠.

الطريقة القادرية - واحدا من كبار رجالات التصوف، فقد أحبه شاعرنا لانتسابه إلى الطريقة القادرية مرة، ولكون ممدوحه من عترة الرسول - صلى الله عليه وسلم - مرة أخرى، وكان سيدنا الشيخ عبد القادر الجيلاني موضع مدح شاعرنا باللغات الثلاثة، العربية، والفارسية، والأردية، ولما كان شعره الفارسي والأردي خارجا عن موضوعنا إكتفينا بإيراد ما نظمه شاعرنا في ديوانه العربي، وأول ما يطالعنا في مدح الشيخ عبد القادر الجيلاني أبيات ضمن قصيدة صاغها في مدح مولانا فضل الرسول البدايوني[١] فهذه الأبيات من البيت التاسع والخمسين بعد المائة، إلى البيت الثاني والتسعين بعد المائة وبالتالي فإن أبيات المدح هذه أربعة وثلاثون بيتا، ولما كان الممدوح والناظم من المنتسبين إلى الطريقة القادرية اهتم شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان بمدح الشيخ عبد القادر الجيلاني، وذلك بأن نظم في الرد على بعض المعاصرين له من المخالفين لأهل السنة والجماعة، يقول شاعرنا بأنه كلما أصابه هم توسل بالشيخ عبد القادر الجيلاني إلى الله تعالى[٢] ونجد شاعرنا يورد العبارة "الفقير العاني" و "الأثيم الجاني" - ويقصد نفسه - تواضعا لله تعالى ولنسمع صوت شاعرنا حيث يقول[٣]:

"صه يارضا لاتكترث لحثالة	ستطير في نسم وفي نسمان
ورعتك عين الله قم فاسمع إلى	قولي فقولي منشط الاذهان
إني إذا هم هم داهم	فاهم همت وقلت في هيماني
لله شيئا للاثيم الجاني	يابن الكريم الدائم الغفران"

يرى شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان أن الأنظار عجزت عن درك مرتبة ممدوحه فرجعت خائبة، وإنه يشبه مادح الشيخ عبد القادر الجيلاني بقول الرجل الأصم - الذي لم يسمع الأصوات - في عالم الأصوات، ويشبهه كذلك بالأعمى الذي يصف الألوان ولم يرها، ثم يشير إلى مدى انتشار شهرة ممدوحه ومدى تأثيره

---

(١) شرنا إلى بيانات هذه القصيدة في الفصل الثاني من الباب الأول تحت عنوان "موهبته الأدبية".
(٢) ليس هذا مجال مناقشة لموضوع "التوسل فاهتمامنا بالناحية الأدبية من تصوير وتشبيه، إلى غير ذلك مما يعين على ادراك معنى الشعر.
(٣) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٨٢.

بالغ فيقول[١]:

"اعيى البصائر درك سرك والنـهى — نكصت بلا شرب إلى الاعطـان
فالقول قول الصم فى الاصـــوات — والمدح مدح العمـــى للالــوان
من قال ليس وراء عبادان شـــيئ — انت الـــورا وراء عبـــادان"[٢]

ثم بعد هذا نرى شاعرنا يقدم على مدح الشيخ عبد القادر الجيلانى وذلك بعـد أن أظهر عجزه عن مدحه لهذا الرجل العظيم الذى أكرمه الله تعالى بالمرتبة العالية بين الأولياء الصالحين، وأنزله الله في نفوس المؤمنين منزلة كبيرة كما هو فى نظر الشاعر، فلنستمع إليه حيث يقول[٣]:

"يـــامن مكانتـــه بجمــــــع الأوليـــا — كمكانة الأرواح فى الأبـــدان
والبحر فى الأنهار والقرآن فـــى الـــ — أسفار والأباء فـــى الولـــدان
والنور فى الإنسان والإنسان فى الـــ — أعيان والأعيان فى الجثمـــان
والطيب فى الريحان والريحان فى الـــ — قضبان والقضبان فى العيـدان"

نلاحظ أن شاعرنا يرى ممدوحه خلاصة كل شيئ، فعبر عنه بأنه خير ما فى الشيئ، والخيرية التى تتحكم وتعتبر قمته، وهو لون من ألوان المديح مبتكر نستطيع أن نضيفه إلى ابتكار شاعرنا، يسمو شاعرنا بالشيخ عبد القادر الجيلانـــى ويجعلـــه قمة كل شيئ، وبالتالى لا يغالى فى المدح، فهو لا يخرج عن كنهه وإنما يحكم عليه بأنه الخير الموجود فى كل شيئ، وقمة الشيئ أعلاه، والمتحكم فى الشـــيئ أهمـــه، هذه الأهمية وذاك العلو هو خير ما فى الأشياء، وهذا هو الخير الذى حكم به على ممدوحه، وبعد هذا يناجى شاعرنا ممدوحه - كما هو دأب الشعراء - الذى ســيطر حبه على قلبه، فنجده يصرح له بما يجيش فى داخله من أشواق، وأحزان، ويبين له

(١) المرجع السابق، ص ٨٣
(٢) يقول شاعرنا موضحا معنى كلمة عبادان: اسم بلد ليس وراءه عمران، المرجع السابق، ص ٩٩.
(٣) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٨٣.

ما بينه وبين الممدوح من علاقة الحب في الله ولله، فيقول[١]:

أدعوك بالقلب الحزين وقد مضى	أن لا يجازى الحزن بالحرمان
إن لم تكن لى قربة إلا الــولا[٢]	فولاك أوجهُ أوجــه القربــان
أوردت راحلتى مــوارد حبكم	الحمــد لله الـــذى آوانــى
لم أعتقــد فيكـم بســوء ساعة	الحمــد لله الــذى عافــانى

مما يضاف إلى جماليات المدح التى نعدها لشاعرنا وتحسب له لا عليه، هـو مدحه لرجل قضى تسعين عاما فى هذه الحياة بيـن القـرن الخـامس والسـادس الهجريين - كما أشرنا إلى ذلك - والمادح قد عاش بين القرن الثالث عشر والرابع عشر الهجريين، استحضاره لهذه الشخصية مع أنها رحلت منذ زمن، ولكنه يـرى حياة هذه الشخصية بوجود آثارها وفكر صاحبها، وإرشاداته، وتوجيهاته، فهذا مـن أسمى ألوان المديح الذى يقدمه شاعرنا لممدوحه، إنه المعايشة التامـة مـع فكـر وإرشاد وتوجيهات، وكأنما يعيش مع صاحب هذا كله، وكأنه لم يمت بعد، وكيـف يموت وقد بقيت لنا آثاره وتعاليمه، وتصوفه بصفة عامة، ومادام لم يمت فالشـاعر يرجو نداه ذلك المتمثل فى إدراكه الطريقة وفهمه لمسلكه بصفة عامة، حتى يحظى بأن يعد واحدا من أتباعه.

وما أعظم الشاعر الذى يمدح ولا ينسيه المدح ربه - سبحانه وتعالى - فـهو يمدح إنسانا وبالتالى يذكر ربه حامدا عطاءه المتمثل فى الإيـواء والمعافـاة فـى شطرتين وهو حين يقول: "الحمد لله الذى آوانى" ثم يقول فى الشـطرة الأخـرى: "الحمد لله الذى عافانى" إنه يشعر القارئ لشعره بأن لسانه هو الذى نطقها وليـس الشاعر، معنى ذلك أن الشاعر جعل من نفسه قارئا لشعره، ثم نطـق بمـا يحـب القارئ أن يقوله، وهذا انسجام بديع بين الشاعر والقارئ لشعره كما يتراءى للباحث ويحسه من خلال هاتين الشطرتين المشار اليهما.

---

(١) المرجع السابق. ص ٨٣.

(٢) استخدم شاعرنا كلمة "الولا" ترخيما للولاية ويعنى بها المحبة التى تجمعهما.

وهكذا يستمر شاعرنا فى نجواه، ويشكوا إليه حالة قلبه مذكرا إياه بلقبه "محى الدين" وإنه عمر القلوب بذكر الله من خلال إرشاداته وتوجيهاته، وما قام به من تربية روحية للمريدين، فيقول له: ما دمت مرشدا لى فلا يصيب قلبى الموت[١]، ويمدح كذلك جوده فيقول[٢]:

"ياغوثنا قلبى يجود بنفسه	ونداك خير ند على الموتان
أيصيبه موت وأنت نصيبه	ومحى دين الله لا ينسانى
جدلى بما أملته ياموئلى	ياروح دين أطيب الأديان
إن كان أرضى صفصفا قاعا فلا[٣]	بأس ولا يأس من الإغضان
فالقفر ليس بمقفر ممن جودكم	والجود لا يختص بالبستان
كم زهرة بسمت بغيث فى الفلا	كشقائق النعمان والطيان"

ونراه يحكى لمرشده همومه وأفكاره القلقة كما يحكى التلميذ مشاكله لأستاذه ويسأله الإرشاد والمساعدة للتغلب على هذه المشاكل، ثم يطمئن شاعرنا قلبه قائلا: إن الشيخ عبد القادر الجيلانى أستاذى ومرشدى فلا داعى للإضطراب، وبعد هذا يقول: إن هذه الهموم والأفكار بمنزلة الداء ولكن هناك مصيبة تفوق هذا الداء وهى

---

(١) يقول الجرجانى: الموت صفة وجودية خلقت ضد الحياة، وباصطلاح أهل الحق قمع هوى النفس، فمن مات عن هواه فقد حيى بهداه، والموت الأحمر مخالفة النفس، والموت الأبيض هو الجوع لأنه ينور الباطن ويبيض وجه القلب، فمن ماتت بطنته حييت فطنته، والموت الأخضر هو لبس المرقع من الخرق الملقاة التى لا قيمة لها لاخضرار عيشه بالقناعة، والموت الأسود هو احتمال أذى الخلق، وهو الفناء فى الله لشهود الأذى منه برؤية فناء الأفعال فى فعل محبوبه. كتاب التعريفات للعلامة على بن محمد السيد الشريف الجرجانى / حققه الدكتور عبد المنعم الحفنى (ط: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى، ١٣٥٧هـ)، ص ٢١١.
وانظر: معجم مصطلحات الصوفية، للدكتور عبد المنعم الحفنى (ط: دار السيرة، بيروت. ١٤٠٧هـ). ص ٢٥٠.

(٢) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٨٣.

(٣) لاقتباس واضح من القران الكريم: **{ويسئلونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا فيذرها قاعا صفصفا}**، سورة طه ٢٠/١٠٥، ١٠٦.

مشكلة هجر الممدوح مع شدة الشوق إليه وفى هذا يقول[١]:

لا بأس إن أدرت ذنوبى نارها ... تطفى حريق شنانها بشنان

فاجعل عبيدك[٢] هاديا مهديا ... يمحو الضلالة فى رضى الرحمان

أأضاع فقرا أم أضام مذلة ... أولست أنت بضامني وضمانى

هذى هموم كلها داء ولا ... كرزية ألقى من الهجران

ياويح من ينحى إليك فيعترى ... شؤمُ الذنوب وألفة الأوطان

وعندما يشتد شوق شاعرنا إلى الشيخ عبد القادر الجيلانى، ويشعر بعدم استطاعة كبت مشاعره يبادر بحكاية أحوال قلبه المشتاق الذى مازال يعانى شعور الفراق، والقلب الأواه السجين في سجن الهجر والفراق، ويسأل حبيبه قائلا: يا راحتي، يا روح المنى، ياسلوة أحزانى كيف الوصول إليك؟ والصوفية يحبون مشايخهم حبا جما لله وفى الله، وأدب التصوف خير شاهد على رأينا هذا - فإن الصوفية يحبون مشايخهم لقيامهم على إرشادهم إلى الحب الإلهى حتى تصل علاقة العبد بمعبوده إلى القمة فينظر هذا الإنسان إلى البشرية كلها بنظر المحبة فيرى أن الخلق كلهم عبيد لله، كل على قدر محبته وقربه على أساس أن البشر هى بعض صنعة الله – عز وجل – فى الكون، وحب الصنعة محبة للصانع – جل وعلا –، هكذا ينير المشايخ دروب المحبة المؤدية إلى رحاب ربهم فيحبهم تلاميذهم ومريدوهم بكل أنفسهم، فلهذا نرى أدب التصوف متصفا بالرقة والتفاني فى الحب والإخلاص وذلك لصدق العاطفة، وفى هذا يقول شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان[٣]:

"نال الفراق من الفؤاد مرامه ... هيهات للإسلاء والإسكان

كيف الوصول إليك ياروح المنى ... ياراحتى ياسلوة الأحزان

---

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان، ص ٨٤.

(٢) اعتقد أنه يقصد بالعبودية هنا حبا يبلغ به حدا يملكه تفكيره واحتفاؤه به وليست كعبوديتنا لله عز وجل. وفى هذه الأبيات أفكار تنسب إلى المتصوفة أقرب منها إلى أي شئ اخر (الباحث).

(٣) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان، ص ٨٤.

كيف الوصول وحال بحـــر بيننــا ... وسفينتى متلاطــــم الطوفــان

أم كيف يرجو الوصل عبد باء فـى ... سجن الشجون باسوا الارسـان

قلب شج مشجى شــــجيج شـــاجن ... أوه من الإشجان والاشــــجان

نلاحظ أن الشاعر يستعرض ثقافته العربية فيـــأتى بـــالكثير مـــن المشـــتقات المأخوذة من أصل واحد، ولا أدرى إن كان ساعتها قد استحضر بيت الأعشـــى أو المتنبئ، يقول الأعشى[١]:

وقد غدوت إلى الحـــــانوت يتبعنـــى ... شاو مشل شلول شلشل شـول

ويقول المتنبى[٢]:

فقلقلت بالهم الذى قلقـــل الحشـــى ... قلاقل عيـــس كلـــهن قلاقـــل

بصرف النظر عن موضوع بيت الأعشى وعما قاله البلاغيون فى الحكـــــم علـــى فصاحة بيت المتنبئ، وأعتقد أن شاعرنا قد أراد أن يدلى بدلوه لبيان مـــدى ثقافتـــه العربية. نرى شاعرنا يخاطب نفسه بعد ما أبرز مشاعره الجياشة ويقول[٣]:

"ارفق بنفسك يـــا مذكـــر همـــه ... هو عالم الاســــرار والاعـــلان

فيه استجر واستجز أعيان الغنـــى ... وبه استعن واستغن عن اعـوان"

هذه هى مشاعر شاعرنا تجاه شخصية أحب الله تعالى ورسوله - صلـــى الله عليه وسلم - كما أحب خلق الله تعالى لله وفـــى الله، وقـــام بـــإصلاح المســـلمين وإرشادهم وتربيتهم بالحكمة والموعظة الحسنة فأحبه الخلق أيضا حبا جما، وكـــان شاعرنا أيضا ضمن المحبين له، المعترفين بأفضاله - جيلا بعد جيل -.

---

(١) ديوان الأعشى، (ط: دار صادر، بيروت، دون سنة طبع)، ص ١٤٧.

(٢) ديوان المتنبئ بشرح أبى البقاء العكبرى (ط: شركة ومكتبة المصطفـــى البـــابى الحلبـــى وأولاه بمصر، دون سنة طبع)، جـــ ٣، ص ١٧٥.

(٣) هذه شطحة من الشطحات التى قد تعرض لبعض الشعراء، ربما يقولها الصوفى وهـــو لا يقصد أن يصف ممدوحه بوصف خاص بالله عز وجل، وإنما يعبر بمثل هذا كنايـــة عـــن مـــدى الامتزاج بين الشاعر والممدوح من ناحية التمسك بفكر الممدوح، وإرشاده وطريقته بصفة عامـــة (الباحث).

لم يكن شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان مجرد شاعر بل كان من كبار علماء الأحناف أيضا فى شبه القارة الهندية فإنه أنشد بيتا على غرار بيتين للشاعر حنفي المذهب[١] مما يظهر حبه للمذهب الحنفى و الشيخ عبد القادر الجيلانى، ففى هذ يقول[٢]:

"حسبى من الخيرات ما اعددته	يوم القيامة فى رضى الرحمن"
"دين النبى محمد خير الورى	ثم اعتقادى مذهب النعمان"
و إرادتى و عقيدتى و محبتى	للشيخ عبد القادر الجيلانى

هذه هى أحاسيس شاعرنا نحو الشخصية التى أحبها الكثيرون على مر العصور - ومازالوا يحبونه - مع تعدد البلاد و الألسنة، و استناروا - ومازالوا يستنيرون - بتعاليمه الدينية وينتمون إلى ميوله الصوفية، وبهذا يكون شاعرنا قد أتم مدحه للشيخ عبد القادر الجيلانى ونصيبه من الذكر فى هذه القصيدة، وما أحسن الإتمام إذا كان الشاعر قد اختتمه بذكر الضمير العائد على ممدوحه و هو قوله: "وبه استعن و استغن عن أعوان" وبالتالى فإن شاعرنا موفق غاية التوفيق فى الاختتام بحيث لا يمكن أن نستبدل هذا الاختتام باختتام آخر و إن كنت قد ذكرت بيتا لشاعرنا نظمه على غرار بيتين لشاعر حنفى و استحسنته أيضا.

---

(١) حاولت البحث عن ناظم هذين البيتين فوجدت الإمام السيوطي يقول: قال ابن خسرو أنشدني القاضي أبو سعيد محمد أحمد بن محمد قال أنشدنا الأستاذ الأديب أبو يوسف بن أحمد بن محمد لنفسه "حسبى من الخيرات" الخ.
تبيض الصحيفة فى أخبار أبى حنفيفة، للإمام جلال الدين السيوطى (ط: مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية، حيدر اباد الدكن، الهند، ١٣٣٤هـ)، ص ٢٥.

(٢) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٢١٢.

المطلب السادس

مدحه لمولانا عبد المجيد البدايونى[1]

مدح شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان مولانا عبد المجيد البدايونى - والد مولانا فضل الرسول البدايونى - ضمن النونية التى كان غرضها الأساسى مدح مولانا فضل الرسول البدايونى[2] وقد قام بمدح والده من البيت السادس بعد المائة إلى البيت الحادى والعشرين بعد المائة، ثم أخذ بمدحهما معا واستمر هذا المدح المزدوج إلى البيت الثامن والعشرين بعد المائة، يقول شاعرنا إنه يلتجى - أيضا - عند الشدائد إلى روح مولانا عبد المجيد البدايونى حيث يدعو الله تبارك وتعالى فى لحظات يراها لحظات إجابة الدعاء، يقول شاعرنا فى هذا الصدد[3]:

"فحيا الحياء مبسم زهر الغنى   أنا ملتج والملتجى عثمانى

---

(١) الشيخ الفاضل عبد المجيد بن عبد الحميد البدايونى أحد مشايخ الصوفية ولد لثمانية بقيت من شهر رمضان سنة سبع وسبعين ومائة وألف. وتربى فى كنف الشيخ محمد على البدايونى وقرأ عليه مبادئ العلوم ثم سافر إلى بلاد اوده ودرس على الشيخ ذو الفقار على. ثم ذهب إلى مارهرة وأخذ الطريقة عن السيد آل احمد المارهروى ولازمه مدة طويلة وذهب إلى الحجاز وادى فريضة الحج وهو فى الثمانين من عمره. مات لسبع عشرة خلون من شهر محرم سنة ثلاث وستين ومائتين وألف.

انظر : علماء العرب فى شبه القارة، للشيخ يونس الشيخ ابراهيم السامرائى، ص ٦٣٥.

وانظر :نزهة الخواطر، للشيخ عبد الحى اللكنوى، جـ ٧، ص ٣١٨.

وانظر : تذكرة علماء اهل سنت، لمولانا محمود أحمد القادرى. ص ١٣٥-١٣٦.

(٢) أشرنا الى بيانات هذه القصيدة فى الفصل الثانى من الباب الأول.

(٣) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٧٨-٧٩.

فإذا رأيـــت إجابـــة فانـــهض إلـــى	قبر المجيد الأمجد الروحانى
وهناك فاســـتفرغ بجـــهدك للدعـــا	إن المقام مقام الاســـتيمان(١)
أخضـــل ثـــراه بعـــبرة هطالـــــة	أقما ترى طلا على ريحـــان

نرى شاعرنا يستغيث ويتوسل بمولانا عبد المجيد البدايونى قائلا: إنه لم يتردد إلى أبواب الأغنياء لكسب الأموال. بل إنه كره عطاءهم ونوالهم ورغب فى عطاء الممدوح المشار إليه فيقول(٢):

"هذا الذى يدعوك ياعين العطـا	من ضيفكم والضيف غير مـهان
كن عند شدته الشـــــهيد وداره	ياابن الشـــهيد بـــدارة عثمـــان
لا اسأل الأمراء بـــل إيـــاك إذ	لم يبن باب الفضل فى الإيـــوان
أرجو عطاءك كارها لعطائـــهم	إذ ليس باب المجد فى الديـــوان
جانبت ظلمتهم وجئت إليـــك إذ	ما تم باب النور فـــى وجدانـــى
قد كنت ياتيم ابن حمزة ســـيدا	فـــردا فريـــدا فـــاقدا لمـــــدان
أى ما خلا ريحان آل محمـــــد	ذاك ابن شيخك سيدى وأمـــانى"

وانتقل بعد هذا إلى وصف الممدوح بالجود والسخاء وأنه حلال مشكلة ودفاع معضلة عن المصاب وفى هذا يقول(٣):

حلال مشكلة تعى أهـــل النـــهى	دفاع معضلـــــة عـــن اللـــهفان

---

(١) يعنى طلب اليمن والبركة.
(٢) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٧٩.
(٣) المرجع السابق. ص ٧٩.

بأبى وأمـــى لا يقـاس بجـوده ... ما ليس يدرك بالسؤال حبـــانى

ما بعت نفسى منه بل هو بالسخا ... والجود من أيدى العنود شـرانى

ويحكى لنا الشاعر تجربته حين رعاه الممدوح فى ظروف صعبة، ثم بـــدأ - يمدح الرجلين معا - وهما مولانا عبد المجيد البدايونى وابنه مولانا فضل الرســول البدايونى - بالجود الهائل والسبقة فى الفضل فيقول[١]:

"يوما أحاط بى العدى ودنا الـــردى ... إذ جاء يجر رداءه فرعـانى

لا أعدلــن بـــه ولكـــن أنتمـــا ... بحران سباقان يـوم رهـان

جاوزتمـا الميتـــاء أول وهلـــة ... والخيل مازالت عن الميطان

فسبقتما فى الفضـــل مـــن سـابقتما ... وبقيتما لا تقـــدران لمـان"

وبعد هذا ينتقل شاعرنا إلى وصف ممدوحيه بالقمرين على عـرش الخلافـة التى شرف الله تعالى بها الإنسان، وبين أنهما متأسيان بسيدنا عمر بن الخطـــاب - رضى الله عنه - ثم يحكى لنا شاعرنا صفة ممدوحه على لسان القمرين الذين غربا ولكنهما لم يتمكنا من إكمال حديثهما فى بيان وصف الممدوحين لشاعرنا، ففى هـذا يقول شاعرنا[٢]:

من أنتما قمرا جلال بل علـى ... عرش الخلافة والعلى عمـران

يحكى بهاءكما ونور سـناكما ... قمران معتوران فى الأعنـان

حكيا ولكن ما استتما إذ بـدا ... لهما الأفول ونازع اللمعـــان

---

(١) المرجع السابق، ص ٨٠

(٢) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٨٠.

من شئت أسأل منكما ما أنتما   إلا لشـيخكما الكريـم يـدان

كان لابد أن يقول عنهما عمران، فلا يستطيع أن يشبه كل واحد منهما بأحد من الصحابة حتى لا تقع المفاضلة بين الوالد وولده، وقد تتفاوت المفاضلة في جانب اخر. وقد تعلو في جانب غيره و بالتالي يكون الاختلاف بين الوالد وولده، ولكنهما لما كانا عبارة عن والد وولده استحسن شاعرنا أن يشبههما بصحابي بعينه ويجعل ممدوحيه شبيهين لسيدنا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - و إذا كانت عائلة سيدنا عمر تفخر بانتسابه إليها فمن البدهي أن تفخر هذه الأسرة بأنها ولدت عمرين وليس عمرا واحدا، وإن لم يصرح بذلك وإنما هو الإيحاء الذى نستشفه من كلمة واحدة في شعره سبق لنا أن أشرنا إليها (عمران) مع تقديرنا لسيدنا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وهو أصل التشبيه، وأرى أن القاسم المشترك ووجه الشبه بين المشبه والمشبه به يتمثل في تصديهما للخارجين على الشريعة وإلا فمرتبة الصحابة لا يستطيع أن يبلغها أحد مهما كانت أعماله الصالحة.

بعد هذه الأبيات التى نظمها شاعرنا في مدح مولانا عبد المجيد البدايوني وابنه مولانا فضل الرسول البدايوني يدعو لهما أن يكرمهما الله تعالى في الجنة متجليا عليهما باللطف والرضوان وأن يجزيهما مثوبة من عنده في الجنة ببركة سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيقول في هذا الصدد[1]:

فالله ربكما غـدا لقاكمـا   متجليا باللطف والرضـوان

وجزاكما بمثوبة من عنـده   في عدنه بنبيـه العدنـاني

إنه ختام طيب، كأن شاعرنا دعا للممدوحين، وكأنما بعد مديحه لا يحتاجان إلا للدعاء، وبه تكون قد كملت مدحته فيهما في هذه القصيدة، على أننا نراه ينتقل

---

(١) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٨٠.

إلى نفسه ناصحا إياها، بالتوجه إلى من سمى باسم الشيخ عبد القادر الجيلانى وهو مولانا عبد القادر البدايونى ابن مولانا فضل الرسول البدايونى فيقول[١]:

تم الدعاء فارجع غنيا غانما ٭ واقصد سمىّ السيد البغدانى[٢]

وبعد هذا البيت وهو البيت الحادى والثلاثون بعد المائة – فى القصدية النونية والتى بين أيدينا – أخذ شاعرنا يمدح مولانا عبد القادر البدايونى[٣] وبالطبع أول ما استهواه موافقة اسمه لاسم الشيخ عبد القادر الجيلانى.

---

(١) المرجع السابق، ص ٨٠.
(٢) يقول الشيخ أحمد رضا خان معلقا على كلمة بغدانى: والبغدان بالنون لغة شائعة من سبع لغات فى بغداد. المرجع السابق، ص ٩٧.
(٣) لقد حاولنا دراسة الأبيات فى مدحه فميا سبق فى المبحث الثالث وذلك نظرا لترتيب الأسماء أبجديا. وان لم يكن هذا الترتيب حسب المراتب (الباحث).

المطلب السابع

مدحه لمولانا فضل الرسول البدايونى

أنشد شاعرنا قصيدتين فى مدح مولانا فضل الرسول البدايونى، فقد نظم أولاهما من بحر الكامل المجزوء وثانيتهما من بحر الكامل التام، وتشتمل القصيدة الأولى التى نحن بصددها على اثنين وسبعين بيتا استهلها شاعرنا بحمد لله تعالى والصلاة على خير الأنام محمد – صلى الله عليه وسلم – وآله وأصحابه – رضى الله عنهم أجمعين – ثم أقبل على مناجاته ربه مستمرا إلى البيت رقم عشرين من هذه القصيدة، ثم انتقل إلى هجاء المخالفين لأهل السنة والجماعة حتى البيت رقم ثمانية وعشرين[١] وبعد هذا يتناول شاعرنا شخصية الممدوح التى صاغ لأجلها هذه القصيدة، ويستمر هذا المدح إلى البيت رقم أربعة وثلاثين، فيصف مولانا فضل الرسول البدايونى بما أكرمه الله تعالى من فضل، ومجد، وفيض روحى، وجود، حتى أشرقت بوارقه بعليا فرقد، ونشرت الضياء فى الكون وفى هذا يقول شاعرنا[٢]:

فضل الرسول هو الذى	والاه كل مسدد
وموافق لموفق	يحظى بأوفق مقصد
أعظم به كم فاز من	فضل ومجد ماجد

---

(١) بساتين الغفران. للشيخ احمد رضا خان . ص ٥٨ : ٦٢.
(٢) المرجع السابق. ص ٦٢، ٦٣.

أكرم به كم حــاز مــن	فيض وجود جــــائد
انظـــــر بوارقـــــه إذا	برقت بعليــا فرقـد
نعــم الضيــاء ويالـــه	من واقـــد متوقـد

وبعد هذا يتوجه شاعرنا إلى هجاء المخالفين لمولانا فضل الرسول البدايونـي، الذين لم يستنيروا من إرشاداته وتوجيهاته وأصروا على ما كانوا عليه على الرغـم من محاولات الممدوح لإقناعهم بالمفاهيم الإسلامية المستمدة من الأصلين الشريفين، ولما فشلت هذه المحاولات ولم يتراجعوا عن آرائهم قام ممدوح شاعرنا بالرد عليهم بمصنفاته ومواعظه، ويصف لنا الشيخ أحمد رضا خان هذه الأمور في سبعة أبيات من البيت رقم اثنين وأربعين إلى البيت رقم ثمانية وأربعين فيقول[١]:

"فالله يجزيـــك الجــزا	يــا قاصمــا لمعــــاند
إذ كان هديــــك هاديــا	يحمي عن النهج الـردى
تسطوا على أهل الجفــا	سطو المؤمر من عــدى
قطعت يـــداك و تينــهم	بمحــــدد ومــــــهند
فسبحت بحــر دمائـــهم	فيها تــــروح و تغتــدى
أثخنتـــهم حقــا فــــلا	يقتص منـــك ولا تــدى
حاججتـــهم فحججتـــهم	وحججت خير معـــابد"

وبعد هذا يشير شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان إلـــى قصــد ممدوحـــه أرض الحرمين الشريفين، ويخص بالذكر شد رحاله لزيارة قبر الرسول – صلى الله عليه

(١) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان . ص ٦٤-٦٥.

وسلم – ثم يتحدث عن إقبال الناس عليه بعد عودته إلى الهند، وفي هذا يقول شاعرنا[١]:

"وقصدت طيبة طيب فوردت أعذب مورد
وشددت رحلك نحوه فشهدت أطيب مشهد
اليوم كل مقوم بك يهتدى بك يقتدى"

نلاحظ أن شاعرنا شبه ممدوحه بصحابة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولا نجد أرقى في الحديث عن الممدوح وتدينه من أن يشبه بصحابة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهم القمة في الهداية والاقتداء بهم، مقتبسا هذا من حديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن صحابته: "**أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم**"[٢]، ونلاحظ أن وجه الشبه بين المشبه وهو مولانا فضل الرسول البدايوني والمشبه به وهم الصحابة – رضى الله عنهم أجمعين – ليس إلا بلوغه مبلغا يقتدى ويهتدى به، وذلك بسبب اتباع الممدوح المشبه للصحابة – رضى الله عنهم – المشبه بهم.

وانتقل شاعرنا بعد هذا إلى رحلة ممدوحه من العالم الفاني مرضيا إلى العالم الباقي. ويسأل ممدوحه أن يتشفع لناظم القصيدة عند الحبيب المصطفى – صلى الله عليه وسلم – ويعبر شاعرنا عن هذه المشاعر بقوله[٣]:

فحشرت مرضيا إلى عدن كأحسن واحد
ونبيك المتفضل أدناك في ذا المقعد

---

(١) المرجع السابق. ص ٦٦.
(٢) صحيح مسلم المسمى الجامع الصحيح للإمام مسلم بن الحجاج القشيري (ط: مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر. ١٣٧٧هـ). ج ١. ص ١٨.
(٣) نسبة إلى أستاذه ونائب شيخه الشاه أبو الحسين أحمد النوري شيخ الطريقة القادرية.

فإذن تشفع للرضـــــا　　　عند النبى الامجـــد

بــالله لا تنســـــــاه اذ　　　هو قادرى احمـــدى

ونجد شاعرنا فى غاية الفرح والغبطة والسرور بـــــهذه الشـــفاعة المأمولـــة المترقبة فإنها تفتتح الطريق إلى الجنة حيث ينتظر شاعرنا قرة عينيه برؤية الجمال الإلهى، وجمال الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - فيبشر نفســـه بـــالخير ويوجهها إلى الشكر لله تعالى فيقول[١]:

"يانفس طـــــاب اوانـــك　　　فتشـــكرى وتجلـــــــدى

انت المنى ودنى الــــهنا　　　فلوجه ربـــك فاسـجدى

نبـــع العبـــاب فلاظمـــا　　　وسخا السحاب فلاصـدى

وجما الجمال جلا العنـــا　　　وجلا الجلال الســـرمدى

وچنا الجنان لمن جنــــا　　　فكلى وطيبــــى واحمــد

وادعـــى قلوبـــا لينـــــة　　　ودعى القســـى الجلمــد

إذ ان هذا عرس مــن[٢]　　　بنـــداه مزرعنـــا نـــدى"

ولا ننسى أن نقول لشاعرنا لقد أحسسنا بجناسك الذى زينت به أبياتك الثلاثـة، ونحن إذ قرأناه لا نشعر بأنك قد تكلفت عناء وإنما سيق إليك التعبير سوقا، وسلمت لك الألفاظ قيادها تسليما، فكانت عباراتك فى الأبيات الثلاثة رصينة غير مستكرهة لطيفة مستملحة غير قلقلة.

وأما الأبيات الخمسة الأخيرة من البيت السابع والستين إلـــى البيـــت الثـــانى والسبعين وهو الأخير فقد قضاها فى مدح أولى البشر بالمدح لأنه سيدهم فضلا عن أنه سيد الكون كله - صلوات الله وتسليماته عليه - وقد تمثل مدحـــــه هـــذا فـــى

(١) بساتين الغفران، للشيخ احمد رضا خان ، ص ٦٦، ٦٧.

(٢) يقصد المسلمون فى شبه القارة الباكستانية والهندية من كلمة العرس احتفالهم بأيام وفاة الأوليـــــاء الصالحين الى رحمة ربهم، ويقومون بهذه الحفلة بمناسبة مرور الحول السنوى على وفاة هـــولاء الأولياء الصالحين. وفى هذه الحفلات يقومون بإهداء الثواب إلى أرواحهم. كما يهتمون بالمواعظ الحسنة للتذكير بالأخرة، والترغيب فى الأعمال الصالحة والتنفير عن البدع والمعاصى. واتخـــذوا فكرة تسمية هذه المناسبة بالعرس من الحديث النبوى الشريف الذى يخبر فيه الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم - عن حضور المنكر والنكير فى القبر وقولهما للميت الناجح فى الرد علـــى استلهم: نم كنومة العروس". سنن الترمذى للامام عيسى محمد بن عيسى الترمذى (ط: شـــركة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر. ١٣٨٥هـــ)، جـــ ٣، ص ٣٤٣.

الصلاة و السلام على الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - و هكــــذا يكــون شاعرنا قد جعل مدح مولانا فضل الرسول البدايونى بين مرتين صلى فيهما علـــى النبي المختار - صلى الله عليه وسلم - بعد أن بدأ قصيدته بالحمد مــرة وبــالغزل العفيف مرة أخرى، ونحن إذ نذكر هذا لا ننسى لشاعرنا أنه اختتم مدحه للممــدوح بذكر تاريخ وفاة الممدوح ثم يذكر السنة التى قيلت فيها هذه القصيدة، وذاك فى بيته السادس والستين - كما أسلفت - وهو نوع من الختام يلجأ إليه شاعرنا فى الكثـــير من قصائده مطابقا بذلك ما عليه أهل عصره فى الهند.

تشتمل هذه القصيدة على اثنين وسبعين بيتا خصص منها أحدا وثلاثين بيتـــا لمدح مولانا فضل الرسول البدايونى، وقد لاحظنا أن الشيخ أحمد رضا خان تطـرق لأغراض شعرية أخرى غير الغرض الرئيسى والأساسى الذى أنشد من أجله هــذه القصيدة.

وبعد هذا يتقدم شاعرنا فى استخراج تاريخ الوفاة لمولانـــا فضــل الرســول البدايونى، وذلك فى الشطرة الأولى من البيت السادس والستين، وفى الشطرة الثانية من هذا البيت أشار شاعرنا إلى سنة نظم هذه القصيدة، ونراه يخاطب نفسه كتمــهيد لاستخراج التاريخين فيقول[١]:

"لا تبلغيــن مديحــــه	إذ أنت قاصرة اليــد
لكــن أبينــى عامـــه	وزمان رحلة ســيدى
فى مصرعين كدرتيــــ	ن بنظم سلك مفــرد
فضل الرسول مؤيــد	يافضل عرس أمـاجد"
١٢٨٩هـ	١٣٠٠هـ

صاغ شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان قصيدته الثانية فى البحر الكامل مادحــا مولانا فضل الرسول البدايونى أيضا، وقد توج هذه القصيــــدة بالاســم التــاريخى بحساب الجمل وهو "مدائح فضل رسول" (١٣٠٠هـ) وتشتمل هذه القصيدة علـــى مائة وثلاثة وأربعين بيتا، وقد استهل شاعرنا هذه القصيدة - التى نحن بصددهــا -

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان، ص ٦٧.

بالتشبيب ونجده يقول في مطلع هذه النونية[١]:

رن الحمام علـــى شـجون البـان   ياما أميلح ذكر بيض البـــان

ونفسه في التشبيب طويل فهو يستمر في التشبيب إلى ستة وعشرين بيتا[٢] ثم ينتزع شاعرنا نفسه من الغزل، ويلوم نفسه على تغزله. رغـــم عفتــه ونزاهتــه، ويستمر هذا اللوم إلي البيت الثلاثين، ومن هذا المنطلق أخذ شاعرنا يصف الليل[٣] حتى البيت الأربعين من هذه النونية، ومن هنا بدأ شاعرنا يتناول الغرض الأساسـى الذى نظم لأجله نونيته هذه، وهو مدح مولانا فضل الرسول البدايوني، فبدأ مدحــه بالرفعة والشجاعة - وأرى أن الشيخ أحمد رضا خان قد قصد شجاعة ممدوحه في إعلاء كلمة الحق - والجود والمجد، وقد سلك في مسلكه هذا مسار الشعر العربــى في العصر الجاهلى، فمدح بما كان الشعراء قد تعودوا عليه من أساليب المدح، ففى هذا يقول[٤]:

جبلا رفيعـــا فائقـــا شـماعلا   بطلا شـــجيعا سـيد الشــجعان

برجا منيعا مانعـــا لا يرتقـــى   حصنا حصينا صين بالإرصـــان

بحرا محيطا زاخـــرا متدفقـــا   برقـــا بريقـــا باسـم الأســـنان

جودا مجيدا مجديا جودا جــوا   دا ماجدا مجـــدا مجيــد الشـــان

نورا منيرا نيرا نـــارا علـــى   عليـــا منـــائر نيرهـــا نورانـــى

إننا لاحظنا في الأبيات السابقة براعة شاعرنا و لغويته المحيطة بكثـــير مــن المشتقات من ناحية وما يسمى بمراعاة النظير من ناحية أخرى، وقدرته الفائقة على الصياغة ووضع الأشياء في موضعها.

وبعد هذا المدح المبدوء من البيت الحادى والأربعين والممتد إلى البيت الرابع والأربعين أفصح شاعرنا عن اسم ممدوحه وبدأ يمدحه بعلمه وفضله فيقول[٥]:

(١) المرجع السابق، ص ٧٢.
(٢) انظر الفصل الرابع من هذا الباب.
(٣) المرجع السابق، ص ٧٤، ٧٥.
(٤) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٧٤، ٧٥.
(٥) المرجع السابق، ص ٧٥.

علما عليمـــا عالمــا علامـــة فضل الرسول العالم الربـانى

إن كانت الأسما تنال من السما فاقدر فضل اسمه المــــزدان

ثم انتقل إلى نشأة ممدوحه وتربيته فى بيئة دينية حتى أنه فاق أقرانه نظـــر لحسن تربيته ونشأته، وفى هذا يقول(١):

رضع المكارم فى صباه وحق إذ ربته ظؤر المجد فى الأحضـان

حتـــى تربـــى زاكيـــا متزكيـــا يربو على الأمثـــال والأقـــران

خضعت له الأعناق من أعناقـهم خذءت له الأعيان من أعيــــان

عبد المجيد فجاءه فضل الرســو ل مهنئا بـــالفضل والرجحــان

قوله: "خضعت له الأعناق من أعناقهم" فيه تزيد فى قوله "من أعناقــــهم": إذ كان يكفى أن يقول: خضعت له الأعناق، ولكنه جاء بقوله من أعناقهم ممـــا يعيـــن على إكمال الشطره الأولى من البيت وليس فى الشطرة الثانية تزيد، وقوله: "عبـــد المجيد فجاءه فضل الرسول" يشير إلى اسم والد الممـــدوح مولانـــا عبـــد المجيـــد البدايونى كما يشير إلى اسم الممدوح مولانا فضل الرسول البدايونى أيضا، ففى هذا البيت ذكر لاسم الممدوح بعد ذكر اسم والده على سبيل التورية وهذا هـــو المعنـــى القريب، أما البعيد فهو أن يكون المراد أن الممدوح مولانا فضل الرسول البدايونـــى عبد الله - تبارك اسمه - وهو المراد بقوله: "المجيد" وأمـــا قولـــه إيـــاه: "فضـــل الرسول" فهو أن الممدوح تعلم العلم وحظى من الدين بما يجعله من أولئـــك الذيـــن يحظون بشفاعة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وعلوم الدين بصفة عامة عطيـــة من الله - سبحانه وتعالى - بها علينا بتبليغ رسولنا إياها، وبالتالى فإن من أدركتـــه علوم الدين فقد أدركه شيء من فضل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذ هـــو مبلغنا، لأن النصين الشريفين أحدهما بلاغ من الله - عز وجل - والآخـــر بيـــان لسانه الشريف - صلى الله عليه وسلم - .

---

(١) المرجع السابق، ص ٧٥.

هذا ويذكر* شاعرنا ممدوحه الذى نشأ وتربى فى بيئة دينية، فشب على البر والتقوى، واتسع تأثيره الروحى فيما بعد، وقد أشار شاعرنا إلى هذا عند اختياره كلمة "الفيض والفيضان" فى المدح، وهذا اتساع فى المعنى بعيد المدى، فنجده وقد تأتيه القلوب التائهة المحطمة لتنال فيضا روحيا، فلا ترجع إلا بعد إشباع رغبتها، وفى هذا المعنى يقول شاعرنا(١):

"لا تعجبوا إن عاشت الأطيار فى الـ	أبحار والحيتان فى الحيطان
فالبحر بر فى وزان فيوضه	والبر بحر من ندى الفيضان
وعلى الظماء يصب هامر فيضه	صبا من الأركان والجدران
يأتيه قلب كالهشيم فينتشى	خضرا نضيرا ناعم الأغصان"

فشاعرنا يصف لطف ممدوحه الذى اتصف بصفة "رحماء بينهم" كما يتذكر شاعرنا تبسم ممدوحه ونظرته الرحيمة نحو ضيوفه، وقد عبر عن كل هذا بأسلوب يشبه الغزل حيث يقول(٢):

وأظل ألحظ فى مناظر خاطرى	ذكرى تبسمه إلى الضيفان
فكأننى بسجنجل صاف به	وردان مبتسمان مرتسمان
شرقت شوارق لطفه فتبلجت	زهر الرشاد تبلج العقيان

نلاحظ أن شاعرنا استخدم كلمة "سجنجل" كأنه يقول: إننى أعرف المستعمل من العربية والمتروك منها، وأعرف استخدامها.

---

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٧٥.
(٢) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٧٥.

ثم بعد ذلك يتطرق شاعرنا إلى أن غضب ممدوحه لم يكن إلا لله ودينه، ثم يشير إلى أنه كان متبعا للصحابة الكرام - رضى الله عنهم - فى اتصافهم بالشدة على الكفار وعلى الذين يتعرضون للشريعة ولو أدنى تعرض، فكان مولانا فضل الرسول البدايونى - ممدوح شاعرنا - سيفا مسلولا على المستخفين بالشريعة الإسلامية الغراء، وعلى المثيرين للفتن، ففى هذا المعنى يقول شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان(١):

"برقت بوارق سيفه فتأججت ... هام العناد تأجج النيران

تلك البوارق من شوارق ربنا ... لاما تجلى واختفى فى الآن

الودق يخرج من خلال سحابه ... فالرعد يندب اين من ظمآن

والبرق يبرق من وميض رميضه ... فالنور يذهب من عيون شانى"

وهنا يخاطب شاعرنا ممدوحه ابن مولانا عبد المجيد البدايونى الذى سطعت بركاته على جميع أفراد أسرته - بفضل الله تعالى وبركة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيقول شاعرنا مخاطبا ممدوحه(٢):

يامجد سلسلة المجيديين فى ... أفضالها إذ زانها فضلان

فنمت بفضل الله فى بركاته ... وسمت بفضل رسوله الحنان

وانتقل شاعرنا بعد هذا إلى مدح مولانا فضل الرسول البدايونى ذاكرا أسماء العلوم والفنون التى ألم بها إلماما تاما بفضل الله تعالى، وفى هذا يقول شاعرنا(٣):

"إن رمت علم القلب فهو مناره ... والمبصرون بهم هدى العميان

---

(١) المرجع السابق، ص ٧٥.
(٢) المرجع السابق، ص ٧٦.
(٣) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٧٦.

أو علــم تــأويل القــران فيالـــــه من آية فى الشرح والإزكـــان

أو علــم إســناد الحديــث ومتنـــه فالبحر زخار بـــدون عــدان

أو علم أســـماء الرجــال فذكــره يحيى كنجل ســـعيد القطــان

أيصول فى علم الأصول عليه مــن هو بـــاقل والشـــيخ بــاقلانى

أم فى الفروع يريد بفرعـــه الــذى عى وغــــى فيــه مجتمعــان

الغى يغلو فهو فى حجـــر الصبــا والعى يعلو فهو فى ادلـــهنان

لكــن مولانـــا يفـــوق بفقهــه فى شـــيبه وشــبابه شـيبانى

أدب الادبـــا شــعبة مــن فضلـــه أعنى على ما فيه من أفنـــانى

لو أدركت روح ابــن ســينا طبــه لتمـــارضت وأتتـــه بالإرنـــان

هذى العلوم وما حواها كـــان فـــى مندوحة عن منزع شــيطانى"

فكان لمولانا فضل الرسول البدايونى اليد الطولى فى العلـــوم الدينيـــة مثـل التفسير(١) وعلوم الحديث، وعلم الأصول، وعلم الفقه، وعلم التصوف(٢) - وكذلـك نال شهرة واسعة فى الفنون الأدبية، ولم يكتف مولانا فضـــل الرســول البدايونـــى بالعلوم الدينية فقط بل أخذ نصيبه من العلوم الطبية، ذلك النصيب الذى فـــاق مــا وصل إليه ابن سينا - على حد قول شاعرنا - وشاعرنا يرى أن ابن سينا لو سـمع عن مولانا فضل الرسول لتمارضت روحه لتحظى بتطبيب مولانا فضل الرســـول إياها، على أن شاعرنا يرى ممدوحه وقد نال من إرث الأنبياء ما نال، وهو يقصـد

---

(١) قد رمز له شاعرنا بعلم تأويل القران.
(٢) لعله يقصد التصوف بقوله "علم القلب" حيث إنه يهتم بتزكية القلوب وتصفيتها ووضعـــها علـى الطرق الموصلة إلى حسن العلاقة بالله - عز وجل - على النحو الذى يراه المتصوفة (الباحث).

بذلك العلوم الدينية، كما نال نصيبا من علوم اليونان، وهو بالطبع ما عرفه من العلوم الطبية، ولكنه يشيد بمجهوده الرائع فى الدفاع عن الدين الحنيف دفاعا يشبه من بنى قصرا قوى الأركان متين الدعائم، هذا القصر هو دفاعه دفاعا حصينا عن الحنيفية البيضاء، وفى هذا يقول(١):

"سبحان ربى أين إرث الأنبيا ... من سؤر بطالين فى يونان

مع ذاك فانظر هل تراك عديله ... فى فطنة أو منطق وبيان

الله يجزيه الجنان كما بنى ... للدين قصرا جيد الأركان

الوصف يقصر عن جلالة قصره ... والقصر قصوى حيلة الحيران"

وفى ضوء ما ذكرنا نرى المنزلة السامية والحب الصادق الذى كان يكنه شاعرنا لمولانا فضل الرسول البدايونى، هذا الحب الذى أفصح عنه فيما ذكرناه تدل على مدى احترام وإجلال شاعرنا لكبار العلماء المعاصرين له، مما يدل على الأخلاق الحميدة التى كانت تتصف بها شخصية شاعرنا، وبهذا يكون مدحه لمولانا فضل الرسول البدايونى ونصيبه من هذه القصيدة قد انتهى لينتقل شاعرنا إلى غرض آخر نعرض له فى موضعه.

(١) بساتين الغفران. للشيخ احمد رضا خان . ص ٧٧.

المطلب الثامن

مدحه لمولانا محمد رضا على خان(١)

نظم شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان تسعة أبيات من مجزوء الرجز فى مدح جده مولانا محمد رضا على خان فيستهل هذه المنظومة قائلا[٢]:

جدى كان عالما	لم ير مثله النظر
بهجة جل من مضى	حجة كل من غبر
بان برمزه الزبر	دان لزمره الزمر

ولا أحسبه مادحا جده للصلة الأسرية التى تجمع بينهما، ولكنه مدحه لعلمه ومكانته بين أهل زمانه، وقيمته بين العلماء، وكيف أن علمه أثر فى غيره، والذى دفعنى لأن أنفى عنه أن سبب المدح هو الصلة الأسرية إنما كان مدحه لغيره من العلماء الذين أثروا فيه وتأثر بهم خلقا، وعلما، وتصوفا، وودا، ومعاملة، ولعله استدرك ورأى ألا يغفل جده من المدح لكونه من أهل العلم والفضل فى زمانه، ولعله أراد أن يكافئ جده وذلك للتوجيه إلى أن يشرب من المعين العذب وهو بحر العلوم الدينية واللغوية، لذلك ذكره فمدحه اعترافا بالجميل من ناحية وتقديرا لمكانته فى المجتمع باعتباره عالما من العلماء من ناحية أخرى، وإن لم يذكر ذلك الجميل

---

(١) أسلفنا ترجمته فى الفصل الثانى من الباب الأول لهذا البحث.

(٢) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١٨٣-١٨٤.

فى أبياته هذه. وبعد هذه الأبيات الثلاثة مدح شاعرنا جده بأسلوب يتحدث عنه مرتب الديوان ومحققه الأستاذ حازم محمد قائلا[١]: "هذه الأبيات فى فن السؤال والجواب وهذا الفن قديم معروف عند شعراء اللغة الفارسية وقلدهم فى النظم فيه شعراء اللغة الأردية".

لا تميل نفسى إلى ما ذهب إليه الأستاذ حازم من أن فن السؤال والجواب أسلوب فارسى الأصل فإننى أرى أن جذور هذا الأسلوب تمت إلى العربية بصلة ما يعرف فى علم البديع بفن المراجعة أو السؤال والجواب، يحدثنا عنه ابن أبى الإصبع المصرى قائلا[٢]: "وهو أن يحكى المتكلم مراجعة فى القول ومحاورة فى الحديث جرت بينه وبين غيره، أو بين اثنين غيره بأوجز عبارة، وأرشق سبك وأسهل ألفاظ. إما فى بيت واحد أو فى أبيات [وقد تقع المراجعة مرتين فى شطرة واحدة] أو جملة واحدة كقول عمر بن أبى ربيعة:

"بينما ينعتننى أبصرننى ... مثل قيد الرمح يعدو بى الأغر

قالت الكبرى ترى من ذا الفتى ... قالت الوسطى لها هذا عمر

قالت الصغرى وقد تيمتها ... قد عرفناه وهل يخفى القمر"

... ومن جيد أمثلة فى هذا الباب قول أبى نواس:

"قال لى يوما سلما ... ن وبعض القول أشنع

قال: صفنى وعليا ... أينا أنقى وأنفع

(١) المرجع السابق. ص ١٨٤.

(٢) تحرير التحبير فى صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القران لابن أبى الإصبع المصرى (ط: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٣٨٣هـ)، ص ٥٩٠ : ٥٩٢.

قلت: إني إن أقل مـا فيكمـا بـالحق تجـزع
قال: كلا قلت: مـهلا قال: قل لي، قلت: فاسـمع
قال صفه قلت: يعطي قال: صفني قلت: تمنـع"

والى لطافة البحترى تنتهى الرئاسة حيث قال:

"بت أسـقيه صفـوة الـراح وضع الكأس مـائلا يتكفـا
قلت عبد العزيز تفديك روحى قال: لبيك قلت لبيـك ألفـا
هاكها، قال هاتها قلت خذهـا قال: لا أستطيعها ثم أغفى"

وإني لأشهد بصحة ما قاله صاحب التحرير والتحبير من أن رئاسة هذا الفـن تنتهى إلى البحترى، ولولا أنه وقع عند غيره لقلت يكفى الأدب العربى مـا قالـه البحترى فى هذا الفن، فلم يكن قد أصاب فحسب وإنما أراه بلغ القمة فى هذا الفـن، بلوغه القمة فى الرقة وحلاوة التركيب، وماذا أستطيع أن أقول عن البحترى أكـثر مما قاله غيرى، وهو "أنه أراد أن يشعر فغنى".

ونجد كذلك صاحب زهر الربيع يعد المراجعة من ألوان البديع فيقول معرفـا بفن المراجعة[١]: هى حكاية ما جرى من محاورة بين متخاطبين بقال، وقيل، وقلت – مثلا – بشرط تمام المحاورة، وأحسنها ما كان حسن السياق وسلس المعنى".

ونجد كذلك الإمام فخر الدين الرازى وهو يعد أقسام النظم العربى فيقـول[٢]:
الوجه الثامن: فى السؤال والجواب، كقول الباخرزى:

---

(١) زهر الربيع فى البيان والمعاني والبديع، للشيخ أحمد الحملاوى (ط: المطبعة الأميريـة ببـولاق، مصر المحمية، ١٣٢٣هـ)، ص ١٧٩.

(٢) نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز للإمام فخر الدين الرازى، تحقيق الدكتور بكرى شيخ أميـن (ط: دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٥م)، ص ٢٩٤.

قد قلت هجرتنى فماذا العلـة صدت وتمايلت وقالت قلـه

هذا وأرى أن من أحلى ما قيل فى فن المراجعة ما نظمه صفى الدين الحلـى فى قصيدته تحت عنوان: "قالت" وهى عبارة عن عشرة أبيـات، وأرى أن البيـت الثالث والرابع من أروع ما نظمه صفى الدين الحلى فى هذه القصيدة فلنسمع إليـه حيث يقول(١):

قالت تسليت بعـد فرقتنـا فقلت عن مسكنى وعن سكنى

قالت تشاغلت عن محبتنـا فقلت بفرط البكـاء والحـزن

قالت تناسيت قلت عـافيتى قالت تنائيت قلت عن وطنـى

قالت تخليت قلت عن جلدى قالت تغيرت قلت فـى بدنـى

إن أقدم ما وصلنى من شعر ما استشهدت به لعمر بن أبى ربيعة وهو شـاعر أموى، وقد ذكر بعضهم أن فن المراجعة هذا نبغ فيه عمر بن أبى ربيعة وبعـض أجواد العرب، ولم ينص على هؤلاء الأجواد ولا من هم، ومن الممكـن أن يكـون بعضهم من أهل الجاهلية، وإذا صح ذلك فإن فن المراجعـة يعـود إلـى بعـض الجاهليين، وإن لم تصح ولم تتحقق من أنه كان فى عصر الجاهلية فنسبته أقل مـا يمكن إلى العصر الأموى، ذلك العصر الذى لا أظن أن العرب قد استقت فيه شـيئا من أدب الفرس وحضارتهم لتطعم بها أدبنا، وبالتالى أرجو أن أكون قد اسـتطعت أن أصل فن المراجعة بأدبنا العربى لا بالأدب الفارسى كما ذكرت ذلك آنفا.

---

(١) ديوان صفى الدين الحلى. (ط: دار بيروت، للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٣هـ)، ص ٤٠٩، ٤١٠.

ولقد أتى شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان بهذا اللون من الشعر عند إقدامه على مدح جده مولانا محمد رضا على خان وكعادته أرخ لأمور ثلاثة خاصة بجده فيقول شاعرنا فى هذا الشأن[1]:

قلت لطائف سرى	طيف جماله السحر
تعلم عام إذ ولد؟	سيدنا الرضا الابر
قال رايت انجما	قلت نظرت قال ذر
قلت فكيف نهتدى	قال اضاءنا القمر ١٢٢٣هـ
قلت ختام درسه	قال اخار الدرر ١٢٤٧هـ
قلت فعام نقله	قال محجل أغر ١٢٨٢هـ

وبمدحه لجده يكون الشاعر قد أتى ألوان المدح المتعددة لأشخاص عديدين بدأهم بسيد الأكوان - صلى الله عليه وسلم - وامتدادا لذلك لم يمدح إلا العلماء وأهل التقى والعلم والفضل، والمكانة الأسمى، كل أولئك كان دافعه للمدح، فلم يكن فى حاجة إلى التكسب ولا إلى النوال وإنما كان كل غايته إظهار مشاعره تجاه الممدوحين جميعا، بادئا ذلك بسيد الخلق - صلى الله عليه وسلم - كما أسلفنا - وذلك مع رغبته فى التقرب إلى الله - سبحانه وتعالى - واكتساب مرضاته، كما كان يرغب فى أن يتوسط ببعض ممدوحيه من أهل التقى والنقى إلى الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - يوم يتشرف بالمقام المحمود طمعا فى شفاعته - صلى الله عليه وسلم -.

ولاحظنا أن شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان لم يسلك سبيل المبالغة بل كان مدحه فى حدود الشريعة الإسلامية التى كان شاعرنا متمسكا بها متعمقا فى علومها، وهذا ما يميزه عن أغلب الشعراء المعاصرين له.

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١٨٤.

المطلب التاسع

مدحه لمولانا محمد نقى على خان القادرى[١]

إن شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان نظم فى مدح العلماء ما نظم، وبالطبع نظم رباعية من بحر الطويل فى مدح والده مولانا محمد تقى على خان القادرى، ولكننا نلحظ - على حسب ما اطلعنا على الأبيات العربية للشيخ أحمد رضا خان - أنه لم يركز على مدح والده وجده بقدر تركيزه على مدح غيرهما من العلماء الذين لم يرتبط بهم شاعرنا بالنسب، فقد كان الدين يجعله مرتبطا بهم، وخدماتهم الدينية تجذب شاعرنا لمدح تلكم الصفوة، وهذه الرباعية التى نحن بصددها فى مدح مولانا محمد نقى على خان القادرى أراها مدحا لشخصيته الدينية، وليس المدح مقصورا فى شخصيته لكونه مجرد والد لشاعرنا بل أقدم شاعرنا على مدح والده نظرا لعلمه وصلاحه، وكأن الشاعر يتوجه بالشكر إلى والده على أفضاله، وعلى رأسها التوجيه الدينى الذى جعل شاعرنا من علماء الدين، فلم يكن والده قد وجه ابنه إلى المدارس الإنجليزية كدأب الأغنياء من الهنود، استهانة بالدراسات الدينية وطمعا فى المناصب الحكومية، فيقول شاعرنا: والله لم يبلغ ثنائى كمال مولانا محمد نقى على خان القادرى، وأرى أن اعتراف عجزى عن مدحه خير مدح له، فلو لم يكن للبحر ساحل لوصفته بالبحر، ولولا النقص للبدر لوصفته بالبدر، وإن الممدوح بحر لا ساحل له، وبدر لم يألف النقص، وفى هذا يقول شاعرنا[٢]:

---

(١) أشرنا إلى ترجمة مولانا محمد نقى على خان القادرى فى الفصل الثانى من الباب الأول.
(٢) نزلال الأنقى من بحر سبقة الأتقى، للشيخ أحمد رضا خان، ص ٥.

"فوالله لم يبلـــغ ثنـــائى كمالـــه ولكن عجزى خير مدح لما لـــه
فذا البحر لولا أن للبحر ساحلا وذا البدر لولا البدر يخشى مالـه"

نرى أن مدح شاعرنا لمولانا محمد نقى على خـــان القـــادرى مـــدح للقيـــم الإسلامية التى كان الممدوح متصفا بها، وكأن الشـــاعر يـــبرز للقـــراء شـــخصية الممدوح المثلى مادحا سعة علمه وكثرة خيره.

المطلب العاشر

مدحه للشيخ معين الدين الجشتى الأجميرى (١)

بالإضافة إلى ما ذكرنا اهتم شاعرنا بمدح شخصية إسلامية كبيرة وهى شخصية الشيخ معين الدين الجشتى الأجميرى، مع العلم أن شاعرنا لم يتعرف على شخص الممدوح وإنما هى شفافية وصلت إليه عن طريق حديث العلماء عنه، فلم يلتق به إلا فى الفكر. وليس ذلك إلا لتقوى الممدوح وورعه وخدماته الجليلة فى

---

(١) ولد الشيخ معين الدين الجشتى الأجميرى فى عام ٥٣٧ للهجرة الموافق ١١٤٢ للميلاد وذلك بمدينة "سجستان" من بلاد فارس، وكان والده الشيخ غياث الدين حسن رجلا غنيا واسع النفوذ فى مجتمعه - نشأ الشيخ معين الدين الجشتى بمسقط رأسه على حب طلب العلم، ثم سافر إلى مدينة "بخارى" - التى كانت محط طلاب العلم من أنحاء العالم - حيث حفظ القرآن الكريم ودرس علوم التفسير والحديث والفقه. ولما اشتد شوقه إلى التصوف ارتحل إلى العراق حيث توجه إلى منطقة تحمل اسم "هارون" والتقى هناك بالشيخ العارف بالله الشيخ عثمان الهارونى، وأخذ منه الطريقة الجشتية وعكف هناك على أخذ المعارف الربانية زهاء عشرين سنة، فكان شيخه يصطحبه فى أكثر أوقاته حتى فى أسفاره وجولاته أيضا، ولما ذاع صيته فى أرجاء العراق غادرها إلى بلدة "أصفهان" حيث لقى الشيخ محمود الأصفهانى فتتلمذ على يده. ومن هنا انتقل الشيخ معين الدين الأجميرى إلى المدينة المنورة حيث استقر بها مدة. ثم انتقل إلى مدينة أجمير بإشارة سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى المنام. واستقر بها طول حياته كما ذكر ذلك الشيخ عبد الحى اللكنوى. وقد حظى بمكانة مرموقة لدى رجال العلم والأدب. وأفاد منه جمع غفير من العلماء والمشايخ البارزين وعامة الناس. وقد دخل الإسلام على يده عدة ملايين من الهندوس كما ذكره الدكتور عبد المنعم النمر، وإنه يعرف بسلطان الأولياء فى الهند، توفى يوم الاثنين السادس من رجب سنة سبع وعشرين، وقيل: إثنين وثلاثين، وقيل: ثلاث وثلاثين وستمائة وله خمس وتسعون، وقبره مشهور ظاهر بمدينة أجمير يزار ويتبرك به.

انظر: نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، للشريف عبد الحى اللكنوى (ط: بمطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر اباد الدكن، الهند، ١٣٨٢هـ)، جـ ١، ص ١٠٤.

وانظر: تاريخ الإسلام فى الهند، للدكتور عبد المنعم النمر، ص ٢١٨.

نشر الإسلام فى شبه القارة الهندية فى القرن السادس الهجرى، وكان من أوائل الصوفية الذين قاموا بنشر التعاليم الإسلامية بالحكمة والموعظة الحسنة، وبالطبع مدحه شاعرنا لوجه الله تعالى، وجاء هذا المدح ضمن قصيدة أنشدها مادحا مولانا فضل الرسول البدايونى، وقد وقعت أبيات هذا المديح للشيخ معين الدين الجشتى من البيت رقم خمسة وتسعين إلى البيت رقم خمسة بعد المائة، ولاحظنا أن شاعرنا كان قد نظم بعض الأبيات فى هجاء الخارجين على أهل السنة والجماعة، وذلك من البيت رقم اثنين وثمانين إلى البيت رقم تسعين وبعد ذلك لم ينتقل إلى المدح مباشرة بل أخذ يخاطب نفسه بالنصح، ويبدو فى هذا الخطاب تواضع شاعرنا، وهذا التواضع من شأن أهل العلم، حيث إنه أتبع هذا التواضع بعد الهجاء، فكأنه يريد أن يقول: لم تكن حمية الجاهلية مثيرة لنظم هذا الهجاء بل كان هذا الهجاء للغيرة الدينية، وللدفاع عن الشريعة الإسلامية الغراء، فإنه لم يكن شاعرا فحسب بل يضاف إلى ذلك علمه وفقهه ونجده يجعل هذا الخطاب كمدخل لمدح الداعية الإسلامى الكبير الشيخ معين الدين الجشتى الأجميرى فيقول فى هذا الصدد(١):

"قم يارضا لا تغش أهل غشاوة — ذرهم وماهم فيه من خذلان

اشغل بنفسك أنت أجنى من جنى — كم من معاب هن ونصح فلان

تب يا أثيم فقد أظل زمانه — يمحى بهاجم من العصيان

ثق بالرسول المستعان وفضله — وانت المزار الباهر السلطان"

نرى شاعرنا بعد هذا التمهيد الموجز يخاطب نفسه قائلا: توسل بالشيخ معين الدين الجشتى الأجميرى رغم أنف المنكرين للتوسل بالأولياء الصالحين، فنجده يناجى ممدوحه متوسلا به إلى الله تعالى فيقول(٢):

"رغما لأنف الآنف المستكنف الـ — محروم عن بركات ذا الإتيان

وارفع نداك بيا معين الحق يا — زين الزمان وبهجة البلدان

---

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان، ص ٧٧-٧٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٧٨.

ياعين سر الحــق فــي أســراره   ياسر عين الحق في الإعــلان

ياروح ياريحان يـــاروح الصفـا   ياغيظ أهل الزيغ والخســـران

يــامن فضلــت بنســبته العلــــى   ياعبد من هو سيد الأكـــوان"

يتجه شاعرنا متوسلا بالشيخ معين الدين الجشتي إلى ذكر ماله من الفضـــائل التي أكرمه الله تعالى بها، وفي البيت رقم مائة وخمسة يســأل شــاعرنا ممدوحـه الشفاعة إلى الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - وذلــك عندمــا يتشــرف بالمقام المحمود الذي وعده به ربنا تبارك وتعالى، وفي هذا البيت يجســد شــاعرنا رغبته الشديدة في شفاعة الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - بوسيلة هــذا الرجل الصالح الذي ينتسب إلى سلالة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وذلك إلى جانب ورعه وتقواه، ففي هذا يقول شاعرنا مخاطبا ممدوحه(١):

جئناك نرجو منك فضلا أن حبـا   فضل الرسول لك العلو الدانــي

عظم العلو فأنت فردوس المنــى   كرم الدنو فــأنت قطــف دان

أجد العنايــــة لا يقــل جدودنــا   أعد الإعانة لا يقل لك وانــــي

أن قد أعنت وما عنيت معيــــن   فلاى معنى ذا المعان معـــان

إن كان للأضياف نزل عندكــم   فقراى ثأرى من أولي عـدوان

أرجو الشفاعة من عند أبيــك إذ   باب العنايـــة لا يســد لعــان

في قوله: "فردوس المنى" حديث عن أن ممدوحه في أعلى الدرجات، لذلـــك يرجو شاعرنا أن يكون من أحبابه، فحبه أغلى ما يتمناه شاعرنا، ونلاحظ الجنـــاس التام بين كلمتي "معان" إذ الأولى معناها المرجو عطــــاؤه، والأخـــرى "المصـــاب بالتعب" وبالطبع تنصرف الأولى إلى الممدوح والأخرى إلى الشاعر.

هكذا وجه شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان موهبته الشعرية إلـــى مــدح هــذا الرجل الصالح رغبة في شفاعة الممدوح عند الحبيب المصطفى - صلى الله عليــه وسلم - يوم القيامة، وهذا الموضوع تميز به شاعرنا عــن الشــعراء المتكســبين

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٧٨.

أموال الدنيا بمدح الملوك والأمراء، فإنه يفضل أن يتكسب النجاة على أن يجمع أموالا في الدنيا، وهذا شأن المؤمن الصادق، فالمال والنوال فانيان وأما الكسب الديني والذي يأخذ بيد العبد إلى النجاة في الدنيا والآخرة فذاك خير وأبقى ولا يدرك هذا إلا العاقل الذي لا يرى أن المال يصحبه في آخرته، وإنما كل ما في الدنيا من نعمة فهي إلى زوال، فإما أن نتركها وإما أن تتركنا، طريق النجاة في الدنيا والآخرة فهو أنفع لذي الدين والعقل السليم.

ونلاحظ أن شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان أسند الأبوة إلى ضمير الخطاب في قوله: "أبيك" وهو يعني الحبيب المصطفى - عليه الصلاة والسلام - وإن كنت أرى أنه أبو الروح لجميع المسلمين، حتى أن بعض القراءات قرأ صاحبها قوله عز وجل في سورة الأحزاب: **النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم** [(١)]

ويؤيد رأينا هذا قول الرسول - صلى الله عليه وسلم -[(٢)]: "**كل تقي ونقي فهو آلي**" فالأبوة موجودة غير أنني أحاول تبرير موقف الشاعر ذكرها بضمير الخطاب، بينما كان من الواجب أن يذكر بضمير المتكلم ومعه غيره، فأرى أنه آثر ضمير الخطاب للسببين الآتيين:

أولا: اعترافا من الشاعر بمكانة الممدوح وتقواه، حيث يراه شاعرنا أرفع تقوى وصلاحا منه، فلذلك وسط شاعرنا ممدوحه بينه وبين النبي - صلى الله عليه وسلم -

---

(١) ذكر الإمام السيوطي بعض الروايات في هذا المعنى فلنسمع إليه حيث يقول:
اخرج الفريابي وابن مردويه والحاكم والبيهقي في سننه عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه كان يقرأ هذه الآية **النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم** .
وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة - رضي الله عنه - قال: كان في الحرف الأول **النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم** .
وأخرج ابن جرير عن الحسن قال: في القراءة الأولى **النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم** .
انظر: الدر المنثور في التفسر المأثور للإمام جلال الدين السيوطي، (ط: دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م)، جـ ٥، ص ٣٥١.

(٢) الدر المنثور في التفسير المأثور، للإمام جلال الدين السيوطي، ج ٣، ص ١٨٣.

ثانياً: إشارة إلى نسب الممدوح الممتد إلى رسـول الله - صلـى الله عليـه وسلم- فكأنه قصد كلمة الجد ولكنه نظرا للوزن الشعرى استخدم كلمة الأب.

ومن هذه الرغبة فى شفاعة الحبيب المصطفى - صلى الله عليـه وسـلم - بواسطة الشيخ معين الدين الجشتى الأجميرى تبدو الخشية الإلهية التى اتصف بـها شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان.

وبعد حديثى عن هذا الغرض الشعرى أستميح القارئ عذرا لأنى مررت على أمور لم أشأ أن أقف عندها ذلك لأن الوقوف عندها يحتاج إلى حديث طويل وليـس من موضوع حديثنا فنحن غايتنا وموضوعنا الناحية الأدبية ما يفتح الله علينا به مـن حديث عنها وما يجود به - سبحانه وتعالى - على مشاعرنا من إحساس تجاهـها، أما التوسل وغير ذلك فليس من موضوعنا هنا، لذا طلبت إلى القارئ أن يتفضـل علينا بالعفو عن أخطائنا والمسامحة العامة.

المطلب الحادي عشر

مدح أثناء الهجاء

هذا حديث عن ثمانية وستين بيتا قالها شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان فى مدح علماء أهل السنة والجماعة المتصدين للرد على الأفكار الزائغة للفرق المجتمعة تحت مظلة جمعية الندوة، والأبيات التى نحن بصدد الحديث عنها من قصيدة قوامها سبعون ومائة بيت فى هجاء الفرق الزائغة ذوى الأهواء غير المستقيمة[1] من منظور شاعرنا موضوع البحث ، والأبيات التى أتناولها تحتوى على مدح خمسة وخمسين عالما. ورأيت ألا أذكر مدحهم فى فصل الهجاء، وإن كان المدح واردا فى قصيدة صيغت للهجاء، لأن هذه الأبيات أقرب إلى المدح منه إلى الهجاء.

قد يبدو هذا العنوان غريبا ولكنه ليس بغريب، وذلك لأنه يبدو كأن الشيخ أحمد رضا خان استخدمها للهجاء أيضا ولكن بطريقة أراها مختلفة، وذلك لإنى أرى أن للهجاء طريقين، الطريق الأول أن يلوم الشاعر مهجوه ويظهر مثالبه وعيوبه. والطريق الآخر أن يأتى الشاعر إلى نقيض المهجو والمخالف له فيمدحه. فحين يمدح الشاعر مخالفا للمهجو يعد هذا المدح أيضا ذما للمهجو ، وحين يمدح شاعرنا علماء أهل السنة والجماعة ويهجو الخارجين عليهم فإنه يصب لومه على المهجوين بالأسلوبين المذكورين آنفا، على أننى أرى أن هذا النوع الثانى من الهجاء. هجاء غير مباشر ولكنه مدح مباشر، لذا رأيت أن أجعل هذه الأبيات فى

(1) حلونا دراسة أبيات الهجاء هذه فى الفصل الثالث من الباب الثانى.

الفصل الأول من الباب الثانى و الذى خصصناه لدراسة المدح، و الذى يؤكد صحة ما ذهبت إليه من أن للهجاء طريقين هو أننى لم أكتب عنوانا يماثل هذا العنوان، لذلك لم أشأ أن أقول "غزل أثناء كذا" أو "فى بداية كذا" أو غير ذلك من الأغراض.

يتكون هذا المدح من ثمانية وستين بيتا كما سبق أن ذكرنا بدأ من البيت السادس و الخمسين إلى البيت التاسع عشر بعد المائة، ثم من البيت الحادى و السبعين بعد المائة إلى البيت الرابع و السبعين بعد المائة وبذلك يصل المجموع إلى ما أشرنا إليه آنفا.

بدأ شاعرنا مدح علماء أهل السنة و الجماعة بتعديد فضائلهم وذكر مآثرهم، و يبين كذلك خدماتهم الجليلة من أجل الإسلام و المسلمين، و هذا منه يدل على مدى احترامه و إكباره لمعاصريه من أهل العلم، ففيما قاله فى شأنهم أنهم كسحب ممطرة على العطشى فى الصحارى، وجودهم لا يترك أحدا فى حرمان، وفى هذا يقول[1]:

"قنادينا لنادينا كراما | بهم لصرامها يرجى الهمود
فضائلهم سحائب ماطرات | وتمطر بالسداد لهم سدود[2]
بغيثهم يغاث المستغيث | إذا ما الناس فى الفيفاء جيدوا
وجودهم وجودهم كجود | يجود فلا جواد و لا مجود[3]"

---

(١) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١١٩.

(٢) يقول شاعرنا: سدود جمع سد بالضم: السحاب المرتفع الساد للأفق كما فى المحكم. المرجع السابق ص ١٢٨

(٣) والجواد كغراب: العطش أو شدته، جيد يجاد فهو مجود عطش قاموس. (ترتيب القاموس المحيط (للفيروزابادي) على طريقة مصباح المنير و أساس البلاغة، للأستاذ طاهر الزاوي الطرابلسي (ط: مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٩٥٩م) ج ١، ص ٤٧٣، ٤٧٤) المرجع السابق ص ١٢٨.

في البيت الأخير نلحظ كثرة الاشتقاقات حيث يتولد منه الجناس، إذا كان شاعرنا قد مدح كرم العلماء فنجده ينتقل إلى مدح تقواهم، ورسوخ قدمهم وثباتهم مشبها ذلك بالجبال الشامخات الضاربات إلى أبعد الأعماق، وبالتالى فثباتها غير مشكوك فيه، كما شبههم بالأسود عند اللقاء، وأضاف إلى هذا أنهم ليسوا أسودا عاديين بل إنهم أسد لا تزجرهم جنود، ونجده عند استخدامه هذا الأسلوب يضمن شعره ما قاله سيدنا حسان بن ثابت الأنصارى، و إن كان الغرض الشعرى بالطبع يختلف، فالاستئناس بالشكل العام للتشبيه(١):

"ونشر بها وتتركنا ملوكا وأسدا لا تنهنهنا اللقاء"

وبعد هذا التضمين يقدم شاعرنا لبيان علو منزلة العلماء لأهل السنة والجماعة قائلا إن أعلام علمهم خافقات فى الشمال والجنوب، ولها بنود عاليات، ويستطرد شارحا أسلوبه هذا حيث يقول(٢): "فيه من المبالغة ما فيه، فجعل الأعلام من ذوى الأعلام وقرر لها بنودا عاليات، وذلك على وزان ليل لائل وأليل ومُلَيَّل، و دهر دهير داهر، ودهور ودهارير، وأبد آبد أبيد، إلى أمثال ذلك" وفى هذا يقول شاعرنا(٣):

اذا ذكر النقى فهم اللآلى وإن كان اللقاء فهم الأسود

---

(١) ديوان حسان بن ثابت الأنصارى، ص ٨.
تشتمل هذه القصيدة على اثنين وثلاثين بيتا بدأ من:

عفت ذات الأصابع فالجواء إلى عذراء منزلها خلاء

وتنتهى بقول الشاعر :

لسانى صارم لا عيب فيه وبحرى لا تكدره الدلاء

(٢) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١٢٨.
وانظر: لسان العرب، للإمام أبى الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور (ط: دار صادر، بيروت، ١٣٧٤هـ)، ٦٩/٤، وكذلك ٦٠٨/١٦.
وانظر: تاج العروس، للزبيدى، ٣١٩/٣، وكذلك ١٠٩/٨.

(٣) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١١٩.

جبال لا تزحزهم عصـوف	وأسد لا تنهنهــهم جنـود
لهم أعلام علــم خافقــات	علت في الخافقين لها بنـود
ونخل السبق فيهم باســقات	مظللة لــها طلــع نضيــد

وهنا نجد في البيت الثالث والستين أن شاعرنا يشير إلى الآيتيــن القرانيتيــن حيث قال الله عز وجل(١): **ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد. والنخل باسقات لها طلع نضيد** وبعد هذا الاقتباس القرآني ينتقل شاعرنا إلى الحديث عن مجلس هؤلاء العلماء الربانيين وما فيه من وقار، وهيبة، وقداســة، كما يصف لنا أحوال الحضور إليهم فيذكر بأن جليسهم لا يشقى لأنه جلـــس فــي صحبة الصالحين الذاكرين الله تعالى، ويرى أن مجلسهم يتميز بكونه مجلس علـــم وتقوى لا يذكر فيه إلا كل ما يتفق مع الشرع الحنيف، فنجد شاعرنا يصـــف هــذا المجلس قائلا(٢):

بمجلسهم تحف طيور قـدس	ولا يشقى بهم لهم قعيد
هدى هاد مهدي من لديـــهم	بديد أو عديد أو حديـد"

هنا نلحظ إقدام شاعرنا على الاقتباس من الحديثين الشريفين، ففي الشـــطرة الأولى من البيت الأول يشير إلى الحديث النبـــوي الشـــريف حيـث قـــال حبيبنـــا المصطفى - صلى الله عليه وسلم -(٣): "**لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده**" فشاعرنا يشير إلى الملائكة بقوله "طيور قدس" فلم يقصد من طيـور القدس إلا هذه الجماعة من الملائكة.

أما الاقتباس الثاني ففي الشطرة الثانية من البيت الثاني وهـــو اقتبـــاس مــن حديث النبوي الشريف حيث قال حبيبنا المصطفى - صلى الله عليه وسلم -(٤): "

---

(١) سورة ق: ٥٠/٩، ١٠.

(٢) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان. ص ١١٩.

(٣) صحيح مسلم المسمى الجامع الصحيح للامام مسلم بن الحجاج القشـــيري (ط:مصطفـــى البـــابي وأولاده بمصر. ١٣٧٧هـ). القسم الثاني، جـ ٢. ص ٢٢٧.

(٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل: (دار صادر، بيروت، دون سنة الطبع)، جـ ٢، ص ٣٥١، ٣٥٢.

إن لله ملائكة سياحين في الأرض فضلا عن كتاب الناس فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا هلموا بغيتكم فيجيئون فيحفون بهم إلى السماء الدنيا، فيقول الله: أي شئ تركتم عبادي يصنعون؟ فيقولون: تركناهم يحمدونك، ويمجدونك، ويذكرونك، فيقول: هل رأوني فيقولون: لا، فيقول: فكيف؟ فيقولون: لو رأوك لكانوا أشد تحميدا وتمجيدا وذكرا، فيقول: فأي شئ يطلبون؟ فيقولون: يطلبون الجنة، فيقول: وهل رأوها؟ قال: فيقولون: لا، فيقول: فكيف لو رأوها؟ فيقولون لو رأوها لكانوا أشد عليها حرصا وأشد لها طلبا. قال: فيقول: ومن أي شئ يتعوذون؟ فيقولون: من النار، فيقول: وهل رأوها؟ فيقولون: لا قال: فيقول: فكيف لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها كانوا أشد منها هربا، وأشد منها خوفا، قال: فيقول: إني أشهدكم أني قد غفرت لهم. قال: فيقولون: فإن فيهم فلانا الخطاء لم يردهم وإنما جاء لحاجة، فيقول: هم القوم لا يشقى بهم جليسهم".

واستمرارا في مدح علماء أهل السنة يصف لنا الشاعر حال الممدوحين بأنهم يحولون الصحارى إلى الأمصار، كأنهم يصطحبون معهم كل رونق وبهاء، وكأنهم جعلوا تلك الصحارى بساتين بمجرد حلولهم فيها، ومهما جمع لهم الشاعر من صفات خير لن يساوى شيئا بجانب وصف القرآن، يرى الشاعر وصفهم به وصفا يطابق ما قاله القرآن العظيم، فما أحسن أن يقول لهم: "إنهم حزب الله" والسامع والقارئ يعرف أن حزب الله هم المفلحون[١] طبقا لرأى ملك الملوك - جل وعلا - ولنسمع صوت الشاعر وهو يقول[٢]:

"اذا حلوا تمصرت الفيافي ... وحين ترحلوا الأمصار بيد

اولاء الحزب حزب الله حقا ... وسيد حزب الاعداء المريد"

يبرر شاعرنا موقفه من حذف الهمزة ونقل حركتها إلى الساكن قبلها فيقول[٣]: "بدرج الهمزة، وهو شائع في فصيح الكلام نظما ونثرا، وقد التزمه ورش

---

(١) هذا اقتباس من قول الله - عز وجل - في سورة المجادلة ٥٨/٢٢.

(٢) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان، ص ١٢٠.

(٣) المرجع السابق، ص ١٢٨، ١٢٩.

فى قراءته من أول القرآن العظيم إلى آخره فيقرأ فى قوله تعالى(١): **وبالآخرة هم يوقنون** وبالاخرة هم يوقنون، بفتح اللام وحذف الهمزة، وقال زهير بن جناب: "ولازمنه الملوك من ال نصر" وقال كعب بن زهير - رضى الله عنه -: "موعودها ولو أن النصح مقبول" وعندما راجعت الإمام الشاطبى فى هذا الأمر وجدته يقول تحت عنوان باب نقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها(٢):

"وحرك لورش كل ساكن آخر صحيح بشكل الهمز واحذفه مسهلا"

رأينا رأى شاعرنا فى شأن علماء أهل السنة والجماعة المقاومين لأفكار الفرق الثلاثة المجتمعة فى جمعية الندوة، وأرى أنه عندما أقدم على مدح هؤلاء العلماء قصد الإجلال لهم، وبالطبع يستفاد من هذا الإجلال إذلال لأولئك المخالفين لهم، والذين لم يكونوا على نسقهم، فشاعرنا يهجو فرقا معينة ويمدح أخرى مخالفة لهم فى المنهج أولئك السائرين على منهج أهل السنة والجماعة، وكلتا الطريقتين تؤدى إلى هجاء المهجوين ومدح الممدوحين الذين وقفوا وقفة الرجل الواحد فى وجه تلك الفرق المخالفة، وقاموا بمقاومتهم رغبة فى إصلاحهم، واستمر شاعرنا يمدح هؤلاء اللفيف من العلماء من البيت السادس والخمسين إلى البيت السابع والستين، ثم أقدم شاعرنا على ذكر أسماء هؤلاء العلماء الممدوحين فى أبياته، واستمر فى ذكر أسمائهم، حتى البيت السابع عشر بعد المائة، فمرة يذكر واحدا فى بيت وأخرى يذكر أكثر من واحد، ولم يذكر شاعرنا أسماء جميع العلماء بل اكتفى بالإشارة إلى أعلامهم فقط، وقد ألمح إلى هذا الأمر قائلا(٣):

"أصول جلهم والفرع أكثر وإن جمعوا فأضعاف شهود
فلو أنى قصدت الكل ذكرا لزال القصد وامتد القصيد"

---

(١) سورة البقرة ٢/٤.

(٢) حرز الأمانى ووجه التهانى فى القراءات السبع، للإمام قاسم بن فيره الشاطبى (ط: مكتبة دار الهدى المدينة المنوره ١٤١٥هـ)، ص ١٩.

(٣) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان، ص ١٢٢.

وضيق نطاق نظمى عذر نقصى وعفوهم كثير لا زهيد"

وكأن شاعرنا بذكر أسماء هؤلاء الممدوحين يريد أن يقول: إنما ما أقدمت عليه فى الرد على هؤلاء المهجوين لم يكن ذلك رأيا لى أنفرد به، بل كان الرأى ما هو عليه إجماع أهل السنة، ويقول أيضا: أنا لست إلا واحدا من عدد ليس بقليل، وهذا القول منه يدل على أن علماء المسلمين لا يجتمعون على الباطل، هنا لم يذكر شاعرنا أسماء المهجوين كطبيعته فى الهجاء فهو دائم الترفع عن التصريح بأسماء المهجوين، وذلك لأثر السنة المشرفة فى أدبه، فقد كان حبيبنا - عليه الصلاة والسلام - يقول[1]: «**ما بال أقوام**»، ونجده يخص بالذكر أعلام علماء أهل السنة والجماعة المدافعين عن الدين الحنيف والمتصدين لكل أعدائه، ومن الممكن أن نقول: إن شاعرنا لم يذكر أسماء المهجوين لأن شخصهم لم يكن مقصودا من الهجاء فضلا عما ذكرناه قبل ذلك من تعليل ولأن الهدف من الهجاء هو الفكر السائد والعقيدة المعوجة المعارضة لمذهب أهل السنة والجماعة، والتى دافع عنها علماء أهل السنة وأخذوا فى الدعوة إليها، فنجد الشاعر يركز على المساوئ أكثر من تركيزه على الشخصيات، على كل حال لم يقصد شاعرنا من قصيدته هذه المدح أكثر مما قصد إليه من الهجاء بهدف الإصلاح وعودة المهجوين إلى جماعة المسلمين.

بدأ شاعرنا ذكر أسماء العلماء مع الإشارة إلى فضائلهم فبدأ بذكر مولانا "أمين أحمد البهارى" الذى اعتبره شاعرنا خير خلف لخير سلف، ورأى أن شمائله - بسبب تمسكه الشديد بالشريعة الإسلامية الغراء ونصرتها - تذكرنا بالصحابة - رضى الله عنهم أجمعين - وأن سحاب جوده العلمى والروحى تجود على كل، وفى هذا يقول[2]:

"أسمى بعضهم أسماء نظمى فليس الكل يحتمل النشيد

---

(١) كنز العمال فى سنن الأفعال والأقوال، للعلامة علاء الدين على المتقى، (ط: مؤسسة رسالة. بيروت، ١٤١٣هـ)، ج ١٤، ص ١٠٣.

(٢) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١٢٠.

بقية الأولياء أميـــن أحمـد   أمين أحمد أمــن حميـد

شمائله تذكرنـــا الصحابــة   سحائبه على كل تجــود"

وبعد هذا يقدم شاعرنا على ذكر مولانا عبد القادر البدايوني الملقـــب "بتــاج الفحول" فيراه شاعرنا قدوة لجميع المذكورين من أعلام العلمـــاء. وذلـك لأن الله تبارك وتعالى أكرمه بالمجد، ثم يصفه شاعرنا بالجود والمجد، ويرى أن كل هـــذا الفضل والجود والمجد ببركة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الذى اهتدى بـــه ممدوح شاعرنا. وسلك سبيله واتبعه، والتزم شريعته طول حياته. وفي هذا يقـــول شاعرنا(١):

"وقدوة جمعهم تاج الفحـول   إمام الحق ليس له نديــد

وما أدراك ما تاج الفحــول   بفضل المجد فضله المجيد

وتوجه بتاج الفضل حقـــا   رسول الله ليس له ضديـد

جواد جيـــد جــود مجـاد   مجيد ماجد مجـــد مجيـد

وذا فضل الرسول لمهتديـه   فكيف يناله غـــاو كنـود"

يوضح شاعرنا معنى الشطرة الثانية من البيت الثالث والسبعين قائلا(٢): "ليس له ضديد": أى لا مخالف لحكمه – صلى الله عليه وسلم – فإن أريد ما يجرى على لسانه الكريم من الأحكام التكوينية بنيابة ربه العظيم فالنفى حقيقة لا مخالف له فيها أحد أبدا وإن أريد الأحكام التشريعية فالنفى كما فى قوله عز وجــل(٣): **لا ريـب فيه** أى ليس من شأنه أن يرتاب فيه.

فى البيت الثانى والسبعين نلحظ أن شاعرنا قد أشار إلى اسم جـــد الممـدوح مولانا عبد المجيد البدايوني، وذلك فى قوله "فضله المجيد" ثم فـــى قولـــه: "مجيد

(١) المرجع السابق. ص ١٢٠.
(٢) المرجع السابق. ص ١٢٩
(٣) سورة البقرة ٢/٢.

ماجد. كما يشير شاعرنا إلى اسم والد الممدوح مولانا فضل الرسول البدايوني، وذلك في قوله: "وذا فضل الرسول لمهتديه"، وهنا يمكن لنا توجيه الكلام إلى كلا المعنيين القريب والبعيد. وكذلك نجد الجناس في البيت الرابع والسبعين، وهو جناس غير تام.

وبعد هذا يقدم شاعرنا على التحدث بنعم الله – سبحانه وتعالى – عليه، حيث يشير إلى أن الله تعالى أكرمه وجعله من علماء أهل السنة فهو يشكر الله تعالى على نعمة الإيمان كما يذكر ويشكر بما من الله عليه من توفيق للتصدى لمقاومة البدع وإحياء السنة وتجديد الدين، ويشير كذلك إلى يديه المدافعتين عن الشريعة الإسلامية، والمتصديتين لأهل الردى لمقاومتهم وإصلاحهم. وثنى اليدين كناية عن كثرة كتاباته، وكأنه يمسك بقلمين، أو يشير إلى كلتا يديه وهما تتناوبان في الكتابة حتى لا يتسلل التعب والإنهاك، ثم يلمح كذلك إلى تصانيفه الكثيرة المسفرة التي صنفها بتوفيق الله تعالى، وإن هذه التصانيف إن كانت مثل "إسفار صبح يطلع بالعيد السعيد" وذلك لأهل السنة والجماعة فإنها في نفس الوقت ذات حد حديد وتبقى بلا غمد وتقضى على الفتن والضلالة بضربة واحدة، وفي نهاية هذه الأبيات التي خصصها للحديث عن نعم الله تعالى عليه يقول شاعرنا عن نفسه:

رضى الحبيب النقى الهاشمى – صلى الله عليه وسلم – حماه فكيف يستطيع أن يوهنه أى لدود. ومن الجدير بالذكر أن شاعرنا في هذا البيت ألمح إلى اسم جده مولانا محمد رضا على خان إلى جانب اسم والده مولانا محمد نقى على خان حيث يؤدى اللفظ معناه القريب والبعيد على السواء. فهذه الأبيات وإن كانت تدخل إلى الفخر ولكنه فخر محمود، لأن شاعرنا في الأساس يفخر بالدين يعنى أنه يرى أن هذا محل الفخر، ولكن مبعث فخره هو تمسكه بالدين، والتمسك بالدين لا يمقت المفتخر به، بل هو أهل لأن يكون محلا للفخر، وإذا كان شاعرنا يفخر بتمسكه بالدين فهو ينعى على هؤلاء المهجوين – والذين هم موضوع هذه القصيدة باستثناء أبيات المدح والتي أنا بصدد الحديث عنها، وسوف أعرض لهجائهم في الفصل

الثالث من هذا الباب – وعدم تمسكهم بالدين وتفلتهم منه، وفى هذا يقول[١]:

"وعالم أهل السنة مصطفانا ... مجدد عصره الفرد الفريد

له أيد بها منح الأيادى ... ورد روى لصولتها عقيد

وأسفار بها إسفار صبح ... متى يطلع يعد عيد سعيد

حسام حاسم الطغوى بعمد ... بلا غمد لـه حد حديد

وعز رضا نقى هاشمى ... حماه فكيف يوهنه لدود"

وبعد هذا يشير إلى اسم مولانا محمد عبد الصمد النقوى السهسوانى الجشتى النظامى، رئيس مجلس العلماء لأهل السنة لدائرة بريلى[٢].فوصفه بالإعراض عن الدنيا وتوجهه إلى الله تعالى، ثم أشار إلى اسم مولانا هداية الله الجونفورى الذى كان طوال حياته مرجعا لطلاب العلم، ثم أشار إلى اسم عالم دينى كبير وهو مولانا وصى أحمد الملقب بالمحدث السورتى، الذى كان شديد التمسك بالدين، وفى هذا يقول[٣]:

"وعبد سيد صدر الفضائل ... بذى صمد إلى الصمد استفيدوا

وفاضل جونفور هداية الله ... لطلاب الهدى شيخ مفيد

وذو وقر الجبال وصى أحمد ... اسد أشد بل أسد اسيد"

وبعد هذا يشير إلى اسم عالمين جليلين ويقول عنهما مخاطبا كل فرد إنك تعتبر مصيبا كل الصواب إذا نسبتهما إلى الحق والصدق وجادة الصواب، وهما مولانا السيد نصير الحق الجشتى النظامى، ومولانا السيد وحيد الحق، كما يشير فى البيت الخامس والثمانين إلى ثلاثة أسماء هم مولانا غلام حسين، ومولانا مظفر حسين، ومولانا عزيز الدين، وفى البيت السادس والثمانين يشير إلى اسم مولانا أمين المومر فى مدينة جرهوه[٤] ثم أشاد بمجدهم وسيادتهم، وفى هذا يقول[٥]:

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١٢٠.
(٢) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١٢٩.
(٣) المرجع السابق، ص ١٢١.
(٤) المرجع السابق، ص ١٣٠.
(٥) المرجع السابق، ص ١٢١.

"ومن للحق إن تنسب تقل ذا نصير ذا وحيد ذا شهود
غلاما للحسين وللمظفر عزيز الدين ذا عز يسود
أمير والمؤمر فى جرهوه بفضل سيادة كلا أشيد"

وبعد هذا أقبل شاعرنا على الإشارة إلى اسم مولانا محى الدين الفلوارى تشبيهه بورد مدينة الفلوارى، كما شبهه بالنجم الفريد فى سماء مدينة فلوارى، ثم أشار إلى اسم مولانا عبد المقتدر البدايونى ابن مولانا عبد القادر البدايونى[1] وقد رآه رفيع القدر، وأرفع مما قدره الحاسد، ثم يشير إلى أن المذكورين من عباد الله الصالحين المتمسكين بدين الله تعالى لا يزالون يتمسكون به ولو قطع الوريد، وفى هذا يقول[2]:

"بفلواريه محى الدين ورد لبدر سمائها نجم فريد
وعبد المقتدر أقدرت قدره رفيع فوق ما اغتاظ الحسود
وللقيوم عبد نصر دينه يقوم به وإن قطع الوريد"

وبعد هذا ينتقل إلى ذكر أسماء آخرين فأقدم على ذكر مولانا سراج الدين سلامة الله الرامفورى، وقال عنه: إنه عليم وعالم وعلم شهير، كما أنه صاحب حكمة وبصيرة، ثم دعا له بالسلامة، ثم يقول: إن مولانا عناية الله الرامفورى مكرم هبات الهدى، وعندما يصير أحد من أهل الضلالة عنيدا يقومه الممدوح بأسلوب علمى مقنع يليق بالعلماء، ثم يشير إلى ثلاثة أسماء، وهم مولانا إعجاز حسين الرامفورى، ومولانا أرشد على الرامفورى، ومولانا عبد الغفار خان الرامفورى[3] وفى هذا يقول[4]:

"عليم عالم علم شهير حكيم محكم حكم شهيد

(1) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان، ص ١٣٠.
(2) المرجع السابق، ص ١٢١.
(3) المرجع السابق، ص ١٣١.
(4) المرجع السابق، ص ١٢١.

سراج ن ابو الزكاء سـلامة الله حباه سلامة المبدى المعيد

عنايـات الـهدى لعنايـة الله إذا بضلاله يعنى عنـود

واعجاز الحسين على ن ارشـد وللغفار عبـد لا يشـيد"

تحدثنا فيما سبق - ضمن تحليل البيت السادس والستين - عن حذف الـهمزة ونقل حركتها إلى ساكن ما قبلها، ولقد وقع نفس الكلام في "سراج ن أبو الزكـاء" "على ن ارشد" يبرز شاعرنا موقفه من نقل حركة الهمزة إلى ما قبلها فـي البيت الحادى والتسعين فيقول[١]: "بدرج الهمزة، ونقل حركتها إلى الساكن قبلـها وهـو التنوين" وقد سبق أن أشار شاعرنا إلى حذف الهمزة ونقل حركتها إلى الساكن قبلها وأثبت أن هذا أسلوب عربى فصيح شائع فى النظم والنثر، وقد التزم به الورش في قراءته. كما استدل بقول زهير بن جناب، وكعب بن زهير - رضى الله عنه - وقد أتى هذا الكلام فى تهميشته للبيت السادس والستين.

وبعد هذا يشير شاعرنا إلى اسم مولانا السيد ظهور الحسنين الرامفورى ابـن مولانا السيد محمد حسن بن مولانا السيد محمد أكبر أبو العلائى الدانافورى، وفـى البيت الذى يليه يذكر اسم العالم الناشئ - فى تلك الفترة - مولانا محمد حامد رضا خان[٢] وشبهه بالغصن الجديد من غراس أجداده، ثم يذكر اسم مولانا أحمد علـى شاه المرزافورى بما له من المحامد والمعالى والجدود، ثم يشير إلى اسـم مولانـا محمد رمضان الأكبر آبادى[٣] الذى يراه شاعرنا بعيدا عن طعم الهوى استئناسا بما في اسمه من كلمة رمضان لذا شبهه بالصائم عن تذوق الهوى، وقد أشار إلى اسـم مولانا السيد جمال إسماعيل المارهروى، وفى هذا يقول[٤]:

ظهور الحسـن للحسـنين فينـا ومحسـننا لأكبرنـا وليـد

---

(١) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١٣٥.
(٢) المرجع السابق. ص ١٣١.
(٣) المرجع السابق. ص ١٣٢.
(٤) المرجع السابق. ص ١٣٢.

وفى دوح العلى حامد رضا من	غراس جدوده الغصن الجديد
لمرزافور من أحمد على الـ	محامد والمعالى والجدود
وعن طعم الهوى رمضان صائم	وصبح جمال إسماعيل عيد

وبعد هذا يشير شاعرنا إلى اسم مولانا السيد أعظم شاه الشاهجهانفورى بصفه بكونه أعظم كاتب إسلامى فى مدينته، ثم يشير إلى اسم مولانا عبد الكافى لإله ابادى داعيا له أن يكفيه ربه الودود من شرور الدنيا وما فيها، وقد قام الترخيم فى اسمه فى الشعر نظرا للوزن الشعرى، ثم يشير إلى اسم مولانا عبيد لله الإله آبادى. فمولانا السيد محمد بشير الأجملى الإله آبادى، فمولانا بشير الدين جبلفورى. فمولانا محمد عبد السلام الجبلفورى، وفى هذا يقول(١):

"وأعظم شاه تحرير بمصره	وعبد الكاف يكفيه الودود
عبيد الله عبد الله من فى	إله آباد طاب له الأبودو
ومنه لنا بشير أجملى	وآخر فى جبلفور جدود
وسالم دينه عبد السلام	له علم به عمل سديد"

يشير شاعرنا إلى اسم مولانا عبد الواحد البهارى وأنه موضع الفيوض النبوية على صاحبها الصلاة والسلام - ولذا يفخر به إقليم بهار الهندى، ويشير كذلك ى اسم مولانا كريم رضا القاطن بكنج مراد آباد، كما أشار إلى اسم مولانا بشارت ريم. ومولانا عبد اللطيف شقيق مولانا وصى أحمد المحدث السورتى، وفى هذا ول(٢):

لعبد الواحد فيض الرسول	بها ربه تميس ولا تميد
لصاحب كنج صاحب كنز حق	رضا الكرما كريم رضا السعيد
بشارات الكريم لنا بلطفه	وذو عبد اللطيف لنا وديد

(١) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان . ص ١٢١.

(٢) المرجع السابق. ص ١٢٢.

وبعد هذا ينتقل شاعرنا إلى ذكر مولانا الحكيم محمد خليل الرحمـــن البيلـ بتى، الذى كان طبيبا بارعا فيرى شاعرنا أن ممدوحه هذا نظرا لبراعته الطبيـــة يزيل الأمراض المستعصية فيضرب لذلك مثلا بأنه عندما يأتيـــه الأعـــرج يـــزول عرجه فيستوى مشيه، والأعرج الذى لا يتغير فى عقيدته يخاطبه الشاعر قائلا: أيها الأعرج أنت لا تعتبر مثل الذى يمشى سويا، ولعله يقتبس هنا من الآية القرآنيـــة: **أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أمن يمشى سويا على صراط مستقيم** [١].

وإذا كان شاعرنا قد أشار إلى براعة مولانا خليل الرحمن فى طـــب الجســـد والروح فيشير كذلك إلى البراعة الطبية الفائقـــة لمولانـــا الحكيـــم ســـراج الحـــق العليكرهى، وفى هذا يقول[٢]:

"بطب خليـــل رحمـــن التقـــى — لســـقم فقيـــد صحتـــه فقـــود
على سنن الهدى يمشى ســـويا — إذا أزرى بذى عرج حيـــود[٣]
أأعرج هل تســـوى بالســـوى — أذو عذب[٤] كعـــذب يافســـيد
وليس بجمع طب الجسم والـــرو — ح للزاكى سراج الحق حيد[٥]"

وبعد هذا يأتى شاعرنا بأسماء علماء آخرين منهم مولانا حافظ بخش، ومولانا فضل المجيد، ومولانا الحكيم أمير الله، ومولانا الحكيم مؤمـــن ســـجاد الكـــانفورى الجشتى النظامى الفخرى، ومولانا عبد المجيد، ومولانا مسيح الدين الإلـــه آبـــادى ومولانا نبى بخش البهارى، ومولانا الحكيم عبد العزيز البوساهوى، ومولانا إمـــ الدين الأتالوى، ومولانا عبد الرحيم الهروى، ومولانا محمـــد ســـعيد، وفـــى هـ

(١) سورة الملك ٦٧/٢٢.

(٢) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان، ص ١٢٢.

(٣) يقول شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان معلقا على بعض المفردات فى القصيدة: الحيود: الميل، و من لوازم العرج. المرجع السابق، ص ١٣٣

(٤) عذب: ماء طيب. ماء ذو عذب: كثير القذى. المرجع السابق، ص ١٣٣

(٥) حيد: الحيد بالفتح والكسر المثل، قال فى القاموس: الحيد: المثل والنظير. قاموس [٦٥١/١]. المرجع السابق، ص ١٣٣

يقول[١]:

"وحافظ بخش مع فضل المجيد أمير الله ذا القارى المجيد
حكيم مؤمن سجاد رب مجيد عبده مجدا يفيد
مسيح الدين فيهم مع نبى بخش وذو عبد العزيز فتى جليد
إمام الدين مع عبد الرحيم ونجل جناب مولانا سعيد"

وبعد هذا نجد شاعرنا يقول إنه أشار إلى أسماء كبار العلماء الذين حضروا الاجتماع الذى عقد بمدينة عظيم آباد ببتنه فى السابع من شهر رجب فى العام الثامن عشر بعد الثلاثمائة والألف للهجرة الموافق للتسعمائة والألف للميلاد، وذلك لمقاومة جمعية الندوة وبيان عقائدهم[٢]، فيقول شاعرنا: "إن سماء مدينة عظيم آباد كانت قد أصبحت مكوكبة، وهؤلاء العلماء قاوموا الفتنة بذكائهم، لأنهم رجال العلم والأدب، وفى هذا يقول[٣]:

ختمت كما بدأت به ليهنيك[٤] حسن البدء والرجعى وحيد
أصول جلهم والفرع أكثر وإن جمعوا فأضعاف شهود
فلو أنى قصدت الكل ذكرا لزال القصد وامتد القصيد[٥]
وضيق نطاق نطقى عذر نقصى وعفوهم كثير لا زهيد
عظيم أباد صار بهم سماء مكوكبة[٦] كواكبها سعود
وفطنتهم لفطنة سد فتنه فسوق فسوقها بهم كسيد

---

(١) المرجع السابق، ص ١٢٢.
(٢) حيات أعلى حضرت. لمولانا محمد ظفر الدين البهارى. ج ١. ص ١٨٦.
(٣) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان، ص ١٢٢.
(٤) يشرح شاعرنا بعض المفردات الواردة فى قصيدته قائلا: تقول العرب: ليهنئك بالهمز، وليهنيك بالياء، واسقاطها لغة العامة، لكن ورد الحديث باسقاطها ايضا، كما فى الصحيح البخارى فى حديث توبة كعب – رضى الله عنه – فالصواب انها ثلاث لغات. المرجع السابق، ص ١٣٤
(٥) القصيد: القصائد: المرجع السابق، ص ١٣٤
(٦) مكوكبة: الكوكب من الحديد بريقه وتوقده وقد كوكب، قال الأعشى: "تقطع الأمعز الكوكب وخذ". المرجع السابق، ص ١٣٥.

فحــول علمـــهم فحــل ومـــالل　　　انبـاث مريــة فلــــها نـــــهود"

مما هو جدير بالذكر أن شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان قام بتوضيح ما جــاء به في الشطرة الثانية من البيت التاسع عشر بعد المائة فنجده يقول[١]: "عفوا أيـــها السادة لم نكتب هذا الكلام من تلقاء نفسنا بل نقلنا إقرار أهل الجمعية حيـــث قـــال شاعرهم:

وكان العلم شوهاء عجـوزا　　　فصار جميلة ولها نـهود"

وفي ضوء هذا التعليق عرفنا أن شاعرنا عارض قصيدة الشـــاعر المتحـــدث باسم جمعية ندوة العلماء، فنجد في القصيدتين بحرا واحدا ورويـــا واحـــداء ولعــل شاعرنا عند استخدامه صيغة التأنيث للجمعية كان قد أخذ فكرته من قصيدة الشــاعر الناطق باسم الجمعية، كما نجد إشارة شاعرنا إلى بيت شاعر الجمعية، وهذا ممـــا يؤيد رأينا على أنه لم يكتف بهذا المدح وإنما ألحق الديوان أربعة أبيات أخرى فـــي هذه القصيدة، وهذه الأبيات مدح أيضا لبعض علماء الدين الذين لم يذكرهم شـــاعرنا بأسمائهم فيما سبق. وهذه الأبيات عبارة عن العودة على المدح مرة أخـــرى، إنـــه مدح لمولانا السيد محمد عمر كريم المقيم بمدينة بتنه، ثم أشار إلـــى اســـم مولانـــا فضيلت حسين الفردوسي - المفتي بمدينة جنجي - فمولانا الشريف أجمـــل الإلـــه ابادى. فمولانا الشريف محمد فاخر الإله آبادى، وفي الختام يذكـــر اســـم مولانـــا الشريف سليمان أشرف الجشتي القادري البهاري، ولنسمع إلى صوت شاعزنا حيث يقول[٢]:

لفاروق الهدى عمـــر الكريـــم　　　لدينــا نـــائب أقـــوى شـــــديد

ومن نال الفضيلة من حســــين　　　متى ما طاب أصل طاب عـــود

وأجمل فـــاخر وأبـــو البقـــاء　　　لمفخرهـــم بقـــــاء لا يبيـــــد

---

(١) سان الأبرار والاد الأشرار. للشيخ أحمد رضا خان. ص ١٦.
(٢) بساتين الغفران. للشيخ احمد رضا خان . ص ١٢٦.

سليمان الصلاح هناك أشـــرف　　　　وصاحب نـــدوة الجهلافســيد"

وبهذه الكلمات التى انهيت بها دراستى لأبيات المدح - سواء كانت الأبيـــات فى وسط القصيدة أو ملحقة بها - أكون قد انتهيت بالفصل الخاص بـــالمديح فـــى ديوان الشيخ أحمد رضا خان. وما دمنا قد انتهينا من المدح فلنبدأ فى الحديث عـــن غرض آخر سائلين المولى التوفيق فنقول:

الفصل الثانى

الرثـــاء

يشتمل هذا الفصل على تمهيد ومبحثين

تمهـــــــــيد: فى التعريف بفن الرثاء.

المبحث الأول: قصائد شاعرنا فى الرثاء والتاريخ.

المبحث الثانى: مقطوعات شـــاعرنا ورباعيتاه وبيتـــاه فـــى الرثـــاء والتاريخ.

تمهيد

التعريف بفن الرثـــاء

يعد الرثاء من الأغراض الشعرية التى اهتم الشعراء العرب بالنظم فيها وهـذا الاهتمام ليس وليد العصر الحاضر بل اهتم به الشعراء العرب منذ العصر الجـاهلى حتى اليوم. يقول الأستاذ نجيب عقيقى(١): "يلى المدح الرثاء، وهو مـــدح الميـت البكاء عليه، والعاطفة فيه أصدق منها فى المدح لإخلاص الشعراء لمن يرثونــه، صدور رثائهم عن الطبع وفاء لمن مدحوا لا طمعا فى نوالهم، فكثرت المدائــح قلت المراثى بالكم لا بالنوع".

ويقول ابن رشيق القيروانى فى هذا الصدد(٢): "ليس بين الرثاء والمدح فـرق لا أن يخلط بالرثاء شئ، ويدل على أن المقصود به ميت، مثل "كان" أو "عدمنا به يت وكيت، وما يشاكل هذا ليعلم أنه ميت".

يقول أستاذنا الدكتور رزق مرسى أبو العباس عن صدق العاطفة وقوتها فــى رثاء(٣): "إن أخلص العواطف هى عاطفة الرثاء، فالرثاء أمر لا ينتظر صاحبـــه جرا ولا نوالا. قد يكون ثمن الرثاء هو ذلك التنفيس الذى ينفس به الشـــاعر عــن

---

(١) من الأدب المقارن. للأستاذ نجيب عقيقى، ص ١٤٣.

(٢) العمدة لأبى الحسين بن رشيق القيروانى / تحقيق الأستاذ محمد محى الديـــن عبـد الحميـد (ط: المكتبة التجارية الكبرى. القاهرة. ١٣٧٤هـ). ج ٢، ص ١٤٧.

(٣) انظر: بحوث فى الأدب. للدكتور رزق مرسى أبو العباس (ط: مؤسسة أبـــى المجـد للطباعـة والنشر بالقاهرة. سنة ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م)، ص ٢٩ : ٣٢.

مكنون خاطره، ومدى مصابه، وحرقة الألم التى تعتصر فؤاده حتى لو كان ذلك التنفيس ثمنا للرثاء، فهو لا شك يدل على الإخلاص، ومع ذلك فإن أخلص أنواع الرثاء هى تلك العلاقات الثلاثة إذا أصيبت واحدة منهن بالفقد... وهى علاقة الزوجية، وعلاقة الأخوة، وعلاقة البنوة، أما الزوجية فعلاقة ملازمة بين اثنين، من المفروض أن تظل طوال اليوم، وبالتالى طوال الحياة المشتركة بين الاثنين فالشاعر عندما يرثى زوجته يبكى لذلك الفراق الذى وقع لعلاقة التلازم بينه وبين زوجته، ترى لو أن الزوجة شاعرة وفقدت زوجها كيف كانت ترثيه، لا شك سيكون رثاؤها لزوجها ألذع وأوقع لأن القلب أكثر ألما وأشد وجعا، فإلى جانب التلازم الذى تشعر به الزوج نجد أنه عائل لها، أو قائم على شأنها مما يجعلها تفتقده، وبالتالى سيكون رثاؤها زوجها أعظم ألما وأكثر بكاء، وأوجع فى الشكوى مع الملاحظة أن الملازمة هذه قد تكون متصلة أو غير متصلة فى حالة السفر أو النفى أو ما يشبه ذلك أيا كانت الأسباب.

أما علاقة الأخوة فهى علاقة ولا شك تفيد التساوى الموجود بين الأخوين منذ خلق الأخ الثانى، ولا يستطيع صديق مهما كان أن يحل محل ذلك الأخ لأن الصداقة ولدت بعد الأخوة بزمن، وقد تنفصم عراها وتنحل روابطها، أما الأخوة فلا سبيل إلى ذلك، فالأب واحد، والأم واحدة، والمشاعر واحدة مهما تعددت الإخوة، هذا إذا توفرت سلامة العلاقة، وما يقال فى الإخوة يقال فى الأخوات، ولا فرق فى علاقة الأخوة بين أخوين أو بين اختين أو أخ وأخت، بل ربما تشعر الأخت بحاجة إلى أخيها كان يقوم على أمرها، أو يتولى شأنها فى أمر من الأمور.

أما علاقة الصداقة فلا يمكن أن تحل محل علاقة الأخوة طالما توفرت السلامة وساد الوئام بين الإخوة، بل ربما لا تشتد علاقة الصداقة وتقوى إلا إذا كان ثمة نقص يعترى علاقة الأخوة، هذا بالنسبة للعلاقتين الزوجية والأخوة، أما علاقة البنوة فلا شك انها قوية لا تكاد تعادلها علاقة أخرى، فالابن جزء من أبيه، والأب أصل لابنه، وما يقال فى الابن يقال فى البنت، وما يقال فى الأب يقال فى الأم،

ومن الممكن أن يتراءى لذهننا أن الإنسان إذا فقد ابنه يشعر بأنه فقد امتداده في الحياة، وإذا فقد الإبن أباه يشعر أن أصله في الحياة قد قطع، لذلك يصاب كل من الأب وابنه بحزن عظيم إزاء أحدهما الآخر، ومن الممكن أن يكون حزن الأب أكثر للتضحية التي يقدمها كل من الأبوين لولدهما، ولا يطعن ذلك في حزن الابن إذا فقد أحد أبويه أو كليهما، وذلك لأنه يفقد أصل وجوده ومصدر الحنان الذي تدفق فأطعمه وسقاه، والكنف الذي أدفأه ورعاه، فلا شك سيشعر الموجود في الحياة إن كان الأب أو الابن يفقد الثاني خسارة تكون قد ألمت به ومصيبة فادحة اكتنفته فملأت أفكار حياته، وما يقال في الابن والأب يقال في الأم والبنت، وعليه فقد انهينا إلى أسمى العواطف عاطفة الرثاء، وأجل الرثاء، وما كان للعلاقات الثلاثة المذكورة آنفا".

يقول الدكتور شوقي ضيف مشيرا إلى ألوان الرثاء[١] لكل أمة مراثيها، والأمة العربية من الأمم التي تحتفظ بتراث ضخم من المراثي، وهي تأخذ عندها ألوانا ثلاثة، هي الندب والتأبين والعزاء، أما الندب فبكاء الأهل والأقارب حين يعصف بهم الموت فيئن الشاعر ويتوجع، إذ يشعر بلطمة مروعة تصوب إلى قلبه، فقد أصابه القدر في ابنه أو في أبيه أو في أخيه وهو يترنح من هول الإصابة ترنح الذبيح، فيبكي بالدموع الغزار وينظم الأشعار يبث فيها لوعة قلبه وحرقته... والشاعر لا يندب نفسه وأهله فحسب بل يندب أيضا من ينزلون منه منزلة النفس والأهل ممن يحبهم ويؤثرهم... وليس هذا التأبين نواحا ولا نشيجا، بل هو أدنى إلى الثناء منه إلى الحزن الخالص، إذ يخر نجم لامع من سماء المجتمع فيشيد به الشعراء منوهين بمنزلته السامية أو العلمية أو الأدبية، وكأنهم يريدون أن يصوروا خسارة الناس فيه، ومن هنا كان التأبين ضربا من التعاطف والتعاون الاجتماعي... والعزاء مرتبة عقلية فوق مرتبة التأبين، إذ نرى الشاعر ينفذ من حادثة الموت

(١) الرثاء، لمجموعة من العلماء (ط: دار المعارف بالقاهرة، سنة ١٩٩٥م)، مقدمه، ص ٥٠٦.

الفردية التى هو بصددها إلى التفكير فى حقيقة الموت والحياة، وقد ينتهى به هذا التفكير إلى معان فلسفية عميقة. فإذا بنا نجوب معه فى فلسفة الوجود والعدم والخلود، ومرد هذا كله أن الحياة ظل لا يدوم".

وبالنظر إلى أهمية هذا الفن عند الشعراء وجدنا شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان يهتم به كذلك، ويجعله غرضا من أغراضه الشعرية، فعندما نطالع بساتين الغفران يتجلى لنا اهتمام شاعرنا بهذا الفن، ونجده يهتم كذلك بفن التاريخ بحساب الجمل فى أغلب مراثيه - ومناسبات أخرى - وعن براعته في فن التاريخ يحدثنا الأستاذ حازم محمد حيث يقول[١]: " كان الشيخ أحمد رضا خان لا نظير له بين معاصريه فى سرعة استخراج التاريخ للأحداث - بحساب الجمل - باللغة العربية والفارسية والأردية . فكانت تجرى على لسانه عفو الخاطر دون تكلف أو تصنع، وسرعة مذهلة، فاشتهر بين معاصريه، فكانوا يقدمون إليه ليؤرخ لهم لأى حدث يرغبون فى التاريخ له.

وكان شاعرنا الموهوب قد برع فى استخراج التاريخ بحساب الجمل منذ أن كان فى الرابعة عشرة من عمره، ويحكى مولانا محمد ظفر الدين البهارى[٢] أن أحدا من الشيعة أقبل عليه فى العام السادس والثمانين من القرن الثالث عشر الهجرى، وطلب إليه أن يستخرج التاريخ للحسينية فقال شاعرنا دون تأمل كثير سموها "بدر رفض" [بدر الرفض] فقال الشيعى: تم تعمير الحسينية فى العام الماضى وقد قصد تغيير لفظ الرفض فقال الشيخ أحمد رضا خان سموها "دار رفض" [دار الرفض] فغير الشيعى كلامه وقال: أنشأنا الحسينية فى العام الرابع

---

(١) بساتين الغفران. للشيخ احمد رضا خان ، ص ٢٣٣.
(٢) حياة اعلى حضرت. لمولانا محمد ظفر الدين البهارى، ج ١، ص ١٤١.

من القرن الثالث عشر الهجرى، فقال الشيخ أحمد رضا خان سموها در رفض [باب الرفض].

هكذا استخرج الشيخ أحمد رضا خان تاريخا للحسينية ولثلاث مرات فى وقت وجيز دون عمليات الحساب وبأسلوب لم يسعد الرجل الشيعى، وهذا مما يدل على موهبته فى هذا الفن الذى له رواج عظيم بين أدباء شبه القارة الباكستانية الهندية، وبالطبع تظهر كراهيته للمذهب الشيعى بمجرد النظر فى حساب الجمل.

يتناول أستاذنا الدكتور رزق مرسى أبو العباس بالحديث عن فن التاريخ فى الديوان الشعرى لشاعرنا الشيخ أحمد رضا خان فيقول[١]: "لقد تناول [الشيخ أحمد رضا خان] أمورا عدة فى ديوانه، فالتاريخ - بحساب الجمل - قد اعتنى به اعتناء بالغا، ولا تكاد تقرأ له قصيدة حتى تجد للتاريخ ذكرا، وأحيانا يكون ذكر التاريخ أكثر عددا من أبيات القصيدة، ولا يدفعه ذلك لأن يخوض فى معان غير مألوفة بل يحافظ على المعنى الذى يتحدث فيه مهما ركب الصعب، وإن كان لسانه طلقا رهن إشارته، يعينه ما حصله من الشعراء السابقين".

إن الرثاء معروف ولكن التاريخ يكون الاعتماد فيه على حساب الجمل. يحدثنا الشيخ أحمد الحملاوى عن حساب الجمل خلال حديثه عن المحسنات البديعية فيقول[٢]: "اخترعه المتأخرون ولهم فيه العجب العجاب وهو عبارة عن أن يأتى الشاعر بكلمة أو كلمات إذا حسبت حروفها - بحساب الجمل - بلغت عدد السنة التى قصدها المتكلم من تاريخ هجرة النبى - صلى الله عليه وسلم - أو تاريخ الميلاد أو غيرها من بقية التواريخ المستعملة.... والأحسن فى التاريخ أن يتقدم

---

(١) الإمام الأكبر المجدد محمد احمد رضا خان والعالم العربى. للاستاذ حازم محمد. ص ١٦١.
(٢) زهر الربيع فى المعانى والبيان والبديع. للشيخ أحمد الحملاوى. ص ٢٣١.

على ألفاظه لفظ أرخ أو مؤرخا، أى مما يشتق من التاريخ بدون فاصل، وأن يكون التاريخ فى المصراع الأخير من القصيدة، وأن تكون ألفاظه ظاهرة المعنى سلسة خالية من التعسف والتعقيد، وألطفه ما اشتمل على اسم المؤرخ له، أو شيئ من متعلقاته".

ومن هنا استطعنا أن نعرف التاريخ بحساب الجمل بعض المعرفة، بأن كل حرف من حروف الأبجدية العربية يحمل عددا معينا فالشاعر يأتى بكلمة تجمع كل هذه الأرقام بحيث يكون التاريخ الذى يريد أن يذكره، وفى هذا يبسط أستاذنا الدكتور رزق مرسى أبو العباس الحديث المستفيض معرفا أغراض الشعر فى العصر المملوكى فيقول[1]: "منها التاريخ الشعرى، وقد نظم منه الشعراء فى آخر هذا العصر يؤرخون به حادثة من الحوادث، أو خطبا من الخطوب، فيأتون فى آخر بيت من القصيدة بلفظة أو بجملة إذا حسبت - بحساب الجمل - يكون عددها موافقا للعام الذى وقعت فيه الحادثة، ويسبق "أرخت" أو "قلت مؤرخا" أو ما شابه ذلك، ومن مثل ذلك تاريخهم لفتح القسطنطينية عام سبعة وخمسين بعد الثمانمائة للهجرة بقولهم "بلدة طيبة" وقال شاعر يؤرخ رحلة ابن المؤيد المتوفى عام تسعمائة واثنين وعشرين بقوله:

قل للذى يبتغى تاريخ رحلة   **نجل المؤيد مرحوم ومبروك"**

نلاحظ أن عناية شاعرنا بهذا اللون من الشعر كان أكثر من عناية المتقدمين والمعاصرين له، ولا نعيب على معاصريه نظرا لعدم اهتمامهم بهذا النوع من الشعر فإنهم ركزوا على الناحية الفنية، وإن تسجيل التاريخ فى الشعر كان ضمن الأنواع الشعرية التى أهملت، فإنها ناحية عقلية أكثر منها عاطفية، وقد استطاع شاعرنا أن يتغلب على الناحية العقلية وتلتهب العاطفة، فكأنه قام بالجمع بين الإثنين.

---

(١) ملامح الأدب والثقافة فى العصر المملوكى، للدكتور رزق مرسى أبو العباس، ص ١٠٨.

ويقول الأستاذ الدكتور حسين مجيب المصرى عما نظمه الشيخ أحمد رضا خان فى الرثاء[١]: ويلحظ على رثائه أنه لا يركب الشطط فى المبالغات التى نصادفها فى الرثاء كقول بعضهم: "إن السماء تمطر دما" ولا: "إن أركان الدنيا تهدمت" ولا: "إن البحار جرت دموعا" - مثلا - فهذه مبالغات مرزولة إذا وضعناها فى قسطاس الذوق".

وللعلم أن رثاء شاعرنا يتمثل فى ستة وعشرين ومائة بيت، وتفصيل ذلك نشير إليه فيما يأتى:

---

(١) المنظومة السلامية، ترجمها إلى العربية نثرا، الأستاذ حازم محمد، نظمها شعرا الأستاذ الدكتور حسين مجيب المصرى (تحت الاصدار).

المبحث الأول

قصائد شاعرنا فى الرثاء والتاريخ

ويشمل هذا المبحث على أربعة مطالب:

المطلب الأول: فى رثاء وتاريخ عام رحيل مولانا محمد إسماعيل القادرى.

المطلب الثانى: فى رثاء وتاريخ عام رحيل مولانا محمد عبد الغنى.

المطلب الثالث: فى رثاء وتاريخ عام رحيل مولانا محمد عبيد الله.

المطلب الرابع: فى رثاء وتاريخ عام رحيل مولانا محمد عمر الحنبلى الحيدر آبادى.

المطلب الأول

فى رثاء وتاريخ عام رحيل مولانا محمد إسماعيل القادرى ، النقشبندى ، الشاذلى[1]

وقبل أن أخوض فى الحديث عن رثاء شاعرنا لمولانا محمد إسماعيل القادرى يحسن بى أن أسوق حديثا أرجو أن يكون موجزا، إنه حديث عن الرمزية عند الصوفية نظر لأن شاعرنا استهل قصيدته بالرمزية، ولأننا عرفنا عنه اتجاهاته الصوفية.

إن شاعرنا عند استخدامه الرموز لم يأت بشيئ غير مسبوق فى الأدب العربى ولم يخالف منهج الشعراء ممن سبقوه، فقد جاء بها الشعراء والأدباء على مر العصور حتى عصرنا الراهن فنجد نماذج كثيرة من الرمزية فى الأدب العربى القديم، كما نلاحظها فى الأدب العربى الحديث أيضا مما جعل الدكتور درويش الجندى يؤلف كتابا فى هذا الصدد تحت عنوان: "الرمزية فى الأدب العربى"[2] وكان الصوفية - على مر العصور - أكثر شعراء العربية استخداما للرموز، والذى دفع الدكتور عاطف جوده إلى تأليف كتاب فى هذا الشأن تحت عنوان: "الرمز

---

(١) لم أعثر على ترجمة مولانا محمد إسماعيل القادرى عند الرجوع إلى كتب التراجم وكلما عرفناه فى ضوء البيت الأخير للتائية التى نحن بصددها أن المرثى توفى سنة ١٣١٧هـ يعنى قبل وفاة شاعرنا بثلاثة وعشرين سنة.

(٢) أصل هذا الكتاب رسالة أشرف عليها الدكتور عمر الدسوقى، ونوقشت فى كلية دار العلوم جامعة القاهرة فى ٢٦ من سبتمبر سنة ١٩٥٧م، فنال بها الباحث درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى، انظر: "الرمزية فى الأدب العربى للدكتور درويش الجندى (ط: النهضة المصرية بالقاهرة)، ص ٣.

الشعرى عند الصوفية"[١] وأرى من المناسب أن أدرس الرمز دراسة موجزة قبل دراسة أبيات شاعرنا المنسمة بالرمزية، وإذا رجعنا إلى أول من تناول أسلوب الرمز فلن نجد من هو سابق على قدامة بن جعفر وهو من هو فى النقد سواء كان نقد النثر أو نقد الشعر، تكلم قدامة بن جعفر عن الرمز بالمعنى اللغوى والاصطلاحى، ونظرا لأهمية الرمز فى الأدب العربى عقد بابا للرمز فقال فى هذا الشأن[٢]: هو أخفى من الكلام وإنما يستعمل المتكلم الرمز فى كلامه فيما يريد طيه عن كافة الناس والإفضاء به إلى بعضهم، فيجعل للكلمة أو الحرف إسما من أسماء الطير أو الوحش أو سائر الأجناس، أو حرفا من حروف المعجم ويطلع على ذلك الموضع من يريد إفهامه فيكون ذلك قولا مفهوما بينهما مرموزا عن غيرهما، وقد أتى فى كتب المتقدمين من الحكماء والمتفلسفين من الرموز أشياء عظيمة القدر جليلة الخطر، وقد تضمنت علم ما يكون فى هذا الدين من الملوك والممالك والفتن والجماعات... ورمزت بحروف المعجم وبغيرها من الأقسام كالتين، والزيتون، والفجر، والعاديات، والعصر، والشمس، واطلع على علمها الأئمة المستودعون على علم القرآن".

لقد سار الصوفية طريق الرمز فى "الأدب الصوفى" وشأنهم فى ذلك شأن غيرهم من الأدباء والشعراء، فصدرت كتب فى المصطلحات الصوفية، وذلك

---

(١) . وهذا الكتاب هو البحث الذى تقدم به المؤلف للحصول على درجة الدكتوراه فى الآداب من قسم اللغة العربية وادابها بجامعة عين شمس [بالقاهرة] فى مايو سنة ١٩٧٧م وقد قررت لجنة التحكيم منح المؤلف درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف الاولى مع التوصية بطبع البحث على نفقة الجامعة. انظر: الرمز الشعرى عند الصوفية، للدكتور عاطف جسودة (ط: دار الأندلس، بيروت، سنة ١٩٨٣م). ص ٥.

(٢) نقد النثر، لقدامة بن جعفر، تحقيق الدكتور طه حسين والأستاذ عبد الحميد العبادى (ط: مطبعة مصر، ١٩٣٩م). ص ٦١. ٦٢.

لأيضاح هذه الرموز الغامضة، ففي هذا يقول الدكتور درويش الجندى[١]: إن المتصوفة قد نزعوا نزعة ذاتية عميقة، وإنهم يضربون في عالم ما وراء الحس ويحاولون أن يصلوا بقلوبهم ومشاعرهم إلى ما لا يتسنى للعقل والحواس الوصول إليه... وقد اتخذوا لهم لغة خاصة بهم ومسميات لا يعرفها إلا هم، ولكنهم فعلوا في اللغة كما فعل العلماء في اللغة العربية، فأخذوا الألفاظ العربية وأطلقوها على مدلولات خاصة، كما فعل النحاة بالفاعل والمفعول، والمبتدأ والخبر، والجار والمجرور، ونحو ذلك من ألفاظ كان يستعملها العرب في مدلولات عامة فأخذها النحاة ووضعوها لمصطلحات خاصة، حتى أن العربى القح لم يكن يفهمها في معانى النحاة وهكذا الشأن في البلاغة، والعروض، والفلسفة".

ويشير الدكتور درويش الجندى إلى دواعى الرمزية الصوفية حيث يقول[٢]: "إذا كان الصوفية قد لجأوا إلى الرمزية في تعبيرهم وكانت هذه الرمزية - كلها أو جلها - مفرطة في الغموض فما الدوافع التى دفعت إلى هذه الرمزية؟ ولماذا لم يعبر الصوفية عن خواطرهم بوجه عام بألفاظ صريحة واضحة وعبارات بينة تفصح عما يريدون أن يقولوا بدلا من اللجوء إلى هذا الأسلوب الذى ينجم عنه كثير من الخلط والاضطراب في الفهم والشرح؟

يقول القشيرى مبينا الدوافع إلى الرمزية الصوفية إن لكل طائفة من العلماء ألفاظا يستعملونها، انفردوا بها عن سواهم، وتواطئوا عليها لأغراض لهم فيها من تقريب الفهم على المخاطبين بها، أو تسهيل على أهل تلك الصنعة في الوقف على

---

(١) الرمزية في الأدب العربى، للدكتور درويش الجندى، ص ٣٤٠.
(٢) المرجع السابق. ص ٣٤٩.
وانظر: الرسالة القشيرية. للإمام أبى القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى (ط: مكتبة محمد على صبيح وأولاده، القاهرة، دون سنة الطبع)، ص ٣١.

معانيهم بإطلاقها. وهذه الطائفة - يعنى الصوفية - يستعملون ألفاظا فيما بينهم قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم، والإخفاء والستر إلا على من بايعهم فى طريقتهم لتكون معانى ألفاظهم مبهمة على الأجانب غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع فى غير أهلها. إذ ليست بنوع تكلف، أو مجلوبة بضرب تصرف، بل هى معان أودعها الله تعالى فى قلوب قوم. واستخلص لحقائقها أسرار قوم".

يشير الدكتور زكى مبارك إلى مكانة الصوفية فى الأدب والى ظاهرة الرمزية فى أعمالهم الأدبية وفى هذا يقول[١]: لا مفر من الاعتراف بأن الصوفية كان لهم وجود أدبى ملحوظ. وكيف لا يكون الأمر كذلك وقد عرفت عنهم ألفاظا وتعابير دونها المؤلفون. وتلك الألفاظ والتعابير هى ثروة لغوية يقام لها وزن حين تدرس المصطلحات وقد يقال إن لكل قوم ألفاظا وتعابير حتى النجارين والحدادين، ولا يكون ذلك عنوانا على سلطنتهم الأدبية، نجيب بأن ألفاظ الصوفية جرت فى الأغلب حول معان وجدانية وروحية ونفسية واجتماعية، فهى ألصق بالحياة الأدبية".

ونجد الدكتور زكى مبارك وهو يشير إلى أن ظاهرة الرمزية ليست قاصرة على الأدب الصوفى فى الماضى بل توجد هذه الظاهرة فى كل العصور الماضية وحتى فى عصرنا الراهن، وفى هذا يقول[٢]: والصوفية فى جميع العصور كانت لهم رموز وإشارات... والذى يتأمل ألفاظهم يراها تدل على لباقة وذكاء، فألفاظهم المعاشية والاجتماعية وضعت فى الأصل لستر معانيهم عن عامة الناس، والصوفية فى العصر الحاضر لهم تعابير خاصة بهم، وتتفرد كل طائفة بجملة من الاصطلاحات. والشاذلية - الذين صحبتهم فأحمدت صحبتهم - لهم كلمات لا تزال

---

(١) التصوف الاسلامى. للدكتور زكى مبارك، جـ ١. ص ٦٩.
(٢) المرجع السابق. جـ ١. ص ٧٦.

في البال على قديم العهد: فالجلواء الذى توزع على الإخوان بعد الحضرة اسميها النفحة. والورد الأكبر اسمه الوظيفة".

يقول الدكتور نظمى عبد البديع محمد مشيرا إلى الرمزية الصوفية[١]: إذا كان الصوفيون قد أطلقوا أنفسهم من قيود المادة فلا غرابة أن يتحرروا من المتواضع عليه من دلالات الألفاظ والعبارات، وهنا مدخل العناء لطالب منعهم الفنية لما حفل به الأدب الصوفي من الألفاظ والعبارات مما يدخل في باب الرمز والإشارة والألغاز والتعمية مما لا يمكن إدراك مدلوله إلا لنظرائهم من مخاطبيهم لأن صلتهم بالله لم توضع لها مفردات خاصة بها".

ويوضح الدكتور عبد الفتاح السيد محمد أهمية الرمز في الأدب الصوفي قائلا[٢]: إني أرى أن رمزية الصوفيين وإن اعتلى بعضها سحابة كثيفة قد تغطي إبراق البرق، وتحجب الطلائع والدرر المتناثرة التى تشف عن الجوانب الروحية، وقد استمرأت المشاهدات القدسية والحضرة الإلهية مما قد يظن أن بها تخلخلا في التجربة الشعرية ومزجا واهيا من العناصر الأدبية وإن اعتلى بعضها ذلك. فهي مقبولة في المشاعر حيث إنها صدرت من نفس تأججت بعواطف روحية واستنارت بقبس إلهي. فكان مشعلها تبديدا للأوهام الفاسدة وسحق النزوات الطائشة. والسمو بالإنسانية إلى أسمى الغايات وأعذبها، وفي ذلك ما يبدد قتام الضباب ويمحو الغموض الكثيف.

وفي هذا الكشف الذى هو وليد الدربة العقلية والتأملات الواسعة متعة النفس حيث الوصول بعد شيئ من العناء، مما كان لهذا المذهب الرمزى ذيوع وانتشار في

---

(١) في الأدب الصوفي، للدكتور نظمى عبد البديع محمد (الطبعة الأولى). ص ٧٣.
(٢) الأدب العربي بين الزهد والتصوف، للدكتور عبد الفتاح السيد محمد الدماصى (ط: المطبعة العربية بالقاهرة سنة ١٣٨٩هـ - ١٩٧٧م). ص ٢٠٣، ٢٠٤.

الأدب الأوربى فى العصور الحديثة، حتى كان بعض الأدباء يعمل جاهدا علـــى أن يكتنف شعره ما يبعده عن الإفصاح ويقربه من الغموض. ومـــاذاك إلا لأن الأمــر الذى يجتبى بعد جهد فكرى على ما فيه من إثارة النفس وتشويقها هو ألصق بـــها، وأقرب إلى معينها حتى يظل ماثلا فى المخيلة ساريا فى الصورة الوجدانية".

وعن وضوح الفكرة وغموضها يدلى أستاذنا الدكتور رزق مرسى ابو العباس بدلوه فيقول[١]: "وللنقاد فى ذلك أكثر من رأى فبعضهم يفضل الغموض بـــدون أن تخرج كتاباتهم عن الحديث العادى حتى تصل إلى درجة تحتاج إلى إعمال فكـــر وشحذ رؤية. وإن أوصل ذلك القارئ إلى التعب والكد، وبالطبع لا نميل إلى هـــذا، فالغموض وسيلة تحمل الكلام أكثر مما يجب له، وربما ذهب بكل قارئ إلى واد لا ندرى أيلتقى معه غيره أم لا؟... ومن النقاد من يفضلون الوضوح وإنى لأرانى أميل إلى طريقتهم، ولكن بشرط ألا يكون ذلك الوضوح سبيلا إلى الابتذال فى الحديـــث حتى يصبح وكأنه شخص عادى يتحدث، ولكن العيب فى طريقـــة الجـــاحظ فـــى وضوحه قديما، والمنفلوطى والدكتور طه حسين حديثا، ولكـــل خيالـــه وأسلوبه وطريقته. فى الكتابة وإن كانت الموهبة الأدبية تجمع بين جميع الأدبـــاء، مـــع أن تعبير كل منهم يختلف عن الآخر".

تشير الدكتور ابتسام صالح الدين إلى وجود الرمزية فى الشـــعر الأردى فـــى الهند وقد تناولت هذه الدراسة خلال حديثها عن أحد رواد الأدب الأردى ألا وهـــو أسد الله خان غالب الذى طور الرمزية فى الأدب الأردى بشكل غير مسبوق وفـــى هذا تقول[٢]: تعد طريقة استخدام الرمز والاشارة من أهم جوانب الفن فـــى شـــعر

---

(١) بحوث فى الأدب، للدكتور رزق مرسى أبو العباس، ص ٣٦، ٣٧.
(٢) الشعر الأردى منذ نشأته حتى القرن التاسع عشر الميلادى، للدكتور ابتسام صـــالح الديـــن، ص ١٧١.

غالب، ولم يستحدث الرمزية بل هى أحد السمات العامة للغزل الأردى لكنها لم تكن قبله بمثل ذلك العمق والدقة التى أوجدها، فقد طور من الرموز الموجودة واستحدث أشارات ورموزا جديدة تستطيع أن تستوعب هذه المشاعر

وتوجد فى أشعار غالب بعض الأشارات والكنايات التى تصل فى عمقها وغرابتها إلى حد الإبهام، وقد شاع الإبهام فى العهد الحالى وأصبح أمرا عاديا فى شعر الغزل ولكنه حتى عصر غالب كان جديدا دخيلا على اللغة أى أن غالب قد سبق عصره أيضا فى هذا المجال".

ومن هنا نستطيع القول بأن شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان - عند تناوله أسلوب الرمز فى شعره العربى - تأثر بالرمزية السائدة فى الأدب الأردى أيضا، وإن شئت فقل: كان تأثره أولا بالأردية لأنها لغته الأولى، والتى جاءت فى الشعر الأردى لسابقيه ومعاصريه، كما كان مندفعا إلى الرمزية لوجودها فى الأدب الصوفى باللغة العربية. وهذا ما أشرنا إليه آنفا، فكان تأثره بالرمز الصوفى الموجود فى الشعر العربى أكثر لحبه الشديد للغة العربية، لكونها لغة القرآن والحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - على كل فإنه عند تناوله الرمزية تأثر بالأدبين الأدب العربى والأدب الأردى.

سلك شاعرنا الصوفى المغرم باللغة العربية وآدابها فى شعره العربى مسلك سابقيه من شعراء اللغة العربية - كما سبق أن ذكرنا - وذلك عندما أفصح عن رموز غامضة فى اثنى عشر بيتا من تائيته التى صاغها فى رثاء مولانا محمد إسماعيل القادرى، فقد أتى برموز لم افهمها، لعله استخدمها هنا نتيجة لتعمقه فى الطرق الصوفية المختلفة، وهذا هو دأب الصوفية عند قيامهم بنظم الأبيات العربية

، الفارسية والأردية. ولا يستطيع أحد أن يفهم رموزهم إلا أن يكون المعبر واحدا منهم. وبالتالي تتضح رموزهم.

هذا وكأن شاعرنا من كثرة الحب لمرثيه مولانا محمد إسماعيل القادرى استحضره في نفسه. فيتحدث إليه بالرموز التي لا يفهمها أحد إلا من كان من أهل الطريقة. ومما هو جدير بالذكر أن شاعرنا ومرثيه كانا من أهل الطريق. والشيخ أحمد رضا خان يعلم أن مرثيته هذه يقرأها غير هذا المرثى ممن لا يكون من أهل الطريقة ولكنه فضل أن تكون هناك رموز بينه وبين المرثي، وكأنه يريد أن يقول انه يناجي مرثيه الغالي ولا يخاطب أحدا سواه، اللهم إلا من كان من أهل الطريقة فسوف يعلم مدلول هذه الرموز.

ويمكن أن يكون استخدام شاعرنا للرموز من باب استعراض الثروة الموجودة عنده من المعرفة والطريقة. فكأنه يريد أن يقول بأنه يعرف الطريق ويتحدث برموزه. وقد يكون إتيان شاعرنا بالرموز تتمة لما عرفه عن أدبنا العربي وقرأه رموزا في أشعار بعضهم فأراد أن يأتي بالرمز ليقول: أنا استطيع الإتيان بالكثير من فنون الشعر العربي وأغراضه، ولم يأت بالرمز فقط، بل أتى بالتاريخ أيضا وهو غرض شعرى لم يذع في عصرنا هذا وأعني به عصرنا الأدبي، ولم لا يكون شاعرنا قد أراد أن يعبر عن كل ذلك الذى قدمناه من تعلات لوجود الرمز في شعره. على كل نجد شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان يفصح عن تلك الأحزان التي بثتها خواطره على من رحل عن دنيانا هذه، وسبقه إلى دار الآخرة، فتفتق لسانه ليخرجها عبارات صحيحة التركيب قوية التعبير.

مما يدعو إلى التأمل أن نجد شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان يخص مولانا محمد إسماعيل القادرى بمرثيتين تبلغان مجتمعتين اثنين وخمسين بيتا، وهذا ما لا

نجده في ديوانه بساتين الغفران لغير هذا العالم الديني ممن أقدم على نظم المراثي والتواريخ لوفاتهم. وهذا منه يدل على أن علاقات الأخوة والصداقة العلمية التي جمعت بينهما كانت قوية. مما جعل شاعرنا يتأثر غاية التأثر بوفاة مولانا محمد إسماعيل القادري فيقدم على نظم المرثيتين تقع الأولى منهما في تسعة وثلاثين بيتا، والثانية في ثلاثة عشر بيتا، أما المرثية الأولى فيتجلى لنا من مطالعتها أن شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان يبدؤها ببيت يكتنفه الغموض، ويحتاج ممن يطلع على هذا البيت الرجوع إلى المعاجم وسيرة مولانا محمد إسماعيل القادري، ويستمر هذا الغموض الناجم عن استخدام الرموز إلى البيت الثاني عشر من هذه المرثية. وهذا الأسلوب من شاعرنا يدل دليلا قاطعا على مدى إجادته اللغة العربية، وليس هذا فحسب بل شغفه بها، وتمكنه من أساليبها، وحذوه حذو الأقدمين في اختيار الكلمات التي لم تكن كثيرة الاستعمال في عصره. لم لا فقد اطلع شاعرنا على الكثير من دواوين الشعراء الذين سبقوه منذ العصر الجاهلي حتى العصر الذي كان يعيش فيه. وتدل على هذا قصائده الثلاث التي أشرنا إليها من قبل.

لقد استوقفني اختيار الشيخ أحمد رضا خان لقافية التاء في مرثيته التي نظمها لرثاء وتاريخ وفاة مولانا محمد إسماعيل القادري، وهذه القافية أعني بها التاء المكسورة المسبوقة باللام المشددة – وما أن قرأتها حتى استحضرت نفسي القافية ذاتها عند كثير عزة، ولم أشأ ساعتها أن يزورني شعر لغير كثير عزة فيه هذه القافية. ولصعوبتها حاولت البحث في عدة دواوين، وكان من الطبيعي أن أنظر حولي في نفس العصر الحديث، وزرت شعر كل من شوقي وحافظ إبراهيم والبارودي ولم أجد عندهم ما يماثل هذه القافية فقلت في نفسي: لعلها لم تطف بخيال واحد من هؤلاء الأقطاب الثلاثة. لذا رأيت أن أرجع إلى ما سبق من العصور لعلي أجد نظيرها عند غير كثير عزة، فوجدت ذلك ولكني رأيت نفس شاعرنا الشيخ

أحمد رضا خان أطول مما رأيته عند غيره من الشعراء فى هذه القافية، فها أنا ذا أعترف له بتفوقه فى ذكر هذه القافية الصعبة على من لم يذكرها بل على من ذكرها ممن قرأت دواوينهم وكان فى هذه القافية نفسه أطول وذلك على النحو الذى سأعرض له.

هذه قافية أراها صعبة المنال وعند رجوعى إلى دواوين المتنبى، وأبى تمام، وعمر بن أبى ربيعة، وجرير من الشعراء الأقدمين لم أجدهم نظموا بها وقد توصلت إلى هذا بعد اطلاعى على دواوينهم، هذا وقد سبقه فى استخدام هذه القافية كثير عزة[١] وبشار بن برد[٢] والبحترى[٣] والحطيئه[٤] وجميل بثينة[٥] وترتيبى لهم حسب نفسهم الشعرى فى هذه القافية، ومما يعد ظاهرة فى تائية شاعرنا مما لا

(١) تشتمل هذه التائية على ثلاثة وثلاثين بيتا فى الغزل يستهل كثير هذه القصيدة قائلا:

خليلى هذا ربع عزة فاعقلا قلوصيكما ثم ابكيا حيث حلت

انظر: ديوان كثير قدم له وشرحه مجيد طراد (ط: دار الكتاب العربى، ١٤١٣هـ). ص ٥٤ : ٥١.

(٢) نظم بشار بن برد تائيته متغزلا ومفتخرا بأيام بنى عامر مواليه فى اليمامة بلاد بنى حنيفة، والتى تشتمل على تسعة وعشرين بيتا ومطلعها:

تخليت من صفراء لا بل تخلت وكنا حليفى خلة فاضمحلت

انظر: ديوان بشار بن برد، جمع وتحقيق وشرح الإمام محمد الطاهر بن عاشور (ط: الشركة التونسية بالجزائر، ١٩٧٦م)، جـ ٢، ص ٨٠ : ١٢٠.

(٣) نظم البحترى هذه التائية فى هجاء ابراهيم بن الحسن بن سهل والتى تشتمل على عشرة أبيات استهلها الشاعر قائلا:

تخل من الاطماع اما تخلت وول صروف الدهر ما قد تولت

انظر: ديوان البحترى. حققه وشرحه وعلق عليه حسن كامل اليرمى (ط: دار المعارف بمصر ١٩٦٣م). جـ ١. ص ٣٦٧.

(٤) نظم حطيئة تسعة ابيات فى منظومتين أولهما تشتمل على خمسة أبيات فى مدح بنى نهشل ومطلعها:

لعمرك ما ذمت لبونى ولا قلت مساكنها من بنى نهشل إذ تولت

حسب نفسهم الشعرى فى هذه القافية، ومما يعد ظاهرة فى تائية شاعرنا مما لا تجده عند الشعراء المشار إليهم أننا نجده وقد نظم تسعة وثلاثين بيتا، أى أكثر منهم جميعا، وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على مدى تمكن شاعرنا من اللغة العربية واطلاعه على تاريخها على مر العصور.

ومما تجدر الأشارة إليه أن شاعرنا انفرد عن شعراء العرب عندما تناول قافية التاء فقد جاء بغرض غير مسبوق فى هذه القافية فى دواوين الشعراء الذين أشرنا إليهم، فتأتيه شاعرنا فى الرثاء أما الشعراء الذين أشرنا إليهم فنجد كثير عزة، وبشار بن برد، وجميل بثينه، نظموا فى الغزل، كما نظم البحترى فى الهجاء، والحطيئة فى المدح.

نرى أن شاعرنا يستلفت نظر القراء إلى مقدرته على امتلاك ناصية اللغة العربية وذلك باستخدامه كثيرا من الفنون البلاغية جنبا إلى جنب استخدامه لكثير من المفردات اللغوية بالإضافة إلى استخدام الكثير من الاشتقاقات والمحسنات البديعية التى لا تخل بالموضوع، كل هذا يبين لنا أن الشيخ أحمد رضا خان كان يستطيع أن ينظم فى أى قافية بسهولة، وهذا ما يجعله من الرواد القلائل لشعراء

أما الثانية فتحتوى على أربعة أبيات فى مدح أبى عقيل عمرو الثقيفى ومطلعها:

يعيش الندى ما عاش عمرو بن عامر   وولى الندى إن نُفس عمرو تولت

انظر: ديوان حطيئة، تحقيق الأستاذ نعمان أمين طه (ط: مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر، ١٣٧٨هـ ١٩٥٨م)، ص ٦٨، ٢٦٦.

(٥) نظم جميل بثينة بيتا فى القافية التى نحن بصددها وهو:

ألم تر أن الماء غير بعدكم   وأن شعاب القلب بغدك حلت

انظر: ديوان جميل بثينة، جمع وتحقيق وشرح الدكتور حسين نصار (ط: مكتبة مصر بالقاهرة، دون سنة الطبع)، ص ٤٠.

العربية من أهل شبه القارة الهندية الذين تعلموها فى موطنهم المزدحم بالكثير من اللغات دون العربية.

يستهل الشيخ أحمد رضا خان تائيته - من بحر الطويل - بتوجيه السؤال إلى نفسه التى فجعت بوفاة مولانا محمد إسماعيل القادرى حيث يقول: هل تجاوزت الشوطب أم انها مازالت باقية فى مكان مستور عن أنظارنا. وقد وصلت الشمس الى وقت غروبها حيث أقلت الظلال. وما لى أرى أن الليل طويل على؟ إن ليل المحزون لطويل. فكأنه قدر من الحجارة يملأ به البئر الواسعة، أكانت الصبح مشرقة؟ وكأنها مطللة بظلال تحول دون رؤيا، وقد تعبت النواظر فى انتظار رؤيتها. ففى هذا يقول شاعرنا[١]:

"عدت شوطبها أم ظل وظلت	ببطن بطين والظلال أقلت
فما لى أرى بالليل طولا كأنها	براد تردم الجفر أم فيه حلت
انكسها أتباع عال مغرب	لربتها فى السير أم هى ضلت
أمشرقة كانت مشرقة الكلل	مكللة فيها النواظر كلت"

ويسأل شاعرنا نفسه أهى تلك الدار وقد بقيت فى الصبهاء، نعم إن ليل المحزون طويل خاصة بعد تلك الهموم التى ألمت به وضربت أطنابها فى قلبه، ولا عجب فإنها ضلت الطريق الذى فى وجهها، ويقول مستخدما الرموز: يقاطر كل واحد من الصفر والألف نفسه، فما بين "بط" و "الجيم" يضل فيه الإنسان، ويعبر شاعرنا هذه الأحاسيس والمشاعر بقوله[٢]:

"أرجعا ولا تدوير أم دار معهد	بصهباء فبالصهباء إياك علت

(١) بساتين الغفران. للشيخ احمد رضا خان . ص ١٧٥.
(٢) بساتين الغفران. للشيخ احمد رضا خان . ص ١٧٥.

بلى ليل كل ذى هم طويل وسيما	هموم على أعلى مهائم جلت
ولا غرو أن ضلت فإن طريقة	تلى كالتى فى وجهها بل هى التى
يقاطر صفر نفسه وكذا الألف	فما بين بط والجيم ظلم اضلت"

وبعد هذا يقول شاعرنا مخاطبا نفسه، إن كل مصيبة في دنيانا هكذا تنتهي، والقمر بعد أن يكون مظلما في المحاق سوف يبعث النور كالأهلة، ويرى أن بعد كل شدة فرجا، وإن الله تعالى يسوق سحابة وهذه السحابة تمطر الأرض. فكأنها حجاب يحيط بالأرض، وبعد أن تنقشع السحابة تظهر النجوم المشرقة اللامعة حيث تتمتع الأرض بضوئها وسطوعها، ثم بعد ذلك تأتي السحابة وتحجب النجوم ولكنها بعد ذلك تنقشع وتمضى لتظهر النجوم الزاهرة المشرقة مرة أخرى، وتتردد السحابة بين الظهور والانقشاع، فما تلبث أن تحجب عن ضوء النجوم ثم تتجلى. وهكذا المصائب التي تلم بالانسان، يمثل شاعرنا هذه المشاعر قائلا[١]:

"ألا كل رزء في دنياك منتـه	وكل محاق مسفر عن أهلة
الم تر أن الله يزجى سحابة	فتسبل حجبا إذ حوت إذ تجلت
وتزهر أم الزاهرات اذا انثنت	تدلت تولت إذ علت إذ تعلت"

هنا نلاحظ الاقتباس من الآية القرآنية: **ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله** [٢] وبعد هذا يقدم شاعرنا على الاشارة إلى حقيقة لابد لكل إنسان أن يتذوقها. وقال في هذا الشأن: "إن كل من يموت يخلفه إنسان حى، ولكنه إذا فقد رجل عظيم فليس له من يخلفه. فبعد موته لا

---

(١) المرجع السابق. ص ١٧٥.
(٢) سورة النور ٢٤/٤٣.

يكون أحد مثله، ثم يشير شاعرنا إلى شمائل مرثيه هذا ومرثى آخَر هو مولانا محمد عبيد الله حيث يقول: إن شمائل مولانا محمد عبيد الله عظيمة فلا يوجد مثله بعد أن رحل. ورحلة مولانا محمد إسماعيل أيضا أفقدت رجلا ذا صفات عظيمة كالمذكور انفا، ويبدو أن الدموع تستجلب الدموع والرثاء رثاء أخر، فنرى شاعرنا فى البيت الثانى عشر يذكر مرثيا آخر وهو مولانا محمد عبيد الله، وما ذكره إلا استجلابا للدموع من كثرة ما أسالته عيناه على مرثيه هذا، يصور لنا شاعرنا هذه العواطف قائلا[١]:

سوى الموت بل عن كل موت خليفة	ولاخلف عن فقد غر أجلة
شمائل عبيد اله جلت جليلة	وشمليل إسماعيل بالتلوصلت

ألم أقل لك أيها القارئ الكريم إن الدموع تستجلب الدموع فلم يطب به المقام لأن يذكر مولانا محمد إسماعيل وحده بل عرض فى هذا البيت بذكر مولانا محمد عبيد الله كذلك. ولعله يفتقد أحياء مثلهم، وتلك نظريته التى قالها فى البيت الحادى عشر من هذه المرثية، وبعد هذا يشير شاعرنا إلى أمر أشعل صدره بشعلة من الحزن لا تخبو ولا تهدأ، فأقبل على إفصاح ما يكنه فى قلبه من لوعة متقدة وما فى صدره من حرارة بالغة، فيقول: إنه مات مولانا محمد عبيد الله وبأثره مات أناس من قوم كنا نحبهم وننتظر منهم الخير ونخشى أن يصيبنا بأس بعدهم لأنهم كانوا يحموننا عند الشدائد، لقد مضى هؤلاء الرجال ونحن الآن لا نرى منهم أحدا، وهذا ما يثير فى قلوبنا الحزن والأسى وهنا نلحظ إقدام شاعرنا على الاقتباس من الآية

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان، ص ١٧٥.

القرآنية: **فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر** [١]، يجسد شاعرنا هذه العواطف قائلا[٢]:

"قضى نحبه قوم نحب وننتظر ترجي وتخشى من شرور أضلت

مضوا وبقينا خلف لم يك بيننا تراء ولا عيـن برؤيا تسلت"

وبعد هذا يشير شاعرنا إلى الأمر الذى أثار فى قلبه غريزة الحب الصادق والميول إلى بنى جنسه تلك الميول التى لم تلبث أن تحولت حبا صادقا لله وفى الله. فقال: إن حبه لم يكن إلا لخدمة دين الله دون أى غرض آخر، ثم قال: إن هذا الحب فى دين الله تعالى سوف يعلو بصاحبه إلى منابر من نور مما يدفع الأجلاء إلى إغباطه، وبالطبع نرى هنا الاقتباس واضحا من الحديث النبوى الشريف حيث قال حبيبنا المصطفى – صلى الله عليه وسلم –[٣]: "**إن لله عز وجل عبادا لهم منابر يوم القيامة من نور يغبطهم الشهداء، قال القوم: من هم؟ قال: المتحابون فى الله يغبطون من الأنبياء والشهداء**".

وقد قال حبيبنا المصطفى – صلى الله عليه وسلم – فى نفس المعنى[٤]: "**ياأيها الناس اسمعوا، واعقلوا، واعلموا أن لله عبادا ليسوا بأنبياء ولا شهداء**

---

(١) سورة الأحزاب ٣٣/٢٣.
(٢) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان، ص ١٧٥-١٧٦.
(٣) كنز العمال، للعلامة علاء الدين على المتقى، ج ٩، ص ١٤.
(٤) المستدرك للإمام أبى عبد الله الحاكم النيسابورى (ط: مكتبة ومطابع النهضة الحديثة، رياض، دون سنة الطبع)، جـ ٤، ص ١٧٠.

يغبطهم النبيون والشهداء على مجالسهم، وقربهم من الله عز وجل "وفي هذا يقول شاعرنا(١):

وذا خير ما نرجوه أن كان ودنا	لخالص دين الله من دون علة
تحابيهم في الله إن شاء موصل	منابر من نور بمغبط جلة

وبعد هذا يقول شاعرنا: إن مولانا محمد إسماعيل القادري إن فارقنا اليوم فسوف نلتقي يوم القيامة على حوضه – صلى الله عليه وسلم – حيث نرتوي بشربة من ماء من يد نبينا – صلى الله عليه وسلم – لا نظمأ بعدها أبدا، وإن الله – تبارك وتعالى – سيجمع شملنا في الجنة، وإننا عباده المفتقرون إليه فهل ينقص بحر جوده شيئ لو أنه من علينا بقطرة من بحر جوده؟ ففي هذا يقول(٢):

وموعدنا ان من حوض نبينا	ومكرمنا الآتي بأكرم ملة
هنا بالمحيا والحميا لقينا	محيا حبيب في حميا خضلة
قضى الله في جناته جمع شملنا	وبوأنا في روضة مخضلة
فنحن، به، منه، إليه فان	يمن فهل بحر يغيض ببلة

دعاء من ألطف ما يمكن، وألفاظ من أحلى ما يمكن، ولا ندري إن كان الشاعر يرثي أم يمدح؟ أم يرجو لنفسه؟ أم هو متضرع إلى الله – سبحانه وتعالى – ترى ما مصدر حلاوة هذا البيت؟ لأن فيه لفظ الجلالة أم لأن فيه لفظ الجنات؟ أم لأن فيه جمع الشمل؟ أم لأن الشطرة هذه احتوت جميع ما أشرنا إليه؟ لا يمنع ذلك، وإني حين سمعتها ارى أن من الميسور أن أجعلها علما على قائلها فأقول: أنا أبحث في

(١) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان، ص ١٧٦.
(٢) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان، ص ١٧٦.

شعر "قضى الله فى جناته جمع شملنا" بدلا من أن أقول: أنا أبحث فى الشيخ أحمد رضا خان. دعاء طيب و أمنية غالية، أسأل الله ألا يحرم متضرعا إليه من تحقيقها.

و نلاحظ الجناس غير التام واضحا فى قوله: "محيا" و "حميا". و أرى أن شاعزنا يحاول أن يستلفت نظر قارئه وسامع أبياته. فمرة يشتغل بعرض الناحية اللغوية. ومرة أخرى يأتى بحروف الجر الداخلة على ضمير الغائب ويترك للقارئ أن يقدر على أى شئ دخلت هذه الحروف، كما لو يستنشط همة السامع عند كل بيت من أبياته أو على الأقل بعد بيت أو بيتين.

وبعد هذا يتوجه شاعرنا بالتضرع و الدعاء إلى خالق الأرض و السماء لمرثيه مولانا محمد إسماعيل القادرى الذى كان طول حياته خليلا للخلان، و شديدا على المخالفين للشريعة الإسلامية الغراء، وكان شغله الشاغل الدفاع عن دين الله تعالى، و إبانة الحق. كما كان يقاوم البدع و المبتدعين، وقد ساعد فى نشر الوعى الإسلامى أيضا حيث قام بتربية المسلمين تربية إسلامية فريدة، كما كان المرثى يتصدى لكل من زلت قدمه عن الصراط وعن الطريق القويم، ويناضل بكل شدة - كذلك - من كان يسعى فى الضلال، ومن كان يتخذ من الإضلال للناس وسيلة. فالنوال للمريد الراغب فى أن يتعلم و النكال للنفس المتمردة، و المراد من كلمة "المضلة" الضالة المحاولة لإضلال غيرها، وفى هذا يقول شاعرنا(١):

حبا الله إسماعيل فضلا ورحمة	وأكرم مثواه بمنزل خلة
فلم يك فيما جاءنا يغتدى ولا	يروح سوى خلة أى خلة
صيانة دين أو إهانه بدعة	إبانه حق أو إعانة خلة
نوال مريد أو نكال مريدة	نزال مزل أو نضال مضلة

(١) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١٧٦.

يرد الردى بالردع عن هوة الـهوى   يرى من كلامى جملة بمجلة

نلاحظ الجناس بين كلمتى "نوال" و "نكال" وطبعا غير تـــام وكذلـك اتفـاق الحروف بين أربع كلمات واضح جدا "النزال" و "النضال" و "مزل" و "مضلة"، فكأن شاعرنا يحاول من البيت إلى البيت وإن لم يكن فى كل بيت أن يشحذ الهمـــة فـى معنى ذلك البيت ولذلك يأتى بكلمات تكاد تكون متفقة فى التلبية لهذا الغرض.

وبعد هذا يقدم شاعرنا على الاشارة للبيت المشهور وأرى أن شـــاعرنا عنـد قوله: "فإن يك لم تنظر" أراد أن يقول: "كأن لم يك تنظر" لعلـــه أراد أن يبيـــن أن العين لم تنظر عيبا فى المرثى، وهذا إن دل على شئ فيدل على أن المرثى بــرئ عن العيوب، والشاعر يهدف إلى هدف أسمى من أن يقول: "وعين الرضا عن كـل عيب كليلة" وذلك لأنه لم يقرر أن لمرثيه عيبا، بدليل أنه ينفى عن مرثيـــه وجـود العيب. وينفى أنه قد أبصر فى مرثيه عيبا شأنه فى ذلك شأن عين الرضا، وكلمـــة رضا هذه فيها تورية لها معنيان أحدهما قريب وهو ضد السخط، وهذا قريب إلـــى النفس لأن بيت الشعر معروف، "وعين الرضا عن كل عيب كليلة"، وأمـــا معنـاه البعيد وهو ما أراده الشاعر وهو العلم على قائل الشعر، كأنه يريد أن يقول: "عينى" وهو بذلك يقرر أنه لم يجد فى مرثيه عيبا ليبصره، وإلا فلو كان يريد الجرى وراء المعنى للبيت لكان فى ذلك ذم للمرثى، وأنا أترفع بالشاعر أن يكون قد قصد بذلـك وهذا من باب ذكر محاسن المرثى.

وأنا أعلل أن إشارته للبيت المشهور، "وعين الرضا عن كل عيب كليلة" بـأن هذا لون من ألوان اجتذاب النظر والتفكير، وإعمال التفكير فيما يقول لســـامعه، أو يكتب لقارئه، وكذلك يستخدم التورية بطريقة بعيدة، وذلك عند إيراده كلمة "عيـ... وهذا لون من ألوان استحسان التورية، لأنها بعيدة جدا عن أن تنظرها، لأنـــها لـ...

كانت لا تبصر العيوب فإن معناه أن هناك عيوب لا تبصرها عين الرضا، فالشاعر يريد أن يقول: إن عينه لم تنظر فى مرثيه العيوب، فقد جاء شاعرنا بالتورية و البيت المشهور ليلفت الأنظار إلى المعنى الذى جاء به و إلى الصياغة التى أتى بها فى البيتين السابع و العشرين، و الثامن و العشرين من تائيته التى نحن بصددها، و هذا نوع من أنواع العناية بما يقوله الشاعر و اعتزازه بما يكتب، يعنى أنه يستجلب الانتباه ويوقظ السامع و القارئ، يقول شاعرنا[١]:

"وعين الرضا عن كل عيب كليلة	فإن يك لم تنظر و إن ترغلت
"ولكن عين السخط تبدى المساويا"	كمن دخل البستان مجتل جلة

وبعد هذا يشير شاعرنا إلى أن مرثيه مولانا محمد إسماعيل القادرى و إن كان قد ذاق طعم الموت و ارتحل عن دنيانا هذه إلى جنات ربه، ولكن الله تبارك وتعالى جعل ذكراه حية فى قلوب المسلمين كمكافئة فى الدنيا وذلك على جهوده العلمية والدفاعية طول حياته، يصور شاعرنا هذه الأحاسيس بقوله[٢]:

حياة مواتى حى طبعا بسعيه	فحياه حى لا يموت بهلة
مضى وهو تواق إلى الأمن والعلى	فنال العلى والأمن فيم محلة

وبعد هذا يعرض شاعرنا للباس مرثيه، وحلته، والعبير الفواح، كل ذلك بعد أن تجهز المرثى حين خروجه من الدنيا، فيرى شاعرنا أن الثوب الذى ستر به مرثيه، والكفن الذى حل فيه، وما أضيف إلى هذا الكفن من طيب الرائحة إنما تمثل ذلك فى ثواب أحاط به كله إحاطة الكفن بالمتوفى، وأن تصوفه واتباعه الطريقة

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١٧٦.
(٢) المرجع السابق، ص ١٧٦.

التى كان عليها مرثى شاعرنا إنما كان ذلك بمثابة العبير الفواح الذى تعطرت بـه اكفانه. ودخل إلى ماء غسله، حتى تطيب به جسده، وما ذلك إلا لحب جمع بينهما، وثقة من الشاعر وأمل فى وجه الله أن يمن على مرثيه بهذا كله.

ومن الممكن أن يكون شاعرنا قد أراد بفكرة التحنيط وما يترتب عليها من بقاء للجسد دون أن يذهب ويضيع فى التراب، لعل شاعرنا عرف من أمر حضارة مصر وما كان الفراعنة يقومون به تجاه أسرتهم من أمر التحنيط ليتسنى لهم بقاء الجسد. رأى شاعرنا أن اتباع مرثيه طريقة الشاذلية وتدينه بصفة عامة يؤدى إلى بقاء هذا الجسد وعدم ضياعه فى التراب، وقد أشار إلى ذلك فى البيت الثانى والثلاثين وأشار كذلك إلى عام وفاة مرثيه - بحساب الجمل - فى الشطرة الثانية من البيت الثالث والثلاثين، كما أشار إليه فى الشطرة الأولى والثانية من البيت الرابع والثلاثين. وفى هذا يقول شاعرنا[1]:

وفضله صوب الصواب بهلية	وكفنه ثوب الثواب بحلة
وشذو شذ الشاذلية حنطه	ورفعة قدر القادرية صلت
ينمق فى تاريخ رحلته الرضا	سحائب ميح السفح مثواك بلت
	١٣١٧هـ
بأدنى نعال فنر وأفضل منزل	وأشرف نزل حز وأوفق تلة
١٣١٧هـ	١٣١٧هـ

وبعد هذا ينتقل شاعرنا مرة ثانية إلى الدعاء للمرثى ويردف دعاءه صلاة وسلاما على الحبيب المصطفى - صلوات الله وسلامه عليه - وهذا خير ختام للرثاء. فنجد شاعرنا العالم الدينى يضع الأمور موضعها، على الرغم من ميوله فى

(١) بساتين الغفران. للشيخ احمد رضا خان . ص ١٧٦-١٧٧.

كثير من الأحيان إلى الأساليب الأدبية لشعراء العصر الجاهلي، ولكنه مع هذا لا ينسى الاقتباس من القرآن والحديث ضمن مراثيه، كيف ينسى ذلك والدين هو محور علاقته بالناس حبا وبغضا، رثاء وهجاء، وإنه لا ينسى الحبيب المصطفى - عليه الصلاة والسلام - في منظوماته كلها، لا تكاد تمضي قصيدة إلا ويعطرها بذكر الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - مصحوبا بدعائه ربه عز وجل - وكأنما يتوج شاعرنا شعره بهذا التاج الذي لا ينساه في قصيدة المدح أو الرثاء، وإذا قلنا إنه يجعل ذكر حبيبنا المصطفى - صلى الله عليه وسلم - بمثابة التاج للقصيدة فهو رجل لا يكتفي بتاج واحد بل تتعدد تيجانه بذكر الله تعالى ومناجاة حبيبنا المصطفى - عليه أجمل التحية والثناء - وذلك إن دل فيدل على ارتباط قائم بينه وبين الدين بصفة عامة، ومما هو جدير بالذكر أننا نجد غزارة علم شاعرنا منجلية في شعره مع تمسكه بكل الفنون الأدبية والبلاغية فيما نظم من شعر، ولا نجده خارجا عن هذا المضمار، يقول شاعرنا رافعا أكف الضراعة إلى ربه- عز وجل- ومصليا على الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم -(١):

"وقتك مراقي اللطف كل كريهة	سقتك سواقي الرأف ارج تلة
ومنهمرات السحب من صلواته	على المصطفى والصحب هلت بهلة
تديم مداما شاملا بعبيده	وأبعدهم لوند لم يتفلت"

وإن شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان يتحدث عن عواطفه الجياشة وأحاسيسه الرقيقة حين يشبه نفسه بالأرض، ويتضرع إلى الله تعالى سائلا إياه أن يجعل الندى من نصيبه إن لم يكن المطر الغزير، لأنه يعرف أن قطرة الندى من خالق الأرض والسماء تغنيه، وتحقق جميع أمانيه، ثم يتوسل بالحبيب المصطفى - صلى الله عليه

---

(١) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١٧٧.

وسلم – ويستغفر ربه متبعا أمر ربه حيث قال[١]: **ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما** وفي هذا يقول شاعرنا[٢]:

"وأرض الرضا إن لم يصب وابل فطل	ندى منك لي كالديمة المستهلة
الهي إليك بالحبيب توسلي	به فاغفر اللهم ذنبي وزلتي"

نلاحظ الاقتباس من الآية القرآنية وذلك عندما قال شاعرنا: "وأرض الرضا إن لم يصب وابل فطل" فإنه اقتبس من الآية القرآنية: **ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين، فإن لم يصبها وابل فطل، والله بما تعملون بصير** [٣] وأي خاتمة أحلى في أذن السامع أو عين القارئ من خاتمة شاعرنا لهذه القصيدة، فالقارئ لا ينتظر شيئا بعد هذا البيت من هذه القصيدة، ولو حاولنا أن نقدم أو نؤخر من أبيات هذه القصيدة ما استطعنا.

وفي ضوء ما ذكرنا يتجلى لنا أن شاعرنا كان يحب مرثيه هذا حبا جما، ومن أجل هذا سعى لأن تكون مرثيته نموذجا للفصاحة والبلاغة، فأتى فيها بكل ما يجعل منها مرثية متكاملة، كما أننا نلحظ فيها إتيانه بكل غريب في الألفاظ والتراكيب، وأعني به قليلة الاستعمال يعني أنه ليس بغريب بدرجة ممقوتة لأن الغريب في الألفاظ يخرج الشعر عن الفصاحة والبلاغة، وأقصد من الغريب ما كان استعماله من الندرة بحيث إنه من ألفاظ الخاصة.

---

(١) سورة النساء ٤/٦٤.
(٢) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان، ص ١٧٧.
(٣) سورة البقرة ٢/٢٦٥.

ومما يدعو إلى التأمل أن نجد كل المراثي الواردة في بساتين الغفران تؤرخ لعام وفاة أصحابها، وهذا ما لا نجده عند شعراء العربية إلا في شبه القارة، ويرجع هذا إلى تأثير شعراء العربية من شبه القارة الهندية بالشعر الفارسي والأردي لأنهم من هذه البيئة التي ينتشر فيها التاريخ في شعر الفارسية والأردية، فيقدم شعراء هاتين اللغتين على التاريخ في كل مرثية، فبيئتهم تهتم بتسجيل الحوادث رثاء أو غير ذلك، وتذكر في أثناء القصيدة، وقد يكون الذكر آخرها غالبا سنة وتاريخ هذه الواقعة. لذلك وجدنا إقدام شاعرنا متأثرا بما عليه بيئته، وهذا ما يعد ظاهرة في شعره العربي والفارسي والأردي، وشعر غيره من شعراء العربية في شبه القارة الهندية كذلك، ومع هذا نجد أغلب مراثي شاعرنا متسمة بظاهرة لا تكاد توجد عند غيره، ألا وهي ذكر تاريخ أكثر من مرة في قصيدة واحدة، بل إننا نجد على سبيل المثال في تاريخ عام رحيل مولانا محمد عبيد الله يقدم شاعرنا على استخراج عشرة تواريخ في منظومة واحدة من تسعة أبيات الأمر الذي يعد ظاهرة في منظوماته العربية، ويدل كذلك على أنه كان بارعا في هذا الفن، والمتتبع لمنظوماته الفارسية والأردية يجد هذه الظاهرة متجلية بوضوح فيما نظم من شعر بهاتين اللغتين. والقليل من العرب من يذكر التاريخ في شعره، فنجد عناية شاعرنا بهذا اللون من الشعر أكثر من عناية المتقدمين والمعاصرين به.

ومما يعد ظاهرة في أسلوبه العربي في منظوماته التي أشرنا إليها في هذا الفصل أنه - في بعض الأحيان - يقدم على استخدام كلمات عربية رصينة، إلا أنها لا تستخدم الآن في لغة الحديث أو اللغة الأدبية المعاصرة لنا، وهذا لا يعد عيبا في أسلوب شاعرنا بل كأنه يريد أن يبلغ رسالة معينة إلى طبقة معينة من الأدباء، كما نلاحظ أن هناك بعض أبيات يغلب على أسلوبها الغموض، والذي يحتاج ممن يطلع على هذه الأبيات الرجوع إلى سيرة أولئك الذين أقدم شاعرنا على النظم في رثائهم كما يحتاج الرجوع إلى معاجم أعلام التصوف الإسلامي لمعرفة مدلول بعض المصطلحات الصوفية التي أتى بها شاعرنا ضمن أبياته، ومادمت قد انتهيت من الحديث عن القصيدة الأولى في رثاء مولانا محمد إسماعيل القادري فلأنتقل إلى الحديث عن القصيدة الثانية والتي تبلغ عدد أبياتها ثلث ما كان في القصيدة الأولى. فإن كانت القصيدة الأولى تسعة وثلاثين بيتا فإن عدد أبيات القصيدة الثانية ثلاثة عشر بيتا، ولننظر فيها فنقول:

ذكر آخر لرثاء وتاريخ رحيل مولانا محمد إسماعيل القادرى النقشبندى الشاذلى

إن أول ما يستوقفنا فى هذه القصيدة هو ذكره اسم مولانا محمد إسماعيل القادرى باعتباره أول كلمة فى القصيدة ولا يكفيه هذا بل يورد هذه الكلمة مرتين فنراه يبدأ الأبيات الثلاث الأولى من هذه القصيدة بذكر اسم المرثى مرتين حتى يبلغ مجموع ما ذكره ست مرات.

نرى ما الذى قام به شاعرنا مرة أخرى مع مولانا محمد إسماعيل القادرى ليرثيه ويسجل تاريخ وفاته فنظم ثلاثة عشر بيتا وذلك بعدما رثاه فى الثانية - وقد سبق أن درسناها آنفا - وكان ذكره للتاريخ مرة واحدة على عكس ما كان عليه شاعرنا فى القصيدة الأولى. واستهل شاعرنا هذه المرثية بمخاطبة مولانا محمد إسماعيل القادرى. فبين ما كانت تتمتع به شخصيته من فضائل. كما أقدم على إدراج مآثره. ومنها تصديه للرد على أهل الزيغ والوقوف أمام الفتن التى كان يشيعها المخالفون لمذهب أهل السنة فى بيئته، وفى هذا يقول شاعرنا[١]:

أإسماعيل إسماعيل سنه	أحامى حاله من كل فتنه
أإسماعيل إسماعيل صدق	أرادع كل مين عين فطنه
أإسماعيل إسماعيل حق	أتاك الحق نكب كل محنه

وفى تلك الأبيات نجد شاعرنا - كذلك - يبدأ الرثاء باسم مرثيه، ولم يكتف بذكره مرة واحدة بل كان يردده مرتين فى بداية كل بيت ثم يسير على هذا المنوال

(١) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان. ص ٢٠١.

فى ثلاثة أبيات، ترى لماذا كرر هذا الاسم؟ ولماذا استهل باسم مرثيه رثاءه ولماذا ذكره بهذه الطريقة؟ أهو رثاء؟ أم هو مديح؟ أم هو حب؟ أم هو تقدير؟ أم هو مزيج من هذه الأمور الأربعة؟ وفى هذا دليل على شدة محبة شاعرنا لهذه الشخصية، وإخلاصه لها. كما يدل على أن وفاة مولانا محمد إسماعيل القادرى تركت شيئا في نفس شاعرنا عبر عنها فيما نظم من شعر عربى بلغ عدده اثنين وخمسين بيتا - كما ذكرنا من قبل - وبمطالعة الأشعار السابقة نجد شاعرنا يقدم على تبشير مولانا محمد إسماعيل بما من الله عليه من حسن ختام من دنيانا هذه التى هى بمثابة البلية للإنسان المؤمن، وبعد ذلك يقدم شاعرنا على أسلوب آخر فى حديثه ألا وهو أسلوب الغائب حيث يردد قوله بأن مولانا محمد إسماعيل سوف ينال الجزاء الأوفى من الله تعالى نظير خدماته الدينية الجليلة، وإن الله تعالى لا يخلف وعده، ثم بعد ذلك يخاطب العيون الباكية على وفاة مولانا محمد إسماعيل قائلا: إصبرى واطمئنى هذا ليس مقام البكاء جزعا، لأن مولانا محمد إسماعيل قدم خدمات لا تحصى وهى تشفع عند رب العرش العظيم لكى ينال المنازل العليا، وبعد ذلك ينتقل شاعرنا إلى استخدام التشبيه فى شعره فنجده يقدم على تشبيه خروج الروح من جسد هذا الإنسان المؤمن الموقن بظهور الهلال من بين طبقات السحب، والمقصود من هذا القول تشبيه المرثى بالهلال وذلك لبيان منزلته الكبيرة، وقد قصد شاعرنا أن يقول: إن المرثى مرتفع القدر أراه عاليا كالهلال، وفى نفس الوقت أضاءت أعماله وخدماته الدنيا جميعا، كما يظهر الهلال فيراه الناس جميعا، وفى نفس الوقت يرى شاعرنا أن مرثيه أجل ضوءا من الهلال على الرغم من وفاته، فالهلال يتجلى نوره أوقاتا محدودة ثم يختفى، أما مولانا محمد إسماعيل فنور إرشاداته وتوجيهاته وخدماته الجليلة مازال نافعا ومتجليا - بفضل الله تعالى - ليلا ونهارا ولم يغب

بوفاته. ونوره هذا يحث المسلمين على الطمع فى رحمة الله تعالى، ففى هذا يقول[١]:

لإسماعيل عند الله إن شاء	مواعده بمكرمة ومنه
ألا لا يبكين لفقد سعد	أينقم رجع نفس مطمئنه
رواح الروح من كنف لسنى	كمزنة انجلى منه ابن مزنه
سناه ونفعه باق بهيا	فقطر دجنة وقمير دجنه

وبعد ذلك يطير شاعرنا بأجنحة خياله القوى فيذكر ما يتمناه لمرثيه من رحمة وعطاء من الله فى الجنات العلى، فيقدم على بيان ما رآه فى مخيلته من أن الملائكة تحف بأجنحتها مولانا محمد إسماعيل القادرى فتطير به إلى جنات عدن ذات نعيم كثير منها الأنوار والطيور المغردة بأنغام مطربة، وفى هذا يقول شاعرنا[٢]:

"يزف إلى الجنان جنان عفو	لأنوار وأطيار مزنه
يحف به ملائكة أعزه	بأجنحة كسحب مرثعنه
وإن أسئل لإسماعيل منهم	أجب ثقة بنول الله إلـه"

ويختتم شاعرنا مرثيته هذه بإيراد الفضائل والصفات التى كانت نفس مولانا محمد إسماعيل القادرى متحلية بها، منها الكرم والجود والخلو من كل عيب ينافى شرف الإنسانية، وإضافة إلى هذا يقدم شاعرنا كما هى عادته فى أغلب مراثيه وغيرها مما نظم، فنجده يرفع أكف الضراعة إلى الله الواحد داعيا إياه أن يجعل

---

(١) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٢٠١.
(٢) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٢٠١.

الشاعر من أصحاب اليمين ببركة مولانا محمد إسماعيل القادرى، ثم يختتم منظومته هذه سائلا ربه أن يجعله ممن رضى عنهم ورضوا عنه، وفى هذا يقول شاعرنا[١]:

لإسماعى لإسماعيل مدعى   حلاه هجانة وخـــلاه هجنـــه

فنحن بمنه وهبـــات يمنـــه   نكون من أهل يمنة أن يمنـــه

إلهى أعطنا حسن الرضـــاء   وأول غداة وصف الأول يمنه

بهذا الدعاء اختتم شاعرنا منظومته الثانية كما رأيناه يكمل قصيدتـــه الأولـــى أيضا بالتضرع إلى الله تعالى سائلا إياه المغفرة والرحمة للمرثى ولنفسه أيضا.

لعلك لاحظت معى أيها القارئ الكريم وجود حذف من آخر اسم المرثى كمـــا حذف آخر كلمة "الأول" وهو يقصد الأولياء، وذلك لضرورة الشعر، ولاحظنا وجود الجناس التام بين فعل الأمر وبين مرخم أولياء وهو "أول" أيضا، وقد دفعته إلى هذا الحذف الضرورة الشعرية، وما أحسنه لو تجنب مثل ما تفرضه عليـــه ضرورتـــه الشعرية، بل يطوع الشعر دون أن يضطره الشعر إلى شئ من التطويـــع وأرى أن ذلك أفضل.

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٠١.

المطلب الثانى

فى تأبين وتاريخ رحيل مولانا محمد عبد الغنى السهسرامى (١)

نظم شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان عشرة أبيات من بحر الكامل فـى تـأبين وتاريخ رحيل مولانا محمد عبد الغني. فقد توفى هذا الشيخ قبـل وفـاة شـاعرنا بسنتين. وذلك فى الرابع عشر من شهر شوال عام ثمانية وثلاثين بعـد الثلاثمائـة والألف للهجرة الموافق عام تسعة عشر بعد التسعمائة والألف للميلاد وكـان مـن كبار المعاصرين لشاعرنا الشيخ أحمد رضا خان(٢) ونلاحظ مدى وفاء شاعرنا فهو يرى أن رثاء العلماء الراحلين دين فى عنقه، وحق واجب لهم، وهو يعتبر الرثـاء وفاء لهؤلاء العلماء الأتقياء الأجلاء، وقد أقدم على رثاء كثيرين من العلماء باللغات الثلاثة العربية والفارسية والأردية، ولما كانت دراستنا مقصـورة علـى الديـوان العربى لشاعرنا اكتفينا بإيراد ما نظمه شاعرنا باللغة العربية فى الرثاء، ومما تجدر الإشارة إليه أن شاعرنا بزّ أقرانه فى إقدامه – عفو الخـاطر – علـى اسـتخراج التواريخ فى المناسبات المختلفة وصوغها فى جمل شعرية وأبيات مستقيمة شـعرا لمن أراد الشعر. وصحيحة حسابيا لمن أراد الحساب، وبالتالى جمع بيـن صحـة العقل والعاطفة. فنجده يستخرج تاريخ الوفاة – بحساب الجمل – فى نهايـة كـل منظومة فى الرثاء. أما ما يتعلق برثاء الشيخ محمد عبد الغنى فقـد رأينـاه يبـدأ منظومته بالتفكير فى مأساة الحياة، ثم يبين ضعف وعجز كل الناس أمام المـوت،

---

(١) لم أهتد إلى ترجمته بالرجوع إلى المراجع المختصة بهذا الموضوع غير ما أشرت إليه أعلاه.
(٢) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان، ص ١٤١.

كما أشار إلى أن الناس يتغافلون عن هذا المصير المحتوم نظرا لتأخير الآجال ونلاحظ أن لفظة الإنساء إما مصدر من الفعل أنسى أو إنساء بمعنى التأخير، ولا يتعارض ذلك مع المعنى العام. فمن الممكن أن يكون نسيانهم الآجال وأنها منتهية لا محالة يجعلها يرتبون أمورهم، على عدم مجيئها نظرا للنسيان، وإما أن يكون المراد من "الإنساء" التأخير. ولا يتعارض هذا بالنسبة لإرادة الله، فالتأخير ظاهر علمنا معشر البشر، أما بالنسبة لعلم الله - عز وجل - فالآجال قدر مقدور لوقته، معلوم له - سبحانه - وصدق عز من قال: **فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون** [١].

ويقدم شاعرنا على الاقتباس من الآية الكريمة[٢] **ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات** وفي هذا يقول شاعرنا[٣]:

الموت حق يا له من جاء	متيقن والناس في إنساء
أنساهم الإنساء في آجالهم	مع ما يرون من آية بولاء
النقص في أموالهم وثمارهم	والأخذ بالبأساء والضراء

وبعد هذا يظهر شاعرنا تعجبه من الموت الذي يغدو سرا غامضا إلا إنه مع هذا كله فهو حقيقة لا مجال فيها للشك كما يشير إليه شاعرنا بقوله: "وبدت من الخضراء والغبراء" وبعد ذلك يظهر شاعرنا تعجبه من الطفل الذي يشب لاعبا لاهيا مع غفلته عن القضاء المحتوم، فكأنه يرمز بأسلوبه هذا إلى الشباب الذي يتقدم

---

(١) سورة الأعراف ٧/٣٤، وسورة النحل ١٦/٦١.
(٢) سورة البقرة ٢/١٥٥.
(٣) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان، ص ١٤١.

نحو الكهولة وبالتالي إلى الموت فلا يكون موقفه من الموت والاستعداد للآخرة إلا كموقف الطفل منها، ففي هذا يقول شاعرنا[١]:

"عجبا لخافية غـدت مخفية وبدت من الخضراء والغبراء

الطفل شبّ وشاب هو كما بدا يلهو ويلعب ناسيا لقضاء

وبعد هذا انتقل شاعرنا إلى تمجيد مولانا عبد الغني وبيان فضله في الرد على الفتنة القاديانية حيث وصفه بالصاعقة على القاديانيين، ومما هو جدير بالذكر أن شاعرنا الفقيه المحدث ايضا كان من أشد المعارضين للحركة القاديانية، ففي هذا يقول[٢]:

عبد الغني مضيت حين قضيت نحبك من نكاية فتنة الخبثاء

قد كنت صاعقة على نجديهم ورزية المرزامع المرزائي

كفى أن يقول شاعرنا أن المرثي كان صاعقة على القاديانية، كفى بذلك مدحا ورثاء في آن واحد، وكفى بالمرثي أن يكون مصدر فخره ونصرته للدين، رحم الله المرثي ومن رثاه، وجزاهما الله خيرا دفاعا عن الدين.

ثم يقدم شاعرنا على توجيه المرثي إلى جود رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم القيامة حتى يفوز بشفاعته، وبعد ذلك يتوجه إلى رحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - راجيا منه الشفاعة للمرثي يوم القيامة، فكأنه عند استخدامه كلمة "مالك الناس" يقصد القول: مالك شفاعة الناس يوم يقول جميع الأنبياء "نفسي نفسي اذهبو إلى غيرى" فيكون الحبيب المطصفى لها فيتقدم دافعا البلاء الذى يفزع

---

(١) المرجع السابق، ص ١٤١.

(٢) المرجع السابق، ص ١٤١.

الناس غاية الفزع، وأنا أرى أن شاعرنا عندما أورد عبارة "اشفع لعبدك" لم يقصد بها العبودية بالمعنى الذى يختص به خالقنا عز وجل، بل قصد من هذه الكلمة معنى "الخادم المطيع لسيد الخلق أجمعين حبيب رب العرش العظيم، وفى الشطرة الثانية من البيت الأخير سجل شاعرنا لقبه الشعرى كما هو معروف لدى شعراء الأردية فى شبه القارة الباكستانية الهندية، أما فى الشطرة الثانية فأقدم على استخراج عام وفاة الشيخ عبد الغنى دون تكلف أو إحداث أى خلل فى النسيج الشعرى لفظا ومعنا فيقول(١):

بندا رسول الله فز بشفاعته	وجزاء رب العرش خير جزاء
ياماالك الناس النبى المصطفى	اشفع لعبدك دافعا لبلاء
رقم الرضا تاريخه متفائلا	عبد الغنى بجنة العلياء

هذه هى مشاعر وأحاسيس شاعرنا التى عبر عنها نظما لتأبين مولانا محمد عبد الغنى وتاريخ عام وفاته مما يدل على احترام شاعرنا لمعاصريه دون قرابة فى النسب بل أخوة فى الله، وشأنه فى ذلك شأن ما قدمنا عنه فى منهجه فى المدح.

---

(١) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان، ص ١٤١.

المطلب الثالث

فى رثاء وتاريخ عام رحيل مولانا محمد عبيد الله [١]

توفى الشيخ "محمد عبيد الله" فى عام خمسة عشر بعد الثلاثمائة والألف للهجرة وذلك قبل وفاة شاعرنا بخمس عشرة سنة، فرثاه شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان باهتمام بالغ حيث إنه نظم منظومتين أولاهما فى تسعة أبيات من بحر الهزج، أما أخراهما فتقع فى ثلاثة وعشرين بيتا أما الأبيات التسعة فنجد شاعرنا يُقدم فى الشطرة الثانية من كل بيت على ذكر عام الوفاة ما يسمى حساب الجمل، معنى ذلك أنه خلط بين العاطفة والعقل دون أن يقصر فى واحد منهما، وهذا بالنسبة لتذوق الباحث فاستهل شاعرنا منظومته بذكر وفاة مولانا محمد عبيد الله، وبتعبير رائع، ثم أتبعه بالدعاء له بأن يكرمه الله تعالى بلقائه كما أثنى عليه لتصديه للفتن فى عصر المحن حيث كان المسلمون فى الهند تحت وطأة الاحتلال الإنجليزى وكانوا يعانون من المشاكل والقلاقل المختلفة، يقول شاعرنا فى هذا الصدد[٢]:

عبيد الله قد سبقا   بشرق مجده الفِلقا
جزاه قديره بلقا   كما رتج الهدى بلقا[٣]
حماد[٤] له بأيدِ يدِ   بها باب الهدى غلفا[١]

---

(١) لم نستطع الاطلاع على ترجمته رغم الرجوع إلى أكثر من مرجع.
(٢) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان، ص ١٥٧.
(٣) بلقا: "فتح فتحا كليا" تعليق الشيخ أحمد رضا خان.
(٤) حماد: "أى أحمد واثنى عليه" تعليق الشيخ أحمد رضا خان.
انظر هذين التعليقين فى: الاجازة فى ذكر الجهر مع الجنازة لمولانا محمد عمر الدين القادرى، ص ٦٠. وانظر: المرجع السابق ص ١٥٧.

ثم انتقل شاعرنا إلى بيان فضائل مولانا محمد عبيد الله فنراه يستهل الأبيات من البيت الرابع إلى البيت السابع باسم المرثي وذلك بأسلوب لا يتعارض مع صباغة الانسجام البنائي للأبيات ودون أدنى إثارة أدنى ملل للقارئ، وأعتقد أن هذا التكرار ينبئ عن محبة لصاحب الإسم وإعلاء شأن وقدر لهذا المرثي، يقول شاعرنا[٢]:

عبيد الله في عمره	به نهج الهدى شرقا
عبيد الله في مصره	به حنك الهوى شرقا[٣]
عبيد الله في رى	بحسن تقى وزين نقى
عبيد الله عند الله	في الفردوس في الرفقا

وفي البيتين الأخيرين يرفع شاعرنا أكف الدعاء إلى خالق الأرض والسماء معبرا عن لوعته وحزنه بوفاة مولانا محمد عبيد الله فيقول[٤]:

تضاء لنا وأوجب من	أنار ببدره أفقا
وطيبه بريع[٥] رضا	كما مده[٦] الرضا عبقا[١]

(١) يرى الباحث أن شاعرنا الفقيه قصد أنه غلق باب من ابواب الهداية ولم يقدم على المبالغة الممقوتة التي كان يكرهها تماما، وقد أخذ على عاتقه أن ينظم الشعر في قالب الشريعة مع الاحتفاظ بالمشاعر الفياضة. فلم يكن يغفل أحكام الشريعة بل كان يخضع لها عند المدح والرثاء والهجاء (الباحث).

(٢) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان، ص ١٥٧.

(٣) شرقا: أي غص وشرق بريقة الميت عند نزع روحه تعليق شاعرنا الشيخ احمد رضا خان. المرجع السابق، ص ١٥٨.

(٤) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١٥٧.

(٥) ريع: "زيارة" تعليق شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان.

(٦) مده: "المدح. وإن شئت قرأت على المصدر" تعليق شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان.

(٧) عبقا: بكسر الباء. فعل ماض والألف للاشباع. وإضافة مده الى الفاعل. أى كما مدح الرضا لهذا الممدوح. وأن يرد اليه بجعلها الى المفعول. وإن شئت قرأت مده فعلا مبنيا للمفعول. و عبقا منيب

هذه هى عواطف شاعرنا نحو شخصية معاصرة له، أحبها شاعرنا لله وفى الله، ونلاحظ كيف تحركت عواطف شاعرنا الرقيقة من الخسارة التى لحقت بالمسلمين، وإن كنت قد عرضت لمعنى هذه الأبيات فإن نسيجها الشعرى لم يقع فيه خلل بل نجد شاعرنا بطبيعة الإخلاص فى الرثاء كما أخلص فى المدح والبكاء للمفارقة، شأنه فى ذلك ما كان يقع منه فى المدح من استبشار واستهلال عند مجيئ الممدوح، فشاعرنا قلب مفعم بالإخلاص والحب يعبر عنه فى المدح والرثاء تقديرا منه لأشخاصه الذين عرض لذكرهم، ولمقدرة شاعرنا استطاع أن يجعل من كل شطرة ثانية فى كل بيت من الأبيات التسعة تاريخا لوفاة هذا المرثى دون أن يقع منه خلل فى النسيج الشعرى، وكأنما يرد شاعرنا على من قد يقول إن حساب الجمل يقع لشاعرنا مصادفة، ولذلك فهو يذكره مرة واحدة وبالتالى رد على ذلك المتوقع حتى لا يجعل للقول سبيلا عليه فى شعره دون أن تختل معانيه أو تضعف ثروته اللغوية، وبالتالى هى مكنة عقلية لغوية عاطفية، مع أن العربية لم تكن لغته الأولى.

بفتح الباء على التمييز ، والرضا مصدر مبنى للفاعل، أى كما يمدح منصب الرضا والتسليم بطيب النشر . وأن يشار اليه بجعل الرضا ههنا بمعنى ناظمه. تعليق شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان، انظر هذه التعليقات الثلاثة فى: الإجازة فى ذكر الجهر مع الجنازة لمولانا محمد عمر الدين القادرى، ص ٦٠، والمرجع السابق، ص ١٥٨.

رثاء ثان وتاريخ لرحيل مولانا محمد عبيد الله

هذه دمعة أخرى انهمرت من عينى الشيخ أحمد رضا خان وكأنما دمعت إحدى عينيه فغرست الرثاء الأول فى البساتين على حين أنه دمعت عينه الأخرى فاجتمعتا على إملائه رثاءه الثانى، وقد سبق أن درسنا منظومة صاغها شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان فى تأبين وتاريخ عام رحيل مولانا محمد عبيد الله، والآن نحن بصدد قصيدة أخرى فى نفس الغرض، وهذه القصيدة النابعة من أعماق قلب شاعرنا المتفجع – بوفاة مولانا محمد عبيد الله – تحمل فيضانا من شعور قوى بالحزن وعاطفة مشبوبة بالألم مما يدل على مدى وقع هذه الصدمة فى نفس شاعرنا، فهذه القصيدة أكثر لوعة وحرارة من القصيدة آنفة الذكر، فالحزن يجرى فى أعطاف أبياته، والذى ينشئ فينا كثيرا من الانفعال النفسى المؤلم. ونرى هذه الحرارة والحرقة فى مستهل الرثاء حيث يقول شاعرنا أحزنتنى هذه السنة بما ابتدعته لنا، وجاءت به بغتة، ولم تكن هذه المصيبة قبل ذلك إنما أتتنى هذا العام، وهذا ما أتت به أعتقد أنه وفاة مولانا محمد عبيد الله، ففى هذا يقول[١]:

أترحت[٢] سنة غـــراء ضرتـــها[٣]	أم فرحت بدعة ضراء غرتـــها[٤]
أم قامت الساعة الدهمـــاء أم نفخـــت	قبل القيامة فى النـــاقور نفختـــها
ماذا اعترى بنبئ ماذا ترى طرءا[٥]	تبدلت بالحزن والأسى فرحتـــها

---

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١٦٤-١٦٥.
(٢) ترحت: أحزنت، تعليق شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان.
(٣) ضرة: وهى البدعة، تعليق شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان.
(٤) غره: غفلة، تعليق شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان.
(٥) الألف للإشباع، تعليق شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان.
انظر : بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١٦٧ .

عهدی بها فی دیـــار الـــهند غانیـــة　　تجلی وتجلی فتجلو العین جلوتـها

لم أقرأ كلمة "ناقور" فی بیت من الشعر قط، فقد قرأتها فی القرآن الكریم ثـــم بعد ذلك فی شعر الشیخ أحمد رضا خان، فإنه یقتبس كثیرا مـــن معـــانی القـــرآن وألفاظه. فنراه یأخذ المعنی برمته عندما یقول:

أم قامت الساعة الدهماء أم نفخـت　　قبل القیامة فی الناقور نفختـها

فإنه الاقتباس من الآیة القرآنیة[١]: **فإذا نفخ فی الناقور فذلك یومئذ یـــوم عسیر** وهو یفضل فی مدحه ورثائه وصیاغته بالإتیان من معنی القرآن، ولقد أتی بالجناس غیر التام فی الشطرة الثانیة من البیت الرابع فیما بین "تجلی"، و "تجلـــی"، و "تجلو"، و "جلوتها" وهذا مما یدل علی ثروته اللغویة بوضوح.

إن شاعرنا بعد بیان ظروفه الصعبة التی ألمت به انتقل إلی نظم تاریخ هـــذه الفجیعة التی یراها ألمت بالمسلمین بالهند بصفة عامة وبشاعرنا بصفة خاصـــة - حیث تتجلی من الأبیات المذكورة - مشاعر جیاشة وكما سبق أن ذكرنا أن مولانـــا محمد عبید الله توفی فی العام الخامس عشر من القرن الرابع عشر للهجرة یعنـــی قبل وفاة شاعرنا بخمس وعشرین سنة، ففی هذا یقول شاعرنا[٢]:

لعاشر من جمادی خمسة[٣] جمـــدت　　عین لفیض وعین فاض عبرتـها

یوم الخمیس خمیس الدین قد خمسـا[٤]　　سیقت لسان سیاق الحین ســاقتها

یوم الكواكب[٥] والأرجـــاء[٦] قاتمـــة　　كأنما أغشت بـــاللیل ضحوتـها

---

(١) سورة المدثر ٧٤/٨، ٩.
(٢) بساتین الغفران. للشیخ أحمد رضا خان، ص ١٦٥.
(٣) یقال لجمادی الاولی لأنها الخامسة من شهور السنة. تعلیق شاعرنا الشیخ أحمد رضا خان.
(٤) أی أخذ خمسة، تعلیق شاعرنا الشیخ أحمد رضا خان.
(٥) یوم الكواكب: یوم مظلم تبدو به النجوم. تعلیق شاعرنا الشیخ أحمد رضا خان.
(٦) الأرجاء: الآفاق. تعلیق شاعرنا الشیخ أحمد رضا خان. المرجع السابق، ص ١٦٧.

نلاحظ الجناس التام بين كلمة "عين" و "عين" كما نجده واضحا بين كلمات "سيقت" و"سياق" و"ساقتها" وهذا هو أسلوبه، وأكاد أشعر أن شاعرنا اهتم بهذا النوع من الصياغة ليقول - متحدثا بنعمة الله تعالى وشاكرا له - أنا على تمكن بديع من اللغة العربية، وهذا من باب تقليد شعراء العربية، وفى الوقت نفسه من باب استعراض الثروة اللغوية التى استطاع أن يتحصل عليها.

وبعد هذا ينتقل شاعرنا إلى بيان منزلة المرثى ويصرح مبالغا - على ما اعتاده الشعراء - بقوله ليت موت مولانا محمد عبيد الله استبدل بجمع غفير اخر، ثم قال: إنه كان من الهين علينا أن نفدى هذا العالم بسبعين أو أكثر، ولم يأت شاعرنا كلمة "سبعين" صدفة بل أتى بها على وعى حيث إن لفظ سبعين يراد به الكثرة كما جاء فى القرآن الكريم[1]: **استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم** ; وكان شاعرنا يستطيع أن يأتى بكلمة ستين أو ثمانين أو تسعين فإن لهذه الكلمات نفس الوزن العروضى، ولكنه نظرا لإلمامه بعلوم القرآن اختار كلمة تدل على الكثرة، ولم يقصد من هذه الكلمة العدد المعين، وفى هذا يقول شاعرنا[2]:

ليت المنية[3] اذ جاءت لركن الهدى	استبدلت منه جمعا فيه منيتها
قد كان هينا علينا أن نفادى عا	لما بسبعين أو ما فيه أوبتها[4]

---

(١) سورة التوبة ٩/٨٠.
(٢) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان. ص ١٦٥.
(٣) المنية: الموت. تعليق شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان.
(٤) أوبة: رجوع. تعليق شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان. المرجع السابق، ص ١٦٧.

وبعد هذا يعود شاعرنا من وقع هذه الفجيعة إلى بيان الحقيقة التى لا مفر منها وهى: **فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون** [١] ثم يوضح إنه لو وجد إنسان يستحق أن يفدى لكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أولى لهذا الفداء. فكل من الإنس والجن والملائكة فداء له، وهذا هو الحب الأسمى، الحب الذى أكاد أشعره من معايشتى لشعر الشيخ أحمد رضا خان، وقراءاتى لبعض فكره. فهو يتأثر كثيرا لمفارقة أحبابه لا سيما والحب بينهم هو طريق التقى والهدى والإقبال على العلوم الإسلامية، وفى هذا يقول شاعرنا[٢]:

لكنها أمر حتم لا مـرد لـه ... ولا تعقب[٣] إذ حانت قضيتها

الإنس والجن والأملاك كلهم ... كانوا فدا المصطفى[٤] لو ساغ فديتها

فالصبر مفزعنا والله مرجعنا ... ونعم عدلا العلى نعمت علاوتها[٥]

أرى أن هذه الأبيات الثلاثة من أحلى الأبيات التى قالها الشيخ أحمد رضا خان فى الرثاء، البيت الأول بينه وبين ربه – جل جلاله – والبيت الثانى بينه وبين حبيبنا – صلى الله عليه وسلم – والبيت الثالث يمثل لنا إيمان شاعرنا وتسليمه لقضاء الله تعالى وقدره، ولو لم يقل فى الرثاء سوى هذه الأبيات الثلاثة لكفاه ذلك القول. فالبيت الأول يبين لنا مدى سيطرة الإيمان والتسليم لقضاء الله تعالى وقدره،

---

(١) سورة الاعراف ٧/٣٤.
(٢) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان، ص ١٦٥.
(٣) تعقب: تؤخر. تعليق شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان.
(٤) صلى الله عليه وسلم، تعليق شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان. المرجع السابق، ص ١٦٧.
(٥) اقتباس من حديث أميرا المؤمنين الفاروق الأعظم – رضى الله عنه – نعم العدلان ونعمت العلاوة" وقال تعالى فى قوله **أولئك عليهم صلواة من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون** [سورة البقرة ٢/١٥٧] تعليق شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان. بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان . ص ١٦٥.

إيمان وتسليم يدفعانه إلى الاطمئنان وتخفيف البلوى على قلبه الملتاع والحد من ثورته وتفجعه، إنه إيمان وتسليم من قلب شاعرنا، لذلك وجدنا هذا البيت مفعما بالحلاوة، مليئاً بالاطمئنان إلى قضاء الله تعالى.

أما البيت الثاني فيتمثل فيه حب شاعرنا للحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - وكيف أنه مهما رثا، ومهما تفجع، ومهما أصيب بفقد الأحبة، لا يبلغ أحد منه مبلغ فقداننا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ونزول مصيبة الوفاة، لكنه الإيمان الذي يهدهد قلوب المسلمين جميعا، ومن بينها قلب شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان.

أما البيت الثالث فنلحظ جمالا عقليا وعاطفيا في صياغة شطرته الأولى[1] وإني لأرى أن هذه الشطرة جزء من عنوان شاعرنا، فما أحسن أن نعرف شاعرنا بقولنا أحمد رضا خان بين حبه للنبي - عليه الصلاة والسلام - وقوله الصبر، وأي قول أحلى من أن يعبر عن أن فزعه إنما هي إلى الصبر وليس إلى غير ذلك، وكيف يفزع إلى غير الصبر والله هو مرجعه؟ قضيتان مسلم بصحتهما، وصياغة شعرية يملأ الديوان عبيرها.

نجد شاعرنا في هذه الأبيات الثلاثة أنه يبين إيمانه القوي وتسليمه لقضاء الله وقدره، وذلك في البيت الأول، أما البيت الثاني فجاء فيه من عدم استطاعته أو

---

(١) أما الشطرة الثانية فهي مقتبسة من قول سيدنا عمر - رضي الله عنه -. وآية قرآنية، وفي ضوء قول سيدنا عمر - رضي الله عنه - ومن منظور الآية القرآنية أرى أن العدل: نصف الحمل يكون على أحد جنبي البعير، والعلاوة: ما يوضع على البعير بعد تمام حمله من سقاء وغيره. انظر المعجم الوسيط لصفوة من العلماء، ج ١، ص ٦٠٩، ٦٤٨. ومن هنا يرى شاعرنا أن "صلوات من ربهم" نصف الحمل، و"رحمة" النصف الآخر من الحمل، و"أولئك هم المهتدون" يساوي العلاوة، فكأنه يتعشم في وجه الله - سبحانه وتعالى - أن يكون المرثي محظوظا بالحملين والعلاوة.

استطاعة أى مخلوق أن يقدم فداء لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - يجنبه ما كتبه الله على خلقه من أمر الوفاة. وفى البيت الثالث يبين مفزعه وملجأه. ألم أذكر لك أيها القارئ الكريم ان هذه الأبيات الثلاثة من أحلى ما جرى به قلم شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان، ومن ألطف ما قاله فى الرثاء ولو لم يقل سواها لكفاه. وذلك - كما سبق أن أسلفت -.

يقبل شاعرنا بعد هذا على تعديد فضائل المرثى مخاطبا إياه حيث نجده يقول: يا عبيد الله إنك تركت ثغرة فى الإسلام وسوف لا تنسد هذه الثغرة إلى يوم القيامة. فقد كنت واقفا فى وجه الطبيعيين الدهريين. كما قمت بنشر السنة المطهرة فى أرجاء الهند. فهدأت الفتنة الصماء. يقول شاعرنا فى هذا الصدد مقتبسا من حديث نبوى شريف[1]:

اما علمت عبيد الله أن ثلمت[2]	وفاتك الشرع لا تنسد ثلمتها
قد كنت فى المصر[3] نصر الدين فانتشرت	بك النياشر[4] ثمة ثم ندوتها
غدت بك السنة الزهراء ناعمة	حظ وفوز وفيض منك تحفتها

---

(١) بساتين الغفران. للشيخ احمد رضا خان، ص ١٦٥.

(٢) إشارة إلى حديث: "ما قبض الله تعالى عالما من هذه الأمة إلا كان ثغرة فى الإسلام لا تنسد ثلمتها إلى يوم القيامة" رواه السنجرى فى الإبانة عن اصول الديانة. والموهبى فى كتاب العلم عن ابن عمر رضى الله عنهما - عن النبى - صلى الله عليه وسلم - تعليق شاعرنا الشيخ احمد رضا خان. انظر: بساتين الغفران. للشيخ احمد رضا خان. ص ١٦٥.
وانظر: الجامع الصغير فى احاديث البشير النذير. للامام جلال الدين السيوطى (ط: دار الكتب العلمية. بيروت. ١٤١٠هـ). ج ٢. ص ٣٨٦.

(٣) لم يقصد البلد إنما قصد معناها لأن الرجل لم يسافر إلى مصر.

(٤) يستخدم شاعرنا كلمة النياشر جمع النيشرى يحدثنا عنها مولانا محمد عبد الحكيم شرف القادرى قائلا: النيشرى (Naituri) طائفة فى شبه القارة الهندية يعتمدون أى اعتماد على النيشر (Naitur) (أى الطبيعة) ينكرون ويؤولون كثيرا من ظواهر القران والحديث بسبب أنها متعالية عن عقولهم. وكان رئيسهم السير سيد أحمد خان موسس كلية على كره. ومصنف التفسير الأحمدى. ينكرون وجود الجن والملائكة والجنة والنار ويؤولونها بتأويلات غير مرضية.
الدعوة إلى الفكر لمولانا محمد منشا تابش القصورى / ترجمه إلى العربية مولانا محمد عبد الحكيم شرف القادرى (ط: منظمة الدعوة الإسلامية بلاهور). ص ١٢٧.

عـادت بـك الفتنـة الصمـاء نائمـة غتظ و غيظ و فيظ من حصتيـها

ويقدم شاعرنا - بعد بيان فضائل المرثى - على الدعاء متضرعا إلى خالق الأرض والسماء كما أقدم على استخراج تاريخ وفاته أيضا، فيقول مخاطبا ممدوحه[١]:

"جزاك ربك فى الفردوس أجزية تنمى[٢] وتنمى[٣] و لا تمنى[٤] جزالتـها

ولن يضيق رسول الله جاهك بـه فأنت مـن جـودك الدنيـا وضرتـها

قال الرضا فى التـاريخ مبتـهلا "أتاك من ربـك الحسـنى وبهجتـها"

ونلحظ الجناس التام بين كلمات "تنمى" و "تنمى" و "لا تمنى" و هـذا نسـق شاعرنا المعتاد مقلدا بعض من سبقه من شعراء العربية، كأنه يثبت رسوخ قدمه فى معرفة اللغة العربية، وفى نهاية هذه القصيدة أشار شاعرنا إلى بنية قصيدته متحدثا بنعمة الله التى منحه تلك الموهبة الشعرية فيقول فى هذا الصدد[٥]:

بنيت نظمى على هاء الضمـير كمـا رأى جمـاهيرهم و التـاء حليتـها

وفيـه متسـع كالبـاء تلـزم فـى طالب وصاحب ومبنى القول لفظتـها

هذا وما للرضا فى الشعر شرع رضـا شرعى الشريعة شعراها وشـرعتها[٦]

و لا أحسب شاعرنا هنا إلا أنه رجل يعتد بموهبته التى منحه الله - سـبحانه وتعالى - إياه، وليس هذا بغريب على الشعراء بل كان ذلك دوما طبعـا متـأصلا فيهم جميعا إن لم يكن معظمهم، و الشاعر واحد من أهل الفن، ومادام أهل الفن على

---

(١) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١٦٦.
(٢) تنمى: تزداد. تعليق شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان. المرجع السابق، ص ١٧٠.
(٣) تنمى: ترفع، تعليق شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان. المرجع السابق، ص ١٧٠.
(٤) لا تمنى: لا تقدر ، تعليق شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان. المرجع السابق، ص ١٧٠.
(٥) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١٦٦.
(٦) شرع: اشتغال، شرعى: حسبى، شعرى: علم، شرعة: طريق. المرجع السابق، ص ١٧٠.

درجة من الإصالة فيه فهم يحكمون على أنفسهم، ولو بالغوا قبل أن يحكم عليهم قارؤهم وناظروه فنهم، ولا أراه مبالغا مثل ذلك الذى قال:

وإنى وإن كنت الأخير زمانه | لآت بما لم تأت به الأوائل

ولا ضير أن أسمع رأى الشاعر فى شعره كما أسمع رأى الناقد فى نفس الشعر.

فى نهاية المرثية نجد شاعرنا يقدم على اختتامها من أجمل ما نظم بالعربية، ففى هذا البيت نجده يشير إلى أنه بنى قصيدته على هاء الضمير، وهذه القصيدة نابعة من الموهبة الشعرية الفريدة التى حباه الله تعالى بها، وفى هذا البيت يتجلى لنا فلسفته فى نظم الشعر باللغات الثلاث، فهو قد يضع كل ما نظمه فى ضوء الشريعة الغراء علما وطريقا، ومما هو معلوم أن شاعرنا كان قد جمع بين كونه رجل دين وكونه أديبا من الطراز الأول، وقد اشتهر بكونه إماما لأهل السنة والجماعة، وإلى هذا الجانب أشار النقاد فى الأدب العربى والفارسى والأردى عن مدى ما كان يتمتع به شاعرنا من موهبة أدبية فى اللغات الثلاث، ولم يكن الدافع من وراء إقدامه على نظم الشعر إلا لكى يجلى ما يزينه من عقيدة صحيحة، وما له من رسالة سامية يسعى إلى نشرها، بين المجتمع المسلم فى شبه القارة الهندية إضافة إلى ما ذكرناه من موضوعات مختلفة، إن القصيدة التى قمنا بدراستها دراسة - وأحسبها وأرجوها علمية - هى خير دليل على مدى ما كان يتمتع به شاعرنا من موهبة شعرية كبيرة وقدرة فائقة على الإفصاح عن مكنون نفسه، ونلحظ فى هذه القصيدة وأختها التى أسلفت الكلام عنها (الأولى فى رثاء مولانا محمد عبيد الله) أن هذا المرثى حظى بقدر كبير من الأبيات فى رثائه وقد بلغ عددها تسعة وثلاثين بيتا، وهذا ما لا نجده لغيره فى الديوان العربى للشيخ أحمد رضا خان باستثناء مولانا محمد إسماعيل القادرى الذى بلغت الأشعار فى رثائه إثنين وخمسين بيتا.

إن مولانا محمد عبيد الله لم يحظ بالدراسة من قبل المؤرخين إلا أن العلاقات كانت جيدة فيما بينه وبين شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان، وهذا يبين لنا أن شاعرنا كان يهتم بكل الناس كبيرهم وصغيرهم على حد سواء، ولم يكن ليفرق بينهم لأى سبب.

وإن ما أقدم عليه شاعرنا من نظمه لهاتين المرثيتين يعد كذلك من الأهمية بمكان حيث إن من يريد أن يرجع إلى سيرة مولانا محمد عبيد الله فسوف يجد فيهما قدرا كافيا عن حياته.

المطلب الرابع

فى تأبين وتاريخ عام رحيل
مولانا محمد عمر الحنبلى الحيدر آبادى(١)

يعد مولانا محمد عمر الحنبلي الحيدر آبادى من معاصرى الشيخ أحمد رضا خان، وقد جمعت بينه وبين شاعرنا علاقات التآلف والحب في الله تعالى، كما كان هذا التآلف يرجع إلى أسباب أخرى أيضا لعل أهمها الفيض العلمى، والتقوى، والورع المتبادل بينهما. وقبل هذا كان شاعرنا محبا لمعاصريه - من أهل العلم والفضل - وعلى الأخص من كان يمتد نسبه إلى آل بيت الرسول - رضوان الله عليهم اجمعين - وكان منهم مولانا محمد عمر الحنبلي، وعندما قام مولانا محمد عمر

(١) هو السيد محمد عمر الحسيني نسبا والحنبلى مذهبا، والقادرى طريقة، والحيدر ابادى موطنا. ابن مولانا السيد شاه محمد بادشاه الحسيني (المتوفى عام ١٢٨٦هـ) ابن السيد حيدر على الحسيني (المتوفى سنة ١٢٥٨هـ) نزح جده الأعلى مولانا السيد محى الدين الحسيني من بغداد قاصدا ارض الهند، وذلك في اواخر عهد السلطان العادل الملك اورنك زيب. واستقر بأسرة حيدر اباد حيث توفى في عام ١١٦١هـ ودفن بمدينة اورنك اباد. اخذ والده الطريقة القادرية من جده، وكان والده بارعا في العلوم الإسلامية والعربية والفارسية. له اسلوبه المؤثر فى خطبه. وله عديد من المؤلفات العلمية كما كان له ديوان شعر أيضا.

تشرف مولانا السيد محمد عمر بزيارة الحرمين الشريفين مع أمه وهو - عندئذ - ابن اربع سنوات. وعند العودة منها التحق بالمدرسة المحبوبية بحيدر اباد حيث أخذ دروسه الابتدائية على يد مولانا امير احمد ثم اكمل لديه دراسة الصرف والنحو والأدب والمنطق والفقه والحديث. واخذ الطريقة من أخيه الاكبر مولانا السيد محمد صديق الحسيني، وكان مشغوفا بالوعظ والتدريس وتعليم تجويد القران، كما كان موهوبا في نظم الشعر أيضا، وتشرف بزيارة الحرمين الشريفين للمرة الثانية فى عام ١٣١٨هـ، وفى عام ١٣٢١هـ سافر. إلى بغداد لزيارة قبر الشيخ عبد القادر الجيلاني. ولبى نداء ربه بعد حياة حافلة بالخدمات الدينية فى عام ١٣٣٠هـ الموافق ١٩١١م. انظر تذكرة علماء اهل سنت، لمولانا محمود أحمد القادرى، ص ١٨٦-١٨٧.

الحنبلى بزيارة مدينة بريلى فى العام السابع و العشرين من القرن الرابع عشر الهجرى. وذلك للمشاركة فى الحفل الذى عقد احتفالا بتخريج دفعة جديدة من الطلاب. وعندما التقى فيها مع شاعرنا تقدم شاعرنا وعانقه وصافحه ثم أقدم بوضع يد مولانا محمد عمر الحنبلى على قلبه وأنشد شطرة فارسية ما معناه[١]: "أيها الورد إنى معجب بك لأنك تحمل رائحة حبيبى (صلىٰ الله عليه وسلم)" وأعاد إنشاد هذه الشطرة. وعندما استمع الحضور لهذه الشطرة - التى أثارت هيام الشيخ أحمد رضا خان - أصبحوا فى هيام عقلى بسبب روعة وبلاغة وعذوبة هذه الشطرة الفارسية والموقف الذى أنشدت فيه، هذا وقد توفى مولانا محمد عمر الحنبلى قبل وفاة شاعرنا بعشر سنوات. فرثاه شاعرنا بقصيدة قوامها أحد عشر بيتا من بحر البسيط. واستهل شاعرنا رثاء هذا الشيخ بالدعاء له قائلا[٢]:

"ألا سقى الله قبرا صوب غادية ... وجاد بالجود جودا وهو همار

قبرا ثوى بثواب الله فيه عمر ... معمور نور الهدى للدين عمار"

فى الشطرة الأولى استخدم شاعرنا "سقى" و"جاد" بالأسلوب الخبرى مع أنه يريد الإنشاء لأن الخبر يفيد تأكيد الحدوث وهذا إلحاح فى الطلب من الله وتأكيد لرغبة حدوث المخبر عنه - سبحانه وتعالى - وقد قال الله - تبارك وتعالى - **أتى أمر الله فلا تستعجلوه** [٣] جاء بالفعل الماضى وهو يريد الإخبار عما سوف يأتى بتمام التأكيد. وفى البيت الثانى يشتم منه الدعاء لله - عز وجل - أن ينزل مطرا ملائما لروضة مولانا محمد عمر الحنبلى، ثم اقدم على تحديد نوعية هذا المطر بقوله: "صوب غادية" كما دعا له بان يمن الله على قبره بجوده وكرمه

---

(١) ونص الشطرة الفارسية كمايلى: "أى كل زتوخرسندم كه تو بونے كسے دارى".
(٢) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان، ص ١٨١.
(٣) سورة النحل ١٦/١.

الهائل. ثم أقبل على وصف المرثى الذى قام بنشر نور الهدى وتعاليم الدين، ثم أخذ ينعته بأنه صار سيدا سندا ببركة الشيخ عبد القادر الجيلانى الملقب "بالغوث الأعظم" وبالطبع فى هذا البيت رثاء له ومدح للشيخ عبد القادر الجيلانى، حيث إن المرثى كان من المغترفين من بحر هذا "الغوث الأعظم" الذى غيثه مدرار ومتسم بالرأفة، ومتصف باللطف والخير، كما إتسم بالرائحة فأصبح معطارا، ولعل الله قد فاض عليه بالخيرات، وقد أخبره الله تعالى بالكثير من الأسرار، وكما وصفه بالبر وقد أبر له الأبرار ففى هذا يقول شاعرنا(١):

عبد بغوث البرايا سيد سند	بالغوث مغترف بالغيث مدرار
باللطف معتصم بالرأف مبتسم	بالعرف متسم بالغرف معطار
سر أسر له فى السر أسرار	بر أبر له فى البر أبرار

نلاحظ الطباق بالأيجاب فى كلمتى "عبد" و "سيد" كما نجد الجناس غير التام بين كلمتى "السيد" و "السند" و "الغوث" و "الغيث" و "العرف" وبين كلمات تالية "السر، أسر، أسرار" كما نجد هذا الجناس بين "بر، أبر، البر، أبرار" وهنا يستعرض شاعرنا ثروته اللغوية، وكأنه يحاول أن يقول: إنه يعلم اللغة العربية علما لا بأس به.

ونرى هناك شيئا من البديع اسمه التقسيم وذلك عندما قال شاعرنا "باللطف معتصم" "بالرأف مبتسم" "بالعرف متسم" "بالعرف معطار" وكان شاعرنا عند إتيانه

(١) بساتين الغفران، للشيخ احمد رضا خان، ص ١٨١.

بهذه المحسنات متبعا أسلوب الشعراء الأقدمين كما جاء به أبو تمام فى بائيته حين قال[١]:

تدبير معتصم، بالله منتقم ... لله مرتقب فى الله مرتغب

وللشوقى فى همزيته بيت فيه أيضا تقسيم وكل منهما عاش فى عصر الآخر قال أمير الشعراء أحمد شوقى وقد جاء بالتقسيم[٢]:

الدين يسر والخلافة بيعة ... والأمر شورى والحقوق قضاء

وبعد هذا يقدم شاعرنا على بيان المزيد من الأوصاف والفضائل للمرثى فينعته بالرحمة على المسلمين والغلظة على غيرهم أسوة بما قيل فى صحابة الرسول - صلى الله عليه وسلم - **محمد رسول الله والذين معه أشدآء على الكفار رحماء بينهم** [٣] كما ذكر علمه وحلمه ومدى تقواه وورعه، وأشار إلى ذلك قائلا[٤]:

"ربح لآل هدى حرب لأهل ردى ... بحر لسيل ندى حبر بل أحبار

علم وحلم وسلم فى تقى ونقى ... سيادة سود وفضل وإيثار"

نلاحظ طباق الإيجاب فى الجمع بين "الهدى" و "الردى" كما نرى الجناس غير التام بين "الهدى والردى" وبين "علم وحلم وسلم" وبين "تقى ونقى"، وبعد هذا يشير شاعرنا إلى أن المرثى انخرط فى سلك أبناء الطريقة القادرية فزاده الانتساب إلى

---

(١) ديوان أبى تمام، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد (ط: محمد على صبيح بالقاهرة)، ص ٢٢.
(٢) شوقيات. (ط: دارالكتب العلمية بيروت، ١٤٠٥ه) ج ١ ص ٣٦.
(٣) سورة الفتح ٢٩/٤٨.
(٤) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١٨١.

الطريقة القادرية قدرا ومرتبة، ومن هنا تتضح ميول شاعرنا الصوفى. وهذا إن دل فلا يدل إلا على التقوى الذى بلغ به التصوف، وحبه أهل الطريق. شأنه فى ذلك شأن الصوفية عامة. ويقول شاعرنا إن حب مولانا محمد عمر الحنبلى تمكن من قلبه كحب الحبيب فى قلب المحب، والأزهار فى جنة الخلد تشبيهان، أحدهما من دنيانا وهو لطيف والآخر من آخرتنا وفيه من الظرف ما فيه، وإلى الآخرة ولمثلها فليعمل العاملون. وفى هذا يقول شاعرنا(١):

بحمد الله تمت قادريته	فزاده القدر والمقدار أقدار
وعاد حبه حب المصطفى فى خلده	كجنة الخلد أزهار وأنوار

فى هذا البيت يبين شاعرنا انتساب مرثيه إلى الطريقة القادرية، ومثل ذلك عند شاعرنا رفعة للمرثى وتقدير له حيث إن الشيخ عبد القادر الجيلانى إمام الطريقة يعتز بها شاعرنا وبصاحبها وبكل من يأخذ عنها وينتسب إليها، وهو يقدم حمد الله وفى ذلك ما يفيد إيمان شاعرنا بأنه رجل يقدم الحمد لله - عز وجل - على كل شئ ويعتز بكل من ينتسب إلى الطريقة القادرية، لدرجة لا تكاد يماثلها أمر إلا ذلك الذى يتفوق عليها ويسبقها وبالطبع هو حب الرسول - صلى الله عليه وسلم - كل ذلك بعد ذكر الله - تبارك وتعالى - هذا بعض ما لاحظناه عند شاعرنا دون أن يقع أدنى لبس فى عقيدته بحسب رؤيتنا له، وتذوقنا قدر الاستطاعة فى شعره.

إن شاعرنا كان قد بدأ الرثاء بالدعاء للمرثى - كما ذكرنا - وفى نهاية المطاف أكمل منظومته هذه بالدعاء أيضا، وقد أقدم على إدراج لقبه الشعرى فى الشطرة الأولى من البيت الأخير ثم قام باستخراج عام وفاة مولانا محمد عمر

(١) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان . ص ١٨١.

الحنبلى - بحساب الجمل - فى الشطرة الثانية من البيت الأخير، ومع هذا نرى أن أسلوبه سلس جزل عذب بعيد من التكلف والتصنع، كما أنه مشتمل على كل الخواص التى لاحظناها فى أسلوبه بصفة عامة مستخدما المحسنات البديعية من جناس غالبا وتورية وغير ذلك من عرض لكثير من المشتقات متبعا منهجه المعتاد فيقول[1]:

"حماه عن كل ضير من يقال له	حامى الحقيقة نفاع وضرار
قال الرضا أسفا فى عام فرقته	محمد عمر الفاروق شطار"

هكذا قام شاعرنا برثاء مولانا محمد عمر الحنبلى القادرى وفاء لحقه عليه فأجاد وصف الفقيد الراحل وتعديد خلاله ومآثره، وذلك فى عبارة رصينة جزلة تدل على تمكنه من ناصية اللغة العربية، كما يدل على ما ورد فى هذه المنظومة من تقدير شاعرنا لمعاصريه وحبه لهم، واعترافه بفضلهم على المسلمين فى شبه القارة الهندية وأسفه على فراقهم، وهل يكون الرثاء إلا دعاء فى أول القصيدة وآخرها وبينهما بيان للمكانة وإظهار لمحاسنه وموقفه ودفاعه عن الدين وغير ذلك مما يحسب للمرثى، لا يكون رثاء العلماء أو الأدباء إلا هكذا.

(١) المرجع السابق، ص ١٨١.

المبحث الثاني

مقطوعات شاعرنا ورباعيتاه وبيتاه في الرثاء والتاريخ

ويشتمل هذا المبحث على أحد عشر مطلبا:

المطلب الأول: في رثاء وتاريخ عام رحيل ابنة الشيخ الشريف آل رسول المارهروى.

المطلب الثاني: في رثاء وتاريخ عام رحيل الشيخ آل رسول المارهروى.

المطلب الثالث: في رثاء وتاريخ عام رحيل مولانا الحكيم حبيب علي.

المطلب الرابع: في رثاء وتاريخ عام رحيل السيدة سكينة زوجة مولانا عبد السلام الجبلفوري.

المطلب الخامس: في تاريخ عام رحيل مولانا شفيع أحمد خان.

المطلب السادس: في تاريخ عام رحيل الشريف ظهور حيدرميان.

المطلب السابع: في تاريخ عام رحيل مولانا القاضي عبد الوحيد.

المطلب الثامن: في تاريخ عام رحيل مولانا الشريف مجتبى حسن.

المطلب التاسع: في تاريخ عام رحيل مولانا محمد إسماعيل القادري.

المطلب العاشر: في رثاء وتاريخ عام رحيل مولانا محمد عبد الكريم الحيدر آبادي.

المطلب الحادي عشر: في رثاء وتاريخ عام رحيل الحكيم محمود أحمد خان.

المطلب الأول

فی تاریخ عام رحیل
ابنة الشیخ الشریف آل رسول المارهروی

نظم شاعرنا الشیخ أحمد رضا خان بیتا عربیا ضمن مقطوعة باللغة الأردیة فی تاریخ عام رحیل ابنة شیخه ومرشده الشریف آل رسول المارهروی وذلك بحساب الجمل، وقد توفیت بمكة المكرمة فی العام العاشر من القرن الرابع عشر للهجرة النبویة - علی صاحبها أفضل الصلاة وأزكی السلام - وهذا البیت یضم تاریخ رحیلها مرتین حیث إن كلا من الشطرتین یدل علی تاریخ وفاتها - بحساب الجمل - إلی ربها، وفی هذا یقول شاعرنا[1]:

فی الخلد تحنن إلیها	رضوان واسع علیها
١٣١٠هـ	١٣١٠هـ

في هذا البیت یتحدث شاعرنا عن مصیر ابنة شیخه ومرشده، ویتمنی لها من الرحمة ما یتمنی، وإذا كان أفهمنا بأنها في الجنة قد رزقت بجنان الله - عز وجل علیها - فهذا بالنسبة لها ما كان شاعرنا یتمناه لها ویتوقع أن یرحمها الله - تعالی لأنها ماتت وهی فی سبیل الله، و شاعرنا عندما قال: "تحنن إلیها" كأنه قال: رزقها الله شیئا من حنانه - سبحانه وتعالی - وترفق بها، وعندما قال: "رضوان واسع

---

(١) بساتین الغفران. للشیخ أحمد رضا خان . ص ٢١٤.
وانظر: حدائق بخشش، للشیخ أحمد رضا خان / رتبه مولانا محبوب علی خان. جـ ٣. ص

عليها" فكأنه قال: رزقها الله تعالى رضوانا واسعا أحاط بها، وهذا ما كان شاعرنا يدعو الله – سبحانه وتعالى – به لابنة شيخه ومرشده، وفى الدعاء والتمنى للفقيدة لون من الصبر والتصبر لوالدها ومرشده ولشخصه نظرا لحبه لشخصه، وإن كنا لم نعرف لميلادها تاريخا ولم تفدنا في ذلك المراجع التى راجعنا إليها.

ومما هو جدير بالذكر أن شاعرنا كان يتمتع ببراعة هائلة فى استخراج التاريخ حتى فى الأبيات. وكان يقوم باستخراج التاريخ باللغة العربية فى أكثر الأحيان، حيث شاع بين شعراء الهند استخراج التاريخ باللغة العربية أو الفارسية أو الأردية.

المطلب الثانى

فى رثاء وتاريخ عام رحيل الشريف آل رسول المارهروى[1]

نظم شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان أربعة أبيات من بحر الوافر فى رثاء شيخه ومرشده فى الطريقة القادرية الشريف آل رسول المارهروى - بحساب الجمل - الذى توفى إلى رحمة الله تعالى عام ستة وتسعين بعد المائتين والألف للهجرة الموافق للعام الثامن والسبعين من القرن التاسع عشر الميلادى، وكان شاعرنا فى ذلك الوقت فى الرابع والعشرين من عمره، وقد قام بذكر كتابة جمل بحساب التاريخ الذى توفى فيه مرثيه، وذلك فى كل شطرة من البيت الثانى إلى البيت الرابع، فيقول شاعرنا[2]:

خذ التاريخ فى التوشيح نظما ... يلوح كأنه البدر المنير

وخذ من كل قطر مثل سطر ... تكن سنا وليس له نظير

ولى طاهر بر إمام ... وصول طيب بدر أمير

وحيد طائع بحر إمام ... ودود طائب بدل أجير

---

(١) سبق أن ذكرنا ترجمته ضمن شيوخ شاعرنا فى الفصل الثالث من الباب الأول.

(٢) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١٩٤.

ونرى شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان أنه إلى جانب قيامه باستخراج عام رحيل أستاذه ومرشده فى النظم أقدم كذلك على استخراج هذا التاريخ فى جملتين عربيتين مما يدل على براعته فى اللغة العربية وتمكنه من استخراج التاريخ فيها. فنجده يقول فى هذا الشأن نثرا[1]:

تواريخ الأولياء ١٢٩٦ للهجرة

رضى الله عنه والمحبوب ١٢٩٦ للهجرة

ونلاحظ موهبة شاعرنا هذه فى قمتها وذلك عندما قام باستخراج تاريخ عام رحيل مرشده فى مربع يشتمل على ستة عشر مربعا صغيرا، وكل مربع يحمل مادة تاريخية[2] وعندما نقوم بجمع هذه الأعداد أفقيا أو رأسيا نجد تاريخ عام رحيل الشريف آل رسول المارهروى. وفيما يلى هذا المربع[3]:

١٢٩٦هـ	١٢٩٦هـ	١٢٩٦هـ	١٢٩٦هـ	
طارم محلّ ٣٢٨	واصل برت ٣٢١	أصفى عمل ٣٣١	أجود قرب ٣١٦	١٢٩٦هـ
بحر سمتى ٣٣٠	أشبه بجد ٣١٧	آل رسول ٣٢٧	أنقى صفا ٣٢٢	١٢٩٦هـ
فرد أجلّ ٣١٨	أصفى السّنا ٣٢٣	آل روح دين ٣٢٩	جان عرب ٣٢٦	١٢٩٦هـ
كسف صفتى ٣٣٠	شاه هدى ٣٢٥	نور نجتى ٣١٩	أفق العلى ٣٢٢	١٢٩٦هـ
١٢٩٦هـ	١٢٩٦هـ	١٢٩٦هـ	١٢٩٦هـ	

(١) المرجع السابق. ص ٢٣٩.
وانظر: حدائق بخشش. للشيخ احمد رضا خان. جـ ٣. ص ٩٧.

(٢) يطلق هذا الاسم على كلمة او جملة يستخرج منها أدباء الهند التاريخ المطلوب.

(٣) سنين الغفران. للشيخ احمد رضا خان . ص ٢٤١.

وعن هذا المربع يقول مرتب بساتين الغفران ومحققه الأستاذ حازم محمد[١]:
هذا المربع من مبتكرات الشيخ أحمد رضا خان نظمه ليخرج منه ستة عشر تاريخا – بحساب الجمل – مسجلا تاريخ رحيل الشيخ الشريف آل رسول المارهروى – شيخه فى الطريقة وأستاذه فى الحديث – وقد ذكر هذا المربع تحت عنوان: "هذا المربع يقع فى ستة عشر تاريخا وقد علق عليه الدكتور غلام يحيى أنجم قائلا[٢]:
هذا المربع الذى يعد من مبتكرات الشيخ أحمد رضا خان لا نجد له نظيرا [فى الأدب الهندى] من قبل وإلى اليوم".

هذه براعة شاعرنا التى جاءت فى اللغتين وكنت أرى أن يستخرج التواريخ بالعربية ويحسب الجمل كما يشاء، ولكنى أرى الشيخ أحمد رضا خان أنه استعان ببعض الكلمات الأردية، من الممكن أن يكون قد أتى بها ليقول: أنا أعرف الأردية كما أعرف العربية، ومعرفتى بالعربية تحتاج إلى دليل لذلك الكلام كله بالعربية فلم يستعن بالأردية إلا فى القليل وذلك فى مربعين من ستة عشر مربعا، كنت أرى أن شاعرنا طالما عرض للعربية كان لا داعى إلى أن يدخل إليها الأردية، لأن العربية فيها الغنى مما يتيح له الفرصة، ولكنه هنا إلى العربية أقرب لأن ما عبر عنه بالأردية أقل بالنسبة لما عبر عنه بالعربية، وما أحسنه لو جعل العبارة كلها عربية وهو على ذلك أقدر وبالعربية أمكن، على أننى من الممكن أن أعتبر استعانته بالأردية على سبيل المزج بين اللغتين والجمع بين العربية والأردية فى إطار فنى واحد، ليس من عدم تمكنه من أى اللغتين، لا أكثر ولا اقل.

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٤٢.
(٢) معارف رضا لصفوة من العلماء (ط: ادارة تحقيقات امام أحمد رضا كراتشى سنة ١٤٠٨هـ). جـ ٧، ص ١٠٤، ١٠٥.

وأرى أن المربع لا يضم أكثر من ذكر التاريخ لعام رحيل أستاذ شاعرنا وسرد بعض صفاته، وكنا نود ألا يتعب ذهنه فى ذكر هذا الكم الهائل من التاريخ، وهو بذلك سابق وليس بمسبوق - كما أشار إليه الدكتور غلام يحيى أنجم - ولذا أتيت بهذا المربع مما يدل على براعته فى اللغة العربية واحتوائه بحساب الجمل، وكان الأفضل أن يجعل جهده لرثاء أستاذه ومرشده رثاء أدبيا، لا سيما وتربطه به روابط وطيدة وعلاقات وشيجة على نحو ما ذكرت عن علاقة شاعرنا به فى الفصل الثانى من الباب الأول، وإن شاعرنا قام برثاء أستاذه ومرشده باللغة الأردية والفارسية أيضا نظرا لعلاقته الوثيقة الطيبة بالمرثى، وبالطبع لم أشأ أن أتحدث عن رثائه لشيخه هذا بغير العربية، فالمجال لا يتحمل.

المطلب الثالث

فى رثاء وتاريخ عام رحيل مولانا الحكيم حبيب على العلوى الكاكوروى[1]

نظم شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان أربعة أبيات من بحر الطويل فى رثاء وتاريخ عام رحيل الحكيم حبيب علي العلوى، وقد تحركت عاطفته لنظم هذه الأبيات - كما أراه وكما يتجلى من البيت الثانى - بسبب أن المرثى كان من المدافعين عن السنة النبوية الشريفة، كما كان مقاوما للبدع حيث إنه كان ملما بالعلوم الدينية، وفى هذا يقول شاعرنا[2]:

محب حبيب الله يعلو فمن هنا	حبيب على بالحبيب على
حبيب على كان خادم سنة	وهادم بدعات وذاك جلى
حبيب لبيب بالذكاء ذكى	سمى منى بالسناء بهى
يقول أسى فى عام رحلته الرضا	حبيب على فى الولاء رضى

١٣٣٠ هـ

---

(١) هو مولانا الحكيم حبيب على العلوى [حبا لسيدنا على - رضى الله عنه - لا تشيعا] بن مشتاق على. ولد فى الخامس من جمادى الآخرة سنة ١٢٦٤ للهجرة، تلقى تعليمه على يد الشيوخ الأعلام. هم مولانا المفتى عنايت أحمد الكاكوروى، ومولانا على أكبر الكاكوروى. ومولانا المفتى لطف الله على كرهى، وقد تعلم الطب على يد والده، أكمل دراسته وهو ابن سبع عشرة سنة، وأخذ الطريقة والخلافة من مولانا حيدر على الكاكوروى، وكان يشتغل طبيبا ومحاميا فى "أناوه"، توفى إلى رحمة الله تعالى فى الخامس والعشرين من شهر ذى القعدة من عام ١٣٣٠ للهجرة الموافق للعام ١٩١٢ للميلاد.

انظر: تذكرة علماء أهل سنت، لمولانا محمود أحمد القادرى، ص ٧٩ ، ٨٠.

(٢) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٢٠٥.

فى مستهل هذه الأبيات نلاحظ الجناس التام بين كلمة "على" و "علـــى" كمـا نلاحظ الجناس غير تام بين كلمتى "خادم" و "هادم"، هذا ويؤخذ على شـــاعرنا أنـــه جاء بجمع البدعه على جمع المؤنث السالم مثل المتنبئ حيث قال[1]:

إذا كان بعض الناس سيفا لدولـــة ففى الناس بوقات لها وطبـــول

فقد جاء المتنبئ بجمع البوق على جمع المؤنث السالم فكان يستطيع أن يـــأتى بكلمة "أبواق" بدلا من كلمة "بوقات" لأن الشعر ينضبط تماما كما هو عليه الآن، أما شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان فلعله أعوزه الوزن الشعرى، لأنه لو قال: "بدع" لمـا استقام الوزن الشعرى، فهو لا يجهل اللغة العربية إنما الوزن الشعرى دفعـــه إلـــى استخدام هذه الكلمة، والباحث يرى أن جمع البدعة بصيغة المؤنث السالم جريا على ما عليه أهل الأردية. ففى الأردية يقال: "بدعات"، وإن كنت أرى أن يترفع شاعرنا عن مثل هذا الأسلوب.

ومن خلال ما نظمه شاعرنا فى رثاء وتاريخ عام رحيل مولانا الحكيم حبيـب على العلوى يتجلى لنا مدى معرفة شاعرنا واطلاعه على الأعمال الخيرية التى قام بها المرثى. كما يتجلى لنا وفاؤه وحبه لمعاصريه من العلماء، وتدل هذه الأبيـــات كذلك على أن من نظمها لابد أن يكون عالم دين لما يتجلى من أسلوبها، لا يكتفـــى بالعلم بل يشفع ذلك بالحب للدين ولعلمائه والمسهمين فى نشره، المدافعين عنه.

---

(١) ديوان المتنبئ مع شرح العكبرى، ج ٣، ص ١٠٨.

المطلب الرابع

فى رثاء وتاريخ عام رحيل السيده سكينة زوجة مولانا محمد عبد السلام الجبلفورى[١]

تشرف مولانا محمد عبد السلام الجبلفورى ابن مولانا محمد عبد الكريم الجبلفورى بتلقى العلم وأخذ الطريقة من شاعرنا الفقيه المحدث الشيخ أحمد رضا خان. وعند العودة إلى مدينة جبلفور حرض التلميذ الوفى على دوام العلاقة بينه وبين أستاذه ومرشده، وذلك عن طريق المراسلة، وقد اتسمت مراسلاته هذه بكونها مراسلات علمية ودينية حيث كان هذا التلميذ يستنير برأى شاعرنا فى الشئون الدينية، كما كان يحرص على طلب الدعاء له بل إن العلاقات بينهم كانت أبعد من ذلك. فكان مولانا محمد عبد السلام يحرص على استشارته فى أحوال أسرته، وكان شاعرنا يشاركه بكل اهتمام فى أفراحه وأحزانه، وعندما توفيت زوجة هذا التلميذ البار فى العام التاسع والعشرين من القرن الرابع عشر الهجرى الموافق للعام الحادى عشر من القرن العشرين الميلادى، تأثر هذا التلميذ البار بهذه الكارثة غاية الأثر. واقدم على مراسلة أستاذه الشيخ أحمد رضا خان لكى يخبره بهذا الخبر المؤلم. فهو يعرب مدى وفاء وإخلاص أستاذه الذى قام من فوره بإرساله رسالة باللغة العربية دعاه فيها إلى التمسك بالصبر، وفى رسالته هذه أقدم شاعرنا على نظم ثلاثة أبيات باللغة العربية من الكامل التام وذلك لرثاء وتاريخ عام رحيل السيدة

(١) قد سبق أن ذكرنا ترجمته فى الفصل الثالث من الباب الأول.

سكينة. فنجده يقول فى هذا الشأن[١]:

حلت لمن عبـــد الســلام حليلــة	فى العدن و هى حصينة ورزينـه
هى للعفاف مدى الحيـــاة لزينــة	وبعفو ربى فى الممات مزينـــه
سأل الرضا عام الوفاة مع الدعـاء	قلت ارحم التابوت فيه ســـكينه

١٣٢٩هـ

كان مرتب الديوان ومحققه الأستاذ حازم محمد قد نقل هذه الأبيات الثلاثة من مرجع و أشار إليه[٢] ولكنه فى نفس الوقت وجد هذه الأبيات نفسها فى مرجع آخر أشـــار إليه كذلك[٣] و عند مقابلتهما وجد شيئا من التغيير فى بعض الكلمات فأشـــار إليــه قائلا[٤]:

فالشطرة الأولى من البيت الأول ذكرت [فى المرجع الثانى] هكذا:

حلت لمن عبد السلام حبيبه

و الشطرة الثانية من البيت الثانى ذكرت هكذا:

"وبعفو ربى فى الممات ضرينة"

نلاحظ أن شاعرنا استخرج تاريخ رحيل السيدة سكينة فى الشطرة الثانية مـن البيت الثالث. وفيها نجده يقوم بإستخراج هذا التاريخ اقتباسا من جـــزء مـــن آيـــة قرآنية[٥] - على ما سنجده كثيرا فيما بعد - كما ذكر فى التـــاريخ اسـم الســيدة سكينة، وقد أشار إلى إسمها على سبيل التورية.

(١) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٢٠٢.

(٢) اكرام إمام أحمد رضا، لمولانا محمد برهان الحق الجبلفــورى، (ط: مركـــزى مجلــس رضـــا، لاهور). ص ٣٨.

(٣) مكتوبات إمام أحمد رضا. لمولانا محمود أحمد القادرى، (ط: مكتبة نبويـــة بلاهــور ١٩٨٦م)، ص ٣٢.

(٤) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٢٠٣.

(٥) وتمام الآية: } **وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية ممـــا ترك آل موسى وآل هـــرون تحمله الملائكة** { سورة البقرة ٢، ٢٤٨.

المطلب الخامس

فى تاريخ رحيل مولانا شفيع أحمد خان القادرى

نظم شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان بيتا عربيا ضمن منظومة باللغة الأردية أرخ فيه لوفاة مولانا شفيع أحمد خان القادرى، الأمين العام بدار الإفتاء الرضوى، والمدرس بمنظر الإسلام بمدنية بريلى، وقد توفى فى العام الثامن والثلاثين من القرن الرابع عشر للهجرة النبوية – على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام – الموافق للعام العاشر من القرن العشرين للميلاد، وهذا البيت يشتمل على الجانبين الإسلاميين لشخصية مولانا شفيع أحمد خان القادرى حيث أن شاعرنا أشار إلى تقوى المرثى وقيامه بالإفتاء فيقول[١]:

"أهل الفتوى شفيع أحمد   أهل التقوى شفيع أحمد"

نلاحظ السجع بين كلمتى "الفتوى" و "التقوى" تكاد تكون الحروف واحدة، فالقاف قريبة من الفاء ولا يفصل بينهما إلا النقطة، فى الكلمة الأولى قدم الفاء واتبعها بالتاء، أما فى الثانية فقد ذكر التاء أولا ثم ثنى بعد ذلك بالقاف والتى هى قريبة من الفاء كما أسلفت، ثم ذكر الواو والألف باعتبارهما الحرفين الثالث والرابع من الكلمتين، هذا جناس غير تام إذا اعتبرنا قرب الفاء من القاف أما إذا اعتبرنا بعدهما على أساس النطق فإن بين الكلمتين سجعا، وليس فى الشطرة الثانية أى تغيير غير كلمة "التقوى" وذلك جريا على نهج شعراء الهند، ولا سيما أن شاعرنا كان يتمتع بالثقافة الفارسية والأردية والهندية.

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٢٢٢.

المطلب السادس

تاريخ عام رحيل الشريف ظهور حيدر ميان[١]

نظم شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان أربعة أبيات من مجزوء الرجز لتاريخ عام رحيل الشريف ظهور حيدر ميان الذى كان قد توفى إلى رحمة ربه فى العام الثانى والثلاثين من القرن الرابع عشر الهجرى، وقد أرخ لعام وفاته مرتين وذلك فى الشطرة الأولى والثانية فى البيت الرابع، ومما يستلفت نظرنا أن الشيخ أحمد رضا ذكر اسم المرثى أربع مرات على التوالى، وذلك فى الشطرة الثانية من كل بيت، ومع هذا لا يشعر القارئ بأى ملل، كما لا يوجد أى خلل فى اللفظ أو المعنى أو الأسلوب. وهذا بالنسبة لتذوق الباحث الأدبى، ولنسمع صوت الشاعر حيث يقول[٢]:

نحو لقاء جده   ام ظهور حيدر

حن إلى الجنان إذ   تم ظهور حيدر

قيل متى هذا السفر   هم ظهور حيدر

قلت لان بقى السنه   تم ظهور حيدر

١٣٢٢هـ   ١٣٢٢هـ

يتجلى لنا فى الشطرة الأولى من البيت الأول أن شاعرنا قصد الرسول - صلى الله عليه وسلم - بقوله: "نحو لقاء جده" فإن المرثى كان من سلالة الرسول -

---

(١) لم نتمكن من العثور على معلومات أخرى عن سيرة السيد ظهور حيدر ميان غير ما ذكرناه، وهو ما ورد فى بساتين الغفران، ص ١٨٢.

(٢) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١٨٢.

صلى الله عليه وسلم - وسار شاعرنا فى هذه الأبيات سبيل الشعراء الذين ذكروا أحبابهم فى غزلهم، وكان منهم من يذكرهم فى بداية كل بيت كما هو الحال مع جميل بثينة، ولكن شاعرنا كان يختم البيت بذكر المرثى، لعله يريد أن يجعل اسم المرثى آخر ما ينطق، على أننى أعتقد أن المراد بقوله: "تم ظهور حيدر" أنها مأخوذة من التمام وبالتالى هو تمام العمر وكأنما حين يرددها "تم ظهور حيدر" أكثر من مرة كأنما يقول: "تم عمر المرثى فرحل"، ولا مانع من أن يكون ترداده للاسم تفجعا عليه وإظهارا للألم النفسى الذى يملأ فؤاده، وبين البيت الثالث والرابع ما يسمى بالمراجعة.

المطلب السابع

فى رثاء وتاريخ رحيل مولانا القاضى عبد الوحيد(١)

نظم شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان بيتين يسجل فيهما رثاء وتاريخ عام رحيل مولانا القاضى عبد الوحيد، وكان هذا الشيخ من المحبين له، وقد أقدم شاعرنا على نظم هذين البيتين وفاء للقاضى عبد الوحيد، فقد كانت المحبة بينهما خالصة لوجه الله الكريم. ومما تجدر الإشارة إليه أن شاعرنا كان قد ذهب إلى مدينة بتنه لعيادة مولانا القاضى عبد الوحيد فى مرضه الأخير، وعندما تنبه لخطورة مرضه قام بالإشراف على معالجته الطبية، إلا أن حالة مولانا القاضى عبد الوحيد الصحية لم تتحسن حيث إن المرض كان قد تمكن مما أدى إلى وفاته، وحينئذ أم الشيخ أحمد رضا خان صلاة الجنازة على حبيبه هذا، وأمضى أربعة أيام بمدينة بتنه وفاء وإخلاصا وحبا للقاضى عبد الوحيد، وفى تلك الفترة أقدم على نظم هذين البيتين فى تاريخ عام رحيل مولانا القاضى عبد الوحيد، وهما من بحر رجز، يبدأ شاعرنا هذا الرثاء بندائه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بقوله: "يا أكرم الخلق" وطلبه من رسول الله – صلى الله عليه وسلم الإكرام، إنما هو على سبيل طلبه الشفاعة العظمى، وما منا إلا ويسال ربه أن يكون ممن يحظى بشفاعة الحبيب المصطفى – صلى الله عليه وسلم – فهو يطلبها للقاضى عبد الوحيد دعاء له ورجاء فى أن

---

(١) هو القاضى عبد الوحيد ابن القاضى عبد الحميد [والمراد بقولنا القاضى اسم أسرته وليس بمعنى القضاء بالمحكمة] حصل على الشهادة الثانوية من الكلية الحكومية بمدينة بتنه، ورغبت أسرته فى إرساله الى انكلترا، وذلك لمواصلة الدراسات العليا هناك، ولكنه رفض رغبتهم هذه حيث كان كارها للاستعمار البريطانى وبلده، وكان هذا نتيجة لتأثيره من مجالس الشيخ أحمد رضا خان ومولانا عبد القادر البدايونى، وقد لبى نداء ربه فى شهر ربيع الأول من عام ١٣٢٦هـ.
انظر: تذكرة علماء اهلسنت، لمولانا محمود أحمد القادرى، ص ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥.

ينالها، ومن الممكن أن يكون المنادى محذوفا منويا استحضاره، وهو على نيـــة أن يقول يا من أكرم الخلق، وإذا ذكر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بقوله: "يـــا أكرم الخلق" إنما هو توسل إلى الله – سبحانه وتعالى – فيما سيطلب بعد ذلك، وهو إكرام المرثى، ومن الممكن أن يكون ثمة خطأ مطبعى والهمزة هنا بدلا من حــرف الميم، والكلمة من غير الخطأ هى "يامكرم الخلق" وبالتالى فهى نداء لرب الخلــق – تبارك اسمه – وضراعة إليه أن يمن بالإكرام على المرثى، يقول شاعرنا(١):

"ياأكرم الخلـــق أنــت الكريـــم ... أكرم القاضى عبد الوحيــد

قال الرضا فى الدعاء حين أرخ ... إرحم القاضى عبد الوحيد"

نلاحظ أن الشيخ أحمد رضا خان قام بتسجيل رثائه للقاضى عبد الوحيد كمـــا دعا لمرثيه بالرحمة وطلب الرضى من الله تعالى .

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٢٤٤.

المطلب الثامن

تاريخ عام رحيل الشريف مجتبى حسن[١]

نظم شاعرنا أحمد رضا خان رباعية فى تاريخ عام رحيل السيد مجتبى حسن ميان الذى كان قد توفى إلى رحمة الله فى مدينة بومبائى عقب عودته من أرض الحرمين الشريفين بعد أداء فريضة الحج وزيارة الحرمين الشريفين وذلك فى العلم الحادى عشر من القرن الرابع عشر الهجرى، وقد استخرج شاعرنا عام وفاة المرثى فى الشطرة الرابعة من هذه الرباعية يقول شاعرنا[٢]:

أكرم بحج سيدنا المجتبى حسن	إن الكريم وافده مجتبى حسن
أرخ رضا لموت غريب عن وطن	نال المراد من كرم المجتبى حسن

أرى أن هذه الرباعية تخلو من البهجة الشعرية الممتازة لشاعرنا فلم تكن إلا تسجيلا لتاريخ وفاته، وذكرا لهذا المرثى، ولا شك أن مرثيه هذا لم يحظ بمثل ما حظى به من سبق فى الذكر، وكأنما يدعو شاعرنا للمرثى حين قال: "إن الكريم وافده مجتبى حسن"، ومعناه لقد وفد مجتبى حسن جل وعلا والوفود على الكريم يقتضى منه وعطاءه، فهذا هو المنتظر من رب العالمين.

---

(١) لم أهتد إلى معلومات أخرى عن سيرة السيد مجتبى حسن ميان غير ما ذكرته وهو ما ورد فى بساتين الغفران على صفحة ٢٠٠.

(٢) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٢٠٠.

المطلب التاسع

فى تاريخ عام رحيل مولانا محمد إسماعيل القادرى

لقد حاولنا دراسة ما نظمه شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان فى رثاء مولانا محمد إسماعيل القادرى من قصيدتين فكانت قوام أولاهما تسعة وثلاثين بيتا، بينما كان قوام الثانية ثلاثة عشر بيتا، ولم نجد هذا القدر من أبيات شاعرنا لغير هذا المرثى، هذا ولم يكتف شاعرنا بهذا القدر من دموع فى الرثاء بل نظم رباعية فى رثاء وتاريخ عام وفاة مولانا محمد إسماعيل القادرى وذلك لكثرة حبه للمرثى، وشدة انفعاله وحزنه لوفاة المرثى ومازالت هذه الرباعية مكتوبة على الباب الجنوبى لمشهد مولانا محمد إسماعيل القادرى فى حى بريل بمدينة بومبائى، ويبدو من مطالعة هذه الرباعية كأن الشيخ أحمد رضا خان كان قد نظمها للكتابة على باب المشهد للمرثى، فقال: إن هذا القبر لرجل حظى بالعز والكرامة لتمسكه بالسنة النبوية، وغمره فضل الرسول بجنة، وأعتقد أنه قال هذا الكلام باعتبار ما يتمناه ويتوقع أن يكون يوم القيامة فإن شاعرنا ينتظر شفاعة الرسول - صلى الله عليه وسلم - يوم القيامة لمرثيه، وهذا التوقع ليس من فراغ بل من منطلق إقدام المرثى على التمسك بسنة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ثم يقبل شاعرنا على استخراج عام البناء للمشهد فيقول: "حل إسماعيل روضة جنة" وهنا جاء شاعرنا بالفعل الماضى للأمر الذى لم يتحقق بعد، وذلك لأن الشاعر على يقين من رحمة الله - سبحانه وتعالى - بأنها سوف تدرك المرثى وذلك نظرا لمواقفه الدينية دفاعا وتمسكا بالحنيفية السمحاء، والتى أشار إليها شاعرنا ضمن قصيدتيه فى رثاء مولانا محمد إسماعيل القادرى، ولنستمع إليه حيث يقول[١]:

---

(١) تفضل مولانا محمد عبد الحكيم شرف القادرى بإرسال هذه الرباعية ضمن خطاب بعثه من مدينة بومبائى الهندية خلال زيارته إلى الهند وذلك فى ١٩٩٨/١١/٥م.

"ذا القبر من اعز بســـنة حازه فضل الرسول بجنــة

١٣١٨هـ

أى رضا صله بعام بنائـه حل إسماعيل روضة جنــة

١٣١٨هـ

وهكذا يتجلى لنا حب شاعرنا واحترامه لأهل العلم بعد وفاتـــهم، فإنـــه نظــم أربعة وخمسين بيتا عربيا لرجل لم ينل من الشهرة مثلما نالها الكثيرون، على أننـــا لم نتمكن من العثور على ترجمته ضمن كتب التراجم.

المطلب العاشر

فى رثاء وتاريخ عام رحيل مولانا محمد عبد الكريم الحيدر آبادى(١)

كان مولانا محمد عبد الكريم الحيدر آبادى من علماء الدين المعاصرين لشاعرنا الشيخ أحمد رضا خان، وقد جمعت بينهما علاقة محبة ومودة خالصة لله وفى الله على الرغم من أن المصادر لم تذكر أى لقاء جمع بينهما وجها لوجه. إلا أن المراسلات بينهما كانت السبب فى توطيد علاقتهما، ومما تجدر الإشارة إليه أن شاعرنا كان فى تلك الفترة فى مرحلة الشباب، أما مولانا محمد عبد الكريم فقد كان شيخاً مسناً، وعلى الرغم من ذلك وجدنا هذا الشيخ المسن يقدم على إرسال ابنه مولانا محمد عبد السلام فى العام الثالث عشر من القرن الرابع عشر للهجرة إلى شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان مع رسالة جاء فيها: "أبعث إليكم ابنى هذا، وأرجو من فضيلتكم التكرم بتعليمه العلوم الدينية وتربيته الروحية وذلك تحت إشرافكم، فاستقبل الشيخ أحمد رضا خان ابن صديقه هذا بحفاوة بالغة، وأقام مولانا محمد عبد السلام عنده مدة عشرة شهور وخلال هذه الفترة تلقى مولانا محمد عبد السلام العلوم الإسلامية على يد شاعرنا مع أخذ الطريقة القادرية، وفى شهر ذى القعدة من العام الثالث عشر من القرن الرابع عشر للهجرة الموافق للعام السادس والتسعين من القرن التاسع عشر للميلاد، حصل على شهادة الفراغ من أستاذه ومرشده الشيخ أحمد رضا خان ورجع إلى والده مولانا محمد عبد الكريم الذى توفى بعد رجوع

---

(١) لم أعثر على ترجمته وخدماته الدينية غير ما ذكرت بالمتن.

ابنه إليه بحوالى أربع سنوات، وذلك فى شهر رمضان من العام السابع عشر من القرن الرابع عشر للهجرة الموافق للعام الثامن والتسعين من القرن الثامن عشر للميلاد. فأرسلت برقية إلى الشيخ أحمد رضا خان، فرد عليها شاعرنا برسالة إلى أبناء مولانا محمد عبد الكريم[1] تضمنت دعوتهم إلى الصبر والرضى بالقضاء، وقد جاء فى رسالته هذه الأبيات الخمسة التى أرخ فيها لوفاة والدهم مولانا محمد عبد الكريم كعادته فى الشطرة الأخيرة كما أتى فى البيت الأول ما يسمى فى علم البديع بفن المراجعة، وهذه الأبيات من بحر الحفيف وهى كالآتى[2]:

قيل مات الزكى عبد الكريم ... قلت كلا بل احتظى بالدوام

حى عن بينه فكيف يموت ... إنما الميت هالك الأوهام

أيموت الذى خلف؟ ... سلم الله مثل عبد السلام

جبل الدين راسخ بقيامه ... فى جبلفور شامخ الأعلام

قلت تاريخ عيشه الأبدى ... دام عبد الكريم خلد كرام

هذه أبيات خمسة نراه فيها أيها القارئ الكريم، يعرض لنا مكانة المرثى فى نفسه وحبه له حتى أنه ليعزى نفسه فيه، فهو لا يرى أن يعده من الأموات بل يرى أن الميت هو من خرج من الدنيا دون أن يترك فيها شيئا، وشاعرنا يرى أن أولاد مرثيه ذكر له وامتداد لوجوده[3] لا سيما وبينهم من درس على يديه وهو مولانا محمد عبد السلام الجبلفورى، فهو بذكره هذا الابن مدح ورثى فى وقت واحد،

(١) للاطلاع على هذه التفاصيل راجع إكرام إمام أحمد رضا، لمولانا برهان الحق الجبلفورى، ص ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٣٠، ٣١.

(٢) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١٩٨.

(٣) خلف مولانا محمد عبد الكريم خمسة أولاد وأسمائهم كالتالى: مولانا محمد عبد السلام، القارئ بشير الدين، الحافظ أحمد سعيد، الحافظ غوث أحمد - انظر إكرام امام أحمد رضا لمولانا برهان الحق الجبلفورى. ص ٢٥.

ولعله لا ينسى جهد المرثى العلمى وعلمه بالدين ومساهمته فى نشره تلك المساهمة التى ستبقى، وحينئذ يكون وجود هذا المتوفى لا ينقطع ولم لا وقد قال النبى – صلى الله عليه وسلم –[١]: **"إذا مات الإنسان ينقطع عمله إلا من ثلاثة، إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له"**.

ولعلك تلحظ أيها القارئ الكريم الحكمة المبثوثة فى الشطرة الثانية من البيت الثانى، وقد أتى بها ليدلل على صدق ما ذهب إليه من أن المتوفى لم يمت بل حظى بالبقاء، وبالطبع البقاء البشرى، لأنه يرى أن الموت هلاك لصاحب الأوهام فقط.

ولما اطلع مؤلف الديوان "بساتين الغفران" ومحققه الأستاذ حازم محمد على تغيير فى الشطرة الأولى فى البيت الرابع أشار إليها قائلا[٢]: ذكر الأستاذ الدكتور محمد مسعود أحمد الشطرة الأولى من البيت الرابع هكذا: "جبل الدين راسخ بقلمه" ونجد المعنى فى كلتا الشطرتين متلائما مع المنظومة.

هكذا قام شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان برثاء مولانا محمد عبد الكريم الحيدر آبادى الذى جمعت بينهما الصداقة والمحبة فى الله، دون أن يجمعهما لقاء وجها لوجه ولو مرة، ولعل السبب وراء عدم اللقاء كثرة مشاغلهما وبعد الشقة بين إقامة كل منهما، وقد وجدنا أن هذا الحب والوئام قد امتد إلى زمن بعيد حيث تتلمذ مولانا محمد عبد السلام الجبلفورى ابن مولانا محمد عبد الكريم وحفيده مولانا برهان الحق الجبلفورى على يد شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان وهذه المنظومة التى أقدم شاعرنا على نظمها تدل على حرصه على أداء الواجب وفاء لذكرى مولانا محمد عبد الكريم الحيدر آبادى.

---

(١) صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج القشيرى، القسم الأول من الجزء الثانى، ص ٦٧.
(٢) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١٩٨.

المطلب الحادي عشر

فى تأبين وتاريخ رحيل الحكيم محمود أحمد خان(١)

مما تجدر الإشارة إليه أن شاعرنا كانت تربطه علاقة قوية مع الحكيم محمود أحمد خان الدهلوى، وعندما توفى هذا الحكيم نظم شاعرنا ثلاثة أبيات فى تأبين وتاريخ رحيل الحكيم محمود أحمد خان الدهلوى، الطبيب الشهير فى شبه القارة الباكستانية الهندية وفى الأبيات الثلاثة يتجلى لنا الرثاء بالمعنى الإنسانى الواضح حيث صدر عن نفس بسيطة تحس لذع الحزن ولا تستطيع أن تخفيه، فنجده فى الشطرة الأولى يشير إلى بكاء العيون التى لا تجف دموعها، ونراه فى الشطرة الثانية أتى باسم والد المرثى وجده بأسلوب التورية التى تدل على مدى براعته فى النظم باللغة العربية بأسلوب سلس فصيح بسيط دون أدنى خلل فى النظم لفظا أو معنى، وقد أشار إلى اسم الحكيم محمد شريف خان عند قوله "شريفا"، كما أشار إلى اسم الحكيم محمد صادق على خان عند قوله: "صادقا" وكما اشار إلى اسم المرثى قائلا: "محمودا" مصورا لنا جسامة الخطب الذى أصاب الطب والمسلمين فى سويداء قلوبهم، وفى الشطرة الثانية من البيت الثالث استخرج شاعرنا عام وفاة الحكيم محمود أحمد خان الدهلوى، ونقشت هذه الأبيات على لوح مشهده، يقول شاعرنا(٢):

---

(١) هو الحكيم محمود بن صادق على خان: كان من أشهر مشاهير العصر، رزق من حسن القبول ما لم يرزق غيره من الأطباء. انظر الثقافة الإسلامية الهندية، للسيد عبد الحى الحسنى (ط: مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م)، ص ٣١٢.

(٢) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١٥٣.

بكت العيون أما تريد جمــــودا ... أبكت شريفا صادقــــا محمــودا

أسفت لفقد الطب عصر قوامــه ... فأست و هل بأسا تحـــس فقيــدا

أملت على مثواه يوم معــــاده ... قبر "الذى مات فى الطب حميـدا"

أحسبك أيها القارئ الكريم لم تأخذ على اهتمامى بأبيات ثلاثة فقد سبق منـــى بذلك فى المدح، وبالتالى كان على أن أعرض لهذه الأبيات الثلاثة فى الرثاء وذلــك لأننى أحاول ألا أغفل بيتا واحدا من بساتين الغفران كما ســبق أن أخــذت علــى عاتقى. وعلى كل فهذه الأبيات الثلاثة تدل على العاطفة المشبوبة والمشاعر الرقيقة الصادقة عند شاعرنا، فنراه وفيا غاية الوفاء، محبا ومبجلا لمعاصريه من العلمـــاء والأدباء وغيرهم، وأرى أن شاعرنا لم يكن وحده الذى أحس لذع الحزن بل كــان هناك عدد كبير من الذين تفجعوا بموت هذا الطبيب المتصف بالإنســانية الســامية وحسن الخلق وبراعته فى علم الطب، فشاعرنا الشيخ أحمد رضا خان أقدم علــــى الإفصاح عما لحق الناس من خسارة فادحة بموت هذا الحكيم، وذلك فى مقطوعــة من ثلاثة أبيات بأسلوب سلس ولغة سهلة فى متناول فهم الجميع.

وانظر: أعلى حضرت كى شاعرى پر ايك نظر (نظرة على شعر الحضرة العالية) للشريف نـــور محمد القادرى، (ط: مركزى مجلس رضا لاهور سنة ١٤٠١هــ)، ص ٤٦

الفصل الثالث

الهجاء

يشتمل هذا الفصل على تمهيد وخمس وقفات

نستوعب كل ما قاله في فن الهجاء

تمهيد: في التعريف بفن الهجاء.

الوقفة الأول: في هجاء مولانا عبد الباري الفرنجي محلى.

الوقف الثانية: في هجاء القائلين بإمكان كذب الله تعالى الله علوا كبيرا عما يقولون.

الوقفة الثالثة: في هجاء أشخاص لم يذكرهم باسم.

الوقفة الرابعة: مقطوعته وشعره في الفرق المخالفة لأهل السنة والجماعة.

الوقفة الخامسة: قصيدته في الخارجين على إجماع أهل السنة والجماعة.

تمهيد

التعريف بفن الهجاء

إذا كنا درسنا غرضين شعريين نابعين من عاطفة الحب نتطرق الآن لغوض ثالث ناتج عن عاطفة الغضب والسخط ألا وهو الهجاء فإن عيوب الناس تحرك عاطفة الشاعر غاضبا فتُفجِّر عاطفته حمما وبراكين تهدر على رأس من غضب عليه وإذن بالشاعر يشق الأرض إلى أبعد ما يمكن ليضع داخلها مهجوه، أو يدغدغ الجبال حصاة حصاة ليضرب بها هذا المهجو، وقد يحمله على عاتقه ليصعد به إلى أعلى قمة ليس رغبة فى الارتفاع به بل ليقذف به حيث القضاء عليه، كل ذلك بواسطة الكلمات التى يرسلها فى فكرة رائعة تختلف من شاعر إلى شاعر، وخيال حُلو بديع مهما كان الغرض هو الهجاء، فلابد للشاعر من عاطفة متّقِدة وخيال واسع مدرِك لما حوله، وأسلوب جيد بليغ التركيب قوى العبارة ليتحقق بذلك كله الغرض من الهجاء، وإن كان الدافع بطبيعة الحال مختلفا من شاعر إلى شاعر، فكما أن المدح ينتج عن عاطفة متوقدة وفكرة جيدة وخيال رائع الحسن، وأسلوب واضح التركيب، قويا فى عبارته، كذلك يكون الهجاء وتختلف الدوافع من شاعر لشاعر كما اختلف دافع المدح.

يقول الأستاذ قحطان رشيد التميمى[1]: "إن الهجاء فن قديم قِدم عاطفة البغض والغضب والميل الفطرى إلى نقد النقائض والمعايب، فهو من الفنون الأدبية التى

(١) اتجاهات الهجاء فى القرن الثالث الهجرى للأستاذ قحطان رشيد التميمى (ط: دار المسيرة بيروت. دون الأشارة إلى عام الطبع)، ص ١١-١٥.

عرفتها الآداب العالمية، ووجد فى الأدب العربى منذ العصر الجاهلى، وهذا أمر طبعى مرتبط بوجود أناس يستحقون الهجاء... ويحتل الهجاء مكانا واسعا فى ديوان الشعر العربى الكبير، فمن النادر أن نجد شاعرا لم يتناول هذا الغرض فى شعره من قريب أو بعيد، ولا نكاد نجد باحثا قديما فى فنون الشعر إلا جعل الهجاء فى أبرز مكان فيها".

ولما كان الهجاء غرضا يتجاوب مع العلاقة الإنسانية وبالطبع مبعثه السخط وعدم الرضا، والشاعر الذى يخوض غمار الهجاء يجد أمامه مهجوه بشخصه، أو ينظر إلى ضيق ذات اليد، أو ركونه فى الدرجة الدنيا أو ينظر إلى ثقافته الضحلة، أو عقيدته، أو ميوله السياسية، أو مسلكه المذهبى، أو ينظر إلى أسرته ويحاول أن يوجه سهام قوله إلى أى شئ من هذا إن لم يكن إلى ذلك كله، وبالتالى فإن الهجاء أنواع: "قد استعرضنا الشعر العربى [على حد تعبير الكتاب محل النقل] فى هذا الباب فرأينا أنه على أنواع، منها الهجاء الشخصى، يتناول المهجو فى عرضه ونسبه وخلقه وخلقته، والهجاء السياسى وهو ينال من القبيلة والسلطان والسياسة، والهجاء الدينى وهو يعرض للعقيدة والمذهب والدين، والهجاء الاجتماعى، وهو يصف الأخلاق العامة، وطبقات الأمة ويرسم أغلالها، ولعل هذا التقسيم والتبويب قصير الحدود، وطبقات الشمول لا يضم كل ما قيل فى الهجاء، ولكنه قريب أن يصور حال الأدب العربى على اختلاف العصور منذ الجاهلية إلى اليوم فى قوالب محدودة طرقها الشعراء منذ القديم، وعادوا إليها يعبون منها ويردون من وردها"(١).

---

(١) الهجاء لمجموعة من العلماء (ط: دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٨م)، ص ١٠-١١.

ويشير الدكتور شوقى ضيف إلى الجانب الإيجابى للهجاء فيقول[١]: "الهجاء يسهم فى كشف العيوب التى يذم الأفراد لسببها، وهو بذلك ينبه هؤلاء الأفراد بشكل غير مباشر إلى تجنب هذه العيوب ليكونوا فى مأمن من رمى الهجائين وطعنهم، ففى فن الهجاء إحصاء للعيوب والمثالب، وهى فى الحقيقة مثالب المجتمع وعيوبه، فهو فى الظاهر هجاء وفى الحقيقة إصلاح وتهذيب وتقويم لكل اعوجاج فى المجتمع سواء ما اتصل بالفرد أو ما اتصل بالجماعة".

وأنا بالطبع أميل إلى ما قاله الدكتور شوقى ضيف إذا كان الشاعر يريد إصلاحا، وقد يكون الشاعر يهدف إلى شئ آخر وهو مجرد الطعن على المهجو فى شئ مما ذكر، وقد يكون الشاعر محقا هذا الذى أشار إليه الدكتور شوقى ضيف وقد يكون غير محق، إذا حاول أن يتخذ – من أشياء ليست صحيحة – مجالا لأن يطعن المهجو فيما يريد من عرض أو أخلاق أو خلقة أو غير ذلك مما يكون هذا الفن له، حتى أن بعض الشعراء يميلون إلى الهجاء لطبعهم فإن فقدوا من يهجونه هجوا أنفسهم (الحطيئة) وإلى مثل هذا لا يرى الدكتور شوقى ضيف أن فى شعره رغبة فى الإصلاح.

وإلى نفس الهدف ونفس الفلسفة لشعر الهجاء التى ذكرها الدكتور شوقى ضيف مال الدكتور محمد محمد حسين حيث يقول[٢]: "إن الهجاء قوة بنائية إلى جانب هذا المظهر الهدام الذى ما يطالع المتصفح له، فالشاعر حينما يهاجم شخصا من الأشخاص أو نظاما من النظم، أو نزعة من النزعات، يتصور فى حقيقة الأمر

(١) فصول فى الشعر ونقده، للدكتور شوقى ضيف (ط: دار المعارف، القاهرة، ١٩٧١م)، ص ٢.

(٢) الهجاء والهجاؤن فى الجاهلية، للدكتور محمد محمد حسين (ط: مطبعة أحمد مخيمر ١٩٤٧م)، ص ١٩.

حياة أخرى بأشخاصها ونظامها وأسلوبها، فى مثله الأعلى الذى يطمح إليه ويدعوا له. فالهجاء له فلسفة فى الحياة يريد أن يؤديها إلينا".

وفى ضوء ما مضى نستطيع أن نقول: إن فن الهجاء بشكل مطلق ليس بتعبير عن وجوه القبح واليأس كما إنه ليس بتجسيد للشعور بالنقص أو الاحتقار والاستهزاء فحسب، بل يتسم فن الهجاء بالسمة الإصلاحية عندما يصدر شعر الهجاء عن نفوس تحمل عواطف نبيلة، أما النفوس الحاقدة اللئيمة فلا تصدر عنها إلا هجاء متسما بالأنانية والسخرية، وهذا هو النوع الذى استثنيت بعد ذكرى لرأى الدكتور شوقى ضيف، وفى هذا يقول الدكتور إبراهيم سلامه[١]: "إن الهجاء إذا صدر عن عاطفة صادقة وعبر عما يحسه الشاعر من صراع نفسى وألم ذاتى لا يمكن عده قبيحا أو رديئا أو عملا شريرا، فما وجه القبح فى الهجاء إذا كان المهجوون يتصفون حقا بما يهجون به... فإذا جمع إلى هذا الموضوع الجميل أداء جميلا مؤثرا فقد اكتملت للهجاء سمات الفن المتكامل ويكون الهجاء عندئذ مؤديا لوظيفته".

ويقول الدكتور محمد النويهى مشيرا إلى هذين الجانبين للهجاء[٢]: "فالهجاء يؤدى وظيفته حين يصدر عن حس صادق، فحين يغضب الشاعر على رجل فينفس عن هذا الغضب فى قصيدة ينظمها يكون قد أنتج إنتاجا أدبيا، لأنه يهدف من وراء هذا الإنتاج التنفيس عن انفعاله، وإزاحته عن صدره من خلال صورة تحمل سخطه وانفعاله إلى متلقيها بحيث تثير فيه كلما اطلع عليها نظير ما ثار بصدر الشاعر".

فالهجاء فن شعرى يجرى بين البشر جريان الماء فى العود وذلك لأنه رد فعل لإحساس الإنسان، فالإنسان بطبيعته إذا رضى قال أحسن ما علم وإذا غضب قال أسوأ ما علم، والشاعر أوفق الناس تعبيرا عما فى نفسه من إحساس ونقلا لمشاعره لمخاطبيه، وتختلف أسباب الرضا ودوافع السخط باختلاف البشر فمن

---

(١) تيارات أدبية، للدكتور إبراهيم سلامه (ط: مطبعة أحمد مخيمر، ١٩٥٢م)، ص ١٢.
(٢) وظيفة الأدب، للدكتور محمد النويهى (ط: الرسالة، القاهرة، ١٩٦٧م)، ص ٧٣.

الناس من يكون رضاه متعلقا لطلب الدنيا من مال أو درجة أو أى نوال يناله من ممدوحه فإن استطاع أن يحصل منه على ما يريد كال له ألفاظ المديح كيلا، وإن لم يجد عنده بغيته وفقد الأمل أن ينال خيره وبرّه سكت عن المديح وربما هجاه، وما يقال فى أسباب الرضا واختلافها يقال فى أسباب الغضب واختلافها أيضا من شخص إلى شخص، وشاعرنا لا يتعلق بأغراض الدنيا ولا يتطلع للنوال منها، لذلك كان مدحه لأهل الصفوة الذين عرفتهم وهم أولئك العلماء الأفذاذ وأهل التقى والخير الذين عرض لهم بمديح، وذكر علاقة بينه وبينهم، وربط كل ذلك بمدح المصطفى - صلى الله عليه وسلم - سيد العلماء، وسيد أهل التقوى والخوف من الله تعالى، إلى غير ذلك مما يقال فى هذا المجال.

وكما كان عقله المستنير ودينه الحنيف هو الفيصل فى المدح كان أيضا الفيصل فى الهجاء، فمن خرج عن الدين وزاغ وضل وأضل فهو الأولى بأن يعرض له هاجيا محذرا عقاب الله وعذابه إذن فهو متدين متعقل فى هجائه، ولم يكن إقدامه على نظم الهجاء إلا دفاعا عن الشريعة الإسلامية الغراء، وبالتالى مقاومة الفرق المخالفة لإجماع أهل السنة والجماعة، وبيان ما ابتدعوه والقيام بالرد عليهم فى ضوء القرآن والسنة والإجماع والقياس، وعندما نطالع ما نظمه شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان فى الهجاء نجد أن هذه الظاهرة ليست بالأمر المستبعد حيث إن شاعرنا كان من رجالات ديننا الحنيف، ومن المدافعين عن العقيدة الإسلامية الصحيحة، فكما ذكرنا من قبل - فى الفصل الأول من الباب الأول - أنه كان لانهيار الدولة الإسلامية والقوة العسكرية لمسلمى شبه القارة الهندية وبسط الاستعمار البريطانى سلطانه عظيم الأثر فى تردى أحوال مسلمى شبه القارة الهندية، وقد ترتب على هذا - بدسائس من المستعمر - وقوع الخلاف بين المسلمين أنفسهم، ووصل هذا الخلاف إلى المسائل العقائدية، فكان شاعرنا الفقيه والداعية الإسلامى الشيخ أحمد رضا خان من بين المتقدمين - من زعماء الصوفية - لكل من شكك فى العقائد الصحيحة لأهل السنة والجماعة، وقد رأينا هذا فى كثير من مؤلفاته النثرية، وامتد هذا أيضا إلى ما نظمه من شعر باللغات العربية

والفارسية والأردية، وبالنظر إلى هذا الجهد الكبير الذى قام به شاعرنا خدمة للإسلام والمسلمين فى موطنه - شبه القارة الهندية - رأينا ثلاثة من أكابر العلماء والمعاصرين فى باكستان والهند يتصدون لدراسة الدور المهم الذى لعبه شاعرنا فى هذا المضمار، وكان للأبحاث العلمية القيمة التى كتبوها فى هذا المجال الأثر العظيم فى علماء العرب، ونسوق لذلك مثلا، الشيخ الجليل السيد يوسف السيد هاشم الرفاعى أحد أكابر العلماء والوزراء السابقين بدولة الكويت، فقد تأثر بفكر شاعرنا وبالأبحاث العلمية القيمة التى كتبها هؤلاء العلماء، فوجدناه يكتب حول بيان إسهامات شاعرنا فى الرد على الفرق المخالفة لإجماع أهل السنة والجماعة يقول[١]: "اطلعت على هذه الرسالة الجيدة التى كتبها الدكتور محمد مسعود أحمد المجددى الخاصة ببيان موقف العلامة المرحوم الشيخ أحمد رضا خان البريلوى من البدع والانحرافات التى كانت سائدة فى عصره وكيف أنه كان معارضا لها، وأفتى بمخالفتها وعدم جوازها استنادا إلى ما توصل إليه من أدلة شرعية من جهة رأيه واجتهاده فى تلك المسائل التى عرضت عليه واستفتى فيها، إن المطلع على هذه الرسالة يتبين له أن الشيخ أحمد رضا خان كان غيورا على الدين والشريعة الإسلامية الغراء، ولم يكن مجاملا للناس فى تقاليدهم وأهوائهم".

ومما تجدر الأشارة إليه أن الشيخ أحمد رضا خان كان صوفيا تقيا وشيخا مرشدا فلابد أن يكون شديد الوقوف فى وجه البدع التى تسللت وانتشرت فى عامة المسلمين باسم التصوف وذلك بسبب من المنتسبين إلى التصوف بالاسم فقط، ومن هذا المنطلق وجدناه فى بداية الأمر ناصحا إياهم بالعدول عن مسلكهم وترك ما هم عليه من بدع تشوه صورة التصوف، وبعدها وقف فى وجه هؤلاء.

وكان له موقف كذلك ممن فرقوا بين الشريعة والطريقة، وفضلوا الطريقة

---

(١) دور الشيخ أحمد رضا خان فى مقاومة البدع والرد عليها، للدكتور محمد مسعود أحمد المجددى (ط: أكاديمية رضا بلاهور، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م)، ص ٣، تقريظ فضيلته على الرسالة المذكورة.

على الشريعة فوجدناه يسدى النصح لهؤلاء جميعا ويبين لهم الخطأ الجسيم الذى وقعوا فيه يقول[١]: "إن الأصل هو الشريعة، أما الطريقة فهو فرع لها، إن الشريعة هى المنبع الأم وقد تفجر منها بحر الطريقة، ومن المحال أن تنفصل الشريعة عن الطريقة، إن الشريعة الغراء هى أساس الطريقة، ولا يتجلى امام المريد طريق الوصول إلى الله إلا بالسير وفق منهج الشريعة، ومن سلك غيره هلك وضل عن جادة الصواب، وإن الطريقة هى فرع بل الفرع الأساس لهذه الشريعة، وكل ما يتجلى لدى المريد من انكشافات فى طريقه ليس إلا فيضا من الشريعة الغراء، وثمرة اتباع الشريعة هذه، وإن الطريقة دون الشريعة ليست إلا زندقة وردة".

ومما هو جدير بالذكر أن أحد المنتسبين إلى الصوفية - فى زمن شاعرنا - أقدم على تجويز سجدة التحية للصالحين، وعندما سئل شاعرنا الفقيه عن رأى الإسلام فى هذا الموضوع وجدناه يقدم على الرد على هذا السؤال بكتابة كتيب[٢] تحت عنوان: "الزبدة الزكية فى تحريم سجود التحية" أوضح فيه بالأدلة القاطعة التى لا تحتمل الشك رأى الإسلام فى هذه المسألة.

وفى ضوء ما ذكرنا نقول إن الشيخ أحمد رضا خان كان طبيبا ماهرا استطاع تشخيص أمراض الشعب المسلم فى شبه القارة الهندية - تلك الأمراض التى قام بنشرها بينهم المستعمر الغاشم بدافع من تفريق جماعتهم مستعينا بأولى الميول والهوى ذوى النفوس الضعيفة - وبعدها قدم الدواء الشافى من تلك الأمراض، وقد تبلور هذا الدواء فيما كتبه ونظمه باللغات الثلاثة، ولما كان موقف كثير من

---

(١) مقال العرفاء بإعزاز شرع وعلماء، للشيخ أحمد رضا خان (ط: نورى كتب خانه لا هور. ١٣٢٨هـ)، ص ٨.

(٢) هذا الكتيب فى فصول ثلاثة، اختص الأول منها بإيراد الأدلة من القرآن الكريم الخاصة ببيان تحريم سجود التحية للصالحين وقبورهم، والفصل الثانى أورد فيه أربعين حديثا لتأكيد الحكم الشرعى حول هذه المسألة، والثالث يشتمل على مائة وعشرة نصا فقهيا لأكابر السلف الصالح والخاصة بهذه المسألة.
انظر: الزبدة الزكية لتحريم سجود التحية، للشيخ أحمد رضا خان (ط: نورى كتب خانه لاهور سنه ١٣٣٠هـ)، ص ٣٦ : ٥٦.

المخالفين لإجماع أهل السنة لم يتغير فيعودوا إلى الطريق الصحيح وجدنا شاعرنا يستخدم أسلوبا آخر وهو أسلوب الهجاء - فكأنه يقوم بعملية جراحية - فأقدم على هجاء هؤلاء، ومما يلفت نظرنا ويعد ظاهرة فيما كتبه من نثر وشعر أننا لا نجد عنده هجاء حقيرا ولا أسلوبا نابيا، فلسانه برئ من كل ما يوصل إلى الفحش والبذاءة وذلك لأنه لسان عالم شاعر في الوقت نفسه، فهو قبل كل شئ رجل دين يرعى حرمة لسانه ويقدم الموعظة الحسنة، وما كان هجاؤه لهؤلاء إلا من أجل رغبته فى أوبتهم إلى الطريق الحق وعودتهم إلى صوابهم، وإلى العقيدة الإسلامية الصحيحة لكى يقفوا مع إخوانهم فى وجه عدوهم المشترك.

لقد حاولنا دراسة فن الهجاء بما له وما عليه، وبالتالى عرفنا عن إقدام شاعرنا على توظيف هذا الفن الذى يظهر المثالب ويفصح عن العيوب وذلك للأغراض الإصلاحية، فإنه لم يهج أحدا للدوافع الشخصية وإنما كان هجاؤه لتقويم الفكر والأخذ بيده إلى السير تبعا لمنهج الشريعة الغراء - كما أسلفت - فرأيناه يهجو الأشخاص تارة والفرق الزائغة تارة أخرى، وسوف تكون لنا عدة وقفات متتبعين كل ما قاله شاعرنا فى فن الهجاء، وعدد أبياته ست وأربعون بعد المائة من الأبيات، الوقفة الأولى: فى هجاء مولانا عبد البارى الفرنجي محلى، والوقفة الثانية: فى هجاء القائلين بإمكان كذب الله - تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا -، الوقفة الثالثة: فى هجاء أشخاص لم يذكرهم بإسم، الوقفة الرابعة: مقطوعته وشعره الفرد فى الفرق الزائغة، الوقفة الخامسة: قصيدته فى الخارجين على إجماع أهل السنة، فأقول وبالله التوفيق:

الوقفة الأولى

فى هجاء
مولانا عبد البارى الفرنجى محلى اللكنوى[١]

مما هو معلوم فى شأن مولانا عبد البارى الفرنجى محلى أنه كان من أكابر رجالات أهل السنة والجماعة، ليس فى مدينة لكنو وحدها بل فى سائر شبه القارة الهندية، وقد حاز منزلة كبيرة بين العامة والخاصة، إلا أن السياسة قد استطاعت أن تجذبه إليها، والذى يخوض فى بحر السياسة من الممكن أن يتعرض لأهوال هذا التيار أو ذاك، فما أكثر تيارات هذا البحر، وعندئذ قد تغيره السياسة تغيرا ما كان أحسن لو أنه تجنب السياسة حتى لا تؤثر فى أهم ما كان يزينه وهى عقيدته، فقد سلك طريقا مغايرا للسواد الأعظم من المسلمين فى شبه القارة الهندية حيث إنه والى زعيم الهندوس وأيد أقواله فى ضرورة التضامن بين المسلمين والهندوس تحت فكرة القومية الواحدة، على أننى عرضت هذه الفكرة وبينت مساوءها والنوايا

(١) هو مولانا محمد عبد البارى بن مولانا عبد الوهاب بن مولانا محمد عبد الرازق الفرنجى محلى اللكنوى، ولد فى الخامس والتسعين من القرن الثالث عشر للهجرة وذلك بمدينة فرنجى محل الواقعة فى لكنو، ودرس أكثر العلوم الإسلامية على يد مولانا عبد الباقى الفرنجى محلى، كما درس بعض المواد العلمية على يد مولانا عين القضاة الحيدر ابادى، سافر مولانا عبد البارى للحج فى الثانى والعشرين من القرن الرابع عشر للهجرة، فقصد المدينة المنورة بعد أداء فريضة الحج حيث تتلمذ على يد العلامة على بن ظاهر الوترى، والعلامة أمين الدين ابن رضوان، والعلامة أحمد البرزنجى المدنى، كما حصل على الإجازة فى الحديث والطرق الصوفية من شيخ المشائخ عبد الرحمن البغدادى، وعند العودة من الحرمين الشريفين أخذ يدرس العلوم الإسلامية والعربية، وكانت له اليد الطولى فى علوم كثيرة، توفى إلى رحمة الله فى الرابع من شهر رجب من الرابع والأربعين من القرن الرابع عشر الهجرى.
انظر: تذكرة علماء أهل سنت، لمولانا محمود أحمد القادرى، ص ١٧٣، ١٧٤.

السيئة التى دست فيها، وذلك فى الفصل الأول من الباب الأول، وكانت فكرة التضامن بين الهندوس و المسلمين أثيرت من أجل إقامة دولة واحدة لهم فى شبه القارة الهندية. وقد كانوا يتطلعون إلى ذلك بعد طرد الاستعمار البريطانى منها، وفى تلك الفترة جاء بأقوال تمس العقيدة الإسلامية، فانبرى له إمام أهل السنة والجماعة شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان ناصحا إياه بالعدول والرجوع عن تلك الأقوال. وعن هذه القصة يحدثنا الأستاذ حازم محمد محقق ديوان بساتين الغفران قائلا[١]: "إن مولانا عبد البارى الفرنجى محلى كان عالما متبحرا بل رئيسا لعلماء مدينته فرنجى محلى فى عصره، وكان ينتمى إلى أسرة علمية عظيمة، وقد لقبه الشيخ أحمد رضا خان بلقب "الفاضل الأكمل" كما كانت بينهما روابط المحبة والمؤانسة. وكان القائد السياسى الشهير - لعموم الهند - محمد على جوهر، وشوكت على من مريديه، ولما بدأ رئيس الهندوس غاندى حركة ترك الموالاة بعنوان استخلاص الوطن عن الاستعمار البريطانى شارك معه الشيخ عبد البارى الفرنجى محلى وأيده فى شأن التضامن بين المسلمين والهندوس، وفى أثناء هذا صدرت منه عبارات بلغ عددها واحدا بعد المائة[٢] انتقدها الشيخ أحمد رضا خان وراسله قائلا: "إن هذه عبارات كفر وأقوال ضالة، ولابد من التوبة والرجوع عنها، ولكن أخذت العزة الشيخ عبد البارى فحاول ألا يسمع لما أبداه الشيخ أحمد رضا خان وقام بتأويل بعض آيات من القرآن الكريم، وبعض الأحاديث النبوية الشريفة لتتماشى وتتوافق مع ما تفوه به من عبارات، عندئذ قام الشيخ أحمد رضا خان بإرسال ثلاثة خطابات فى فترة وجيزة إلى مولانا عبد البارى وأدرج فيها الأبيات

---

(١) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١٨٦، ١٨٧.

(٢) انظر هذه العبارات ضمن خطابات أرسلها الشيخ أحمد رضا خان إلى مولانا عبد البارى الفرنجى محلى فى كتاب: مكتوبات إمام أحمد رضا خان بريلوى مع تنقيدات وتعاقبات رتبه الأستاذ الدكتور محمد مسعود أحمد (ط: مكتبة نبوية لاهور ١٤٠٨هـ).

المذكورة بمتن الديوان بساتين الغفران، وعددها ستة عشر بيتا باللغة العربية، وبالإضافة إلى أبيات كثيرة باللغة الفارسية، ومن حسن إخلاص مولانا عبد البارى أنه رجع أخيرا عن تلك الأقوال – التى نبه عليها الشيخ أحمد رضا خان – عند مقدم مولانا محمد حامد رضا خان إلى مدينة لكنو حيث أعلن مولانا عبد البارى أثناء اللقاء رجوعه عما صدر منه من أقوال مخالفة للشرع الحنيف، كما اعترف وصرح بصحة كل ما أبداه الشيخ أحمد رضا خان، وكان هذا فى العام الخامس والعشرين بعد التسعمائة والألف للميلاد، وبالطبع بعد وفاة شاعرنا".

وهذه القصة تبين إلى أى مدى كانت غيرة شاعرنا وسرعته فى التصدى لكل ما يخالف الشرع الحنيف، لذا وجدناه يقدم على إبداء النصح لمولانا عبد البارى، وبعد ما علم وتأكد من عدم رجوعه عما قاله من أقوال مغايرة للشرع الحنيف نظم شاعرنا هذه الأبيات فى منظومات ثلاثة، وبمطالعتها يتجلى لنا أن ناظمها لم يقدم على هذا العمل لغرض دنيوى أو خلاف شخصى، إنما كان دفاعا عن شريعة الإسلام، وحثا للعلماء ورجالات السياسة من المسلمين على عدم موالاة أهل الكفر، ففى بداية منظومته الأولى التى نظمها من مجزوء الرجز يحرص شاعرنا على سرعة إقدام مولانا عبد البارى ومن سار على منواله من ساسة المسلمين كى يعلنوا توبتهم لأن شاعرنا يخشى العقاب فى الآخرة الذى أعد لمن خرج عن إجماع الأمة بشأن موالاة الكفار، بل يبين كذلك أن هذا العقاب سوف يصيبه جزء منه أيضا فى الدنيا إن لم يعدل عن أقواله ففى هذا يقول الشيخ أحمد رضا خان[١]:

"اعصيبة النوافر ... لا تكفرى بالغافر
اخشى جزاء من كفر ... الله مخزى الكافر
أتائب وخائب ... أم خائف كالظافر"

---

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان، ص ١٨٥.

ثم بعد هذه الأبيات نجده ينتقل إلى غرض آخر ألا وهو الحديث عما من الله عليه من نعم فإن شاعرنا لا يتحدث عنها فخرا ولا كبرا بل يتحدث عنها من باب **وأما بنعمة ربك فحدث** [١]، فيقول شاعرنا إنه بفضل الله - تبارك وتعالى - كالعقاب السريع فى حركته وخطفه، والذى لا يترك طائرا فى البستان يثير الصفير فيه، ويقصد شاعرنا بالصفير الإزعاج ويعنى به تلك البلبلة التى تصيب بعض العقول لذلك فهو يتصدى لهم تصدى البازى لأى طائر يثير الصفير، ويرى الشاعر أنه يتمتع بالقوة كالأسد ويراعى الحمر النافرة، وكأنه رمز بالحمر النافرة إلى العقول المتمردة، والحمار من السهل جدا القضاء عليه، كما أن من السهل نفوره ويرى الباحث كأن الشاعر اقتبس من قول الله - عز وجل -[٢]: **كأنهم حمر مستنفره، فرت من قسورة** ، ثم يقول شاعرنا إن الحمر ظنت أنه ليس ثمة من يقفز عليها فتمردت واستعدت للمصارعة ولكنى ذبحتها بكل سهولة وحرية وتمكن الأسد، فلنسمع إليه حيث يقول[٣]:

"بازى سطا فلا ترى — فى أيكة من صافر

راع يراعى كالأسد — كل حمار نافر

فاستثفرت[٤] واستنفرت — ولا ترى من طافر[٥]

نلاحظ أن فى الشطرة الثانية من البيت السابع خطأ مطبعيا فإنه كان من الأنسب أن تكتب "لأخم كالغضافر" حتى تؤدى المعنى، وإلا فإنها لا تؤدى معناها كما يتراءى للباحث.

ثم بعد أن تحدث عن قوة جسده مستخدما أسلوب التشبيه ينتقل إلى الحديث عن قوة حصانه وذلك على غرار الشعر العربى كما كان عليه الحال فى العصر الجاهلى، فتخيل شاعرنا أنه يمتلك حصانا ينفرد عن بنى جنسه وذلك نظرا لقدرته

---

(١) سورة الضحى ٩٣/١١.
(٢) سورة المدثر ٧٤/٥٠، ٥١.
(٣) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١٨٥.
(٤) استثفر ثوبه وبه: لم أطرافه.وأخذها من بين فخذيه فربطها فى وسطه، وذلك حين الاستعداد للمصارعة ونحوها، المعجم الوسيط، لصفوة من العلماء، ج ١، ص ١٠١.
(٥) طفر اللبن طفرا : صارت له طفرة. وفلان طفرا: قفز المرجع السابق، ج ٢، ص ٥٧٩.

على رد كل باغ خارج عن إجماع الأمة بما لهذا الحصان من حافز قوى وسرعة خارقة، كناية عما من الله به عليه من قوة يستطيع أن يواجه بها أهل الضلالة والزيغ، وكأنه يشبه قلمه السيال بهذا الحصان القوى السريع، وفى هذا يقول[١]:

ولى حصان راكض لحفظ نور سافر
إذا علا رأس بغى يرضه بحافر
جاء معفرا لكل غادر وخافر

لطافة فى الأسلوب ودقة فى التركيب واستعارة مستملحة صرح بها ورشحها وقواها، فقد جاء أسلوبه على سبيل الاستعارة التشبيهية المرشحة وذلك لأنه شبه قلمه بالحصان واستمر يعدد صفات المشبه به بعد أن حذف المشبه، وبالتالى فقد وقعت له هذه الاستعارة التصريحية المرشحة بأكثر من صفة من صفات المشبه به، لذلك رأيتها فى نظرى استعارة حسنة.

هذا ما أراده شاعرنا من المنظومة الأولى التى هجا فيها مولانا عبد البارئ وكان هدف شاعرنا طلب الرجوع عما بدا من مولانا عبد البارى من أقوال.

ننتقل إلى المنظومة الثانية وهى عبارة عن ثلاثة أبيات من البحر الوافر فى نفس الغرض، وإن كنا نلحظ أن شاعرنا قد يئس من توبة عبد البارى وتشاور فى أمره مع رجالات الدين من أهل السنة والجماعة، فأعلنوا أن من يتفوه بما قاله عبد البارى يعد خارجا عن الإسلام، لذا وجدنا شاعرنا يعبر عن هذا الإجماع مع حرصه على عودة مولانا عبد البارى إلى حظيرة الإيمان فيقول[٢]:

كفرت وقد نفرت فبالهدى صن فؤادك من لظى أو فى لظى كن
وأن الله موهن كيد كافر ألا فارجع إلى الإسلام أوهن
فلست الآن إلا كيد غادى يكيد بك المريد والذى جن

---

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١٨٥.
(٢) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٢٠٠.

ففى هذه الأبيات نجد شاعرنا يخبر مولانا عبد البارى بفتوى العلماء، وكأنه يقول ليس هذا رأيي وحدى وإنما هو فتوى العلماء، كما يبين له العاقبة فى الدنيا والآخرة إذا أصر على أقواله الخارجة عن إجماع الأمة، وفى نفس الوقت نجده يتوجه له بالنصح كى يصون قلبه ونفسه وكى يعود إلى الإسلام، ويترك موالاة غاندى وأتباعه من الهندوس، ونلاحظ هنا الاقتباس من الآية القرآنية[١]: **وأن الله موهن كيد الكافرين** .

وعندما ننتقل إلى المنظومة الثالثة والتى تشتمل على بيتين من مجزوء الرجز نجد أن شاعرنا يتوجه بالنصح إلى مولانا عبد البارى بأسلوب غير مباشر وذلك بهجاء بعض الناس من رجالات الدين الذين جانبوا الدقة والصواب حيث إنهم اتخذوا زعيم الهندوس غاندى قائدا لهم متناسين قول الله عز وجل[٢]: **يأأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا، ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون** وقال تعالى[ ]: **يأأيها الذين آمنو لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا** وللأسف أن بعض رجالات الدين ظلوا تحت لواء غاندى حتى آخر حياتهم، وللعلم أن مولانا عبد البارى كان قد تاب ورجع عن سلوكه هذا، وإن كانت توبته بعد رحيل الشيخ أحمد رضا خان فهى نتيجة لنصحه المخلص ولو كانت فى حياته لاغتنمها شاعرنا، وأعتقد أنه لم يكن ليترك هذه الفرصة إلا أزال بمدحه ما كان قد تركه من هجائه، ونلحظ أن شاعرنا فى هذين البيتين كأنه يذكر مولانا عبد البارى علمه الكبير وذكاءه الفائق، إذا كان ذكاؤه فائقا فأين ذهب عند اتباعه لغاندى، لا شك أنه عطل واحتجب هذا العقل عن أن يحكم فى الأشياء حكمه المعتاد. المفعم بالذكاء والإدراك، ولكن ضلالته نابعة

---

(١) سورة الأنفعال ١٨/٨.
(٢) سورة ال عمران ١١٨/٣.
( ) سورة النساء ١٤٤/٤.

من ذلك الشيطان الذى استأثر بفكره، وسيطر على ظاهر عقله، ذلكم الشيطان المسمى "غاندى"، قال شاعرنا عجبا من الرجل المضروب بالعصى من شجرة الدوم ضربا قويا ولكنه مع هذا لم يتعظ فليس هناك غباء أكثر مما وجده شاعرنا فى البليد الغوى المشار إليه، وهنا شاعرنا لم يقصد الضرب الحقيقى بل قصد الضرب السياسى الذى أصاب المسلمين من مكر وكيد زعيم الهندوس غاندى، ولكنهم مع هذا لم يتنبهوا إليه، وفى هذا يقول[١]:

"بالدوم ضرب قوى | ينسى ولا يرعوى
ما ثم عجما كذا | إلا البليد الغوى"

وهذا منه يدل على ما كان له من حرص شديد على جميع علماء الدين الإسلامى من معاصريه ونصحه إياهم، وخوفه عليهم من مكر الهندوس - كما هو معلوم وذكرناه من قبل - وإن مولانا عبد البارى كان من علماء أهل السنة والجماعة، وقد وقع فى مكر الهندوس كما وقع غيره من الأدباء والساسة أمثال القائد الأعظم محمد على جناح وشاعر الإسلام محمد إقبال، إلا أنه بعد فترة يسيرة تبين للجميع مدى مكر وخداع هؤلاء الهندوس مما دفع هؤلاء المسلمين إلى استقالتهم من حزب المؤتمر الهندى والتنصل من كل ما كانوا يدعون إليه، ولم الشعث، وجبر الكسر، واحتواء المسلمين جميعا فى جمهورية واحدة تضمهم، ألا وهى جمهورية باكستان الإسلامية حتى لا يضيع المسلمون أمام سيل الهندوس الذين يعملون لصالح عقيدتهم ويرون كل ما عداها باطلا يجب دحضه، جزى الله السياسة ما جزاها بقدر ما جعلت بعض المسلمين يسيرون هذا السير وهم يظنون أنهم يسعون لخير بلادهم، بعضهم تناسى عقيدتهم مثلما كان الحال فى هذا المهجو - مولانا عبد البارى الفرنجى محلى - وإن كان قد تاب بعد ذلك وأقلع عن خطئه، وأناب إلى رشده، وهذا من فضل الله تعالى على الإسلام والمسلمين أنه من زاغ عن الصواب وانحرف عن جادة السبيل فإنه لا يلبث أن يعود إلى رشده مرة

---

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان، ص ٢٠٩.

أخرى. إن شئت فقل: لنور الإسلام الذى غذى هذا القلب"، أو هو فضل الله تعـــالى وعطاؤه لأهل الإسلام، أو هما معا ولم لا والله يفعل ما يريد. وبفضـــل الله تعــالى ورحمته على المسلمين سعى الجميع بعد هذا إلى تشكيل ما عرف فيما بعد بالرابطة الإسلامية التى كانت السبب الأكبر فى إنشاء جمهورية باكستان الإسلامية فيما بعد، وكان هذا بفضل توجيهات شاعرنا وأمثاله من العلماء والمشايخ العاملين بالكتــــاب والسنة.

الوقفة الثانية

فى هجاء القائلين بإمكان كذب الله تعالى الله علوا كبيرا عما يقولون

إن أول ما يصادفنا فى هذا القسم هو قيام شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان فى وجه القائلين بإمكان كذب الله تعالى، ومن المعلوم أن شبه القارة الهندية شاهدت فى عصر شاعرنا نشأة أكثر من طائفة انحرفت عن الجادة، ومن بين أولئك القاديانية وطائفة أدعت كذبا بإمكان كذب الله – تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا – وكان من الطبعى أن يتصدى شاعرنا الفقيه لهؤلاء المبتدعين لهذه الفكرة فألف كتابا فى الرد عليهم تحت عنوان: "سبحان السبوح عن عيب كذب مقبوح" وقد أوضح شاعرنا أن هؤلاء – مع ادعائهم بتوحيد الله تعالى – يعتقدون خطأ بهذه المسألة، عتقد أن شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان كان يرى أن هذه الطائفة بنى فكرها متشبعا بشئ مما مال إليه المعتزلة، وشاعرنا لا يميل إلى آراء المعتزلة بل ينتحى بفكره إلى رأى أهل السنة والجماعة، وبالتالى فهو يرى أن البعد من رأى أهل السنة هو خسران مبين(١)، على أن المجال ليس إلا بحثا أدبيا، وقد عبر شاعرنا عن أسفه وموقفه من هذه الطائفة فى ثلاثة أبيات من مجزوء الكامل، ولنسمع إليه حيث يقول:

"خسر الذين بالاعتزا ل وبالتوهب جاؤا

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان، ص ١٤٧، ١٤٨.
وانظر: سبحان السبوح، للشيخ أحمد رضا خان (نورى كتب خانه لاهور سنة ١٣٧٧هـ)، ص ٤٧.

ذا أهـل توحيـــد ذا ك موحد غـــواء

نعم القلوب تشـــابهت فتناسب الأســماء"

وعن هذه الأبيات الثلاثة التى أوردها شاعرنا ضمن كتابه المشار إليه ما وقع فيه من اختلاف فى الجزء الثالث من ديوانه الأردى يقول الأســتاذ جــازم محمــد محقق بساتين الغفران (الديوان العربى للشيخ أحمد رضا خان)(١): قد درجت هــذه الأبيات ضمن الجزء الثالث من ديوان حدائق بخشش [حدائق العطــاء]... وعنــد مراجعتى إياه وجدت هناك اختلافا فى بعض ألفاظ الشطرة الأولى من البيــت الأول وكذلك الشطرة الأولى من البيت الثالث، وهما كالآتى:

" تعسا لمن بـالاعتزا ل وبالتوهب جـاؤا

تشــابهت قلوبــــهم فتناسب الأســماء"

وفى ضوء هذا يتجلى لنا الدافع الحقيقى من وراء إقدام شاعرنا على تنـــاول الهجاء غرضا فى منظوماته العربية، فهو يقدم علي هجاء من جاءوا بمـــا ينــافى الشرع الحنيف.

وعندما لم يجد شاعرنا استجابة من هؤلاء الناس للرجـــوع إلــى الصــواب وأعلنوا تمسكهم بأقوالهم المنافية للإسلام – وجدناه فى هجائه يتخذ لونا آخر، وهــو ما اتفقت عليه آراء علماء أهل السنة والجماعة من إعلان فتواهم بضلال هـــؤلاء، وقد عبر شاعرنا عن هذا الإجماع فى رباعية من بحر الوافر يقول فيها(٢):

"فكفر فوق كفر فوق كفر كأن الكفر من كثر ووفــر

---

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١٩٢.
وانظر سبحان السبوح، للشيخ أحمد رضا خان، ص ١٠٣.

(٢) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١٩٢.

كماء آسن في نتن وفر تتابع قطرة من ثقب كفر"

وقد فسر ما نظمه شاعرنا باللغة العربية قائلا: "إلا أن الأئمة المحققين، والعلماء المتورعين لا يكفرونهم بل يكتفون بالتضليل، وهذا هو الصواب، وهو الجواب وبه يفتي، وعليه الفتوى، وهو المذهب، وعليه الاعتماد، وفيه السلامة، وفيه السداد".

وفي ضوء هذا نرى ما كان لشاعرنا من اقتداء بما سبقه من علماء الأسلاف مع اجتهاده، فهو في هذه المسألة يأخذ بقولهم ويعدهم من الضالين دون أن يأخذ برأي القائلين بكفرهم، وهذا يبين لنا الوسطية التي كانت تميز شخصية شاعرنا.

ومما يؤكد قولنا أننا نجده يشير إلى معتقدات معاصريه الذين سلكوا طريق المعتزلة فنجده يقول باللغة العربية كذلك[١]: "إن الإمام فخر الدين الرازي ذكر في تفسيره عند تفسير قوله تعالى: **إن الله لا يظلم مثال ذرة** [٢]. إن المعتزلة قالت: الآية تدل على أنه تعالى قادر على الظلم لأنه تمدح بتركه، ومن تمدح بترك فعل قبيح لم يصح منه التمدح إلا إذا كان هو قادرا عليه، ألا ترى أن الزمن لا يصح منه أن يمتدح بأنه لا يذهب الليالي إلى السرقة، والجواب أنه تعالى تمدح بأنه **لا تأخذه سنة ولا نوم** [٣] ولا يلزم أن يصح ذلك عليه، وتمدح بأنه ؛ **لا تدركه الأبصار** [٤].

(١) سبحان السبوح، للشيخ أحمد رضا خان، ص ٥٧.
(٢) سورة النساء ٤/٤٠.
(٣) سورة البقرة ٢/٢٥٥.
(٤) سورة الأنعام ٦/١٠٣.

وفى ضوء قوله هذا نرى أن هؤلاء اعتمدوا على ما نقله الإمام فخر الدين الرازى من أقوال وقد أشار شاعرنا إلى هذا حيث يقول[١]:

"هـم آمنـو بظلـم مليكـهم	ذا قـائل بكـذب إلهـه
لاغرو فيه إذا القلوب تشـابهت	فالشبه نزاع إلى أشـباهه"

هكذا تجلى لنا أن شاعرنا الفقيه قد وهب نفسه للوقوف ضد الخارجين عن إجماع أهل السنة، واتبع منهجا مستنيرا فى ضوء إجماع علماء الأمة من السلف الصالح وآراء اجتهادات معاصريه، وما كان يبتغى من وراء عمله هذا إلا وجه الله تعالى وإصلاح المجتمع المسلم، والذود عن العقيدة الصحيحة لأهل السنة والجماعة.

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان، ص ٢٠٤

الوقفة الثالثة

فى هجاء أشخاص لم يذكرهم باسم

نظم شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان سبعة وعشرين بيتا على مرحلتين فى هجاء أناس لم يذكرهم باسم كعادته وكل ما عرفناه عنهم أنهم من المعارضين لمولانا فضل الرسول البدايونى، وقد وردت هذه الأبيات ضمن القصيدة الثانية المسماة بالاسم التاريخى - بحساب الجمل - "مدائح فضل رسول" والتى نظمها فى مدح مولانا فضل الرسول البدايونى[١] وتبدأ هذه الأبيات فى الهجاء بالبيت الحادى والثمانين حتى البيت التسعين، ثم من البيت السادس والأربعين بعد المائة إلى البيت التاسع والخمسين بعد المائة، ويبدأ شاعرنا هذه الأبيات ببيان تعجبه ممن يعارضون ممدوحه مولانا فضل الرسول البدايونى، هذا العالم الجليل الذى أجمع أكابر العلماء على أنه كان إماما لأهل السنة لايدانيه أحد فى عصره، ثم يشير إلى أن هؤلاء المعارضين ما هم إلا أناس من العامة وهم يحسدونه على مكانته التى حباه الله بها، ونجده وكأنه يشير إلى حديث أشراط الساعة وفيه يقول النبى - صلى الله عليه وسلم -[٢] ردا على سؤال جبريل - عليه السلام - عن أمارات الساعة: **"وإذا رأيت الحفاة العراة العالة الصم البكم ملوك الأرض فذاك من أشراطها وإذا رأيت**

(١) أشرنا إلى بيانات هذه القصيدة واسم بحرها فى الفصل الأول من الباب الثانى.
(٢) صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج القشيرى، ج ١، ص ٢٠.

رعاء البهم يتطاولون فى البنيان فذاك من أشراطها" وفى هذا يقول شاعرنا[١] مستهلا أبياته فى الهجاء ضمن القصيدة التى أشرنا إليها آنفا:

"ياللحيا وأرى عراة عالة | يتطاولون عليه فى البنيان
خبطوا فليس عرى السدادتهى | بتجاذب فى الفأر والغربان"

ونلحظ فى الشطرة الثانية من البيت الثانى أن شاعرنا يهجو هؤلاء المخالفين ويشبههم فى أعمالهم بالفأر والغراب، ومن المعلوم للجميع مدى الفساد الذى يقع من هذا الحيوان، وعندما نطالع ما أورده شاعرنا فى حاشية هذا البيت نجده يفسر الفأر والغربان بقوله[٢]: "الفأر من فسقة سكان البيوت، والغربان من فسقة الأطيار فالمراد بالأول أهل التفريط وبالآخر أهل الإفراط، وهم على طرفين من العروة الوثقى يجذبها كل إلى جانبه ليوهنها ولكنها أوثقها الله تعالى" وهى وجهة نظر الشاعر وبعد هذا يصف لنا الشاعر حالة المهجوين بأن اتباعهم لآراء غير سليمة يعد عارا عليهم، وضع الشاعر هذه الأفكار كأنها حبال ربطت بأنوفهم تجرهم إلى فناء وذل. لأن هذه الأرسان من الفناء والذل، ولا ننسى أن هذه القيود قد وضعت فى أنفهم، ومن شأن من وضعت القيود فى أنفه أن يسحب بها على وجهه، ولعله كان يستحضر الآية الكريمة[٣] **ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين** ولا تبدو صورتهم مختلفة عن صورة الذى قيد بأشطان تمنعه عن سلوك طريق الإيمان، ولا شك أن كفره وعناده سبب فى ذلك، وإرادة الله – سبحانه وتعالى – فوق كل شئ، وفى استخدام الرسن والأرسان، والشيطان والأشطان من الناحية اللغوية والمقدرة على الصياغة ما فيه، مما يستلفت أنظار قراء الديوان إلى مقدرة شاعرنا الشيخ

---

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٧٧.
(٢) المرجع السابق، ص ٩٤.
(٣) سورة الأنفال ١٨/٨.

أحمد رضا خان، تلكم المقدرة اللغوية والتي ما نلبث أن نشير إليها كلما دفعنا التعبير إلى ذلك، ولنسمع إلى صوت شاعرنا حيث يقول[١]:

"فتراهم رسنوا بأرسان البلا	والهون كالشيطان في أشطان
فأميرهم وبشيرهم ونذيرهم	كل برمته ربيط هوان
وكذاك سنة ربنا فيما مضى	والحق أبلج عند أهل عيان"

ثم يشير شاعرنا إلى مروق المهجوين عن الدين حيث يقول: إنهم يرددون الشهادتين ولكن قلوبهم بعيدة عن الإيمان بهما والعمل وفق المنهج الحنيف فإن شغلهم الشاغل هو ذكرهم لكبيرهم، ومن الممكن أن يكون مراد شاعرنا بكلمة "كبيرهم" زعيمهم إن كان لهم زعيم، ولماذا لا يكون كبيرهم من ذكر في البيت السابق، ولا عجب أن يكون الشيطان زعيما لمن نادى بأفكار تحيد عن الدين وعن جادة الصواب، ومن الممكن أن يكون زعيمهم هذا ما هو إلا شخصية وهمية، وكل ما في الأمر أنه كان هناك من انحراف فكرة، وخروج عن الدين وأصبح كأنه حجر لا يضر ولا ينفع ولا يميز الخطأ من الصواب، شأنه في ذلك شأن الأصنام التي كسرها خليل الرحمن سيدنا إبراهيم – على نبينا وعليه الصلاة والسلام – فقد كسر الأصنام جميعا إلا أكبر هذه الأصنام، لعل القوم ينتبهون ويرجعون إلى جادة الصواب حين يتبين لهم أن الصنم الذي لم يكسر لا يرد على من يسأله ولا تتأتى منه الشهادة على ما وقع بجانبه، بل كان من الممكن أن يكون التحطيم من نصيبه، ومع ذلك لا يدفع عن نفسه أدنى ضرر[٢]. هذه نظرة الباحث إلى قول الشاعر

---

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٧٧.

(٢) أشارة إلى الآيتين الكريمتين:

(أ) **فراغ إلى ءالهتهم فقال ألا تأكلون، ما لكم لا تنطقون، فراغ عليهم ضربا باليمين فاقبلوا إليه يزفون** سورة الصافات ٣٧/٩١ : ٩٤.

"كبيرهم" حيث لا يوجد أى تعليق من الشاعر حول هذه الكلمة، وفى هذا يقول شاعرنا[١]:

"يتلجلجون بقول أشهد أن كذا	والقلب بين الكفر والكفران
ظلوا وباتوا يذكرون كبيرهم	مطرين لعابين بالإيمان"

وفى هذا يحضرنا حديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو خير مثال لهذا النوع من الإنسان، فكأن شاعرنا اقتبس من هذا الحديث النبوى الشريف، يقول حبيبنا المصطفى – صلى الله عليه وسلم[٢]: « **يأتى فى آخر الزمان قوم أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام، يقرؤون القرآن والقرآن لا يتجاوز تراقيهم، يقولون من قول خير البرية، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية** » قال أبو عيسى: "وفى الباب عن على وأبى سعيد وأبى ذر، وهذا حديث حسن صحيح، وقد روى فى غير هذا الحديث عن النبى – صلى الله عليه وسلم – حيث وصف هؤلاء القوم الذين يقرؤن القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، إنما هم الخوارج والحرورية وغيرهم من الخوارج".

وبعد هذا يشير إلى أمر مثير للأسف أنه وصل بالمهجوين الأمر إلى أنهم عندما يسمعون ذكر النبى – صلى الله عليه وسلم – يجعلون أصابعهم فى آذانهم.

(ب) **وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين، فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون** سورة الأنبياء ٢١/٥٧، ٥٨.

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٧٧.

(٢) سنن الترمذى للإمام أبى عيسى محمد بن عيسى الترمذى (ط: شركة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر ١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م)، جـ ٤، ص ٤٨١.

إذا كان شاعرنا تحدث عن هؤلاء فشبههم بقوم سيدنا ابراهيم - على نبينا وعليه الصلاة والسلام - فأرى أنه شبههم مرة أخرى بقوم آخرين مكذبين، معاندين، مستكبرين عرفوا بمدى تكذيبهم وإعراضهم عن نبيهم - على نبينا وعلى سائر الأنبياء والمرسلين أزكى الصلاة والتسليم - إنهم قوم نوح - عليه السلام - وقد وصفهم شاعرنا بصفة ملازمة لهؤلاء المعاندين، وهى وضع الأصابع فى الآذان وهذه الصفة سواء كانت حقيقية أو كناية عن البعد التام عن الهدى، فلا شك أن شاعرنا يعيب على هؤلاء الذين ينصح لهم، ويدعوهم إلى الجادة، ولكنهم فى إعراضهم وتمسكهم بآرائهم التى تخالف أهل السنة، إنما هم معاندون معارضون يستوى فى ذلك أن يصفهم بأنهم قوم سيدنا إبراهيم أو قوم نوح - على نبينا وعلى سائر الأنبياء والمرسلين الصلاة والتسليم - فالمهجوون على كل حال معاندون معارضون بعيدون كل البعد عن الهداية والطريق المستقيم - كما يتراءى للشاعر - وفى هذا يقول(١):

"وإذا ذكرت نبينا فإذا هم	جعلوا أصابعهم فى الآذان
ما عندهم شوب ولا روب ولا	خير ولا أثر من الإيمان"

وبعد هذا يكف شاعرنا نفسه عن الخوض فى هجاء المذكورين، حيث إن الهجاء ليس غرضا محببا إليه وهنا نجده ينصح نفسه بالالتفات إلى إصلاح عيوبه، ومما يلفت النظر أن أسلوبه فى هذه الأبيات التى نحن بصددها متسم بالتواضع الجم، فهو يبدو عند نظمه الهجاء رجلا متواضعا خاشعا ربه شأنه فى ذلك شأن الشعراء الذين تسلحوا بالعلوم الدينية واتصفوا بالخشية الإلهية، وهذا ما يميزه عن

---

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٧٧.

الشعراء الهجائين الذين وهبوا حياتهم لهذا الغرض ولم يقفوا عند حدود الدين الحنيف فيما نظموا، وفي هذا يقول شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان[١]:

"قم يا رضا لا تغش أهل غشاوة	ذرهم وما هم فيه من خذلان
اشغل بنفسك أنت أجنى من جنى	كم من معاب هن ونصح فلان
تب يا أثيم فقد أظل زمانة	يمحى بها جم من العصيان"

نلاحظ أن كلامه "تب يا أثيم" متوجه إلى نفسه أولا باعتبار أنه كان يتحدث إلى نفسه وإلى المؤمنين عامة بأن كل مؤمن مطالب بالتوبة إلى الله – سبحانه وتعالى – على حد التعبير الأسمى الذى ورد فى القرآن الكريم[٢] **وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون** ومن الممكن أن يكون قوله "تب يا أثيم" متوجها إلى الجماعة التى سبق أن تحدث عن فكرها وانحرافها.

إن شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان بعد هذا التواضع وتوجيه النصيحة إلى نفسه بالإصلاح والتوبة إلى الله تعالى انتقل إلى غرض آخر – غير الهجاء – إلى أن وصل شاعرنا إلى البيت السادس والأربعين بعد المائة، وفيه عاود هجاء هؤلاء مرة أخرى فيقدم على هجاء الحساد والمعارضين لممدوحه مولانا فضل الرسول البدايونى وذلك بعد الإشارة إلى مزايا ممدوحه ومراتبه الرفيعة فيقول[٣]:

تلك العلى تلك المكارم حقة	لاما ادعته عشيرة الإدهان
غروا وغروا غيرهم بلسانهم	هذا اللسان وأين من برهان
هذا المقام فهل قيام ثابت	هذا المكان فهل من استكمان

---

(١) المرجع السابق، ص ٨٦، ٨٧.
(٢) سورة النور ٣١/٢٤.
(٣) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان، ص ٨١.

ففى هذه الأبيات يشير شاعرنا إلى ما كانت تتمتع به شخصية ممدوحه من العلى و المكارم، تلك المكارم التى حسده عليها معارضوه من أهل النفاق – حسب تعبير شاعرنا – الذين يعيشون حياتهم فى خداع لغيرهم، فهم يقولون ما لا يفعلون، وقد نهى الله تبارك عن ذلك، وإلى هذا النهى يشير بقوله تعالى[١]: **يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لاتفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لاتفعلون** بل إنهم يقولون دون الاستعانة بالحجة و البرهان، ثم يشير شاعرنا متأسفا على حالة هؤلاء الحساد قائلا: إن هؤلاء الناس يعرفون بالنتن الذى أثاره الحقد وزيغ العقيدة فى نفوسهم، وفى هذا يقول[٢]:

"أعمالهم أقوالهم أشغالهم ... كل على بعد من القرآن
هم يعرفون بنتن مافيهم كما ... بالعرف يعرف عارف حقانى
الرفض فى جلواتهم و الشرك فى ... خلواتهم و الكفر فى الإجنان"

ومن هنا نستطيع أن نعرف مدى كراهية شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان لأهل النفاق حيث يشعر بالنتن الناشئ منهم، ثم يقول عن هؤلاء الناس: إنهم يدعون أن عبادتهم لله تعالى إلا أنه تعالى غاضب عليهم، ومن العجب أنهم مع هذا يدعون لأنفسهم سيادة الإنسانية، ويزعمون أنهم هداة ورواد، وأن تنفيذ أوامر الله – سبحانه وتعالى – لا تكون إلا بمساعيهم ووجودهم، ويقول: إن ظنهم هذا – على عكس أعمالهم وحسدهم المكنون فى أسرارهم – أداهم إلى التهلكة، وفى هذا يقول[٣]:

"دانوا المقيت بمقته ومقالهم ... مع ذاك إنا سادة الإنسان"

---

(١) سورة صف ٦١/٢، ٣.
(٢) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٨٢.
(٣) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٨٢.

خذلو الشريعة ثم هم سبل الهدى — وبهم قيام الدين فى الأزمـان

هــذاك ظنـــهم الـــذى أرداهـــم — والظن لا يغنى من الإيقــان"

وفى الشعر الأخير اقتباس واضح من الآية القرآنية: **وذلكم ظنكــــم الــذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين** [١] وبعد هذا يشير شاعرنا إلــــى أن من ينصر الدين الحنيف ليس بفاجر، ولا غنى عن الشريعة الإسلامية والتى عــــبر عنها الشاعر بقوله: "نظام دين الله" ثم يحذر المسلمين عاقبة الإنصات إلى المهجوين فيقول: إن من يستعذب أفكارهم ومشربهم لا يجد يوم القيامة غير الحميم، ولا ينجـو باتباعهم سنبلى أو سنانى، لأن شريعة الله لم تأت لمكان معين بل أتــت للمعمــورة كلها، وإلى سائر العباد، ونلاحظ أن قول شاعرنا: "نصير دين الله" و "نظام دين الله" فيه من البديع ما يعرف بالتورية، لأن هاتين الكلمتين لكل منـــهما معنيــان، الأول كلتاهما علم على عالم من علماء المسلمين، وهما من كبار الأولياء الصالحين - كما يعرفهما المسلمون فى الهند - ومن أولئك الذين تولوا نشر الدين ومناصرتـــه فـــى شبه القارة الهندية، وبالطبع هذا المعنى غير مراد، لأن كل العالمين كان فى ضمـن المعنى، وأما المعنى الثانى وهو المراد فهو مناصرة الدين والمحافظة على نظمــــه وتقاليده، وفى هذا يقول[٢]:

"فنصير دين الحق ليس بفـاجر — ونظام ديـــن الله غـــير ددان

ما مذنب يجلو لديـــه مذاقـــهم — إلا أذيق من الحميــم الآنـــى

(١) سورة فصلت ٤١/٢٣.

(٢) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٨٢.

مـا يقتفيهم سنبلى أوشنا	نى فينج بسنبل وشنانى[1]
إذ أن حكم الله ليس بقاصر	والشرع جاء لسائر العمران"

وبعد هذا يعود شاعرنا مرة أخرى إلى نصح نفسه والتواضع لله - سبحانه وتعالى - فإنه لم ينظم الهجاء لهواه وإنما نظمه ليكسب رضا مولاه - جل جلاله - بإسداء النصح للمهجوين وتحذير المسلمين من هؤلاء المارقين عن الإسلام - كما يراهم شاعرنا - فينصح نفسه قائلا: اسكت يا رضا ولا تحزن على هؤلاء المعاندين مركزا عليهم حتى لا تطير بك رياح الأحزان، بل استمر فى النصح وفى أعمالك العلمية الدينية، ولنسمع إليه حيث يقول[2]:

"صه يارضا لا تكترث لحثالة	ستطير فى نسم ونسمان"

ومن هنا نستطيع أن نعرف مدى كراهية شاعرنا للبدع والمبتدعين، كما لاحظنا تواضعه لله - سبحانه وتعالى - وسخطه على أهل النفاق، وهذا ما تجلى لنا من أسلوبه فى أشعاره التى أوردناها هنا، ومع هذا لم نستطع أن نعرف المهجوين بالضبط، ولكننا استطعنا أن نعرف حب شاعرنا للشريعة وبغضه للخروج عليها، كما تجلى لنا من خلال هذا الهجاء حب شاعرنا للسالكين سبيل الهدى والمتمسكين لطريق السلف الصالح من العلماء والمشايخ، ومن هنا تتضح دوافع المدح والهجاء لدى شاعرنا العالم الدينى، والشاعر العربى السائر على الشريعة، وبهذا ينتهى نصيب الهجاء فى هذه القصيدة وإن كانت القصيدة لم تنته بعد حيث ينتقل بعد ذلك إلى غرض آخر غير الهجاء.

---

(١) يقول شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان: سنبلى، نسبة إلى سنبل - بالفتح - اسم موضع فى مملكة الروم، وشنانى - بالكسر - اسم واد بملك الشام، المرجع السابق، ص ٩٩ (حاشية).

(٢) المرجع السابق، ص ٨٢.

الوقفة الرابعة

مقطوعته وبيته المفرد فى الفرق الزائعة

لم يكن شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان يغفل عن مسئولية إصلاح الناس سواء كان الإصلاح فى أمور السياسة – كما سبق أن ذكرنا – أو فى أمور شابت العقل واختلطت بالركن الخاص بالعقيدة فأساءت إلى فكر صاحبها وأظهرته وقد اختلطت عليه الأمور مما أصابه بالانحراف فى عقيدته، فكان شاعرنا دائما يستحضر فى ذهنه قول الحق عز وجل[1]: **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن** فلم يكن يقبل على نظم الهجاء أول وهلة بل كان يسلك مسلك النصح وإجلاء الحقائق وتوضيح ما عمى على ذلك الذى حاولت الرياح أن تلقى به بعيدا عن طريق الهدى والرشاد، فإذا وجد مخاطبه متشبثا بزيغه ومصرا على اعوجاجه قام بالرد عليه نثرا فى حين ونظما فى حين آخر، رغبة فى إصلاحه بعد إذاقته بعض مرارة الهجاء، كما كان يرغب فى إنقاذ الآخرين من فكر المهجو، وقد نظم شاعرنا بيتين عربيين ضمن منظومة باللغة الأردية تحت عنوان: "فى الرد على المذاهب الزائغة" وفيها قام شاعرنا بتحذير المسلمين من المهجوين المصابين بالفساد فى عقيدتهم ولعله اختار أسلوب التشبيه فشبههم "بالغرابيب السود" ومن هنا نرى اقتباس شاعرنا من الآية الكريمة ؛ **ومن الجبال جدد بيض وحمر**

---

(١) سورة النحل ١٦/١٢٥.

مختلف ألوانها وغرابيب سود [١] وبالتالى راح يمثل أحدا منهم بأنه مصر على الشر ويائس عن الخير، وراغب فى الزيغ، ومبتعد عن الحق، وفى هذا يقول[٢]:

"غرابيب سود فيــافى ظلمــت أفـاعى بـهم شـعايب عنـاهب

على الشر ناكس من الخير آئس إلى الزيغ راغب عن الحق نـاكب"

نلاحظ فى هذين البيتين نوعا من البلاغة ما يعرف بفن التقسيم، ولنا وقفة مع كلمة "فيافى ظلمت" كان من الممكن أن تكتب بالتـاء المربوطـة وليـس بالتـاء المفتوحة، ولعل شاعرنا كتب بالتاء المفتوحة ايثارا للسكون الذى تحضنه ويحضنها، وتبقى تحت ظله دائما، ولكنه نسى أنه من الممكن أن تكون أيضا بالتاء المربوطـة ويوقف عليها، ولكننى مع كل هذه الاحتمالات أعتقد أن هذا ربما يكون خطأ مطبعيا فإن الخطاطين يكتبون هذه الكلمة بالتاء المفتوحـة فـى الخـط الأردى، وأغلـب الخطاطين لا يعرفون اللغة العربية ودقائقها.

هذا ونظرا لاشتمال البيتين على مفردات تحتاج إلى نظرة إلى معانيها لذلـك يحسن بنا أن نعرض لها من الناحية اللغوية، وفيما يلى هذه المفردات بمعانيها.

غرابيب: جمع غربيب يقول الزبيدى[٣]: (والغربيب بالكسر) ضـرب مـن العنب بالطائف، شديد اللون، وهو (من أجود العنب) وأرقه وأشده سوادا (و) فـى الحديث إن الله يبغض (الشيخ) الغربيب، وهو شديد السواد، وجمعه غرابيـب، أراد الذى لا يشيب، وقيل أراد الذى (يسود شيبه بالخضاب و) يقال (أسود غربيـب) أى (حالك) شديد السواد، (وأما) إذا قلت (غرابيب سود فا) ن (السود بل) من غرابيـب لأن توكيد الألوان لا ينعدم).

(١) سورة فاطر ٣٥/٢٧.
(٢) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٢١٥.
(٣) تاج العروس للزبيدى، جـ ١، ص ٤١٠.

أما كلمة "شعايب" فأراها خطأ مطبيعا وأعتقد أن شاعرنا جاء بكلمة "شعانب" جمع شعنب وفى معنى هذه الكلمة يقول ابن منظور والزبيدى[١] يقال للتيس "إنه نمعنكب القرن" وهو الملتوى القرن حتى يصير كأنه حلقه، والشعنب المستقيم، وقال النصر: الشعنبة أن يستقيم قرن الكبش ثم يلتوى على رأسه قبل أذنه".

أما كلمة (عناهب) فأراها أيضا خطأ مطبعيا، وأحسبها عياهب جمع عيهب، يقول ابن منظور والزبيدى[٢] (العيهب) من الرجال (الضعيف عن طلب وتره) بكسر الواو"

ناكس: يقول فى معناها ابن منظور[٣]: النكس قلب الشئ على رأسه ... ونكس رأسه: أماله ... والنكس: المطأطئ رأسه" وبقيت كلمة نكب فيقول ابن منظور مبينا معناها[٤]: نكب فلان عن الصواب ينكب نكوبا: إذا عدل عنه".

ومن هنا نستطيع القول: إن شاعرنا وصف حالة المهجوين المجهولين جماعة فى البيت الأول فوصفهم بشدة سواد الضلالة وفيافى الظلمة، وبالأفاعى الأقوياء الضارين للإنسان والتيس المعنكب، كأن فى أعناقهم طوق الضلالة، وفى البيت الثانى أقدم على تصوير حالة أحدهم بأنه مصر على الشر، ويائس عن الخير، وراغب فى الزيغ، ومبتعد عن الحق، وكل هذا أثار القلق والحزن فى قلب شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان، فاندفع ينظم هذين البيتين للتنفيس عن قلقه، ومحاولة إصلاح أولئكم المصابين بالضلالة، عسى أن يتنازلوا عن أفكارهم الزائغة.

---

(١) لسان العرب، لابن منظور، جـ ٢، ص ٥٠٤. وانظر تاج العروس، للزبيدى، جـ ١، ص ٣٣٢.

(٢) لسان العرب، لابن منظور، جـ ٢، ص ٦٣٢، وانظر: تاج العروس، للزبيدى، ج ١، ص ٣٣٢.

(٣) لسان العرب، لابن منظور، جـ ٩، ص ٣٤١.

(٤) المرجع السابق، جـ ٢، ص ٧٧٠.

هذا وقد نظم شاعرنا بيتا فى تحذير الناس من إسماعيل الدهلوى الذى بدرت منه بعض عبارات معارضة لشريعة الإسلام، مما دفع الكثيرين من علماء أهل السنة للقيام بالرد عليه، ومن بينهم شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان، ولما لم تكن عباراته ذات الصلة بالأدب العربى وموضوع الكلام، وإنما هى مناقشات فى علم التوحيد رأيت أن أكتفى ببيت الشعر الذى سأعرض له، ومن هذا البيت نستطيع أن نعرف مدى شدة الرغبة لدى شاعرنا فى عودة المصابين بالفساد - على يد المهجو - إلى جادة الصواب، الأمر الذى يبرهن على صدق نية شاعرنا فى الإصلاح أيضا، وفى هذا يقول[١]:

"أنى لكم إلى الهدى تحويل ‏ ‏ ‏ قد أشرب فى القلوب إسماعيل"

فكان الشاعر مترقب الهداية لمخاطبيه الذين أشربوا حب المهجو، وإن شاعرنا لم يمتنع عن تذكيرهم إعوجاجهم، والقيام بمحاولة إصلاح هؤلاء الساذجين، ولم يزل شاعرنا طول حياته يدعو الناس إلى سبيل ربه بكل قلبه بالحكمة والموعظة الحسنة، كما كان يحذر المسلمين من الوقوع فى مهاوى زيغ العقيدة، والفساد فى السلوك.

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٢١١.

الوقفة الخامسة

قصيدته في الخارجين على إجماع أهل السنة والجماعة

نظم شاعرنا قصيدته التي نحن بصددها في العام الثامن عشر من القرن الرابع عشر الهجري، وقد سجل شاعرنا عام نظم هذه القصيدة - بحساب الجمل - وهو: "آمال الأبرار وآلام الأشرار" وكان دأب شاعرنا - فيما سبق من أكثر المنظومات - أن يأتي بالشطرة الدالة على التاريخ في آخر المنظومة ولكنه عند اختياره العنوان لهذه القصيدة جاء بالاسم الذي يضم التاريخ للعام الذي قيلت فيه، فلا أدري هل هو مجرد التغيير أو إعلان الشاعر منذ البداية عما في نفسه بجعل التاريخ في عنوان القصيدة، وهذه ليست جديدة فإن شاعرنا قد سبق أن انتهج بهذا المنهج في القصيدتين نظمهما في مدح مولانا فضل الرسول البدايوني، وفي هذا العنوان لون من البديع، فالإسم يحتوي على أربع كلمات، فنجد بين الكلمة الأولى والثالثة جناساً ناقصا، وبين الكلمة الثانية والرابعة كذلك جناسا ناقصا، ومن ناحية أخرى توجد في اسم القصيدة المقابلة حين قابل شاعرنا بين معنيين بين "آمال الأبرار وآلام الأشرار".

نظم شاعرنا هذه القصيدة من البحر الوافر في هجاء بعض الفرق المخالفة لإجماع أهل السنة والجماعة في رأيه، وكانت هذه الفرق الثلاثة المعاصرة لشاعرنا الشيخ أحمد رضا خان موضع نقده وهجائه، الدهرية، والشيعة والطائفة الثالثة أسموها بالخوارج لخروجها عن مذهب أهل السنة والجماعة، ونظرا لأن المقام مقام أدبي يميل إلى الحديث عن جمال العبارة ولطافة التركيب، وظرف التعبير، وإصالة الجملة لذلك لا نرى أن نتناول عقائد هذه الفرق لا سيما وإن شاعرنا لم يشر إلى ذلك، إذ لا داعي لتعرضنا لما لا يجب التعرض له، ونحن مع شاعرنا نعرض لما بدر وبدا من كلامه ونقلع مبتعدين تمام البعد عما تجاوزه وابتعد عنه، وعليه فنبدأ قولنا عن هذه القصيدة، تشتمل هذه القصيدة على سبعين ومائة بيت وقد تردد شاعرنا في هذه الأبيات، وخاض بها ميادين من القول عدة، ولكنها تفضي إلى

غرض واحد، نراه وقد ذم الدنيا فى أبياته العشرة الأول، وقد اتخذ شاعرنا هذه الأبيات العشرة مدخلا من خلال إقدامه على نظم الهجاء، وذلك إن دل على شئ فيدل على أن إقبال شاعرنا على نظم الهجاء لم يكن لأغراض شخصية بل كان بسبب إقدام المهجوين على الدنيا وبالتالى بسبب عدم تمسكهم بالدين، وبعد هذه الأبيات العشرة مال شاعرنا إلى جمعية الندوة وأهلها محل هجائه مستغرقا ذلك ثلاثة وتسعين بيتا، ثم التفت بشعره إلى اؤلئك الذين ساروا سيره واتبعوا منهج الدفاع الذى يدافع به مادحا هؤلاء اللفيف الطيب من أهل الخير والبركة إشارة منه إلى وصف المهجوين بما هو يضاد أوصاف الممدوحين على نحو ما ذكرنا فيما سبق، وقد قطع فى ذلك شوطا ليس بقليل، لقد بلغت أبيات المدح هذه ثمانية وستين بيتا وذلك من البيت السابع والخمسين إلى البيت التاسع عشر بعد المائة.

نجد شاعرنا يستهل قصيدته هذه بذم الدنيا ومن يقبلون عليها من الدهريين الذين سعوا لنشر مذهبهم بين سكان شبه القارة فى عصر شاعرنا، ونجده يذكرهم بأن هذه الدنيا التى يقبلون عليها لا تنفعهم فى شئ فإنها ليست إلا دار انتقال كما نجده يأسف أشد الأسف على هؤلاء، ويشبه واحدا منهم بالكبش الذى يسوقه الجزار بكل قوة إلى حيث يذبح ويسلخ، ولا مجال دون هذا، والمقصود من الجزار هنا تلك الدنيا التى تغرى من يقبلون عليها، وأرى أن الدنيا تتمثل فى الشيطان الذى أوعز لهم بهذه الأفكار التى توردهم موارد ما سوف يلقاه الكبش، ثم يقدم شاعرنا على بيان حالة أخرى لمن يتمسك بهذه الدنيا ولا يطلب سواها ويقول: إذا كنا رأينا طالب الدنيا يجر إلى التهلكة جرا وهو فى غبطة وسرور زاعما أنه يخطو نحو تحقيق أحلامه، فهناك نوع آخر من طالب الدنيا الذى يجرى بأرجله واختياره وإرادته إلى حتفه الذى يسرع إليه حيث لا شعور ولا إدراك، ويعادى من ينبهه على مصيره ويرشده إلى الطريق الصحيح، وفى كل هذا نجد شاعرنا واعظا وناصحا وهاديا لطريق الرشاد ومذكرا به، وفى هذا يقول شاعرنا[1]:

هى الدنيا تبيد ولا تفيد
فأف لمن يريد ومن يرود

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان، ص ١١٦.

نفـــــوس الجـــــهل تائقـــــة إليـــــها
فملتمــــــس وآخــــــر مســــــتزيد
حنيـــــن بنيـــــن للمصبـــــى فـــــهذا
يمـــــص وذا ئيـــــن وذا كميـــــد
ولـــــم أر مثـــــل طالبـــــها غبيـــــا
ولا كبشـــــا لمذبحـــــه أقـــــود
يبـــــاري جـــــهده إن اســـــتطاعا
تفلـــــت وهـــــو عـــــن كلـــــئ شـــــرود
وذا المســـــكين يعـــــدو نحـــــو موتـــــه
بأرجلـــــه ويحقـــــد مـــــن يحيـــــد

إننى أستلطف أربعة أبيات وأراها أكثر جاذبية عن بقية الأبيات التى نظمها شاعرنا فـى ذم الدنيا، وأتخيل أننى لو حاولت أن أكتب رقعة عن ذم الدنيا لاختصر بعض تصرفاتـــها فلا أجد خيرا من رقعة أكتب عليها الأبيات الأربعة المتتالية وهى كالآتى:

هـــــي الدنيـــــا تبيـــــد ولا تفيـــــد
فـــــأف لمـــــن يريـــــد ومـــــن يـــــرود
ولـــــم أر مثـــــل طالبـــــها غبيـــــا
ولا كبشـــــا لمذبحـــــه أقـــــود
وذا لمســـــكين يعـــــدو نحـــــو موتـــــه
بأرجلـــــه ويحقـــــد مـــــن يحيـــــد
نفـــــوس الجـــــهل تائقـــــة إليـــــها
فملتمــــــس وآخــــــر مســــــتزيد

نلحظ أن شاعرنا يقرر الحقيقة بأسلوب ألطف، وهذا من أجود ما كتب عن الدنيا. تحدث فيها عن الدنيا حديث المطمئن لسوء العاقبة للذى يجرى وراء الدنيا. وتشعر أيها القارئ الكريم أن الشاعر يتفلسف ويبحث عن الحكمة ويقررها فى أبيات أربعة بأسلوب من أحلى ما يمكن، ويجوز لى بعد أن أقرأ هذه الأبيات أن أصف كاتبها بأنه "شاعر حكيم".

نرى كيف قام شاعرنا ببيان حالة نوعين من طالبى الدنيا يجر أحدهما إلى التهلكة جرا والآخر يجرى بنفسه حيث يكون حتفه. والان يبين لنا الشاعر معاملة الدنيا مع هذا الرجل البليد حيث إن الدنيا تذبحه ولكن هذا الغبى لم يدرك ما أصابه وذلك رغم التنبيهات أيضا، يصور شاعرنا حالة هذا المصاب بالدنيا قائلا[١]:

تذبحه البغى وذا الغبى
يرقص مسرة أن جيد جيد
وهذا إن يجد برد العذاب
يصح كلا أما فى الناس جيد
وإن تخبره أن الجيد جيدك
يفه أتت العذاب لها برود
وإن يسمع سأرهقه صعودا
يقل بخ بخ أتيح لى الصعود

نرى كيف قام شاعرنا بذم الدنيا وهجائها، الدنيا التى تراود أهل الغفلة من البلهاء والأغبياء وتدعوهم إلى التهلكة تحت ستار الملذات، وفى البيت العاشر نجد شاعرنا يقتبس من الآية القرآنية حيث قال الله تبارك وتعالى متوعدا منكر آياته[٢]: **سأرهقه صعودا** ومهجو شاعرنا اغتر بظاهر الآية ووجهها توجيها غير ما قيلت

(١) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١١٦.
(٢) سورة المدثر ١٧/٧٤.

فيه، فأخرج القرآن عن معناه وقال فرحا: "بخ بخ" على ما زعمه من أن التجارة رابحة، فأخذ المهجو معنى العلو من كلمة الصعود ولكنه تغافل عن كونه جبلا في النار كما أشار إليه شاعرنا فى الهامش قائلا[١]: "سأرهقه صعودا" روى الثعلبي والبغوى عن أبى سعيد الخدرى – رضى الله تعالى عنه – عن النبى – صلى الله عليه وسلم – فى قوله تعالى **سأرهقه صعودا** قال: **"الصعود جبل من نار يتصعد فيه [الكافر] سبعين خريفا ويهوى به كذلك منه أبداً"**[٢].

انتقل شاعرنا بعد هذا التمهيد البسيط إلى الغرض الأساسى الذى نظم لأجله هذه القصيدة، ألا وهو هجاء الفرق المجتمعة فى جمعية الندوة تلك الفرق التي لم يكن شاعرنا كغيره من علماء الدين الحنيف مطمئنا لأفكارها المعينة، ويرى الباحث أن الشاعر كان يهدف إلى إصلاح ما يراه خطأ، لم لا فقد كان شاعرنا واحدا من علماء العقيدة بالإضافة إلى كونه شاعرا، لقد عرف الباحث من خلال المراجع المتعلقة بالشاعر موضوع البحث أن الخلافات بينه و بين المهتمين بجمعية الندوة كانت شديدة، ومن هناك كان النقد شديدا من الناحيتين، ولا يريد الباحث أن ينشغل عن الحديث الأدبي بالخوض في هذه الخلافات والنقد المتبادل بين شاعرنا والمهتمين بجمعية الندوة، لذا قرر الباحث أن لا يتناول الأبيات التي تبدو شديدة اللهجة ويأتي بنموذج بسيط من قصيدته في هجاء الخارجين على إجماع أهل السنة، لقد هجاهم هجاء مرا إلا أن شاعرنا حريص كل الحرص على عودة هؤلاء إلى الصراط المستقيم، وقد استخدم معهم أسلوب الهجاء من أجل هذا الهدف، ثم نجده ينتقل إلى أسلوب آخر حيث يبين لهم نتيجة هذا الطريق الذى يسلكونه فيقول: تركتم دينكم أيها المشغوفون بالدنيا من أجل متاع الدنيا الزائل إلا أن النتيجة هي ذهاب الدين عنكم، ولم تتمكنوا من تحقيق ما تمنيتم بل إن الدنيا لم تقبل بخيراتها عليكم

---

(١) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١٢٦.

(٢) مصابيح السنة. للإمام أبى محمد الحسين بن مسعود البغوى، تحقيق الدكتور يوسف عبد الرحمن المرعشلى، محمد سليم إبراهيم سماره وجمال حمدى الذهبى، (ط: دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٧هـ).

وهذا بابها القديم فإنها تطرد من يبتغيها وتموت شوقا لمن يطردها، ولكنكم لم تدركوا حقيقتها، أليس فيكم رجل رشيد؟[١] وفى هذا يقول شاعرنا[٢]:

"تركتم دينكم لحصول دنيا
فراح ولم يجئ فبدا البيود
وذا شأن البغى تموت شوقا
لطاردها وتطرد من يريد
ألا فعلى عقولكم العفاء
ألم يك منكم رجل رشيد"

وامتدادا فى تذكير المهجوين بالنتائج التى حلت بهم يقول شاعرنا: لعمر الله إنكم أيها اللاهثون وراء الدنيا خسرتم حظكم دينا ودنيا، فلم يضىء القلب بالرشد ولم يعمر بالهداية، كما أن الدنيا قد ضاعت من بين يديكم، ولم تحصلوا منها ما كنتم تبتغون، ثم يخاطب أحدهم وكأنه يتوجه إلى الجميع قائلا: افترض أنك حصّلت مالا كثيرا وأصبحت قارون عصرنا، فهل تحسب الخلود لنفسك أو لمالك؟ وفى هذا يقول[٣]:

"خسرتم حظكم دينا ودنيا
لعمر الله ذالخسر الجريد[٤]

---

(١) هنا اقتبس شاعرنا من الآية القرانية: **وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يقوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد** [سورة هود ١١/٧٨].

(٢) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١١٨.

(٣) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١١٨.

(٤) يقول شاعرنا شارحا معنى كلمة "الجريد": أى الخالص المتجرد من غيره أو التام المجرد عن النفس كعام جريد أى تام"، المرجع السابق، ص ١٢٨.

فـــــلا قلـــــب لـــــه حــــال رشـــــيد
ولا جلــــب بــــه مـــال رشـــيد
وهــــب إنـــك قــــارون قـــــرن
فــــهل للمـــال أم لكـــم خلـــود"

ثم وبعد هذا يستخدم شاعرنا أسلوبا آخر في خطاب أصحاب جمعية النـــدوة حيث يجلي أمامهم العاقبة الوخيمة التي تلحقهم لإقبالهم على الدنيا، وقد اقتبس هـــذا المعنى من الآية القرآنية: **فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين** [١] وعند اقتباسه هذا من الآية الكريمـــة عـــرض بـــهم شـــاعرنا مستحضرا لهم ما كان من نهاية لأهل سبأ، وهنا اقتبس شاعرنا من القرآن الكريـــم حيث قال سبحانه وتعالى[٢]: **لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عـــن يميـــن وشمال، كلوا من رزق ربكم واشكروا له، بلدة طيبـــة ورب غفـــور، فـــأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشـــيء من سدر قليل، ذلك جزيناهم بما كفروا، وهل نجزي إلا الكفور** ونجده في البيـــت الخمسين يوضح للمهجوين عاقبتهم مقتبسا من الآية القرآنية حيـــث قـــال ســـبحانه وتعالى[٣]: **كذبت ثمود بالنذر، فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه، إنا إذا لفي ضـــلال وسعر، أألقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر، سيعلمون غدا من الكـــذاب الأشر** يعني تبارك وتعالى يقول: أهلكنا القرية لظلمها، والقرآن يقول في أكثر من موضع[٤]: **وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ويرى شاعرنا أن جمعيـــة الندوة ستصاب بنفس العاقبة بل تكون أشد من هذا المصير، فلا تبقى لها ســـدر، ولا أثل، ولا جريد، ولا تبقى لبئرها المعطلة آثار، كما لا يبقى قصرها المشـــيد، وهنـــا

---

(١) سورة النمل ٢٢/٢٧.
(٢) سورة سبأ ١٥/٣٤:١٧.
(٣) سورة القمر ٢٣/٥٤:٢٦.
(٤) سورة البقرة ٥٧/٢، وسورة الأعراف ١٦٠/٧.

يتجلى اقتباس شاعرنا من القرآن الكريم **فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد** [١] وفى هذا يقول شاعرنا[٢]:

"ألا طرتم وبالدنيا بطرتم
وليس لذلكم عقب حميد
ومن سباء أتى نبأ يقين
عفت وعفالها العيش الرغيد
وبدلها الإله بجنتيها
ذواتى أكل خمط[٣] لا يميد
فندوة أشركم عما قليل
تصير كمثل ذلك بل تزيد
فلا يبقى بها سدر قليل
ولا أثل ولا نخل جريد
وليس يرى لها آثار بئر
معطلة ولا قصر مشيد"

وبعد هذا يقول شاعرنا ولست أنا القائل لهذا الكلام من تلقاء نفسى بل قولى بحول الله تعالى وقدرته، وهذا أشد فى الوعيد لأن الوعيد حينئذ وعيد الله - سبحانه وتعالى - وبعد ذلك يقول: إننا سمعنا أن أصحاب الندوة يأتون فى مدينتنا بريلى لنشر دعوتهم وفكرتهم، ولسنا غافلين عن هذا الأمر، وهنا يهدد شاعرنا المهجوين ويتوعدهم ويزيد لهم فى التهديد حينما يقول: "بحول الله قولى لا بحولى" وكأنه يقول

(١) سورة الحج ٢٢/٤٥.
(٢) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان، ص ١١٨،١١٩.
(٣) يشرح شاعرنا معنى الكلمتين "أكل خمط" حيث يقول: أكل خمط: كل ما كان على فعل بضمتين فإن إسكان الثانى منه قياس مطرد، وقرئ فى القران بالتوصيف "أكل خمط" وبالإضافة "أكل خمط" كلاهما فى المتواتر" انظر المرجع السابق، ص ١٢٨.

لمهجويه: أنا على يقين من أن سيقع بكم ما ذكر في الآيات الكريمات، وفي هذا يقول شاعرنا[1]:

"بحول الله قولي لا بحولي
بحول الله يقترب العريد[2]
سمعنا أن ستأتينا وجاءت
وفودهم لشعلتها وقود
وأية عاهة لا تخشيها
إذا في بلدة بلد البليد"

وبعد هذا انتقل شاعرنا إلى مدح علماء أهل السنة المتصدين للرد على الفرق الزائغة المتمثلة في جميعة الندوة، وذلك بدأ من البيت السادس والخمسين إلى البيت التاسع عشر بعد المائة، ولقد حاولنا دراستها في الفصل الثاني من الباب السابق تحت عنوان: مدح خلال الهجاء.

لقد انتقل شاعرنا من البيت العشرين بعد المائة إلى هجاء الفرق الثلاث مرة أخرى ونظم في هذا المعنى أبياتا كثيرة والتي يغفلها الباحث للتركيز على الجانب الأدبي وعدم الخوض في موضوعات لا تمت بصلة إلى الأدب العربي و جمالياته.

هذا ونلحظ مدى أمل شاعرنا في إصلاح مهجويه بأي أسلوب، بالنصح تارة وبالتقريع تارة أخرى، كما نلحظ مدى أسف شاعرنا، وذلك في البيت السابع والخمسين بعد المائة، فإن الهجاء لم يكن هدفا مقصودا عنده، بل كان الإصلاح مطلبه الوحيد ودافعه إلى نظم هذه القصيدة التي أسماها بالاسم المؤلف من كلمات تفيد بحساب الجمل عام تأليف القصيدة، "آمال الأبرار وآلام الأشرار" مما يرمز إلى رغبة علماء أهل السنة في إصلاح المعارضين لهم، كما يفصح هذا الإسم عن الآلام

---

(1) المرجع السابق، ص ١١٩.
(2) يقول شاعرنا شارحا كلمة "العريد": العريد: البعيد لغة يمانية. انظر المرجع السابق، ص ١٢٨.

التى وصلت قلوب علماء أهل السنة من إصرار معارضيهم على أفكارهم الزائغة وخططهم المدبرة.

هذه القصيدة تعتبر واحدة الموضوع ألا وهو الهجاء، وإن كانت تتضمن

موضوعات أخرى أيضا، ولو قسمناها لوجدناها مقسمة فى الموضوعات التالية: نجد ذم الدنيا فى الأبيات العشرة الأولى من هذه القصيدة، وقد اتخذها الشاعر مدخلا فى الموضوع الأساسى الذى صاغ من أجله قصيدته هذه، وأرى أن هذه الأبيات العشرة جزء من الهجاء فى نفس الوقت، وهذا تلميح إلى أن المهجوين أقبلوا على الدنيا لمتاعها، لمال ينالونه أو لمكانة اجتماعية، أو لحظوة عند الإنجليز، الأمر الذى أثار موجة الغضب والسخط فى قلب شاعرنا فحرك عاطفة الهجاء، ويبلغ عدد الأبيات فى هجاء الفرق المعارضة لإجماع أهل السنة والجماعة ثلاثة وتسعين بيتا، حيث تبدأ هذه الأبيات من البيت الحادى عشر وتستمر إلى البيت الخامس والخمسين، ثم تبدأ من البيت العشرين بعد المائة إلى الثامن والخمسين بعد المائة، وتبلغ عدد هذه الأبيات المنظومة فى ذم الدنيا وهجاء الفرق ثلاثة وتسعين بيتا، والذى اعتبرناه هجاء صريحا.

أما المديح النبوى الشريف فيتمثل فى اثنى عشر بيتا، بدأ من البيت التاسع والخمسين بعد المائة ويستمر لغاية السبعين بعد المائة ونلحظ أن ختامه بالمديح النبوى تقليد يلزمه تقريبا فى سائر شعره لعله يرى أن القصيدة بمثابة دعاء نظرا لأنها حديث النفس، وتفريج عن كربته التى يشعر بها لخروج هؤلاء من أهل السنة والجماعة، ومفارقتهم لأفكار أهل السنة واستبدالها بفكر يوافق هوى المستعمر من ناحية، ويحقق لصاحبه مكانة اجتماعية يطمع فيها ويتطلع إليها من ناحية أخرى، وإن كان البون شاسعا بين الدعاء وبين الشعر إلا أن شاعرنا كان يحب أن يتحدث إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى كل ما ينظم من قصيدة فى هذا الديوان، فضلا عن غير ذلك مما نظمه بلغة غير عربية، على أننا قد سبق أن ذكرنا المديح النبوى الموجود فى هذه الأبيات الإثنى عشر وحاولنا تبسط إحساسنا به حين كنا نتحدث عن الفصل الخاص بالمديح النبوى الشريف، هذا وقد ألحقت بهذه القصيدة أربعة أبيات ذكرها الديوان، وهذه الأبيات تتضمن أسماء وصفات بعض

العلماء الذين تناولهم شاعرنا بالمدح والذين ألحقهم بأولئك الممدوحين الموجودين ذكرهم أثناء هذا الهجاء، على أنني قد عرضت لهذه الأبيات الأربعة أيضا في موطنها حين كنت أكتب تحت عنوان "المديح خلال الهجاء".

ويجدر بالذكر أن إقدام شاعرنا على الاقتباس من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف خلال الهجاء يبين لنا بوضوح أن هجاءه البناء ونقده الإصلاحي لم يكن للتنافس بين الشعراء، أو للشهرة، ولا للتكسب ولا للقدح، بل كان كل همه مقاومة الأفكار الزائغة وجمع كلمة المسلمين، في عصر تشتت جمعهم بمكر الإنجليز والهنادكة. ومما يحسب له أنه لم يتعد حدود الشريعة عند إقدامه على نظم الهجاء كما كان عليه الحال عند تصديه لنظم المدح والرثاء أيضا. وأبياته لم تخرج في الوقت نفسه عن نطاق الهجاء أيضا مع احتوائها على ظاهرة النصح. فقد وجه شاعرنا نقده وهجاءه إلى كل من كان يستحق ذلك، ولم تكن النصيحة منه وحده بل كان هناك عدد كبير من علماء أهل السنة والجماعة الذين توجهوا بالنصيحة والنقد إلى المهجوين لشاعرنا، وبهذا يكون الباحث منهيا حديثه عن الهجاء بصفة عامة حيث ينتقل بعد ذلك إلى الفصل الرابع من هذا الباب.

الفصل الرابع

في غير ذلك من الأغراض

ويشتمل هذا الفصل على تمهيد وثلاثة مباحث

المبحث الأول : المناجاة.

المبحث الثاني: الغزل

المبحث الثالث: مشاعر دينية فياضة وشيء من السيرة.

تمهيد

إن شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان أقدم على تناول الأغراض الشعرية من المديح والرثاء والهجاء، وكان نفسه الشعرى طويلا فيها كما سبق أن أفردناها فى فصول ثلاثة، وفى هذا الفصل الذى نحن بصدده رأيت أن أعرض لما بقى من الأغراض الشعرية عند شاعرنا وهى تتمثل فى ثلاثة أغراض بعد إحصاء ما فى الديوان، هى بين بيت يناجى فيه ربه، وبين بيت يتغزل فيه، وبين بيت يظهر فيه مشاعره الدينية، لذا رأيت أن أجمع الأبيات من الصنف الأول هى التى ناجى فيها الشاعر ربّه فوجدتها ثمانين بيتا، ونظرت إلى الصنف الثانى حيث وجدته أقل عددا من الصنف الأول فوجدته تسعة وثلاثين بيتا، أما الصنف الثالث وهو حديث يبين فيه الشاعر شعوره الدينى رأيت أن أجعله تحت عنوان: مشاعر دينية فياضة وشئ من السيرة، وقوامه واحد وثلاثون بيتا، ولما كانت المناجاة أطول هذه الأغراض رأيت أن أبتدئ بها حتى أؤدى حقها، وكيف يجب علىّ أن أنظر هذا الغرض عند شاعرنا، فبدأت بالمناجاة ثم ثنيت بما هو أقل نفسا وهو الغزل ورأيى فى هذه الأبيات أنها تشكل غزلا صوفيا، ثم أنخت راحلتى عند الغرض الثالث من هذه الأغراض المتناثرة وهو بيان شعوره الدينى والذى وضعته تحت عنوان: مشاعر دينية فياضة وشئ من السيرة، وقد اقتبست هذا العنوان من تلكم المعانى التى فاضت بها أبيات عديدة، أما الفصل كله الذى نحن بصدده فيتمثل فى خمسين ومائة

بيت، وهى جملة الأبيات التى سوف أقوم بمحاولة دراستها فى هذا الفصل، منها ما ورد فى ثنايا القصائد، ومنها ما ورد مستقلا بشكل قطعة أو رباعية أو بيت، وردت فى هذا الفصل ثلاثة أغراض ومع ذلك أرى هذا الفصل ذا موضوع واحد حيث نلاحظ أن ظاهرة النجوى تجمع بين هذه الأغراض الثلاثة.

المبحث الأول

المناجـــــاة

كل إنسان مؤمن بالله تبارك وتعالى يذكر ربه صابرا شـــاكرا فـــى السـراء والضراء وحين البأس[١] ولكنه يتقرب إلى خالقه وبارئه الحنان المنان فى بعـــض الأحيان فيدعوه ويناجيه والدموع تنهمر على وجنتيه، قد تكون تلك الدمـــوع حزنـــا على ما فرط وقد تكون رغبة فى التقرب من مولاه سبحانه وتعالى، أيا كان بـــاعث الدموع فهو دليل على مدى انسجام العلاقة بينه وبين ربه، هذه العلاقة التى تجـــرى كلمات عذابا على ألسنة الشعراء لأن الكلمة وسيلتهم، والعبارة سفينتهم، والـــتركيب صنعتهم، وحديثهم النفسى يملى على أقلامهم فتخرج لنا مشاعرهم فياضة بإحساسهم وعواطفهم بينهم وبين ربنا جل فى علاه.

هذا وقد يندفع الإنسان المؤمن إلى المناجاة بدافع الحب الإلهى فقط وأراه أرفع وأدفع دوافع المناجاة، فإنه يسمو بالإنسان عن القلق والاضطراب عنـــد الكـــروب فيتحلى الإنسان بالصبر والرضى والاستسلام للخلاق العليم - سبحانه وتعالى - كما يبتعد الإنسان المتصف بالحب الإلهى عن الطرق المؤديـــة إلـــى وديـــان الذنـــوب والمعاصى، فإن قلبه لا يتفرغ لشئ غير الحب المتمكن من سويداء قلبه، فـــهؤلاء أصحاب قلوب نابضة بذكر الله تعالى، وبالتالى فقد اطمئنت قلوبهم، كما ورد فـــى

(١) إشارة إلى الآية الكريمة: **والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس، أولئك الذين صدقـوا وأولئك هم المتقون** سورة البقرة ١٧٧/٢.

القرآن الكريم[١]: **ألا بذكر الله تطمئن القلوب** فهؤلاء الشعراء عندما يقبلون على المناجاة تسكب عيونهم سيلا من الدموع وقريحتهم النافذة توحى إليهم أساليب رائعة فى المناجاة، فإذا بألسنتهم تخرج صيغا ترقق القلوب وتهيم الأرواح وتثير الوجد، فينظمون الدرر المنهمرة من عيونهم لتتكون المناجاة.

إن المناجات ليست محدودة فى أنواع وألوان، فالقلوب الهائمة تشق أمامها الطريق فى أفاويق المناجاة، وازدادت فيها حرارة الشعور باضطرام نار الجوى فى قلب المحب، ها هو الدكتور على الخطيب الذى يسلط الضوء على المناجاة معرفا إياها فيقول[٢]: هو الأدب الذى افترعه الصوفية فى مناجاة الله تبارك وتعالى وخطابه والتحدث إليه، وهو أدب يجذب العقول بجماله، وبلاغته، وسحره، وروعته، ... وألوان المناجاة تدل دلالة واضحة على عمق الإيمان لدى هؤلاء المتصوفة، وفرط التعلق بالذات العلية بغية الكشف والطمع فى التقاط النورانية والتشرف بها، وهم فى هذه المناجاة يعترفون بفضل الله - جلا جلاله - وبضعفهم، وعجزهم، وحاجتهم إلى خالقهم، فهو الغنى الرزاق ذو القوة المتين، وهو الذى يعطى كل سائل سؤله ولا تنفد خزائنه، لكل هذا يجأرون إليه بالدعاء والمناجاة طلبا للمغفرة واعترافا بالعجز والحاجة إلى فيض رحمته وعظيم ثوابه، ومن الدعاء الذى جاء على ألسنة المتصوفة مما يعد أدبا رفيعا فى متانة أسلوبه، وقوة ألفاظه، ورصانة معانيه، وهى الدعوات التى يدعو بها العبد ربه طالبا رضاه وقربه، ومن هذه الأدعية ما أثر عن النبى - صلى الله عليه وسلم - والصحابة، والصوفيين،

---

(١) سورة الرعد ١٣/٢٨.
(٢) اتجاهات الأدب الصوفى بين الحلاج وابن العربى، للدكتور على الخطيب مدرس الأدب والنقد بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر الشريف (ط: دار المعارف بالقاهرة، سنة ١٤٠٤هـ)، ص ٥٩:٦١.

ومن أدعيته – صلى الله عليه وسلم –: "**اللهم اجعل في قلبي نورا وفي بصري نورا، وفي سمعي نورا، وفي لساني نورا اللهم اشرح لي صدري، ويسر لي أمري**"(١).

ويحدثنا الدكتور نظمى عبد البديع محمد عن المناجاة فى نبرة من الحب حيث يقول[٢]: تشيع النجوى بين الأحبة، وما أجمل أحاديثها الهامسة بين المحبين على خلوة!! إنها أحاديث السحر وترانيم الوفاق. وقد أفلح الصوفيون فى التقاط مضمونها وضمها إلى أدبهم لأن التناجى أخصّ خصائص الحب عند الوفاق والرضا، غير أن الصوفية قد أسخنوا المناجاة بنفسهم فى ضروبها، مناجاة، وتسبيحا وأدعية، وأحزابا، وأورادا، وقد أغنوها بما أمدّوها به من فيض نفحاتهم التى تدور حول الحب والمحبة لله، وصيّروها فنا مستقلا هم أصحاب السبق إلى ابتكاره، ومن غير الصوفية يبدع النجوى؟!"

وإذا كان كل من الدكتور على الخطيب، والدكتور نظمى عبد البديع محمد عرف المناجاة بإحساسه الأدبى وأسلوبه الرقيق فنجد الدكتور محمد إبراهيم الجيوشى يتصدى للتعريف بالمناجاة بأسلوبه الأدبى حيث يقول[٣]: والمناجاة من الأبواب التى انفرد الصوفية بها، فلم يطرقها غيرهم، ولم ينهج سبيلها سواهم، فهم فرسان حلبتها، وآباء عقدتها، وأبناء بجدتها، لأنها تعبر عن إحساساتهم الرقيقة، مشاعرهم السامية، وعواطفهم الراقية، وأرواحهم الصافية، وقلوبهم المتصلة بنور

---

١) السنن الكبرى، للإمام أبى بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقى، (ط: دار الفكر بيروت، دون تاريخ الطبع)، ج ٥، ص ١١٧. وانظر. مصابيح السنة، للامام محمد بن مسعود البغوي، ج ١ ص ٤٢٣

٢) فى الأدب الصوفى، للدكتور نظمى عبد البديع محمد، ص ١٠٧.

٣) بين التصوف والأدب، للدكتور محمد إبراهيم الجيوشى، (ط: مكتبة الإنجلو المصرية بالقاهرة دون الإشارة إلى سنة الطبع)، ص ٦٢.

الله، ترى عظمته فى كل موجود، وتحس قدرته فى كل ما يقع بين أيديهم وتحت أبصارهم.

والأدب وليد الإحساس، وصدى الانفعالات النفسية، وبقدر ما تتسم به هذه المشاعر والأحاسيس من صدق وتجاوب ما تحس بقدر رقى الأثر الأدبى الذى يعبر عنها، وما يمتاز به من سمو، وما يحفل به من روى شعرية عالية، ونماذج تكون قدوة تحتذى، وأمثلة تراعى.

ومن أبدع ما أثر عن الصوفية من هذه الألوان مناجاتهم لخالقهم، وتوسلاتهم ببارئهم. فهى غنية بالقوى الجبارة، والذخائر الحية، وإن قوبلت بالإهمال [فى بعض الأحيان] ولم تحظ ما تستحق من قيمة، وما تتمتع به من أثر فعال فى ترقية الإحساس، ودفع النفوس إلى السمو والصفاء فى الخُلق والروح".

وحين نتوجه إلى ما نظمه شاعرنا من المناجاة نجده متمسكا بأساليب من سبقه من الصوفية، فيناجى ربه على سننهم حيث إنه يسبح ويحمد ربه فى حين ذارفا دموع الشوق إلى ربه، كما يستغفره ويستعيذ به والدموع تترقرق فى جفنيه، ونلحظ أن شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان لم يفرد قصيدة فى المناجاة وإنما جعلها ضمن بعض قصائده لعله يرى أن المناجاة تكون حين يحاول أن يتناول قلمه لكتابة بعض الأبيات فنراه آنذاك يرى أن يناجى ربه فيبدأ قصيدته بالمناجاة أحيانا وينتهى بها فى حين آخر، وإن كان قد كتب بعض الرباعيات متفردة بهذا الغرض ولكنى لم أجد المناجاة غرضا قائما بذاته فى قصيدة واحدة الغرض.

إن أول ما يطالعنا من شعره فى المناجاة فى ديوانه العربى "بساتين الغفران" هو ما نظمه ضمن قصيدته التى نظمها فى مدح مولانا فضل الرسول البدايونى[١] وتتألف هذه المناجاة من عشرين بيتا من جملة اثنين وسبعين بيتا، فقد استهل بها شاعرنا قصيدته هذه من الكامل المجزوء والتى تشتمل على المدح والهجاء[٢] وانتهت بالصلاة والسلام على خير الأنام.

يبدأ شاعرنا هذه المجموعة من الأبيات فى المناجاة بما تعلمناه فى أدب الدعاء بالحمد لله المتوحد بجلاله المتفرد، وبالتالى جاء بالصلاة والسلام على الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - وعلى آله الطيبين أمطار الهدى وصحابته الأبرار الذين شبههم شاعرنا بالسحب العوائد، مبديا حبه لآل بيت الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه - رضى الله عنهم أجمعين - وفى هذا يقول[٣]:

"الحمد للمتوحد ... بجلاله المتفرد
وصلاة مولانا على ... خير الأنام محمد
والآل أمطار الندى ... والصحب سحب عوائد"

ومن هنا نرى أن شاعرنا يستمطر فضل الله تعالى على العباد، والحمد ينال قائله عظيم الرضى من الله سبحانه وتعالى، ثم يتبع ذلك الحمد بالصلاة والسلام على سيدنا الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - منتهجا بذلك أدب الدعاء، اختار شاعرنا حرف الدال رويا للقصيدة، واختار القافية "متوحد" مرة و"محمد" -

---

(١) درسنا هذه الأبيات فى الفصل الأول من الباب الثانى.
(٢) درسنا هذين الغرضين الشعريين فى الفصل الأول والفصل الثانى من الباب الثانى.
(٣) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان، ص ٥٨.

صلى الله عليه وسلم - مرة أخرى، وإننى بعد قراءتى للقافية الثانية لاحظت أن هناك أنسا فى التعبير ولطافة فى التركيب وروعة شعرية تولدت من القافيتين "متوحد" والمراد به معبودنا - جل وعلا - و"محمد" والمراد به حبيبنا المصطفى - صلى الله عليه وسلم - والجمع بين هاتين القافيتين يشكل جمالا شعريا وقد لا يستطيعه الكثير مع أنه يعتبر من السهل الممتنع، وعند قرائتنا لكلمتى الصحب والسحب نجد أن بينهما جناسا غير تام.

وبعد هذا يلجأ شاعرنا إلى ربه الكريم شاكيا إليه آلامه وهجوم العدو الظالم المعتدى الذى يرغب فى زلزلة الثابتين على مبادئ الإسلام المتمسكين برأى أهل السنة والجماعة، إلا أن شاعرنا لا يفزع من قوة العدو ورجاله واثقا فى ربه القدير، على أن شاعرنا أراد بخيل العدو قوته، بالطبع جرى شاعرنا مجرى شعراء العصر القديم الذين يرون القوة فى الخيل والاستطاعة فى الرجال ويرون كل ذلك سبيلا لكسب أى معركة، فقد انتهج شاعرنا هذا المنهج وسار على هذا المنوال تمسكا بما كانت عليه تقاليد شعراء العصر الجاهلى، وإن شاعرنا لعلى يقين أن يد ربه وهو ناصره أكثر قوة مهما كان أعداؤه وفى هذا يقول[١]:

"لاهم[٢] قد هجم العدى	من كل شأو أبعد
فى خيلهم ورجالهم	مع كل عاد معتد
هاوين زلة مثبت	باغين ذله مهتد"

---

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان، ص ٥٨.

(٢) قال شاعرنا موضحا كلمة لاهم: لغة شائعة فى اللهم، المرجع السابق، ص ٥٨.

يرى شاعرنا قوة العدو في خيله ورجاله إلا أن ثقتة فى الله أعظم فهو - سبحانه وتعالى - المتصرف فى الأمور كلها، وتمسكنا بنصرة الله يرفع من درجاتنا، وأملنا فى أمنه هو خير ما يعتصم به، وعن هذا يقول شاعرنا الواثق فى ربه مناجيا أياه[١]:

"لكن عبدك آمن إذ من دعاك يؤيد
لا أختشى من بأسهم يد ناصرى أقوى يد"

وبعد هذا يتقدم شاعرنا ملتجئا إلى ربه الذى يدفع به كيد الكائدين المهددين فى نحورهم، ثم يطلب من ربه القوة والغلبة على الأعداء ولم يصرح باسمهم، وأرى أنه يرمز إلى الاستعمار البريطانى الغاشم ولم يذكر اسمه لينزه لسانه عن النطق باسمه، ويرمز كذلك إلى الذين ينخدعون به ويتقبلون أوامره منتهجين ما يرسمه لهم، وكانت صدور المسلمين ملتهبة بنار الغضب من الإنجليز، وكان شاعرنا أحد هؤلاء المسلمين الغيورين، فنجده يناجى ربه فى كرب شديد قائلا[٢]:

"يارب ياربــاه يــا كنز الفقير الفاقد
بك التجى بك ادفــع فى نحر كل مهدد
انت القوى فقونــى انت القدير فــايد"

نلحظ فى البيت الأخير بلاغة من شاعرنا فى طلبه القوة من القوى، وطلبه التأييد من القادر، وهذه دقة فى الطلب لأن الشاعر يطلب القوة ممن يوصف بها، ويطلب التأييد ممن وصف بالقدرة الشاملة، لا شك أن هذا الطلب رائع ليمن الله

---

(١) المرجع السابق، ص ٥٩.
(٢) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ،ص ٥٨-٥٩.

تبارك وتعالى بفضله على من رغب فى فضله الشامل. ونلحظ جمال المناجاة فى الشطرة الأولى من البيت التاسع حيث إن شاعرنا أتى بياء النداء ثلاث مرات دون أن يشعر القارئ شيئا من الملل، وبعد هذا يتوسل شاعرنا إلى الله تعالى بالقرآن الكريم، والرسول – صلى الله عليه وسلم –.

وبكل ما ينتسب إليه – صلى الله عليه وسلم – بمدينته المنورة وأصحابه الطيبين، والمسجد النبوى الشريف، ومنبره، وبكل من هو مرضى عنه عند الله – تبارك وتعالى – كما وجدناه يتوسل بسيدنا جبريل – عليه السلام – والأمة الإسلامية كلها، هذا منه إن دل على شئ فإنما يدل على شدة كربه من ناحية وحزنه على ما وصل إليه المسلمون فى الهند من معاناة وسوء معاملة من حكامهم البريطانيين ومن أولئك الذين يسيرون فى ركب الحكام من ناحية أخرى، كما يدل على عظيم ثقته بربه من أنه سينصر المسلمين كافة – إن شاء الله تعالى – ما داموا على طريق الهدى سائرين، فلنستمع إليه حيث يقول[١]:

"فإلى العظيم توسلى	بكتابه وبأحمد
وبمن اتى بكلامه[٢]	وبمن هدى[٣] وبمن هدى
وبطيبة وبمن حوت	وبمنبر وبمسجد
وبكل من وجد الرضى	من عند رب واحد"

(١) المرجع السابق، ص ٥٩.

(٢) يقول شاعرنا شارحا أبياته: وبمن أتى بكلامه: جبريل الأمين – عليه السلام – و"بمن هدى": النبى – صلى الله تعالى عليه وسلم – المرجع السابق، ص ٥٩.

(٣) و"بمن هدى": هو جبريل – عليه السلام – ونبينا – صلى الله تعالى عليه وسلم – وحملة القران من اله وصحبه. المرجع السابق، ص ٥٩.

(٤) أمته – صلى الله تعالى عليه وعليهم وسلم –.المرجع السابق، ص ٥٩.

في الأبيات الثلاثة الأولى أقدم شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان بالجمع بين المناجاة والمديح النبوي الشريف حيث إنه يتوسل إلى الله تعالى بكتابه ونبيه الأحمد اسما ووصفا، والذي أتى بكلام ربنا فتلقيناه منه، ولم يكن بوسعنا أن نتلقى من جبريل - عليه السلام - مباشرة، وإن كان شاعرنا قد قصد جبريل من قوله: "وبمن أتى بكلامه" وذلك باعتباره حامل الوحي إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - وهنا يطرح سؤال نفسه. ما المانع من أن يكون الرسول - صلى الله عليه وسلم - مقصودا من قول شاعرنا "وبمن أتى بكلامه" ونرى أن شاعرنا يمدح النبي - صلى الله عليه وسلم - عند توسله بالمنبر والمسجد، فإنه لم يتوسل بهما إلا للشرف الذي حصل لهما بانتسابهما إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - ومن هنا نستطيع أن نعد هذه الأبيات مدحا لسيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أيضا لكن هذا المديح لا يتعارض مع المناجاة فقد اتخذ شاعرنا من المديح وسيلة لمناجاته ربه، لأنه يناجي ربه بالحديث عمن يحبه وهو رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وذلك تقربا إلى الله تعالى بأجل وسيلة إليه، فإن من الحديث اللطيف مع الله- عز وجل - أن نتحدث معه متشفعين برسول الله - صلى الله عليه وسلم -.

وبعد هذا يناجي شاعرنا ربه سائلا إياه أن يكشف السوء ويفرج الكرب، وأن يدفع شر الأعداء، عن المسلمين وأن يحميه والمسلمين من الوقوع في مكيدة المتآمرين على زعزعة أهل السنة والجماعة، ثم يقول: يارب إن سترك مسبل وإني لا أحتمي إلا بسترك الجميل وفي هذا يقول[1]:

"لاهم فادفع شرهم   وقني مكيد كائد

---

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ،ص ٦٠.

لاهم سترك مسـبل　　　فبذيل حفظك أرتـدى"

وبعد هذا يطمئن شاعرنا نفوس المسلمين ونفسه وهو واحد منهم وكأنه طمأن شخصه مرتين حين تحدث إلى نفوس المسلمين فطمأنهم ومرة أخرى حين تحدث إلى نفسه، بأن فضل الرسول – صلى الله عليه وسلم – من عصره – صلى الله عليه وسلم – إلى يوم القيامة، وذلك بقيامه بإخراجهم من ظلمات الكفر والضلالة إلى نور الهداية، والمسلمون مدينون له حتى يوم القيامة، وكل من يعبد المجيد – جل جلاله – يتشرف بالكرامة والمجد، والله تعالى مولى المسلمين وليس بناصر للمفسدين وهنا نلحظ إقدام شاعرنا على الاقتباس من الآية القرآنية: **ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم** [١] ثم يقول شاعرنا إن القرآن يقربنا من ربنا، والله تعالى أقرب شاهد على أمة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وفي هذا يقول شاعرنا[٢]:

فضل الرسول لنا ومن　　　عبد المجيد يمجد

الله مولانا ولا　　　مولا لعات مفسد

قرآننا قرباننا　　　والله أقرب شاهد"

ومن الجدير بالذكر أن شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان أشار إلى اسم مولانا فضل الرسول البدايوني في الشطرة الأولى من البيت الثامن عشر، وللعلم أن شاعرنا نظم هذه القصيدة – التي نحن بصدد أبياتها الأولى – في مدح مولانا فضل

(١) سورة محمد ٤٧/١١.

(٢) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان ،ص ٦٠.

الرسول البدايونى[١] واستهلها بالمناجاة وأنهاها بالصلاة والسلام على خير الأنام سيدنا ومولانا محمد - صلى الله عليه وسلم - ولم لا يكون ذلك أيضا من المناجاة، كما نلاحظ أن الشاعر يتحدث عن فضل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على المسلمين كلهم ولعله أخذ هذا المعنى مما قاله الإمام البوصيرى فى ميميته[٢]:

فإن فضل رسول الله ليس له ... حد فيعرب عنه ناطق بفم

وبنهاية الأبيات العشرين يكون شاعرنا قد انتهى من هذه المناجاة التى تصدرت داليته هذه، لكنه كان دائم المناجاة، إذ به يناجى ربه مرة أخرى فى قصيدة أخرى.

مناجاة أخرى

إن شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان أقبل على نظم المناجاة مرة أخرى ضمن نونيته التى صاغها فى مدح مولانا فضل الرسول البدايونى[٣] من الكامل التام غير أن نفسه هنا أطول من نفسه فى المناجاة السابقة، فقد كانت المناجاة السابقة عشرين بيتا، أما المناجاة التى نحن بصدد الحديث عنها فقوامها خمسة وأربعون بيتا، هذه الأبيات لم تقع فى أول القصيدة وإنما بدايتها البيت الثالث والتسعون بعد المائة، ويستمر نفسه ينساب فى هذا الغرض من الأغراض الشعرية، وكأن المناجاة بالنسبة له باب يفتح لا يكاد يستطيع أن يغلقه - لأن الحديث مع الله - سبحانه وتعالى - من أحلى الأحاديث ولا يستطيع أحد أن يغلق باب الحديث مع الله - عز وجل -.

---

(١) سبق أن درسنا مدح مولانا فضل الرسول فى الفصل الأول من الباب الثانى.
(٢) بردة المديح المباركة، للإمام البوصيرى، ص ٢٤.
(٣) درسنا هذه الأبيات فى الفصل الأول من الباب الثانى.

فنجده فى أعقاب مدح الشيخ عبد القادر الجيلانى[1]،يوجه اللوم إلى المخاطب ولعله يقصد شخصا معينا ولكنه لم يذكره باسمه، ومن طبيعة الشعراء أنهم يأتون بالضمير للمخاطب، فجرى شاعرنا على هذه العادة وتصور مخاطبا ورمز إليه بضمير المخاطب مذكرا إياه فناء الدنيا حيث يقول: إن الدنيا ظل زائل، ولا مفر من الموت. فمتى تتوجه إلى ربك ذارفا دموع الندم والتوبة، معترفا بالذنوب، طالبا رحمته ومغفرته، وعرفنا من البيت الثامن والتسعين بعد المائة، أن شاعرنا نفسه هو موضع خطابه المباشر وإن كان يقصد من ورائه أن يذكر الآخرين أيضا حيث إنه كان داعية إسلاميا ومن رجال الدعوة والإرشاد، فلا يتوقع منه أن ينصح نفسه وينسى الآخرين وبالعكس، فنجده يقول[2]:

"لهفى عليك لهوت أم لم تدر أن	غشى البلاء وأنت فى غشيان
أظلوم إن العمر ظل زائل	والموت مأتى وكل فان
فمتى تلوذ بجاهه وتقول يا	الله يا ربــاه ياحنانى
ياحق ياسبوح ياقدوس يا	من لا يسوغ لغيره سبحانى
العبد معترف بمقترفاته	ويظن أنك راحم الندمان"

يقول الشيخ أحمد رضا خان موضحا كلمة "الظن" التى استخدمها فى الشطرة الثانية من البيت السابع والتسعين بعد المائة[3]: يظن أى يستيقن، والظن بمعنى اليقين فى القرآن كثير"، ويبدأ تعديد نعم الله تعالى من البيت الثامن والتسعين بعد

(1) درسنا مدح الشيخ عبد القادر الجيلاني في الفصل الاول من الباب الثاني
(2) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان ،ص ٨٥.
(3) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان ،ص ١٠١.

المائة فيشكر ربه على نعمه الجليلة معترفا بعدم تمكنه من إحصائها فذكر على سبيل المثال لا الحصر الأذن، والقلب، والعين، واللسان، والرجل، واليد، كما يرى شاعرنا أن أجل نعم الله تعالى هى نعمة الإيمان بدين الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - والتوفيق إلى الاعتصام بحبل الله المتين، فشاعرنا يفخر بعقيدته الإسلامية، وهذا لا يصدر إلا عن قلب مؤمن، وبالتالى إنه أراد أن يقول: إن بعثة النبى - صلى الله عليه وسلم - من أسمى نعم الله تعالى التى تفضل بها ربنا على البشرية جمعاء، وإن العاقل هو من عرف كيف يتمتع بهذه النعمة، فإن من آمن فقد استمسك بأسمى نعم الله تعالى، وهذه الفكرة لا تنبع إلا من قلب عاقل يقيس الأمور بمقياسها المنضبط، وفى هذا يقول شاعرنا مناجيا ربه(١):

كم نعمة أوليت ما أنا أهلها ... ومنحت مجانا بلا إثمان

سمعا فؤادا ناظرا متكلما ... رجلا يدا والعد قد أعيانى

"وأجلها دين النبى المصطفى ... والاعتصام بحبل سبع مثانى"

ومن هنا نلحظ الاقتباس من القرآن الكريم، فى شطرة واحدة ذكر شاعرنا اقتباسين من القرآن الكريم، الاقتباس الأول عند ذكره لفظة الحبل حيث إن الله - عز وجل - وصف القرآن بهذا الوصف قائلا(٢): **واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا** والاقتباس الثانى قول شاعرنا "سبع مثانى" فهذا اقتباس من قول الله - عز وجل -(٣): **ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم**

---

(١) المرجع السابق. ص ٨٥.
(٢) سورة ال عمران ٣/١٠٣.
(٣) سورة الحجر ١٥/٨٧.

واستمرارا فى تعديد نعم الله - عز وجل - وأداء الشكر له على أفضاله الكثيرة يناجى شاعرنا ربه الكريم قائلا: إنك مننت على فى حياتى وجعلت حديقة أمنياتى وحياتى خضراء بالمطر الغزير من فضلك الشامل ويذكر النعم الإلهية الأخرى حيث نلمس المناجاة القلبية العقلية، فنجد القلب والعقل معا يناجيان الله - عز وجل - فالقلب بالحب والشعور بالنعمة، والعقل فى تعداد هذه النعم، وكأنما يقول شاعرنا للقارئ أو لسامع شعره: "أنا أقول هذا لمجرد الحب فقط وإنما حسب مدلول عليه بدليل القدرة الفائقة"، إنه يذكر النوم واليقظة ولكنه يريد ما ينعم به من النوم واليقظة، وهذه نعمة من أبسط النعم التى من الله - عز وجل - بها علينا وكأنه يستحضر قول الله - سبحانه وتعالى - وتذكيره الناس بنعمته عليهم[١]: **{ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون، ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون}**، فلنسمع إليه حيث يقول[٢]:

"أخضلت خضل خضلتى لخضلتى	بالجود منك لم تذر لدهان
أيقظتنى وانمتنى وعصمتنى	مما يسيئ بأعين ترعانى
ما كان صبح فى الدهور ولا مسا	إلا تجدد شربتى وخوانى"

---

(١) سورة القصص ٢٨/٧١:٧٣.

(٢) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ،ص ٨٥.

وبعد هذا يبدى شاعرنا عواطف امتنانه لله - عز وجل - فى غاية الخضوع حيث يقول: اللهم إنى ما رأيت منك إلا ترحما وأنت ترانى حيث ترانى، فأنساك فترة من الدهر ولكنك لا تتسانى فى حين من الأحيان، وقد تكرمت بالأفضال على قبل ميلادى كما تفضلت بإحاطتى بالمنن بعد ميلادى، أنعمت على بأنواع نعمك ومازالت نعمك متوالية على فإنك أهل الفضل والإحسان، وفى هذا يقول(١):

"والله لم أر منك غير ترحم ... وترانى اللهم حيث ترانى

أنساك دهرا لا أفيق ولم تكن ... ناسى فى حين من الأحيان

فذكرتنى بالجود والإيجاد إذ ... ما كنت فى روح ولا جثمانى

هذا فعلت ومثل ذلك تفعل ... إذ أنت أهل الفضل والإحسان"

أى مناجاة أحلى من هذه المناجاة أن يقسم المناجى بمن يدعوه، وهى شهادة من الشاعر بعظمة الله - عز وجل - بأنه الخالق وأعظم من خلقه، فالشاعر يقسم بمن يخاطبه، والتى تعتبر من أحلى ما قاله الصوفية، وفى هذه الأبيات الثلاثة تبدو شخصية شاعرنا الصوفى، إلا إنه لم يسلك مسلك الصوفية فى التحدث بإشارات وكنايات ورموز صوفية قد لا يتحدث بها الكثيرون، فهو هنا صوفى فى شاعريته، وشاعر فى عبارته، وفيلسوف فى فكره، أى محبة وأى مناجاة أعظم من هذه الأبيات الأربعة بأن يقسم الشاعر بمخاطبه بذاته - جل وعلا - ويختار لفظ الجلالة المستوجب لجميع صفات الكمال، المستحيل عليه جميع صفات النقص التى لا تليق بذاته سبحانه وتعالى، ثم يقول: إنه ما رأى منه غير الرحمة، وصياغة الترحم تدل على الرحمة الدائمة التى لم يرها لحظة ثم غابت عنه بل هو يراها فى كل حين

---

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ،ص ٨٦.

وان ويقول شاعرنا مخاطبا ربه: أنت مطلع على فى كل وقت، كما أن رحمتك تنزل على فى كل حين فعلمك بى لا ينقطع، ولا تنسانى بينما أنا بشر قد أنسى فقد لا أذكرك، وقد أعصاك، والمعصية نسيان، ولكنك مع كل هذا لا تنسانى، أما عدم نسيانك إياى فهو ذكرك لى، ألم تذكرنى قبل أن أولد؟ فقد ذكرتنى بعنايتك بى حيث إنك خلقتنى وأوجدت مكانا استقر فيه، وأوجدت لى الرزق والعمل، وبعثت بالملك الذى يكتب أربع كلمات وعن هذا فقد ورد فى الحديث النبوى الشريف[١]: عن عبد الله بن مسعود قال: حدثنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو الصادق المصدوق: " **أنه يجمع خلق أحدكم فى بطن أمه أربعين يوما نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث إليه الملك [الموكل بالأرحام] فيؤمر بأربع كلمات [عمن يبقى فى الأرحام] فيقول أكتب عمله وأجله ورزقه، وشقى أم سعيد، فو الله الذى نفسى بيده إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها** ".

ينتقل شاعرنا بعد تعديد النعم الإلهية إلى الاعتراف بالعصيان والأسف على ما بدر منه وقد أتى بهذا الحديث فى غاية التواضع لله تعالى حيث يقول: اللهم إنى أجبت داعى نفسى فعصيتك رغم النعم الكثيرة على، وأطعت نفسى بينة العدواة، ثم يقول متعجبا: إن الخالق الكريم لا يتوقف عن عطائه، أما العبد المستعجل فيسأم

---

(١) سنن ابن ماجه. للامام أبى عبد الله محمد بن يزيد القزوينى ابن ماجه (ط: عيسى البابى الحلبى وشركاه. دون سنة الطبع)، ج ١، ص ٢٩.

على التأجيل فى الحصول على مطلبه، وقد أكرمته بالقوة ولكنه نظرا لسفاهته يبذلها فى معصيتك بدلا من بذلها فى طاعتك، وإن كف هذا العبد عن الذنب فعجزا، كما تقصر يد الشبعان من تناول الحلاوة على الرغم من الرغبة الشديدة فيها، وفى هذا يقول[1]:

"ثم اللئيم أجاب داعى نفسه	واسوأتاه وإن غفرت لجان
سبحانك اللهم تعطى منعما	ويطاع كلب بين الشنان
ياهى ليس الملك يسأم من ندى	والعبد عند الحفد فى ارثعنان
قويته ليطيع والسمج الردى	مازال يصرفها إلى عصيان
إن فاته ذنب فعجزا أو كما	قصرت عن الحلواء يد الشبعان
إن تاب ثاب وقصده الرجعى فمن	يدريه فرق الثوب والثوبان"

ثم نجد شاعرنا ينقل مناجاة من قلبه والتى تجرى على لسانه إذ بتلك النفس تستعطف الرحمان الرحيم وتستمطر فضله الجسيم إذا به ينظر إلى رحمة الله وعدله فيجد نفسه أمام العدل لا شئ، وقد عصى وسبق منه التقصير لكنه سرعان ما يطرق باب الرحمة فيجد الميدان فسيحا لعله يستحضر فى نفسه قول الله عز وجل: **ورحمتى وسعت كل شئ** [2] ولذلك تطرق هذا الباب يقينا منه أن باب العدل يضعف عن أن ينال منه شيئا حين توضع معصيته ويوزن تقصيره وذلك بفضل الله تعالى وعطائه، وإذن فنعم الله تعالى كثيرة لا تقبل المساواة بأى عمل مهما عظم من أى عبد من عباد الله - عز وجل -، وإذن فالرحمة بنا أولى يا

---

(١) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان ،ص ٨٦.
(٢) سورة الأعراف ١٥٦/٧.

معشر العباد أن نطرق بابها لننهل من جودها وكرم ربنا الذى لا تحده حدود وإذا بشاعرنا يقول بمزيد من التواضع لربه: والله إن تعذب هذا الرجل العاصى – ويقصد نفسه – فعدل منك وتشهد كل من كفتى الميزان بذلك ولكن فضلك أوسع لى، كما بشرتنى ألطافك ورحمتك بالخير وما وعدتنى بالعذاب وفى هذا يقول(١):

والله عدل منك إن عذبته	وبذاك تشهد كفتا الميزان
لكن عفوك رب أوسع لى وما	وعدتنى الألطاف بالحسبان
إن لم تـرد إلا مليسا واجدا	أوه فمن للمتقل المدان"

وبعد هذا التمهيد الموجز للطلب يتقدم شاعرنا بالسؤال إلى رحاب ربه فيقول: حاشاك أن تخص المرْتوى بجودك، بل مطر عطائك أحنى على العطشان، ولا أرجو ملجأ لطفك الحنان إلا لحيائك من الحزين الأنان، ولا أجد من الأعمال الصالحة وسيلة إليك غير الرجاء فى فضلك وكرمك وشفاعة الحبيب المصطفى – صلى الله عليه وسلم – ولعله نسى أن يذكر أداء الفرائض وذلك تطبيقا للحديث القدسى الشريف(٢): "**ما تقرب إلى عبد أحب الى مما افترضته عليه**"، أعتقد أنه لم يدعها لأنها غابت عنه وإنما لم يذكرها غناء بما بينه وبين ربه من علاقة، وما بينه وبين الحبيب المصطفى – صلى الله عليه وسلم – من تأس، وحب، واقتداء به، ولا أتصور أن الفرائض غابت عنه، وذلك لهذا الحب النابض الناضج فى قلبه برسول الله – صلى الله عليه وسلم – لا يوجد أحد يحب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بهذه الطريقة ثم ينسى الفرائض، غابت الفرائض عن شعره فى الذكر

---

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ،ص ٨٦.
(٢) رياض الصالحين، للإمام أبى زكريا يحيى بن شرف النووى، (ط: مكتبة الإيمان، القاهرة، ١٤٠٩هـ)، ص ١٥٧.

ولكنها لم تغب عن عقله فى التنفيذ، وأعتقد أنها لم تغب عنه فى نفسه بدليل دفاعه عن الإسلام ومبادئه، ويعبر شاعرنا عن هذه المشاعر قائلا: اللهم إنى أسألك بعزتك العلياء وقدرتك الوسعى، أن تحسن إلى بجمال الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - وفى هذا يقول(١):

"حاشاك جودك لا يخص بمرتو ... وندى الندى أحنى على العطشان
فبلطفك الحنان مالى ملجأ ... إلا حياؤك من شج أنان
مالى إليك وسيلة إلا الرجا ... والمصطفى المبعوث بالفرقان
فبعزك الأعلى وقدرتك التى ... لا تنتهى بزمانة ومكان
أحسن إلى بحسن أحسن محسن ... حسن حسين حاسن حسان"

نلاحظ أن البيت التاسع عشر بعد المائتين من الأبيات التى تشار إليها بالبنان وهو قوله: "مالى إليك وسيلة" الخ، هذا البيت ينفى عن الشاعر أى شبهة من الشبه التى يحاول البعض أن يلصقها به فى موضوع التوسل أو غير ذلك فالرجل برىء كل البراءة مما يقال عنه، يحصر هذه الوسيلة فى أمرين اثنين أولهما الرجاء، والرجاء فى وجه الله وعطائه ورحمته باب مفتوح لكل من رغب، وثانيهما التوسل بالحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - إن الأمة أجمعها سوف تستشفع به - صلوات الله وسلامه عليه - يوم القيامة على ملأ من الخلق، فشاعرنا لم يصنع شيئا يلام عليه، والآخر تجده يعذب ويلطف أكثر من بعض أبياته، وهو قوله: "فبعزك الأعلى" الخ، وهنا نلاحظ قمة الذل من العبد لقمة العز اللائق بذاته سبحانه، وبعد هذا يتقدم شاعرنا إلى رحاب ربه بسؤال الحسنة فى الدارين كما يعوذ به من عذاب

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ،ص ٨٩.

القبر، ثم يسأله رضاه والتوفيق إلى الأعمال المؤدية إلى مرضاته، كأنه قال لربه سائلا إياه رضاه: اجعلني ممن ترضى عنه ويرضى عنك، وفكرته هذه مأخوذة من وصف الله عز وجل للمؤمنين بقوله: **رضي الله عنهم ورضوا عنه** (١) وفي هذا يقول(٢):

أجزل بكلتا الضرتين تنعمي	وبجارة جفست بها هاتان
بك أرتضي ربا كريما فارض بي	عبدا وأصلحني لأن ترضاني"

وبعد هذا يقدم شاعرنا على الاستعاذة بالله تعالى من لظى جهنم ببركة من نبع الماء الزلال من بين أصابعه المباركة - صلى الله عليه وسلم - ومن هنا يشير شاعرنا إلى ما حدث من نبع المياه العذبة من أصابع النبي - صلى الله عليه وسلم - وفي هذا البيت نلمس اللطافة في موضعين، أولا في قوله "حر وجهي" حيث إن الشاعر قدم الصفة على الموصوف إشارة منه إلى أن الصفة المستكملة استكمالا تاما في الموصوف، فبدلا من أن يقول: "أنزل الوقاية على وجهي الحر" قال: "حر وجهي" إمعانا في أن الحرية صفة تامة في الوجه، وجه اللطافة في هذا البيت ذكره للحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - متوسلا به ونستطيع أن نقول: مستشفعا به، ولم يذكر النبي - صلى الله عليه وسلم - باسمه، فإن في ذكر اسم المحبوب لذة وفي ذكر صفة من الصفات المعروفة عنه لذة أخرى، فذكر شاعرنا معجزة من معجزاته - صلى الله عليه وسلم - كأنما يقول: "اللهم إني أتوسل إليك بالحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - الذي بلغ مقامه عندك أن أنبعت الماء من بين أصابعه، ولم لا يكون شاعرنا يقصد بالماء الذي نبع أن يستتبع رحمة الله -

---

(١) سورة المائدة ٥/١١٩.

(٢) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان، ص ٨٧.

عز وجل – لتنزل إلى قلبه فيرزقه المن والفضل، كما يشير إلى الحديث القدسي: "**أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا دعاني**"[١] ولنسمع صوت شاعرنا حيث يقول[٢]:

"ثقل موازيني وأبلح حجتي — بمن ارتضاه نبيان الثقلان

وق حر وجهي من لظاها بالذي — نبع الزلال بكفه[٣] المزدان

قد قلت إني عند ظن عبدي بي — ظني بك الإحسان يامناني"

نلحظ أن كلا من ثقل الميزان وخفته مأخوذ من التوجيه القرآني حيث يقول ربنا تبارك وتعالى[٤]: **فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية، وأما من خفت موازينه فأمه هاوية، وما أدراك ماهيه، نار حاميه** ووصف الميزان في أكثر من موطن في القرآن العظيم، والملحوظ أن أبيات القصيد تعددت عند شاعرنا، وأرى لو لم يكن في القصيدة سواهما لكفاها، وناهيك بشاعر له في قصيدة واحدة بل في غرض واحد من أغراض القصيدة أبيات توصف بأنها بيت القصيد.

---

(١) صحيح مسلم. للإمام مسلم بن الحجاج القشيري، ج ٢، ص ٢٠٧.

(٢) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان ،ص ٨٧.

(٣) يقول شاعرنا عن كلمة "كف": اكتسبت التذكير من المضافة إليه، كالسور اكتسبت التأنيث من المدينة في بيت قاله صاحب غاية التحقيق:

لما اتى حب الزبير تواضعت — سور المدينة والجبال خشع

المرجع السابق، ص ١٠٣.

(٤) سورة القارعة ١٠١/٦:١١.

ثم يسأل شاعرنا ربه أن يمتعه برؤية جمال الحبيب المصطفى – صلى الله عليه وسلم – حين تخضع كل من الشمس والقمر لجماله – صلى الله عليه وسلم – ويتقدم شاعرنا برجائه هذا إلى رحاب ربه قائلا(١):

وإذا تجلى نور حسن المصطفى	يوم الجزا فأرح به أعيانى
أرنى إذن قمرا تضائل دونه	كل الكواكب واختفى القمران

ولم يكن شاعرنا يكتفي بالعطاء لنفسه فهو يسأل ربا كريما معطاء يسع جوده الخلق أجمعين، لذلك رأى يسأل ربه العطاء فى زاوية أخرى إنها زاوية والده وجده، فهو يرجو لهما من الخير ما يرجوه لنفسه وهو لون من ألوان الطمع فى عطاء الكريم، ومن أكرم من رب العزة تبارك وتعالى؟ ومن هذا المنطلق يتوجه شاعرنا إلى رحاب ربه سائلا إياه رحمته الواسعة لأبيه مولانا محمد نقى على خان وجده مولانا محمد رضا على خان، كما يسأله أن يجعل قبريهما روضة من رياض الجنة، مستمدا فكرته من الحديث النبوى الشريف: "**إن القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار**"(٢) ويسأل الله تعالى الأنس لهما فى قبريهما بالحور والغلمان والرضوان، وخير الجيران، إن ما دعا به شاعرنا لوالديه وجده ليذكرنا بآية كريمة وحديث شريف، أما الآية فهى قوله جل ثناؤه: **وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا** (٣) وأما الحديث الشريف فبمجرد دعاء شاعرنا لوالده وجده وأمثاله الذين يدعون لآبائهم يذكرنا ذلك بصدق رسول الله –

---

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ،ص ٨٧.

(٢) الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، للإمام عبد العظيم بن عبد القوى المندرى، ضبط احاديثه وعلق عليه الأستاذ مصطفى محمد عمارة (ط: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى، ١٣٧٣هـ)، ج ٤، ص ٢٣٨.

(٣) سورة الإسراء ٢٤/١٧.

صلى الله عليه وسلم - فيما أخبرنا، لقد أخبرنــــا منـــذ قــرون "**إذا مات الانسان انقطع عمله إلا من ثلاث**"، وكانت ثالثة هذه الثــلاث "**ولد صالح يدعو له**"(١) لا أدرى أقول هذه شهادة من شاعرنا بصدق رسول الله - صلى الله عليــــه وســلم - ومن يصدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فهو مؤمن، وكيف بنا إذا قلنا: إن مجرد الدعاء من شاعرنا لوالده وجده شهادة من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لشاعرنا بأنه من الصالحين، ومن يشهد له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأنه صالح فذاك مفخرة له أمام العباد جميعا، نسأل الله - ســـبحانه وتعــالى - أن يمتعنا بأن يجعلنا من الصالحين. ولنسمع إلي شاعرنا حيث يقول(٤)

"وارحم أبي وأباه رحما دائما ... واجعل قبورهما رياض جنـان

أنسهما اللهم فـــى جدثيــهما ... بالحور والغلمان والرضـــوان

أبدلهما دارا وجارا خـــيرا(٥) ... من هؤلاء الـــدور والجـــيران

حتى يقول الناظرون إليـــهما ... بتعجــب وتباشــر وتـــــهان

عبدان مرحومان رب غـــافر ... نزل كريم مـــنزل روحـــانى"

ولا يكتفى شاعرنا بطلب العطاء لوالده وجده بل هو مؤمل الخير فى رحمـــة ربه، ومنه، وإحسانه، فاللسان الذى طلب العطاء لنفسه ثم رفع الرغبة هذه لوالـــده

---

(١) كنز العمال، للعلامة علاء الدين على المتقى، ج ١٥، ص ٩٥٢..

(٤) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٧٨

(٥) أى خيرية الدار والجار متلازمان فى الدار الآخرة فوصف أحدهما أغنى عن وصف الأخر. أولاء: ربما يشار بها إلى غير ذوى العقول، قال الله تعالى: **إن السمع والبصر والفــؤاد كـل أولئك كان عنه مسئولا** [سورة الإسراء ٣٦/١٧] قاله إسماعيل الجوهرى، وفى الشــعر أمـر اخر يعرفه اللبيب، المرجع السابق ص ١٠٣-١٠٤.

وجده، يعرف أنه يدعو ربا كريما، لذلك لا يكتفى بثلاثتهم بل يتسع فكره، ويعظم طمعه. وتحسن رغبته حين يطلب الفضل لأمة الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - إننا نراه فى نهاية المطاف يدعو للأمة المسلمة جمعاء بالرضى الأوفر، والعطاء الأكثر. قائلا: اللهم انك شرفتنا بالحق فانصرنا على بدع العنود، وفتنة المتجرئين على الدين، واجعلنا من المدافعين عن الدين الحنيف والمبطلين شر أهل الزيغ. فلك يا ربنا كل الثناء أولا وآخرا، ومن هنا نستطيع القول: إن شاعرنا لم يكن يكتفى بسؤال العطاء لنفسه حيث إن صيغة الجمع التى استخدمها فى قوله "شرفتنا بالحق" الخ والذى يدل على أنه يطلب العطاء الإلهى للأمة المسلمة كلها، ألم أقل لك أيها القارئ المفضال: إن شاعرنا يتاسى بالقرآن والحديث فى لغته وصياغته فاقتفى بسنة الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - بالدعاء للأمة المسلمة جمعاء، وفى هذا يقول[١]:

"وأدم شآبيب الرضا وندى العطا	لجميع أهل الدين والإذعان
شرفتنا بالحق فانصرنا على	بدع العنود ونزعة المجان
حتى نكون حماة دين قيم	ومحاة شر الزيغ والبطلان
فلك الثناء ببدنه وثنائه	ولك المديح بأول وبشان"

ولا يخفى على القارئ مواطن الجناس فى قوله "حماة" و"محاة" أولا وثناء "وثنا" ثانيا وبعد هذا ينتقل شاعرنا إلى الصلاة والسلام على خير الأنام[٢] بدءا من البيت الثامن والثلاثين بعد المائتين لغاية الثالث والأربعين بعد المائتين، وماذا نقول فى شاعر وجدنا له سبعة أبيات من جملة أربعة وأربعين فى المناجاة، ورأينا أن

---

(١) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان ،ص ٨٧.
(٢) درسنا هذه الأبيات فى الفصل الأول من الباب الثانى ضمن المديح النبوى الشريف.

هذه الأبيات السبعة ممن ينطبق عليها قول القائل: "هذه أبيات القصيد" وماذا نقول عنه غير أنه شاعر مجيد استطاع أن يستوقف القارئ عند سبعة أبيات فى غرض واحد من أغراض القصيدة، ويشار بالبنان إلى هذه الأبيات، ومادمنا قد فرغنا مما لم نكن قد ذكرناه قبل ذلك، فلا أرى أن مناجاة شاعرنا قاصرة على ما ذكرت فى هذا المبحث، بل إن مناجاته كانت تتردد فى أنحاء قصيدته وذلك لما قلت فى أول المبحث إن شاعرنا كان يناجى ربه حين يتناول القلم لكتابة بعض الأبيات، ولذا فكان يأتى بالمناجاة الخفيفة ضمن القصيدة وأرى أن المناجاة عبارة عن علاقة بين العبد وربه، يرددها فى ثنايا كلامه، قد يبدأ بها وقد يأتى بها فى منتصف القصيدة، كما يأتى بها أحيانا فى آخر القصيدة، ولم يفرد الشيخ أحمد رضا خان المناجاة باعتبارها غرضا شعريا قائما بذاته إلا أنه أفرد رباعية وبعض الأبيات الفرادى لهذا الغرض.

إذا كنا درسنا المقطوعتين[1] فى المناجاة من القصيدتين نظمها شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان فى المدح فقد بقيت لنا ثلاث مقطوعات مستقلة، الأولى فى ثلاثة أبيات، أما الثانية والثالثة فتشتمل كل منهما على بيتين، وإلى جانبها ثلاث رباعيات وثلاثة أبيات متفرقة، وأعتقد أن هذا امتداد للنجوى بين شاعرنا وبين ربه عز وجل، وأرى أن هذا استمرار فى حديثه مع الله يعبر عن مدى ما يؤمله من فضل الله - عز وجل - ومدى حبه لله - عز وجل - وبالجملة يعبر عن مدى العلاقة

---

(١) تقول الدكتور إسعاد وهى تعرف فن المقطوعة (او القطعة): أما القطعة فمن الأنماط والضروب التى نظمت فيها الأشعار الفارسية منذ بداية الشعر الفارسى بعد الإسلام، النمط المعروف بالقطعة. والقطعة كما يدل على اسمها قد تكون قطعة من قصيدة كاملة انفصلت عنها لسبب من الأسباب. وقد تكون جزءا من قصيدة لم يقدر لها أن تكتمل، كما أنها قد تكون وحدة قائمة بذاتها أنشأها الشاعر ليصوغ فيها غرضا من الأغراض، فلما سجله فيها تركها على حالها فلم يفكر فى أن يضيف إليها أبياتا أخرى. انظر: فنون الشعر الفارسى، للدكتور إسعاد عبد الهادى قنديل، ص ٢٢٨.

القائمة بين العبد وربه كأحسن ما تكون هذه العلاقة التى بلغت درجة لا يكاد يصل إليها العبد حتى يقر فى داخله ويشعر بالقرب فيعمر قلبه بالأنس يجعله مفتخرا بما بينه وبين الله – تبارك وتعالى – وأى فخر يتحلى به العبد أكثر من أن يكون على درجة من الأنس والقرب من الله – عز وجل – قربا لا يدركه إلا من حاول أن يطرق الأبواب فوصل أو كاد فتمتع بالأنس أو تمنى ذلك، والله – جل علاه – عند ظن العبد به[١] هذا المدى الواسع الذى لا يحده حدود، فيطرق الباب متوسلا مرة بالاستغفار ومرة بحب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وثالثة بما أراد من ذكر الله – تعالى – إنه يسأل الله – تعالى – الفضل والإحسان تارة ويسأله المسامحة تارة أخرى، أى طريق للمناجاة استطاع أن يسلكها شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان فلم يسلكها، والدين والعقيدة، والرسول – صلى الله عليه وسلم – والقرآن يعلمنا ذلك، وكل ما يدور فى فلك الدين يحبه شاعرنا، ويتمسك به، ثم يتوسل به إلى الله – تعالى – أعاذنا الله تعالى وإياكم وشاعرنا من غضبه وعقابه، وأكرمنا جميعا بفضله وثوابه.

يتضرع شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان فى المقطوعة الأولى إلى الله – تبارك وتعالى – متواضعا تواضع العبد مع مولاه، تواضعا يليق بالمعبود – جل وعلا – وكان لا يغيب عنه قول الله عز وجل: **إنما يخشى الله من عباده العلماء**[٢]، سائلا إياه الجود، والتقى، والنقى، وحسن العاقبة، متفائلا من أسماء أجداده، فقد قال من باب العشم في وجه الله – تعالى – والأمل فى عطفه ورضاه، وذلك كأنما قد وقع له ما يريد، وهذا من باب التفاؤل كما جرى الأسلوب القرآنى: **أتى**

(١) اشارة الى الحديث القدسى: "**أنا عند ظن عبدى بى**"، صحيح مسلم المسمى الجامع الصحيح للإمام مسلم بن الحجاج القشيرى، ج ٢، ص ٢٢٧.

(٢) سورة فاطر ٢٨/٣٥.

أمر الله فلا تستعجلوه [(١)] يريد الحق - سبحانه وتعالى - أنه يأتى ولكن الإتيان من باب التحقيق، لذلك عبر بالماضى، والفعل لما يأت، أو من باب الانتظار بإن الشرطية، وكأنما الكلام: "اللهم إن تجاوزت عن سيئاتى" و"إن أمنت" فالتعبير بالماضى يدل على عظيم التفاؤل وعليه فالانتظار لفضل الله تعالى أمر محقق من باب التفاؤل، كأنه ينتظر هذا من فضل الله - تعالى - ومن الممكن أن يكون التعبير بالماضى من باب الاستعطاف واستدرار عفو الله - عز وجل - فكأنه يقول: "اللهم إننى عبيد فقير ذليل وأنت بفضلك وكرمك تجاوزت عن سيئاتى، وأمنتنى عند الكبر لأنك كريم ومواهبك جليلة، أسألك أن ترزقنى نصيبا من أسماء آبائى فتجعلنى نقيا، رضيا، سعيد الخاتمة، فشاعرنا يشير إلى اسم والده مولانا محمد نقى على خان القادرى، والى اسم جده مولانا محمد رضا على خان النقشبندى، ومولانا سعيد الله خان القندهارى[(٢)] على سبيل التورية، وفى هذا يقول[(٣)]:

"إلهى تجاوزت عن سيئاتى	وأمنتنى إذ تشيب الذوائب
فإنى عبيد فقير ذليل	وأنت الكريم الجلى المواهب
فجدلى بجعلى كأسماء أصلى	نقيا رضيا سعيد العواقب"

وأرى أن هذه المقطوعة تمثل أحلى وأعذب ما نظمه شاعرنا فى المناجاة، حيث إن المناجاة اشتملت على الاستغفار والتواضع لله - عز وجل - غاية التواضع، والتضرع إليه أن يرزقه الله تعالى نصيبا من أسماء آبائه، معترفا بفضله - جل جلاله - ونلاحظ أن شاعرنا أتى بكلمة "عبيد" قاصدا بها نفسه زيادة فى

(١) سورة النحل ١/١٦.
(٢) هو الجد الخامس للشيخ أحمد رضا خان، كما سبق أن ذكرت فى الفصل الثانى من الباب الأول.
(٣) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ،ص ١٧٤.

التواضع، فكأنه يطمع فى أن يكون عبدا لله - سبحانه وتعالى - ويخشى أن تشوب عبوديته شائبة لا تليق بالوقوف فى رحاب المعبود - جل وعلا -.فكأنه يطمع في العبودية الخالصة لله - سبحانه وتعالى -.

أما المقطوعة الثانية فتحتوى على شكوى جور الأعداء وعدوانهم ورجاء الشاعر فى فضل ربه، كما يشتمل على بيان ثقة الشاعر فى نصرة الله تعالى ثقة لا تحدها حدود، ثقة تليق بقدرته - سبحانه وتعالى - ولعل الصوفية يعبرون عن هذه الثقة بالتوكل على الله - سبحانه وتعالى - كما جاء فى الحديث الشريف: " **لو توكلت على الله حق توكله لرزقت كما يرزق الطير تغدوا خماصا وتعود بطانا** "(١) وبالطبع قصد شاعرنا عند إتيانه بكلمة الأعداء الاستعمار البريطاني ومن ناصرهم، وأرى أن من ناصرهم فريقين، فريق يناصرهم طمعا فيما عندهم وما كانوا يؤملونه منهم، وفريق يناصرونهم جهلا، أعتقد أننى قد بينت هؤلاء وهؤلاء أثناء كلامى فى الباب الأول، فقد ترك الاستعمار سجلا أسود يحتفظ بمظالمهم الوحشية التى تقشعر الجلود بالاطلاع عليها، وكان يمارسها لتمديد حكمه الظالم على الهند مستهدفا بمظالمه الشعب الهندى بصفة عامة والمسلمين لاسيما علماءهم بصفة خاصة، فقد خصهم بأبشع العقوبات من الحبس والتعذيب والذى يصل أحيانا إلى عقوبة الإعدام، وذلك خوفا منهم لأن الإنجليز كانوا قد سلبوا الحكم من المسلمين، وكان خوفهم من المسلمين أكثر من الهندوس أو ذوى الديانات الأخرى، وكأن شاعرنا يقول: ظلم الأعداء ما ظلموا ولكننى جعلت رجائى فى نصرة الله تعالى أعظم وأكثر، فهو المجير الأقوى يحمى من ظلم كل ظالم، وطالما ربنا تبارك وتعالى مجيرنا فيكفينا وليا، ويكفينا نصيرا، وهذا هو اعتقاد المؤمن

---

(١) كنز العمال. للعلامة علاء الدين على المتقى، ج ٣، ص ١٠٣.

قوى الإيمان فى رحمة الله - سبحانه وتعالى - ونصرته، وفى هذا يقول شاعرنا(١):

"عدى العادون وجاروا ورجوت الله مجيرا
وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا"

نلاحظ أن شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان جاء فى البيت الثانى بالتعبير متخذا من القرآن، فقد اقتبس من قول الله - عز وجل - **والله أعلم بأعدائكم، وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا** (٢) ما أقوى الإيمان بالله تعالى فى ظروف قاسية، وما أحسن الاقتباس؟!

أما ثالث المقطوعات فتتكون من بيتين من بحر المتقارب على نهج المثنوى(٣) حيث يبدأ شاعرنا حديثه مع ربه بالحمد لله - سبحانه وتعالى - وبالتالى يناجيه، وقد جاء بالفعل الماضى فى مناجاته والتعبير بالماضى يدل على عظيم التفاؤل والاستعطاف، والمعنى: "يا من انتظر غفرانه وكفايته لى بنعمته" البيتين.

---

(١) الزلال الأنقى من بحر سبقة الأتقى، للشيخ أحمد رضا خان، ص ٦.

(٢) سورة النساء ٤/٤٥.

(٣) تعرف الدكتور إسعاد فن المثنوى وهى تقول: المثنوى شعر يبنى على أبيات مستقلة المصراعين، يشتمل كل بيت منها على مصراعين متفقين فى القافية والروى، مستقلين فى ذلك عن غيرها، ويسمى شعراء العجم هذا الضرب من الشعر بالمثنوى، ويعرف فى العربية بالمزدوج، ويشترط فى المثنوى أن تجرى أبياتها جميعا - مهما كثر عددها - على وزن واحد... وقد ذهب البعض إلى القول بأن هذا الضرب من النظم الفارسى الأصل ... والواقع أن العرب عرفوا بالمزدوج مع أبان بن عبد الحميد اللاحقى الرقاشى (م ٢٠٠هـ) ونظموا فيه القصص: ككتب "كليلة ودمنه" و"الصاوح والباغم"، والتاريخ كأرجوزة ابن عبد ربه فى غزوات عبد الرحمن الناصر، وكتب العلوم: "كألفية ابن مالك" فى النحو، إلا أنهم أهملوه إهمالا كبيرا وربما كان السبب فى ذلك أن الطبع العربى يستحسن النظم موحد القافية ويميل إليه .
انظر: فنون الشعر الفارسى، للدكتور إسعاد عبد الهادى قنديل، ص ١١٩.

كلاهما تقرب إلى الله – عز وجل – ودعوى له ولنبيه – عليه الصلاة والسلام – يعنى أنه التقرب إلى الله – تعالى – أكثر من طريق، أمل فى المغفرة، وطلب كفاية الله – عز وجل – وبالتالى يطلب شاعرنا من الله – عز وجل – أن يصلى على النبى – صلى الله عليه وسلم – وهذا منه بطبيعة الحال قربى إلى الله – تعالى – وإظهار لحب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى قلبه، وقد أملى على شاعرنا هذين البيتين أمله فى وجه الله – سبحانه وتعالى – الذى لا ينتهى ولا ينقطع، وحب النبى – صلى الله عليه وسلم – الكامل المتمكن من سويداء قلبه، السائد فى سائر تصرفاته. فكأن الشاعر يريد أن يقول: اللهم إنى انتظر مغفرة الذنوب بفضلك وكرمك، وكفايتك بنعمك ورحمتك، وأسألك أن تصلى على الحبيب المصطفى – صلى الله عليه وسلم – وعلى آله وأصحابه وأتباعه والشيخ عبد القادر الجيلانى الذى عرف بلقب "غوث الورى" وأرى أن شاعرنا لم ينس السلام إلى جانب الصلاة بل إنه اضطر إلى ذلك للضرورة الشعرية فقط، ورأيى هذا نظرا للثقافة الدينية التى كان شاعرنا يتمتع بها، وحين أقف إلى هذين البيتين أفترض أنهما قصيدة قائمة بذاتها، وأن الأول منهما يعتبر بيت القصيد وذلك لما فيه من حلاوة شعرية وعاطفة فياضة، ويزينه الأسلوب السهل الممتنع، يقول كلاما كأنه كلام عادى ولكنه شعر، يقول شاعرنا[١]:

"لك الحمد يا من عفى وكفى	صلاتك دوما على المصطفى
وال وصحب وأتباعهم	وغوث الورى وأشياعهم"

(١) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان .ص ٢٢٦.

ولم يكتف شاعرنا بتلك المقطوعات التي سبق أن ذكرتها إنما رأى أن يناجي ربه برباعيات(١) ثلاث غير تلك المقطوعات التي سبق أن عرضت لها وهذه الرباعيات الثلاث، جاء بها شاعرنا ليقول - بلسان الحال - أنا متمكن من اللغة العربية وأستطيع أن أزيد عليها ما تقبله، مع أن هذا وزن جديد أو هو تطوير في الوزن الشعرى كما هو في الموشحات والموال على كل يتوجه شاعرنا بالمناجاة إلى ربه - سبحانه وتعالى - متوسلا بالشيخ عبد القادر الجيلاني، فيقول: جاء الشيخ عبد القادر الجيلاني بالنور والهداية ورجع بهما إلى الدار الآخرة، عطاء من الله - سبحانه وتعالى - متبعا للنبي - صلى الله عليه وسلم - ومرشدا للناس ومحبيه إلى الطريقة المثلى في اتباع سنة الرسول - صلى الله عليه وسلم - اللهم إن كنت جعلت الشيخ عبد القادر كما شئت وتفضلت فاجعلني كما شاء الشيخ عبد القادر" والمشيئة المراد هنا هي المشيئة البشرية وهي الرغبة والتمني، وهي غير المشيئة الإلهية. يعني شاعرنا بذلك أن الأستاذ يريد لتلميذه التقدم العلمي، والمرشد يرغب في تنمية التقوى في قلوب مريديه وتحصينهم من كيد الشياطين بالإرشاد إلى الأدعية أسوة بالحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - والأدعية النبوية التي انتقلت إلينا جيلا بعد جيل، لقد وردت هذه الرباعية ضمن منظومة أردية تحت عنوان: "نظم معطر" ومعناه في العربية النظم العاطر، ونجده يتصدى لنظم الرباعية حيث يقول(٢):

"يامن بسناه جاء عبد القادر ... يامن بشناه باء عبد القادر

إذ أنت جعلته كما كنت تشاء ... فاجعلني كما شاء عبد القادر"

---

(١) تقد سبق أن عرضت للتعريف بفن الرباعي في الفصل الأول من الباب الثاني.

(٢) بساتين الغفران. للشيخ احمد رضا خان .ص ٢٠٧.

أرى في هذه الرباعية كأن الشيخ أحمد رضا خان يدعو لنفسه متأدبـــا بـــأدب الدعاء الوارد في القرآن حيث قال الله – تبارك وتعالى – **ومنهم من يقول ربنـــا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، أولئك لهم نصيب ممـــا كسبوا. والله سريع الحساب** [١] ومن هنا نلحظ الثقافة الدينية والعاطفة المشـــبوبة اللتين جمعهما شاعرنا في هذه الرباعية.

ومما هو جدير بالذكر أنني بحثت معنى كلمة شنا فـــي لســـان العـــرب[٢]، والقاموس المحيط[٣]، وتاج العروس[٤] فوجدت كالآتي: "شنا: شنوة لغة في شـــنوة من قولهم: "أزد شنوه" بدل لا قياس. لأنه لو كان تخفيفا قياسيا لم يثبت في النســـب واوا. فإن جعلت تخفيف شنوة قياسا قلت في النسب إليه شنوى على مثال شـــنعي، لأنك كأنك إنما نسبت إلى شنوءة. فتفطن إن يسر لك ذلك، قال: لولا اعتقادنا أنـــه بدل لما أفردنا له بابا. ولو سعته ترجمة شنأ في حرف الهمزة، وحكـــى اللحيـــاني: رجل مشني ومشنو: أي مبغض" ومن هنا أعتقد أن الشاعر لم يأت بكلمة شنا فـــي الشطرة الثانية من البيت الأول وذلك لكونها غير مناسبة في المعنـــي، لأنـــه مـــن المعلوم أن شاعرنا كان يحب الشيخ عبد القادر الجيلاني حبا جما فكيف يتصور منه أن يأتي بهذه الكلمة في هذه الشطرة، فأنا أرى أنه من الممكن أن تكون هذه الكلمـــة خطأ مطبعيا وهي أساسا "سنا" بمعنى ضوء القمر والضوء الساطع وضوء البرق[٥]

---

(١) سورة البقرة ٢/٢٠١، ٢٠٢.

(٢) لسان العرب. للإمام جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، ج ١٤، ص ٤٤٤.

(٣) ترتيب القاموس المحيط للفيروز ابادي / للأستاذ طاهر أحمد الطرابلسي، ج ٢، ص ٧٠٤.

(٤) تاج العروس. للزبيدي. ج ١. ص ٣٠٣.

(٥) المعجم الوسيط لصفوة من العلماء (ط: مجمع اللغة العربية، القاهرة، ط ٢)، ج ١، ص ٤٧٤.

وأعتقد أن شاعرنا قصد إحدى هذه المعانى الثلاثة مستخدما كلمة "سنا" دون استعمال كلمة "شنا".

أما الرباعية الثانية فيلجأ فيها شاعرنا إلى اللياذة بربه - سبحانه وتعالى - متوسلا بالشيخ عبد القادر الجيلانى، راجيا فضله العميم ومنه الشامل، راغبا فى مغفرته مناجيا إياه قائلا: يارب إن لى أملا ورجاء فى مغفرتك وعطائك، وقد أملنى فى كرمك أحد عبادك الصالحين الشيخ عبد القادر الجيلانى، وقد عودنا هذا الرجل المعطاء بالجود والعطاء، وإذا كان عبدك هذا كريما معطاء فكيف عطاء المليك وكرمه؟! وإن الدار الآخرة - وبالطبع المراد هنا الجنة - وسيعة ومالكها كريم، والكريم لا يرد السائل إلا بعد إشباع رغبته فيما رغب فيه، ولا غرو فأنت أكرم من أن ترد يدى خاويتى الوفاض، اللهم أنزلنا حيث نزل الشيخ عبد القادر الجيلانى، ويتضح من هنا أن الشاعر يسأل ربه الجنة، كما يرى أن الشيخ عبد القادر الجيلانى سيدخل الجنة، والتعبير بالماضى من باب العشم والأمل فى رضى الله - تعالى - وما ينتظر من كرمه البالغ وعطائه الواسع، كأنما قد وقع له ما يريده الشاعر، وهذا ما ننتظره بفضل الله - سبحانه وتعالى - نظرا للخدمات الدينية التى قام بها الشيخ عبد القادر الجيلانى طوال حياته فى مجال الدعوة والإرشاد، ويعبر شاعرنا عن هذه الخواطر قائلا[1]:

"رب أربى الرجاء عبد القادر — إذ عودنا العطاء عبد القادر

الدار وسيعة وذو الدار كريم — بوءنا حيث باء عبد القادر"

---

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ،ص ٢٠٨.

أما ثالث الرباعيات - حسب ترتيبي - فتختلف عن سابقتيها، فإنـــها تعــرف بالرباعي المستزاد[١] وهذا استمرار شاعرنا في مناجاة ربه، فالمناجـــاة والســؤال سبيل التقرب بين العبد وربه، والمحب الصادق يهوى أن يكون في التقرب الدائـــم مع حبيبه، ويحثه السؤال على النجوى مع الحبيب، ويحظى المحب بتوجه واهتمـــام خاص من حبيبه. فإن الله - تبارك وتعالى - عندما أكرم سيدنا موســـى - عليـــه السلام - فخاطب إياه قائلا[٢]: "وما تلك بيمينك ياموسى؟" عندئذ لم يكتـــف ســيدنا موسى - عليه السلام - بكلمتين عند الإجابة بل انتهز الفرصة وأطال الجواب وزاد في الكلام حتى يحظى بطول المناجاة بين المحب كليم الله - عليه السلام - وحبيبـه رب العباد - جل وعلا - وكان من الممكن أن يجيب حيث يســـأله ربــه بكلمــة "عصاى" وهذا الجواب بالكلمتين نحو بيتين وإن كانتا كلمة واحدة إملائيا، ولكنه زاد في الكلام و **قال هي عصاى أتوكؤا عليها، وأهش بها على غنمي، ولـــي فيــها مآرب أخرى** [٣] فقد عرف كليم الله سيدنا موسى - على نبينا وعليه وعلى ســائر الأنبياء والمرسلين أفضل الصلاة والتسليم - أنه موضع خطـــاب ربــه فــأراد أن يتشرف بهذا التكريم أكثر وأكثر فأطال الجواب، فلم يكن شاعرنا الشيخ أحمد رضـا

---

(١) عن هذا اللون من الرباعي تحدثنا الدكتور إبتسام صالح الدين قائلة: يطلق المستزاد على المنظومة التي يضاف فيها فقرة نثرية الى كل شطرة أو بيت فيها، [والمراد إضافة هذه الفقرة النثرية بعـــد كل شطرة. ويفهم من ذلك ان الرباعي يركب من أربع شطرات تضاف إليها بعد كل شطرة فقـرة نثرية. يكون مضمونها متفقا مع الشطرة التي سبقتها، وبالتالي يكون الرباعي المستزاد مكونا مـن اربع شطرات وأربع فقرات نثرية على نحو ما حاولنا تفصيله] بشرط أن ترتبط بمعنى لما يسبقها على ان يكون ذلك الارتباط في كونها متضمنة نفس المعنى التي أشير اليها في الشطرة أو البيت، ويمكن ان يستقيم المعنى بدونها. وبمثل ذلك يأتي الغزل المستزاد وبنفس التركيبة. وليس للمستزاد نظير في العربية ولكنه يشبه بعض الموشحات والمقامات في العربية".
انظر: نشأة الشعر الأردي. للدكتور ابتسام صالح الدين. ص ١٩٤.
وانظر: كلستان سخن لميرزا قادر بخش صابر (ط: مجلس ترقي ادب لاهـــور ١٩٩٦م)، ج ١، ص ١٩٣.

(٢) سورة طه ٢٠/١٧.

(٣) سورة طه ٢٠/١٨.

خان مندفعا إلى تكرار السؤال والمناجاة إلا من منطلق الحب الإلهى، فيحمد ربه ذا الأفضال وبالتالى يناجيه ويسأله الجود والمنة وتحقيق الآمال، وهو يعتقد اعتقادا جازما أن المعطى هو الله – تبارك وتعالى – وهو المتعال ومحقق الآمال. فاتخذ شاعرنا بآداب الدعاء حيث إنه يبدأ نجواه مع ربه بالحمد لله – تعالى – فكأنه يقول: "اللهم أنت المتعال وأنت ذو الأفضال أكرمت الشيخ عبد القادر الجيلانى بالفضيلة ونعمة الإيمان، كما أنعمت عليه بنعمة الإيقان والعرفان، وزينته بجمال الخلق الطيب والرحمة للمؤمنين كما طبعته على الشدة على الكفر والشرك والبدع، مولاى إنك مننت على الشيخ عبد القادر الجيلانى بفضلك وكرمك أنواع النعم، وإننى أحد المحبين لعبدك هذا الذى أحبك بكل قلبه، اللهم ليس لدى الكثير ممن الأعمال الصالحة حتى أتوسل بها إليك ولكن حبى للشيخ عبد القادر الجيلانى دفعنى لأتوسل به إليك، اللهم أسألك أن تمن على وتستجيب دعائى وتحقق آمالى التى اختمرت فى ذهنى وقلبى، ويعرب شاعرنا عن هذه المشاعر قائلا[١]:

حمدا يا مفضل عبد القادر	ياذ الأفضال
يا منعم يا مجمل عبد القادر	أنت المتعال
مولاى بما مننت بالجود عليه	من دون سؤال
أمنن وأجب سائل عبد القادر	جد بالآمال

جاء شاعرنا بالرباعى المستزاد ولا أعتقد أن غيره من الشعراء جاء به، ومن الممكن أنهم لم يأتوا به لأنه لم يكن له نظير فى العربية، وهو لون مبتكر أو منقول من غيرها من الفارسية، وقد تفرد شاعرنا فى نظم الرباعى المستزاد باللغة

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان، ص ٢٠٩.

العربية، وكأنه يريد أن يقول: إننى متمكن من الزيادة على اللغة العربية بما تقبلــه، وأستطيع أن أنظم فى هذا اللون الجديد على العربية له وزنه وقيوده، أو هو تطويـر فى الوزن كما هو حال بالنسبة للموشحات وغيرها.

وإذا كنا حاولنا أن ندرس فيما سبق من الرباعيات فالنعرض الآن لثلاثة أبيات عربية متفرقات نظمها شاعرنا مناجيا ربه متعطشا إلى فضله وكرمه، أما أول هـذه الأبيات - حسب ترتيبى - فقد أورده شاعرنا ضمن منظومة أردية توجها بعنـــوان "الدعاء" ومن عادته أن يأتى بيتا عربيا ضمن منظومات أردية ليقول: أنا متمكن من اللغة العربية أيما تمكن حيث إن اللغة العربية تسكن داخلى، لا يستطيع أن يفارقــها لسانى حتى إن كنت أتحدث بالأردية، - لغة الأم لشاعرنا - فنراه فى هــذا البيـت العربى يناجى ربه فى شدة وكرب، وكأنه فكر فى قوله تعالى[١]: **أمـــن يجيـب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء** فدفعه التفكير فى هذه الآية إلى التضرع إلـــى الله تعالى فتوجه إلى ربه ليكشف الكروب، وكأنه قال: اللهم أنت الإله الحق فقـــط وغيرك من الآلهة التى اتخذها المشركون فى أى عصر من العصور باطل، وأنـت الأكبر فقط والكل منقاد لك وأنت الذى تستجيب دعائى فأجب قولى، وقد عبر عـــن هذه الأفكار قائلا[٢]:

"ياإله الحق أجب قولى أجـــب   استجب الله أكبر اســتجب"

نرى فى هذا البيت خشوع شاعرنا وخضوعه إلى ربه حينا كما نـــرى ثقتــه القوية فى ربه حينا آخر، إنه واثق فى ربه أعظم الثـــقة بأنه لا يرد الســـائل دون

---

(١) سورة النمل ٦٢/٢٧.

(٢) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ،ص ٢١٤.

عطاء، ولعل الصوفية يسمون هذه الثـقة بالتوكل على الله - سبحانه وتعالى - وبالتالى شاعرنا متأكد فى العطاء الإلهى حيث إنه قدم الدليل على قدرة الله - عز وجل - على الإجابة وذلك حين قوله "الله أكبر" ومعناه أنه سبحانه وتعالى أكبر من كل شيئ فإذن هو قادر على الإجابة.

أما ثانى أبيات شاعرنا - حسب ترتيبى - فى المناجاة فنجده فيه يشكو إلى الله - سبحانه وتعالى - الوقع النفسى الذى أصابه مما تفوه به بعض معاصريه بأنه ليست هناك معرفة مسبقة لله تعالى بشأن أفعال الإنسان، وكان شاعرنا ينزعج مما يتفوه به بعض الناس من أفكار معارضة للإسلام، وبالتالى كان يقوم بالرد على هؤلاء الناس، وأقبل شاعرنا على التعبير عن قلقه ورفع شكواه إلى الله -عز وجل- مناجيا اياه فقال[١]:

"ما شئت كان وما تشاء يكون   لا ما يشاء الدهر والأفلاك"

ففى هذا البيت نفس شاعرنا عن كربه كما قام بالرد على القائلين بعدم المعرفة المسبقة لله تعالى بشأن أفعال العباد، وقد أعرب كذلك عن ثقافته العقدية بموهبته الشعرية، وذلك بإقدامه على الاقتباس من الآية القرآنية { **وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين** }[٢].

أما ثالث الأبيات فى المناجات - حسب ترتيبى - فنجد شاعرنا يسأل ربه الرحمة والمزيد من النعمة، كما يسأل ربه - جل جلاله - العافية من ثوران الفتن، ولقد أورد هذا البيت ضمن المنظومة الأردية الأخرى تحت عنوان بالأردية "أشعار

---

(١) المرجع السابق، ص ٢١١.
(٢) سورة التكوير ٨١/٢٩.

عرض" وهذا هو معنى العنوان بالعربية "أبيات تمثل الطلب" ونجده يقدم الطلب الرائع إلى رحاب ربه تعالى سائلا إياه العافية من تعدى الفتن، ومن المعلوم أن عصر شاعرنا كان من العصور العصيبة للمسلمين فى الهند حيث إنهم نكبوا على يد الاستعمار الإنجليزى بأبشع النكبات الحسية والمعنوية، كما أنهم أصيبوا بأنواع الفتن التى أثارتها يد الاستعمار المعادية للإسلام والمسلمين بصفة خاصة ولغيرهم من الهنود بصفة عامة، ونجد شاعرنا فى الشطرة الأولى يرفع أكف الضراعة إلى خالقه ومالكه – جل جلاله – فكأنه يقول: اللهم رحمتك الكافية تكفينى، ونعمتك الوافية تغطينى، ولسانى عاجز عن القيام بالشكر، وإن شكر الله – سبحانه وتعالى – على نعمه يستجلب المزيد من النعم والرحمة، وقد سلك شاعرنا طريقا غير مباشر فى سؤاله هذا واكتفى بالشكر لله – سبحانه وتعالى – على نعمه طمعا ورغبة فى المزيد. وبالطبع هذا أحب الأساليب إلى ربنا – تبارك وتعالى – حيث إنه وعد الشاكرين بالمزيد من النعم، وكأن شاعرنا فى الشطرة الأولى من بيته هذا يشير إلى قول الله – عز وجل – ﴿**ورحمتى وسعت كل شئ**﴾ [1] كما نراه يشير إلى قوله تعالى: ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها** ﴾ [2] ويتلو هذه الإشارة طلب العافية، والإنسان بطبيعة الحال دائم السؤال فيسأل ربه العافية من الأمراض حتى يتمكن من القيام بأوامر الله تعالى بشكل أكمل، كما يسأله العافية من الذنوب والفتن حتى تظل عقيدته وحياته صافيتين بعيدتين عن الفتن، وإن كانت العافية الثانية أولى وأحق، لأن العافية الأولى لو قدر لها أن تكون محدودة لتمكننا أيضا من القيام بأوامر الله تعالى قدر استطاعتنا و {**لا يكلف الله نفسا إلا وسعها**} [3] وبالتالى كلما كان

---

(١) سورة الاعراف ٧/١٥٦.

(٢) سورة إبراهيم ١٤/٣٤.

(٣) سورة البقرة ٢/٢٨٦.

المقدور من عافية البدن أكثر وأوسع كان على الإنسان أن يؤدى لله تعالى شكر ذلك، وتختلف السبل فى هذا الأداء من فرائض ونوافل وغير ذلك مما يرضى ربنا - تبارك وتعالى - على كل فالإنسان المحب أكثر طلبا ممن يحبه وذلك لحلاوة تقديم الطلب إلى الحبيب والتنعم بالعطاء من قدرة الحبيب، فكلما زاد الحب زاد الطلب زيادة تنبئ عن الإيمان بقدرة المحبوب - جل وعلا - وكل هذا يطرب قلب المحب ويحلو له، وبهذا السلوك يشعر المحب كأن ارتباطه بحبيبه يتجدد وينمو.

أما الشطرة الثانية فإنها تحتمل المعنيين، أولهما مباشر وثانيهما غير مباشر، فمن الممكن أن نأخذ الشطرة هذه على ظاهرها حيث يستعيذ شاعرنا من تعدى الفتن السائدة فى الهند آنذاك، ويمكن أن تتصرف هذه الشطرة إلى معنى آخر فقد يكون المراد لدى شاعرنا من الفتن "الغضب الإلهى" فإن الفتن تستوجب غضب الله - عز وجل - فالشاعر يستعيذ بربه من غضبه، فلا غرابة أن نطلق كلمة "الفتن" ونريد منها الغضب الإلهى لأنها مسببة له، ويعبر شاعرنا عن هذه الخواطر قائلا[١]:

"رحمتك الكافية نعمتك الوافية　　　أسألك العافية من ثوارن الفتن"

نلاحظ أن الشطرة الأولى تمثل شكر شاعرنا لله - عز وجل - على رحمته الكافية ونعمته الوافية، وهذا الشكر يتضمن الرغبة فى المزيد من الرحمة والنعمة، كما أن الشطرة الثانية تعبر عن طلب شاعرنا من ربه العافية من تعدى الفتن المؤدية إلى الغضب الإلهى.

---

(١) بساتين الغفران: للشيخ أحمد رضا خان ،ص ٢٢٣.

وبهذا أعتقد أننى أكملت متعتى بأبيات الشيخ أحمد رضا خان فى المناجاة وحاولت أن أتناول غذاء الروح من مائدة شعره ما شاء الله لى من تناول، وقضيت هذه الجولة فى وجدو هيام روحى، وأرجو أن يكون القارئ الكريم أيضا تذوق من أبيات شاعرنا فى المناجاة، فلننتقل الآن إلى بستان غرس فيه شاعرنا أبياتا ذات ألوان وروائح جذابة، إليكم أبياته فى الغزل الصوفى، فأقول مستعينا بالله عز وجل:

المبحث الثانى

الغــزل

احتل فن الغزل مكانة مرموقة فى الشعر العربى على مر العصور حيث تنتج العاطفة المتقدة أروع التعابير باللغة العربية فتأخذ بيد الشاعر إلـــى فكــرة خلابــة ترتدى خيالا بارعا فتتكون صورة تنزل من القلوب منزلتها، وتتنسم الأرواح حديثها الرائع فإذا به السحر نفسه، وفى هذا يقول الدكتور حسان أبو رحـــاب[1]: شـــغف العرب بالغزل وفاض به الشعر وآزره الملوك والأمراء والحكام، وأثـــابوا عليـــه، ورأوا فيه صقلا وتهذيبا للوجدان فأشاروا للمؤدبين أن يرووه لأولادهم حتى تعـــذب ألسنتهم، ثم لم يرفيه الدين بإساءة إن كان عفا برئيا، فقد سمعه النبى - صلـــى الله عليه وسلم - [ولم ينكره، وأعنى به ما جاء فى مستهل قصيدة كعب بن زهـــير] وقد أنشدوه فى بيوت الله، وقد أصغى إليه جمهرة من رجال الفقه والدين ورأينـا أن جاشت صدور بعضهم بقليل منه... ونقرأ شعر الغزل لجماعة من رجـــال الفقــه والعلم، والقضاء، أمثال شريح القاضى، وعبد الله بن المبارك، وعروة بـــن أذينـــة، وعبد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود

(١) الغزل عند العرب، للدكتور حسان أبـــو رحـــاب (ط: مكتبـــة مصـــر بالقـــاهرة، ١٣٦٦هــــ)، ص ٧٦،٧٧.

كان هذا حديثا موجزا عن اهتمام العرب بالغزل بما فيهم علماء الدين. وذلك نظرا لعائده من رقة الإحساس ورهافته الذى يرجع على قراء الغزل وسامعيه، كما يقوم شعراء الغزل بانشاء المشاعر اللطيفة التى تهذب شخصية الإنسان، وانظر إلى الغزل كيف تكون دوافعه وكيف يسكن النفس وإلى أى مدى يُعتبر تردُادا لما يدور فى خواطر الشاعر، وعن هذا يحدثنا الدكتور رزق مرسى أبو العباس قائلا:[1] الغزل حديث عن المرأة أو هولها، وصفا كان أو بيانا لمشاعر، أو بسطا لإحساس أو أمنية تجول فى خاطره، أو ماض يؤرق من هجر تذكره، أو وصال كان يعيشه، ولعله الشكوى من تلك المرأة التى لاتوافيه، وقد يكون حديثا صريحا كما كان الشأن فى شعر عمر بن أبى ربيعة، وقد يكون الشاعر على نحو ما كان عليه امرؤ القيس وما وصفه به النقاد. بأنه كان يتعهر ولا يتستر، وقد يكون حديثا يزينه العفاف ويحكمه العقل كما عرف عن الشعراء العذريين، وقد يكون الغزل هذا كله وما يمكن أن يتفرع عنه إلا أن المرأة محوره، والشاعر ينجذب لهذا المحور بأى صورة ممكنة".

فكانت المرأة - وما زالت - بجمالها الخلاب موضوع شعر الغزل حيث تغزل الشعراء فيها فكرا وعاطفة، وكانت هناك طائفة من شعراء الغزل ذوى الأذواق السامية أقبلوا على نظم الغزل بنزاهة فكر، وصفاء قلب، وقد عرفت هذه الطائفة بالشعراء العذريين، وعن هذه الطائفة من الشعراء يحدثنا الدكتور محمد غنيمى هلال حيث يقول[2]: "الغزل العذرى هو الشعر الذى يصف الحب العذرى، والحب العذرى عاطفة قوية مشبوبة، يهيم فيها المحب بحبيبته، ويرجو الحظوة بوصالها، ولكن تتضائل لديه النظرة إلى المتع الحسية إذ يطغى عليها حرص المحب على استدامة عاطفته فى ذاتها، وعلى اعتزازه بها مع التضحية فى سبيل

---

(١) الأدب السعودى فكرة ونص، للدكتور رزق مرسى أبو العباس على (ط: مطبعة رفاعى بالقاهرة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م)، ص ٧٦، ٧٧.

(٢) انظر: الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية، للدكتور محمد غنيمى هلال، (ط: مكتبة الإنجلو المصرية، بالقاهرة، ١٩٦٠م)، ص ١٣.

الإبقاء عليها بما يبذله من جهد وآلام، فليس الحب العذرى رهين الظفر بمتع الحس، يبقى ببقاء الأمل فيها، ويفنى بتعذر منالها، ولكنه يسمو على هذه المتع التى تهون لدى المحب بقدر ما يعظم شأن العاطفة فى ذاتها.

ويحدثنا الدكتور نظمى عبد البديع محمد عن الشعراء العذريين وحبهم العذرى منتقلا إلى شعراء الصوفية وحبهم الإلهى سالكين مسلك شعراء بنى عذرة فى طهارة القلب، ونقاء السريرة، والترفع بالنفس عن أن يبلغها الدنس من أى جهة من الجهات فيقول[١]: الحب العذري لون من العشق يحب فيه العشاق حبا حالما أفردوا فيه محبوبهم بالحب، والتزموا العفة والطهارة طابعا فى حبهم وأفنوا العمر مقتصرين على محبوبة واحدة، واستعذبوا كل مشقة وصعب، وتحملوا صنوف العذاب فى سبيل هذا العشق حيث تحول قيود تقليدية قبلية متوارثة دون إتمام الزواج بمن يحب، فيهب زهرة شبابه، ونضارة عمره، وبقية حياته لليأس والعذاب والضياع.

والمحب الصوفى حبه إلهى، يتم فيه استحضار الله فى القلب على الدوام توسلا لمعرفته معرفة مباشرة، بالشريعة يعبد، وبالحقيقة يعرف، الجنة وصله، والنار هجره، والعلاقة به عشق بالانجذاب إلى الحضرة الإلهية، وإدراك للوجدان بطريقة ذوقية شعورية أرقى من الإدراك العادى. والحب الإلهى أخص خصائص التصوف الإسلامى، ولا يصله المريد إلا بعد تمام نضجه، وفيه يستعير الصوفية لغة العذريين، فينشدون شعرهم ويتمثلونه وينشدون على منواله، فما أشد القرب بين اللونين، وما أدق الفوارق بينهما".

---

(١) فى الأدب الصوفى، للدكتور نظمى عبد البديع محمد، ص ٧٤.

إن الصوفية يعبرون عن أشواقهم إلى الله تعالى بلغة شعراء المجون، وبصفاء الشعراء العذريين مع الفارق الواضح عنهما، حيث إن شعراء الصوفية لا يقصدون المرأة لا من الدافع البشرى ولا من دافع الحب العذرى، وإنما يرمون من وراء عبارتهم مسلك الرمز إلى الحب الإلهى المتمكن من سويداء قلوبهم، وفى هذا يقول الدكتور عاطف جودة[١]: "والحق أن الصوفية لم يجدوا عوضا أو بديلا يغنى عن التركيب الرمزى فى أشعارهم الغنائية التى تصف لواعج العشق الإلهى ... ولسنا بحاجة إلى أن نؤكد على أن التركيب الشعرى لرمزية الغزل الصوفى إنما هو تركيب للحقيقة فى منظورها الإلهى ومنظورها الإنسانى بحسبانه مظهرا إلهيا ومنكشفا لعيان التجلى، وتنحل فيه الأنثى إلى شفرة يقرأ فيها الشعور لغة من لغات العلو مُفعمة بالرموز".

وثمة قلم آخر يفلسف ما بين الرمز والإيحاء - الذى ينتج عنه - وبين أولئك الذين عرفوا باللهو والمجون، وهو يباعد بين أن يكون رمز الصوفية وإيحاؤهم لهوا أو مجونا، ها هو الدكتور عبد الفتاح السيد محمد يقول[٢]: "وإذا كان الأدب الصوفى من أهم جوانبه المسلك الرمزى والتعبير الإيحائى ... فمعنى ذلك أنه متأثر برحيق شعراء المجون والغزل، لا لأنه صورة صادقة لهذه الحياة، وإنما لأنه ينقل هذا التيار المادى إلى تيار روحى أصيل، ويتضح هذا فى كثير من قوالبهم الخيالية، والأسلوبية واللفظية".

ولكن ما الذى دفع الصوفية - وهذا حالهم - إلى استخدام الرمز؟ وما سبب ذلك؟ لعل الدافع من وراء ذلك هو تلكم اللغة التى تجمع بين صوفى وآخر

---

(١) الرمز الشعرى عند الصوفية، للدكتور عاطف جودة، ص ١٧٠.
(٢) الأدب العربى بين الزهد والتصوف، للدكتور عبد الفتاح السيد محمد، (ط: المطبعة العربية بالقاهرة. ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م). ص ٢٧٧.

باعتبارها أسلوب تعبير وتفاهم بين الصوفية جميعا، ولم نجد صوفيا ينكر على صاحبه استخدامه لهذه التعبيرات، إذ ذلك أسلوب للتفاهم يربط بين الصوفية جميعا، وعن هذا السبب يحدثنا الدكتور عبد الحكيم حسان حيث يقول(١): "ومنذ القرن الثالث أخذ الصوفية يتكلمون فى الحب الإلهى مستعينين فى شرح ماهيته وبيان أحواله بالحب الإنسانى الذى عرفه الناس وجربوه وشاهدوا آثاره، والاستعانة بالمحسوس فى توضيح المعقول طريقة طبيعية فى تقريب المعلومات إلى الأذهان، ولم يكن للصوفية بد من هذا الصنيع، فقد جرب القوم أحوالا نفسية دقيقة لم تضعها اللغة فى حسبانها أثناء تناولها المعانى المجردة، فلم يجدوا لمعانيهم هذه ألفاظا دالة تيسر لهم الفهم والإفهام، لذلك لجأوا إلى أقرب موارد اللغة إليهم وأدناها استساغة فى أذواقهم، فاستعاروا منه هذه الألفاظ لتدل على هذه المعانى الروحية".

هذه ثلاثة ألوان من الغزل فى نظرى التى وصلت إليها، ولا يمنع ذلك من أن يكون هناك قلم من الأقلام قد ذكر نوعا آخر لم أقف عليه، وإن كان الغزل فى الأدب الصوفى العربى مفعما بالرموز الصوفية فلم يكن الغزل فى الأدب الأردى - بشبه القارة الهندية - بمعزل عن هذا اللون الأدبى، فقد كان شعراء اللغة الأردية يرمزون بالمرأة إلى المفاهيم السامية والعواطف النبيلة، الجياشة فى صدورهم، وعلى رأس هؤلاء الشعراء أمير خسرو، وفى هذا تقول الدكتور إبتسام صالح الدين(٢): "ومن الجدير بالذكر أن أمير خسرو - الذى يعتبره البعض رائد أول

---

(١) التصوف فى الشعر العربى نشأته حتى أواخر القرن الثالث الهجرى، للدكتور عبد الحكيم حسان، (ط: مكتبة الإنجلو المصرية بالقاهرة سنة ١٩٥٤م)، ص ٢٩٨، ٢٩٩.

(٢) إن الطرق الصوفية المعروفة فى شبه القارة الهندية - بما فيها باكستان، وبنجلاديش. والهند - أربعة، الجشتية والقادرية، والنقشبندية، والسهروردية، ومن الجدير بالذكر أن أتباع الطريقة الجشتية هم الذين يولون الاهتمام إلى استماع شعر الغزل فى مجالسهم، يقول الشيخ محمد مصطفى جميعة معرفا الطريقة الجشتية: "تعتبر الطريقة - التى أسسها الشيخ معين الدين الجشتى الأجميرى - أقدم الطرق الصوفية وأكثرها انتشارا فى أرجاء الهند، مع أن مؤسسها مهاجر من

حركة أدبية فى الأردو – قدم العواطف والأحاسيس نحو المرأة دون مؤاربة فى قالب التصوف، فصار بناء شعر العشق للمرأة خاصية هامة من خصائص النظم فى الهند خاصة فى الغزل".

إننى وجدت الصوفية فى شبه القارة الهندية يستمعون إلى الغزل الأردى والفارسى العفيف مهما كان الشاعر صوفيا أو غير صوفى، وذلك فى احتفالاتهم بمرور الحول على وفاة الأولياء الصالحين[١] وقتها تهتز قلوبهم المفعمة بالحب الإلهى، وبالتالى تقفز نفوسهم الصافية من قوالب الشعر الإنسانى إلى عوالم الروحانية السامية، وإنهم يسمون هذا النوع من الإنشاد بـ"فن القوالى"[٢].

وإذا كنا قد عرضنا للغزل بألوانه الثلاثة التى استطعت أن أقف عليها وآراء الكثير من ذوى الأقلام الفاحصة فلننظر الآن إلى لسان شاعرنا وكيف كانت إسهاماته في شعر الغزل، فمن المعلوم أن شاعرنا كان من شعراء الغزل الصوفى

افغانستان الى الهند مع نهاية القرن الثانى عشر الميلادى فاتخذ من مدينة أجمير – فى ولاية راجستان – مركزا لنشر دعوته، ولا تزال تلك المدينة مركزا رئيسيا للطريقة الجشتية، وانبثقت عنها مراكز كثيرة – انظر رحلة الإمام الأكبر إلى الهند، (ملحق مجلة الأزهر لشهر رجب من عام ١٤١٧هـ) للشيخ محمد مصطفى جميعة (ط: ادارة الأزهر بالقاهرة، ١٤١٧هـ)، ص ٤١،٤٧.

(١) ان الشعب المسلم فى شبه القارة الهندية يحتفل بمرور السنة على وفاة الكثير من الأولياء الصالحين. منهم الشيخ عبد القادر الجيلانى، والسيدعلى الهجويرى، والشيخ معين الدين الجشتى الاجميرى، والشيخ نظام الدين الجشتى والشيخ فريد الدين الجشتى، والشيخ بهاء الدين زكريا السهرورى الملتانى، والشيخ أحمد النقشبندى السرهندى، ومن هولاء الصالحين شاعرنا الشيخ احمد رضا خان لذلك يكون احتفالا لذكرى وفاته سنويا بمدينة بريلى، بالاضافة إلى مدن هندية وبلاد أخرى، وهذه الاحتفالات الهندية الشعبية تشبه فى مضمونها ما يجرى من احتفالات بالذكرى السنوية للعديد من الأولياء فى مصر المحروسة وإن كان فى مصر يحتفل بذكرى الميلاد لتلكم الصالحين. وهذا يختلف مع مجتمعنا فى شبه القارة الهندية، وبالطبع لسنا بصدد الكلام حول هذا الموضوع لما فيه من تغيير للاتجاه الرئيسى فى البحث (الباحث).

(٢) كلمة "القوالى" مأخوذة من لفظة القول، وأضاف الهنود إليها ألفا بعد الواو إشارة إلى كثرة من يقول، فاعتقد أن المراد بالقوالى الكثير من القائلين وهذه الطريقة عرفت بفن القوالى. (الباحث).

فله أبيات غزلية رائعة فى الفارسية والأردية، وهذا غير العربية على أننى سأقتصر هنا الكلام على شعره العربى فى فن الغزل فقط ، وقد أقبل شاعرنا على النظم فى الغزل الصوفى نظرا لكونه من شيوخ الطريقة القادرية، وإن كان حبل الصلة موصولا بينه وبين الطرق الصوفية أيضا، ولم يثبت عند الرجوع إلى المصادر التى تتحدث عن حياة شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان أنه وقع فريسة لحب فتاة من فتيات عصره، وإن كل ما عرفنا عنه هو شبابه العفيف، ومن قبل طفولته البريئة، ثم بعد هذا وذاك كهولة متزنة، وعقل راسخ، وفكر متأن يبلغ به هذا كله الإبداع فى خمسة وخمسين علما وفنا على النحو الذى سبق أن اشرنا اليه.

إن شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان مهد بالغزل الصوفى للقصيدة التى نظمها فى مدح مولانا فضل الرسول البدايونى[١] وإنه يغزو ميدان الغزل اقتداء بمن سبقه من شعراء الصوفية من العرب والهند، حيث إن هذا اللون من الغزل كان – ومازال – ذائعا فى الهند، كما كان شاعرنا يبرز تمكنه من نظم الغزل كأنه يقول لشعراء العربية – متحدثا بنعمة الله تعالى – "أنا واحد منكم، وأنا أستطيع أن أجاريكم، وها أنذا أتغزل كما تتغزلون، ولا أحرم شعرى من مثل هذا الفن الرقيق"، وقد حاولت إحصاء ما فى الديوان بساتين الغفران – موضوع الكلام – من شعر الغزل فلم أجد إلا فى قصيدة واحدة وليس الغزل غرضها الحقيقى وإنما كان مدح مولانا فضل الرسول البدايونى غرضها الأساسى، وقد تعددت الأغراض فى هذه القصيدة فتناول الشاعر المناجاة والمديح النبوى الشريف، والغزل، والمدح، والهجاء، ووجدت الغزل فى هذه القصيدة عبارة عن التمهيد للقصيدة نفسها، يبلغ عدده تسعة وثلاثين بيتا من البحر الكامل من جملة ثلاثة وأربعين بعد المائتين من الأبيات، ومن الجدير بالذكر أن التمهيد فى فن غير الفن الذى تنتمى إليه القصيدة،

---

(١) إننى سبق أن تحدثت عن هذه القصيدة وبياناتها الكاملة فى فصل المدح.

ولو قارننا بين تسعة وثلاثين بيتا وبين أربعة ومائتى بيت، لوجدنا التمهيد يساوى بنسبة عشرين فى المائة من بقية القصيدة، وأعتقد أن هذا التمهيد ليس بسيىء ولا ممل. خصوصا إذا كان الشاعر يتكلم فى فن قائم بذاته لم يطرقه قبلا ولا بعدا، وهذا إن دل على شيىء فانما يدل على أن غزل شاعرنا كان صنعة لإثبات تمكنه من مختلف ألوان الشعر العربى، ومجاراة شعراء العربية، وهناك علاقة بين الغزل والمدح فإن كلا منهما مدح، لأن الغزل لون من ألوان المدح على رأى أستاذنا الدكتور رزق مرسى أبو العباس - كما سبق أن ذكرنا - فيمدح شاعرنا المرأة بما يناسبها ويتكلم عن محاسنها سواء كانت جسدية أو معنوية، كما يتحدث خلال نظم المدح عن محاسن الممدوح من ناحيتى الخلق والخلق.

سلك شاعرنا مسلك شعراء الجاهلية وقد قرر أن يستهل قصيدته بأبيات من الغزل. ولم يبدأها بالوقوف على الأطلال، كما أنه انتهج منهج الصوفية فى تعبيره عما يجيش فى نفسه واستخدامه بعض الرموز. خلال غزله الصوفى، وقد تحركت مشاعره بالاستماع إلى حمامة على شجرة البان، وهى تذرف الدموع حينا وتنثر نغماتها الحزينة فى حين آخر، كما أنها كانت تظهر إعجابها وتعجبها من جمال البنات ذوات البشرة البيضاء اللاتى أثرنها بجمالهن، وهذه الحمامة أوقعت نفسها فى الشباك عن عمدها ورضاها، وكانت الحمامة تدعو للجميلات اللاتى شغفت بهن وأغرمت بجمالهن بالسعادة والسرور كرد فعل لتصرفهن القاسى، وهذا المنظر أثار الأشواق المكنونة فى صدر شاعرنا وحرك عاطفته لنظم الغزل، يمثل شاعرنا هذا المنظر الخلاب قائلا[١]:

"رن الحمام على شجون البان	ياما أميلح ذكر بيض البان
تبكى دما وتقول فى أسجاعها	الله يضحك سن من أبكانى"

---

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان، ص ٧٢.

فى هذين البيتين أرى حديثا حلوا وفاكهة كلام، يستطيع من يحفظها أن يقول إننى أحفظ شيئا من الغزل، فما أحلى غناء الحمام، وإن كان هذا الطير معروفا بالغناء والنواح، وينتقى الشاعر لنفسه من الحمام ما يحلو له، وما يتجاوب مع نفسيته، ومع الغرض الرئيسى للقصيدة، فليس من المعقول أن يستهل المدح بنواح الحمام وإنما الأبلغ أن يستمع إلى صوت الحمام فيجده مغنيا خير غناء، والتفاؤل لم يكن خاصا بشاعرنا وإنما غمر ذلك التفاؤل حمامه الذى استمع إليه، وإذا بالحمام يدعو لمن أحبه ولمن أثر بجماله، ووقع فى شباك غرامه، يدعو له بأن يضحك الله سنه كناية عن مدى رضاه عن المحبوب، مهما فعل به وترك فى نفسه من أثر ولا أرى إلا أن شاعرنا قد دخل على الغزل بقدم راسخة، ولولا أنى تصفحت الديوان لقلت فى نفسى إن شاعرنا قد تغزل فأكثر الغزل، ولما فاض وادى الغزل عنده إذا به يقول: "رن الحمام" - البيتين - ولكنه هو الغزل الذى ينطق به كأنما قد عاش ردحا من الزمان متغزلا، لعل غزله باللغتين الأخريين قد سبق غزله بالعربية، وإن لم يؤرخ لذلك، وقد دفعنا هذا القول حسن الخبرة، وطلاقة اللسان فيما نحن بصدده.

ولقد قرأت هذين البيتين مرة أخرى، وإذا بى أتصور أن شاعرنا قد جرد من نفسه شخصا أراد أن يخاطبه، فرمز إليه بقوله: "رن الحمام" ثم رأيته على سبيل الالتفات يعود إلى نفسه وتحكى عنها الشطرة الأخيرة من البيت الأول وهو قوله: "ياما أميلح ذكر بيض البان" ثم يرسل بيته الثانى والشطرات الثلاثة ترجمة على لسانه وهو ليس من كلام الحمام، وتؤيد رأيى هذا قراءتى لما بعد ذلك، وسوف نقف عنده إن شاء الله تعالى.

إن شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان لم يرمز بأى حمامة إلى التشبيب وإنما يرمز بحمامة كانت تقوم بإبلاغ الخطابات إلى الأحبة، والتى كانت تبلغ الأشواق

إلى الشخصيات المراد إبلاغها، وفى هذا يقول مولانا شمشاد حسين الرضوى[١]: "إن ذكر الحمام كوسيط بين المحب وحبيبته موجود منذ قديم فى الأدب العربى، وقد تناول الشعراء هذا المعنى فى أبياتهم ففى هذا يقول ابن بابك:

حمامة جرعا حومة الجندل اسجعى فأنت بمرأى من سعاد ومسمع[٢]

أما ذكرها عند شاعرنا فقد يتفق مع بيت ابن بابك فى ذكر الحمامة كوسيط لإبلاغ خطابات الغرام، أو كمن يحتفظ بأسرار العشاق بعد الاستماع إليها، هذا وتختلف حمامة شاعرنا عن حمامة ابن بابك فى أمور عدة وهى كالتالى: إن حمامة ابن بابك صامتة وهادءة على أنها فى البيداء بين الرمال، يطلب منها ابن بابك فى حب وشوق أن تسجع حتى تحظى بنظرات حبيبته "سعاد" التى كانت قريبة من الحمام فقد كانت نظرات ابن بابك مركزة عليها لكونها فى موضع يمكن وقوع نظر "سعاد" عليها، فهذه الحمامة لا تعرف موقفها من المنظر، ومن هنا لا يتكون جو حركى وعاطفى، أما حمامة شاعرنا فليست فى البيداء، إنما هى فى الأرض الخضراء، ولم تنزل على أى شجرة إنما حلت بشجرة البان التى يرمز بها الشعراء إلى جمال واستقامة قامة الحبيبة وقدها، ثم إنها ليست حمامة عادية بل إنها على علم بتقاليد الحب والعشق، ومتذوقة لجمال الحسناوات وتهيم بحسنهن وتتعجب من ملاحظهن، وتذرف الدموع لفراقهن، وليست بغافلة عن الموقع كما كان عليه الحال لحمامة ابن بابك، مما دفعه إلى أن يطلب منها أن تسجع، لذا نستطيع أن نقول: إن

---

(١) الاستعراض التحليلى لقصائد الإمام أحمد رضا العربية بقلم مولانا شمشاد حسين الرضوى بحث مستخرج من مجلة سنى دنيا الصادرة فى شهر يناير ١٩٩٠، ص ٧٠، ٧١.

(٢) معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، للشيخ عبد الرحيم أحمد العباسى حققه وعلق حواشيه ووضع فهارسه الاستاذ محمد محى الدين عبد الحميد (ط: عالم الكتب ببيروت، ١٣٦٧هـ) ج ١، ص ٥٩.

شاعرنا مثل جوا حركيا متطورا فى مستهل قصيدته، وذلك بالجمع بين أحاسيس اليأس والتحسر، والألم، وبين مشاعر السعادة والسرور فى مطلع القصيدة".

ومما نلحظ أن شاعرنا استخدم كلمة "ما أميلح" للتعجب بمعنى ما أجمل. يبين ابن منظور معنى كلمة أميلح قائلا[١]: "والملح: الحسن من الملاحة، وقالوا: ما أميلحه فصغر والفعل وهم يريدون الصفة، حتى كأنهم قالوا: مليح ولم يصغروا من الفعل غيره ... والملحمة الكلمة المليحة، وأملح جاء بكلمة مليحة".

وبعد هذا التمهيد الموجز فى بيان المنظر الجميل الذى شد انتباه شاعرنا وجعله يغوص فى أعماق هذا المنظر، فقد أثار هذا المنظر سيلا من المشاعر والعواطف في قلب شاعرنا فاندفع هائما ومتأثرا من سجع الحمامة إلى عالم الذكريات حيث يتذكر شاعرنا جمال حبيبته التى فارقته فتدفقت موجات الكرب والحزن والاضطراب فى قلبه فقال: إن الحمامة كانت تشكو من قسوة الجميلات بمفارقتهن إياها، فكانت تبكى بكاء حارا، وبهذا هيجت فى قلبى البكاء، وإن أجفان المصابين بالحب والعشق سائلة دائما وكلمة "سائل" فى البيت الثالث - الذى نحن بصدده - تحتمل المعنيين، إما أن تكون من السيولة فيكون المعنى أن عيون العشاق تذرف سيلا من الدموع على مفارقة الأحبة، وإما أن تكون من السؤال فيكون المعنى أن عيون العشاق دائمة السؤال عن الحبيب طامعة فى رؤياه، وكأنه يقول فى البيت الرابع: إن التمتع والتأثير من أمثال هذا المنظر لا يتحققان إلا لرجل ذاق حلاوة الحب والعشق، وإن اللحون تثير العواطف المكنونة فى قلوب المحبين وفى هذا يقول[٢]:

بكت الغزير فهيجت منى البكا ... إن الحزين لسائل الأجفان

(١) لسان العرب، لابن منظور، ج ٣، ص ٤٣٩، ٤٤٠.
(٢) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان، ص ٧٢.

ولقد درى من ذاق ذوق صبابة إن اللحون مثيرة الأكنان

يشير محقق بساتين الغفران إلى أحد الجوانب النادرة فى البيت الثالث من القصيدة التى نحن بصددها، ويقول[١]: "مما تجدر الإشارة إليه أن الشيخ أحمد رضا خان لم يذكر لفظ البكاء فى أبياته العربية الواردة بديوانه بساتين الغفران إلا فى البيت الثالث من نونيته، وفى البيت الأول من المقطوعة التى رثى بها حكيم محمود أحمد خان الدهلوى والذى قال فيه:

بكت العيون أما تريد جمودا أبكت شريفا صادقا محمودا

فأسلوبه فى منظوماته التى نظمها لتأبين بعض أقاربه وشيوخه ومعاصريه أسلوب معتدل ليس فيه غلو ودعوة للحزن بل أسلوب حكيم واعظ".

إن شاعرنا يتوجه بالسؤال إلى هلال العيد عن حبيبته التى فارقته وذلك بعدما عزفت الحمامة على أوتار قلب شاعرنا بنغمات سجعها حزين، وقد اختار شاعرنا هلال العيد للسؤال عن حبيبته فكأنه يراه أسعد هلال، وكأنه ينادى هلال السعادة راجيا فى عودة بهجته الضائعة فيقول: كيف حبيبتى شميسة؟ وأين هى؟ وأيان تعود؟ وإلى متى أظل أسأل عن حبيبتى أيان تأتى؟ أيان تأتى؟ إنها فارقتنى ولم تعطنى اللين، ولم يرق قلبها، ولما فارقتنى وقتها ظهرت لوعتى المكنونة الخافية عن الجميع، وكنت قبل هذا متماسكا بينى وبين نفسى، ونلحظ أن شاعرنا أحسن استخدام الفاء فى كلمة "بانت"، وإن شاعرنا المتزن، التقى، الورع يندب حظه وينادى على حبيبته على سبيل الندبة، وذلك عند قوله: "يا خيبتى فى الصبر والكتمان" وكأنه يعترف بعدم تمكنه من نفسه عندما أصيبت بفراق الحبيبة فيقول:

---

(١) المرجع السابق، ص ٨٩.

"قلت منى الصبر و الكتمان، ولم أستطعَ أن أسيطر عليهما، ولم أملك في الصبر أمرا، ولم أستطع أن أحصل لنفسى على شئ من الكتمان" ومن المعلوم أن الشرقيين يحبون فى الحبيبة عدم الإنجاز فى الوعد، وأن تهجر ولا تلين، وتختفى وتعصى على محبها، وتستعصى رؤيتها ويصعب قربها على محبوبها، يا للعجب من أثر شاعرنا، عواطف فياضة ونفس جياشة بما تحمله لهذا الحبيب، يا لها من روعة؟!!
إن شاعرنا حين أصيب بألم الفراق لمن كان يقدرهم، وأراد أن يرسل رثاءه لهذا الفراق ساعتها وجد فى الصبر ملجأ، وفزع إلى ربه من الموت الذى حال بينه وبين أحبته، أما هنا فيا لها من عواطف حكمت على الشاعر بأنه يقول: إن صبره قد تفلت منه ولم يجد إلى الكتمان سبيلا، إنها الصنعة المتقنة التى تلوح لنا كأنها طبع نشأ عليه الشاعر وأكل منه الحب، وتناثرت دموعه، فملأت بحر الغرام، واستعصم الهيام بقلبه، وكأنه فلان أو فلان من الشعراء الذين ذابوا فى العشق والغرام، وأذاب الهيام والسهاد قلوبهم، فما كنا نعرف أن الصبر سوف يتفلت منه إلا أنها صنعة الشاعر الذى يبدو وكأنما يحكى لنا عن تجربة صادقة مرت به، ومن بين آثار الغرام التى ألمت بشاعرنا أو قل: التى اصطنعها وأقنع القارئ لديوانه بأن الغرام قد ألم به واكتنفه من جميع جهاته، ذكره لاسم محبوبته وفى هذا الذكر نستطيع أن نقول: إن اختيار شاعرنا كلمة "شميسة" علما على حبيبته يحتمل الأمرين، يمكن أن تكون هذه الكلمة وصفا للحبيبة، وذلك لأن البنات يحببن أن تكون صغيرة، كما يرغب الناظرون إليها من الشعراء وغيرهم أن تكون صغيرة السن، وبالتالى لا يريد الشاعر أيضا أن يكبرها لا لأنه يعز عليها بل إنه يرى أن الشمس الكبيرة تحرق وتضئ حيث لا يتمكن أحد من رؤيتها المحدقة والقرب منها، فوصف شاعرنا حبيبته بشمس صغيرة تطفئ وقت الدفء وتنير وقت الإنارة، ومن الممكن رؤية وجهها رؤية محدقة، كما يمكن الاقتراب منها دون أن يصاب المقترب منها بالأذى، وقد قرر الشاعر من ضمن أوصافها أن فى بدرها قمرين،

وهنا أبدع شاعرنا في الوصف حين عبر عن الوجه بالبدر يحيط به القمران، والمراد بالبدر الوجه المكتمل الجمال، كاكتمال البدر المحاط بالقمرين، ولا أرى "القمرين" إلا أنهما حاجباها، وأبدع شاعرنا كذلك عندما قال: "في بدرها" فقد أثبت ملكية البدر المحاط بالقمرين للحبيبة، يعني أنها تملك البدر وهو بالطبع وجهها، وهذه الملكية تبين مدى جمالها الذي لا يوصف وهذا أروع من أن تقول: "إن لها وجهاً كالبدر" أو "وجها بدرا" فلم يشبه شاعرنا وجه الحبيبة بالبدر بل قرر أنه البدر في ملك الحبيبة، فقد يطلع البدر ليلة واحدة في الشهر لكن بدرها المحاط بالقمرين لا تغرب في ليلة من الليالي، وأعتقد أن هذا المعنى لم يسبق اليه، ومن الممكن أن تكون كلمة شميسة اسما للحبيبة فصرفه الشاعر لضرورة الشعر، وذلك للتلذذ بذكر اسم الحبيبة، كما ذهب إليه الشعراء قديما، فذكرو بثينة، ولبنى، وسعاد، وعنيزة، وغير ذلك الكثير، ولكنني أرى أن هذه الكلمة أقرب أن تكون وصفا منه أن تكون علما، ويعبر شاعرنا عن هذه المشاعر الجياشة قائلا[١]:

"هل يا هلال العيد عند خبرة بشميسة في بدرها قمران
أيا تنادم أين تنزل كيف هي؟ أيان تأتي كم مدى أيان
بانت وما لانت فبانت لوعتي يا خيبتي في الصبر والكتمان"

نلحظ جناسا غير تام بين كلمتي بانت ولانت، كما نلحظ الجناس التام بين مدلول "بانت" الأولى ومعنى "بانت" الثانية، فمع الأول معناها الفراق والثانية معناها الظهور، وهذا البيت مثال رائع في السهل الممتنع، وبعد هذا يبين شاعرنا أحاسيسه بعد ما رحلت الحبيبة مفارقة إياه فيقول: إن شميسة لم ترحل وحدها بل ذهبت وأخذت معها راحتي التي كنت اتمتع بها، واستطاعت أن تسلب راحتي من كفي

---

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان، ص ٧٢.

وكنت أقبض عليها، وفيه كناية عن مدى تمكن شاعرنا من نفسه قبل أن تفارقه الحبيبة، وأيضا فيه كناية أخرى عن أن الحبيبة تمكنت من نفسه تمكنا تاما بحيث إنها استطاعت أن تسلب راحته التى كانت فى قبضة كفه، ويقول شاعرنا: إن عينه لم تنعم بالنوم منذ تلك اللحظة المثيرة للقلق الهائل، وكنت قبل أن تفارقنى "شميسة" متزنا، وكنت قابضا على أزمة راحتى فى كفى، ولكننى أصبت بالانهيار لفراقها ورحلتها، وكل من يودع أحبته يعانى من نفس الأحاسيس والمشاعر، فليست حالتى غريبة، إنما هذه حالة كل التائهين فى دروب الحب والعشق وهنا نلحظ الجناس الناقص بين كلمتى "راحتى" و"راحت" كما نلمس جناسا تاما بين كلمتى راحتى، وفى هذا يقول[1]:

"راحت أزمة راحتى من راحتى	وكذاك كل مودع الأخدان
ما مضمضت عينى بنوم منذ مضت	وكذاك كل مفارق الخلان"

وبعد هذا التنفيس أقدم شاعرنا على بيان فجيعة أخرى وهى أن شميسة كانت قد ساومت على قلب الشاعر ولكنها لم تدفع الثمن، ولم تأخذ القلب ولو بدون مقابل، فاندفع شاعرنا إلى اليأس الشديد بعد الرجاء فى الحصول على بغيته وهذا أشد وقعا فى النفس، وكم تمنى شاعرنا بأنها لو أخذت قلبه بدون مقابل، ولكن الشاعر ماذا يقصد من أخذ الحبيبة قلبه؟ أى قلب هذا؟ وما مدلول هذه الكلمة؟ لعله يريد من الحبيبة أن تأخذ قلبه المفعم بحبها لتحقيق ما فيه من أمنيات وأشواق، وفى هذا يقول[2]:

"سامت فؤادى ولم تعط الثمن	يا ليتها طرت بلا أثمان"

---

(١) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان، ص ٧٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٧٣.

وبعد هذا يقول شاعرنا إن شميسة لا تنجز وعدها ومع ذلك لا يليق بي أن أوجه إليها اللوم على عدم قيامها بإنجاز الوعد، ثم يبرر موقفها ويلتمس لها العذر، إنها حيرة المحبين، مرة يلوم ويكيل اللوم وأخرى يعفيها من اللوم، على كل يبرر موقفها من النسيان قائلا: إنها رقيقة وناعمة الطبع فأراها تنسى المواعيد دون عمد. والإنسان للنسيان. وفي كل هذا ينفي شاعرنا التعمد عن حبيبته شميسة في عدم إنجازها الوعد. لا يرى أنها تنسى المواعيد متعمدة بل إن من طبيعة الإنسان النسيان، ومن المعلوم أن الشعراء العرب يحبون من حبيباتهم عدم إنجاز الوعد، فكان شاعرنا مقتفيا آثار من سبقه من شعراء العربية وكان سائرا على دروبهم الأدبية. فلم يوجه اللوم إلى حبيبته شميسة، بل يبرر موقفها من عدم إنجازها الوعد، وفي هذا يقول[1]:

لا تنجز الميعاد لكن لم أكن	لأعيبها كلا وما هو شاني
لين العريكة وصفها فأظنها	تنساه والإنسان للنسيان

وبعد هذا يقدم شاعرنا على بيان سر قيامه بتبرير موقف حبيبته قائلا: "إنها تمكنت من قلبي تمكنا لا أستطيع بعد ذلك إساءة الظن بها، فإن جفاء الحبيب حبيب عند أصحاب الحب الخالص المخلص، وشبه شاعرنا حبها بالشهد المسموم القاتل الذي لم يستطع شاعرنا مقاومته ولا الابتعاد عنه فوقع شهيدا لشهدها، ومن الجدير بالذكر أن شاعرنا لم يقصد المعنى المصطلح للشهيد بل قصد اللازم بأنه فقد حياته، واستخدم كلمة شهيد ليقول: إنني حاولت أن أدافع عن نفسي ما يحيط بها، لكنها بجمالها تغلبت على مشاعري وإرادتي فوقعت شهيدا لجمالها المليح، وقوتها كامنة في شهدها. فكأنه عبر عن ضياع راحته بفقدان الحياة ووقوعه شهيدا لجمالها، وكان

---

(١) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان، ص ٧٣.

من المفروض أن يكون جمالها وحلاوتها مصدر حياة ولكن الشاعر وقع شهيدا لهما، والشهيد من شأنه أن يدافع عن نفسه، ولكنه لما اشتدت عليه الصنوف من الصعاب وقع فريسة لها وفقد حياته، والمراد من فقدان الحياة أن الحبيبة استلبت لب الشاعر فاعتبر شاعرنا نفسه شهيدا لها - كما أسلفت - ويقول شاعرنا: إن الحبيبة لا تعاملني بالقسوة دائما بل إنها تذيقني الشهد حينا وتفلق كبدى حينا آخر. كما أنها تبكى عينى حتى تكاد تنفلق، ولكن الشاعر مع هذا وذاك لا يلجأ إلى الشكوى، بل يكيل مرها بحلوها، وجفاءها بجميلها، والشاعر يبدأ استسلامه لجفاء حبيبته بكل رضى، فإن الحب والشكوى لا يسيران معا فى نظر شاعرنا، يمثل شاعرنا أحاسيسهُ قائلا(١):

"فى شهدها سم ثمال فاشهدوا | أنى شهيد الشهد يا إخوانى
نسقى فتشفى ثم تشقى بالعنا | وتفلق الأكباد والعينان"

نلاحظ الجناس الناقص بين كلمتى "تسقى" و "تشفى" ولولا النقاط لصار جناسا تاما. وكذلك بين "تشفى" و"تشقى"، لولا النقاط وضبط الحروف لكان جناسا تاما.

وبعد هذا يعترف شاعرنا بعجزه أمام سحر حبيبته فيقدم على وصف مشيتها بالغصن الطرى المستقيم الذى يهتز عند هبوب ريح الصبا ثم يميزها من بقية الأغصان قائلا: إن الصبا تغشى حبيبتى عند مشيتها فتميلها لأنها دقيقة الخصر، وإنها تملأ قلبى فرحا وسرورا حين تقرب منى، وحين تفارقنى إذا بقلبى يتأوه متوجعا من شدة ما أصابه، ما أحسن غصنا يحمل أنواع الفواكه وفوقه راحة قلبى واطمئنانه، ثم أقبل على تشبيه مظاهر جمالها ببعض ما جرت عليه عادة الشعراء قديما وحديثا، فرمز بالعنب والعناب إلى بنانها، وباللوز إلى مقلتيها الجميلتين

(١) المرجع السابق، ص ٧٣.

الساحرتين، وبالتفاح إلى خديها وحمرتهما، وبالرطب إلى شفتيها، وبالرمان إلى نهديها. لقد اتبع شاعرنا مقتفيا آثار من سبقه من الشعراء في تشبيه المقلتين الواسعيتن باللوز، والخدين بالتفاح، والبنان بالعنب والعناب، والنهدين بالرمان. أما تشبيه الشفتين بالرطب، والعين باللوز فهذا ما أعتقده من ابتكار شاعرنا، والشعراء اهتموا أكثر ما اهتموا بوجه المحبوبة، وأكثر شيئ في الوجه إنه الفم حيث تخرج الكلمات من بين الشفتين، يقيس شاعرنا طول وطراوة الرطب بطول الشفة وطراوتها. ولعل شاعرنا شبه شفتيها بالرطب كأن بينهما الحياة كلها، فإن الرطب من أطيب الفواكه، ويتضمن الفوائد العديدة والحيوية، وكما أن الرطب أكثر زمنا حيوية. ولو جف لبقيت فيه حلاوته ولوجدنا الطراوة في بعض أنواعه مهما مر عليه الزمن. ومما نلحظ أن شاعرنا وصف مظاهر جمال حبيبته بأروع أساليب التشبيب، لأنها كانت نابعة من عاطفة مشبوبة لا تنقصها القوة، وفي هذا يقول[١]:

"تمشي وتغشاها الصبا فكأنها ... غصن طرى مائد متهان

واها إذا أدنت ودانت للقا ... آها إذا أذنت لهجران

يا حسن غصن فيه من كل الجني ... عنب وعناب وبه سلواني

واللوز فيه الفوز والتفاح وال ... رطب ولا تسأل عن الرمان"

وبعد هذا يقدم شاعرنا على موازنة جمال حبيبته بجمال امرأة عربية معروفة بجمالها[٢] فيقول: "إن أزمان فاقت بجمالها على الجميلات في عصرها ولكن حبيبتي لو قيست بأزمان هذه لفاقتها جمالا وقدا" وبعد هذا نلحظ أن شاعرنا ليستأذن الحارس الواقف على باب الحبيب أن يسمح ولو بفرصة بسيطة ليطبع قبلة على

---

(١) . بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان، ص ٧٣.
(٢) على حد تعبير الشاعر نفسه.

الأستار المُسبلة على باب الحبيبة، وهذا أدب من شاعرنا أن يطلب إلى حارسها أن يسمح له بهنيهة ليقبل فيها الأستار المسدلة على باب الحبيب هذا دافعه أحد الأمرين إن لم يكونا معا، أولهما أدب شاعرنا فى الغزل حتى أنه لرجل قنوع يطلب تقبيل الأستار ويكتفى بذلك، وإما أن يكون دافعه شدة جمالها التى تتضح حتى لكأنها تخرج من بابها ثم تطبع على أستارها، فيكفيه من هذا الجمال الشديد أن يقبل الأستار دون أن يقبل المحبوب، وليس هذا عن قلة شوق بل أعتقد أن مصدره الأدب العذرى الذى تحلى به شاعرنا فى غزله وإن كان صنعة، ثم يسأل نفسه: من يستطيع أن يرقينى من الإصابة التى حدثت لى بعد أن سحرتنى صاحبة العينين الجميلتين بنظرات من طرفيها، وأعتقد أن الشاعر لو وجد من يرقيه لما رضى بالخروج عن أثر السحر الذى أصابه من صاحبة العينين الجميلتين الساحرتين، ما أشد اشتياق شاعرنا إلى حبيبته؟! وما أكثر ترجيح حبيبته على الجميلات الأخريات؟! وما أجمل التعبير عن وقوعه فى حبها حيث لا يريد الصيد الفرار من الشباك التى صادته، وفى هذا يقول[1]:

"أزمان فاقت بيد أن عشيقتى	برمانها فاقت على أزمان
يا سادنى أعتابها لا تعتبوا	ما رمت إلا لثمتى الأسدان
سحرتنى العيناء بلحظة طرفها	من لى برقية ساحر فتان"

نلحظ أن شاعرنا لا يريد أن يلتفت إلى أى جميلة أخرى غير حبيبته وإنه لا يرى شيئا من الجمال فى غيرها مهما كان جمال غيرها وبعد هذا يعبر عن مشاعره وشدة الوطأة عندما رجعت الحبيبة دون أن تبادل شاعرنا مشاعره، الأمر الذى أجرى الدموع من عين شاعرنا، ثم ينتقل إلى بيئة عربية قديمة، فيخاطب أهل

---

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان . ص ٧٣.

البادية شاكيا من المحبة التى هو مصاب بها فيقول: إن حبيبتى تولت دون أن تعطف على قلبى فلا حاجة لى إليكم، فاقتلعوا خيامكم واحزموا أمتعتكم وانزلوا حيثما شئتم، أما أنا فاتركونى لأعيش مع أحزانى إما أن أموت حزنا أو أحظى بلقائها. إنه يشتكى لوعة الإعراض عنه، وكيف أنها لم تنظر إليه نظرة ود يشرب من خلالها ماء حياته ولكن عواطفه لهؤلاء الذين استمعوا لشكواه عليكم بالرحيل فلا حاجة لى إليكم ودعونى فإن الهموم كثيرة، وهى قاتلة نفسى لا محالة. فإن ذلك الحزن لن يدعنى حتى تزورنى غمامة لقياها، حينئذ تبل صدى نفسى ويجرى فى ماء الحياة. أين كان أهل السهل هؤلاء؟ لا أراهم إلا أنهم أشخاص استحضرهم الشاعر ليستمعوا إلى شكواه، وليطيعوه فى أن يتركوه وحيدا. فعل هذا على عكس ما يفعله الشعراء، والذى دفعه لأن يفعل على عكس ما يفعله الشعراء هو أنه فى منتصف أبياته الغزلية، ولو كان فى مستهل قصيدته لوقف واستوقف، وبكى واستبكى أسوة بمن يوقفون الأحباب، ويجردون من أنفسهم من يوقفوهم، ولكنه هنا تصور حضورهم فطلب إليهم أن يتركوه وحيدا مع ما يعانى، ما يهيد به الأمر الذى كان بينه وبين الحبيبة ولنسمع إلى صوت شاعرنا حيث يقول(١):

"ولت وما والت فوالت عبرتى	لم لا أهيم إذ الحبيب جفانى
يا أهل سهل اسهلوا بخيامكم	وذروا أخا الأحزان للأحزان
فومحنتى أحد الثلاثة كائن	أمضى كذا أو مت أو تلقانى"

نلاحظ أن شاعرنا بعد أن جارت عواطفه وما اصطنعت من صنعة الغزل أراد عقله أن يهذب تلك الصنعة فقال لها كفاك، وقد استعرض شاعرنا موهبته الشعرية وأراد أن يختبر نفسه هل يستطيع أن يقول الغزل أم لا؟ فقد وصف

---

(١) بساتين الغفران. للشيخ احمد رضا خان. ص ٧٣.

شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان جمال حبيبته وبالتالى أشواقه تجاهها كما أنه وصف حاله الذى كان بعد ترحل حبيبته دون أن تهتم بعواطفه نحوها، وهنا وصف شاعرنا شدة حزنه من المصاب، ولكنه رجع إلى شخصه بعد تنبيه صاحبه الذى استحضره خياله على غرار شعراء العربية، والذى قال لشاعرنا: توقف عن نظم الغزل يا ابن العلماء الأتقياء، وتنبه إلى المسئوليات الجسام التى مازالت على عاتقك من تحمل كل صعاب فى طريق التقوى، والهدى، والدعوة إلى حب الله - سبحانه وتعالى - وحب رسوله - صلى الله عليه وسلم - وإلى اتباع الشريعة الإسلامية الغراء، فإنك لست من أهل البطالة والانكباب على نظم الغزل، وهذا لا يتناسب مع شخصك، هذا الكلام يؤثر فى شاعرنا فيتوقف عن نظم شعر الغزل ويتوجه إلى ناصحه بالدعاء له قائلا: لله درك يا ناصحى ومخرجى من سبات الغفلة، أحسنت بتوجيه النصيحة إلى فأسألك أن تحسن إلى مرة أخرى بستر زلتى وأدعو الله تعالى أن يسترك بستر الأمان، ولعله فى نهاية المطاف كان يخشى أن يظن الغير أن غزله هذا غزلا حقيقا بالمرأة وليس غزلا صوفيا لذلك أراد أن يتبرأ من الظن، فغزله زلة فى نظره إذا كان غزلا حقيقيا بالمرأة أو المحبوبة، أما إن كان غزلا صوفيا فلن يكون زلة، وقد فهمت ذلك دون أن يعرض له هو من واقع حياة الشيخ أحمد رضا خان، وكأنما يدعوه عقله إلى ترك مثل هذا الغزل ولكن غزله كان صوفيا على ما أعتقد، وإنه أجاد صنعة الغزل لولا أبياته الأخيرة لتأكدنا أنه غزل حقيقى.

ونلاحظ أن شاعرنا من الشعراء حين يقول: "مه يارضا" الخ لا يستطيع أن يفارق هذه الخاصية بمعنى أنه سائر على درب الشعراء تعرض لهم ساعات ينوهون أثناءها بأنفسهم، هذا ما فعله الشيخ أحمد رضا خان، ليس من باب أن يمدح نفسه وإنما من باب أنه شاعر، وما من شاعر إلا تعرض له مثل هذه، وهذا الفخر مهذب عنده يعنى أنه اتخذ من الفخر معبرا لا مصدرا للفخر، وإنما استخدم الفخر

ليعبر من خلاله إلى قصد يريده ونحن لا نلومه على هذا، وحتى لو كان يفخر بذلك فمن حقه أن يفخر، فكل ما ذكره هو العلم والكرم، والتقى، وهذا أمر لا يترك الفخر به إلا غير عاقل، وفى هذا يقول(١):

"مه يارضا يابن الكرام الأتقيا	ياغرس دوح العلم والإتقان
دع عنك هذا لست أهل بطالة	وانهض إلى ما كنت فيه تضانى
لله درك ياناصيح نديمه	أيقظتنى من غفلة الوسنان
أحسنت فيما قلت فاستر زلتى	يسبل عليك الله ستر أمان"

نحن نقدر فى شاعرنا هذا النصيح وهذا الصديق الذى استوقفه قائلا: "مه يارضا" البيت، وذلك أسوة بما عليه شعراء العربية من نحو الاستيقاف لشخص أو لأكثر. ونلحظ كأن شاعرنا ذهب ليطرق باب الفخر عندما عبر عن نفسه بـ "يابن الكرام الأتقياء" و"ياغرس دوح العلم والإتقان" وإن كان على لسان الصديق النصيح من قبل نفسه. فأرى أن شاعرنا لم يأت بالفخر الذى يذم صاحبه بل إنه أقدم على الفخر بكرم آبائه العلماء وتقواهم وعلمهم، وكان شاعرنا محقا حين أقبل على الفخر بآبائه حيث إنه كان خير خلف لخير سلف وذلك بفضل التربية الإسلامية التى حظى بها على يد جده مولانا محمد رضا على خان النقشبندى، ومولانا محمد نقى على خان القادرى. ولا أرى هذا الفخر إلا الاعتزاز بالدين، وبالتالى كأن هذا الفخر نوعا من تذكير النفس بالمسئوليات الدينية التى ألقيت على عاتقه، على كل كان شاعرنا ناجحا فى نظم الفخر كما كان عليه الحال فى الأغراض الشعرية الأخرى لديه، وقام شاعرنا بالحفاظ على شخصيته الدينية عند إقدامه على النظم فى الفخر، مبتعدا عن الإفراط والتفريط، مقتفيا آثار من سبقه من شعراء العربية، متحدثا بنعمة الله

---

(١) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان . ص ٧٣، ٧٤.

تعالى، وكأنه يريد أن يقول: أنا أستطيع أن أنظم شعر الفخر أيضا، والفخر باب من أبواب الشعر الذى جذب الشعراء على مر العصور، وفى هذا يقول أستاذنا الدكتور رزق مرسى أبو العباس(١): ما من شاعر إلا وقد وانته اللحظة وحلت عليه ساعة يفخر فيها بنفسه، ويعتز بأصله ومحتده، لا يكاد يغفل واحدا من ارومته إلا فخر به، ونوه بفضله، وأشاد بذكره، وبلغ بأسرته إلى السماء، فقديما قال فى الجاهلية عمرو بن كلثوم(٢):

"ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

إذا بلغ الرضيع لنا فطاما تخر له الجبابر ساجدينا"

وقول الفرزدق(٣):

"إن الذى سمك السماء بنى لنا بيتا دعائمه أعز وأطول"

وقال المتنبى(٤):

"لا بقومى فخرت بل شرفوا بى وبنفسي فخرت لا بجدودى

وبهم فخر كل من نطق الضا د وعوز الجانى وغوث الطريد"

هكذا حلت على شاعرنا ساعة حيث يقف ويفخر فيها بنفسه فخرا محمودا.

وبعد هذا التوقف يقدم شاعرنا على التشبيب مرة أخرى، حيث تبدو عفة فكره، وطهارة نفسه فى الغزل، فشبه نفسه بقيس بنى عامر الذى طبقت شهرته الآفاق،

---

(١) نصوص أدبية تذوق وإحساس، للدكتور رزق مرسى أبو العباس على (ط: مطبعة الرفاعي بالقاهرة. ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م)، ص ١١٢.

(٢) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، لأبى بكر محمد بن القاسم الانبارى، تحقيق وتعليق دكتور عبد السلام هارون. (ط: دار المعارف، القاهرة، ١٤٠٠هـ)، ص ٤٢٦، قوام هذه القصيدة إثنان وتسعون بيتا والبيت المستشهد به رقمه واحد وتسعون.

(٣) معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، للشيخ عبد الرحيم بن أحمد العباسى، ج ١، ص ١٠٣.

(٤) ديوان المتنبى بشرح أبى البقاء العكبرى، ج ١، ص ٣٢٢، ٣٢٣.

البيت الثانى والثلاثين ثم الثالث والثلاثين موضع استشهاد من قصيدة قوامه ستة وثلاثون بيتا، تستهل القصيدة بقول المتنبى:

كم قتيل كما قتلت شهيد ببياض الطلى وورد الخدود

وتنتهى القصيدة بقوله:

انا فى امة تداركها الله غريبٌ كصالح فى ثمود

والذى يعد رمزا من رموز الحب العفيف – الحب العذرى – والذى خلد اسم نجد حيث عاش فى حب ليلى ومات على حبها ومن هذا المنظور يقول شاعرنا: أنا قيس نجد، ولكننى أقطن نجدا يتصف بالنزاهة، وإن كلا من العفة والطهارة جنة لى من الجنون. يوضح شاعرنا حبيبته المرموز لها والتى لم يفصح عنها قائلا: إذا كنت قيس نجد فحبيبتى بالطبع "ليلى" ولكنها تتمثل فى ليل تحل فيها عرائس الفكر والإمعان فى قلبى. وهن يرحن قلبى بنزولهن واستقرارهن فى نفسى وأنا أتمتع بهن كما يتمتع المحبون بحبيباتهن فأقضى الليلة فى نعيم وارتشاف لما ورف لسان، فلما أصبحت سعيدا فى نهاية هذه الليلة قيل لى "أحييت الليلة" فقلت: "بل أحيانى الليل"، ومن هنا تتضح وتتجلى نزاهة شاعر وعفته وتصوفه وإن لم يدع شاعرنا تصوفه – والصوفية عادة يركزون على العمل أكثر من الإدعاء بالتصوف – ولكنه أى حب يعمل عمل الجنة؟ ويحمى القلب عن الجنون؟ وما الذى جعل قيس نجده متصفا بالنزاهة الفائقة؟ وأى حب لا يلام فيه المحب بعد أن يبيت مع حبيبته؟ وأى حب يبارك فيه المحب بعد قضاء ليلة مع الحبيبة؟ إنه الحب الصوفى، ومن المعلوم أن إحياء الليلة عند الصوفية المحبين لرب العالمين لا يتحقق إلا بالعبادة والذكر والمناجاة طوال ساعات الليل ، وأحسن أوقات المناجاة هو جوف الليل، أو الثلث الأخير منه فتتجافى جنوب هؤلاء المشتاقين إلى الله تعالى عن مضاجعهم، ومن هنا اتخذ الصوفية أصحاب القلوب المفعمة بالحب الإلهى أسوة حسنة لهم، فقاموا بإحياء لياليهم حتى أنهم تمتعوا بحياة القلوب وأصبحت قلوبهم منورة بنور الحب الإلهى، وتوافقت نبضات قلوبهم مع ذكر الله تعالى، وكان شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان واحدا من الصوفية المتمسكين بأسوة سيد المحبين – صلى الله عليه وسلم – لرب العالمين – جل جلاله – فى الحب الإلهى، فكان يقضى نهاره مفتيا ومعلما كما كان يحيى لياليه بالعبادة، والمناجاة، والتضرع إلى الله – تبارك وتعالى –، هذا وقد سلك خطوات الشعراء المتصوفين فى نظم الغزل الصوفى، فقد استخدم أساليب العذريين ولكنه رمز بالمرأة إلى الأفكار التى كانت تتجلى عليه فى سهراته، والعلوم التى

كانت تضيئ باطنه وتنير فكرته، ومن هنا سار شاعرنا على دروب الصوفية في الرمز، فلنسمع إليه حيث يقول[١]:

"أنا قيس نجد فيه نزهة جنة ... هى جنة من جنة لجنان

ليلاى ليل كنت فيه منادما ... لعرائس عرب حللن جنانى

أسكن قلبى إذ سكن وبت في ... نعم ارتشاف لما ورف لسان

حتى إذا أصبحت سعدا قيل لى ... أحييت ليلك قلت بل أحيانى"

وبعد هذا يقدم شاعرنا على بيان تلك الرموز التى استخدمها فى البيت التاسع والعشرين والبيت الثلاثين، فيسأل مخاطبه المستحضر فى ذهنه: أعلمت ما هو النجد؟ ثم يجيب بنفسه قائلا: إنه نجد تعلم وتفكر، أما الليل فليل التفكير والإمعان، وإن هذا الليل يكشف النقاب عن نجوم المعانى عند إرخائه ستار الظلام على الناس، يقول شاعرنا مبينا هذه الرموز[٢]:

"أعلمت ماذا النجد نجد تعلم ... والليل ليل الفكر والإمعان

ليل إذا أرخى ستار ظلامه ... رفع الستارة عن نجوم معان"

إن شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان قام ببيان نزاهة غزله وعفة حبه خير قيام وذلك من البيت التاسع والعشرين إلى الرابع والثلاثين - كما سبق أن درسنا - وبالتالى أخذ يعرب عن تبرئته من الغزل الحقيقى، وذلك من البيت الخامس والثلاثين لغاية التاسع والثلاثين، ومع ذلك يصور فيحسن التصوير ويشبه فتأتى تشبيهاته رائعة جيدة، ها هو يقوم بتشبيه الجميلات بالدمى المرصعة بالدرر كأنهن متكئات على السرر، وكأنهن التماثيل ويغمز بها الهندوس الذين يتعبدونها فى شبه القارة الهندية، ومن هذا الإطار يقول شاعرنا: "لست بعابد الأوثان، وليس لى أى احتكاك مع تلكم الدمى وإن كن على السرر ومرصعة بالدرر" وشاعرنا يعنى بذلك

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان، ص ٧٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٧٤.

أنه لا يلتفت إلى الجميلات مهما كان جمالهن، فكأنه يقول: "إننى لست مهتما بهذا الجمال الأنثوى وليس بينى وبين الغزل المثير للكامن أى علاقة، فلم أتغزل فى هذا المعنى ولم أر مرتع الغزلان، فالغزل الذى أتغزل به والهوى الذى أهواه ليس حقيقيا، بل غزلى أرفع من التغزل بالمرأة"، وقد أفهم من هذا النص أنه أراد بالجميلات ما فى دنياه من مفاتن وأفكار وطرق يدعوه الاستعمار إلى سلوكها، وقد يقع فى تلك الحبال بعض من المستضعفين ولكن شاعرنا أقوى من ذلك، فلا تستطيع الدنيا أن تفتنه ولا يمكن للمباهج أن تجره إليها، فهو ثابت على مبادئه حيث إنها مبادئ راسخة تضرب جذورها إلى تلكم التربية الإسلامية التى تربى عليها ونشأ فى حجرها، وقد قال معتزا بهذه التربية الإسلامية التى حظى بها على يدى جده ووالده: "كيف يمكن لى أن أطمع فى غناء المطربات، وإن قلت سابقا فى غزل النساء فليس غزلى تلبية للرغبة فى لهو الشباب ولعبهم إلا اقتفاء بآثار الشعراء السابقين".

فى تصورى أن شاعرنا شعر بأنه يمكن أن يسأل سؤالا مؤداه لماذا تغزلت ولماذا قلت ما قلت؟ ولماذا بلغ بك الغزل بيت القصيد؟ حين وقع لك من المعانى ما لم تسبق إليه، كما سبق أن أشرت إلى ذلك فى قوله "فى بدرها قمران"، حين تصور هذا شاعرنا وأراد أن يرد على هذا التساؤل فقال: "إن هذا اللهو واللعب لا يتفق مع طبيعتى ولا يوافق هواى وفكرى" وكأنما يقول شاعرنا: إنما أردت بالغزل لأقف وأقول: "أنا أستطيع أن أجارى شعراء العربية، وها هى قدمى راسخة فى الغزل وإن كنت غير عابئ به كمبدأ أو كملعب للشباب ولهوهم، وشاعريتى تستطيع أن تضارع غيرها من الشعراء من أصحاب الفن وتسلك مسلكهم.

لم يكن تشبيب شاعرنا إلا تمهيدا للمدح، وشأنه فى ذلك شأن الكثير ممن تقدمه من الشعراء الذين كانوا يبتدؤن بالغزل ثم ينتقلون إلى الغرض الحقيقى ليلفت الأنظار، ويستدعى الانتباه، من هؤلاء الشعراء نضرب المثال بكعب بن زهير فقد بدأ لاميته بالغزل ثم انتقل إلى راحلته التى سوف يتخذها وسيلة تصل به إلى غايته، فركب الناقة ووصف تلك الناقة، ثم انتقل إلى الغرض الأساسى وهو مدح سيدنا

رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والاعتذار إليه، أعتقد أن شاعرنا قبل أن يقول الأبيات الأخيرة من غزله تصور أن شخصا سوف يسأله: إذا كنت تبرأت من الإلتفات إلى الجميلات والاهتمام بالجمال الأنثوى فلما ذا قلت ما قلت؟ فأراد شاعرنا أن ينفي عن نفسه التغزل الحقيقي فقال: ما هذا ديدنى أن أقول فى وصف الجميلات ولا يستهوينى جمالهن حتى لو كان ذلك الجمال عبارة عن أنهن دمى محلات بالدرر وقد أجلسن على السرر، وإنما إقدامى على نظم الغزل ليس إلا تشبيب شعر، واختبارا لقوتى، وإثباتا بأن شاعريتى تستطيع أن تجارى غيرها من أصحاب هذا الفن، وأقول مثلهم دونما أن أتأثر من ذلك وأن أميل إليه، وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه أن شاعرنا لم يقل غزلا للغزل، وإنما كان غزلا صوفيا لإظهار براعته فى نظم الغزل، وإنما خشى بعده أن يظن القارئ أنه رجل غزل فأراد أن ينفي عن نفسه هذا الظن بما قاله فى نهاية المطاف، وكان غزله عبارة عن تمهيد لينتقل بعد ذلك إلى الغرض الأساسى وهو مدح مولانا فضل الرسول البدايونى[١] فلم يكن الغزل إلا معبرا، ومع ذلك كان شاعرنا رائعا فى غزله، وقد وقع له أكثر من معنى لم يسبق إليه – على نحو ما سبق أن ذكرت – لولا تبرئته من الغزل لتأكدنا أنه أتى بالغزل الحقيقى، أما كلمة الرحلة فأعرب شاعرنا عن معناها قائلا[٢]: "الرحلة – بضم الراء – من العلماء هو العلم المقتدا الذى يرتحل إليه من كل حدب للاستفادة والاستفاضة" وكأنه عبر عن انتقاله من الغزل إلى المدح بالرحلة فقال: أقبلت الآن على مدح عالم دينى ارتحل إليه بمشاعرى وعواطفى، وأعده قدوة لى من العلماء المعاصرين لى، وكأن الشاعر يستبرىء أن ما قاله فى الغزل هو مجرد تشبيب وتمهيد للإقدام على الغرض الأساسى لنظم هذه القصيدة جريا على عادة من سبقه من شعراء العربية الكثيرين، وفى هذا يقول شاعرنا[٣]:

"مالى وللدميات من درر على سرر ولست بعابد الأوثان

---

(١) لقد سبق أن حاولنا دراسة هذا الغرض فى الفصل الأول من الباب الثانى.

(٢) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٩٢.

(٣) المرجع السابق، ص ٧٤.

مالى وللغزل المهيج فـــلا أكـــن	غزلا ولم أر مرتع الغـزلان
مالى وللإهواء إلى مهوى الـهوى	أفلى غناء فى غناء غـــوان
مـــا كـــان هـــذا ديدنــــى لكنــــه	تشبيب شعر لا دد الشـــبان
إذا ما دد منى ولأ أتـــــا مـــن دد	إذ جئت أمدح رحلة لأوانى"

من هذا المنطلق يمكن لنا أن نقول: إن شــــاعرنا الصوفـــى تغـــزل بــــالغزل الصوفى وذلك نظرا لمكانته المرموقة بين مشايخ الطريقة القادرية، وعدم اطلاعنـــا على نص أو إشارة – ضمن كتب سيرته – إلى أنه أغرم بفتــــاة طـــوال حياتـــه، فاستعار شاعرنا طريقة العذريين، واستخدم التركيب الرمزى فى أبياته، ولقد قــــام شاعرنا بإنشاء نصيح داخل نفسه على أسلوب شعراء العربية، وسمع هذا النصيــح يخاطبه قائلا: "مه يارضا" البيت، وبالتالى توقف عن التغزل وبدأ يبين حبه العفيـف وذلك من البيت السادس والعشرين إلى البيت الرابع والثلاثين، ثـــم يختتـــم الغـــزل بغلاف لطيف من الختام وكان هذا الالتفات من ابتكار الشــــعراء المحدثيــن فـــإن الشعراء القدامى كانوا ينتقلون إلى الغرض الأساسى مباشـــرة دون أن يعـــد لذلـك مقدمات، هذا وقد تبرأ شاعرنا من الغزل الحقيقى فى نهاية المطـــاف وذلـك فـــى الأبيات الأخيرة من مقدمته الغزلية، واحتوت هذه الخاتمة على خمسة أبيـــات مـــن البيت الخامس والثلاثين إلى البيت التاسع والثلاثين، فقد برر شاعرنا موقفه من هذا الغزل حيث إنه اعتبر هذا الغزل مقدمة للغرض الأساسى ألا وهـــو مـــدح العـــالم الدينى الكبير مولانا فضل الرسول البدايونى، لقد انتقل شاعرنا فى نونيته التى بدأها بالغزل من غرض لآخر ولكن موهبته الشعرية انصبت فـــى المناجـــاة والصـــلاة والسلام على خير الأنام سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – وأرى أن ظــــاهرة النجوى بين بداية القصيدة ونهايتها تشكل وحدة بين هذين الطرفين، فكان قد اســتهل قصيدته بالنجوى مقتفيا آثار من سبقه من الصوفية الذين سلكوا مســـلك الرمزيـــة، ليس من الهند فقط بل من العرب أيضا كما سبق أن أشرنا إلى نشأة هذا الفن فـــى القرن الثالث الهجرى، وأعتقد أن هذا كل ما كان وراء اقدامه على نظم الغزل.

المبحث الثالث

مشاعر دينية فياضة وشيئ من السيرة

إذا كنا درسنا المناجاة وما نظم فيها شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان فهناك بعض أبياته فى غير المناجاة ولكنها وثيقة الصلة بالمناجاة، وقد انبثقت هذه الأبيات من المشاعر الدينية الفياضة لدى شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان فلم نذكرها ضمن أبيات المناجاة بل أفردناها بالذكر لأنها وإن كانت فيها الروح الدينية إلا أنها تختلف عن المناجاة، فالمناجاة حديث بينه وبين ربه وخطاب موجه إليه سبحانه وتعالى، وأما هذه المشاعر فهى وإن كانت قالبا مفعما بالعاطفة الدينية إلا أنها حديث بينه وبين نفسه، وعليه رأيت أن أفردها بمبحث خاص، وهذه ثلاث منظومات والتى سوف نحاول أن ندرسها فيما يلى:

إن أول هذه المنظومات تشتمل على ثلاثة أبيات من بحر الطويل أوردها محقق الديوان تحت عنوان: "وقال بعد الفراغ من تصنيف إحدى رسائله" وقد أدلى بالتفصيل قائلا[١]: ذكر الشيخ أحمد رضا خان أنه صنف رسالة فى الرد على طائفة الطبيعين الدهريين التى تزعم أنه لا وجود لجبريل ولا ملك ولاجن ولا شياطين ولا سماء ولا إسراء، ولا جنة ولا نار، ولا حشر للمخلوقات على المعانى التى يعرفها المسلمون، وتؤول كل ذلك على طريق الباطنية، وتتفوه أن ربنا لا يقدر على خرق العوائد، ومن أجل ذلك تنكر المعجزات بأسرها وتؤلها بما يردها إلى وفق العادة، وتقول إن استرقاق المشركين فى الجهاد حرام ... وطلب [الشيخ

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١٧٨، ١٧٩.

أحمد رضا خان] من علماء الحرمين المعظمين و البلدين المقدسين مكة المكرمة و المدينة المنورة كتابة التقاريظ على رسالته هذه وذكر في بداية رسالته هذه أنه أخذ يصنفها بعد صلاة الفجر يوم الأربعاء السادس عشر من شهر شوال و اختتمها تسويدا وتبييضا قبل أن يبزغ الفجر من سابع عشر يوم الخميس إلا أنه لم يذكر فيها السنة، ثم ذكر بعد ذلك هذه الأشعار التي أنشدها لتدل على المدة التي مكثها لتصنيف هذه الرسالة" اهـ إذا كان المحقق الفاضل لم يذكر السنة أيضا فقد اطلعت على هذه السنة من خلال اسم الرسالة التي صنفها الشيخ أحمد رضا خان في الرد على الدهريين وبعض الفرق الأخرى، فقد سمى شاعرنا رسالته هذه باسم تدل حروفه - بحساب الجمل - على عام التأليف وهو "فتاوى الحرمين برجف ندوة المين" والذي يدل على العام الثالث عشر من القرن الثاني عشر للهجرة.

ومما تجدر الإشارة إليه أن شاعرنا كان ذا ثقافة عريضة حيث إنه كان يتمتع بالثقافة الدينية بمختلف علومها و الثقافة الأدبية بشتى فنونها، فنجده يوظف ثقافته الدينية و الأدبية معا فإنه بعد الفراغ من تصنيفه هذا في الرد على الطبيعين الدهريين أقدم على نظم هذه الأبيات الثلاثة التي تمثل مشاعره تجاه الدين، فكأن تمكنه من هذا الإنجاز في أبسط وقت هيج مشاعره الجياشة وأخرج منها ما يليق بهذا التأليف من غبطة وسرور و استحسان، ولا سيما وكان التصنيف في أرض مكة المكرمة، وشاعرنا في كل هذا يحمد الله تعالى ويشكر له الفضل و العطاء ثم يذكر فضل النبي - صلى الله عليه وسلم - على المسلمين جميعا بوصفه هاديا ومرشدا وحاملا راية دين الحق فكأنه يشكر الله تبارك وتعالى على توفيق الدفاع عن الإسلام بالرد على طائفة الدهريين، كما يرد إلى الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - فضله الجم بأنه كشف بإرشاداته غمة الجهل و الضلال، وجلى ظلمة الكفر و الشرك بإبلاغ

رسالة الله تعالى إلى الإنسانية جمعاء، نسأل الله أن يقبل من شاعرنا هذه المشاعر ويأجرنا على الاستماع إليها، والاستمتاع بها، فلنستمع إلى الشاعر حيث يقول[١]:

"فما هو إلا شغل عشرين ساعة	وعنها أنى السجد والأكل يفرد
فما كان إلا بتوفيق ربنا	له الحمد حمدا دائما يتأبد
وصلى إله الحق دوما على الذى	أتانا بدين الحق يهدى ويرشد"

فلا نجد فى هذه الأبيات الثلاثة إلا تحدثا لنعمة الله تعالى التى من الله تعالى بها على شاعرنا بتوفيقه إياه للتصدى بالوقوف فى وجه الدهريين والقيام بإنجاز رسالة قيمة فى الرد عليهم فى وقت غير طويل، وقد رأيناه قسم الأبيات بين أمور ثلاث. قصد إلى كل أمر ببيت واحد، أما البيت الأول فيذكر فيه تلك المدة التى قضاها فى تأليف هذه الرسالة، وقد حددها بعشرين ساعة شغلتهٔ أفكارها، واجتذبته ورودها، ولم لا وللمكان الذى يجلس فيه قدسية تدعو إلى ذلك واهتمامات نفس الشاعر أيضا تدعو لما شغل نفسه به، وكان من الطبعى أن يعرض فى البيت الثانى لحمد الله تعالى وتوفيقه إياه على إتمام هذه الرسالة، وشاعرنا بين حمد الله ودعائه والضراعة لوجهه الأعلى وبين صلاته وسلامه على الحبيب المصطفى – صلى الله عليه وسلم – كالنحلة التى تنتقل لتجد غذاءها فوق كل زهرة مما تمر عليه، وشاعرنا كذلك ينتقل من ضراعته إلى الله تعالى ورجائه إلى الحبيب المصطفى – صلى الله عليه وسلم – فى كل أمر يبتدؤه ويُنْهِيْهِ، ولما كانت هذه الأبيات بمثابة الشكر لله تعالى على توفيقه إياه لتأليف رسالة فى الرد على الدهريين، لذلك كانت صلاته وسلامه على الحبيب المصطفى – صلى الله عليه وسلم – فُسْحته فى البيت الثالث، وهكذا يكون الشاعر قد جعل من هذه الأبيات الثلاث سجلا لما أنجز وشكرا

---

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١٧٨.

لله على ما وفق إليه، أما الصلاة والسلام على النبى – صلى الله عليه وسلم – فهما الجوهرتان اللتان يزدان بهما كل نسيج شعرى عند الشيخ أحمد رضا خان، قد تكونان مرة واحدة كما هو الحال فى هذه المنظومة، وقد تتكرران بتكرار المشاعر النفسية عند شاعرنا.

أما المقطوعة الثانية التى نظمها شاعرنا من بحر البسيط فمكونة من عشرة أبيات ولكن المناسبة لم تكن معروفة، فما هى إلا عواطف جاشت ومشاعر تحركت، وقلم شرع فى تسجيل ذلك كله، يذكر محقق الديوان عن هذه الأبيات(١): هذه المنظومة افتتح بها الجزء الثالث من ديوان حدائق بخشش [ديوانه الشعرى بالأردية] ومعلوم أن الجزء الثالث هذا طبع بعد انتقال الشيخ أحمد رضا خان إلى رحاب ربه، وقد جمعه ورتبه مولانا محمد محبوب على خان القادرى".

وهذه الأبيات تبدأ بالحمد لله تعالى، وبالتالى يصلى شاعرنا على الحبيب المصطفى – صلى الله عليه وسلم – منجى الناس من سقر، ثم يعوذ بربه تعالى من الاحتكام إلى غير الله – تبارك وتعالى –، فإن شاعرنا متيقن يقينا لا يزعزعه شئ أنه ليس هناك من هو أكثر عدلا وفضلا من الله تعالى، فلا يلجأ إلا إلى الله تبارك وتعالى فيقول(٢):

"الحمد لله رب الكون والبشر	حمدا يدوم دواما غير منحصر
وأفضل الصلاة الزاكيات على	خير البرية منجى الناس من سقر
بك العياذ إلهى إن أشا حكما	سواك يا ربنا يا منزل النذر"

---

(١) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١٨٣.
(٢) المرجع السابق. ص ١٨٢.

نراه في هذه الأبيات يحمد ربه تبارك وتعالى ويتضرع إليه أن يمن بأفضل الصلوات وأزكى السلامات على الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - ولم لا فبهداه - عليه الصلاة والسلام - يمن علينا ربنا - جل اسمه - بالنجاة من سقر، والقرآن حافل بذكر ما تفعله سقر، وها هو شاعرنا وهو يقدم على تذكيرنا بنعمة العقل ومن ألهمنا إياها، ومنحت المتعة به، والهداية بنوره فالمراد بالنّذر الوارد في البيت الثالث العلم والحذر أو الإنذار والتخويف كما أخذ من تاج العروس[١] (نذر بالشيء) وكذلك بالعدو (كفرح) نذرا (علمه فحذره) ومنه الحديث: "أنذر القوم أرى إحذر منهم وكن على علم وحذر، ونقل شيخنا أنهم صرحوا بأنه ليس له مصدر صريح ولذلك قالوا: إنه مثل عسى من الأفعال التي لا مصادر لها ... قلت وقد ذكر ابن القطاع له ثلاثة مصادر حيث قال: نذرت بالشيء نَذارة ونِذارة ونذرا: علمتهُ (وأنذره بالأمر إنذارا ونَذَرا) بالفتح عن كراع واللحياني ... أي (أعلمه و) قيل: (حذره وخوفه في إبلاغه) وبه فسر قوله تعالى[٢]: **وأنذرهم يوم الآزفة**

ومن هنا نستطيع القول: إن الشاعر قصد من كلمة "النذر" الإعلام بالسقر - الوارد ذكرها في البيت الثاني - والتحذير منها، وكان من الممكن أن يستبدل الشاعر حرف الذال من النذر ويجعله ظاء ولا يختل المعنى المراد للشاعر، حيث إن النظر المراد به العقل وما يترتب عليه ، وحينئذ يمكننا أن نقول: "بنور العقل وبلسان الرسل وهداهم يمكن أن يستقيم العقل" فيذكرنا الشيخ أحمد رضا خان بنعمة العقل، ويخوفنا من أن نحكم في أمورنا غير الله تعالى وذلك بحذف المضاف، والمراد أنه يحذرنا من أن نحكم غير شرع الله تعالى.

---

(١) تاج العروس، للزبيدي، ج ٣، ص ٥٦١.
(٢) سورة غافر ١٨/٤٠.

وفى البيت الرابع من القصيدة هذه يتوجه شاعرنا إلـى مخاطبـة المصـاب بالزيغ والفساد فى العقيدة، ولم يكن المخاطب معروفا بشـخصه وإنمـا أرى أنـه يخاطب كل من انحرف عن الصراط السوى ويقول له: ألا نحتكم جميعا إلى النبـى - صلى الله عليه وسلم - الذى لا ينطق عن هواه إنما نطقه وكلامه بوحـى مـن مولاه حيث قال تبارك وتعالى[١]: **وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى**

كما يسأل مخاطبه: أن يستأنس بما جاء من رجاحة عقل كل مـن سـيدنا عمـر وسيدنا على - رضى الله عنهما - صاحبى رسول الله - صلى الله عليه وسـلم - ولعله جمع بين هذين الصاحبين الجليلين ليجمع بين الحسم الذى عرف بـه سـيدنا الفاروق، والتوسط الذى عرف به سيدنا على - رضى الله عنهما - ولو اسـتطاع شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان أن يحكم فى مخاطبه سيدنا الفاروق لفعـل وذلـك لبغضه كل البغض من ينحرف عن الجادة ويخرج عن رأى أهل السنة والجماعـة، وكم يتمنى له شاعرنا أن يرجع عن إعوجاجه أو يقوم بسيف سيدنا عمر - رضوان الله عليه - وينصح مخاطبه بالتخلى عن اتباع رغبته وهواه فى أمـر مـن أمـور الدين. وفى هذا يقول[٢]:

ألا تعال إلى المختار مـن مضـر	صلى الإله على المختار من مضـر
إن شئت فانهض إلى الفاروق نسأله	فالحق يظهر من ألفاظـه الغـرر
هلم اسـرع نسـأل عـن حيـدرة	إلا تقـول تحاكمنـا إلـى عمـر

وفى البيت السابع يطلب شاعرنا الشيخ أحمد رضا خـان - مـن مخاطبـه الإنصات إلى كلام العلماء التابعين لسيد المرسلين - عليـه الصـلاة والسـلام -

(١) سورة النجم ٥٣/٤.
(٢) بساتين الغفران. للشيخ احمد رضا خان ، ص ١٨٢، ١٨٣.

وأصحابه المقتفين بآثاره نجوم الهداية أجمعين، ويرى شاعرنا أن هؤلاء العلماء نظرا لاتباعهم وصلاتهم القوية برسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه – رضوان الله عليهم أجمعين – أصبحوا قدوة وأسوة حسنة لمن له رغبة فى الاقتداء فى الثبات على الهداية، ويطلب كذلك من المخاطب إما البرهان على موقفه إن وجد، وإلا فالتنازل عن الموقف السائد، ثم يسأله سبب عدم احترامه للعلماء قائلا: إن هذا السلوك يعتبر من الكبر، ومن المعلوم أن الله – تبارك وتعالى – لا يحب كل متكبر جبار، وبعد الإشارة إلى عواقب الكبر ينتقل الشاعر بالتواضع لله – تبارك وتعالى – قائلا: إن هذا العبد – يقصد الشاعر نفسه – يتوجه بالثناء والحمد لله المحبوبين إليه من متاع الدنيا، وفى هذا يقول[1]:

"اسمع كلام أولى العرفان والعلما ... ففيهم الأسوة الحسنى لمعتبر
إن كان عندك برهان فأبد لنا ... أم لا إمام سوى الإصرار والبطر
مالى أراك سليطا تشتم العلما ... إن الشتيمة ياهذا من الكبر
العبد يثنى على المولى بمحمده ... أشهى من الدر بل أبهى من الدرر"

فى هذه المنظومة أربعة من الأبيات ما يمكن أن نقول: إنها أبيات القصيد منها الأبيات الثلاثة الأولى، وهذه قصيدة أديب حيث لا تقديم ولا تأخير، والرابع فى محل الخاتم بالنسبة للقصيدة، والبيت يقول بلسان الحال أنا خاتمة المطاف.

أما المقطوعة الثالثة التى تحمل المشاعر الدينية الفياضة بما فى ذلك الأبيات الخمسة التى يراها محقق الديوان عربية، فقد وردت هذه الأبيات ضمن منظومة فارسية نظمها شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان تحت عنوان فارسى "مثنوى رد

---

(١) المرجع السابق. ص ١٨٣.

أمثالية" معناه بالعربية المثنوى فى الرد على القائلين بالمثلية" والمراد بالمثلية قول القائلين بمثلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - بينه وبين البشر فهم يرونه لا يفترق عنهم شيئا، وهذه المنظومة لشاعرنا ردت عليهم هذا الاعتقاد لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - لا يتفق معنا إلا فى البشرية فقط، ولكنه يفوق البشر فيما يفوق، فإن حكمة الله شاءت أن اختارته على نمط معين **الله أعلم حيث يجعل رسالته** [١] فالمفروض أن تكون لديه القدرة على تحمل الوحى ما يعينه على أداء مهمته التى وكلها الله تعالى إليه ، فليست المثلية بينه - صلى الله عليه وسلم - وبين هؤلاء إلا البشرية، والمثلية فى البشرية نصت عليها الآية: **قل إنما أنا بشر مثلكم** [٢] ولكن الجزء الثانى يميز النبى - صلى الله عليه وسلم - عن هؤلاء: **يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد** [٣] فيختلف معنا فى الوحى، فنحن لا يوحى إلينا وإنما نبلغ ببشرية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولو كنا مثله لتلقينا الوحى، وهذا الذى لم يفهمه أولئكم الناس المتناسون شرف النبى - صلى الله عليه وسلم - وأفضليته للبشرية جمعاء، ولله در البوصيرى حيث يقول[٤]:

فاق النبيين فى خلق وفى خلق ... ولم يدانوه فى علم ولا كرم

على كل فقد قام شاعرنا ضمن قصيدته هذه بالرد على القائلين بالمثلية بينه - صلى الله عليه وسلم - وبينهم، ولسنا بصدد الكلام عن القصيدة ككل، لأن القصيدة الفارسية ليست بموضوع حديثنا، لكننى بينت العنوان، وداخل هذا العنوان جعل المحقق أبياتا خمسة وعدها عربية وهى الأبيات رقم الثانى والثلاثون، والثانى

---

(١) سورة الأنعام ١٢٤/٦.
(٢) سورة الكهف ١١٠/١٨.
(٣) سورة الكهف ١١٠/١٨.
(٤) بردة المديح المباركة، للامام البوصيرى، ص ٢٣.

والتسعون، فالسادس والتسعون، فالسابع والتسعون، فالرابع عشر بعد المائة، هذه هي الأبيات العربية المختارة من القصيدة الفارسية للشيخ أحمد رضا خان، التي تتألف من تسعين ومائة بيت، عدّها محقق الديوان خمسا ولكنني لا أراها إلا أربعا، وذلك لأنني أستثني أول هذه الأبيات، لأنني أراه فارسيا في نسجه، وإن كان البيت مفعما بالألفاظ العربية، فقد نظر محقق ديوان الشيخ أحمد رضا خان إلى تدفق الألفاظ العربية في هذا البيت فعدها خمسا، أما أنا فأعدها أربعا لأنني نظرت إلى أسلوبه. فطريقة نسجه في نظري فارسية وليست بعربية، وإن كان البيت حافلا بالمصطلحات العربية، فكانت هذه الأبيات الأربعة المتفرقة في قصيدة فارسية جمعها محقق الديوان، على كل نجد ثمة ترابط بين الأبيات الأربعة، فإن الشاعر يضرب المثال بهؤلاء المغضوب عليهم، ففي هذا يقول[١]:

"معدن أسرار علام الغيوب برزخ بحرين إمكان ووجوب"

أما البيت الثاني حسب ترتيب محقق "بساتين الغفران" فنلاحظ أن شاعرنا يشير فيه إلى قصة نبي الله هود - على نبينا وسائر الأنبياء والمرسلين أفضل الصلاة وأزكى التسليم - مع قومه، فإنه عندما أنذر قومه بالعذاب العظيم ونهاهم عن عبادة غير الله - سبحانه وتعالى - طلبوا منه تنفيذ الوعيد اختبارا لصدقه، فبين لهم نبي الله أنه قد أبلغهم رسالة ربهم، فأرسل الله تعالى عذابه إلى هؤلاء المتمردين، وقد حفلت بذكر ذلك سورة الأحقاف مبينة كيف استقبلوا العذاب وكيف كانوا يؤملون من ورائه الخير، وأنى لهم ذلك وقد كفروا بمن بعثه الله إليهم؟ يقول مولانا عز وجل[٢]: **فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض**

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٢١٦.
(٢) سورة الأحقاف ٤٦/٢٤، ٢٥.

ممطرنا. بل هو ما استعجلتم به. ريح فيها عذاب أليم، تدمر كل شئ بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم، كذلك نجزى القوم المجرمين .

أما البيت الثالث والرابع فيشير فيهما الشاعر إلى الآيتين اللتين نزلتا في حق نبينه - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه - رضى الله عنهم أجمعين - حيث قال الله عز وجل(١): **هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيدا، محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم، تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود. ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما**

نلحظ تمرد قوم عاد وعاقبتهم الوخيمة فى استشهاد شاعرنا من سورة الأحقاف، وبالتالى نلاحظ ما وعد به الله تبارك وتعالى رسوله ونبيه - صلى الله عليه وسلم - من إعطاء غلبة على الكفار، والمغفرة، والأجر العظيم للذين آمنوا بالله ورسوله، فكأن شاعرنا الداعية الإسلامى ببيان هذين الموقفين يريد أن ينبه المنحرفين عن أحكام الشريعة الإسلامية السمحة والمتناسين شرف النبى المبعوث من البشر والمتوج بسيادة البشر - صلى الله عليه وسلم - على العواقب الوخيمة لتمردهم وانحرافهم، كما أنه يشوق المتتبعين للدين الحنيف، والمحبين للحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - إلى المزيد من طاعة الله - سبحانه وتعالى - ورسوله - صلى الله عليه وسلم - وفى هذا يقول(٢):

---

(١) سورة الفتح ٤٨/٢٨، ٢٩.
(٢) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٢١٦.

بل هو ما استعجلوا خزى عظيـم	أرسلت ريح بتعذيـــب أليــم
قل كزرع أخرج الشـــطأ إلـــى	آزر فاستغلظ ثـــم اســتوى
يعجب الزراع كالمـــاء المعيــن	كى يغيظ الكافرين الظـالمين

أما البيت الخامس فيشتمل على المناجاة وتواضع شاعرنا لله - تبارك وتعـالى - المقتبس من الآية القرآنية التى تبين لنا تواضع الملائكة لله - تبارك وتعـــالى - واعترافهم بقلة العلم وذلك عندما طلب منهم ربنا - تبـــارك وتعـالى - أن ينبئوا بالأسماء التى يعلمها نبى الله آدم - عليه السلام - إذا كانوا صادقين فى موقفهم من اتخاذ ربنا خليفة فى الأرض، وقد نقل القرآن الكريم اعترافهم كما يـــأتى: **قـــالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم** [١]. ومـــن هنـــا اقتبــس شاعرنا أسلوبا يمثل تواضعه لله تبارك وتعالى، وشاعرنا ينـــاجى ربـــه بالتســـبيح، والاعتراف بفضل الله تعالى وكرمه حيث إنه - جل شأنه - خلق الإنســـان علمـــه البيان، وفى هذا يقول شاعرنا[٢]:

ربنا سبحانك ليس لنـــا	علم شيئ غير ما علمتنـــا

هذه هى نهاية المطاف لأبيات أربعة نظمها شاعرنا ضمن منظومته الفارسية، حيث إن الأول[٣] يشتمل على الترهيب والتخويف عن التمرد ومعصية الخـــالق - جل وعلا - كما أن الثانى والثالث[٤] يشتملان على الترغيب فى المزيد من طاعـة

---

(١) سورة البقرة ٣٢/٢.
(٢) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٢١٦.
(٣) وهو الثانى حسب ترتيب محقق بساتين الغفران.
(٤) الثالث والرابع حسب ترتيب محقق بساتين الغفران، وقد سبق أن أشرنا إلى السبب لعدم اعتبـــار البيت الأول من الأبيات العربية (الباحث).

الله – سبحانه وتعالى – ورسوله – صلى الله عليه وسلم – وكان كل من المناجاة، والتسبيح – والاعتراف بفضل الله تعالى على بني الإنسان ومنه وكرمه بإعطائهم نور العلم نهاية المطاف.

أما المقطوعة الرابعة فتشتمل على ستة أبيات من بحر الرجز المجزوء يحاول فيها شاعرنا أن يقص علينا شيئا من السيرة النبوية العطرة، وهو وصف لبعض أحوال أتى بها جبريل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهذه الأبيات لم تكن مقيدة في الديوان فقد تفضل بإرسالها إلى أستاذى و والدي مولانا محمد عبد الحكيم شرف القادرى من الهند خلال زيارته لبعض مدنها، فرأيت أن ألقى ظلال بحثى على كل جهد شعرى عربى دبجه يراع شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان، وذلك لأن تراثه في الشعر العربى موضوع بحثى، فقبل أن نحاول دراسة مقطوعته نرى أن نذكر ذلك النثر اللطيف الذى أورده شاعرنا قبل هذه المقطوعة وإن كنت لا أعلق عليه نظرا لأمرين ، الأمر الأول حلاوة نثره ولطفه فصوت الكاتب أحلى من صوتى أيا كان تعليقى، والأمر الثانى: أنه لم يكن موضوع بحثنا وإنما ذكرت ذلك من باب تتمة الفائدة، فلنسمع إلى شاعرنا حيث يقول[١]: وهذا سيدنا جبريل – عليه الصلاة بالتبجيل – رآه عدو الله أبو جهل في صورة فحل، وقد صال عليه، وله ناب وهامة لم ير مثلها حتى نكص عدو الله على عقبيه، فهل يسوغ لأحد أن يزعم أنه لم يكن جبريل، وإنما كان شئ آخر يدل على جبريل؟ حاش لله بل كان جبريل يقينا، وفى نفس الحديث عنه - صلى الله عليه وسلم - قال: **ذاك جبريل لودنا منى لأخذه**، رواه ابن اسحاق، وابو نعيم، والبيهقى عن ابن عباس - رضى الله تعالى عنهما - وإن كنا نعلم أيضا باليقين أن صورة جبريل الجميلة ليست الصورة الجملية

(١) الكشف شافيا فى حكم فونوجرافيا، للشيخ أحمد رضا خان، (ط: رضا أكاديمى، ممبائى، الهند ١٤١٨هـ) ص ٣٨، ٣٩.

بل له ستمائة جناح قد سدت الأفق، ورأى الصحابة رضى الله عنهم فى مسيرهم إلى بنى قريظة دحية بن خليفة متوجها إليهم على بغلة بيضاء، فاخبروا به النبى – صلى الله عليه وسلم – فقال – كما فى الحديث: **ذاك جبريل بعث إلى بنى قريظة يزلزل بهم حصونهم، ويقذف الرعب فى قلوبهم**، وحديث أعرابى أتى النبى – صلى الله عليه وسلم – يسأله عن الإسلام، والإحسان، والساعة وأشراطها، لم يعرفه أحد، ولا يرى عليه أثر سفر، شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، وقوله – صلى الله عليه وسلم – **إنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**، معروف ومشهور، وقد ثبت غير مرة إتيانه إليه – صلى الله عليه وسلم – فى صورة دحية الكلبى – رضى الله عنه – وعلى جبريل الصلاة والسلام، وللنسائى بسند صحيح عن ابن عمر رضى الله عنهما: كان جبريل يأتى النبى – صلى الله عليه وسلم – فى صورة دحية الكلبى ... ولا يسوغ لمسلم أن يشك فى كونه جبريل. مع القطع بأن جبريل ليس أعرابيا، ولا كلبيا، فما هو إلا أنها تجليات جبريل بتلك الصور المختلفة، ولم يتعدد بتعددها جبريل، ولا يمكن أن يقال إن هذه كانت أشياء أخرى غير جبريل تدل عليه، وفى ذلك أقول:

أجبريل من السدره	وآخر جاء من قريه
وثالثهم عدا جملا	ورابعهم غدا دحيه
فمنهم من له ذنب	ومنهم من له لحيه
وهذا باطل قطعا	فلا يرضاه ذو نهيه
ومع ذا وحدة الكل	يقين ما به مريه
هو العادى على الغاوى	هو الموحى بلا فريه

إذا كنا درسنا أربع مقطوعات تحت عنوان "مشاعر دينية فياضـــة" فنلاحـظ رباعيتين لشاعرنا تتميان بهذا العنوان حيث يقوم شاعرنا بالنجوى مع نفسه حينـــا ويتناجى مع جده مولانا محمد رضا على خان النقشبندى حينا آخر، فـــالبيت الأول من هذه الرباعية التى نظمها من بحر الطويل يحتوى على حديث شاعرنا مع نفسه فكأنه ينصح نفسه بالسير على نهج آبائه وهم الصالحون، وعدم التفـــاخر المحـض بهم. فإن التفاخر بالنسب لا ينفع إلا إذا كان الإنسان متحليا بمحاسن الآباء، كمـــا أن الخبث لا ينفع وإن كان من الذهب، أما البيت الثانى من هـــذه الرباعيـــة فينـــاجى شاعرنا جده حيث إنه استحضره فى ذهنه وبالتالى أخذ يحادثه ويطلب منه الرضى، وهل يرضى العلماء الصالحون إلا بطاعة الله ورسوله، واتباع الدين الحنيف، فكـأن شاعرنا يطمئن جده المستحضر فى ذهنه قائلا: إننى مازلت على طريـــق السـلف الصالح، والطريق الذى تعلمته منكم، ومازلت متسما بما تربيت به على يديكم، وفى هذا يقول[١]:

"إذا لم يكن فضل فما النفع بالنسـب وهل يصطفى خبث وإن كان من ذهـب

ولكننى أرجو الرضا منك يارضـــا وأنت على فاز ولـــى عـــالى الرتـب"

فكأن شاعرنا يوصى نفسه أن تتصف بصفات والده وجـــــده وتركـــز علـــى اتباعهما. فإن الشاعر يراهما من الذين أنعم الله عليهم وذلك لتقواهمـــــا وورعـــهما واتباعهما لشريعة الإسلام.

أما الرباعية الثانية فيتناجى شاعرنا مع نفسه حيث إنه يطمئن نفسه قـــائلا: إن الله - تبارك وتعالى - قدر كل خير للإنسان المقبل عليه، فلا تتعجل الوصول إلـــى بغيتك. فالله - تبارك وتعالى - قادر على أن يلحق الإنسان العاجز بالقـــادر علـــى

---

(١) لال الانقى من بحر سبقة الأتقى. للشيخ احمد رضا خان، ص ٥.

طاعته ليل نهار، والقائم على نشر الدعوة الإسلامية بكل ما من الله عليه من استطاعة، ثم يقول: قد فاز بأفضال ربنا - سبحانه وتعالى - كل الناس فما ظنك بالمنتسب إلى الشيخ عبد القادر الجيلانى فإنه موضع الأفضال والأنوار الإلهية. كما شهد به الأولياء المعاصرون له، والذين جاؤا من بعده، فكأن شاعرنا يطمئن نفسه بأفضال الله - تبارك وتعالى - من ناحية الطريقة، فالذى يكرم جميع الناس بأفضاله كيف يحرم المنتسب إلى الشيخ عبد القادر الجيلانى، ويرى أن الله - تبارك وتعالى - قادر على أن يلحق العبد العاجز بالقادر على عبادة الله تعالى وخدمة دينه، فيرى شاعرنا أن الله - تبارك وتعالى - سوف يمده بالمزيد من العون للقيام بالطاعة ونشر الدعوة الإسلامية ففى هذا يقول(١):

قد قدر الله فلا تنكر — إن لحق العاجز بالقادر

كيف وقد فاز بأفضاله الـ — كل فما ظنك بالقادرى

إذا كان شاعرنا نظم هذه المقطوعات والرباعيتين فقد نظم بيتا يحمل طابع المشاعر الدينية الفياضة النابعة من أعماق قلبه، يبدو فيه شاعرنا خاضعا متواضعا لله تبارك وتعالى، فالمراد "بالعاجز" هو الشاعر نفسه. أما كلمة "القادر" فتحتمل معانى عدة، إما المراد "بالقادر" هو الإنسان السوى صاحب القدرة الفائقة يتمكن بواسطتها من القيام بأداء الفرائض والواجبات التى كلفه الله تعالى بها وأراد الفتوى والدفاع عن الدين الحنيف، فالشاعر يستعين ربه فى كل أموره فكأنه يرى أن قيامه بالفرائض والواجبات يحتاج إلى المزيد من التوفيق الإلهى ليكون على أحسن وجه. وأن قيامه بالإفتاء يحتاج إلى المزيد من فضل الله تعالى ليكون أدق، وأن دفاعه عن الدين الحنيف بحاجة إلى المزيد من العون الإلهى ليكون أقوى، فكأنه يقول: يارب

(١) الزلال الأنقى من بحر سبقه الأتقى، للشيخ أحمد رضا خان، ص ٩٠.

إننى مهما دافعت فلازلت عاجزا فأعنى بقوتك حتى أكون من كبار المدافعين عن الإسلام والمسلمين، وقد يكون المراد "بالقادر" هو أحسن سوى وأحسن إنسان متصف بالقدرة ألا وهو الرسول – صلى الله عليه وسلم – الذى قام بالدفاع عن الدين الحنيف خير قيام، وعبد ربه عبادة تفوق الوصف، ومن الممكن أن يكون المراد "بالقادر" هو الله – عز وجل –، فكأن الشاعر يسأل ربه أن يلحقه به، ويثبته على طريقته ومنهاجه ودينه، تثبيت من يلحق فيكون متصلا بالله اتصال المرضى عنه الذى لا يغيب عن التفكير فى الله لحظة، ويمكن أن تكون هذه المعانى الثلاثة مقصودة من كلمة "القادر"، وروعة من شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان أن يقول: "ليس على الله بمستنكر" أن يطلب من الله عز وجل أن يلحق عجزه بقدرته حتى تكتمل القدرة لديه، القدرة البشرية بالطبع، واقفا على طريقه – عز وجل –، يعبر شاعرنا عن آماله قائلا[١]:

"ليس على الله بمستنكر   أن يلحق العاجز بالقادر

ونلاحظ أن الشيخ أحمد رضا خان ضمن شعره قول أبى نواس[٢]:

"ليس على الله بمستنكر   أن يجمع العالم فى واحد"

هذه المشاعر الدينية الفياضة فى قلب شاعرنا، ورغبته الشديدة فى طاعة الله – سبحانه وتعالى – ورسوله – صلى الله عليه وسلم – ونشر الدعوة الإسلامية

---

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٣٢٥.

(٢) ديوان أبى نواس (ط: دار صادر بيروت، دون سنة الطبع)، ص ٢١٨.
أن البيت اخر بيت من مقطوعة قالها أبو نواس قوامها ستة أبيات وهذه المقطوعة نسبت إلى الشطرة الثانية من البيت السادس تحت عنوان: "ان يجمع العالم فى واحد".

والدفاع عنها أملت عليه هذا البيت فالإنسان العاقل يسأل ربه التوفيق والسداد دائما، ولعل هذا كله كان قصد شاعرنا من وراء هذا البيت.

أما ثانى هذه الأبيات - حسب ترتيبى - فقد نظمه شاعرنا مترجما من الفارسية إلى العربية، وكان شاعرنا الفقيه يتحدث عن الحكم الشرعى لما يعرف اليوم بالمسجل والمذياع فيقول[١]: إنه لم يوضع لصوت مخصوص، ولا له صوت فى نفسه يطرب ويلهى، حتى يعد من الملاهى، وإنما هو آلة لأداء كل نوع من الأصوات، فيكون فى الحسن والقبح، والمنع والإباحة تبعا لصوت يؤدى به ما لم يعتريه مغير من الخارج، فإن من سمع منه صوت المزامير فهو فى حكم المزامير، وإن من سمع منه الوعظ والتذكير بنية التذكير كان فى حكم الوعظ والتذكير، ولا يشترط كون الواعظ المذكر ذا روح، وقلت مترجما بيتا للشيخ السعدى - رحمه الله تعالى -:

ذو اللب مدكر من الأذكار ولو أنها مكتوبة بجدار

أما البيت الثالث فيتحدث فيه شاعرنا عن القرآن أنه قديم وأزلى ويبين أن القرآن موجود بأنحائه الأربعة كما قال العلماء، والكتابة واحدة من هذه الأربعة، ويشير الشاعر فى هذا البيت إلى وجوده وعدم تأثيره مثل تجدد الملابس فيقول على سبيل الاستفهام الإنكاري[٢]:

أتجدد الملابس مغير للابس

(١) . الكشف شافيا فى حكم فونوجرافيا، للشيخ أحمد رضا خان، ص ٩٦.
(٢) الكشف شافيا حكم فونوجرافيا، للشيخ أحمد رضا خان، ص ٣٧.

أما البيت الرابع – حسب ترتيبى – فيمت بالصلة إلى البيت الثالث حيث إن الشاعر يتوجه بالزجر إلى من يشككون فى وجود القرآن منذ قديم، ويبين لهم مشاعره الدينية، وطبعا كان هذا البيت متصلا بالحديث الطويل بين علماء العقيدة عن خلق القرآن وهذا ليس بموضوع حديثنا، وإنما كتبته من باب إتمام الفائدة ومن باب إحصاء شعر الشيخ أحمد رضا خان العربى وإلقاء الظلال عليه، فبين شاعرنا مشاعره قائلا[١]:

"شمس وراء مدارك الوطواط فعليك بالإيمان لا الإبعاط"

إن كلمة "الإبعاط" مؤدية للمعنى الذى تأخذ بيدنا إليه ، إن شاعرنا نفسه يبين لنا هذا المعنى فى الهامش فيقول[٢]: "الإبعاط: الغلو فى الجهل وفى الأمر القبيح، والقول على غير وجه، وتجاوز المقدار كما فى ق" وبهذا أكون قد أنتهيت من محاولتى لدراسة المشاعر الدينية الفياضة عند شاعرنا وأرجو أن أكون موفقا فى دراستى هذه.

---

(١) المرجع السابق ص ٣٧.
(٢) المرجع السابق ص ٣٧.

الباب الثالث

دراسة تحليلية نقدية لديوان الشيخ أحمد رضا خان

ويشتمل هذا الباب على فصلين:

الفصل الأول: الخصائص الأسلوبية واللغوية فى ديوانه العربى.

الفصل الثانى: شاعرنا بين شعراء العربية فى الهند.

الفصل الأول

الخصائص الأسلوبية واللغوية فى ديوانه العربى

وهذا الفصل يشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الخصائص اللغوية في ديوان شاعرنا.

المبحث الثاني: الخصائص الأسلوبية في ديوان شاعرنا.

المبحث الثالث: بيت القصيد عند شاعرنا.

المبحث الأول

الخصائص اللغوية فى ديوانه العربى

إن شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان المغرم بالعربية هندى المولد والنشأة والمدفن، والمنحدر من سلالة أفغانية نزحت من مدينة قندهار - الواقعة اليوم فى أفغانستان - واستوطنت بمدينة بريلى - الواقعة حاليا ولاية أوتار برديش الهندية - وقد تربى فى بيئة تسودها اللغة الأردية، والتى هى لغته الأم، ولم تكن اللغة العربية فى يوم من الأيام لغة رسمية فى الهند ولا لغة التخاطب، ولكن شغف شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان باللغة العربية مكنه من شق الطريق إلى مبتغاه، فبلغ تمكنه من ناصية اللغة العربية مبلغا شد انتباه علماء الحرمين الشريفين عند أدائه فريضة الحج[١] كما أن أدبه وشعره العربى وضع فى الميزان أمام أقلام نقاد الأدب العربى بشبه القارة الهندية فى عصرنا الحديث ليدلوا بآرائهم حول نتاجه الأدبى وموهبته الشعرية فيما جرى لسانه بذلك متخذا اللغة العربية وسيلة لأدائه، وسوف أعرض لذلك فى الفصل الثانى من هذا الباب، فإذا كان شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان نشأ وتربى فى الهند فمن أين اكتسب براعته فى الكتابة بالعربية نظما ونثرا؟! وعلى من درس هذه اللغة التى شغف بها تمام الشغف؟! وعن هذا يحدثنا الأستاذ حازم محمد أحمد قائلا[٢]: "سكت مؤرخو سيرة الشيخ أحمد رضا خان عن ذكر أسماء

---

(١) وسوف أعرض لآراء علماء الحرمين الشريفين فى براعة الشيخ أحمد رضا خان فى اللغة العربية تأليفا وتصنيفا فى الفصل الثانى من هذا الباب.

(٢) الإمام الأكبر المجدد محمد أحمد رضا خان والعالم العربى، للأستاذ حازم محمد أحمد، ص ٣٠، ٦٣.

أساتذته فى اللغة العربية وآدابها، إلا أننا نرى أنه تعلم اللغة العربية فى موطنه بريلى وعلى يد والده مولانا محمد نقى على خان القادرى، الذى كان مجيدا للغة العربية ومطلعا على آدابها، ومن هذا المنطلق وجدناه يُحرص كل الحرص على أن يكون ابنه هذا مثله، لذا اهتم اهتماما بالغا بتعليمه اللغة العربية التى لا غنى عنها لعالم أو أديب مسلم، وذلك فى مدرسته العربية التى شيدها وكانت تسمى "مصباح التهذيب" وقد أقبل ابنه هذا الذى اتسم بحدة الذكاء ورجاحة العقل على تعلم اللغة العربية والاطلاع على آدابها فى مختلف العصور بشغف شديد ... وهكذا نشأ الشيخ أحمد رضا خان فى أسرة لها مع اللغة العربية وادابها باع وتاريخ طويل حافل، فكان والده وجده - على سبيل المثال - ممن يجيدون العربية إجادة تامة، وقد ألفوا بها ... وإن قيام مولانا محمد نقى على خان القادرى بإنشاء مدرسة لدراسة العلوم العربية ومعرفته بأنها المطلب الأول لكل داعية إلى الله تعالى على بصيرة وهدى، هذا هو النهج الأمثل الذى سار عليه مولانا محمد نقى على خان القادرى، وقد وفق فى تحقيق ما سعى من أجله، وكانت رغبته هذه من أجل العامة من المسلمين. فإذا نظرنا إلى اهتمامه الخاص لوجدناه قد وفق فيه توفيقا حيث إنه حرص كل الحرص على تنشئة وتعليم ابنه أحمد رضا خان فى بيئة دينية قوامها اللغة العربية وآدابها، ولقد لاقى مولانا محمد نقى على خان القادرى استجابة كبيرة من ابنه هذا - الذى ورث عن ابيه وجده حب اللغة العربية والإقبال على الاغتراف من علومها الكثيرة الغزيرة، وقد أدت هذه البيئة إلى تخريج شاعر وأديب عربى كبير وهو الشيخ أحمد رضا خان، ويكفيه فخرا أنه بدأ التأليف باللغة العربية وكان عمره إذ ذاك ثلاثة عشر عاما، [ترى ماذا نقول فى رجل بدأ يؤلف بلغته الثالثة وهو فى هذه السن المبكرة وقد استطاعت هذه اللغة أن تشده إليها ، وتجذبه إلى التأليف بها مع أنها لم تكن لغته الأم، ترى لو كانت لغته الأم فماذا كانت قيمته وإقباله عليها؟! لكنها على كل حال كانت ميراثا طيبا أتت إليه عن طريق والده،

والذى بدوره أوصلها إلى ولده بعد أن ورثها من أبيه أيضا، وبالتالي كانت العربية ذات جذور فى هذه الأسرة، وقد أثمرت ثمرات طيبة اهتم بها الباحثون فى الكثير من الفنون التى عرض لذكرها شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان، وقال كل باحث رأيه فى كل ما عرض لذكره، وها نحن نتتلمذ على شعر الشيخ أحمد رضا خان لننظر ما الذى نستطيع أن نقف عليه أيضا أن نلمسه فى لغته حين جرى على لسانه ذالكم الروض الفواح حين كتب، مما دفع جامع ديوانه العربى ومرتب قصائده الاستاذ حازم محمد أحمد يسمى هذا النهر العربى الذى فاض من خلال يراعه بساتين الغفران، وأعود إلى نشأة شاعرنا فأقول:] هذه اللبنة الأولى التى كان لها عظيم الأثر فى حياته كلها وقد استمر تأثير هذه النشأة والتربية والتعليم – فى مدرسة والده – طيلة حياته الحافلة، ويبدو لنا هذا التأثير فى مؤلفاته كلها حتى التى كتبها بغير العربية، فلا يستطيع أى ناقد يطلع على مؤلفاته–الأردية والفارسية – إلا وأن يصرح بأن مؤلفها لابد وأن يكون عالما وأديبا فى اللغة العربية نظرا للأثر الكبير الذى انطبعت به هذه المؤلفات".

هكذا تثقف شاعرنا بالثقافة العربية على يد والده مولانا محمد نقى على خان القادرى بصفة خاصة وأساتذة آخرين بصفة عامة، وإنه بعد إكماله دراسة المقررات الإسلامية والعربية آنذاك أقدم على مطالعة كل ما وصلت إليه يده من دواوين شعراء العربية على مر العصور بدأ من العصر الجاهلى وانتهاء بالعصر الحديث الذى عاش فيه، وعايش شعراء العربية فى بيئته أثناء سفره مرتين إلى الحجاز، الأمر الذى جعله ضليعا فى العربية وآدابها.

ولقد جاء شاعرنا بنثر عربى رائع حين أقدم على كتابة مقدمة كتابه العطايا النبوية فى الفتاوى الرضوية[١] فأجاد وأبدع، واستطاع أن يشير إلى ثمانية وسبعين مرجعا فقهيا لتأليفه المذكور آنفا، كما تمكن من الإشارة إلى ثلاث عشرة شخصية ذات صلة بالفقه، ولكنه مع هذا وذاك استطاع أن يحتفظ بسلاسة العبارة، ودقة التركيب، ولطافة الأسلوب، وظرف الجملة بصفة عامة، وعن هذه العربية الرائعة يقول الاستاذ الدكتور حسين مجيب المصرى[٢]: بالنظر فى هذا النثر الفنى يستبين لنا أنه يتسم بسلاسة الكلام، فيه ينحدر ماء واحد آخذا بعضه برقاب بعض دونما تكلف أو إقحام، إن جمله قصار على غير ما نصادف فى النصوص العربية المنسوبة إلى بعض العرب، وسجعه يأتى عفوا، والمعنى فى ظاهر اللفظ يدرك من غير كد للذهن وعنت للرؤية، إنه يخلو من البديع المتكلف المفرط فى استجلابه مما يجعله مستكره الصنعة، تلك الصناعة التى قد تطمس المعنى وتصرفه عن وجهه، وتجعل الكلام تلاعبا بالألفاظ وتهمل فيه العلاقة بين اللفظ والمعنى، فاللفظ على قدر المعنى، لا يكلف الكاتب اللفظ ما لا يحتمل من المعنى ولا يضيع المعنى أن يستكره لفظة معينة يألف منها موطنها، ولو عقدنا الموازنة بين هذا النص ونص فارسى من مناجاة عبد الله الأنصارى، وتضرعات سنان باشا التركية أدركنا أنه يقتصد فى المجاز على حين يصرف عبد الله الأنصارى سنان باشا فيهما، وهو أكثر ميلا منهما فى رغبته فى الإفادة، إنه لا يحاول فيه الفصاحة إلا بمقدار، ولا يكره اللفظ على أداء المعنى بل يجعل اللفظ على قدر المعنى، إنه يركن إلى اللفظ والإزدواج، والسجع عنده سجعة أخرى، ولكن عفوا مما يقوم دليلا على أنه بطبعه شاعر له القدرة على إحكام القوافى.

---

(١) أوردنا هذا النص فى الفصل الثانى من الباب الأول ضمن الحديث عن "موهبة الشاعر الشعرية".

(٢) المنظومة السلامية فى مدح خير البرية ترجمها إلى العربية نثرا الاستاذ حازم محمد أحمد ونقلها ى الشعر العربى وشرحها الأستاذ الدكتور حسين مجيب المصرى

كان الشيخ أحمد رضا خان فقيها ويكثر فى كلام الفقهاء طول الجملة، ولكنه كان على خلاف ذلك، لم تطل الجملة عنده إلى حد طول البيت فيما كتب من نثر، فكانت جمله قصيرة، ولعل دافعه لذلك هو ما توجت به نفسه من موهبة أدبية، فلم يكن أسلوبه النثرى متصفا بطول الجملة إلى حد طول البيت لأنه كان يفرق بين النثر والشعر، فلم تسيطر عليه موهبته الشعرية حتى تتسم جمله النثرية بالطول، كما لم يطغ على فنه النثرى أثر لما شغل به من علوم بحيث يضعف من قيمة النثر الأدبى الذى ينبع من قلمه، لذلك كانت موهبته هى التى تملى عليه قصر الجملة فى نثره الفنى".

وعندما نتناول لغته العربية بالبحث نرى أن نقسمها إلى قسمين، أولهما اللغة العربية السهلة مع فصاحتها والتى يمكن أن توصف بأن أسلوبها سهل ممتنع، وتتضح لنا هذه اللغة من خلال قصيدته التى وردت تحت عنوان: "حمائد فضل رسول" ومن خلال بعض قصائده القصيرة التى نظمها شاعرنا فى مدح بعض علماء الدين تارة، وفى رثاء بعضهم تارة أخرى، وسوف نتحدث عنها بالتفصيل فيما بعد.

والقسم الثانى: اللغة العربية التى ربما لم تكن متاحة لبعض الأدباء فى الهند والتى ظهرت من خلال نونيته التى وردت تحت عنوان: "مدائح فضل رسول" والأخرى تحت عنوان: "آمال الأبرار وآلام الأشرار" فقد نظمهما شاعرنا بلغة أشبه بلغة الشعر الجاهلى، وسوف نتعرف على هذا اللون من اللغة بعد حديثنا عن قيام شاعرنا باستخدام اللغة السهلة، وهذه القصائد التى أشرت إليها ليست إلا نماذج للغته العربية وسماتها المختلفة، سواء كانت من القسم الأول أو الثانى، وبقية الديوان إما أن يميل إلى هذا أو ذاك وقد يجمع بين الأمرين.

أما أول القسمين من اللغة أعنى بها اللغة السهلة فلقد وجدتها تغلب على الكثير من مراثيه، سواء كانت هذه المراثى مقطوعات أو قصائد، كما عليه الحال فيما كتب من نثر عربى، فقد استخدم شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان اللغة العربية التى تجرى على ألسنة الأدباء فى عصرنا الحديث، فمن يطالع داليته يرى وكأنه شاعر من أبناء العربية ارتضع أفاويقها ونشأ فى حجرها، وهو فى عصرنا هذا، فقد اختار شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان الكلمات السهلة والجمل القصيرة المتسمة بالفصاحة، فيستطيع القارئ العادى فهم لغته هذه، ونضرب لهذا مثلا من بعض الأبيات الواردة فى داليته، فلنستمع إليه حيث يقول[1]:

الحمد للمتوحد ... بجلاله المتفرد

وصلاة مولانا على ... خير الأنام محمد

والآل أقطار الهدى ... والصحب سحب عوائد

يارب ياربـاه يا ... كنز الفقير الفاقد

أنت القوى فقونى ... أنت القدير فأيد

فضل الرسول لنا ومن ... عبد المجيد يمجد

فضل الرسول هو الذى ... والاه كل مسدد

هذا وصلى ربنا ... بتكرر وتجدد

دوما على من يوصف ... بمحمد وبأحمد

واجعل بها أحمد رضا ... عبدا بحرز السيد

---

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان، ص ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦٣، ٦٩، وترتيب هذه الأبيات حسب ورودها فى القصيدة كالتالى ١، ٢، ٣، ٩، ١١، ١٨، ٢٩، ٦٢، ٦٨، ٧٢.

فبمطالعة هذا النموذج تتجلى لنا مقدرته على استخدام اللغة التي يمكن أن نصفها بالسهل الممتنع، ومع هذا فإن له طريقة في الصياغة خاصة به لا تخرج عن قواعد العربية قد تفرد بها عن شعراء العربية المعاصرين له في شبه القارة الهندية، ومما لا شك فيه أن لسفره إلى الحجاز واطلاعه عن قرب على دواوين شعراء العرب المعاصرين له أثر كبير في إقدامه على استخدام هذه اللغة السهلة، وقد تحدث محقق بساتين الغفران عن تثقيف الشيخ أحمد رضا خان على يد والده مرة والأساتذة الآخرين مرة أخرى، وعن قيامه بتثقيف نفسه مرة ثالثة - كما سبق أن ذكرنا - وتحدث كذلك عن تأثر الشيخ أحمد رضا خان بعلماء العرب من الحرمين الشريفين عند أدائه فريضة الحج، فقد نظم بعض المقطوعات في مدح بعض علماء الحرمين الشريفين ضمن رسالته إليهم أو ضمن الإجازة العلمية التي منحها إياهم، ولم يكن هذا فحسب بل فيما قرأناه لمحقق الديوان في كتاب آخر ذكر أن الشيخ أحمد رضا خان حين ألف "حسام الحرمين على منحر الكفر والمين" و"الدولة المكية في المادة الغيبية" أثناء وجوده في الحجاز تقدم بهذين الكتابين إلى علماء الحرمين الشريفين، فما كان منهم إلا أن استحسنوا منه تلك الصنعة، وذكروا له هذا الفضل، ذكر بعضهم بالنثر واستحسن الاثنان منهم هذا العمل بالشعر، فقد نظم الشيخ محمد على بن حسين المالكي مستحسنا تأليف شاعرنا "حسام الحرمين على منحر الكفر والمين" ونظم ستة وخمسين بيتا في هذا الصدد، كما أقدم الشيخ موسى على الشامي الأزهري على نظم أربعة وعشرين بيتا ضمن تقريظه على تأليف شاعرنا "الدولة المكية في المادة الغيبية"[1] على أنه مما يذكر لشاعرنا أنه كان شغوفا باللغة العربية محبا لها، دفعه هذا الحب والشغف إلى أن يقرأ كل ما تصل إليه يده بالعربية، شهد له بذلك القريب والبعيد، ودفع ذلك بعض معاصريه

(١) الإمام الأكبر المجدد محمد أحمد رضا خان والعالم العربي، للأستاذ حازم محمد أحمد، ص ١٠١. ١٢٤.

للجلوس إليه تلاميذ يطلبون فائدة، وطلابا يرغبون فى العلم، وبعضهم كان ينظم الشعر إلا أنه يستشعر فى نفسه أنه فى حاجة إلى إصلاح عربيته، وقد وجد ذلك كله عند أستاذه الشيخ أحمد رضا خان، وأضرب لذلك مثلا بما كان من الشيخ أحمد بخش حيث اقدم على نظم قصيدة طويلة[١] وراح يقدمها إلى الشيخ أحمد رضا خان ودليلنا على ذلك ما جاء بملحق بساتين الغفران من نموذج من هذه القصيدة التى مازالت مخطوطة حتى الآن، وقد إستطعت الحصول على صورة شمسية منها عن طريق الشيخ محمد عبد الحكيم شرف القادرى، وللإفادة أورد نموذجا من توجيهات شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان بشأن إصلاح لغة القصيدة وأسلوبها.

نلاحظ قيام شاعرنا بتصويب لغوى فى تعليق له حين قال الشيخ أحمد بخش:

---

(١) ارسل مولانا أحمد بخش لاميته هذه إلى نينى تال – إحدى المناطق الصحية – حيث حل شاعرنا يستريح بها بعض الأيام، ويتمتع بجمال الطبيعة، ويجدد نشاطه للتأليف، وإن لم يكف عن التصنيف والتأليف هناك. وقد قام بإصلاح القصيدة المعروضة عليه وردها إلى ناظمها، وهذه القصيدة تقع فى ستة عشر ومائة بيت، إلا أننى لم استطع الإطلاع على الشهر والعام الذى نزل فيه شاعرنا بنينى تال، وهاكم مطلع القصيدة:

جل العنا وقل خل يسال ... ولا اخاف حيث لنك الموئل

يا من على كل علا واعتلى ... يا من من الكل هو الافضل

استهل مولانا أحمد بخش قصيدته هذه بالمناجاة، ثم انتقل إلى مدح النبى – صلى الله عليه وسلم – وبالتالى إلى الاستغفار، ثم أقدم على شكوى سوء معاملة الناس له ولكنه بعد قليل يستعيد صبره وحلمه فيلتمس لهم العذر ويعود مرة أخرى إلى التوسل والاستغاثة بسيد الخلق – صلى الله عليه وسلم – إلى خالق الخلق – جل جلاله – ثم يمضى فى توسله واستغاثته، وفى نهاية المطاف يصلى ويسلم على الحبيب المصطفى – صلى الله عليه وسلم – وعلى اله وأصحابه وبالتالى على المشايخ الذين انتسب إليهم الشاعر مولانا أحمد بخش، وفى هذا يقول:

"ثم على ساداتنا والمشا ... يخ الذين هم هدى كمل

لا سيما للذين يحصل الاما ... ن والمنى إذا بهم توسل"

ولم أستطع قراءة البيت الأخير وذلك لعدم وضوحه فى الصورة الشمسية،
القصيدة اللامية لمولانا أحمد بخش، ص ١ الى ٢ (والمخطوط بحوزة أولاد مولانا أحمد بخش بقرية تونسه المبجلة).

"فإننى مع ما لهم من خــلا　　　ف بى بلطفكم فلم أزيــل"

علق عليه الشيخ أحمد رضا خان قائلا: لا يقول العرب: "خلاف بى"، والفــاء فى غير محلها، وأعتقد أن كلمة "التزيل" ايضا لم ترد فى موردها المقصود، فــإننى أرى أنها تأتى فى معنى التمييز والتفريق، وأنا فى هذا المكان (نينى تال) لا أملــك معجما حتى أراجع هذه الكلمة". وبعد الادلاء بهذا التعليق قـــام الشــيخ بــإصلاح الشطرة الثانية فقال:

"فإننى مع ما لهم من خــلا　　　ف ما جزيتهم ما يُنكــل"(١)

ومن هنا يتجلى لنا قيام شاعرنا بإصلاح لغة القصيدة واسلوبها، وهــذا منــه دليل على أنه كان محل استشارة لغيره مع ما لغيره من قدم فى الشـــعر العربـــى، وبالتالى كان شاعرنا جديرا بأن يعرف بين معاصريـــه بسلاســة لغتــه وســهولة الصياغة.

أما القسم الثانى من لغته فهو الذى أقدم فيه على استخدام اللغة العربية صعبــة المنال، وهى - فى الأغلب - استخدمها شعراء العربية فى شبه القارة، ولم يقـــف شاعرنا عند هذا الحد فقط بل إننا نراه يستخدم لغة الشعر الجاهلى، وبالتالى أسلوبهم وموضوعات أشعارهم، ونضرب على هذا مثلا بقصيدته "رن الحمام على شـــجون البان" شعره فى هذه القصيدة يبدو لنا كأنه شعر نظمه شاعر عربى عايش العصـــر الجاهلى بكل ما تتسع له الكلمة من معان أدبية، فقد بدأ القصيدة بالنسيب على غرار شعراء العصر الجاهلى غالبا، فنراه ينهج نهج الشاعر الشهير زهير بن أبى ســلمى

(١) القصيدة اللامية المخطوط للشيخ أحمد بخش، ص ١٠.

وغيره من شعراء الجاهلية فيستخدم لغتهم وأسلوبهم وطريقة غزلهم، ونضرب لهذا مثلا بمطلع القصيدة التى يقول فيها شاعرنا[١]:

"رن الحمام على شجون البـــان ... ياما أميلح ذكر بيض البـــان
تبكى دما وتقول فى أســـجاعها ... الله يضحك سن من أبكـــانى
بكت الغزير فهيجت منى البكـــا ... إن الحزين لسائل الأجفـــان
ولقد دري من ذاق ذوق صبابــة ... إن اللحون مثيرة الأكنـــان"

يتجلى لنا من هذا النموذج أن شاعرنا الشيخ أحمد رضا خـــان قلـــد هـؤلاء الشعراء فى لغتهم وأسلوبهم، وموضوعات شعرهم، فقد تغزل فـــى حبيبتـه التـــى صنعها لنفسه من وحى الخيال، فوصفها وذكر مالها من جمال وما تتصف به مـــن جفاء، وما ناله من ألم الفراق[٢] ثم بعد ذلك يبين لنا شاعرنا استسلامه لحبيبته وأنـه لا يشتكى منها ولا من خلف مواعيدها، وكأنه فى هذا يشير إلى ما جاء فى قصيـدة بانت سعاد الشهيرة لكعب بن زهير التى تتصف بلغة العصر الجاهلى يقول فيها[٣]:

"كانت مواعيد "عرقوب" لها مثلا ... وما مواعيدها إلا الأبـاطيل"

ثم بعد ذلك يواصل شاعرنا فى قصيدته هذه استخدام لغـــة شـــعراء العصـــر الجاهلى، فيأتى بالكلمات الجزلة والتراكيب التي قد يصعب فهمها، ونستأنس لذلـــك بقول شاعرنا فى نونيته[٤]:

"هل يا هلال العيد عندك خـبرة ... بشميسة فى بدرها قمـــران
أيا تنادم أين تنزل كيف هــــى ... أيان تأتى كم مـــدى أيـــان
فى شهدها سم ثمال فاشـــهدوا ... إنى شهيد الشهد يا إخوانـى

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٧٢.
(٢) عرضت لهذه الأبيات الغزلية فى المبحث الثانى من الفصل الثالث من الباب السابق.
(٣) شرح قصيدة كعب بن زهير فى مدح رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لجمال الدين بن هشـام الأنصارى / ضبط وتحقيق ومراجعة الدكتور محمود حسن أبو ناجى (ط: مؤسسة علوم القـرآن، دمشق، ١٩٨٤م)، ص ٢٤.
(٤) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٧٢، ٧٣.

تسقى فتشفى ثم تشقى بالعنـــا   وتفلق الأكبـــاد والعينـــان"

نرى أن شاعرنا أقدم على استخدام هذه اللغة فى كثير من أبيات قصيدته "رن الحمام" الخ ليبين مقدرته على النظم بلغة تشبه لما كـــان عليـــه شـــعراء العصـــر الجاهلى، كما استطاع أن ينظم باللغة العربية السهلة المتداولة فى عصرنـــا هـــذا، أضف إليها أيها القارئ الكريم قيام شاعرنا فى قصيدته هذه بالرد على المخــــالفين لمولانا "فضل رسول البدايونى" الذين اشار إليهم فى قصيدته هذه ايضا مدافعا عـــن ممدوحه، ويبين لهؤلاء المخالفين مدى مقدرة المتصدى للدفاع عن ممدوحه، ومـــدى ما يتمتع به من مكنة لغوية لا تتوفر لديهم، وقد تركت لغته هذه أثرا واضحا علـــى هؤلاء المخالفين.

ومما تجدر الإشارة إليه أن شاعرنا أحس بصعوبة لغته فى أغلب أبيات نونيته هذه، وما فعله فى قصيدته هذه فعله فى قصيدته "آمال الأبرار وآلام الأشرار" لـــذا رأيناه فى قصيدتيه يقدم على إيراد معانى الكلمات الصعبة، وإنه لم يكتف بهذا بـــل قام بشرح بعض هذه الكلمات بالرجوع إلى بعض المعاجم كتاج العروس للزبيـــدى، والقاموس للفيروز آبادى، والمحكم لابن سيده، وغريب مفردات القرآن للأصفهانى، على أنه كان يغلب عليه محبته لما سهل من اللغة ولان من ألفاظها، ولذلـــك كـــان شاعرنا إذا استشعر انغلاق بعض الألفاظ على بعض قرائه رأى أن يشـــفع شـــعره بمعان لبعض الكلمات التى توحى له بانغلاقها عن بعض القراء، وهذا أراه ميلا منه لأسلوب العصر الحديث فيما خف ولان من الفاظ لا يحتاج القـــارئ معـــها إلـــى استخدام المعجم ليفهم ماكتبه الشاعر، ومن هنا أرى أنه كان ينظم بلغة جزلة صعبة المنال ليثبت مقدرته اللغوية وقدرته على التصرف فى كل مجالات الشـــعر التـــى عرض لها وعلى مختلف العصور سواء كان النسيج على منوال القدماء أو علـــى غرار شعراء العصر الحديث.

ومما تجدر الإشارة إليه أن شاعرنا أقدم كذلـــك علـــى اســـتخدام كلمـــات لا يستخدمها إلا شعراء العصر الجاهلى، وقلما وجدناها عند شعراء العصر الحديث بل لا نجدها عند الكثير من الشعراء المعاصرين له من شبه القارة الهندية، وهذا منـــه

يبين لنا مقدرته على اللغة العربية وإطلاعه على معاجمها - كما سبق أن أشرنا إليه، وقد يكون ذلك بدافع نفسي وهو يشعر بأن له رغبة في أن يقول شعرا يتسم بهذه الصفة، ولا يقصد في نفسه اثبات المقدرة بل يشبع رغبة نفسية حول شعره تدور حول هذا المقام، لأن الشاعر له أحوال فيخرج من نفسه شيئا يجعله أمامنا لنقول فيه رأينا بكامل الحرية، وأخرجه من نفسه قد يكون يخرجه لأنه يشعر بأن لديه رغبة لمجرد إخراج هذا الشئ بهذا النسق ولا يحسب للمقدرة أى حساب، المهم إنه أخرج لنا الشعر يتمثل في لغة العصر الجاهلي أحيانا وفي لغة عصرنا الراهن أحيانا أخرى، وعلى الناقد أن يقول رأيه الذى يراه، ونستشهد على ما ذهبنا إليه ببعض الأبيات من نونيته حيث يقول[1]:

خضعت له الأعناق من أعناقهم   خذءت له الأعيان من أعيان

الغي يغلو فهو في حجر الصبا   والعي يعلو فهو في ادلهنان

فتراهم رسنوا بأرسان البلا   والهون كالشيطان في أشطان

إن العرض اللفظي الذى يسود كل بيت دليل واضح على مقدرته في الصياغة، وعلمه المتمكن بالعربية، لا أرى إلا أنه كذلك دفعته الرغبة النفسية في أن يقول بهذا المنوال بصرف النظر عن اثبات مقدرته.

والحديث الآن عن لغة قصيدته "آمال الأبرار وآلام الأشرار" فقد استخدم فيها نفس اللغة التي كانت له في قصيدته "رن الحمام" الخ، وعندما نطالع الغرض والمناسبة التي من أجلها أقدم شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان على نظمها وقتها يتجلى لنا هدف استخدامه لهذه اللغة التي قد تصعب على بعض القراء، فقد روى بعض الكتاب أن أحدا من شعراء "جمعية الندوة" كان قد أقدم على الثناء على "جمعية الندوة" وذكر انجازاتها المزعومة، فما كان من شاعرنا إلا أن أراد أن يبين كذب وبهتان هذا الشاعر ويهدم بناء لغته الشعرى بلغة أفصح مما بناه به، مع أنه التزم بنفس القافية والوزن الذى استخدمه الشاعر المذكور، وقد أراد الشيخ أحمد

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٨٤، هاكم أرقام هذه الأبيات حسب ورودها في النونية ٤٩، ٧٠، ٨٤.

رضا خان أن يظهر الحق بلغة عربية فصيحة يفهمها أكابر علمـــاء العربيـــة دون غيرهم وهذا هو السبب الذى من أجله اختار شاعرنا هذه اللغة الجزلة، ومما هـــو جدير بالذكر أن شاعرنا وفق غاية التوفيق فيما أتى بقصيدة عربية تعد فى طليعـــة القصائد العربية التى نظمها الشعراء غير العرب من الناحية اللغوية، وفى ضوء ما قرأنا يمكننا أن نقول: إن شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان استخدم لغة لا يأتى بها إلا رجل متمكن من العربية، وقد أراد أن يبرهن لمن أنشد أمامهم هذه القصيدة مقدرتـه على الإتيان بمشتقات صعبة الفهم من مادة واحدة فى بيت واحد ولا أرى إلا أنـــه كذلك دفعته الرغبة النفسية فى أن يقول على هذا المنـــوال بغــض النظـــر عـــن استعراض مكنته اللغوية، وهذا ما يعد ظاهرة فى لغته، وذلك على غرار لغته فـــى القصيدة النونية، ونورد لهذا مثلا من القصيدة الدالية أولا فنسمعه يقول(١):

"تكون كثابت ثبت ثبيــت   تثبت حيث ثبته العهــود
وجودهم وجودهم كجـود   يجود فلا جواد ولا مجود
جواد جيد جنـود مجـــاد   مجيد ماجد مجد مجيـــد"

ويستخدم شاعرنا مختلف المشتقات فى نونيته كذلك فيقول(٢):

"جودا مجيدا مجديا جوا   دا ماجدا مجدا مجيـــد الشـــان
علما عليما عالما علامة   فضل الرسول الفاضل الربـانى
قلب شج شجيج شـــاجن   أوه من الإشـــجاء والإشـــجان

إن هذا الاستعراض اللغوى الذى يتمثل فى كل بيت خير دليل علـــى مقـــدرة الشاعر فى الصياغة وتمكنه من اللغة العربية، ولم يكتف شاعرنا بهذا الاســتعراض اللغوى، والذى مثلنا له بأكثر من مثال بل ذهب يمعن وإن شئت فقل فـــى اظـــهار

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١١٧، ١١٩، ١٢٠ إن أرقام هذه الأبيـــات حســـب ورودها فى الدالية كالتالى: ٢٦، ٥٩، ٧٠.
(٢) المرجع السابق، ص ٧٤، ٧٥، ٨٤، وردت هذه الأبيات فى النونية كالتالى رقم ٤٣، ٤٥، ١٩٠.

المقدرة، أو يمعن فى بيان علمه، بأشياء أخرى قد تفوت الكثيرين لا سيما إن كان هؤلاء الكثيرون لا ينتمون إلى ما سوف يستعين به فى لغته الشعرية، إما لإثبات المقدرة بانه يستطيع أن يدخل الرموز فى أبياتها وإما تلبية لحالته النفسية، وإما لقيامه بدراسة الصوفية وإمعانه فيها، فإن كل من يتقدم فى ثقافة من الثقافات قد يتأثر بها فمن الممكن جدا أن ينعكس ذلك على مزاجه فيقول الشعر على نسق هؤلاء، وهذا ترداد لثقافته، وكان من ضمن ثقافته الناحية الصوفية، أرى أنه لو كان برع فى الكيمياء أو الطب لتاقت نفسه فى أن يقول شعرا عربيا فيه الفاظ الكيميائيين ومصطلحاتهم، فهو من الأشخاص الذين حين يتفقون مع أمر من الأمور من الممكن أن ينعكس ذلك على موهبتهم الشعرية فتروح المصطلحات وتغدوا فيما يعبر به من شعر وما ينظمه لسانه من أبيات، ساعتها تصدر تلكم المصلطحات الفنية فى أبياته، وقد ظهر ذلك بوضوح فى أبياته الأردية، ولكنه لما كان بحثى موضوعه الشعر العربى رأيت ألا أمثل من أبياته الأردية ولكنى ذكرت لما اطلعت عليه، على كل يعتبر من الظواهر اللغوية عند شاعرنا استخدامه للرموز الصوفية وإن لم يكثر منها، وهذا ليس بمستبعد عنده، فهو شيخ صوفى، وقد أراد أن يكون لشخصيته الصوفية أثر فيما ينظم من شعر عربى كما يتجلى فيما نظم من شعر باللغتين الأردية والفارسية، إنه فى هذا يسير على منوال من سبقه من شعراء الصوفية، فهو يستخدم المصطلحات والرموز الصوفية على غرار شعراء التصوف الإسلامى على رأسهم شاعر الحب الإلهى ابن الفارض، ونستشهد لذلك مثلا من شعر الشيخ أحمد رضا خان القادرى، حيث يقول فى رثاء مولانا محمد إسماعيل القادرى الشاذلى[١]:

"عدت.شوطبها أم ظل وظلت ... ببطن بطين والظلال أقلت

فما لى أرى بالليل طولا كأنها ... برام تردم الجفر أو فيه حلت

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان، ص ١٧٥، إن أرقام هذه الأبيات حسب ورودها فى القصيدة كالتالى: ١، ٢، ٨، ١١.

يقاطر صفر نفسه وكذا الألف — فما بين بط والجيم ظلم أضلت

وتزهر أم الزاهرات إذ انثنت — تدلت تولت إذ علت إذ تعلت"

إذا كنا قد استمعنا إلى شعر الشيخ أحمد رضا خان مستشهدين به على وجود الرموز الصوفية فلنسمع الآن شاعر الحب الإلهى ابن الفارض مستشهدين به على استخدام بعض هذه الرموز فنجده يقول(١):

سقتنى حميا الحب راحة مقلتى — وكأسى محيا من عن الحسن جلت

فأوهمت صحبى أن شرب شرابهم — به سر سرى فى انتشائى بنظرة

وبالحدق استغنيت عن قدحى ومن — شمائلها، لامن شمولى نشوتى

على أننى لم أشأ أن أطيل مع ابن الفارض فليس هذا بمجال للإطالة ونكتفى بالاستشهاد فقط.

ومما يدعو إلى التعجب والتأمل أننا نرى لغة الشيخ أحمد رضا خان كأنه نشأ فى بيئة عربية ولا نجد أثرا لعجميته فيما نظم من شعر عربى، فمن يطالع ديوانه العربى يتجلى أمامه أن ناظم هذه الأبيات لابد وأن يكون عربيا، "بيد أننا عندما نطالع أغراضه وموضوعاته التى تصور المجتمع الهندى فى عصره نقول: إن ناظمه من تلك البيئة، ونتسائل أين وكيف ومتى تعلم وأجاد واطلع على اللغة العربية وآدابها فى عصورها المختلفة ابتداء من العصر الجاهلى وحتى عصره"(٢).

وعلى الرغم من إقدام شاعرنا على كل ما ذكرناه إلا أنه راعى الوزن الشعرى والجمال الموسيقى، فلغته مع هذا تتسم بانسجام وتناسق ألفاظها، وقد برهن بهذا النسيج الشعرى على مقدرته التامة فى النظم باللغة العربية السهلة التى يستطيع أن يفهمها الجميع واللغة التى يختص بها أكابر الشعراء والأدباء.

وفى ضوء هذا نقول: إن لغة شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان التى استخدمها فى ديوانه العربى قد برهنت على مقدرته على النظم باللغة السهلة تارة واللغة

---

(١) ديوان ابن الفارض، شرحه وقدم له مهدى محمد ناصر الدين (ط: دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٠هـ)، ص ٢٦.

(٢) الإمام الأكبر المجدد محمد أحمد رضا خان، للأستاذ حازم محمد، ص ٤٢.

الجزلة التى قد يحتاج قارؤها إلى المعجم تارة أخرى، وكأنه يريد أن يقول: إنه بمقدرته النظم بما أراد وما يملكه من ذخيرة لغوية لا نجدها عند الكثير من غيره من شعراء العرب وأدباء العربية، فى شبه القارة الهندية وربما على مر العصور، وهذا جعل منافسيه ايضا يعترفون بفضله فى اللغة العربية ودوره الريادى فى تاريخ الأدب بشبه القارة الهندية.

وبهذا العرض الذى قدمته والحديث عن براعة شاعرنا فى صياغة الشعر باللغة العربية أكملت حديثى عن الخصائص الأسلوبية العربية فى شعره وأرجو أن أكون موفقا فى محاولتى لدراسة هذا الجانب من شعر الشيخ أحمد رضا خان، وبالتالى فى تقسيمى هذه الصياغة إلى قسمين واستشهادى فى كل مجال حاولت أن أتحدث عنه وألم به قدر استطاعتى، لكنه قد بقيت خصائص أخرى لا ترجع إلى الألفاظ بقدر ما ترجع إلى المعنى، وإن كان ثمة ارتباط بين اللفظ والمعنى ليخرج ذلك شعرا رائعا تمثل فى ديوان شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان، إلا أن الخصائص التى سأتحدث عنها هى إلى المعنى أقرب مع تأكيدنا على الارتباط بين اللفظ والمعنى، ولا نستطيع أن نتجنب عن هذا أو نبتعد عن ذاك، وإنما لابد من الارتباط بينهما ليخرج العمل الأدبى والنص الشعرى بحسب ما يكون قد وجد فى فكر الشاعر والأديب، وما يكون قد مالت إليه نفسه وأنست إليه موهبته، وعدم إطالتى فى موضوع الارتباط فذلك راجح إلى أنه لم يكن مما يخوض فيه بحثى، وقد تركت ذلك لمن يبحث فى قضية اللفظ والمعنى فى شعر الشيخ أحمد رضا خان، وأما القضية التى بين أيدينا فهى الشيخ أحمد رضا خان الشاعر ذو الموهبة التى حاولت أن تحفل بالعديد من الأغراض الشعرية متوجا بثقافة عربية أصيلة، كأن العربية لغته الأم وعلى حين أنها لم تكن كذلك.

المبحث الثاني

الخصائص الأسلوبية في ديوانه العربي

شغف شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان باللغة العربية أيما شغف منذ طفولته وقد غرس كل من جده مولانا محمد رضا على خان النقشبندي، ووالده مولانا محمد نقي على خان القادري، هذا الحب في قلب الشيخ أحمد رضا خان منذ أن بلغ حد التذوق فأقدم هذا الابن المتأدب المطيع لوالده وجده على تعلم اللغة العربية بكل شوق وشغف، وأحبها حبا شديدا بوصفها لغة الدين الحنيف، ولغة الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - فانكب على مطالعة اللغة العربية شعرا ونثرا، وتناول دراسة الأدب العربي في عصوره الأدبية المختلفة قدر المستطاع، فانتقت موهبته الشعرية أعذب أساليب العرب لتنظم بها، وقد ورد كذلك ينابيع البلاغة واصطفى منها الأساليب التي أضافت رونقا وبهاء إلى موهبته الشعرية فتفتق لسانه مفصحا عن موهبة شعرية، فتجلت هذه الأساليب في شعره حين إقدامه على نظم الشعر بلغات ثلاثة من بينها العربية، هذا إلى جانب العلوم الإسلامية والعربية التي برع فيها، أضف إلى ذلك رهافة الحس، وسعة الخيال، وهكذا شق شاعرنا لنفسه الطريق فأتى بالأسلوب والطابع الخاص الذي تفرد به، والذي يعبر به عما تفيض به شاعريته، إنه في المقام الأول كان عالما دينيا ولم يكن متفرغا لنظم الشعر بل كان ينفس عن موهبته من وقت لآخر، فينظم قصيدة أو منظومة عربية، ولكنه مع ذلك عند إقدامه على نظم الشعر كان يهتم بألوان البديع، وكان أدبه نابعا من فطرته،

لأنه شاعر وأديب بالفطرة مما جعل شعره العربى أعلى قدرا من شعر الكثيرين من معاصريه فى شبه القارة الهندية حسبما أرى.

ومما يميز أسلوبه فى الشعر هو كثرة إقدامه على الاقتباس من النصين الشريفين وأقوال الأئمة والحكم العربية، وهذا ليس بشئ مستغرب عنده لأنه عالم دينى نشأ فى بيت العلم والفضل وبالتالى أمضى حياته فى خدمة الإسلام والمسلمين، وناهيك عن رجل جاء حبه للعربية عن طريق دينه فكان لابد أن يكون لذلك أثره، أضف إلى ذلك تذوقه الأدبى، فبكل تأكيد رأى شاعرنا أن النصين الشريفين هما أسمى النصوص العربية وأحلاها، لذلك استحسن أن يتوج أدبه بالاقتباس الشائع فى أدبه باللغة العربية بما جاء فى النصين الشريفين، لهذا وجدنا أسلوبه تأثر بحياته وحبه وميوله الدينية، ونسوق لذلك مثلا مما نظمه شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان ونسمعه يقول[1]:

"قل كزرع أخرج الشطأ إلى ... آزر فاستغلظ ثم استوى

يعجب الزراع كالماء المعين ... كى يغيظ الكافرين الظالمين"

نجده فى هذين البيتين مقتبسا من الآيتين نزلتا من جملة ما نزل فى الحديث عن النبى - صلى الله عليه وسلم - ومكانته ومكانة أصحابه - رضوان الله تعالى عليهم أجمعين - حيث قال الله تبارك وتعالى[2]: **هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيدا، محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم، تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود، ذلك مثلهم فى التوراة، ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار، وعد الله الذين آمنوا منهم مغفرة وأجرا عظيما .**

ونجده واردا على نبع الحديث الشريف حيث يروى ظمأه ويتعلم الأدب مع الله تعالى فيناجى ربه فى أدب المؤمن الحقيقى وخضوعه، فيقول مقتبسا من حديث

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٢١٦.

(٢) سورة الفتح ٤٨/٢٨-٢٩.

الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم -(١)

"أنساك دهرا لا أفيق ولم تكن ناسى فى حين من الأحيـــان

فذكرتنى بالجود والإيجـــاد إذ ما كنت فى روح ولا جثمان"

ومن هنا يتجلى لنا إقدام شاعرنا على الاقتباس من الحديـــث والـــذى نصـــه كالآتى: عن عبد الله بن مسعود قال: حدثنا رسول الله - صلى الله عليـــه وســـلم - وهو الصادق المصدوق: ((**إن أحدكم ليجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث إليه الملك [الموكل بالأرحام]، ويؤمر بأربع كلمات [عمن يبقى فى الأرحام] فيقول اكتب عمله وأجله ورزقه وشقى أم سعيد، فوالله الذى نفسى بيده إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**))(٢).

أحضرت مثالين على اقتباس شاعرنا من القرآن الكريم تارة ومـــن الحديـــث النبوى الشريف تارة أخرى، ولقد حافظ شاعرنا على هذا الاقتباس فـــى مواضـــع كثيرة لدرجة أنه أصبح سمة من سماته الأسلوبية والفنية، ومتصفح الديـــوان يجـــد أننى لم أبالغ حين جعلت الاقتباس سمة من سمات شاعرنا الأسلوبية، بل يجد أثـــر النصين الشريفين واضحا جليا فى كل ما قاله شاعرنا على اختـــلاف الأغـــراض، ومن الممكن أن نقول أن هذه السمة مسيطرة على شعره الأردى ايضا فضلا عـــن شعره العربى وذلك لما للدين فى نفسه من أثر فتغذى وارتوى منهما نفسه الشـــعرى وطابعه اللغوى فأصبحا يظهران واضحين فى كل ما قاله من شعر عربى، ولم أشـــأ أن أزيد فى أمثلتى واكتيفت بمثال واحد من قيام شاعرنا بالاقتباس من القرآن الكريم

---

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٨٥.
(٢) سنن ابن ماجه، للإمام أبى عبد الله محمد بن يزيد القزوينى ابن ماجة، ج ١، ص ٢٩.

مرة ومن الحديث النبوى الشريف مرة أخرى، وهذا ليس بنادر فى شعره العربى وإنما الاقتباس سمة عامة لشاعرنا الشيخ أحمد رضا خان فى كل ديوانه.

إذا كان شاعرنا ورد منهل النصين الشريفين وتوج بهما شعره العربى فلم ينس الشعر العربى، حيث إنه أقدم على ما يسميه أهل البديع بالتضمين، فإنه ضمن كلامه بعض أبيات الشعراء من فحول العرب مما يدل على شغفه وغرامه بالشعر العربى، فإنه جاء ضمن هائيته شطرة للبوصيرى وإن كان ببعض التصرف[١] كما قام بتضمين بيتين للصرصرى فيما نظمه شاعرنا فى مدح الرسول - صلى الله عليه وسلم -[٢]، وإنه ضمن كذلك شطرة لعبد الله بن معاوية فى رباعيته مرة[٣] وجعل شعره فى بيتيه مرة أخرى[٤] فأبدع وأجاد التضمين، كما ضمن شعره شطرة لأبى نواس[٥] وإن شاعرنا جاء ببعض أبيات أمية بن أبى الصلت ضمن مقطوعته فى مدح الرسول بدون التصرف حينا وببعض تصرف حينا آخر[٦] كما ضمن كلامه شعرا لزهير بن أبى سلمى[٧] ومما يثير دهشة القارئ، أن شاعرنا ضمن قصيدته الدالية بيتا فارسيا من أبيات شاعر الفارسية الجليل سعدى الشيرازى دون أى ملل للقارئ الذواقة والملم بالثقافتين العربية والفارسية، وهذا إن دل على شئ فلا يدل إلا على مدى تشبعه بما قالت العرب، وارتوائه من هذا الشعر ريا مشبعا لدرجة أنه أصبح ظاهرة وسمة من سماته الأسلوبية والفنية، ولقد قرأ شاعرنا لجل شعراء العرب إن لم يتناول شعر كلهم فضلا عن أنه أخذ من الشعر العربى الكثير وشرب منه حتى تشبع مشربه وبالتالى خرج شعرا لطيفا ولم نضرب لكل ما قلنا فى التضمين مثلا تفاديا الإطالة على القارىء الكريم، ونود أن نضرب مثلا لما قلنا

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١٦٦.
(٢) المرجع السابق، ص ١٧١.
(٣) المرجع السابق، ص ١٧٦.
(٤) المرجع السابق، ص ١٩٧.
(٥) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٢١١.
(٦) المرجع السابق، ص ١٤٨.
(٧) المرجع السابق، ص ١٤٢.

بشأن تضمين أبيات أمية بن أبى الصلت ونذكر ثلاثة أبيات من كلا الشاعرين، قال أمية بن أبى الصلت فى مدح عمرو بن عبيد الله بن معمر التميمى(١):

"أأذكر حاجتى أم قد كفانى   حياؤك إن شيمتك الحياء
خليل لا يغيره صباح   عن الخلق الجميل ولا مساء
إذا أثنى عليك المرء يوما   كفاه من تعرضه الثناء"

وقال شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان فى مدح الرسول -صلى الله عليه وسلم- وقد حول أبيات أمية بن ابى الصلت إلى مدح النبى - صلى الله عليه وسلم - ببعض التصرف حينا وبدون التصرف حينا آخر، فلنستمع إليه حيث يقول( ):

"أأذكر حاجتى أم قد كفانى   حياؤك إن شيمتك الحياء
إذا أثنى عليك المرء يوما   كفاه عن توضئك الثناء
كريما لا يغيره صباح   عن الخق الكريم ولا مساء

هذا والأمثال العربية من المنابع التى وردها شاعرنا المغرم بلغة الضاد - وبالتالى ضمن شعره العربى بعض الأمثال العربية ومنها بيت عربى جرى مجرى المثل والذى جعله شاعرنا فى الشطرتين الأوليين من البيتين، ضمن قصيدة نظمها فى رثاء مولانا محمد إسماعيل القادرى بكل براعة دون أن يشعر القارئ، بأى غرابة أو كلل فلنسمع إليه حيث يقول(٣):

"وعين الرضا عن كل عيب كليلة   فإن لم يك لم تنظروإن ترغلت
"ولكن عين السخط تبدى المساويا"   كمن دخل البستان مجتل جلة

ومن الظواهر فى شعره أن نفسه الشعرى طويل حيث إنه أطال من نظم القصيدة، فقد وصلت إحداها مائتين وثلاثة وأربعين بيتا تلك هى نونيته التى نظمها فى مدح مولانا فضل الرسول البدايونى، وقد عرضت لذكرها فى الفصل الأول من

(١) المرجع السابق، ص ١٤٨.
(٢) المرجع السابق، ص ١٤٨.
(٣) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١٧٦.

الباب الثاني، والتي مطلعها كالآتي[١]:

"رن الحمام على شجون البـان   ياما أميلح ذكر بيض البـان"

ومن السمات الأسلوبية والفنية في أدب شاعرنا هو ما يسمى في المحسنات اللفظية بالتشطير "بأن يجعل كل شطري البيت سجعة مخالفة للسجعة التي في الشطرة الأخرى"[٢] وبهذا اللون من السجع ينشئ شاعرنا رنة ونغمة في الأذن المتذوقة، يقول في مدح الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم -[٣]

"رفيع المدارج، منيع المعـارج   سمي المراتب سني المنـاقب"

ومما تفرد به شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان من أسلوب في نظم الشعر هو إقدامه على التاريخ بحساب الجمل الأمر الذي عده الشيخ أحمد الحملاوي من المحسنات البديعية[٤]، وكان شاعرنا الموهوب بارعا في هذا اللون البديعي، فقد جاء به ضمن المدائح والمراثي والمقطوعات، ولقد جرت العادة بين شعراء الهند أن يأتوا بحساب الجمل في الشطرة الثانية من البيت الأخير مسجلين تاريخا لحدث معين، أو عام قول هذه القصيدة مما يمكن أن يؤرخ له الشاعر وشاعرنا مشى على هذه الوطيرة مرة ولكنه اختلف فيها مرة أخرى وجاء بحساب الجمل مرتين في البيت الأخير من المقطوعة مع الاحتفاظ بسلاسة الشعر دون التعقيد في الأسلوب، وهذا اللون من الشعر وإن كان ذا جذور في الأدب العربي إلا أننا لم نلحظ اهتمام شعراء العربية بهذا اللون من البديع بقدر ما نجده عند شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان في العصر الحديث، فقد أكرمه الله تعالى بموهبة في هذا الفن حيث كان يستخرج التواريخ - بحساب الجمل - نظما ونثرا، دون كد عقل وعنت نظر، وعناء حساب بل كان يستخرج الكثير من التواريخ عفو الخاطر، وهاكم مقطوعة

---

(١) المرجع السابق، ص ٧٢.

(٢) زهر الربيع في المعاني والبيان والبديع، للشيخ أحمد الحملاوي، ص ٢١٨.

(٣) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٢١٥.

(٤) زهر الربيع في المعاني والبيان والبديع، للشيخ أحمد الحملاوي، ص ٢٣١.

نظمها شاعرنا فى تاريخ عام وفاة الشريف ظهور حيدر، نجده يقول[١]:

"نحو لقـــاء جـده أم ظهور حيـدر

حن إلى الجنـــان إذ تم ظهور حيـدر

قيل متى هذا السـفر هم ظهور حيـدر

قلت لأن بقى السنة تم ظهور حيـدر"

١٣٣٢هـ

نلاحظ أن قيام شاعرنا باستخدام الناحية الرياضية والحساب حتى يصل إلـــى جملة يريدها هى أقرب إلى المنطق، والمنطق ألصـــق بـالعقل، ولكـن شـاعرنا الموهوب يستطيع أن يقنع القارئ بأنه لا يقصد إلى حساب الجمـــل، ولا يسـتخدم العقل بل يستخدم عاطفته الشعرية، لكن القارئ يفاجأ بأن هذه الكلمات أو العبـارات العاطفية لو عددت حروفها لوجدتها تحقق المراد وتطبق فكرة حساب الجمل، مـــع أن حساب الجمل من الأمور المنطقية إلا أن شاعرنا كـان يضفـى عليـه طـابع الشاعرية والموهبة التى منحه الله تعالى إياها، فكان يأتى شعره حلوا لطيفا، لأنــه يقول الشعر ولا يرغب من ورائه إلا إشباع العاطفة الشعرية، إذن فلم تتحكم فـــى شعره منطقية حساب الجمل، وإنما اندفع شاعرنا بعاطفته الشعرية فحقق ما يريـــد دون أن يحمل الألفاظ فوق ما تحتوى.

ومن أساليب شعراء العربية التى اتبعها شاعرنا هـــو "لـــزوم مـــا لا يلـزم" ولشاعرنا فى هذا باع طويل وذلك مع مراعاة العلاقة الوطيدة بين اللفظ والمعنـــى، ونضرب لذلك مثلا بالتزام شاعرنا بحرف التاء المضمومة قبل الهاء المفتوحة، وقد سلك هذا المسلك فى أربعة وعشرين بيتا من قصيدته فى رثاء وتاريخ عام رحيـــل مولانا محمد عبيد الله والتى مطلعها:

"أترحت سنة غراء ضرتـــها أم فرحت بدعة ضراء غرتـــها"[٢]

وقد التزم شاعرنا بالتاء المسبوقة باللام المشددة فى قصيدته فى رثاء وتـاريخ عام رحيل مولانا محمد إسماعيل القادرى واستمر على هذا النهج حتى نظم تسـعة وثلاثين بيتا، ولقد سبقه الكثيرون فى تناول التاء قافية لقصائدهم ولكن قلمـا الـتزم

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان، ص ١٨٢.

(٢) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان، ص ١٦٤.

أحد باللام المشددة بهذا القدر من الأبيات[١] حتى أبو العلاء المعرى - رائد فن لزوم ما لا يلزم - لم تقع له هذه القافية إلا فى خمسة أبيات تحت عنوان "نوائب الدنيا"[٢] ولكن شاعرنا الموهوب استطاع أن يلزم نفسه هذا النهج ، و جاء شاعرنا فى مطلع تائيته هذه بالتالي:

"عدت شوطبها أم ظل وظلتِ ببطن بطين والظلال أقلت"[٣]

ولشاعرنا مقطوعات وقصائد أخرى سلك فيها مسلك "لزوم ما لا يلزم" ترى هل أغرم شاعرنا بهذا الفن أو أغرم برائده وأعنى أبا العلاء المعرى، أم أنها قوة العاطفة الشعرية وتمكنها من قلب شاعرنا مع تمكنه من ناصية اللغة العربية، وقد تكون الأمور جميعا.

ومن الأساليب التى تميز وتفرد بها شاعرنا هو إقدامه على نظم الشعر على نسق الرباعى، الصنف الشعرى المعروف لدى الشعر الفارسى والأردى، ولم يعرف الشعر العربى هذا النوع من الشعر إلا نادرا، ولكن شاعرنا أجاد وأبدع فى نظم الرباعى بالعربية، فقد يجد الشاعر نفسه مضطرا إلى إبراز المعنى فى حيز ضيق فى بيتين فقط، وقد لا يطاوعه ضيق المجال على ذلك ولكن شاعرنا استطاع أن يكسب جمالا لما نظمه من الرباعيات العربية فى التوسل بالشيخ عبد القادر الجيلانى إلى الله - تبارك وتعالى - وتمكن كذلك من جعلها خالية من التعقيد، يستشف معناها من ظاهر لفظها ويدرك بسهولة ودونما عناء وكد فكر، وأكثر من هذا أن شاعرنا جاء بالرباعى المستزاد، النوع الجديد على اللغة العربية، وقد حاولنا دراسة فن الرباعى المستزاد بإيجاز فيما سبق فى الفصل الأول من الباب الثانى وهاكم الرباعى المستزاد:

"حمدا يا مفضل عبد القادر ياذ الأفضال
يامنعم يامجمل عبد القادر أنت المتعال

(١) لقد سبق أن حاولت دراسة هذا الموضوع فى الفصل الثانى من الباب الثانى موازنا بين قصيدة الشيخ أحمد رضا خان وشعراء العربية من المتقدمين الذين عالجوا هذه القافية.

(٢) لزوم ما لا يلزم (اللزوميات) لأبى العلاء المعرى (ط: دار صادر بيروت، دون سنة الطبع) ج ١، ص ٢٢١.

(٣) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٢٠٩.

مولاى بما مننت بالجود عليه		من دون سؤال

امنن وأجب سائل عبد القادر		جد بالآمال"(١)

ومن السمات الأسلوبية والفنية إقدام شاعرنا على التخميس وعندما كنت أرصد السمات الأسلوبية والفنية فى أدب شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان رأيت أن أذكر بين ذلك قيام شاعرنا بتخميس لبيتى الصرصرى فى مدح النبى - صلى الله عليه وسلم - ولننظر كيف يكسب شاعرنا جمالا إلى ما نظمه الصرصرى فنجده يقول(٢):

سواد عيون العين سنا ذهب		ولوح نحور الحور لاح كما يجب

فإن يمل جبريل لقال أولو الأدب		"قليل لمدح المصطفى الخط بالذهب

على فضة من خط أحسن من كتب"

يقوم بحق المدح قوم فلاته		توله وقم بالوجد قومة واله

فحق خضوع الوجه رغما لكاره		"وأن ينهض الأشراف عند سماعه

قياما صفوفا أو جثيا على الركب"

ومما برز فى أدب شاعرنا من السمات الأسلوبية والفنية هو "عتاب المرء نفسه" وقد تكلم الشيخ أحمد الحملاوى عن هذا اللون من ألوان البديع قائلا(٣): "هو أن يوجه الإنسان الخطاب لنفسه ويعاتبها على أمر من الأموز" وقد يغيب هذا اللون على بعض الناس، ولكن شاعرنا جاء بهذا اللون فى أكثر من موضع، ونذكر ما نظمه شاعرنا معاتبا نفسه بعد قيامه بهجاء المتطاولين على مولانا فضل رسول البدايونى فنجده يقول(٤):

ما عندهم شسوب ولا روب ولا		خير ولا أثر من الإيمان

قم يارضا لا تغش أهل غشاوة		ذرهم وما هم فيه من خذلان

اشغل بنفسك أنت أجنى من جنى		كم من معاب هن ونصح فلان

---

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٢٠٩.

(٢) المرجع السابق، ص ١٧١.

(٣) زهر الربيع فى المعانى والبيان والبديع، للشيخ أحمد الحملاوى، ص ١٨٤.

(٤) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٧٧-٧٨، وردت هذه الأبيات فى النونية بدء من البيت الحادى والتسعين حتي البيت الرابع والتسعين.

تب يـــأثيم فقـد أظـل زمانـــة　　　يمحى بهاجم مـــن العصيـــان

ومن سمات شاعرنا الأسلوبية "التشبيه" ويحمل عليه ما يتفرع عنه، وبه يزداد تأثير الكلام ويقرب معناه إلى الفهم، وشاعرنا لم يغفل من هذا اللون البيـانى، فقـد أجاد وأتقن استخدام التشبيه إتقانا ملموسا، شأنه فى ذلك شأن العرب، فإنـه يـأتى بالتشبيه حسب سياق الكلام، فتصيغه موهبته صياغة تتوق إليه النفوس، نلاحـظ أن شاعرنا نظر إلى حمامة تدمع، وإذا بالدموع تنهل غزارا، فما كان من هذه الدمـوع إلا أن ملكت عليه عاطفته الشعرية، ولعلك لاحظت أيها القارئ الكريم أن شـاعرنا الشيخ أحمد رضا خان شبه دموع الحمامة بالمطر الغزير ليبين مدى بكائها وتفجعها بفراق الحسناوات، وهذا أبلغ أسلوب لتوصيل الصورة إلى المخـاطب أو القـارئ، شأنه فى ذلك شأن العرب، وهذا أيضا مما أخذه شاعرنا من الثقافة العربية، ويعـبر شاعرنا عن حزن الحمامة فيقول[١]:

"بكت الغزير فهيجت منى البكـا　　　إن الحزين لسائل الأجفـان"

ومما تجدر الإشارة إليه أن ظاهرة التشبيه كثيرة جدا فى شعر الشيخ أحمـد رضا خان ومن حلاوة التشبيه عنده أنى تحيرت ما المثال الذى استشهد به فـالعدد هائل والحلاوة تكسو كل شاهد من شواهده، لذلك رأيت أن أكتفى بمثال واحد حتـى لا أطيل، وأنا لا أرجو أن أكون قد حرمت القارئ مما أفاض بحر كرمه الشـعرى، وإنما أحيل القارئ على بعض المواطن التى يمكن أن يجد فيها هذا اللون الرائع فى نسيج الشيخ أحمد رضا خان الشعرى.

---

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٧٢

ومن ضمن السمات الأسلوبية إقدام شاعرنا على الابتكار في التشبيه في بعض الأحيان على نحو يقع في النفس موقع الإعجاب، وقد ابتكر شاعرنا في التشبيه حين عبر عن وجه الحبيبة - التي اصطنعها من وحي خياله - بالبدر المحاط بالقمرين، فتشبيه الوجه بالقمر معروف في الأوساط الأدبية، ولكنني أعتقد أن تشبيه الحاجبين بالقمرين غير مسبوق إليه مما جادت به قريحة شاعرنا، وهذا ما يسمى في علم البديع "بسلامة الاختراع" "وهو أن يخترع الشاعر معنى لم يسبق إليه، ولم يتبع فيه أحدا، ولا يتأتى ذلك إلا لمن أحاط بجميع أطراف المعاني المتداولة واستعمالاتها"[١] فلنستمع إليه حيث يقول[٢]:

"هل ياهلال العيدعندك خبرة ... بشميسة في بدرها قمزان"

لعل في تصغير الشمس أن شاعرنا أراد منها النور والضياء ولم يرد أن يذكرها دون التصغير حتى يحرمها الإحراق والحرارة المضنية.

ومما ابتكره شاعرنا - فيما أعتقد - هو إقدامه على تشبيه شفتي حبيبته بأطيب الفواكه وأكثرها فائدة وحيوية، ألا وهو الرطب، كما أقدم على تشبيه المقلتين باللوز، لعل شاعرنا يشبه طراوة الشفتين وطولهما بطرواة الرطب وطوله، وكأنه شبه شفتيها بالرطب لأنهما مصدر الحياة نظرا لما تصدر منهما الكلمات الحلوة، وشبه مقلتيه باللوز لوجود شبه في بنية اللوز الطويل والمقلة الطويلة، وأعتقده غير مسبوق في هذين التشبيهين، ونراه يقول[٣]:

"ياحسن غصن فيه من كل الجنى ... عنب وعناب وبه سلواني"

---

(١) زهر الربيع في المعاني والبيان والبديع، للشيخ أحمد الحملاوي، ص ٢٠١.

(٢) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٧٢.

(٣) المرجع السابق ، ص ٧٣.

"واللوز فيه الفوز والتفاح والـــر طب ولا تسأل عن الرمـان"

وحين ندخل بساتين الغفران ونتسم عبيرها ويكسونا عطرها نجد أن شـاعرنا الشيخ أحمد رضا خان دقيق فى صياغة الشعر ولا يأتى باللفظ الزائـد للمحافظـة على النظم الشعرى، وإنه عندما يتطرق إلى رسم الصورة البيانية نجده يقوم علـى إيراد الصورة التى يريد إبرازها بأسلوب واضح لا غموض فيه مع بيان ما تتسم به هذه الصورة من تركيب، مثال ذلك حديثه عن بعض معاصريه من العلماء الذيـن توفوا، يذكر مالهم من حميد الصفات وما قدموه من خدمات للإسلام، وما كان لديهم من مؤلفات كان لها عظيم الأثر فى الحلقات الدراسية فى عصره، ونضرب لذلـك مثلا بالأشعار التى نظمها شاعرنا تقريظا لكتاب "سراج العـوارف فـى الوصايـا والمعارف" ولنسمع إليه حيث يقول(١):

"أنا سيدى يابن عز غطـارف ويأحمد النور نـور الأعـارف
كلامك نور بـهاء السلاسـل وشهد مصفى عن الزيغ صارف
وتحقيق ترويح كشف القلوب دليل اليقيـن سـراج العـوارف
ولا غرو أن جاء منك سـراج فإنك نـورى نـادى المعـارف
أرانا سراج بـالليل شمسـا وشمس بليل عجيـب وطـارف
فهل مثله فى تليد وطـارف وأين فـأين تـراه الطـوارف"

ومن الظواهر الفنية عند شاعرنا إتيانه بالمجاز حيث إنه أقدم على بيان علـو منزلة الممدوح وإنى لأراه صادقا فيما قال، فإنه مـدح مولانـا فضـل الرسـول البدايونى نظرا لعلمه وتقواه وورعه دون الرغبة فى المال والنـوال، ولـو كـان

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١٩٥.

شاعرنا راغبا فى جمع الأموال بالمدائح لمدح الإنجليز ونال منهم ما كان ييسر له أمور دنياه مثلما نال غيره وربما يزيد، وقد كان نوال الإنجليز مالا ومكانة وريادة يمنحونها لمن يرضون عنه وكثيرا ما كان رضاهم فى التزلف والنفاق إلى غير ذلك مما تأباه الفطر السليمة، ولم يكن شاعرنا إلا صاحب فطرة سليمة منعته من أن يطمع فى عطاء الناس لا سيما الأعداء (الإنجليز) بل كان يطمع فيما هو أفضل وأبقى، إنه عطاء الله – سبحانه وتعالى – وما أسعد النفس المسلمة إذا نالت من الله – عز وجل – رضاه وهكذا لم يقدم على مدح أحد من أغنياء المسلمين تكون وراءه غاية دنيوية بل سخر نفسه للدفاع عن الدين ومدح كل السالكين لهذا الطريق من الأولياء الصالحين وعلماء الدين بعد مدح النبى – صلى الله عليه وسلم – لنستمع إليه لنراه كيف استخدم المجاز فنجده يقول[١]:

"جبلا رفيعا فائقا شما على ... بطلا شجيعا سيد الشجعان"

نلاحظ أن شاعرنا استخدم كلمة "جبل" وبعد ذلك جاء بثلاثة صفات للجبل، وهذه الكلمة تعطى معنيين أحدهما الحقيقى المعروف وثانيهما غير حقيقى وهو إنسان رفيع القدر، وإذا تأملنا فى معنى الكلمة نجد الصلة بين المعنى الحقيقى للجبل، والمعنى الذى استعملت فيه كلمة الجبل، وهذه العلاقة هى المشابهة لأن الشاعر انتقل إلى مدح مولانا فضل الرسول البدايونى فى البيت التاسع والثلاثين وبدأ يمدح ممدوحه من البيت الأربعين، وهذه القرينة تمنعنا عن إرادة المعنى الحقيقى، إذ نفهم المعنى المجازى فقط من كلمة "جبل".

ومما يعد ظاهرة أسلوبية عند شاعرنا إتيانه بداليته الطويلة دون تكرار القافية الأمر الذى يعد عيبا فى القافية ويعرف بالإيطاء، وهكذا رأيناه يتجنب الإيطاء وكفى

---

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٧٤.

به حكما على نفسه حيث يقول[١]: "هذه القصيدة تتكون من سبعين ومائة بيت والحمد لله لم تتكرر فيها القافية، وما يبدو تكرارا في ظاهر الأمر في بعض القوافي فإنه ليس من التكرار في شئ بل هو من باب الجناس حيث يتحد اللفظ ويختلف المعنى".

أعتقد أنك أيها القارئ الكريم قد فهمت ما أريد، أى تمكن أعظم من أن يأتي الشاعر سبعين ومائة بيت تخلو من تكرار القافية، وقد ذكر شاعرنا أنه إذا كرر القافية لم يقصد التكرار وإنما قصد الجناس وبالتالي لا تكرار، وهذا منه إن دل على شئ فيدل على سعة اطلاعه على علم العروض والقافية، ولا غرابة لعل العروض واحد من فنونه الخمسة والخمسين، ومن هنا يتجلى مدى تمكنه من ألفاظ العربية لغته الثالثة وهذه المقدرة اللغوية نفتقدها عند الكثيرين، والتساؤل الذى يدور فى أذهاننا هو إذا كان هذا حاله وهو يكتب الشعر بلغته الثالثة فكيف به إذا كان عربى الأصل يكتبه بلغته الأولى؟ وماذا كنا ننتظر منه؟ كم كنا نطمع فى أن نرى الشيخ أحمد رضا خان من أبناء العربية الأصلاء وكنا ننتظر منه أكثر من هذا.

ومن أبرز الظواهر الفنية عند شاعرنا احتفاؤه بالطباق، فإنه عند مدحه لعلماء أهل السنة أتى بالضدين على سبيل الطباق فى شطرتى بيت، فإنه يرى أن الصحارى تتحول إلى المدن عند حلول علماء أهل السنة بها، وأن المدن تفقد رونقها وبهجتها عند مغادرتهم اياها، ولا نجد الاختلاف فيما بين الضدين إيجابا أو سلبا فيمكننا أن نسمى هذا اللون البديعى بطباق الإيجاب، لنسمتغ إلي شاعرنا حيث يقول[٢]:

"إذا حلوا تمصرت الفيافي وحين ترحلوا الأمصار بيد"

(١) امال الأبرار والام الأشرار، للشيخ أحمد رضا خان، ص ٢٢.
(٢) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١١٩.

ومن هنا نلاحظ قيام شاعرنا بالجمع بين الحلول والترحل مرة، وبين المدن العامرة والصحارى القفراء مرة أخرى، كما قام بالجمع بين ذكر علماء أهل السنة المتمسكين بما جاء به الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - والمبتدعين المعارضين لهم مرة أخرى مما يبرز لنا براعة شاعرنا فى هذا اللون البديعى.

ومما نجده متمثلا فى أدب شاعرنا من المحسنات البديعية هو التورية، فإن شاعرنا أتى بمفردات ثلاثة لكل منها معنيان أحدهما قريب والآخر بعيد ولكن شاعرنا قصد المعنى البعيد يقول[١]:

"بكت العيون أما تريد جمودا ... أبكت شريفا صادقا محمودا"

نلاحظ أن كلمة شريف لها معنيان قريبان أحدهما رجل ذو شرف فى قومه والآخر أحد المنحدرين من سلالة أهل البيت، ويتبادر الذهن إلى هذين المعنيين القريبين، وكذلك كلمة صادق ومحمود لهما معنى قريب وهو الرجل المتصف بالصدق والذى يحمد عليه، فيكون المعنى أن العيون ذرفت دموعا لموت الحكيم محمود أحمد خان الدهلوى، وهذه العيون المنهمرة أبكت من رآها من الرجال المتسمين بالصفات الثلاثة فى الشطرة الثانية من البيت، ولكن شاعرنا - كما أراه - تجاوز عن هذا المعنى القريب وكأنه قصد أن يقول: إذا كانت هذه الفجيعة أثرت فى الأحياء فأثرت كذلك فى الأموات، فإنه ورى بكلمة الشريف والصادق والمحمود ورمز بها إلى أسماء ثلاثة، جد المرثى الحكيم محمد شريف خان، ووالد المرثى الحكيم صادق على خان، واسم المرثى الحكيم محمود أحمد خان، وبهذا يعرب شاعرنا عن مدى وقع الفجيعة في النفوس، وإنه تعبير للحزن البالغ الشامل، فإن

---

(١) المرجع السابق، ص ١٥٣.

الحكيم محمود أحمد خان كان خير خلف لخير سلف، وكان امتدادا لحياة أبيه وجده كما تبين المراجع في هذا الصدد فكأن شاعرنا أراد أن يقول: إذا كان الأحياء تفجعوا بهذا الحادث لما تفجع النفوس بموت رجال الخير فالأموات أيضا تفجعوا لموت الخلف الصالح لخير السلف، وذلك لتوقف الصدقة الجارية، وأراه أنه اتخذ هذه الفكرة من قول الحبيب المصطفى – صلى الله عليه وسلم –[1]: "**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث إلا من صدقة جارية أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**" وبهذا جمع شاعرنا بين عاطفته المتقده والثقافة الدينية، وأنشأ هذا التعبير الرائع، ومن روعة الأسلوب أن شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان جاء بثلاث كلمات في شطرة بيت واحد دون أي تكلف في الأسلوب والغرابة في الكلمات، إذا كنا نحمد للرجل أن يأتي بالتوريه وهي عبارة عن كلمة لها مغنيان فكيف بشاعرنا وقد أتى بكلمة لها أكثر من معنيين محققا في ذلك القرب والبعد بين المعاني الموجودة، إذا فهي تورية لا محالة، وقد ضربنا للتورية مثلا بالكلمات الثلاث التي وردت في البيت الشرف والصدق والمحمودية، وبينا ما بعد من معانيها وما قرب، والشاعر إذا وقع له تورية حمدنا له فكيف إذا تعددت الكلمات التي تحمل التورية في بيت واحد، ماذا نقول عنه؟ أعتقد أن ذلك دليل واضح على مدى تمكنه من لغته الثالثة – ألا وهي العربية – تمكنا بالغا لا يكتفي بإدراك الصور البيانية والإتيان بها ومراعاة ما يتطلبه علم المعاني، وإنما يعرج على المحسنات البديعية اللفظية والمعنوية، والبيت عنده لا يكتفي بأن يذكر المحسن مرة واحدة بل تتعدد الأبيات عنده التي تمتلئ بالمحسن البديعي المتكرر، فضلا عن وجود أكثر من محسن في بيت واحد، إنه الإلمام بالعربية إلماما يجعله يقف في مصاف أبنائها لتفخر لغتنا العربية بابن من أبنائها نشأ وترعرع في شبه القارة الهندية.

---

(١) صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج القشيري، القسم الأول من الجزء الثاني، ص ٦٧.

ما زال شاعرنا يغترف من نهر المحسنات البديعية التى اغترف منه الكثير من شعراء العربية، ها هو غرامه بلون آخر من ألوان المحسنات البديعية إنه المقابلة وسوف نجده لونا شائعا فى شعره شأنه فى ذلك شأن الكثير مما اهتم به من تلكم المحسنات، وعلى سبيل المثال نقف إلى بيت جاء فيه بالمعنيين فى الشطرة الأولى وقابلهما بالمعنيين المضادين فى الشطرة الثانية، فقد ذكر المعارضين لعلماء أهل السنة مع ذكر صفتهم المتلائمة لهم فى صدر البيت، ويشمل عجز البيت على ذكر علماء أهل السنة مقرونا بصفة تتناسب معهم، وهذا منه كثير فى شتى الأماكن، وشاعرنا يأتى بهذا اللون عفويا دون تكلف، وإنه يراعى الاحتفاظ بجمال التعبير وسلاسة الأسلوب، وسهولة اللغة، ومهما قلنا فى لطافة التركيب عنده فخير من أن نقول وهو أن نسمع صوت الشاعر نفسه حين يقول(١):

"هم يُعرفون بنتن ما فيهم كما يعرف بالعرْف عارف ربانى"

نلاحظ أن شاعرنا يقابل المبتدعين ونتن أفكارهم بالصالحين وشذى عقيدتهم الطيبة، فإن العقيدة الزائغة لا ينشئ إلا رائحة كريهة فى صاحبها كما أن عقيدة الرجل السالك على درب السلف الصالح، العارف لأحكام ربه، المتبع لشريعة الإسلام لاتثير فى صاحبها إلا رائحة تحببه إلى الناس، والمقابلة فى الجملة كثيرة فى شعره ولكننا إكتفينا بمثال واحد حتى لا يطول بنا الكلام، والديوان خير شاهد على ما ذهبنا إليه.

وكذلك من المحسنات البديعية التى توج بها شاعرنا أبياته ووقعت له كثيرا محسّنٌ يقال له الجناس، ولعل هذا اللون من المحسنات كان ينسجم جريانا على لسان شاعرنا وبينه وبين الشاعر مجانسة، أعتقد أننى أشرت بذلك إلى الجناس الذى

---

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٨١.

أقدم شاعرنا على استخدامه، وهذا منه ليس بقليل، وإنما نجد نماذج كثيرة خلال النتاج الشعرى الذى انبثق من قريحة شاعرنا، إنه جاء بالجناس فى صدر بيت نظمه ضمن غزله العذرى فنجده يقول[١]:

"راحت أزمة راحتى من راحتى وكذاك كل مودع الخلان"

نلاحظ أن شاعرنا جاء بكلمة راحتى مرتين وهما تتشابهان فى نوع الحروف وشكلها وعدد حروفها وترتيبها، إلا أنهما تختلفان فى المعنى فإن كلمة الراحة تؤدى معنى الارتياح مرة والكف أخرى، وهذا ما يسمى فى علم البديع بالجناس التام، ومن حلاوة الأسلوب وبراعة الشاعر أنه أتى بالجناس غير التام أيضا فى الشطرة نفسها حيث إن كلمة "راحت" تجانس كلمة "راحتى" وتشبهها فى اللفظ مع الاختلاف فى المعنى، إلا أن الأولى تخالف الأخرى فى الشكل أحد أركان الوفاق الأربعة التى ذكرناها آنفا، ومع ذلك لا نجد فى البيت شيئا من التصنع والتكلف، لأن شاعرنا جاء به عفو الخاطر بينما كانت العاطفة مسيطرة عليه، وسمح به الطبع من غير تكلف، وهذا البيت لا يقل روعة ونغمة مما تقدم أو تأخر عنه من الأبيات فى الغزل، وعليه فشاعرنا مهما اصطحب معه من ألوان المحسنات البديعية ليزين بها شعره لا يعرف الملل طريقا لهذا الشعر، وأبياته فى نظرى تبرأ تماما من التكلف والصنعة الممجوجة بل على العكس، فمحسناته تؤدى زينتها لشعره كما أراد لها تماما بتمام.

ومما كلل به شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان قصائده العربية هو ما عرف فى علم البديع ببراعة الاستهلال أو حسن المطلع، سواء كانت هذه القصائد فى المدح أو الرثاء أو الهجاء، فلا نجده يأتى بالتنافر أو التعقيد بل يحتفظ بعذوبة

---

(١) المرجع السابق، ص ٧٢.

اللفظ، وحسن السبك، وكان هذا دأبه فى قصائده اللهم إلا فى تائيته التى نظمها فى رثاء مولانا محمد إسماعيل القادرى، فإن النزعة الصوفية سيطرت على أبياته الأولى من هذه المرثية حيث جاء شاعرنا بالرموز على غرار شعراء الصوفية ولا يفهمها إلا ذو إلمام بمصطلحاتهم، وبالتالى تحتاج هذه الرموز إلى الملم بها المعالج لفكرها الفاهم لما تعنيه، ولكنه مع ذلك لم يأت فى مطالع القصائد بما يتطير به القارئ، إنها رموز صوفية تسربت إلى أبيات شاعرنا الصوفى فى رثاء فقيد الصوفية[١] وكذلك أقدم شاعرنا على نظم نونيته الطويلة فى مدح مولانا فضل الرسول البدايونى واستهلها بغزل الصنعة على غرار الكثير ممن سبقه من شعراء العربية منذ العصر الجاهلى فالإسلامى حيث إنهم كانوا يستهلون المدائح بالتشبيب، وأرى هذه البداية من خير البدايات – عند شاعرنا – لعذوبة المأخذ فى كلا الغرضين أولهما الغرض التمهيدى للقصيدة وهو الغزل، وثانيهما الغرض الأساسى الذى صيغت القصيدة من أجله وهو المديح، فبين الغزل والمديح رقة متبادلة ولطافة مستأنفة يعمل على إيجادهما كرم الاتصال بين الغرضين، يقول شاعرنا فى مستهل قصيدته[٢]:

"رن الحمام على شجون البان	ياما أميلح ذكر بيض البان
تبكى دما وتقول فى أسجاعها	الله يضحك سن من أبكانى
بكت الغزير وهيجت منى البكا	إن الحزين لسائل الأجفان"

استغرقت هذه البداية أربعة وعشرين بيتا برزت فيها براعة شاعرنا فى نظم الغزل وبالتالى أعربت عن براعة الاستهلال وحسن المطلع عنده ليتوائم ذلك مع

(١) حاولت دراسة هذه الأبيات فى الفصل الثانى من الباب الثانى.
(٢) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٧٢.

الغزل، كما برزت ميوله الصوفية التي جرت على لسانه خلال انتقاله من الغزل إلى المدح.

إذا كان شاعرنا أتقن وأجاد براعة الاستهلال أو حسن المطلع فقد أبدى براعته في لون بديعي آخر ألا وهو حسن الانتقال أو حسن التخلص من غرض لآخر للوصول إلى المراد، وقد يصعب الانتقال على بعض الشعراء فاعتدنا منهم ألا يحسنوا التخلص ولكن لم نعهد من شاعرنا - في أغلب الأحيان - غير حسن الانتقال، وكان شاعرنا في هذا الأمر عربيا قحا، شأنه في الانتقال من غرض إلى غرض آخر شأن النصوص العربية وعلى رأسها القرآن والحديث، ولقد حاول شاعرنا أن يرتوي من جل منابع العربية، والأبيات التي نحن بصددها تمثل حسن الانتقال من الغزل إلى المدح فنجد شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان يوجه اللوم إلى نفسه ويعاتبها على لسان ناصح جاء به من وحي الخيال على غرار من سبقه من شعراء العربية منذ العصر الجاهلي، وجاء بذلك العتاب بعدما نظم أربعة وعشرين بيتا في الغزل، وكان إقدامه على الغزل هو الدافع لعتاب الشاعر نفسه وإن كان الغزل عذريا وتمهيدا لمدح مولانا فضل الرسول البدايوني، ولكنه كان قد أقدم على التشبيب مسايرة لعادة شعراء العربية المتقدمين حيث إنه سار على دربهم فنظم غزل الصنعة، وبالتالي جاء بالنقلة المكونة من أربعة عشر بيتا يعاتب فيها نفسه مذكرا إياها كرامة الآباء، وأنها ليست من أهل البطالة كما يشكر لصاحبه أيضا، ونسمعه يقول(١):

"مه يارضا يابن الكرام الأتقيا	يا غرس دوح العلم والاتقان
دع عنك هذا لست أهل بطالة	وانهض إلى ما كنت فيه تضاني
لله درك يانصيح نديمه	أيقظتني من غفلة الوسنان

(١) المرجع السابق، ص ٧٣، ٧٤.

أحسنت فيما قلت فاسترزلتى   يسبل عليك الله ستر أمان"

فى هذه الأبيات الأربعة استطاع شاعرنا أن يجمع بين الاثنين من ألوان البديع أولهما حسن الانتقال وثانيهما "عتاب المرء نفسه" وهذا ما عهدناه من شاعرنا فى مواطن كثيرة، وينتقل شاعرنا بعد عتابه نفسه على نحو ما ذكرنا آنفا إلى تبرئته نفسه من الغزل وترفعها عنه، فإبراز البعض من خواطره الصوفية، واستمر فى هذه المعانى من البيت التاسع والعشرين إلى الرابع والثلاثين، ثم يعود إلى ترفعه عن الإقدام على الغزل، ومن خلال هذا الحديث ينتقل دون أن يشعر السامع بالانتقال إلى الغرض الذى صيغت لأجله القصيدة وكأن السامع لم يزل فى الاستماع إلى المعنى السابق، ولنسمع إليه حتى نتمتع بجمال حسن الانتقال فنجده يقول[١]:

"مالى وللدميات من درر على   سرر ولست بعابد الأوثان

مالى وللغزل المهيج فلا أكن   غزلا ولم أر مرتع الغزلان

مالى وللإهواء إلى مهوى الهوى   أفلى غناء فى غناء غوان

ماكان هذا ديدنى لكنه   تشبيب شعر لادد الشبان

إذ ما دد منى ولا أنا من دد   إذ جئت أمدح رحلة لأوانى"

هكذا، انتقل شاعرنا إلى مدح مولانا فضل الرسول البدايونى، وبعد ذلك ايضا ينتقل من لون لآخر فى مدح واحد من علماء الدين لقبه شاعرنا بالرحلة - أى من يرتحل إليه للإفادة منه.

---

(١) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٧٤.

إذا كان شاعرنا أجاد حسن الابتداء ولطافته وبالتالى أحسن الانتقال من غرض لآخر فلم ينس ما يسمى فى علم البديع بحسن الختام أو براعة المقطع، فكان يأتى بكلمات تشعر بنهاية المطاف ومسك الختام، وقد تعلم شاعرنا هذا اللون البديعى من خواتيم السور القرآنية حيث إنها تتربع على قمة الفصاحة والبلاغة، ومن المعلوم أن شاعرنا كان ذا ثقافة دينية هائلة حيث كان علم التفسير على رأس خمسة وخمسين علما وفنا أتقنها شاعرنا، وقد برع شاعرنا فى هذا اللون البديعى بفضل الموهبة الشعرية التى حباه الله تعالى بها، وله فى هذا المجال نماذج رائعة بمختلف الأساليب فى شتى الأغراض نختار منها مقطعا لما نظمه فى رثاء وتاريخ عام رحيل مولانا محمد إسماعيل القادرى حيث جاء فيه(١):

وارض الرضا إن لم يصب وابل فطل ندى منك لى كالديمة المستهلة

إلهى إليك بالحبيب توسلى به فاغفر اللهم ذنبى وزلتى

ومن قراءة هذا المقطع يشعر القارئ بنهاية المطاف، فقد كان شاعرنا يرثى فقيد الصوفية بكل حزن ولوعة، ويسأل الله للمرثى الفضل والرحمة، وفى نهاية المطاف أقدم شاعرنا على الصلاة والسلام على خير الأنام- صلى الله عليه وسلم - وبالتالى تضرع إلى الله - تبارك وتعالى - سائلا إياه المغفرة بكل خشوع وضراعة وإلحاح، متوسلا بالحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - رحمه الله تعالى وإيانا وحشرنا فى زمرة الفائزين المتمتعين بشفاعته - عليه الصلاة السلام -.

ومما تذوقنا فى أدب شاعرنا من المحسنات البديعية هو مراعاة النظير، فقد جاء شاعرنا بثلاثة كلمات متناسبة فى الشطرة الثانية من البيت الثلاثين بعد المائتين، وقد راعى التناظر بين الحور والغلمان والرضوان، ثم بعد ذلك

---

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١٧٧.

أقدم شاعرنا على مراعاة النظير بين كلمتى "دار" و"جار" على أننا لا ننسى ما بينهما من جناس فإنه لما طلب لأبيه وجده دارا طيبا فى الجنة سأل ربه جارا طيبا أيضا، وذلك عند إقدامه على الدعاء لوالده وجده، وصوت شاعرنا أحلى وقعا فى الآذان مما نعرض له، ها هو يقول[1]:

وارحم أبى وأباه رحما دائما	واجعل قبورهما رياض جنان
آنسهما اللهم فى جدثيهما	بالحور والغلمان والرضوان
أبدلهما دارا وجارا خيرا	من هؤلاء الدور والجيران

ومما برع فيه شاعرنا من ألوان البديع ونعده ظاهرة فى أدب شاعرنا هو ما يسميه أهل البديع "بالافتنان" "وهو أن يجمع المتكلم فى كلامه بين فنين من فنون الشعر مثل الغزل والحماسة، والمدح والهجاء، والتهنئة والتعزية"[2] ونجد على سبيل المثال المدح والهجاء فى بيت شعر للشيخ أحمد رضا خان حيث إنه جاء فيه بفنين، يمدح علماء أهل السنة فى الشطرة الأولى، ويهجو مخالفيهم فى الشطرة الثانية فيقول[3]:

"أولاء الحزب حزب الله حقا	وسيد جزب الاعداء المريد"

ومما يعد ظاهرة فى أدب شاعرنا هو إقدامه على استخدام القوافى المقيدة غير المسبوقة بالمد، وهذا اللون من القوافى يعد من الصعوبة بمكان وفى هذا يقول

---

(١) المرجع السابق، ص ٨٧.
(٢) زهر الربيع فى البيان والمعانى والبديع، للشيخ أحمد الحملاوى، ص ١٤٥.
(٣) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١٢٠.

الدكتور عبد الله الطيب[١]: "استعمال القافية المقيدة بعد المد كثير جدا نحو: "غادر" و"ناصح" و"عليم" و"مغربان" ولكن استعمالها من غير أن يسبقها مد غير كثير وفيه عسر شديد فى البحور الطوال إلا فى بحر الرمل والمتقارب لخفتهما" ولكن شاعرنا المتقف بالعربية جعلته ثقافته كأنه من شعراء العربية الذين شدت بها ألسنتهم شدو فطرة وليس اكتسابا، أقول ولكن هذا الشاعر المطبوع استطاع أن يأتى بالقافية المقيدة[٢] بكل سهولة مما يدل على براعته وطول باعه فى النظم بلغته الثالثة، ونضرب لذلك مثلا بما نظمه فى رثاء مولانا محمد إسماعيل القادرى ولننصت إليه حيث يقول[٣]:

أإسماعيل إسماعيل سنه	أحامى حاله من كل فتنه
أإسماعيل إسماعيل صدق	أرادع كل مين عين فطنه
أإسماعيل إسماعيل حق	أتاك الحق نكب كل محنه

هذه المرثية قوامها ثلاثة عشر بيتا، وقد نظم شاعرنا تسعة وثلاثين بيتا من تائيته فى رثاء وتاريخ عام رحيل مولانا محمد إسماعيل القادرى[٤]، كما أن له تسعة أبيات فى تاريخ عام ولادة وتعليم ورحيل مولانا محمد رضا على خان النقشبندى[٥] ورباعية فى تاريخ عام رحيل الشريف مجتبى حسن[٦] وثلاثة أبيات

---

(١) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، للدكتور عبد الله الطيب (ط: دار الفكر بيروت، ١٩٧٠م)، ص ٤٣.
(٢) وهى ما يكون حرف الروى فيه ساكنا، المرجع السابق، ص ٤٣.
(٣) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان، ص ٢٠١، ٢٠٢.
(٤) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان، ص ١٧٥:١٧٧.
(٥) المرجع السابق، ص ١٨٣، ١٨٤.
(٦) المرجع السابق، ص ٢٠٠.

فى هجاء مولانا عبد البارى الفرنجى محلى[١] وثلاثة أبيات فى رثاء السيدة سكينة زوجة مولانا عبد السلام القادرى الجبلفورى[٢] جاء فيها شاعرنا بالقافية المقيدة غير المسبوقة بالمد معربا عن موهبته الشعرية وشغفه باللغة العربية وتمكنه منها.

ومما زين به شاعرنا شعره العربى هو ما يسمى فى علم البديع "برد العجز على الصدر" فقد أتى شاعرنا بلفظ "أزمان" مرتين حيث إن أولهما فى مستهل صدر البيت وآخرهما فى نهاية عجز البيت، وهو اسم لامرأة عربية اشتهرت بجمالها - على حد تعبير الشاعر - بدأ الشاعر بيته باسمها وانتهى باسمها متمسكا بحلاوة الغزل وسلاسة الكلام، ونسمعه يقول[٣]:

"أزمان فاقت بيد أن عشيقتى   بزمانها فاقت على أزمان"

ومما توج به شاعرنا أدبه هو ما يسمى فى علم البديع بالمراجعة "وهى حكاية ما جرى من محاورة بين متخاطبين بقال وقيل وقلت مثلا، بشرط تمام المحاورة، وأحسنها ما كان حسن السياق وسلس المعنى"[٤] وعندما ننظر فى أبيات شاعرنا المتصفة بهذا اللون البديعى نجد أنه استهل القصيدة بذكر جده مولانا محمد رضا على خان النقشبندى قائلا[٥]:

"جدى كان عالما   لم ير مثله النظر"

---

(١) المرجع السابق. ص ٢٠٠.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٠٢.
(٣) المرجع السابق. ص ٧٣.
(٤) زهر الربيع فى المعانى والبيان والبديع، للأستاذ أحمد الحملاوى، ص ١٧٩.
(٥) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١٨٣.

ثم يستمر فى سرد أوصافه بالإيجاز ولا يطيل الحديث، ومن البيت الرابع يبدأ المراجعة والحوار، ومما هو جدير بالذكر أن شاعرنا استطاع أن يجمع بين الاثنين من ألوان البديع فى الأبيات السابع، والثامن، والتاسع فإنه جمع بين المراجعة والتاريخ - بحساب الجمل - فقد سرد تاريخ عام ولادة وتعليم ورحيل مولانا محمد رضا على خان النقشبندى، وفى هذا يقول[1]:

قلت لطائف سرى	طيف جماله السحر
تعلم عام إذ ولد	سيدنا الرضا الأبر
قال رايت أنجما	قلت نذرت قال ذر
قلت فكيف نهتدى	قال أضاءنا القمر ١٢٢٤هـ
قلت ختام درسه	قال أخار الدرر ١٢٤٧هـ
قلت فعام نقله	قال محجل أغر ١٢٨٢هـ

ومن ألوان البديع التى صبغ بها شاعرنا نتاجه الأدبى هو ما يسمى فى علم البديع "بايهام التوكيد" وهو تكرار لفظ لتأسيس المعانى فيوهم التوكيد[2] ونلاحظ أن شاعرنا أتى بكلمة "حول" ثلاث مرات حيث إنه ينفى حوله ويثبت حول الله - سبحانه وتعالى - وقوة ربنا الفائقة، كل هذا دون تكلف فأسلوب غير ممل ونسيج غير مخل، تضاف روعة النسيج إلى جمال الاسلوب فنسمعه يقول[3]:

"بحول الله قولى لا بحولى بحول الله يقترب العريد"

---

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١٨٤.
(٢) زهر الربيع فى المعانى والبيان والبديع، للأستاذ أحمد الحملاوى، ص ١٩٩.
(٣) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١١٩.

ومما جاء به شاعرنا من المحسنات البديعية فى شعره العربى هو التعطف، وهو أن يأتى المتكلم بلفظ فى صدر البيت ثم فى عجز البيت به أو بشئ من مشتقاته[١] ونجد شاعرنا وقد أقدم على استخدام هذا اللون البديعى حيث يقول[٢]:

فلا قلب له حال رشيد   ولا جلب به مال رشيد

من السمات الفنية عند شاعرنا أنه كثيرا ما يقع له لكثرة غرامه بالبلاغة العربية أكثر من لون بديعى فى بيت واحد وربما كان فى موطن واحد من الكلام، وهذه إن دلت فلا تدل إلا على مدى اهتمامه بالبلاغة العربية وحذقه لها، وتمكنه من ناصية اللغة الثالثة بالنسبة له تمكنا شأنه فى ذلك شأن من ارتضع أفاويق العربية ونشأ فى حجرها وإنه كان يأتى بهذه الألوان دونما تكلف وأضرب لكم مثلا من بين النماذج العديدة فقد قام شاعرنا بالجمع بين "حسن الانتقال" وما يسمى فى علم البديع "بعتاب المرء نفسه":

مه يارضا يابن الكرام الأتقيا   ياغرس دوح العلم والإتقان

هكذا كان شاعرنا يأتى بالمحسنات البديعية دون تكلف – فى نظرى – وإذا كان هذا اهتمامه بعلم البديع فإن علم البديع يأتى الاهتمام به بعد أن يستكمل الإنسان صورة العبارة وجمال سبكها ودقة تركيبها عن طريق تطبيق ما جاء فى العلمين السابقين، على علم البديع، وهما علم المعانى وعلم البيان، وأنا أراه أنه قد برع فى علم البديع بعد أن استكمل الشكل الذى يليق بعلم البيان من ناحية الدلالة، وكل ما أتيت به من اهتمامه بالبلاغة يدل دلالة واضحة على

---

(١) زهر الربيع فى المعانى والبيان والبديع، للشيخ أحمد الحملاوى، ص ١٩٨.
(٢) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١١٨.

مدى تشبعه باللغة العربية، ومدى تمكنه منها تمكنا ما كان من المنتظر أن يقع بالنسبة لرجل نشأ وترعرع فى بيئة غير عربية، وهذا يدل على تمكنه من ناصية اللغة العربية، وبراعته فى نسج أسلوبها وسبك عبارتها إلى حد يجعل القارئ مبهورا بما يرى من أمر هذا الفن عنده، وقد كان من المنتظر ألا يبرع فى اللغة العربية هذه البراعة كلها، وذلك لأنه غير عربى، ولم يأخذها كاللغة الأولى بل بالعكس أخذها بعد أن برع فى أكثر من لغة، وبهذا أعتقد أننى إستطعت أن أدرس بعض المحسنات البديعية - على سبيل المثال لا الحصر - فى أدب شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان، وأرجو أن أكون موفقا فى محاولتى المتواضعة، ولا نرى شاعرنا والسمات وضحت فى اتخاذ الألوان البديعية الكثيرة، ومع كثرتها لم تكن بتكلف، ولم تكن قلقلة فى موضعها بل كأن المعاني قد أعدت لهذه الكلمات إعدادا، وكأنها الألوان البديعية أعدت لهذه الكلمات، وكأنها ثوب قد على قد لابسه، وهذا يؤكد الفكرة التى استقرت فى ذهن الباحث وهو أن الرجل تمكن من العربية تمكن أهلها منها وليس كأى واحد من أهلها بل تمكن أهلها الذين منحهم الله تعالى موهبة الشعر والجيد من التصوير، وسوف نستدل على مدى غزارة الجيد من الشعر عنده حين نعرض المبحث القادم الذى لم يكن من تخطيط البحث.

المبحث الثالث

بيت القصيد عند شاعرنا

هذا مبحث جديد لم يكن فى الخطة وإنما جئت به نظرا لحبى للشاعر – موضوع البحث – ومحاولة تعمقى لدراسة شعره وصوته الذى استحسنه فى أذنى وأمام عينى، وبالطبع أعنى بصوته شعره الذى جاءت به قريحته وأرجو ألا يفوتنى من ذكر هذا الكثير، وإذا كان هذا المبحث يسمى ببيت القصيد فأرجو من القارئ أن يغفر لى ذكرى لبعض أبيات مقطوعة من المقطوعات، وهى ليست قصيدة، ولكنى ذكرت هذه الأبيات لأنها من الاستحسان منى بمكان وبالتالى سواء كانت الأبيات التى استحسنتها كائنة بقصيدة من القصائد أو بمقطوعة من المقطوعات، فالأمر واحد، وما ذكرى لها إلا لاستحسانها فى نفسى فما أنا إلا مردد صوت الشاعر ذا الوقع المؤثر فى نفسى.

لقد أقدم الكثير من أصحاب موهبة الشعر على نظم الشعر العربى بين الغابر والحاضر، من العرب والعجم، وكان نفسهم الشعرى يختلف من واحد لآخر، ولكن لا تحظى القصيدة كلها بإعجاب متماثل، ولكن نجد بعض الرونق فى بيت دون آخر، وليس هذا بالنسبة للأشخاص جميعا بل يختلف هذا من مستمع أو قارئ لآخر، فبعض الاستحسان يكون بالبيت رقم كذا بينما لا يجمع الحاضرون أو القارؤون على هذا الاستحسان، وبالتالى يقع التفاوت من بيت إلى بيت، ومن شخص إلى شخص، كثرة وقلة فى عدد الأبيات وعدد المستحسنين لها، وقدر هذا

الاستحسان كذلك، وهذا الاستحسان والإعجاب يختلف من قارئ لآخر، وذلك لأن الشعر يقاس من ناحية استحسانه بمقياس الذوق والإحساس من الناحية الشعورية، ولا أتحدث عن مقاييس نقدية، وإنما أقتصر على معيار الذوق وإعجاب الحس، وإدراك الشعور بالبيت قراءة أو استماعا، ولذلك يختلف الاستحسان باختلاف الاشخاص كما سبق أن بينت، ولكل منا ذوقه وحسه، فإن كلنا يسمع قصيدة واحدة فيستعيد بعضنا البيت الأول كما يستعيد بعضنا البيت الثانى، فكل واحد منا يتذوق بيتا يوافق هواه، ويرى أنه هذا بيت القصيد، وأجود ما قاله الشاعر، وأحلى الأبيات وقعا على سمعه، وألطفها استئناسا من نفسه، وأرى أن هذا الجمال لا ينبع من المحسنات البديعية فقط بل يعود فضله إلى عناصر الأدب الأربعة من العاطفة الصادقة، والفكرة، والخيال، والصورة، وإلا فالألوان البديعية البحتة لا تستلفت الأنظار ولا تشد انتباه القلوب الرقيقة الذواقة إذا كان الباعث عليها التكلف، والشعراء يعتزون ببيت يدعى بيت القصيد، أو بيت عين، أو جيد الشعر، فنجد بشار بن برد - على سبيل المثال لا الحصر - مفتخرا بوجود هذه الظاهرة فى شعره حيث يقول[١]: "لى اثنتا عشرة ألف قصيدة لعنها الله ولعن قائلها إن لم يكن لى فى كل واحدة منها بيت عين".

ولكننا وجدنا أن شاعرنا الموهوب الشيخ أحمد رضا خان كان موفقا غاية التوفيق فى الاتيان ببيت القصيد فى قصيدة واحدة حينا وفى إحدى أغراض القصيدة حينا آخر، وذلك برغم ميلاده ونشأته فى بيئة هندية غير عربية، إلا أنه شغف بالعربية أيما شغف، فارتضع أفاويقها كأحد أبنائها وتمكن منها تمكن أهلها، ومما تجدر الإشارة إليه أن شاعرنا لم يتفرغ للشعر فقط إنما قام بنشر التعاليم الإسلامية،

---

(١) الأغانى، للإمام أبى الفرج راغب الأصفهانى، (ط: مطبعة التقدم بشارع محمد على بمصر)، ج ٣، ص ٢٤.

وإصلاح المجتمع الهندى، ومقاومة الأفكار الزائغة التى تسربت إلى المسلمين فـــى عصر الانحطاط والانهيار، ومن خلال إقدامه على الوعظ والتأليف والإفتـــاء إلـــى جانب عاطفته الشعرية الفياضة، كان لكل ذلك أثره على شعره مما ساعد على تعدد الأغراض وولوجه أكثر من ميدان، وظهر ذلك واضحا فى ديوانه حتى أن قصيدتـه التى تتعدد فنون القول فيها تتعدد بالتالى أبيات القصيد عنده، ولعل القارئ يجد عنده من الاستحسان ما استحسنه الباحث، فما من بيت أشير إليه إلا وهو موافق لحســـى وشعورى به واستحسانى لنسيجه الشعرى، إذ قد يتفق القارئ معى، وهذا من حســن الطالع، وقد يختلف فلا يستحسن، وآمل أن يكون ذلك الاختلاف قليلا.

ولقد كان شاعرنا مدفوعا إلى نظم الشعر فى شتى أغراضه مـــن منطلــق العاطفة القوية، وذلك بفضل حبه الشديد للدين الحنيف والذى جاء به – صلوات الله وسلامه عليه – ولم لا وقد حباه الله الموهبة الشعرية فارتوى مـــن عيـون الأدب العربى – على اختلاف العصور – فتذوق حلاوة الأدب العربى، ونعـــم بلطـــائف نصوصه، وتثقف بجميل تعبيره، وعلى رأس ذلك كله النصان الشريفان، وكــــانت نفس شاعرنا تنفعل بما يحدث حولها فى المجتمع، الأمر الذى كان يدفع شاعرنا إلى التعبير عما فى نفسه من الانفعال حبا أو بغضا، حزنا أو طربا، وكان مع ذلك للدين والأوضاع الثقافية والاجتماعية والسياسية التى عايشها شاعرنا تأثير ذوبـــال فـــى نتاجه الشعرى انسابت فى الأشعار المفعمة بالعاطفة القوية، والمتســـمة بالمعـــانى العقلية والتخيلية، والمتصفة بجمال الأسلوب، فتميزت عن غيرها واكتسبت عنـــوان "بيت القصيد" وإننى سوف أحاول أن أشير إلى الأبيات من هذا النوع بإيجاز أرجـــو أن يكون غير مخل، ولا أطيل الحديث فيها مع أننى أعتبرها كفاكهة القول ومســـك الختام، وأيضا ليكون صوت الشاعر أكثر تعبيرا من صوتى، وآمل أن يحوز حســى عند القارئ درجة يجعله يغتفر لى الكثير من تقصيرى، وسوف أختار هذه الأبيـــات

اعتبارا بأنواعها وأغراضها التى صيغت من أجلها، ويكون ترتيبى فى هذا الصـــدد على غرار ما سلكت فى الباب الثانى بدأ من المديح، فالرثاء، فالهجاء، فالمناجـــاة، فالغزل.

أولا: بيت القصيد عند شاعرنا فى المدح

لقد سبق أن حاولت تقسيم قصائد شاعرنا – موضـــوع البحـــث – حســب الأغراض الشعرية[١] فإن قصائده تضمنت أغراضا مختلفة، وكان فن المديح وقتئذ فى مقدمة الأغراض، وعند إقدامى على انتخاب بيت القصيد رأيت أن أسلك المسلك نفسه. فإن شاعرنا الموهوب يأتى بأكثر من بيت جيد فى قصيدته يمكننا أن نســميه "بيت القصيد" حتى أنه تمكن – بفضل موهبته الشعرية الفياضة – من الإتيان بأكثر من بيت القصيد فى غرض ضمن أغراض القصيدة، لذا وجــدت المديــح النبــوي الشريف على رأس المديح عند شاعرنا، وذلك لأنه – صلى الله عليه وسلم – ســيد الممدوحين جميعهم، فإن شاعرنا لم يمدح أحدا غير الأولياء الصـــالحين والعلمـــاء العاملين بشريعة الإسلام، وذلك بعد المديح النبوى الشريف، ولقد وقع اختيارى على ثلاثة أبيات من نونية شاعرنا وكانت هذه الأبيات مسك الختام لأطول قصيدة تظمها شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان، وكانت بداية القصيدة متسمة ببراعـــة الاســتهلال، وحسن المطلع حيث استهل شاعرنا قصيدته بالغزل الصوفى وانتقل مـــن غـــرض لآخر فأحسن الانتقال متقنا ومجيدا للون البديعى حسن التخلص، وفى نهاية المطاف أبدع شاعرنا وأجاد فى الختام، وكان حسن الختام – أحد المحسنات البديعية – حليفه فى مسعاه حيث إنه جاء بالصلاة والسلام على خير الأنام فى ختام القصيدة، وإنـــه

---

(١) وذلك فى الباب الثانى عند الحديث عن الأغراض الشعرية فى ديوان الشيخ أحمد رضا خان.

استعرض براعته فى نظمه للصلاة والسلام على الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - فإنه جمع بين المعانى الروحية والغزلية، ضمن الصلاة على الرسول - صلى الله عليه وسلم - وكان شاعرنا قد بدأ قصيدته بالغزل وجاء فى نهاية القصيدة بما يشبه الغزل إن لم نسمه غزلا، حيث إنه جعل صدر البيت الأول من نونيته عجز البيت الأخير منها، وإنه فى الشطرات الثلاثة الأولى من الأبيات الثلاث الأخيرة ألمح إلى علو المكانة التى أكرم الله - سبحانه وتعالى - بها نبينا وحبيبنا المصطفى - صلى الله عليه وسلم - حيث إنه - صلوات الله وسلامه عليه - تربع على قمة الأخلاق والمجد، وتفرد بعلوه، وارتفع حيث لا يعلى عليه - بفضل الله سبحانه وتعالى - تلكم المعانى التى تحرك عاطفة الحب النبوى الشريف، كما نجده يشير فى الشطرات الثانية من هذه الأبيات الثلاث الأخيرة إلى تغريد القمرى فى الأفنان، وألحان الورقاء، ورنين الحمام على شجون البان، المعانى التى تثير الرقة واللطافة الغزلية، والجمع بين هذا وذاك ضمن الصلاة على الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - إن دل على شئ فيدل أولا على العاطفة المشبوبة لدى شاعرنا، ثم على براعته فى عرض الفكرة الخيالية بالمعانى التخيلية بأسلوب دفع كل بيت من هذه الأبيات الثلاث إلى أن يقول: "أنا بيت القصيد"، ما أجمل الصلاة على الرسول - صلى الله عليه وسلم - وما أحلى التغزل المصحوب بالأدب والإجلال بمقام الرسول الكريم - عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم - فلنتذوق حلاوة هذه الأبيات الثلاثة بصوت شاعرنا حيث يقول[١]:

"صلى عليك الله يامالك الورى ... ما غرد القمرى فى الأفنان

صلى عليك الله يافرد العلى ... ما أطرب الورقاء بالألحان

صلى عليك الله يامولاى ما ... رن الحمام على شجون البان"

---

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٨٨.

كان هذا أول نموذج – حسب ترتيبى – لبيت القصيد فى فن المدح أما النموذج الثانى فى فن المدح فقد شد انتباهى كل من البيت الخامس والسادس من المقطوعة التى نظمها شاعرنا فى مدح مولانا الشريف أبى الحسين أحمد النورى[١] والتعريف بتأليفه "سراج العوارف فى الوصايا والمعارف" ويمكن أن نسمى هذين البيتين ببيت القصيد أحلى ما فى الموضوع أو قلادة هذه المقطوعة، فقد كان الشاعر يريد أن يقول إن هذا الكتاب أنار لنا الصراط المستقيم ولكن عاطفة حبه للمؤلف جعلته يشبه الكتاب بالسراج المنير الذى ملأ الكون نورا، شأنه فى ذلك شأن الشمس التى برزت فى الليل البهيم، وهكذا أكسب شاعرنا المعانى الخيالية للفكرة العادية منطلقا من العاطفة المتقدة ومتخذا أسلوب التشبيه للتعبير عما بنفسه، فإذا كان شاعرنا شبه الكتاب بالسراج فقد شبه الوضع السائد – آنذاك – فى الهند بالليل، يعنى لم تكن ثمة كتب تفتح للمسلمين أبواب الثقافة بينما كانت أوضاع المسلمين تحتاج إلى من يذود عن عقيدتهم، فكأنه الليل المظلم، والكتاب "سراج العوارف" شمس فى هذا الليل الدامس، هذا هو النموذج الثانى لبيت القصيد عند شاعرنا من فن المدح، نبع من العاطفة المشبوبة وبراعة شاعرنا فى تصوير المعانى العادية بالمعانى السامية بأسلوب رقيق جذاب للقلوب والعقول، ولنتذوق حلاوة هذين البيتين بصوت الشاعر كأفضل ما يكون التذوق[٢]:

أرانا سراج بالليل شمسا وشمس بليل عجيب وطارف

فهل مثله فى تليد وطارف؟ وأين فأين تراه الطوارف؟

---

(١) هذه المقطوعة تتكون من ستة أبيات.

(٢) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١٩٥.

أما ثالث النماذج فى هذا الشأن فهو البيت الرابع من مقطوعة فى ثلاثة أبيات والذى يطلع على هذا البيت ولا يعرف عن المناسبة التى أنشد هذا البيت من أجلها فأول ما يبادر إلى ذهنه – نظرا لرقة الأسلوب وظرف الحديث – أنه فى الغزل، ولكن الشاعر لم يرم إلى ذلك فى نظرى، إنما أشار إلى المجالس العلمية التى جمعت بين شاعرنا والممدوح – فى مكة المكرمة – وحصل خلالها الأنس فى قلب شاعرنا، والشوق فى نفسه تجاه الممدوح، ونلاحظ أن العاطفة المتقدة حولت الفكرة إلى خيال رائع بأسلوب رقيق خلاب مما رفع البيت إلى درجة بيت القصيد، ومن هنا تتجلى موهبة شاعرنا الشعرية فى رفع الحقائق إلى المعانى العالية، كما يبدو تمكنه من التغزل أيضا برغم كونه من علماء الدين، ولنتذوق الشعر بصوت شاعرنا ما سبق أن أشرت إليه كأفضل ما يكون التذوق حيث يقول[١]:

"فياليتها طالت ولكن مضى قضا   بأن مدى وصل الحبيب قصير"

أما رابع هذه النماذج فبيتان من مقطوعة فى ثلاثة أبيات فى مدح مولانا صالح كمال المكى، ولقد كان شاعرنا نظم هذه الأبيات الثلاث حين انقطع مولانا صالح كمال المكي عن زيارته ليومين بمكة المكرمة وبعث بهما إليه، ونلاحظ من خلال البيتين مدى الوقع وقت انقطاع الممدوح عن زيارة شاعرنا لمدة يومين فقط، مما أدى إلى يقظة العاطفة الشعرية عنده، وكان شاعرنا ينتظر استمرار الزيارة من ممدوحه ولكنه عبر عن هذه الفكرة بخيال رائع وأسلوب لطيف، فيسأل ممدوحه الزيارة التى حرم منها، ويرى أن فيها الشفاء وبالتالى يستعطف ممدوحه بأسلوب الاستفهام قائلا: "ألا تحبون أن تبرو لنا سقما" ما أحلى هذا الحب المتبادل بين عالمين جليلين، وما أعذب التعبير حين شبه شاعرنا ممدوحه وزيارته بطلوع

---

(١) المرجع السابق، ص ١٩٣.

الشمس كل ضحى، واستدر شاعرنا عاطفة ممدوحه مرة أخرى حين أظهر أن قيام الممدوح بزيارة شاعرنا كرم منه والمنتظر من الكريم ألا يقطع كرمه، ونلمس في هذين البيتين العاطفة الجياشة في النفس الملتاعة لشاعرنا بسبب حرمانها من زيارة هذا العالم الجليل، كما نلمس جمال الفكرة التخيلية وظرف الأسلوب، الأمر الذي يجعلنا أن ننعت البيتين ببيت القصيد وإن لم يردا في القصيدة بل وقعا في مقطوعة صغيرة، ولكننا نشعر كأن هذه المقطوعة الصغيرة في الحجم كبيرة معنى ومفهوما، أما وقد حاولت أن أبرز فكرة الشاعر وبعض جماليات البيتين فلنختتم ذلك بصوت الشاعر حيث يقول(١):

"قالوا لقاء الخليل للعليل شفاء	ألا تحبون أن تبرو لنا سقما
عود تمونا طلوع الشمس كل ضحى	وهل سمعتم كريما يقطع الكرما"

أما النموذج الخامس من بيت القصيد في فن المدح فما ورد في مدح الشيخ عبد القادر الجيلاني ضمن نونية شاعرنا والتي تحدثنا فيما سبق عن أبياتها الثلاثة الأخيرة، ومن المعلوم أن شاعرنا كان قد انخرط في سلك الطريقة القادرية ومن هذا المنطلق كان الشيخ عبد القادر الجيلاني - مؤسس الطريقة القادرية - أحب الأولياء إلى نفس شاعرنا وإن كانت ثمة أسباب أخرى لشغفه بالشيخ عبد القادر الجيلاني. فكان شاعرنا يتوجه بالمدح إلى ممدوحه هذا من حين لآخر بالعربية والفارسية والأردية معربا عن شوقه وحنينه إليه وكان شاعرنا موفقا في مدحه لهذا الممدوح غاية التوفيق، فقد نظم تسعة وعشرين بيتا في مدحه ضمن النونية التي نظمها شاعرنا في مدح مولانا فضل الرسول البدايوني، وأحسب البيتين من هذه التسعة والعشرين أنهما بيت القصيد، نرى فيهما حرارة الحب المتمكن من قلب

---

(١) بساتين الغفران. للشيخ أحمد رضا خان، ص ١٥٩.

شاعرنا، كما نرى شدة انفعاله من الفراق، الأمر الذى صبغ المديح بحلاوة الغــزل فاستخدم شاعرنا كلمة "ياروح المنى" و"راحتى" و"سلوة الأحزان" فى مــدح الشــيخ عبد القادر الجيلانى خلال نجواه مع الممدوح، وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على براعة شاعرنا فى توظيف الكلمات وتمكنه من رفع المعانى العقلية إلــى الصــور الخيالية بأسلوب بارع، فإن من يقرأ هذين البيتين ولا يعرف ســياقهما يســتعذبهما كشعر الغزل، ولكنه مدح رقيق للشيخ عبد القادر الجيلانى، نستطيع أن نصف هذين البيتين ببيت القصيد وذلك لما فى البيتين من روعة الفكرة ولطافة الخيال وظــرف التعبير إلى جانب صدق العاطفة ولنسمع إلى الشاعر حيث يقول(١):

"نال الفراق مــن الفــؤاد مرامــه	هيهات للإسلاء والإســكان
كيف الوصول إليك ياروح المنــى	يا راحتى يا سلوة الأحــزان"

ولننظر إلى نموذج آخر من بيت القصيد عند شاعرنا فى المدح – حســب ترتيبى ورؤيتى – هو البيت الحادى والستون من النونية التى نظمها شاعرنا فــى مدح مولانا فضل الرسول البدايونى، وكان قد بدأ مدحه من البيت الأربعين واستمر حتى الرابع والسبعين، ثم أقدم على مدحه مرة أخرى بدأ من البيت الثامن والسبعين إلى البيت الحادى والثمانين، وبهذا يبلغ عدد الأبيات فى مدح مولانا فضل الرســول البدايونى فى النونية ثمانية وثلاثين بيتا، وأعتقد أن البيت الحادى والستين يمكننــا أن نطلق عليه بيت القصيد حيث يجمع شاعرنا بين عاطفة الحب وعاطفة السخط، فإذا كان شاعرنا يمدح مولانا فضل الرسول البدايونى فإنه يبدى سخطه على الحــاقدين عليه، وهناك تشبيه لطيف وعرض صورة جميلة، يريد شاعرنا أن يقول مــن وراء هذا العرض أن مولانا فضل الرسول البدايونى حين يدافع عن الإسلام ويبين مباده

---

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٨٤.

ويتحدث عن غاياته عندئذ يعمى كل الحاقدين، والمراد بعميهم أنه يعميهم عن طريق الطعن فى الإسلام فلا يتمكنون من الطعن أبدا - بفضل وضوح ما يقوله الممدوح فى الإسلام، وحين استخدم شاعرنا كلمة نزع النور لتدل على عمى البصيرة وقد عبرت الآية ؛ **فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور** ؛[١] وشاعرنا فى الوقت نفسه يأخذ اللازم ويفيد منه المعنى الحقيقى، وهذا اللازم يتمثل فى أن الأعمى أعمى البصر يضل عن الطريق لأنه لا يراها شأنه فى ذلك شأن من سمع مقالة مولانا فضل الرسول البدايونى ولم يفد منها وبالتالى لم يتمكن من الطعن فى الإسلام كأنه أعمى ضل عن السير فى الطريق.

ثانيا: بيت القصيد عند شاعرنا فى الرثاء

مع أن المديح يبعث على الاستجادة من مختلف الدوافع، وإشباع الغاية المكنونة فى نفس شاعرنا تجاه ممدوحيه إلا أن الرثاء أيضا لم يكن شاعرنا بأقل مما كان فى المديح إن لم يكن قد فاق، ونجد عاطفة الشاعر فياضة فى الرثاء حيث إنه كان يتبادل الحب مع معاصريه، وكان بقدر حبه الشديد يتفجع بوفاة أحبابه، وتنفعل نفسه انفعالا شديدا مما قد يدفعه إلى فكرة فناء الدنيا بكل ما فيها تبعا لما يحسه من ألم الفراق، والأبيات التى انتخبها الباحث يأتى بها حسب ترتيب أسماء المرثيين.

لقد نظم شاعرنا مرثيتين ومقطوعة مكونة من بيتين إثر وفاة مولانا محمد إسماعيل القادرى فأصيب شاعرنا بلوعة لاتدانيها لوعة وحزن عظيم لا يماثله

---

(١) سورة الحج ٢٢/٤٦.

حزن، فجرت عواطفه على لسانه، لم لا وشاعرنا مرهف الحس ومتوقد المشاعر، فنراه فى تائيته – التى نحن بصددها – يبكى على مولانا محمد عبيد الله مرة وعلى مولانا محمد إسماعيل مرة أخرى فيقول: مات أناس نحبهم ولا تحظى العين برؤيتهم حتى تنال شيئا من التسلية، إنما بقينا فى انتظار الموت، فكأن الشاعر يرى نفسه هيكل عظم يمشى على الأرض فاقدا لذة العيش بعد صديقيه، وأرى أن هذين البيتين من أجود شعره فى رثاء مولانا محمد إسماعيل من حيث تدفق العاطفة الحزينة، والفكرة، والخيال، وروعة الأسلوب، ولنستمع إلى صوت شاعرنا **المتفجع** بوفاة صديقه حيث يقول[١]:

"قضى نحبه قوم نحب وننتظر ترجى وتخشى من شرور أضلت

مضوا وبقينا خلف لم يك بيننا تراء ولا عين برؤيا تسلت"

ولما أصيب شاعرنا ببالغ الحزن والأسى وذلك بفقد حبيبه الآخر مولانا محمد عبد الغنى بلغ قلبه الملتاع قمة البكاء، وكانت أبيات شاعرنا تنفيسا نفس بها الشاعر عن مكنون خاطره، ومضت حرقة الفراق تعتصره اعتصارا، فأخلص شاعرنا قوله حين قال: إن الموت مصير كل حى، ولكن الناس فى غفلة عن مصيرهم المحتوم، وذلك للتأخير فى آجالهم، مع أنهم يتلون آية الابتلاء حيث يقول الله – سبحانه وتعالى –[٢]: ﴿ **ولنبلونكم بشئ من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين** ﴾ ونجد فى الأبيات الأربعة التى نحن

---

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١٧٥-١٧٦.
(٢) سورة البقرة ٢/١٥٥.

بصددها أن شدة الحزن حركت العاطفة، فنشأت الفكرة التى عبر عنها شاعرنا بالأسلوب الجذاب، فلنستمع إليه حيث يقول(١):

"الموت حق ياله من جاء	متيقن والناس فى إنساء
أنساهم الإنساء فى آجالهم	مع مايرون من آية بولاء
النقص فى أموالهم وثمارهم	والأخذ بالبأساء والضراء
عجبا لخافية غدت مخفية	وبدت من الخضراء والغبراء"

وأرى أن هذه الأبيات الأربعة تشكل وحدة متكاملة، وكل بيت من هذه الأبيات الأربعة يمكن أن يكون بيت القصيد، وهذا بالنسبة لنظر الباحث وتذوقه.

تكررت الفجيعة لدى شاعرنا حين أصيب بفقد مولانا محمد عبيد الله، ولم يكن حب شاعرنا لمرثيه إلا لوجه الله - عز اسمه - ومن المعلوم أن الحب لله - سبحانه وتعالى - أقوى أنواع الحب وأسماها، وبالطبع كان لفقد المرثى أثرا عظيما فى قلب شاعرنا فصدرت أروع الأبيات فى رثاء الفقيد المشار إليه آنفا، وكانت هذه الأبيات نابعة من القلب المحزون المكلوم، والنفس الملتاعة المصابة بالحزن والأسى الشديدين، حيث إن شاعرنا نفس عما يكنه صدره، فجاء بأخلص الرثاء وأوجع ما عبر به عن البكاء، على أن هذه الأبيات بلغت منا مبلغ السحر لذلك استهوتنا حين تحدثنا عن هذه القصيدة فى الباب الثانى، ولقد تمنى شاعرنا: "لو كان الموت استبدل جمعا بدل المرثى" ومن جمال الأسلوب أن شاعرنا أتى بكلمة "ليت" التى تدل على الاستحالة وبالتالى يلقن شاعرنا نفسه بالصبر قائلا: إذا كان رد الموت بالفدية ممكنا لراح الجن والإنس والملائكة فدية للحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - ولما

---

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١٤١.

ذاق طعم الموت، ولكن الموت أمر محتوم لا مرد له، فالصبر مفزعنا والله مرجعنا، وأعرب شاعرنا عن هذه المشاعر قائلا[١]:

"ليت المنية إذ جاءت لركن الهدى	استبدلت منه جمعا فيه منيتها
قد كان هينا علينا أن نفادى عا	لما بسبعين أو ما فيه أوبتها
لكنها أمر حتم لا مرد له	ولا تعقب إذ هانت قضيتها
الإنس والجن والأملاك كلهم	كانوا فدى المصطفى لو صاغ فديتها
فالصبر مفزعنا والله مرجعنا	ونعم عدلا العلى نعمت علاوتها"

أرى أن البيت التاسع فالثانى عشر ثم الثالث عشر من أحلى وأروع ما نظمه شاعرنا فى الرثاء وكل واحد منها يقول: أنا بيت القصيد، وبهذا أعتقد أننى وفيت بعض الحق لدراسة بيت القصيد عند شاعرنا فى فن الرثاء، على أن استيعابى لهذه الأبيات لم يقتصر على ما كتبته الآن بل عرضت لذلك فى حديثى عن الرثاء فيما سبق، وأعتقد أن حديثى السابق أكثر وفاءً بحقها علينا.

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان، ص ١٦٥.

ثالثا: بيت القصيد عند شاعرنا فى فن الهجاء

إذا كان شاعرنا مدح النبى – صلى الله عليه وسلم – وأولياء أمته، وعلماء ملته، وقام برثاء الأولياء والعلماء وكل ذلك خالص لوجه الله الكريم، فقد أقدم على هجاء المبتدعين أصحاب الأفكار الزائغة، المنحرفين من الشريعة التى جاء بها الحبيب المصطفى – صلى اله عليه وسلم – وكان ذلك بهدف إصلاح المجتمع بمقاومة الأفكار الزائغة والبدع، ومحاولة رد المصابين فى العقيدة إلى المنهل الصافى العذب، وشاعرنا لم يتخذ من كثرة المحسنات البديعية سبيلا إلى ذلك إنما نبه على البدع والمنكرات وحذر من مغبة الانحراف العقدى، وركز على الإصلاح الدينى مقتبسا من النصين الشريفين بأسلوب سهل وسلس، وإن كانت عاطفة السخط قوية لديه، وكانت نفسه تنفعل مما يحدث من مخالفة الشريعة الإسلامية، فتتصدى للدفاع عن الشريعة الغراء.

ومن أجود ما نظمه شاعرنا فى الهجاء أبياته الأول، والثانى، والرابع والسابع من دالينه التى نظمها فى هجاء الفرق المخالفة لاجماع أهل السنة والجماعة، فقد بدأ شاعرنا هجاءهم بذم الدنيا، لأن الدنيا تدعو بمفاتنها وزخارفها إلى هاوية الانحراف الخلقى والعقدى، وبهذا يمهد شاعرنا لداليته، وقوام هذا التمهيد سبعة عشر بيتا، والأبيات الأربعة التى استلفتت نظرى نبعت من عاطفة السخط على هؤلاء المهجوين وتبين شقاوة الدنيا وخسارة المشغوف بها، فقد عبر شاعرنا عن فكرة المغرم بالدنيا بالفكرة المبنية على الأسلوب المنفر عن الدنيا، فيرى أن الملهوف إلى الدنيا كأنه المسكين الجهول الذى يعدو بنفسه إلى حتفه، ويغضب على

من يسعى لتحويله من هذا المصير المأساوى، والنفوس الجاهلة لاتزال تائقة إلى الدنيا برغم هذا المصير المهلك، وهاكم الأبيات الأربعة ، وإن كنت غيرت ترتيبها بعض التغير، وأرى أن البيت السادس والثانى بيت القصيد، فلنستمع إلى صوت شاعرنا الساخط على مكر الدنيا وخداعها حيث يقول(١):

"هى الدنيا تبيد ولا تفيد ... فأف لمن يريد ومن يرود

ولم أر مثل طالبها غبيا ... ولا كبشا لمذبحه أقود

وذا المسكين يعدو نحو موته ... بأرجله ويحقد من يحيد

نفوس الجهل تائقة إليها ... فملتمس وآخر مستزيد"

ومن جيد قوله فى ذم الدنيا البيت الثالث عشر حيث يقول شاعرنا: إن الدنيا تدعو أصحاب النفوس الضعيفة - بلسان حالها - إلى الهلاك، فأولئك البلهاء يلبون دعوتها ولا يتعقلون، فالدنيا لا تدعو إلى الهلاك بصراحة وإنما تبرز مفاتنها، والذى تحلو له هذه المفاتن ويقدم نفسه قربانا لها ولخداعها و يقع فريسة لها ولا ينجو من الهلاك المحتوم، فكأنه يستملح الهلاك دون شعور، ومن خلال هذا البيت نرى العاطفة المتقدة لدى شاعرنا ومدى وقع الحزن فى قلبه على مصير أناس من أمة سيدنا ومولانا محمد - صلى الله عليه وسلم - كما نلحظ براعة شاعرنا فى التعبير عن فكرة واقعية بالفكرة الخيالية، وإجادته فى أسلوبه، فلنستمع إليه حيث يقول(٢):

"دعت جهرا هلموا للهلاك ... فلبى الهالكون ولم يحيدوا"

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١١٧.
(٢) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ١١٧.

وأرى أن هذا البيت من أحلى وأعذب أبيات شاعرنا فى ذم الدنيا وانقياد المخدوعين لها. والذى يمكننا أن نعده بيت قصيد.

كانت هذه الأبيات من أجود ما نظمه شاعرنا فى ذم الدنيا وما يمكن أن يطلق عليها الباحث بيت القصيد فى إحدى أغراض القصيدة – وكانت الأبيات هذه تمهيدا للانتقال إلى صلب الموضوع حيث يتوجه شاعرنا إلى توبيخ المهجوين وإسداء النصح لهم فيقول: إذا كانت الهداية جمع الحطام ففاقكم الطبيعيون الدهريون حيث إنهم نالوا من الحكام الإنجليز الغاصبين المغتصبين مطالبهم، وحققوا مصالحهم على حساب الدين، ولكنكم لم تتمكنوا من تحقيق أهدافكم المادية برغم خسارتكم الدينية". وانظر أيها القارئ الكريم قوة العاطفة لدى شاعرنا ولاحظ الفكرة وبعد الخيال. وأسلوب التوبيخ حيث يقول شاعرنا(١):

وإن يكن الهدى جمع الحطام	ففاقكم النياشرة العنود
أما صارت لهم صيد صيودا	وخاوى البطن كلبكم رصيد
أما صدرت لهم أتن رواء	ورهن صدى حمارتكم رصود

وأعتقد أن البيتين الأخيرين يستحقان بأن نعدهما بيت القصيد ومن أحلى الأبيات التى نظمها شاعرنا فى الهجاء منطلقا من الاخلاص فى إصلاح المجتمع ومقاومة المصابين بالدنيا فى عقيدتهم وأفكارهم، وبعد هذا يتوجه شاعرنا إلى مهجويه بعاطفته الساخطة فيهز كيانهم ويرجهم رجا حيث يقول: "أيها الناس – ويقصد المهجوين – هل على عقولكم أستار حيث إنكم انحرفتم عن دينكم لأجل الدنيا فضاع حبل الدين من أيديكم، ولم تنالوا شيئا من الدنيا، وهكذا حال الدنيا بأنها تموت شوقا لمن يطردها، وتقضى على من يقصدها، إقدامكم هذا على الدنيا ليس

(١) المرجع السابق. ص ١١٨.

إلا خسارة محضة"، وفى هذه الأبيات الثلاثة تتجلى لنا العاطفة الساخطة عند شاعرنا حيث إنه يعبر عن فكرة خداع الدنيا لمن يقدم عليها بأنها تموت شوقا لمن يطردها وتعرض عمن يطلبها، وعندما نتأمل الأبيات الثلاثة من منظور صدر البيت الأول بأن الدنيا تبيد ولا تفيد تتضح أمام أعيننا حقيقة مرة والتى قد تنساها النفوس الضعيفة فتتلهف إلى مفاتنها وتلهث وراء زخارفها فتسقط فى هاوية الانحراف الخلقى والعقدى الذى يحذر منه شاعرنا فى داليته التى نظمها فى هجاء الفرق المخالفة لإجماع أهل السنة والجماعة، فلنستمع إلى صوت شاعرنا المصلح الدينى حيث يقول[١]:

"تركتم دينكم لحصول دنيا	فراح ولم تجء فبدا البيود
وذا شأن البغى تموت شوقا	لطاردها وتطرد من يريد
ألا فعلى عقولكم العفاء	لعمر الله ذا الخسر الجريد"

وأرى أن البيت الثانى يمكننا أن نسميه بيت القصيد وذلك نظرا لجمال التعبير وقوة العاطفة الساخطة النابعة من حب الدين الحنيف، هذا ما رأيته باحساسى وشعورى بأنه عذب الأسلوب وبعيد الخيال وحلو التركيب مما نظمه شاعرنا فى فن الهجاء، ولا أدعى أننى تناولت مواطن الجمال كلها فيما نظمه شاعرنا فى فن الهجاء. إنما هى محاولة وأرجو أن أكون موفقا ولو بعض التوفيق.

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان . ص ١١٨.

رابعا: فى الغزل والمناجاة

إن الهمسة تجمع بين الغزل والمناجاة فشاعرنا الصوفى يدلى بهمساته فى كلا اللونين فيتحدث إلى قلبه مرة وإلى مولاه - جل سبحانه - مرة أخرى، وإنه عند نجواه إلى نفسه بأسلوب الغزل لا يخرج عن حدود العفة والنزاهة، مع أنه يستخدم لغة شعراء اللهو والمجون، وذلك لأنه يعرب عن أحواله الروحية على غرار شعراء الصوفية من العرب وغيرهم، ولم يكثر شاعرنا من قول الغزل إنما جاء به فى مستهل نونيته التى نظمها فى مدح مولانا فضل الرسول البدايونى، وقوام غزله هذا تسعة وثلاثون بيتا لاحظنا من خلالها العاطفة الفياضة، كما وجدنا كلا من الفكرة والخيال وجمال الأسلوب متمكنا من هذه الأبيات، وإننى أصبت بالدهشة حين أقدمت على اختيار أجود بيت من غزله، وذلك لأن كل بيت شد انتباهى واستلفت نظرى، بلغت كلها بشاعرنا القمة فى الغزل، ولكن وقع اختيارى على تسعة أبيات بعد أن تنسمت عبير هذه الزهور مرارا وتكرارا، حيث إن بعض أساليبه فى الغزل حاول أن يصعد بأشعاره إلى أحلى وأعذب أسلوب من أساليب الشعر، ولا أدرى أيهما أرفع، وإن سألتنى أيها القارئ الكريم عن رأيى فأقول لك: إن الأبيات التسعة على القمة، وإن شئت فقل تسعة ملوك تربعوا على عرش هذه القصيدة وكل بيت منها يعتبر مالكا للقصيدة، ولنترك للقارئ الكريم أن يحدد بيت القصيد من هذه الأبيات التسعة التى يعرب فيها شاعرنا عن لواعج قلبه، وعواطفه

الفياضة، وأحواله الروحية، قد يروقه غير هذه الأبيات التسعة، فلنستمع إليه حيث يقول[1]:

"رن الحمام على شجون البان	ياما أميلح ذكر بيض البان
تبكى دما وتقول فى أسجاعها	الله يضحك سن من أبكانى
بكت الغزير فهيجت منى البكا	إن الحزين لسائل الأجفان
ولقد درى من ذاق ذوق صبابة	إن اللحون مثيرة الأكنان
بانت ومالانت فبانت لوعتى	ياخيبتى فى الصبر والكتمان
راحت أزمة راحتى من راحتى	وكذاك كل مودع الأخدان
واها إذا أدنت ودانت للقا	آها إذا أذنت لهجر آن
ولت وما والت فوالت عبرتى	لم لا أهيم إذا الحبيب جفانى
فومحنتى أحد الثلاثة كائن	أمضى كذا أومت أو تلقانى"

كانت هذه نجوى شاعرنا مع نفسه، أما مناجاته مع ربه فنجدها كذلك مفعمة بالعاطفة القوية، كما نجد نفس شاعرنا مفتعلة غاية التفاعل مع التواضع والخشوع، ولا أدرى هل الانسجام الذى وقع فى هذه الأبيات منبعه نفس الشاعر أم تراكيبه، إنه النسيج الشعرى، وهو نتيجة لتفاعل عناصر الأدب الأربعة عند شاعرنا، وقد اخترت ثلاثة نماذج من أجمل ما نظمه شاعرنا فى المناجاة، وأول هذه النماذج - حسب ترتيبى - بيتان اختتم بهما القصيدة التى رثى بها مولانا محمد عبيد الله، فقد كان شاعرنا أقدم على الدعوات للمرثى من البيت الواحد والثلاثين حتى البيت السابع والثلاثين، وهنا تذكر الشاعر نفسه فأخذ يناجى ربه فى خشوع وخضوع

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٧٢، ٧٣. وردت هذه الأبيات حسب الأرقام الآتية فى القصيدة ١، ٢، ٣، ٤، ٧، ٨، ١٦، ٢٢، ٢٣.

سائلا إياه الرحمة والغفران، ولننظر حسن الطلب فى نجوى شاعرنا مع ربه، فلنستمع إليه حيث يقول(١):

وأرض الرضا إن لم يصب وابل فطل	ندى منك لى كالديمة المستهلة
إلهى إليك بالحبيب توسلى	به فاغفر اللهم ذنبى وزلتى"

وكذلك من أجود ما نظمه شاعرنا فى المناجاة بيتان من داليته التى مدح بها مولانا فضل الرسول البدايونى حيث يتضرع شاعرنا إلى ربه سائلا إياه القوة، ويعرب عن فقره إلى الله سبحانه وتعالى، كأنه يقول ليس لى حيلة إلا أن أدعو الله - عز اسمه - ومع ذلك يعترف أن الله - سبحانه وتعالى - كنز الفقير الفاقد، والفقر المراد هنا هو فقر الحيلة وليس فقر المال، فإن فقر المال محل مقدور عليه يعنى محل الاستطاعة فى التغلب عليه بأى وسيلة، حتى ولو بالصبر، وشاعرنا فى هذه المناجاة يتضرع إلى ربه يسأله القوة، وإنى أرى أنه لم يكن يطلب القوة لنفسه فقط. إنما كان يقصد الأمة الإسلامية المنكوبة التى أصيبت بالطعن على يد الكفرة فى تركيا والهند بشكل خاص. ولنستمع إلى صوته حيث يقول(٢):

"يارب ياربــاه يــا	كنز الفقير الفــاقد
انت القوى فقونــى	أنت القدير فــأيد"

وأرى أن هذين البيتين من بيت القصيد ليس فى القصيدة كلها، إنما فى واحد من أغراض القصيدة ألا وهو الحمد لله - سبحانه وتعالى - حيث استهل به شاعرنا قصيدته الدالية.

(١) بساتين الغفران. للشيخ احمد رضا خان . ص ١٧٧.
(٢) المرجع السابق. ص ٥٩.

وثالث النماذج من مناجاة شاعرنا - حسب ترتيبي - هو ما نظمه ضمن نونيته الطويلة التي تضمنت عدة أغراض ومن ضمنها المناجاة، وانتقيت ثلاثة أبيات مما نظمه شاعرنا في المناجاة يسأل فيها ربه رؤية الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - يوم القيامة، وليس مراد شاعرنا هنا مجرد الرؤية بالعين الباصرة، إنما المراد من الرؤية هناك والراحة التي تترتب عليها لازم الرؤية وهو الانضواء تحت لواء شفاعته - عليه الصلاة والسلام - والوقوف في صفه تحققا لمعيتنا، تلكم المعية التي بفضله - سبحانه وتعالى - والمفهوم من الآية الكريمة:

يوم لا يخزى الله النبي والذين آمنوا معه [١] وأعتقد أن هذا ما كان ينتظره شاعرنا وكلنا في هذا اليوم حتى يشملنا من جراء هذه المعية عدم الخزي يوم القيامة، ونرى في الأبيات الثلاث التي نحن بصددها أنها تؤلف وحدة جمالية مكتملة، ونرى فيها شاعرنا متوجها إلى الله - سبحانه وتعالى - خاشعا وخاضعا له، سائلا إياه الرحمة والمغفرة ومعية الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - يوم القيامة، وهنا نلحظ الإخلاص والتفاني وحسن الطلب وقمة في التسليم والدعاء، ولنستمع إلى شاعرنا حيث يقول[٢]:

والله لم أر منك غير ترحم	وتراني اللهم حيث تراني
هذا فعلت ومثل ذلك تفعل	إذ أنت أهل الفضل والإحسان
وإذا تجلى نور حسن المصطفى	يوم الجزاء فأرح به أعياني

أرى أن كلا من هذه الأبيات الثلاثة بيت القصيد بمعنى الروح والكلمة، وذلك لشدة افتعال عاطفة الشاعر وروعة أسلوبه لإبراز الفكرة والتعبير عن الخيال،

---

(١) سورة التحريم ٦٦/٨.
(٢) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان، ص ٨٥.

ولنقف أيها القارئ الكريم عند آخر كلمة من هذه الأبيات، إنـــها قولـــه: "الأعيـــان" أليست جمعا للفظ العين؟ ولم أتى شاعرنا بالجمع وللإنسان عينان إثنتان؟ وأعتقد أنه جمع ليبين أن الإنسان يوم القيامة يرى الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - بجميع مشاعره حيث تتحول أحاسيسه ومشاعره وكل شئ في جسده إلى عين ترى، ومن هذا المنطلق جمع شاعرنا كلمة العين ولم يثنها كما كان المنتظر، وبهذا أعتقـد أننى حاولت أن أزيح الستار عن بعض مواطن الجمال المتمثلة فى مصطلح "بيـــت القصيد" وأرجو أن تحظى محاولتى المتواضعة ببعض إعجاب القارئ الكريم، فمـــا كانت النصوص الأدبية فى نظري إلا أزهارا لطيفة الذوق رائعة التركيب يحســـن ممن يعرض لها أن يتنسم عبيرها ولا يضغط عليها أكثر من ذلك لأن شأن الأزهار تمس ولا تفرك، والله أسأل الصواب والسداد وهو ولى التوفيق.

الفصل الثانى

شاعرنا بين شعراء العربية فى الهند

وفى هذا الفصل تمهيد ومجموعة التراجم للشعراء مصحوبة ببعض النماذج من شعرهم وأسمائهم كالتالى:

(١) الشيخ أحمد بن عبد القادر الكوكنى.

(٢) مولانا أصغر على الروحى.

(٣) الشريف إعجاز أحمد السهسوانى.

(٤) الشيخ حامد حسين الفيض آبادى.

(٥) الشريف حيدر على الرضوى.

(٦) الشيخ رفيع الدين الدهلوى.

(٧) سراج الهند الشيخ عبد العزيز الدهلوى.

(٨) الشيخ عبد الله الجيتكر الكوكنى.

(٩) مولانا عبد المنعم الشيتاغونغى.

(١٠) القاضى طلاء محمد البيشاورى.

(١١) مولانا فضل حق الخير آبادى.

(١٢) مولانا فيض أحمد البدايونى.

(١٣) مولانا فيض الحسن الجهلمى.

(١٤) مولانا فيض الحسن السهارنفورى.

(١٥) مولانا محمد سليم الجونفورى.

(١٦) مولانا محمد حسن الفيضى الجهلمى.

(١٧) الشريف ناصر حسين الكنوى.

تمهيد

لم يكن شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان نبتة نادرة فى مجال الشعر العربى فى شبه القارة الهندية بل سبقه شعراء للعربية كما قد عاصره عدد منهم لا بأس به، وذلك لأن الهنود عرفوا العرب والعربية منذ قديم الزمان - كما سبق أن ذكرنا - ولكن هذه المعرفة لم تكن على المسرح الثقافى والعربى، إنما كانت على الصعيد التجارى فقط، ولم تتمكن اللغة العربية بجمالها الخلاب من قلوب شعراء الهند وذلك من قبل حملة محمد بن القاسم على السند، فلم يقدم شعراء الهند على النظم باللغة العربية، ومن المعلوم أن الهند كانت مهد العديد من الحضارات منذ أمد بعيد ولكن أرضها لم تتفتح للعربية وآدابها إلا بعد إقبال القائد الإسلامى محمد بن القاسم الثقفى على ساحل السند، وفى هذا يقول الدكتور محمد إسحاق القريشى[1]: يبدو من تقاليد شبه القارة الهندية أن سكانها شغفوا بالشعر منذ قديم العصور وذلك بحكم طبائعهم الذواقة، ومن المعلوم أن العرب أيضا ورثوا حب الشعر عن أسلافهم، وأن الشعر العربى سجل أحداثا تمت إلى حياتهم بصلة، لذلك تلتقى الطبيعة العربية والهندية فى أمر وهو حب الشعبين للشعر وانسجامهما مع نسجه وصياغته، وإن محمد بن القاسم الثقفى - أول حكام العرب على السند - كان شاعرا عزبيا موهوبا، فترعرع الشعر العربى فى عصر الحكم الإسلامى العربى ونما تنمية ملموسة إلى جانب انتشار اللغة العربية، وواكب الشعر العربى اللغة العربية فى غزوهما لإحساس وقلوب الهنود لذلك أقبل أهل الهند على تذوق الشعر العربى والتحدث باللغة العربية

---

(١) بحث مستخرج من "أوج" (حولية الكلية الحكومية بشاهدرة لاهور) تحت عنوان شعر المديح النبوى الشريف فى شبه القارة الهندية، للدكتور محمد إسحاق القريشى، ج ٢، ص ٢٤٩، ٢٥٠.

وإتقانها، مما غرس فى نفوسهم حب الشعر العربى، ذلك الحب الذى ساقهم فيما بعد إلى أن يقولوا شعرا باللغة العربية كقول أهل العربية أنفسهم وقد نجحوا فى صياغة الشعر العربى وإن كان شعرهم العربى صادرا عن لسان غير عربى، ويعرف علماء اللغة أن التمكن من لغة غير لغة الأم حلم لا يتحقق إلا فى ظروف استثنائية، ولكننا مع ذلك نلحظ مجموعة لا بأس بها من شعراء العربية، فكان فيهم من ارتضعوا الشعر العربى منهم المهاجرون إلى السند ومنهم القادمون مع الجيش الإسلامى العربى، ولكن الشعراء السنديين أيضا قاموا بإنجازات تذكر".

هكذا بذر الفاتحون العرب بذور الشعر العربى على أرض السند وظل الحكم الإسلامى العربى مهيمنا على الأراضى السندية لمدة خمسين ومائتى عام بدء من العام الثالث والتسعين الهجرى، حتى طرق محمود الغزنوى أبواب الهند فاستسلمت الهند لهذا القائد الإنسان المتصف بالعدل والعلم والعطاء، وفى هذه الفترة كانت الفارسية لغة بلاط الحكم، ولكن العربية استطاعت أن تشق طريقها، فلم تتوقف مسيرة اللغة العربية وآدابها، فظلت تنمو وتزدهر فى المدارس الدينية حيث كان علماء الدين يقومون بتدريسها كلغة الدين الحنيف، حتى بلغت الهند ذروة الاقتصاد فى القرن السابع الهجرى، فجذب كل من الاستقرار والأمن المسلمين إليها من البلاد الإسلامية التى اضطربت أوضاعها أيما اضطراب زمانا للكارثة العظمى على يد التتار، ونعنى بذلك السنة السادسة والخمسين من هذا القرن، وكان من حسن طالع الهند أن كان ضمن أولئكم المهاجرين بعض أبرز العلماء المحققين فى الأدب العربى والعلوم الإسلامية، الأمر الذى أدى إلى ازدهار العلوم الإسلامية والأدب العربى فى ربوع شبه القارة الهندية.

وهكذا نشأ وترعرع الشعر العربى فى شبه القارة الهندية حيث كان ومازال أهل الهند يحبونها ويقدسونها نظرا لصلتها القوية مع الدين، ومازال الشعر العربى

ينمو ويزدهر مع مرور الزمان حتى جاء الإنجليز وتمكنوا من شبه القارة الهندية فحاولوا إحباط ثقافة المسلمين ما استطاعوا ولكنهم لم يتمكنوا من القضاء على ثقافة المسلمين حسب رغباتهم حيث كان هناك عدد من علماء المسلمين الذين مازالوا متمسكين بدينهم وسط العواصف الإنجليزية، كما أنهم استطاعوا الحفاظ على اللغة العربية وآدابها خلال الفترة القاسية على المسلمين فكان هناك شعراء العربية في الهند الذين نظموا بالعربية خلال فترة الاحتلال البريطانى، ولما كانت عنايتنا بدراسة شاعرنا وعصره الأدبى وجدنا أنه عاش فى عصر سمى فى الأدب العربى بالعصر الحديث، لذا رأيت أن ألقي بظلال المعرفة حول الشعراء الذين أظلهم هذا العصر وألا أكتفى بدراسة الشعراء المعاصرين للشيخ أحمد رضا خان فقط، عندئذ وجدنا أن الدراسة تحتاج من الرجوع إلى الوراء قليلا من الناحية الزمنية.

ولقد بدأ عصر الأدب العربى الحديث بالحملة الفرنسية التى شنتها فرنسا على مصر الحبيبة بقيادة نابليون فى العام الثامن والتسعين من القرن الثامن عشر الميلادى، وإذا كان الاستاذ أحمد حسن الزيات يرى[١]: "أن العصر الأدبى الحديث بدأ بتولية محمد على باشا على مصر" فهو نتيجة الحملة الفرنسية وحصيلة ما جرى فى السنوات السبع الماضيات منذ العام الثامن والتسعين بعد السبعمائة والألف للميلاد إلى العام الخامس بعد الثمانمائة والألف للميلاد، وكل هذه الفترة أوجدت النزعة الوطنية فى مصر المحروسة، وقتها كانت اليقظة المصرية قد بلغت ذروتها حيث إن المصريين صمموا على تولية محمد على باشا على مصر وخلع خورشيد باشا وفرضوا إراداتهم على الباب العالى (الحكم العثمانى).

(١) تاريخ الأدب العربى، للأستاذ أحمد حسن زيات، (ط: مكتبة نهضة مصر بالفجالة، القاهرة، دون سنة الطبع، الطبعة العشرون)، ص ٥.

. وفي هذه الفترة كان الإنجليز قد كشروا عن أنيابهم في شبه القارة الهندية مع أنهم لم يكونوا وقتئذ أكثر من ضيوف وتجار. ولكنهم كانوا يعدون عدتهم للسيطرة على شبه القارة الهندية، وانقلبت الأوضاع رأسا على عقب فالأرض الهندية التي كانت قد أصبحت مهدا للغة العربية وآدابها حاول الإنجليز أن يجعلوها نافرة للعربية وادابها. ولكنهم لم يستطيعوا أن ينالوا ذلك إذ حال دون محاولتهم بعض الشعراء الهنديين حيث إنهم ظلوا متحمسين للعربية وآدابها رغم أنف الإنجليز، وكان من بين هؤلاء المحبين للعربية والمتمسكين بها شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان، فلننتقل الآن إلى ذكر بعض أولئكم الشعراء الهنديين أصحاب الدواوين الشعرية بالعربية والبارزين منهم الذين أسكنوا اللغة العربية وآدابها عقولهم وصدورهم حتى في أيام حالكة وأوضاع متوترة وظروف قلقة جدا في عصر الاحتلال الإنجليزى على شبه القارة الهندية وبهذا دفعوا مسيرة الشعر العربى في الساحة الهندية إلى الأمام، وقد حاولت أن أتناول جهود هؤلاء الشعراء بدءا من العصر الأدبى الحديث، والذى يبدأ من العام التاسع والتسعين من القرن الثامن عشر الميلادى، وإننى لم أتجاوز العام الحادى والعشرين من القرن العشرين الميلادى رغم استمرار العصر الحديث حتى يومنا هذا وذلك لأنه عام وفاة شاعرنا - موضوع البحث - وإن كنت رجعت إلى الوراء قليلا فأنا أعد نفسي في العصر الحديث أيضا. وذلك لأن العام الثامن والتسعين من القرن الثامن عشر الميلادى وهو بداية العصر الحديث، والعصر الأدبى لا يقاس بمقياس ميلاد البشر وإنما لابد لوجود عصر أدبى جديد من مقدمات تستغرق ردحا من الزمان، واستعداد في الفكر حتى تتغير سمة العصر ويظهر العصر الأدبى إلى حيز الوجود وله سمات معينة، وإننى لم أرجع إلى العصر قبل العصر الحديث الذى هو العصر المملوكي ولازلت في العصر الحديث وإنما رجعت إلى الوراء من الناحية الزمنية فقط محاولا تغطية العصر الحديث منذ بدايته ولكي أرى الأرض التي ولد عليها شاعرنا كيف كانت

ترتبط باللغة العربية ارتباط الأم بابنها، وارتباط الإبن بأمه، ارتباط العقل بفكره، وارتباط المشاعر بالقلب الذى ينبض بها، إنها اللغة العربية وشعرنا العربى، وكيف كان موقفها من الشعراء الهنديين الذين كانوا يلهجون بالعربية، وأمكننى أن اصل إلى الكتاب عنهم واختيارهم من بين الكثيرين الذين نظموا بالعربية دون أن يتركوا لنا ديوانا كاملا من الشعر وإنما تركوا لنا قصائد قليلة وربما أبياتا، ولكننا اكتفينا بذكر أصحاب الدواوين الشعرية من شعراء العربية فى شبه القارة الهندية لعل لبعضهم ديوانا أو أكثر، وسيكون ذكرى لهم بحسب الترتيب الأبجدى لأسمائهم، وذلك لأننى وجدت أحد تاريخي الميلاد أو الوفاة، مع ضياع الآخر إلا أن لهم قدما ثابتة فى الشعر العربى، ونظرا لضياع أحد التاريخين لم أستطع أن اذكر هؤلاء الشعراء بالترتيب الزمنى حسب تاريخ ميلادهم، أو نظرا لتاريخ رحيلهم إلى دار البقاء. وفى نهاية المطاف حاولت إبراز مكانة الشاعر - موضوع البحث - الشيخ أحمد رضا خان من بين أولئكم الشعراء فأقول وبالله التوفيق:

الشيخ أحمد بن عبد القادر الكوكنى

الشيخ الفاضل العلامة أحمد بن عبد القادر الشافعى الكوكنى، نسبة إلى كوكن على ما قيل طائفة من قريش خرجت من أرض الحجاز خوفًا من مظالم حجاج بن يوسف الثقفي فوصلت إلى ساحل بحر الهند [وبعد النظر فى الأطلس اتضح لى أن أسرة الشاعر الشيخ أحمد عبد القادر عندما انتقلت إلى الهند كان أمامها طريقان الطريق البرى وهو طويل، والطريق البحرى وهو سهل فاختارت أسرته أن تجتاز المحيط الهندى للوصول إلى الأرض الهندية البعيدة عن مظالم حجاج بن يوسف] وسكن بعض أفرادها فى مدارس وتوطن بعضهم فى كوكن وانتسبوا إليها، سماه باسمه أحد الأشراف الحضرمية الذى كان نازلا عند أبيه فى مدينة بومبائى، ولد هذا الشاعر عشية النصف من شهر شعبان من السنة الثانية والسبعين من القرن الثالث عشر الهجرى، وكان ميلاد هذا الشاعر فى نفس السنة التى ولد بها شاعرنا - موضوع البحث - الشيخ أحمد رضا خان، إلا أن الشاعر أحمد بن عبد القادر سبق شاعرنا بثلاثة أشهر وصولا إلى ظهر هذه البسيطة، فلم يكد يمضى العام الثانى والسبعون حتى شهد ميلاد الأحمدين - الشيخ أحمد رضا خان والشيخ أحمد بن عبد القادر - على وجه الدنيا.

نشأ الشيخ أحمد عبد القادر فى عفاف وطهارة، وكان من صغر سنه مشهورا بالفطنة والذكاء، مجبولا على الكرم والسخاء، قرأ القرآن الكريم والعلوم الإسلامية على علماء عصره الأجلاء، ولم يزل مشمرا عن ساعد الجد حتى فاق أقرانه - على حد قول المترجم - وبرع فى كثير من العلوم لا سيما الفنون الأدبية، وقد

أصابه الدهر ورماه الزمان بوجع فى ظهره حتى صعب عليه الجلوس والمشى، ولكنه كان مع شدة مرضه هذا يلقى الناس بكل بشاشة ويراعى معهم الخلق الحسن، ويحافظ على الأوقات، وكان يقضى أكثر أوقاته فى المطالعة والتدريس والمداواة والنصيحة، وشهد بفضله جماعة من الأفاضل منهم السيد محمد علوى بن أحمد السقاف شيخ الأشراف بالحرم الشريف المكى وقد قال فيه: "إنه ممن يشد الرحال اليه، ولو لم يكن لنا قصد فى دخول الهند والخروج من مكة المكرمة سوى زيارته لكفى".

وله شعر رائق، غاية فى حسن السبك وجودة التركيب وطلاوة الألفاظ وجزالة المعنى، وإننى أعددته ضمن الشعراء المختارين أصحاب الدواوين الشعرية رغم عدم إشارة المترجم إلى وجود ديوان شعر له، فإننى أعتقد أن هذا الشاعر لم يكتف بنظم قصيدة واحدة بل إن قصيدته هذه تنبئ عن موهبة عظيمة لدى ناظمها ونبوغه فى صياغة الشعر العربى، الأمر الذى يؤكد وجود ديوان شعر للشيخ أحمد بن عبد القادر.

لقد كان الشاعر المترجم له سبق شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان فى الميلاد إلا أن العمر لم يمتد به امتداده بشاعرنا فقد سبقه إلى الوفاة كما سبقه إلى الميلاد ولكن السبق هذه المرة كان عشرين عاما فقد رحل إلى رحمة ربه ليلة العشرين من شهر محرم من السنة العشرين بعد الثلاثمائة والألف للهجرة بمدينة بومبائى.

ومن قصيدة نبوية له

ذكر المترجم قصيدة له قوامها سبعة عشر بيتا فى مدح سيدنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – هو غرضها الأساسى، وهى ميمية من بحر البسيط مستحضرا فيها نغمة البوصيرى فى بردته، بل ذكر الشيخ أحمد بن عبد القادر الرموز التى استخدمها الإمام البوصيرى، حيث أتى ب"ذى سلم" و"إضم" و"البان والعلم" قضاها فى الغزل اللهم إلا الأبيات الثلاث الأخيرة قالها فى الغرض الأساسى من القصيدة، وهاك بعض أبياتها:

ياشوق بلغ إلى جيران ذى سلم	سلام صب سليم الهم والألم
من لى به وسهادى ظل يمنعه	أو بالكرى وهو مدفوع ببينهم
لولا اضطراب القلب أوهاج البكاوصبا	إن هب ريح جرت من رقمتى إضم
يالائمى وشراب الحب اسكرنى	لو ذقت لذة كأس الحب لم تلم
هوى سرى فى دمى قدما فلا عجب	إن ضن عينى بدمع وهو عين دمى
ياليت شعرى لم الخلائق أنشأنى	أللتحسر والآلام والندم؟!
منى ذنوبى قد جمت أليس لها	من الرسول شفيع رحمة الأمم
محمد بهجة الدارين نورهما	سر الوجود وعن الجود والكرم[1]

(١) انظر: نزهة الخواطر، للسيد عبد الحى اللكنوى، ج ٨، ص ٢٢:٢٩ (ملخصا) وأرقام هذه الأبيات ١، ٤، ٧، ٨، ١١، ١٥، ١٦، ١٧.

مولانا أصغر على الروحي

ولد مولانا أصغر على الروحى فى الرابع والثمانين من القرن الثالث عشر الهجرى، أى بعد ميلاد شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان باثنتى عشرة سنة، حصل التعليم الابتدائى فى موطنه غجرات، ثم وفد على مدينة لاهور حيث تلقى العلم عن كبار الأساتذة بجامعة بنجاب، وبعد التخرج فى جامعة بنجاب عين مدرسا بالكلية الشرقية التابعة للجامعة نفسها، ولم نستطع الاطلاع على عام تعيينه مدرسا بالكلية الشرقية، وإنه نصب رئيسا بقسم اللغة العربية بكلية لاهور الإسلامية اعتبارا من العام الثانى والتسعين من القرن التاسع عشر الميلادى حتى العام الواحد والعشرين من القرن العشرين الميلادى، كانت له اليد الطولى باللغتين العربية والفارسية، وكان يقرض الشعر فيهما بكل سهولة، وكان الدكتور محمد إقبال يفيد منه فى بعض الأحيان إفادة علمية .

ولما نظم المتنبئ القاديانى قصيدة عربية تحت عنوان: "القصيدة الإعجازية" متحديا بها علماء العربية تصدى مولانا أصغر على الروحى للرد عليه فنظم قصيدة عربية طبعت وقتها فى جريدة "بيسه أخبار".

ولقد ألف عدة مؤلفات قيمة منها ديوانه الفارسى المشتمل على ستة آلاف بيت، كما أن له ديوان عربى يحتوى على ثلاثة وتسعين وستمائة بيت، توفى مولانا أصغر على الروحى فى العام الثالث والسبعين من القرن الرابع عشر الهجرى

الموافق للعام الرابع والخمسين من القرن العشرين الميلادى[١] اى بعد وفاة شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان بثلاثة وثلاثين عاما.

شغف مولانا أصغر على الروحى بدينه وعربيته أيما شغف، تعددت أغراضه الشعرية فى ديوانه العربى واستطاعت مشاعره أن تملى عليه من الشعر ما أجاد فيه، فاقدم على نظم الغزل والمديح والرثاء والهجاء والشكوى والموعظة، كما أن له أبياتا رائعة فى شتى المناسبات، وقد قام بنظم شعر الإصلاح فنظم عشرين بيتا فى الرد على منكرى الحديث النبوى الشريف[٢] كما قام بنظم ستة وعشرين بيتا فى الرد على مبشرى النصارى[٣] ولم يفته أن يستقبل وفد الأزهر الشريف حين زار الوفد مدينة لاهور وذلك حين بعث الدكتور محمد اقبال رسالة إلى فضيلة الإمام الأكبر شيخ جامع الأزهر الشيخ محمد مصطفى المراغى شارحا فيها الوضع السائد فى الهند، وراجيا منه أن يوفد من رجال الأزهر الأفضال المؤهلين لمواجهة المبشرين المسيحيين، فأرسل فضيلته وفدا أزهريا إلى شبه القارة الهندية وزار الوفد بعض المدن الهندية الكبرى آنذاك فتشرفت أرض الهند برجال الأزهر المعمور الذين زاروا بعض البقاع وألموا بما عليه سكان الهند وما يعانونه من الاستعمار الجاسم فوق أرضهم، المكمم لأفواههم، وحاولوا الوقوف بجانبهم والتعرف على مشاكلهم وكان من بين مازاروه مدينة لاهور حيث التقى الوفد بالدكتور محمد إقبال وناقش معه الأوضاع الهندية الراهنة كما التقى مع غيره من زعماء المسلمين ومن بينهم شاعرنا مولانا أصغر على الروحى، فسره رؤيتهم ولقاؤهم مما أثار طبعه

---

(١) تذكرة أكابراهل سنت (تراجم علماء أهل السنة) لمولانا محمد عبد الحكيم شرف القادرى (ط: مكتبة قادرية بلاهور ١٤٠٩هـ)، ص ٦٠ : ٦٢.

(٢) ديوان الشيخ أصغر على الروحى، تحقيق الدكتور رانا ذوالفقار على، ص ٩٩، ١١٤.

(٣) المرجع السابق، ص ١١٣ .

الفياض المتدفق شعرا، وعواطفه الجياشة فراح ينظم قصيدة تلو القصيدة يرحب فيها بالوفد الأزهرى المصرى(١).

والقصيدة التى سوف أشير إليها دالية قوامها ثلاثون بيتا يستقبل فيها الشاعر وفد الأزهر الشريف، وجاء القصيدة تحت عنوان: "وقال حين ورد وفد المصريين ببلدة لاهور صانها الله عن الحور بعد الكور".

يخاطب مولانا أصغر على الروحى بقصيدته هذه أهل مدينة لاهور ويبشرهم بقدوم وفد الأزهر الشريف من مطلع بالقصيدة إلى البيت الرابع وفى البيت الرابع ينتقل إلى تاريخ مصر المجيد وفضل أهلها فى السبق إلى اعتناق الإسلام والقيام بخدمة دين الله عز وجل الممثلة فى هؤلاء المصابيح الذين يخرجهم الأزهر المعمور، وأولئك العلماء الأفذاف الذين يتفرقون بعد ذلك فى مختلف الأقطار الإسلامية، ويبلغون رسالة ربهم على النحو الذى يرضيه سبحانه، وهو النحو الذى خرجهم الأزهر لأدائه وإبلاغه إلى سائر المسلمين ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا وللأزهر الشريف أفضال قد تخلدت على وجه الزمان، وأيادى بيضاء فى خدمة أمة الإسلام التى لا يمكن تجاهلها عند الصديق والعدو على حد سواء، ثم نرى الشاعر يذكر جود الأزهر وكرمه وإقباله على أداء واجبه، ها هو يرى أنه فى وجود الوفد المصرى الأزهرى قد جاء البحر يمشى إلى العطاش رغم أن العطشان هو الذى يشق طريقه نحو المياه أو البحار، ومن البيت السابع يشرح الشاعر للوفد قضية التنصير فى شبه القارة الهندية وماراع المسلمين ودهاهم فى فلسطين من اقتحام اليهود الغاصبين تمهيدا لإقامة دولتهم التى كانوا يتطلعون إلى إقامتها آنذاك وإنها

---

(١) المرجع السابق، ص ١٢، مقدمة.

للأسف أقيمت، ويذكر كذلك ما يعانيه المسلمون على يد الزمان وظروفه القاسية(١).

والقصيدة التى نود أن نختار منها أبياتا كنموذج لشعر مولانا أصغر على الروحى تتكون من ثلاثين بيتا إلا أننا إخترنا منها أحد عشر بيتا التى تشكل وحدة متكاملة كما سبق أن ذكرنا تحليلها، وهاكم الأبيات المختارة من بداية الدالية حيث يقول الشاعر(٢):

ألا ياقوم عاد اليوم عيد ... فهل لكم طريف أو تليد

نعم ونفوسنا علق نفيس ... إلا يامسلمى لاهور جودوا

لسادتنا الكرام فيالبشرى ... برؤيتهم تسهلت الجدود

هم سبقو الورى حسبا ودينا ... فحسبك أن خالقنا شهيد

وكانوا عروة وتقى هداها ... مهيمننا فأعجبنا الورود

فإن البحر لا يأتى عطاشا ... فروانا وللعطشى جمود

صروف الدهر قد بلغت مداها ... فلا والله ليس لها مزيد

وقد وردت مياه القوم قدما ... غرائب نام عنها من يزود

وكنا قبل نسقى كل ظام ... فلا غيص يخاف ولا نفود

يخوفنا مغاربة النصارى ... ثعالب فى روائهم أسود

وكنا أمس نحمى كل روع ... فعدنا اليوم راعتنا اليهود

---

(١) ديوان الشيخ أصغر على الروحى، تحقيق الدكتور رانا ذوالفقار على، ص ١٢، ١٣، بتصرف.

(٢) المرجع السابق، ص ٦٠.

الشريف إعجاز أحمد السهسوانى

الشيخ الفاضل الشريف إعجاز أحمد بن عبد البارى الحسينى النقوى السهسوانى، أحد العلماء الكبار، ولد فى السنة الرابعة والتسعين من القرن الثالث عشر للهجرة، وذلك بعد ميلاد شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان بحوالى اثنين وعشرين عاما، قرأه الشيخ الشريف أعجاز حسين السهسوانى العلم على أبرز علماء عصره فى مختلف الفنون العلمية التى تمت إلى الإسلام بصلة، وبعد إكماله دراسة الفنون العلمية أقام بسهسوان زمانا ثم انتقل إلى قرية بسولى حيث بدأ يدرس ويمارس الطب، ثم ولى رئاسة تدريس اللغة العربية والفارسية فى مدرسة ببدايون، ثم عين نائب العميد فى كلية بفيض آباد واشتغل هناك ستا وعشرين سنة إلى أن أحيل إلى المعاش فى السنة الرابعة والستين من القرن الرابع عشر الهجرى، فانعزل بوطنه سهسوان منقطعا إلى المطالعة والتصنيف والشعر والأدب.

وكان الشيخ الشريف إعجاز حسين متضلعا فى الفنون الأدبية، بصيرا بأصنافه ومذاهبه، شاعرا مكثرا مجيدا فى اللغة الأردية على نهج الشعراء المتأخرين، وكان يقول الشعر العربى الرصين، وله مؤلفات كثيرة منها: "تسلية الفواد بترجمة بانت سعاد" وديوان شعر له بالعربية، توفى إلى رحمة ربه فى العام الثانى والثمانين من القرن الرابع عشر الهجرى فقد سبق شاعرنا فى الوفاة كما كان قد سبقه فى الميلاد.

ومما نظمه فى الحكمة قوله:

يهوى الفتى لذة الدنيا ويأملها ولا نصيب له منها سوى الألم

تبا لــــدار الفنــاء لا بقــاء لــها ولا مصير لأهليها سوى العـدم
فهب من رقدة الغفلات نل فرصـلـ فليس ينفع بعد الفوت من نــدم

نلاحظ أن الشاعر يبين حقيقة الدنيا وفناءها ويستنهض المسلمين من ســـباتهم ويحثهم على العمل لتحقيق التقدم واسترداد الكرامة.

ويقول في الغزل:

ولا أنسى سليمى يوم سـارت بها الأجمال طائعة الزمـــام
أتنسى كى تودعنى فقــــامت تعض بنانها والطرف دامــى
وغير وجهها وشك التنـــائى وأوجع قلبها روع انصـــرام
فأومت باللحاظ حــــذار واش وفى زفراتها حق الغــرام[١]

نرى فى هذه الأبيات لونا من الغزل العذرى وبراعة الشاعر فى نظم الغــزل حيث إنه عاش حياة علماء الدين بكل معانى العفة والطهارة، ولكنـــه بنـــاء علـــى الموهبة الشعرية التى حباها الله تعالى ومطالعته العميقة للشعر العربى والفارســـى والهندى استطاع أن ينظم شعرا عربيا فى الغزل مفعما بالعواطف، فقد رأيناه يـــذم الدنيا ويستنهض المسلمين تارة وينظم الغزل العذرى لاظهار تمكنه من ناصية اللغة العربية تارة أخرى.

---

(١) نزهة الخواطر، للسيد عبد الحى اللكنوى، ج ٨، ص ٦٠:٦٢ (ملخصا).
علماء العرب فى شبه القارة الهندية، للشيخ يونس الشيخ ابراهيم السامرائى، ص ٧٢٢، ٧٢٣.

الشيخ حامد حسين الفيض آبادى

الشيخ الفاضل حامد حسين بن الحسين الحسنى الفيض آبادى، أحد علماء الشيعة الإمامية، عاصر شاعرنا - موضوع البحث - الشيخ أحمد رضا خان، فلم تكد الدنيا تعرف شاعرنا حتى عرفت المترجم له، ولكن معرفتها هذه كانت بعد ميلاد شاعرنا بخمسة عشر عاما حيث ولد الشيخ حامد حسين فى السنة السابعة والثمانين من القرن الثالث عشر الهجرى، قرأ الشاعر المترجم له على محمد قلى الشيعى اللكنتورى ولازمه منذ حداثة سنه، وهو يحبه ويلاطفه ويملى عليه مصنفاته، كما قرأ العلم على الشريف ناصر حسين أيضا، وبرع فى الأدب والتاريخ والسير، وله شعر جيد فى المديح والحماسة والنسيب[١] ذكر عنه المترجم أنه بلغ ديوان شعره خمسة عشر حرفا حتى كتابة المترجم للشاعر، ويذكر المترجم أن لحامد حسين الفيض آبادى، تخميسا طويلا على قصيدة أستاذه الشريف ناصر حسين المسماة بالبرد الملفوف.

وحامد حسين هذا من الشعراء الذين فقد تاريخ وفاتهم، فلم يذكر المترجم تاريخ وفاته، والذى يعنينا هو تلك المعاصرة التى جمعت بين الشيخ حامد حسين وشاعرنا - موضوع البحث - الشيخ أحمد رضا خان.

نلاحظ أن المترجم ذكر للشاعر أربعة وعشرين بيتا فى مدح سيدنا ومولانا على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - وبعد ذكر هذه الأبيات قال: إلى غير ذلك من الأبيات، مما يدل على أن هذه القصيدة ليست كاملة، والأبيات الثلاثة التى اختتم

(١) اعتقد أن المترجم كان يقصد الشعر العربى لأنه لم يذكر للشاعر شعرا فى غير اللغة العربية.

بها المترجم ذكر القصيدة توضح أن الحبل لازال موصولا، والشعر لازال ينـــهمر، أذكر فيما يلي بعض الأبيات.

"ما للملاح ارى سعدى وســـلماها ... ردينـــها وســـعادا ثـــم ليلاهـــــا

يمشين في حلل من سندس خضـر ... زانت حليا لها في السعر اغلاهـــا

سود الفروع كان الليـــل خمرهـــا ... بيض الوجوه كان الشمس غذاهـــا

شـــفاهها كيواقيـــت يشعشــــــعها ... عند التبسم ضـــــوء مـــن ثناياهـــا

فليلة القدر تحكى عـــن غدائرهـــا ... ومطلع الفجر يبدو عن محياهـــا"[١]

(١) نزهة الخواطر، للشيخ عبد الحي اللكنوي، ج ٨، ص ٩٧، ٩٨.

الشريف حيدر على الرضوى

لم نستطع الوقوف على تاريخ ميلاد الشريف حيدر على الرضوى، وكل ما عرفنا عنه أنه كان عالما مجتهدا من علماء الشيعة، قرأ العلم على والده وعلى المولوى تراب على السنى، ثم قرأ على علماء عصره العلوم الإسلامية والعربية، وكان المفتى محمد عباس التسترى من بين من قرأ عليهم، فقد قرأ عليه الأدب العربى، وكان الشاعر حيدر على الرضوى من أخص تلاميذه، يقول عنه المترجم: كان عاليا الكعب فى المعقول والمنقول، كما كانت له اليد الطولى فى الشعر والأدب، ومن مصنفاته ديوان شعره بالعربية [ولم يشر المترجم إلى عدد أبياته التى حواها الديوان، ولا الأغراض التى تضمها القصائد، والمدة التى استغرقت فى إعداد هذا الديوان]، وكتاب فى الإنشاء العربى، مات لعشر بقين من المحرم من السنة الثانية بعد الثلاثمائة والألف للهجرة، إذن فهو معاصر لشاعرنا الشيخ أحمد رضا خان.

ومن شعره ما كتبه إلى أستاذه المفتى محمد عباس التسترى:

اسرت بسجن البعد فى دار غربة	به رق لى إنسان عين باكيا
اقلب جنبى فى المضاجع كربة	بدمع سكيب احمر اللون قانيا
احس بصدرى نار وجد تاججت	نوائرها قد كاد تحرق باليا
ولكن جرى العين كالعين فى النوى	لاطفى ضراما او قدت بفؤاديا
وكلت إلى الله امورى جميعها	رضيت به فليقض ما كان قاضيا
كفانى دنوى من مراحمه وإن	ابت بقلى دهرى عن الاهل نائيا

وثوق بمـــن عــم البرايـــا نوالـــه ... ويدنو الى من قد نای عنه عاصيلـ

فربی کفیلی فی رجـــائی وشـــدتی ... يجيب دعائی لا يخيــــب راجيــا

الا دمــت للديــن المبيــن مؤيـــدا ... مدی يبتغی اهل الـــوداد التلاقيــا .

بمن جبهم فرض علی كـــل عــاقل ... وذكرهم الاسنی يزيـــن النواديــا

عليهم سلام الله مـــا طـــار طـــائر ... فلاذ باغصان الحدائق شـــاديا[١]

نلاحظ أن القافية لطيفة لينة وخصوصا إن آخرها الياء المتبوعة بالألف والتی تشبه ياء النداء، وهی ألطف ما يمكن أن يجری علی اللسان، ومن أحلی ما نطقــت به العرب، ويا حبذا أن تجتمع الحلاوة واللطافة فی قصيدة شعرية تبنـــی عليـــها، ولذلك يمكننا أن نقول: إن القصيدة مبنية علی الحلاوة والظــــرف واللطافـــة فـــی النطق، ونلمس فی قصيدة الشاعر ثقة المتوكل علی الله حق التوكل الطــــامع فـــی وجهه سبحانه وعطائه طمعا غير محدود، إلی غير هذا من الأغراض.

---

(١) نزهة الخواطر، للشيخ عبد الحی اللكنوی، ج ٨، ص ١٢٩، ١٣٠.

الشيخ رفيع الدين الدهلوى

"هو الشيخ الإمام، العالم الكبير رفيع الدين عبد الوهاب بن ولى الله بن عبد الرحيم العمرى الدهلوى، المحدث المتكلم، الأصولى الحجة الرحلة، فريد عصره، ونادرة دهره [كذا عبر عنه اللكنوى]، ولد بمدينة دهلى ونشأ بها، واشتغل بالعلم على صنوه عبد العزيز وقرأ عليه ولازمه مدة، وأخذ الطريقة عن الشيخ محمد عاشق بن عبيد الله، وبرع فى العلم، وأفتى ودرس وله نحو العشرين، وصنف التصانيف، وصار من أكابر العلماء فى حياة أخيه المذكور، وقام مقامه بالتدريس عندما أصيبت عيناه، فازدحم عليه الناس، وتلقى كل واحد من تلك اللطائف على قدر الاستعداد، واعترف بفضله علماء الآفاق، وسارت بمصنفاته الرفاق، وله تخميس على بعض القصائد لوالده.

توفى – رحمه الله تعالى – فى حياة صنوه الكبير عبد العزيز الدهلوى لست ليال خلون من شوال من السنة الثالثة والثلاثين بعد المائتين والألف للهجرة، بمدينة دهلى فدفن بها خارج البلدة عند أبيه وجده"، إنه أدرك من العصر الحديث إحدى وعشرين سنة تقريبا، وعليه فإن كان العمر قد امتد به أكثر من إحدى وعشرين سنة فيكون ميلاده فيما قبل بداية العصر الحديث، وغالبا يكون العمر قد امتد به، وذلك لأنّ هذه السن لا تسمح له غالبا بذيوع الصيت ولا بلوغ المكانة التى تجعله ذا قدم راسخة بحيث يترجم له.

ومن شعره قوله:

يــاأحمد المختــار يــازين الــورى	ياخاتما للرســل مــا أعلاكــا
ياكاشــف الضــراء مــن مســتنجد	يامنجيا فى الحشر من والاكــا
هل كان غيرك فى الأنام من استوى	فوق البراق وجــاوز الأفلاكــا
واستمسك الــروح الأميــن ركابــه	فى سيره واســتخدم الأملاكــا
حتــى إذا تــم الدنــو تســترت	منك الهوية فى ســنا مولاكــا
فرأيتــه جــهرا بعينــى نــوره	ما كــان إلا الله فــى مجلاكــا
فكســا نــورا مــن أشــعة ذاتــه	أفنــاك عنــك إذا بــه ألقاكــا
فلك المنــاصب والســيادة للــورى	وخلافة الرحمن يــا بشــراكا
فلقــد أتيتــك ســيدى مســتجديا	من سيلك المدرار حسن ولاكــا
يــاليتنى فــزت منــك بنظــرة	فى بدر وجــه نــور الأفلاكــا
صلــى عليــك الله خــير صلاتــه	والمالئون صدورهــم بــهواكا
وعلى صحابتك الكرام وآلــك الــ	لأطهار ما طاف السماء بحماكا

ويقول عنه المترجم: "وله قصيدة بليغة أخرى تدل على علو كعبه فى العلــوم الفلسفية واقتداره على العربية، عارض بها الشيخ أبى على ابن سيناء "العينية" التــى تعرف بقصيدة الروح ومطلعها:

هطبت إليك من المحل الأرفــع ورقاء ذات تعزز وتمنــع

فعارضها الشيخ رفيع الدين الدهلوى بعينية مطلعها كالتالى:

عجبا لشيخ فيلسوف ألمعـى　　　خفيت بعينيه منارة مشـرع[1]

وأبياته التى قرأناها تفيض رقة وعذوبة، فهو يتحدث عن سيدنا رسـول الله – صلى الله عليه وسلم – وبعض ما بلغه عن ربه – تبارك اسمه – ويجعل هذا كلـه سبيلا لأن يطلب شفاعة رسول الله – صلى الله عليه وسـلم – والتنعـم برؤيـاه، والأبيات أراها قد خرجت من قلب يفيض بحب المصطفى – صلى الله عليه وسـلم – ومهما علقت فإن صوت الشاعر الذى سبق أن ذكرت أحلى من صوتى، والرجل فى معارضته للشيخ الرئيس دخل مباشرة دون أن يشير إلى تلـك الورقـاء التـى اتخذها ابن سيناء بداية لعينيته، بل دخل الشاعر متعجبـا معترفـا بألمعيـة هـذا الفيلسوف منذ أول بيت فى المعارضة.

---

(١) انظر: نزهة الخواطر، للشيخ عبد الحى اللكنوى، ج ٧، ص ١٨٦:١٨٩ ملخصا.
وانظر: علماء العرب في شبه القارة الهندية، للشيخ يونس الشيخ ابراهيم السـامرائى، ص ٥٩٥، ٥٩٦.
وانظر: الآداب العربية فى شبه القارة الهندية، للدكتور زبيد احمد، ص ٤٤٨.

سراج الهند الشيخ عبد العزيز الدهلوى

الشيخ الإمام، العالم الكبير العلامة المحدث عبد العزيز بن الشيخ ولى الله بن الشيخ عبد الرحيم الدهلوي، سيد علماء الهند فى زمانه وابن سيدهم، لقبه بعضهم بـ "سراج الهند" وبعضهم بـ "حجة الله".

ولد ليلة الخميس لخمس ليال بقين من رمضان فى السنة التاسعة والخمسين من القرن الثانى عشر الهجرى، حفظ القرآن وأخذ العلم عن والده حتى حصلت له ملكة راسخة فى العلوم العربية والإسلامية، ولما توفى والده إلى رحمة ربه طلب العلم على الشيخ نور الله البرهانوى، والشيخ محمد أمين الكشميرى، وأجازه الشيخ محمد عاشق بن عبيد الله، وقرأ العلم على غيرهم من العلماء الأجلاء أيضا وبالتالى أجازه العديد من علماء الدين.

وكان رحمه الله تعالى أحد نوادر الدنيا بفضله وآدابه وعلمه، وذكائه، وفهمه وسرعة حفظه، فتصدر للتدريس وعمره خمس عشرة سنة، وتخرج عليه جمع غفير من الأفاضل حتى صار علما فى الهند، وقصدته الطلبة من أغلب الأرجاء، وتهافتوا عليه تهافت الظمآن إلى الماء، إنه يعد من شيوخ شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان فى الحديث وذلك لأن شاعرنا أخذ إجازة الحديث عن مولانا آل رسول المارهروى، والذى أجازه الإمام عبد العزيز الدهلوى، ونلاحظ أن شاعرنا اتخذ شيخه هذا أستاذا فى المديح النبوى أيضا وذلك عند الاستنجاد بالحبيب المصطفى – صلى الله عليه وسلم – والتوسل به – عليه الصلاة والسلام – إلى الله – سبحانه وتعالى –.

هذا وللشيخ عبد العزيز الدهلوى مؤلفات قيمة مقبولة عند العلماء محببة إليهم يتنافسون فى الانتفاع بها، ويحتجون بترجيحاته، وهو حقيق بذلك، وفى عبارته قوة وفصاحة وسلاسة تعشقها الأسماع وتلتذ بها القلوب، ولكلامه وقع فى الأذهان.

أما قدمه فى الفن الأدبى باللغة العربية فله شرح على أرجوزه الأصمعي، والذى يبدو لنا أن والده كان شاعرا عربيا وقد عرفنا ذلك من خلال ما ذكره المترجم عمن نتحدث عنه وهو الإمام عبد العزيز الدهلوى، فقد ذكر أن له تخميس على قصيدتى والده، البائية، والهمزية، وله رسائل عربية إلى العلماء والمشايخ والأدباء، وتخميس نفيس على قصيدتى والده البائية والهمزية وكنا ننتظر من المترجم أن يفصح عن عدد القصائد لهذا الشاعر وأغراضه الشعرية، فإننا نرى - فى ضوء ترجمة الشاعر وقصيدته العربية التى بين أيدينا - أن الشاعر ألف ديوان شعر عربى بالتأكيد، وذلك نظرا لعاطفته الفياضة وموهبته الشعرية.

توفى بعد صلاة الفجر يوم الأحد لسبع خلون من شوال فى السنة التاسعة والثلاثين من القرن الثالث عشر الهجرى وله ثمانون سنة [منها ما يقرب سبعة وعشرين سنة فى العصر الحديث]، وقبره بدهلى عند قبر والده خارج البلدة.

ومن شعره قوله فى مدح النبى - صلى الله عليه وسلم -:

ألا ياعاذلى دم فى ملامى	فإنى لا أحول عن الغرام
فجفنى ساهر مادمت حيا	وقلبى هائم والدمع هامى
فياريح الصبا عطفا ورفقا	إلى ذاك الحمى بلغ سلامى
وقل يا أهل ودى فى هواكم	مضى شهرى وأيامى وعامى
ومرت بيعدكم كالعود جسمى	على نار ودمعى فى انسجام
إلام تظاهرون على كئيب	كسير القلب صب مستهام

إلام الهجر والإعـــراض عنـــى ... وحتام التمادى فـــى الخصـــام
غرامى ثـــابت غصـــن طـــرى ... وحبكم علـــى طـــرف التمـــام
نسيتم عـــــهدكم يـــا أهـــل ودى ... كأنـــا ماالتقينـــا فـــى مقـــام
فـــإن عدتـــم لوصـــل والتئـــام ... فـــأهلا بالعنـــــاق وباللثـــــام
وإن جرتم علـــى فلـــى غيـــاث ... بباب المصطفى خـــير الأنـــام
إليـــه توجـــهى ولـــه اســـتنادى ... وفيه مطامعى وبه اعتصـــامى
أجرنى سيدى من ضيـــم ســـقم ... أشد على مـــن وقـــع الحســـام
صبرت عليه حتى عيل صـــبرى ... وكاد يذيقنـــى طعـــم الحمـــام
فمدحك رقيتـــى وشـــفاء دائـــى ... إذا ما خضت فى لجج الســـقام
وذكرك سيدى حرزى وحصنـــى ... أتيه به على الجيـــش اللـــهام
مواهبك التـــى لا نقـــص فيـــها ... بها ربيت مـــن قبـــل الفطـــام
فمن لى بعد ما وهنت عظـــامى ... إذا اشتد البلاء سواك حـــامى
وإن أك طالما عظمـــت ذنوبـــى ... فحبك سيدى مـــاحى الظـــلام
فقد اعطيت ما لـــم يعـــط خلـــق ... عليك صلاة ربك بالســـلام(١)

بعد قراءة هذه القصيدة لا يفوتنى أن أقف أمامها اعترافا منى بقدرها الأدبـــى ومكانتها من نفس القارئ الذى يحاول أن يتذوق بعض المعنى، القصيدة هذه عبـــارة عن عشرين بيتا ولقد احتل الغزل أحد عشر بيتا من القصيدة، وبالطبع فى أولـــها، ومن الأدب الذى يتناسب مع الغرض الرئيسى وهو المديح النبوى الشريف أن يكون

---

(١) نزهة الخواطر، للشريف عبد الحى اللكنوى، ج ٧، ص ٢٧٤ : ٢٨٣.
وانظر: علماء العرب فى شبه القارة الهندية، للشيخ يونس الشيخ ابراهيم الســـامرائى، ص ٦١٩، ٦٢٠.

الغزل الذى بدأت به القصيدة غزلا عذريا وقد سلك الشاعر الشيخ عبد العزيز الدهلوى هذا المسلك، بلغ الغزل أحد عشر بيتاً ولكنه ليس معنى هذا أن وقفته الغزلية كانت فضلا عن البيت الحادى عشر الذى كان بيت انتقال من الغزل إلى الغرض الرئيسى، فضلا عن أننى أشتم من قوله فى الشطرة الثانية من البيت الثالث أنه يتمسك بباب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - ويقف أمامه وهو يتحدث عن أحبابه وما كان من هجرهم وإعراضهم إلا أنه يقول: أنا أقف على الحمى الذى أبلغ سلامى، ولا يبعث السلام هكذا إلا إذا كان للنبى - صلى الله عليه وسلم - ولو استطاعت الضرورة الشعرية أن تلهيه عن أحبابه قليلا لكان قد بلغ الصلاة مع السلام، وعليه فوقفته مع المديح أطول وأغزر وأعطر فيما يفوح منها من ريح طيبة لا يتنسهما إلا من وقف أمام باب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - يمدح ويرسل شعره معبرا عما يدور فى نفسه ومكنون خاطره تجاه المقام الأسمى - صلى الله عليه وسلم -، إن الغزل أكثر من المديح فى عدد الأبيات ولكن المديح أكثر من الغزل فى المعانى التى تدفقت بها، وفى وزن هذه المعانى فى ميزان النقد والتذوق بهذه القصيدة، ولا نبعد كثيرا فأمامنا قصيدة مشهورة وهى قصيدة سيدنا كعب بن زهير نعرف غرضها وهو مدح سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصحابته إعلانا لتوبة الشاعر على النحو الذى يعرفه كل من قرأ هذه القصيدة، وهذا الغرض لم يسلك إليه إلا فى البيت الرابع والثلاثين بينما القصيدة ثمانية وخمسون بيتا، ومع ذلك نقول: إن قصيدة كعب بن زهير تتمثل فى الغرض الرئيسى لها وهو مدح الرسول - صلى الله عليه وسلم - وصحابته، ولذلك لم يؤثر فيه الحب شيئا، فإن هذا القدر من الغزل لم يبلغ من نفسه وفكره وعاطفته قدر ما بلغ المديح لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومن البيت الثانى عشر انتقل الشاعر دفعة واحدة من الغزل إلى الغرض الأساسى للقصيدة وذلك بعد ما كان الشاعر غارقا فى الحب والهيام والشوق والغرام فأقدم على الاستغاثة بباب الحبيب

المصطفى - صلى الله عليه وسلم - وإذا كانت الاستغاثة بالباب فكيف به مع صاحب الباب - صلى الله عليه وسلم - وإذا كان هذا الانتقال بشكل مفاجئ فإنه مع ذلك ليس بمثير للملل، بل جعل الشاعر انتقاله هذا مستصاغا لأنه تحدث عن حبه ثم انتقل إلى سيدنا النبى - صلى الله عليه وسلم - لكى يشكو له ما يعانيه المسلمون فى الهند، وحينئذ يكون هذا المديح صريحا من ناحية ومن ناحية أخرى يكون لونا من ألوان الاستنجاد برسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد تحدثنا عن هذا اللون فى المبحث الأول من الفصل الأول للباب الثانى، وبهذا أقدم الشاعر على الغرض الرئيسى وهو مدح سيدنا وحبيبنا المصطفى - صلى الله عليه وسلم -.

الشيخ عبد الله الجيتكر الكوكنى

الشيخ الفاضل عبد الله بن المفتى عبد القادر الجيتكر الشافعى الكوكنى، نسبة إلى كوكن، يقال فيه ما قلت فى الشيخ أحمد بن عبد القادر الكوكنى، والشاعر المترجم له ولد ونشأ بمعمورة بومبائى وقرأ العلم على صنوه الكبير الشيخ أحمد وعلى غيره من العلماء، وأسس دار الطباعة ببلدته لنشر الكتب العربية، وكان من أجواد الناس مشهورا فى الذكاء له قصائد غراء بالعربية، مات ببلدة بومبائى فى العام الخامس والعشرين من القرن الرابع عشر الهجرى وقتها كان شاعرنا فى الخامسة والخمسين من عمره تقريبا، ولم نستطع أن نعرف مدى معاصرتهما وذلك نظرا لعدم استطاعتى على الاطلاع على عام ولادة الشيخ عبد الله[١].

لم يصرح كاتب ترجمة الشيخ عبد الله بالديوان الشعرى له ولكنه قال بعد إيراد أربعة نماذج من قصائده: "وله غير ذلك من القصائد" كما قال فيما سبق: "له قصائد غراء بالعربية، الأمر الذى يدل على وجود ديوان شعر للشيخ عبد الله مطبوعا أو مخطوطا وبعد مطالعتى أبيات هذا الشاعر رأيت مرة أخرى لعله صاحب ديوان شعر عربى له، لذا رأيت من المناسب ذكره من بين الشعراء أصحاب دواوين الشعر العربى فى الهند فى العصر الحديث، ومما أحب أن أذكره قصيدة الشيخ عبد الله اللامية وهى كالآتى.

---

(١) نزهة الخواطر، للشيخ عبد الحى اللكنوى، ج ٧، ص ٢٩١.

قوله فى استنهاض قومه

دع ذكر ربـات الكليـل ... وذر الصبابة والغــزل
القلـب مشـغول فمــا ... للعشق فيه مــن محـل
يالرجـال ألـم تـروا ... مــاذا بقومكـم نــزل
هــل عـدة مـع عـدة ... نرجو بها دفـع الحلـل
قد عمنـا الـداء العضـا ... ل من البطالة والكسـل
داء أخــل بعقلنــا ... والجسم منه قد اضمحل

داء بــه فسـد المـزاج ... وفى الطباع بدا الخلـل
داء لقـد سـلب القـوى ... عنا وعـوض بالشـلل
داء تعطـل منـه إحسا ... ساتنا والخطـب جـل
خطـب أبـاد جموعنـا ... حتى وصفنـا بالفشـل
خطب لهول وقوعه الوالـ ... دان والسـهم اشـتغل
خطـب تزلزلـت الأرا ... ضى منه واندك القلـل
خطـب أقـام قيامـة ... قبل القيامة منـذ حـل
وارحمتـاه لحالنـا ... إذ نجـم عزتنـا أفـل
واخيبتـاه لقـد أحـا ... ط من الـذل والظلـل
ياللحميـة. اسـعدى ... فتسددى فينـا الوصـل
هـل تسـتقيم شـؤوننا ... والحبل منـا منفصـل
قد زال شـمس نـهارنا ... فى غفلة وبـدا الطفـل
فـالآن إن لـم ننتبـه ... هل بعد فينا مـن أمـل

لله يا قوم اتركوا كل التشاجر والجدل
ماذا التجاهل والتغافل والتساهل والمطل
بتعصب منكم لقد ضاقت جل الحيل
أدى تأخركم عن الأقران فى شر الغيل
ما عندكم غير اللسان وليس يتبعه عمل
إن الكلام بغير شغل كالبكاء على الطلل[١]

هذه قصيدة تفوح اجتماعيات، معانيها سلسة وطعمها لطيف فى سمع من يقرأها، ولكنها فى الحقيقة وطنية ترتدى عباءة اجتماعية، ولعل الشاعر يتقن هذا الكلام ويريد أن يقدم بهدوء كل ما يريد، ونلاحظ أن القصيدة تخلو من التصريع وهو مزاج عربى يغلب على الشعر فى مختلف العصور على أن الناظر فى أول القصيدة ربما يأخذ برأى بأن القصيدة لم يحذف منها شئ، والشاعر يستنهض قومه من نومهم كما حاول البارودى فى بعض شعره استنهاض أهل مصر وقيامهم للدفاع عن أنفسهم، وصد وإبعاد الآراء التى تدعوا إلى الجنوع والهزيمة، وإن كان البارودى يتسم فى استنهاضه هذا بالوطنية غير المستترة.

(١) نزهة الخواطر، للسيد عبد الحى اللكنوى، ج ٧، ص ٢٩٢، ٢٩٣.

مولانا عبد المنعم الشيتاغونغى

الشيخ الفاضل مولانا عبد المنعم الشيتاغونغى أحد العلماء المبرزين فى الفنون الأدبية، قرأ العلم على أساتذة المدرسة العالية بمدينة كلكته وبعد التخرج فيها قام بالتدريس فى مدرسة داكه [عاصمة بنجلاديش حاليا] وبالتالى فى شيتاغونغ، ثم عين ناظر المدرسة المحسنية بداكة، مات فى السنة الثالثة والثلاثين من القرن الرابع عشر الهجرى، أى قبل وفاة شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان بحوالى سبعة أعوام، كان المترجم له فاضلا كبيرا ذا براعة فائقة فى النحو واللغة والمعانى والبيان والعروض والشعر، له "تصويب البيان فى شرح الديوان" وهو شرح لديوان المتنبئ، وله ديوان الشعر العربى وبعض رسائل فى الأخلاق بالفارسية، وقد ذكر له المترجم بثلاثة عشر بيتا فى مدح عبيد الله وإن كان لم يبين من هو هذا الممدوح. أما فى المديح النبوى الشريف فقد ذكر له أبياتا ستا وهى كالتالى.

فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم

إليك رسول الله أهدى ثنائيا ... وأبغى به قربا وإن كنت نائيا

أقرب نفسى من جنابك سيدى ... عسى أن أرى روحا على البعد دانيا

عسى تكشف البلوى كم بك فرجت ... غوائل إذ نوديت أدرك غياثيا

أؤمل منك العطف عطف عواطف ... وإن كنت عما يجلب العطف قاصيا

فإنك شمس يستضاء بنورها ... وما كل شئ يقبس الضوء صافيا

أتيتك أرجو من نوالك رشحة   وما خاب مستسق أتى البحر صاديا[1]

نلاحظ الحكمة اللطيفة فى البيت الأخير، كما نلاحظ أنه ضمن بيته الخامس كلام كعب بن زهير - رضى الله عنه - فى قصيدته بانت سعاد، وهو قوله مخاطبا الرسول - صلى الله عليه وسلم - "إن الرسول لنور يستضاء به" ومن هذه الأبيات يبدو أمل الشاعر فى أن ينال فضل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أعتقد من نحو الشفاعة يوم القيامة، وغير ذلك أو الانتفاع بما جاء به النبى - صلى الله عليه وسلم - فى الدنيا، وما أكثر فضل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لو حاولنا أن ننهل من معينه.

(١) نزهة الخواطر، للسيد عبد الحى اللكنوى، ج ٨، ص ٣١٢، ٣١٣.

القاضى طلاء محمد البيشاورى

الشيخ العالم الكبير القاضى طلاء محمد بن القاضى محمد حسن الأفغانى البيشاورى، أحد العلماء المشهورين وصفه المترجم بأنه: لم يكن مثله فى زمانه فى معرفة الفنون الأدبية، نشأ وترعرع فى بيت العلم والمشيخة، تأدب فى دروبه وتفقه، ثم أخذ الحديث عن الشريف نذير حسين الدهلوى، المحدث المشهور، ولازم الشيخ صالح عبد الله بن محمد أعظم الغزنوى، وأفاد منه، له "نشر الطرب فى أشواق العرب" مجموع لطيف وواضح أنها مجموعة شعرية لطيفة، وله قصائد غراء فى نصر السنة ومدح أهلها، توفى إلى رحمة الله تعالى بمكة المكرمة فى السنة العاشرة بعد الثلاثمائة والألف للهجرة فدفن بالمعلاة، إذن هو معاصر لشاعرنا الشيخ أحمد رضا خان، فقد كان شاعرنا - موضوع البحث - ابن ثمانية وعشرين سنة تقريبا عند وفاة الشاعر الذى نحن بصدد الحديث عنه.

ومما نظمه فى المناجاة قوله

يارب ياسيدى يامنتهى أملى	مالى سواك لكشف الضر والضرر
ياربنا ارحم على فقرى ومسكنى	هب لى ذنوبى وباعدنى عن السقر
يارب أكرم على عبد سهى وأسى	فى الذنب منغمس فى الإثم منغمر
فكم سهى فى مشيب العمر واجبه	وكم أسى فى شباب غير معتكر
أنت الغنى فلا يخشى احتياجك فى	شئ وأنت الغنى عنى وعن وزرى
لا تتكرن بنا الدنيا بعونك يا	منجى الغريق عن الدمار ذى الخطر

ياخالق الخلق مالي من ألــوذ بــه	بغير فضلك عنـــد الحــادث الغــبر
ياسيدي ياإلـــه العــرش يـاأملي	ياغيــاثي وياكـــــهفي ومدخـــــرى
سبحان ربك رب العز عز وجـــل	عما يقول أولو الأهـــواء والنكـــر[1]

نلاحظ أن الشاعر عدى الفعل "ارحم" و"أكرم" بحـــرف الجـر وكلاهمـا لا يحتاجان إلى حرف الجر للتعدى إلى نصب المفعول به، وعليه فهنا حـرف الجـر زائد ولا داعى له وهذا عيب لا مبرر له، ونلاحظ كذلك عيبا فى كلمـــة "منغمـر" بكسر الواء فإن موقعها فى الجملة يحتمُ عليها الرفع، ولما كانت بالكسر كان ذلـك خروجا عما يلزمها الإعراب، وقد يعزى كسرها إلى ضرورة الشعر تجنبا الإقـواء ولكننى لا أستصيغ تلك الضرورة التى تدخل الكسرة على المبتدأ والتى يتعدى منـها الفعل بحرف الجر بينما لا يحتاج إليه، والأولى أن يبرأ شعر ذو الضـرورة مـن ضروراتهم شأنهم فى ذلك شأن العرب الذين لم يحتاجوا إلى الضرورة، وإن كنـت أرى أن حرف الجر (على) الذى أتى به فى البيتين الثانى والثالث للتعدى إنما قـد أتى به على سبيل الخطأ الذى يقع فيه بعض غير العرب حيـن يريـدون الكتابـة النثرية أو الصياغة الشعرية.

على كل شاعرنا هذا من الشعراء الذين أضافوا إلى المكتبة العربيـة ديـوان شعر عربى والذى استطعت أن أشم وأتذوق عبير أزهاره وهاكم بعض البيانات عن ديوانه العربى، يبلغ مجموع ديوان الشاعر القاضى طلاء محمد البيشاورى العربـى تسعة بعد السبعمائة والألف بيت ينتقل فيها الشاعر من غرض لآخر، وإنه تنـاول الأغراض الشعرية المختلفة فأجاد وأبدع.

---

(١) نزهة الخواطر، للسيد عبد الحى اللكنوى، ج ٨، ص ١٩٩ : ٢٠٢.

ويحدثنا الأستاذ الدكتور ظهور أحمد أظهر عن الأغراض الشعرية التى نظم بها مولانا طلاء محمد البيشاورى قائلا[1]: أما الموضوعات الشعرية التى تناولها البيشاورى وافتتن بها فعلى رأسها وصف النساء والتشبيب بهن والمديح والرثاء والحكمة والوعظ والزهد والتصوف وشعر المناسبات المختلفة وتقاريظ بعض الكتب المؤلفة فى عصره ولاسيما إذا كانت عن الحديث والمحدثين، وتفسير القرآن، والسيرة العطرة، والأخلاق النبوية الشريفة وما إلى ذلك من الموضوعات، ولن نكون من المبالغين إذا قلنا بأن أبرز الموضوعات الشعرية وألذها وأحلاها عند القاضى البيشاورى هو الغزل والتشبيب ووصف المرأة، وقد كثر ذلك فى شعره القليل حتى أنه لا يكاد يضيع فرصة متاحة لذلك، حتى تراه يدعى التفقه فى باب العشق والبراعة فى فنون الصبابة والغرام، وحتى أنه لا يريد شيئا من دنيانا الفانية هذه غير الحب العفيف والعشق البرئ والأعين السود، والثغور الضواحك للنسوة الحسان الفاتنات".

(١) مجلة المجمع العربى الباكستانى، العدد الخامس من المجلد الثانى، ص ٢١, ٢٢.

مولانا فضل الحق الخير آبادى

هو العلامة الكبير مولانا فضل الحق بن مولانا فضل الإمام العمرى الفاروقى القريشى الحنفى الجشتى الخير آبادى، ولد فى العام الثانى عشر من القرن الثالث عشر الهجرى، [يعنى بداية العصر الحديث] تلقى تعليمه الابتدائى من والده، ثم وجهه والده إلى الشيخ عبد العزيز الدهلوى، والشيخ عبد القادر الدهلوى، أكمل مولانا فضل الحق الخير آبادى دراسته وهو لم يتجاوز الثالثة عشر من عمره، ثم أخذ الطريقة الجشتية من الشيخ دهومن الدهلوى، وبعد إكماله دراسة العلوم السائدة آنذاك تصدى للتدريس والافتاء[١].

وإنه قام بدور ملموس وفعال فى الثورة الهندية فى دهلى وفى هذا يقول الدكتور عبد المنعم النمر[٢]: "وهو الذى خاض غمار الثورة الهندية فى دهلى وتزعم العلماء وأصدر الفتاوى، وخطب وحض على الثورة فى كل مكان، ولما انتصر الإنجليز على الثوار اعتقلوه ونفوه إلى جزائر إندومان فى خليج البنغال حيث توفى هناك". وكان ذلك فى العام الثامن والخمسين من القرن الثالث عشر الهجرى، الموافق للعام الحادى والستين من القرن التاسع عشر الميلادى"[٣].

---

(١) الأداب العربية فى شبه القارة الهندية، للدكتور زبيد أحمد، ص ٤٤٩.
وانظر: العلامة فضل حق الخير أبادى مع تحقيق كتابه الثورة الهندية، للدكتور قمر النساء (ط: المكتبة القادرية بلاهور ١٤٠٦هـ)، ص ٣١، ٤٩.
وانظر: تذكرة علماء أهل سنت (ذكر علماء أهل السنة) لمولانا محمد عبد الحكيم شرف القادرى. (ط: مكتبة قادرية لاهور ١٤٠٩هـ)، ص ٢١٠، ٢١١.
(٢) تاريخ الإسلام فى الهند، للدكتور عبد المنعم النمر، ص ٤٠٢.
(٣) نزهة الخواطر، للشيخ عبد الحى الحسينى اللكنوى، ج ٧، ص ٣٨٦.

ويحدثنا الشيخ يونس الشيخ إبراهيم السامرائى عن المكانة العلمية التى كـان يتمتع بها مولانا فضل الحق الخير آبادى فيقول[١]: "إنه كان آية فى الفهم والذكاء حتى صار حجة فى جميع العلوم والفنون، حاويا لنوادر الآداب العربية، فصيحا بليغا بين علماء الهند فى اللغة العربية، وصنف عدة مؤلفات ... وقد نظم أكثر من أربعة آلاف بيت من الشعر العربى معظمها فى مدح النبى- صلى الله عليه وسلم-".

كان مولانا فضل الحق الخير آبادى من أتباع الطريقة الجشتية - كما سبق أن ذكرنا - لذا كان إقدامه وتركيزه على المديح النبوى الشريف أكثر، ولكنه مع هذا تطرق للأغراض الشعرية الأخرى من الغزل، والخمريات، والوصف، والعتاب[٢]، وإن موهبة مولانا فضل الحق الخير آبادى لم تتجمد خلال النفى على الرغم من كل ما كان يعانيه من التعذيب النفسى والتنكيل خلال أيام النفى. فإنه تحدث عن الثورة الهندية حديثا صادقا مفعما بالحيوية ورقة العبارة، ولطافة الأسلوب، وكان كل ذلك باللغة العربية نظما ونثرا ثم ما أصابه فى منفاه، وقد امتاز أسلوبه بالسجع والتركيز[٣] لذا تصدت الدكتور قمر النساء لدراسة هذا الكتاب تحت عنوان: العلامة فضل حق الخير آبادى حياته ومآثره مع تحقيق كتابه الثورة الهندية وذلك لنيل درجة الدكتوراه من الجامعة العثمانية بحيدر آباد الدكن.

لقد ذكر الأستاذ عبد الشاهد الشروانى[٤]: "أن العلامة فضل الحق الخير آبادى كان يعرض أبياته العربية على الإمام عبد العزيز الدهلوى، بغرض الإصلاح".

---

(١) علماء العربية فى شبه القارة الهندية، للشيخ يونس الشيخ ابراهيم السامرائى، ص ٦٦٠.
(٢) انظر: العلامة فضل حق الخيرابادى، للدكتور قمر النساء، ص ١٩١ : ٢٤٧.
(٣) تاريخ الإسلام فى الهند، للدكتور عبد المنعم النمر، ص ٤٠٢.
(٤) باغى هندوستان (الثورة الهندية) تأليف العلامة فضل حق الخيرابادى، ترجمه إلى الأردية وقدم له وعلق عليه الأستاذ عبد الشاهد الشروانى (ط: الممتاز ببلى كيشنز، لاهور ١٤١٨هـ)، ص ٩٥.

لم يجمع شعر هذا المجاهد فى ديوان حتى اليوم وقد أحصيت شعره المتفـرق فوجدته يتمثل فى سبعة وثلاثين وثمانمائة بيت، ومن جيد قوله الذى أعجبت به مـا ذكره الشريف عبد الحى اللكنوى[1]:

"فؤادى هائم والجمـع هـامى — وسهدى دائم والجفـن دامـى
وقلب ما فتى يجـوى ولـوع — ولوع فى اضطراب واضطـرام
وجمع بل دم صرف جرى من — نيـاطى سـاجما اى انسـجام
وطرف ارمـد يؤذيـه غمـد — وليل سـرمد سـاجى الظـلام
طويـل لا يقـاس بـه ظـلام — فسـاعته كشـهر بـل كعـام
حمامى حاضر والوجـد بـاد — وجسمى ذابل والشوق نـامى"

وإننى أرى أن شعره العربى مفعم بالعاطفة القوية، ومتصف بظرف التركيب وروعة الخيال لعله يستلفت نظرة أى باحث.

---

(١) نزهة الخواطر، للشريف عبد الحى اللكنوى، ج ٧، ص ٣٨٦.

مولانا فيض أحمد البدايونى

هو الشيخ الفاضل فيض أحمد بن الحافظ غلام أحمد العثمانى الأموى البدايونى، أحد الفضلاء المشهورين فى عصره، ولد فى الثالث والعشرين من القرن الثالث عشر الهجرى الموافق للعام الثامن من القرن التاسع عشر الميلادى بمدينة بدايون، أكمل تعليمه على يد خاله مولانا فضل الرسول البدايونى، كما أخذ الطريقة من جده لأمه مولانا عبد المجيد البدايونى، وكان يتمتع بالذوق اللطيف فى الشعر، فقد تصدى للنظم بالعربية والفارسية والأردية، يتسم شعره باللغات الثلاث بجمال الفصاحة، وطابع البلاغة، وكان له ديوان شعر بالعربية، توفى إلى رحمة الله تعالى فى العام الرابع والسبعين من القرن الثالث عشر الهجرى أى بعد ميلاد شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان بحوالى سنتين، ولم يذكر له الدكتور زبيد أحمد شعرا إنما وجدت قصيدته المكونة من خمسة وعشرين بيتا فى نزهة الخواطر وكنا نود أن نطلع على بقية الديوان، ولم يعرض أحد لديوانه العربى ولا لعدد قصائده ولا لعدد أبياته رغم إطلاعى على أكثر من مرجع، وهاك بعض الأبيات انتقيتها بمشاعرى.

قال فى مدح الشيخ عبد القادر الجيلانى(١)

لا يفزعنك انواء وساعات ولا يهمك ايام وليلات

ولا تظن لنجم سعدا او نحسا فإنها لوجود الحق ايات

---

(١) انظر: الأداب العربية فى شبه القارة الهندية، للدكتور زبيد احمد، ص

وانظر: علماء العرب فى شبه القارة الهندية، للشيخ يونس الشيخ ابراهيم السامرائى، ص ٦٦٥

وانظر: نزهة الخواطر، للشيخ عبد الحى اللكنوى، ج ٧، ص ٣٨٩ : ٣٩١.

وانظر: تذكره علماء أهل سنت، لمولانا محمود أحمد القادرى، ص ٢١١، ٢١٢.

ولا تعلق بهجو الدهر والشهر ... فإنما هى اوقات وانات

تبارك الله لا سكر ولا صحو ... فياله من كئوس الوصل نشوات

راى الإله بعين الحق موجودا ... وليس طورا ولا شرط ولا ميقات

ملك السماوات اجرام منورة ... يحملن انواره فهى الزجاجات

وليس غيرك موجودا ومشهودا ... فكيف انفى ونفسى الغير إثبات

متى ولدت بارض الله ياغوثى ... تريد ان تلثم الارض السماوات

ومن راك راى المختار من مضر ... ولا هناك مراى ولا مرات

وكان فى مجلس التذكير شمس هدى ... وحوله اولياء الله هالات

كلامه ام شذى مسك وكافور ... انفساه ام من الاعجان نفثات

عليه من ربه لطف ومغفرة ... إليه منى تحيات زكيات

مولانا فيض الحسن الجهلمى

ولد هذا الشاعر فى السابع والعشرين من شهر جمادى الأولى من القرن الثالث عشر الهجرى، الموافق للعام الثالث والثمانين من القرن التاسع عشر الميلادى بمحافظة جهلم الواقعة فى باكستان حاليا، وكان ذلك قبل ميلاد الشيخ أحمد رضا خان - موضوع البحث - بما يقارب ثمانية وعشرين سنة.

تلقى مولانا فيض الحسن الجهلمى العلوم الإسلامية والعربية عن والده الفاضل مولانا أبو الفيض محمد حسن الفيضى الجهلمى، فقد نشأ وتربى على حب اللغة العربية وآدابها، وفى العام الخامس والعشرين اجتاز امتحان المولوى فاضل وخرج ناجحا منه بجامعة بنجاب [وأعتقد أن هذه المرحلة تعادل السنتين الأخيرتين من المرحلة الثانوية بالأزهر الشريف، وهذه الأيام أصبح ليس عليه الطلب] وبعد التخرج فى جامعة بنجاب أخذ الشاعر المترجم له يدرس العلوم الإسلامية والعربية بالجامعة النعمانية (الأهلية) بمدينة لاهور لفترة لا بأس بها.

كان مولانا فيض الحسن الجهلمى مثل والده مولانا محمد حسن الفيضى الجهلمى أديبا فريدا ذا براعة فائقة فى الأدب العربى وشاعرا متمكنا من نظم الشعر باللغة العربية، وكان قد اتخذ كلمة "الفيض" لقبا شعريا له واستخدمه فى الشطرة الأولى من البيت الأخير لكل قصيدة من قصائده كما اعتاد بذلك شعراء شبه القارة الهندية حتى يومنا هذا، ويمكننا أن نستنتج أنه ألف ديوان شعر بالعربية وإن لم يصرح به كاتب الترجمة ويرجع ذلك عند مطالعتى للقصيدتين اللتيتن إستطعت

دراستهما، أولهما فى مدح الشيخ الشريف مهر على شاه الكولروى فى عشرين بيتا، وثانيهما فى مدح الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان، وقد إكتفيت بذكر ثانى القصيدتين تجنبا الإطناب وهاكم مدح الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان.

كيف أثنيه جل من ثناء	مل فى وصفه حجى العلماء
جل عما نقول فيه كما جل	بأوصافه عن النظراء
إمامنا بل إمام كل إمام	وركن قصر الشريعة الغراء
حياة دين أبو حنيفة حيز	المكرمات وسند الأصفياء
كان والله روضة الدين فى	الغبراء أغصانه على الحضراء
قمر الفلك آفل كل يوم	ولذاك السكون وسط سماء
له به آفة إطحاق وإن لا	يبصر الفضل مقلة عمياء

تمم النظم أيها الفيض واستغفر

لما قد جنيت من أخطاء

توفى الشاعر المترجم له إلى رحمة الله تعالى فى السابع والأربعين من القرن الرابع عشر الهجرى الموافق الثامن والعشرين من القرن العشرين الميلادى، ويعنى ذلك أنه مات بعد وفاة شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان بسبع سنوات[١].

---

(١) انظر: تذكره أكابر اهل سنت، لمولانا محمد عبد الحكيم شرف القادرى، ص ٣٩٣ : ٣٩٧.

مولانا فيض الحسن السهارنفورى

ولد مولانا فيض الحسن بن مولانا على بخش القرشى الحنفى بمدينة سهارنفور فى العام الثانى والثلاثين من القرن الثانى عشر الهجرى الموافق للعام السادس عشر من القرن التاسع عشر الميلادى، وكان ميلاده فى أسرة متحمسة للدين الحنيف متوسطة الحال من أسر الفلاحين الممتلكين للأراضى الخصبة فى تلك المنطقة، وقد نشأ مولانا فيض الحسن كأبناء بلده من المسلمين فى جو دينى وفى بيئة صالحة بسيطة من القرويين، فقد كان أبوه مولانا الحافظ على بخش من كبار العلماء الأفاضل فى بلده فى ذلك الوقت، وكان من المتخصصين فى العلوم الدينية، كما أنه كان يجيد اللغتين الفارسية والعربية إلى جانب اللغة المحلية الأردية، فبدأ شاعرنا مولانا فيض الحسن يقرأ العلوم الابتدائية المتداولة على يد والده فأدب الوالد ابنه وأحسن تأديبه، ورباه فغرس فى قلبه حب الدراسة والاستطلاع والرغبة الشديدة الملحة فى اللغة العربية وآدابها مما مهد له السبيل ليحتل مكانة ممتازة بين أعلام الآداب العربية فى شبه القارة الهندية[١].

وكان من أعاجيب الزمان ذكاء وفطنة وعلما، لم يكن فى عصره أعلم منه بالنحو واللغة والأشعار وأيام العرب وما يتعلق بها[٢].

---

(١) ديوان الفيض، لمولانا فيض الحسن السهارنفورى / شرحه وحقق غوامضه وقدم له الدكتور ظهور أحمد أظهر (ط: المجمع العربى الباكستانى بلاهور ١٤١٦هـ)، ص ٣١.

(٢) نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، للسيد عبد الحى الحسنى اللكنوى، ج ٧، ص ١٠٣.

وفي بداية العام السبعين بعد الثمانمائة والألف كانت الكلية الشرقية بلاهور قد أنشأت على يد عميدها المؤسس الدكتور لايتنر المستشرق المجرى، وكان هذا المستشرق مولعا باللغات الشرقية وآدابها، كما أنه كان يكرم أهلها ويقدر علماءها، وكانت أنظاره تتجه دائما إلى المراكز الثقافية وتبحث عن العلماء الأعلام في أقصى نواحي البلاد فلفت نظره الشيخ فيض الحسن فوجه الدعوة إليه ليقوم بتنظيم القسم العربي للكلية ويرأس أعماله الإدارية إلى جانب الإشراف على البحث والتحقيق في اللغات الشرقية وخاصة بالعربية منها ... ولم يلبث الشيخ فيض الحسن أن يتسلم عمله بالكلية الشرقية بلاهور ويبدأ التدريس بها حتى أسرع طلاب اللغة العربية يأتون إليه من كل ناحية وصوب ويقبلون عليه إقبالا كبيرا ويستفيدون من معارفه الجمة، وكان يدرس في نفس الوقت بالكليتين بلاهور أي الكلية الشرقية والكلية الحكومية التي يقع مبناها بجوار مبنى الكلية الشرقية والتي هي أقدم الكليات وأكبرها واشهرها في مدينة لاهور[١].

إن له مصنفات جليلة ممتعة، منها حاشية على التفسير البيضاوى، وحاشية على ديوان الحماسة، وشرح بسيط على المعلقات السبع، ومصنف جليل في الأنساب وأيام العرب، والتحفة الصديقية رسالة في شرح حديث أم زرع، وديوان شعر يشتمل على قصائد عربية غراء، توفي شاعرنا هذا في الرابع من القرن الرابع عشر الهجرى، الموافق للسابع والثمانين من القرن التاسع عشر الميلادى[٢].

إن ديوان مولانا فيض الحسن السهارنفورى مفعم بشتى الأغراض الشعرية من الغزل والمدح، والرثاء، والهجاء، والفخر، والحمد لله تعالى، والمناجاة فقد افتتح

---

(١) ديوان الفيض، لمولانا فيض الحسن السهارنفورى، ص ٣٦، ٣٧، ٣٨.

(٢) نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، للسيد عبد الحى الحسنى اللكنوى، ج ٧، ص ١٠٤.
وانظر: ديوان الفيض، لمولانا فيض الحسن السهارنفورى، ص ٣٨.

الشيخ ديوانه حامدا لله تبارك وتعالى بقصيدة تقع فى تسعة عشر بيتا وأردف ذلك بالمديح النبوى الشريف وتشتمل هذه القصيدة على خمسة وثلاثين بيتا، "أما الديوان فيضم ستا وستين قصيدة ومقطوعة بين طويلها وقصيرها منها الأراجيز وغير الأراجيز، وإن أطول قصيدة من قصائد الديوان هى ميمية الفيض التى تشتمل على واحد وخمسين بيتا، وقد رثى بها شيخه وأستاذه العالم العلامة والشاعر المناضل الشيخ فضل الحق الخير آبادى[1] ومجموع هذا الديوان يتمثل فى أربعة وثلاثين بعد الستمائة والألف بيت، ونلاحظ أنه تأثر جدا بالشعر الجاهلى فى اصطفاء الألفاظ والتعابير والمعانى والأفكار، ونجده من وقت لاخر يعارض شعراء العربية على مر العصور بكل براعة وإتقان، وأما عن أروع ما نظمه مولانا فيض الحسن السهارنفورى فيحدثنا عنه أستاذنا الدكتور ظهور أحمد أظهر قائلا[2]: "ومن أجود شعر الشيخ فيض الحسن السهارنفورى قصيدته الدالية التى عارض بها معلقة طرفة بن العبد البكرى، وهذه المعارضة الشعرية الفيضية فى الوقت نفسه لطيفة ورائعة جدا، فهى من ناحية تذكرنا بالتقاليد الشعرية التى يمتاز بها الشعر العربى عبر العصور ... ومن ناحية أخرى تبرز لنا أروع المعارضات الشعرية، وذلك إن دل على شئ فإنما يدل على براعة الفيض وعبقريته النادرة، وموهبته الشعرية الفائقة، وقدرته العجيبة على معرفة لغة الضاد، كما يدل على عنايته واهتمامه بنماذج الشعر العربى القديم، وخاصة بما ضمنته المجاميع الشعرية المعروفة، وما احتفظت به مصادر الشعر الجاهلى كالمعلقات والمفضليات [والأصمعيات] وحماسة أبى تمام وغيرها من المراجع والمجموعات الشعرية".

---

(١) ديوان الفيض، لمولانا فيض الحسن السهارنفورى، ص ٤.
(٢) المرجع السابق، ص ٧، ٨.

وعند إقدامنا على تقديم النموذج من شعر مولانا فيض الحسن السهارنفورى رأينا أن نتقدم بقصيدته الدالية التى نظمها فى مدح النبى - صلى الله عليه وسلم - إن القصيدة عبارة عن خمسة وثلاثين بيتا وكنت أود أن أذكرها كلها لأن كل بيت من أبياتها يستلفت الانتباه ويرتبط بعضه ببعض، وكان فيه شئ من التسلسل اللطيف، ولكنى إصطفيت منها عشرة أبيات حتى لا يكون كثيرا على القارئ الكريم، كانت الأبيات العشرة الأولى فى الغزل استهل به الشاعر قصيدته على غرار شعراء الجاهلية، وضع من الخمسة الآخرين معبرا ينتقل خلاله من الغزل إلى الغرض الرئيسى وهو المديح النبوى الشريف، ثم يتحدث عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأحسن ما يكون الحديث، قد رأيت أن انتخب من هذه الأبيات بيتا فى جوده - صلى الله عليه وسلم - وبيتا فى أنه الغيث الذى يطمع فيه الشاعر ككل مسلم، فلا غيث مثل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا جود مثل جوده - صلوات الله وسلامه عليه - وبعد ذلك ينتقل إلى الهدف من وراء هذه القصيدة ويظهر مطمعه وأمله، وهو شفاعة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم القيامة، ويمضى فى ذلك أربعة أبيات وسوف أختار منها أبياتا رأيت أنها أكثر فيضا بالعاطفة، تفوح الشاعرية - فى نظرى - من خلالها وهذه هى الأبيات المنتخبة.

أبيت وبى كرب السليم المسهد	وارق فى صحب ينام كـهمد
وليت به مما عرانى وليتهم	"يقولون لا تهلك أسى وتجلد"
أراعى نجوما راكدات كأنها	صخور تراها فى جوانب فرقد
على طول هم مقلق وتململ	وكرب على كرب مقيم ومقعد
بلغت من الكرب المبرح غاية	أرى دونها إن قام عنى عودى
فدائى عيـاء لا أرى شافيا له	سوى أن أصلى الدهر وهو قدى

علــــى آل ختــم المرســـلين فإنـــه ۔۔۔ شفاء على ما قال شيخى ومرشـدى

فـها أنا و التوفيـــق هـــاد ومنـــهجى ۔۔۔ قويـــم ورأيـــى مســـتقيم ومــــهتد

أصلى على خــــير الأنـــام وســـيد ۔۔۔ الكرام وختــــم المرســـلين محمــد

هو الجود كل الجود لا جود دونـــه ۔۔۔ فطوبى لمن يرجوه من هـــالك رد

هو الغيث كل الغيث لا غيث مثلـــه ۔۔۔ يروى لمن يدعوه من ظمى صـــد

أصدق فيك الظـــن أنــك نــاصر ۔۔۔ لمثلـــى ومثلـــى معتـــدى معتـــد

فخـــذ بيـــد منـــى وجـــد شــفاعة ۔۔۔ علـــى وأيدنـــى وأنـــت مؤيـــــد

أتيتك فـــــى قـــوم عصــــاة مقدمـــا ۔۔۔ فلا تخزنى فيهم برد ومطـــــرد[1]

---

(١) ديوان الفيض، للشيخ فيض الحسن السهارنفورى، ص ٥٨، ٥٩، وموضع هذه الأبيات المنتخبـــة من القصيدة كالتالى: ١، ٢، ٣، ٤، ١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٧، ١٨، ٣٠، ٣٤، ٣٥.

مولانا محمد سليم الجونفورى

هو الشيخ الفاضل محمد سليم بن محمد عطاء الجونفورى، أحد العلماء المبرزين فى العلوم الأدبية، ولد فى السنة الثانية والعشرين من القرن الثالث عشر الهجرى ببلدة "مجهلى شهر" ونشأ بها، وقرأ العربية على المفتى على كبير بن على محمد، ثم لازم القاضى محمد شكور بن أمانت على، وقرأ عليه أكثر الكتب الدراسية، كما قرأ بعضها على مولانا رحمت الله الكابلى، ثم ولى القضاء وتدرج إلى الصدارة، وكان ذلك منتهى آمال أهل الهند فى عصره فى عصر الاحتلال الإنجليزى.

توفى إلى رحمة الله تعالى فى أول ليلة من جمادى الأولى من السنة السادسة والستين من القرن الثالث عشر الهجرى، الموافق للعام التاسع والأربعين من القرن التاسع عشر الميلادى.

وله مؤلفات عدة فى شتى العلوم، أما فى الأدب العربى فله رسالة تحمل أسم "ميزان الوافى فى العروض والقوافى" أما عن شعره العربى فقد نظم قصائد عربية وأبياتا كثيرة بالعربية(١) وكم كنت أود أن أجد له بعض الشعر ولكننى لم أجد مع أننى إطلعت على أكثر من مرجع.

(١) انظر: نزهة الخواطر، للشيخ عبد الحى الحسنى اللكنوى، ج ٧، ص ٤٥٣.
وانظر: الآداب العربية فى شبه القارة الهندية، للدكتور زبيد أحمد، ص ٤٤٨.

مولانا محمد حسن الفيضى الجهلمى

هو أبو الفيض مولانا محمد حسن الفيضى الجهلمى بن نور حسين الجهلمى، لم أستطع الاطلاع على عام ولادته رغم نظرتى فى أكثر من مرجع، وكل ما عرفنا عنه أنه تلقى تعليمه على يد أكابر علماء عصره وبرع فى العلوم الإسلامية والعربية، وكانت له اليد الطولى فى الأدب العربى وبراعة فائقة فى نظم الشعر العربى حيث كان يعد فى مرتبة الشعراء المتقدمين - على حد قول المترجم - فقد نظم فى علم الميراث كتابه المسمى "القرائض الفيضية فى الفرائض والولاء والوصية" وله غير ذلك من القصائد العربية ما بين المطبوعة والمخطوطة، التى تدل على محبته للغة العربية وايثارها بالتأليف عن غيرها، كما تنبئ عن تمكنه من أن يصوغ بها مختلف العلوم، وإن كان ذلك أقل من الجهد الذى بذله فى علم الميراث، وحديثه عن علم الفرائض يدل على براعته الشعرية وحسن الصياغة عنده.

ومما يدل على براعته فى الأدب العربى أنه صمد فى وجه المتنبئ القاديانى الميرزا غلام أحمد القاديانى، وذلك حينما قام المتنبئ القاديانى بتحدى علماء الدين الحنيف، وادعى بالبراعة المعجزة فى تفسير القرآن الكريم وكتابة اللغة العربية نظما ونثرا، فكان مولانا محمد حسن الفيضى من بين من تصدوا لادعاءات المتنبئ القاديانى وذلك فى العام التاسع والتسعين من القرن التاسع عشر الميلادى، بقصيدة معجمة، واجتمع مع غلام أحمد القاديانى وطلب منه شرح القصيدة للمستمعين قائلا: إذا كنت نبيا يوحى اليك فيكفينى تصديقا لك أن تشرح قصيدتى للحضور، ولكن

المتنبئ القادياني لم يفهم شيئا من القصيدة حتى بعد إطالة النظر فيها أيضا، وقدمها إلى أحد أصحابه الملمين بالعربية ليبين المعنى ولكنه أيضا لم يتمكن من أن يفهم شيئا من القصيدة، فردها المتنبئ القادياني إلى ناظمها قائلا: لم نفهم منها شيئا وترجم لنا هذه القصدة إلى الأردية، وهاكم بعض أبيات هذه القصيدة، ولم يذكر المترجم إلا ثلاثة أبيات فقط من هذه القصيدة.

لمالك حمده حمد سلام	على مرسوله علم الكمال
حمود أحمد ومحمد و	طهور مع أولاء وآل
أما مملوك أحمد أهل علم	وإلهام وحلال السؤال

ومما تجدر الإشارة إليه أن الشاعر أشار إلى إسم المتنبئ القادياني الميرزا غلام أحمد القادياني، بكلمتي "مملوك أحمد" دون أي نقطة على حروفهما، ومع ذلك لم يستطع مدعي النبوة ونزول الوحي عليه أن يتبين شيئا من القصيدة حتى موطن اسمه.

وفي شهر مايو من العام التاسع والتسعين من القرن التاسع عشر الميلادي قام مولانا محمد حسن الفيضي بتحدي المتنبئ القادياني قائلا: إذا كنت صادقا في عقائدك فتعال إلى مدينة جهلم حيث نناقش في أمرك شفهيا شئت أو تحريريا، باللغة العربية استطبت أو باللغة الفارسية، نظما أو نثرا، تفضل أسمعني أدلتك واسمع أدلتي ولكن المتنبئ القادياني لم يتمكن من الحضور لمواجهة هذا التحدي ولاذ بالصمت رغم ادعائه بنزول الوحي عليه.

توفى مولانا محمد حسن الفيضى إلى رحمة ربه فى شهر رجب من العام التاسع عشر من القرن الرابع عشر الهجرى الموافق للعام الأول من القرن العشرين الميلادى وذلك قبل وفاة شاعرنا بحوالى واحد وعشرين عاما.

ومن شعره قوله فى مدح الشيخ الشريف مهر على شاه الكولروى[1]:

سقى الله ديمات التحيات دائما ... ديار كريم طيب الشيمة المهدى

عليه سلام الله ربى ورحمته ... إلى أن يدور النيرات على الرشد

وأنت طبيب القلب لازلت مرشدا ... وتسقى عطاشا من حليب ومن شهد

وبعد فقد ابنا إليك محبة ... أمرنا بها وهى الوسيلة للعبد

وناظم هذا الحرف خادم بابكم ... رجاء له منك الجميل من الرفد

وكم غائب أصفى وأحلى مودة ... من الحاضرين الآخذين من السفد[2]

---

(١) هو الشريف الحسيب الشيخ مهر على شاه الكولروى الكيلانى، يمتد نسبه من جهة أبيه إلى سيدنا الشيخ عبد القادر الجيلانى وبالتالى إلى سيدنا حسن بن سيدنا على، ومن جهة أمه إلى سيدنا الحسين بن سيدنا على رضى الله عنهم، ولد المترجم له فى العام الرابع والأربعين من القرن الثالث عشر الهجرى الموافق للعام السادس والخمسين من القرن التاسع عشر الميلادى، ولما شب قرأ العلوم الابتدائية على والده الشيخ الشريف نذر دين وعلى خاله الشيخ الشريف فضل دين، ثم أخذ ينتقل من قرية إلى أخرى يروى ظمأه العلمي واستمرت رحلاته العلمية حتى أكمل دراسة العلوم الاسلامية والعربية المعهودة انذاك فى العام الثالث والتسعين من القرن الثالث عشر الهجرى. الموافق للعام الخامس والسبعين من القرن التاسع عشر الميلادى، أخذ الطريقة الجشتية النظامية من الشيخ شمس العارفين السيالوى كما أجازه فى الطريقة الجشتية الصابرية الشيخ إمداد الله المهاجر المكى. توفى بعد حياة حافل بالتدريس والارشاد ومحاربة البدع وذلك فى السادس والخمسين من القرن الرابع عشر الهجرى. الموافق للسابع والثلاثين من القرن العشرين الميلادى. نظر : علماء العرب فى شبه القارة الهندية، للشيخ يونس الشيخ إبراهيم السامرائى، ص ٨٦٧، ٨٦١.

(٢) تذكره اكابر اهل سنت، لمولانا محمد عبد الحكيم شرف القادرى، ص ٤٥٤:٤٥٨ (ملخصا).

الشريف ناصر حسين اللكنوى

الشيخ الفاضل الشريف ناصر حسين الكنوى بن السيد حامد حسين اللكنوى أحد علماء الشيعة وكبارهم، ولد ببلدة لكنوء يوم الخميس لتسع عشرة خلون من جمادى الأخرة من العام الرابع والثمانين بعد المائتين والألف للهجرة، نشأ في مهد العلم وقرأ نهج البلاغة على والده سبع مرات مما أهله لأن يحفظ أكثر الكتاب. وفي أثناء ذلك كان يختلف إلى المفتي عباس بن علي الحسيني التسترى ويأخذ عنه الفنون الأدبية والمعارف الحكمية حتى برع فيها وفاق أقرانه، ورث الشريف ناصر حسين عن أبيه مكتبته الحافلة بنوادر الكتب ومخطوطات المؤلفين، وحافظ عليها وزاد فيها الكتب حتى عرفت بإسمه "بالمكتبة الناصرية" وأمها العلماء والباحثون من بلاد بعيدة، وله عدة مصنفات منها ديوان شعره، ولم يوضح كاتب ترجمته ما إذا كان ديوان الشعر هذا بالعربية أو بلغة أخرى، وأرى كأنه قصد ديوان الشعر بالعربية وذلك نظرا لتتلمذ السيد ناصر حسين اللكنوى على يد المفتي عباس بن علي الحسيني التسترى، فقد عرف عنه شغفه باللغة العربية وآدابها، وقد نص السيد عبد الحي اللكنوى أن الشاعر أخذ عن أستاذه ضمن ما أخذ من الفنون الأدبية[١] ذكر المترجم له عشرين بيتا في مدح سيدنا علي - رضي الله عنه - على أنني أرى أنه اكتفى بذكر المقدمة الغزلية فقط ولم يذكر أبيات المديح، وانتقيت من هذه المقدمة الغزلية ستة أبيات كنموذج، وهاكم هذه الأبيات المختارة.

(١) نزهة الخواطر، للسيد عبد الحي اللكنوى، ج ٧، ص ٤٨٨.

ومن قوله فى مدح سيدنا على "رضى الله عنه"

رجف الفؤاد بلذع حب معنسف
من ناحل صب كئيب مدنف

كلف بخالصة القلوب خريدة
ترنو بلحظ كالصوارم مرهف

اصمت له قلبا معنى بالجوى
إذ ارسلت طيفا بليل مغضف

قد بات فيه يمص ريقا سلسلا
اهنى واشهى كاحتساء القرقف

من بعد جفوتها وطول صدورها
سمحت بذلك فصارت كالمترسف

حتى إذا صاحت الديوك وخفقت
زهر النجوم درى بان لم تسعف

مكانــة شــاعــــــرنا
بين معاصريه من شعراء العربية فى الهند

بعد محاولتى دراسة تراجم شعراء العربية المعاصرين لشاعرنا الشيخ أحمد رضا خان فى الهند وذكرى بعض النماذج من شعرهم العربى، أرى من المناسب إلقاء بعض الضوء على مكانة الشاعر بين هؤلاء الصفوة المختارة من شعراء العربية على الساحة الهندية، فقد لاحظنا أن شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان كان - ومازال - فى طليعة شعراء العربية فى الهند من حيث اهتمام الباحثين بدراسة جوانب شخصيته.

لقد سبق أن قلت: إن الهنود أقبلوا على دراسة اللغة العربية حتى بلغ بدراسة بعضهم أن انسجمت دراسته وإلماماته بهذه اللغة ومعرفته لها مبلغا لا بأس به، وقد كان لدى بعضهم الموهبة الشعرية فتفاعلت موهبته مع معرفته فقال بها شعراء، ويأتى الشيخ أحمد رضا خان على قمة هؤلاء فهو قلادة العقد حيث إنه أخذ هذه الصفوة كلها، واستطاعت موهبته أن تتبوأ مكانتها وسط هذا اللفيف الذى عرضنا لذكره، ربما يكون قد التقى ببعضهم كثرة وقلة على حسب ما أشرنا إليه أثناء الكلام عن حياة شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان ولكنه على كل حال بز هؤلاء فى نظرى وتفوق عليهم وكانت لله الغلبة، وإن لم تقع مساجلات بين شاعرنا وبين هؤلاء مجتمعين، إما بسبب الزمان أو المسافة وإما للانشغال الفكرى بما كان عليه شاعرنا من عمله بالفتيا من ناحية والتصنيف والتدريس من ناحية أخرى، وانشغاله بالسياسة على النحو الذى أشرنا إليه، المهم أنه ربما لم يكن قد اطلع على شعر بعضهم ولكنه على كل حال تفوق عليهم كما هو فى نظرى وكما حاولت أن أثبت له ذلك حين

أعرض لرأى قيل فى شعره العربى وعن شخصه، ولا يفوتنا أن نذكر ما لموهبته الشعرية من قيمة مما جعلنا وقد رأيناه ينظم الشعر بأكثر من لغة، وذلك لتمكن الموهبة الشعرية من نفسه، ولكن انسجام شاعرنا مع لغة الدين، مع لغة الإسلام، مع لغة العرب دفعه لأن يقول الشعر أكثر من أن يقوله بغيرها، لأنها كانت لغة ثقافته، وقد طرأت عليه لأنه لم ينشأ فى البيئة العربية إنما نشأ وترعرع فى كنف العلماء والمثقفين بالهند، فأخذ العربية أخذ ثقافة وليس أخذ لغة الأم، شأنه فى ذلك شأن أهل الهند كلها، ومما هو معلوم أن شاعرنا أخذ اللغة الأردية أخذ لغة الأم فنظم بها، ثم تعلم الفارسية وقال بها شعرا ولكنه ما لبث أن قال بالعربية فأبدع وأفاض، وكان كالنهر الجارى، إذا فهى لغته الثالثة التى سبقت لغتيه الأوليين، إنها العربية التى تمت إلى العقيدة الإسلامية بصلة وثيقة، إنها العربية بجمالها وسحرها ورونقها وفن القول بها فى الجملة تركيبا، وتعبيرا، ونسجا، وصياغة، كما أن من فخرها أنها لغة أحب الأحباب، إنها لغة سيدنا ومولانا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – هادى البشرية إلى خيرها ونجاتها فى الدنيا والآخرة، ومهما تحدثنا عن العربية فلا نستطيع أن نفيها حقها، وأنى لنا ذلك وقد سبقنا المئات بل الألوف وأين نحن منهم؟! ولكنها على كل حال لغة الباحث الثالثة أيضا، ولعلى أتفق مع شاعرنا فى هذه النقطة، وليتنى أستطيع أن أقف فى صفه فيكون لى بعض الشرف فى الإسهام بوضع سطور فى مكتبتنا العربية ليتنى أستطيع ذلك.

لقد كتب لشعر الشيخ أحمد رضا خان أن يجمع على يد أحد أبناء الأزهر الشريف[١] ويطبع له ديوان شعر عربى بعد مرور أكثر من سبعين سنة على وفاته، وقد حاولت أن أعرض لأغراضه الشعرية فى الباب الثانى من هذا البحث،

---

(١) وهو الأستاذ حازم محمد أحمد المحفوظ، الأستاذ المساعد بكلية اللغات والترجمة قسم اللغة الأردية وادابها. جامعة الأزهر.

ولم أستطع الإطلاع على دواوين شعر للشعراء الذين تناولت ذكرهم آنفا، وذلك لأن دواوين الشعر لبعضهم لم تحظ بالطباعة، وبعضها الآخر طبعت ونفدت نسخها، ولم يتيسر لي الوصول إليها، إلا أننى استطعت أن أطلع على ثلاثة دواوين من الشعر للشعراء الذين أشرت اليهم آنفا، أولهم مولانا فيض الحسن السهارنفورى، وثانيهم مولانا أصغر على الروحى، وثالثهم القاضى طلاء محمد البيشاورى.

نرى أن اللغة العربية حظيت لدى شاعرنا بما لم تحظ به لغتاه السابقتان - الأردية والفارسية - اللتين عرفهما شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان، وأرى أنه كان يعرف الإنجليزية أيضا ولكنه أقلع عن الإنجليزية إقلاع من يجهلها تماما، وقد سبق أن أشرت إلى ذلك وبينت وقدمت الدليل على معرفته اللغة الإنجليزية، ولكنه لم يقل بها شعرا، وقد تناساها تماما وتعامل معها باعتبار أنه لا يعرف من الإنجليزية حرفا واحدا فكيف يقول بها الشعر؟! وإنما بلغ من بغضه للإنجليزية أنه تغاضى وترفع لسانه عن أن ينطق بها أبدا لأنه لغة من احتل أرض الهند وحاول أن يناهض الإسلام والمسلمين فى الهند.

يلتقى شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان مع سراج الهند الإمام عبد العزيز المحدث الدهلوى، والشيخ رفيع الدين الدهلوى ابنى الإمام ولى الله الدهلوى، كما يلتقى مع مولانا عبد المنعم الشيتاغونغى فى نظم المديح النبوى الشريف منهجا، وعقيدة، وعاطفة، فإننا نجد عند كل هؤلاء الأربعة أسلوب التوسل بالرسول - صلى الله عليه وسلم - كما نرى قلوبهم عامرة بالحب النبوى الشريف الذى يفوق حب الأولاد والآباء وكرائم الأموال والناس، فقد اتخذ شاعرنا من شعره تعبيرا عن العاطفة، حبه للرسول - صلى الله عليه وسلم - مرة وهذا رأى الحب عنده، وحبه لشريعته وأتباعه من العلماء الصالحين مرة أخرى، وشعراء العربية مرة ثالثة، ويعنى هذا الجانب كله من شخصية شاعرنا أنه أحب دينه ونبيه - صلى الله عليه

وسلم - وأتباعه، وأحب أولئك الذين تغنوا باللغة العربية الرصينة من شعراء العربية، وقد حاول أن يقلد بعضهم أو يعارضهم على نحو ما يمكن أن نستنتج من خلال البحث كله.

ولما كان الشعر ترجمة عن الإحساس ينبع من عاطفة تفيض بالإنسجام مرة وبالعقل أخرى وبالإحساس ثالثة، وعاطفة شاعرنا تخرج من قلب أفعم بالعلم والحكمة والانشغال بتحصيل العلم ومختلف الفنون التى عدها بعض المؤرخين لسيرته خمسة وخمسين علما وفنا، لابد أن يكون لهذا الشاعر أثره ولهذه الثقافة وهذه العلوم والفنون التى انشغل بها شاعرنا، لابد أن يكون لها أثرها فى شعره على نحو ما وجدناه عند شاعرنا، فإن القرآن عنده النسيج الذى يجب أن يغترف منه كل راغب فى الثقافة لأننا وجدنا القرآن والحديث قد اقتبس منهما شاعرنا فى شعره الكثير، لا تكاد تقرأ له قصيدة من القصائد حتى تحس بثقافته الدينية والاقتباس من القرآن تارة والحديث أخرى بمختلف ألوانه، وإنه عبر فى شعره عن التحلى بسلوك الإسلام فقها وغاية وعقيدة وشرعة ومنهاجا الأمر الذى يؤدى إلى النجاة فى الآخرة وما يحصل عليها من أرفع الدرجات ومجاورة الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - والانضواء تحت لواء شفاعته - عليه الصلاة والسلام - ورجل اعتمد هذا المنهج فى شعره جدير أن نقول إنه له الغلبة على غيره من الشعراء، ولا ندرى أن كنا سوف نجد شاعرنا يضاهيه أو يقرب منه درجة، هذا ما ستكشف عنه الأيام.

آراء العلماء ونقاد الأدب العربى

حاز شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان مكانة مرموقة بين فقهاء الأحناف فى الهند، وذلك لأنه كان من المتخصصين فى الفقه الحنفى، ومع ذلك فقد كان - بفضل عبقريته التى أكرمه الله تعالى بها - موفقا فى مجال الشعر والأدب بلغات ثلاث، العربية والفارسية والأردية، وله ثلاثة دواوين شعرية بهذه اللغات، وكان التوفيق حليفه فى الجمع بين عصارة علومه الكثيرة وعاطفته الشعرية الفياضة، فقد ارتضع حب اللغة العربية وآدابها منذ صباه، ونمت هذه المحبة مع نشأته، كما ظلت ثقافته الإسلامية والعربية فى تطور وازدهار مستمرين مع مرور الوقت، كان الدين مصدر حبه للغة العربية وآدابها، كما كان حب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - من أكبر الدوافع إلى شغفه البالغ بالعربية، ولقد استلفتت براعته فى اللغة العربية وآدابها نظر النقاد إليها فلننتقل إلى أراء علماء العربية ونقادها فى الأدب العربى لشاعرنا - نظما ونثرا - والموازنة بينه وبين معاصريه من شعراء العربية بكل إيجاز، والى الحديث الموجز عن مدى تأثير شاعرنا فى شعراء العربية الهنديين المعاصرين له وحتي يومنا هذا.

نبدأ حديثنا عن النقطة الأولى والتى تتضمن آراء علماء العربية الذين عاصروه، والذين تذوقوا شعره العربى في عصرنا الراهن، سواءً كانوا من الحجاز أو مصر المحمية أو شبه القارة الباكستانية الهندية، فلنبدأ بآراء علماء العربية من الحرمين الشريفين فى براعة الشيخ أحمد رضا خان فى اللغة العربية، لقد أثنى علماء العرب المعاصرون للشيخ أحمد رضا خان على أدبه العربى وذلك

عند قيام شاعرنا برحلته للحج فى المرة الثانية، فقد صنف باللغة العربيـــة بعـض الكتب خلال إقامته بالحرمين الشريفين، فقال الشيخ أحمد أبو الخــير مــرداد عنـد مطالعته "كفل الفقيه الفاهم فى أحكام قرطاس الدراهم" تأليف الشيخ أحمـــد رضـا خان[١]: "الحمد لله على وجود مثل هذا الشيخ، فإنى لم أر مثله فى العلم و الفصاحـة وسعة الباع مع حسن سبك العبارة".

وقال الشيخ السيد مأمون المدنى فى شأن فصاحة الشيخ أحمد رضا خــان[٢]: "صاحب القلم الأسحار، و الكلام الفائق لطفه على نسيم الأشجار".

و امتدحه الشيخ على بن حسين على بعض مؤلفاته العربية فقال[٣]:

ذا خبرة مولى المعارف والـهدى ... رب البلاغة من به الدنيا زهـت

أبدى معانى المشـــكلات بيانــه ... ببديع منطقه الجواهر نظمــــت

ويتحدث الشيخ أحمد محمد الحدادى المكى عن لغة الشيخ أحمد رضا خان فى بعض مؤلفاته العربية فيقول[٤]: فوجدتها شذرة من عسجد، وجوهرة مـــن عقــود، ودررا من ياقوت وزبرجد".

---

(١) خطاب السيد إسماعيل بن خليل - حافظ كتب الحرام بمكة المكرمة - تحريرا فى ١٢ رجب مــن عام ١٣٣٤هـ. المطبوع بين دفتى رسائل رضوية، للشيخ أحمد رضا خان، ج ٢، ص ٢٦٢.

(٢) خطاب الشيخ مأمون المدنى إلى الشيخ أحمد رضا خان المطبوع بين دفتى رسائل رضوية، للشيخ أحمد رضا خان، ج ٢، ص ٢٦٦.

(٣) وقع اختيارنا على البيت الحادى والأربعين والخامس والأربعين مـــن قصيــدة قوامـــها أربعــة وخمسون بيتا. انظر: حسام الحرمين، للشيخ أحمد رضا خان (ط: رضوى كتب خانــــه، بريلـــى ١٩٥٩م)، ص ١٤٢، ١٤٤، ١٤٦.

(٤) المرجع السابق، ص ١٧٠.

ويتحدث الشيخ أسعد بن الدهان المكى عن تمكن الشيخ أحمد رضا خان من ناصية اللغة العربية فيقول[١]: "العلامة الذى افتخرت به الأواخر على الأوائل، الفهامة الذى ترك بتبيانه سحبان بأقلا".

ويدلى الشيخ عبد الرازق بن عبد الصمد القادرى بدلوه فى فصاحة شاعرنا فيقول[٢]: "ويذعن بفصاحته كل ناظم وناثر".

هذه آراء علماء الحجاز فى تمكن شاعرنا من اللغة العربية ومدى فصاحته فيها، ولننتقل الآن إلى آراء بعض النقاد المحدثين فى الأدب العربى لشاعرنا الشيخ أحمد رضا خان، يقول الدكتور حسين مجيب المصرى فى هذا الصدد[٣]: "إن الشيخ أحمد رضا خان نظم فى العربية والفارسية والأردية والهندية على حين عالج اقبال نظم القريض فى لغتين اثنين، وشعر اقبال صورة واضحة المعالم لأفكاره ومبادئه التى كتب لها الذيوع فى الآفاق، وهو مصلح دينى اجتماعى بكل ما تنطوى عليه الكلمة من معنى، ويختلف الشاعران فى أسلوبهما، فأحمد رضا يتوخى تمام الوضوح ولا يجنح إلى استخدام البديع إلا بمقدار، ويأبى أن يكون كلامه مستغلقا لا يحيط بشئ منه إلا الراسخون فى العلم، لأنه ينطق عن الدين والدين حقائق ثابتة للناس كافة لا يسع كائنا من كان أن يصرفها عن وجهها".

ويقول أستاذنا الدكتور رزق مرسى أبو العباس[٤]: نحن أمام شاعر عالم دقيق لكننا نفرض الكلام عن شاعريته فقط ... إنه شاعرنا مجيد جياش العاطفة فى

---

(١) المرجع السابق، ص ١٥٠.
(٢) رسائل رضوية، للشيخ أحمد رضا خان، ج ١، ص ١٥٨.
(٣) السلاميقفى مدح خير البرية، ترجمها إلى العربية الاستاذ حازم محمد / صاغها إلى النظم الاستاذ الدكتور حسين مجيب المصرى (تحت الإصدار).
(٤) الإمام الأكبر المجدد محمد أحمد رضا خان، للأستاذ حازم محمد، ص ١٦٤.

أمور كثيرة، كنا ننتظر من عالم بحر فى علمه ومفكر رائع فى فكره أن يأتى شعرا فاترا، وكنا نلتمس له العذر، ولكننا وجدنا أن ربنا تبارك وتعالى أفاض عليه بخضم هائل من الفكر، ومع ذلك لم يحرم العاطفة فرزقه الله عينا فى قلبه فياضة بالشعر، ولسانا يتغنى بأحلى الكلمات العربية، وكأنما قد حيزت له العربية بحذافيرها، وقد تمكن منها تمكن المولود فى الجزيرة العربية المرتضع لأفاويض اللغة، الشارب من منهلها حتى اكتمل ريه، الطاعم من خيرها وبركتها وحبها حتى نما سائر عقله ولسانه".

ويحدثنا الأستاذ حازم محمد عن ديوان شعر عربى للشيخ أحمد رضا خان فيقول[١]: "وبمطالعة هذا الديوان العربى - بساتين الغفران - نتيقن من أسلوبه ولغته العذبة أن ناظمه لابد وأن يكون عربى اللسان والبيان، بيد أننا عندما نطالع أغراضه وموضوعاته التى تصور المجتمع الهندى فى عصره نقول: إن ناظمه من تلك البيئة، ونتسائل أين وكيف ومتى تعلم وأجاد واطلع الشاعر على اللغة العربية وآدابها فى عصورها المختلفة ابتداءً من العصر الجاهلى وحتى عصره؟!.

يقول الدكتور محمود حسين البريلوى فى شأن أدب الشيخ أحمد رضا خان[٢]: تعد شخصية الشيخ أحمد رضا خان شخصية غريبة فريدة فى القرن الرابع عشر الهجرى، ولا يوجد فى الهند من يماثله فى نواحى حياته العلمية، ولا يستطيع أحد إنكار خدماته الجليلة فى نشر اللغة العربية وآدابها فى أرجاء شبه القارة الهندية ... وإن براعته فى اللغة العربية وآدابها لم تكن مقصورة على النثر العربى بل تجاوزت إلى قرض الشعر بلغة الضاد، فكان يتميز بوصفه شاعرا موهوبا فى النظم باللغة العربية فأبدع وأجاد فى نظم الشعر بها، كما عليه الحال فى اللغتين الفارسية

(١) المرجع السابق، ص ٤٢.
(٢) معارف رضا لصفوة من العلماء، ج ١٢، ص ١٣٨.

والأردية، ويصعب علينا إحصاء عدد ما نظمه من شعر عربى نظرا لتفرقه فى كثير من مؤلفاته العربية والفارسية والأردية التى لا توجد فى مكتبة واحدة(١)، وقد قمت بالاطلاع على ثمانية وأربعين بعد المائة والألف بيت عربى للشيخ أحمد رضا خان، وذلك بعد أن قمت ببذل مجهود كبير من أجل هذا الاطلاع، ولكنى وجدت بعد ذلك أيضا أن مؤرخى سيرة الشيخ أحمد رضا خان يشيرون إلى مزيد من أبياته".

وقال مشيرا إلى أهم الأغراض الشعرية عند شاعرنا(٢): إن شعره [بالفارسية والأردية] متسم بطابع الحب النبوى الشريف، حيث إن الحب النبوى الشريف يفيض فى أغلب قصائده وأبياته ... وبالإضافة إلى ذلك نظم الشيخ أحمد رضا خان شعرا عربيا فى الكثير من الأغراض الشعرية [وقد استطاع الباحث أن يصنفها فى ستة أغراض طبقا لما جاء فى الباب الثانى من هذا البحث] على ما كان عليه حال الشعراء المعاصرين له".

ونحن إذا قرأنا للدكتور محمود حسين البريلوى نستطيع أن نستنتج مجالات موهبة شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان الأدبية فيما يلى:

١- براعة فى الشعر العربى أسوة بما برع فيه من الفارسية.
٢- تعدد فى الأغراض إلى درجة أن الشيخ غذى الكثير من الأغراض الشعرية منافسا فى ذلك أهل عصره من الشعراء، وأرى أن عفته وعلمه ومكانته قد حال بينه وبين أغراض أكثر من ذلك.

---

(١) أشار فضيلة الدكتور إلى هذا قبل إصدار مجموعة أشعار لشاعرنا فى ديوان بساتين الغفران.
(٢) معارف رضا لصفوة من العلماء، ج ٨، ص ٧٥.

ولم يكن رأى الدكتور محمود حسين البريلوى فريدا فى عربية الشيخ أحمد رضا خان بل نستمع إلى غيره حيث يقول الأستاذ الدكتور ظهور أحمد أظهر[١]: إننى إطلعت على قصائد عربية للشيخ أحمد رضا خان ومنها عرفت مدى مقدرته الفائقة وعمق وسعة اطلاعه على أسرار الشعر العربى ومدى ما يتمتع به من موهبة فذة ومقدرة عظيمة على النظم العربى".

يحدثنا الدكتور حامد على خان عن مكانة الشيخ أحمد رضا خان بين شعراء العربية فى الهند فيقول[٢]: كان الشيخ أحمد رضا خان شاعرا موهوبا فى اللغة العربية، وقد أكرمه الله تعالى بملكة شعرية رصينة، ولا نجد له من معاصريه نظيرا فيما نظم وكتب بالعربية، وقد أثنى علماء العرب على طول باعه فى اللغة العربية وآدابها، فكان أديبا كبيرا فى النظم والنثر العربيين".

يقول أستاذنا الدكتور محمد إسحاق القريشى مشيرا إلى مقدرة الشيخ أحمد رضا خان فى التأليف والكتابة باللغة العربية[٣]: كان الشيخ أحمد رضا خان شغوفا باللغة العربية وآدابها، وله الكثير من المؤلفات بالعربية، وكان يستطيع أن يعبر عن أفكاره وعواطفه بالنثر العربى بسهولة بالغة، ولا نرى فى مؤلفاته العربية ما يشير أدنى إشارة إلى عدم قدرته على التعبير بلغة الضاد وبالتالى نفى عدم القدرة يشهد بوجود القدرة باعتبارها اللغة الثالثة تلقينا، الأولى إتقانا واهتماما".

هكذا يمكننا أن نقرر موهبته الأدبية التى اتفق على وجودها ثلاثة من ذوى الأقلام والذوق العربى مطمئنين إلى إحساس الشيخ أحمد رضا خان الشعرى

---

(١) امام أحمد رضا كانفرس ١٩٩٦م (مؤتمر الامام أحمد رضا لعام ١٩٩٦م) مقالات لصفوة من العلماء (ط: ادارة تحقيقات إمام أحمد رضا كراتشى، ١٩٩٦م)، ص ١٣.
(٢) أنوار رضا. لصفوة من العلماء، ص ٥٦٨.
(٣) معارف رضا. لصفوة من العلماء، ج ١٢، ص ١٣٩.

وتذوقه الفنى، وجودة صياغته والتى حاولت أن أتذوقها ولعلى أكون قد أدركت بعض جماليات التصوير عند شاعرنا.

تحدثنا فيما سبق عن آراء بعض الأقلام العربية وغير العربية من اولئك الذين حاولوا أن يعرضوا للحديث عن النتاج العربى الذى تغنت به قريحة شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان وصوتها إذ ذاك عربى، ولننتقل الآن إلى ظاهرة أثر أدبه العربى فى غيره، فمن المعلوم أن الشيخ أحمد رضا خان كان من بين المحبين المتحمسين للغة العربية وآدابها فى عصر الانهيار الثقافى وحين كانت اللغة العربية هدفا لغزو اللغة الإنجليزية، فقد أنشأ معهدا لنشر العلوم الإسلامية والعربية والذى تحدثنا عنه فيما سبق فقد اتسعت دائرة تلاميذه، ولم تقتصر على العربية وعلومها فحسب، وعلة ذلك أن شخصية شاعرنا كانت شخصية موسوعية فى اللغات العربية والفارسية والأردية وعلومها، إلى جانب كونه إماما كبيرا أثرى المكتبة العربية والأردية بمئات المؤلفات فى خمسة وخمسين علما وفنا.

إن تشعب شخصيته العلمية والأدبية أدى إلى تشعب تلاميذه الذين أخذوا عنه، فقد رأينا من بينهم شعراء وأدباء فى العربية والأردية إلى جانب علماء متبحرين وأئمة وفقهاء ومحدثين وسياسيين إلى غير ذلك، ولعل الشيخ أحمد رضا خان يعد الشخصية الوحيدة فى عصره التى تركت آثارا متعددة تجلت فى تلاميذه وفى الأدب العربى والعلوم الإسلامية، وقد ترك تلاميذه بصمات واضحة فى هذا المجال فى بينتهم، وهذه ميزة تبرز شخصية شاعرنا من بين معاصريه من شعراء العربية فى الهند.

نال أسلوب الشيخ أحمد رضا خان فيما نظم وكتب باللغات العربية والفارسية والأردية شهرة كبيرة دفعت الكثير من مشاهير تلاميذه وغيره للاقتداء بأسلوبه،

ولما كان موضوع دراستنا قاصرا على اللغة العربية نقوم بإيراد بعض النماذج لاقتداء الشعراء بأسلوبه وها هو مولانا محمد حامد رضا خان يقتفى أسلوب والده فى كتابة التقديم العربى على تأليف والده "كفل الفقيه الفاهم فى أحكام قرطاس الدراهم" كما رأيناه يقدم على نظم بيتين عربيين على غرار والده، بل إننا لا نتجاوز الحد إذا قلنا: إنه استخدم نفس البحر والقافية والرديف التى جاءت فى شعر والده، يقول مولانا محمد حامد رضا خان[1]:

"وتشبثى بذيول عبد المصطفى	أحمد رضا خان رحمة الرحمان
وتوسلى وتوددى وإرادتى	بأبى الحسين أحمد النورانى"

إنه يسير على منوال والده فيما جاء ببساتين الغفران من بيت عربى نظمه شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان على منوال شاعر حنفى، هذا وثمة شاعر عربى آخر ألا وهو مولانا أحمد بخش الذى سار على دروب الشيخ أحمد رضا خان الشعرية، وبالتالى تتلمذ على يديه بإرساله قصيدته العربية ليقوم شاعرنا بإصلاح لغتها ووزنها العروضى، وقد تحدثنا عن هذه القصيدة فيما سبق.

وفى العصر الحاضر رأينا مولانا أختر رضا خان الأزهرى ينظم شعرا عربيا على منوال جده باستخدام الأفكار والبحور نفسها، بل إنه يتجاوز كل هذا فيستخدم كثيرا من المفردات الواردة فى القصيدة النونية لشاعرنا – على سبيل المثال – وقد رأيناه يضمن ديوانه الأردى سبع قصائد عربية قوامها أربعة وثمانون بيتا، ونورد الآن نموذجا من شعره العربى، فلنسمع إليه حيث يقول[2]:

---

(١) بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان ، ص ٢١٣.

(٢) سفينة بخشش (سفينة المغفرة) لمولانا اختر رضا خان الأزهرى (ط: مكتبة سنى دنيا، رضا نكر، بريلى، الهند دون سنة الطبع)، ص ٧٠. هذه أربعة أبيات من بداية قصيدة قوامها واحد وعشرون بيتا نظمها الشاعر أيام حرب الخليج حين ضرب الإيرانيون مدينة بغداد، وقد أشار اليهم بكلمتى "شرار العدى".

"أعيناى جودا ولا تجمــدا وكونا لخير البــلاد فــدى

ألا تبكيان لها مــن أســى ألا تهميان لأرض الـــهدى

وما قد أبيح لها من حمــى وما قد أريق بها من دمــى

ألا تبكيـــان لبغدادنـــا وقد قذفوه شرار العـــدى"

ومن شعراء العربية فى باكستان الذين نظموا كذلك فى نفــس الموضوعــات التى أدلى بها الشيخ أحمد رضا خان نذكر على سبيل المثــال لا الحصــر مولانــا محمد عبد الحكيم شرف القادرى الذى نظم قصيدة عربية ورباعيتين على منـــوال الشيخ أحمد رضا خان واستخدم كثيرا من مفردات ومعانى شعره وأقوم الآن بإيراد نموذج(١):

"محمد سيد السادات فى كـــرم معلـم النـــاس بـــالتوحيد والعظــــم

والمسلمون علوا فى كل معركة بالرشد والخـــير والإيمـــان ذى القيـم

لما عصوا أمره جهلا بعظمتـــه صاروا ذوى الذل والخسران فى الأمم"

ومما يبرز شخصية شاعرنا ومكانته الأدبية من بين شعراء العربية الـــهنديين فى العصر الحديث أن شخصية شاعرنا بأبعادها الكثيرة كانت ومـــازالت موضــع اهتمام الباحثين لمرحلتى الماجستير والدكتوراه فــــى بعــض جامعـــات باكســتان وبنجلاديش والهند، وبالتالى نال العديد من الباحثين الدرجات العلميـــة، ولا نذكــر عناوين الرسائل حتى لا نخرج عن الموضوع الذى نحن فيه ولم يكن الشعر العربى للشيخ أحمد رضا خان قد حظى بالدراسة - فيما أعلم - وذلك لعدم وجود ديـــوان مطبوع له حتى عام ١٩٩٥م.

وباب آخر من أبواب شخصيته وأثرها فى الكثير ممن عرفوه إنها تلك المحبة التى تسكن قلوب الكثيرين والتى تتمثل فى تلكم الاحتفـــالات الرســمية والشــعبية الكثيرة العظيمة التى تقام فى ربوع شبه القارة الباكستانية الهندية خاصة فى شـــهر صفر من كل عام هجرى، هذا الشهر الذى رحل فيه شاعرنا عن دنيانا هذه ولقـــى

(١) شهر يارعلم (مدينة العلم) للشيخ محمد عبد الحكيم شرف القادرى، (ط: رضا اكيدمى، لاهـــور، ١٤١٧هـ)، ص ٧٥.

ربه راضيا مرضيا، وكان آخر هذه الاحتفالات الرسمية الكبيرة المؤتمر العالمى الذى نظمه مركز بحوث الإمام أحمد رضا بكراتشى فى شهر صفر من العام التاسع عشر بعد الأربعمائة والألف للهجرة، وشارك فيه علماء وأدباء باكستان ودول أخرى، وقد ترأس هذا المؤتمر وزير التعليم الباكستانى الشريف غوث على شاه، كما كان مفخرة باكستان الدكتور عبد القدير خان من بين المشاركين فى هذا المؤتمر برسالته[1] والجدير بالذكر أن مرتب بساتين الغفران ديوان الشعر العربى للشيخ أحمد رضا خان كان من ضمن المشاركين فى هذا المؤتمر حيث أكرمه الشريف غوث على شاه بالميدالية الذهبية تقديرا لخدماته الجليلة فى مجال الدراسات الرضوية. هذا وسوف تكشف الأيام المقبلة عن سمات أخرى جليلة القدر فى شخصية الشيخ أحمد رضا خان، كما نلحظ عشرات من الكتب تطالعنا بها الهيئات العلمية فى كل عام بباكستان والهند، وهى تتضمن كل جديد عن الإمام أحمد رضا خان وحياته العلمية بالعلم، ومؤلفاته القيمة وإسهاماته الجليلة فى سبيل وحدة الأمة ونهضتها من جديد[1]. وفى ضوء ما ذكرنا يتجلى لنا أن شاعرنا من أعلام اللغة العربية وآدابها فى شبه القارة، وقد امتدح موهبته وتضلعه فى العربية أكابر معاصريه وأدباء عصرنا الراهن، وبهذا أكون قد انتهيت من محاولتى لدراسة شعراء العربية فى الهند فى العصر الحديث، كما حاولت إبراز شخصيته الأدبية من بينهم، وأرجو أن أكون موفقا فى محاولتى المتواضعة هذه والله- سبحانه وتعالى- ولى التوفيق.

---

(١) للاطلاع على نص هذه الرسالة انظر: امام أحمد رضا كانفرلس [مؤتمر الإمام أحمد رضا] مجموعة مقالات وخطابات العلماء والأدباء والمفكرين (ط: ادارة تحقيقات إمام أحمد رضا، كراتشى ١٩٩٨م)، ص

( ) انظر: أحمد رضا خان شيخ مشايخ التصوف وأعظم شعراء المديح النبوى فى العصر الحديث، مقال مستفيض مستخرج من صيحفة افاق عربية (صحيفة أسبوعية) في عددها رقم ٣٩٦ الصادر فى يوم الخميس ٢ ذى القعدة ١٤١٩هـ - ١٨ فبراير ١٩٩٩م، ص ٦.

الخاتمة

في نهاية المطاف ببساتين الغفران بعد ما تنسمت عبير أزهاره الفواحه، وتنعمت بجوه اللطيف العذب، وعشت في ظلاله الوارفة أضع القلم مثلج الصدر شاكرا الله - سبحانه وتعالى - على أنه وفقني لهذا العمل الذي كلما أراه أقوم بسجدة الشكر لله - عز وجل - ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. فقد وصلت إلى بعض النتائج بعد إتمام البحث - بتوفيق الله - العلي العظيم - وهي كالتالي:

(١) كان ميلاد شاعرنا الشيخ أحمد رضا خان قبل الثورة الهندية - التي انتهت بفوز الإنجليز وسيطرتهم الغاشمة على الهند - بسنة، وإنه لما بلغ سن الشعور رأى الإنجليز يستميلون الهنادكة وطائفة السيخ، كما رآهم جميعا يتآمرون للقضاء على المسلمين ثقافيا واجتماعيا وسياسيا، ولو استطاعوا دينيا لفعلوا وأنى لهم ذلك؟!، وكان شاعرنا تلقن درس إعلاء كلمة الحق من جده ووالده، كما ورث منهما بغض الغاصب الإنجليز في مجال الدين والسياسة.

(٢) كان شاعرنا من أسرة كريمة تتصف بالحفاظ على الدين، كما كانت تتمتع بنعمة الله في المال، الأمر الذي جعل من شاعرنا رجلا غيورا على دينه وعرضه، والذي أبعده تمام البعد عن الطمع في النوال من الإنجليز والتزلف إلى بابهم.

(٣) لقد نشأ وتربى شاعرنا على حب الدين الحنيف واللغة العربية حيث كان جده ووالده من علماء المسلمين الملمين باللغة العربية وآدابها، فقد رزق موهبة أدبية هائلة غذى بها اللغات التي كان يعرفها من العربية والفارسية والأردية متناولا

عدة أغراض شعرية، وأجاد فى نظمها، فقد وجدت الأغراض الشعرية لديـــه بعـد إحصائى لديوانه العربى فى المدح، والرثـــاء، والـــهجاء، والمناجـــاة، والغــزل، والأحاسيس الدينية الفياضة وشئ من السيرة،.

(٤) تبين للباحث أن اللغة العربية وآدابها كانت فى حالة لا بأس بـــها عنـد مجيئ الإنجليز إلى الهند، ولكن ما أن تمكن الإنجليز من السيطرة على الهند حتـى حاولوا تغيير المظاهر الإسلامية كلها، وكانت العربية من ضمن هذه المظاهر التـى تعرضت لتصرفات الإنجليز، فأصبحت لا قيمة لها رسميا، ولكـــن علمـــاء الديـن الحنيف تصدوا لهذا التصرف بكل قوة إيمانية وأنقذوا حياة اللغة العربية فى شـــبه القارة وفيما بعد اضطر الإنجليز مراعاة لمصالحهم إلى دراسة اللغـــات الشـرقية وعلى رأسها اللغة العربية، الأمر الذى أفاد اللغة العربية دون إرادة الإنجليز ولـو بعض الإفادة.

(٥) لاحظت أنه تناول فن المدح بكل براعة وروعة وصدق عاطفـــة، فلـم يمدح أحدا للنوال، بل كان محور مدحه بعض أهل العلـــم والتقـى مـن العلمـاء والصوفية المعاصرين له وبعض الذين سبقوه، وكان المديح النبوى الشريف علـــى رأس هذا الغرض الشعرى.

(٦) ومما يحسب له أنه عند إقدامه على النظم فى الرثاء سائرا على منهجـه فى المدح كان يرثى أهل العلم والفضل فقط، ولم يرث أحدا إلا لوجه الله – سبحانه وتعالى – ومما تميز به فى مجال الرثاء هو إقدامه على نظم التاريخ فـــى أغلـب مراثيه ليس مرة واحدة فقط بل أكثر من مرة، فقد كان موفقا فى الإتيان بالتـــاريخ بأسلوب خال من التكلف، كما أتى بالرموز الصوفية خلال الرثاء مما يـــدل علـى اطلاعه على الأدب الصوفى أيضا.

(٧) لم يحرم شعره من فن الهجاء، ولكنه لم يكن ينظم فـــي هـذا الفـن إلا لمقاومة الأفكار الزائغة التي رآها شاعرنا أنها بعيدة عـــن إجمـاع أهـل السـنة والجماعة، فقد انصبت جهوده الإصلاحية على مقاومة الأفكار الدينية الزائغة تـارة والأفكار السياسية تارة أخرى.

(٨) لم تكن الأغراض الشعرية عند شاعرنا قاصرة على المذكورة آنفا إنمــا أبدع شاعرنا فى قول الغزل الذى يراه الباحث صوفيا، فلم تنقصــه العاطفــة، ولا الأفكار، ولا الخيال، فكان غزله مفعما بجانب ما ذكر بروعـــة التعبــير، وجمــال الأسلوب، يتخيل إلى قارئة أن الشاعر يعبر عن تجربة عاشها، ولكنه غزل صنعــة، أفصح فيه الشاعر عن عواطفه التى هو أدرى بها.

(٩) وكانت المناجاة مما كلل به شاعرنا أدبه، فقد أتى بأحلى وأرق ما يمكــن من المنظومات فى هذا المجال، لقد لقنته ثقافته الصوفية كيف يتـــأدب مــع الله - سبحانه وتعالى - ورأيناه فى هذه الأبيات رجلا متواضعا لله - عز وجل - ملمــا بأدب الدعاء.

(١٠) وأخيرا لا آخرا وجدنا أبياته فى الحديث بينه وبين نفسه، فالشاعر يدلـى بخواطره الدينية الفياضة، وهذا ما كان منتظرا من عالم دينى ذى الموهبة الشعرية، وهذا ما حاول الباحث دراسته فى الباب الثانى حيث تنـاول الأغـراض الشـعرية دراسة تحليلية.

(١١) وقد خصص الباحث فصلا خاصـــا لدراســة الخصــائص الأسـلوبية واللغوية فى الشعر العربى للشيخ أحمد رضا خان، فاتضح له أن الشاعر موضــوع البحث استطاع أن يأتى بالأساليب العربية القديمة والحديثة على السواء رغم كونــه هندى المولد والنشأة، فقد أملاه اطلاعه على الثقافـــة العربيــة - لا سـيما الأدب العربى على مر العصور - الأساليب اللغوية والأســلوبية، ولــم يكـن اهتمامــه بالمحسنات البديعية أقل من اهتمامه بالأساليب اللغوية، وكانت هذه عصارة فكــره العميق فى الأدب العربى الذى حببه إليه الدين الحنيف، نظرا لتشــريف النصيــن الشريفين هذه اللغة.

(١٢) ولم يكن شاعرنا منكبا على المحسنات البديعية بشكل ممقوت بل كان متمكنا من إثارة الجماليات فى شعره، فقد إطلع الباحث على الكثير من الأبيات التى يمكن أن توصف بأنها أبيات القصيد، حتى أن مقطوعاته أيضا لم تخل عن بيت القصيد، الأمر الذى يستلفت أنظار الذواقين، بحلاوة الأدب العربى؛ وقد أفرزد الباحث مبحثا خاصا لدراسة هذا الجانب من شعر الشيخ أحمد رضا خان فى موضوع البحث.

(١٣) لم يكن شاعرنا - موضوع البحث - متفرغا لنظم الشعر بل كانت الموهبة الشعرية من إحدى المواهب التى جعلت من الرجل عبقريا، ويعد شاعرنا من شعراء العصر الحديث، ولقد انجبت شبه القارة الهندية العديد من شعراء العربية، ولكن شاعرنا استطاع أن يفوق أقرانه من حيث نتاجه العلمى الأدبى ذى ، كما كانت ومازالت ثقافته محل اهتمام الباحثين فى بعض جامعات باكستان وبنجلاديش والهند حتى الأزهر المعمور.

هذا ما وصل إليه الباحث دون أن يدعى أن محاولة خالية من الشوائب، معترفا بأنه لم يوف الشاعر حقه من الدراسة، فالكمال لله وحده - سبحانه وتعالى - و إذا كان الباحث موفقا و لو بعض التوفيق فليس هذا إلا بفضل الله - سبحانه تعالى -.

أسأل ربى - عز وجل - أن يغفر لى تقصيرى ويوفقني لما فيه الخير ورضاه، وأن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم هذا وبالله التوفيق.

قائمة المراجع

أولا: المراجع العربية:

١- الآداب العربية فى شبه القارة الهندية، للدكتور زبيد أحمد، ترجمه إلى العربية الدكتور عبد المقصود شلقامى، (ط: نهضة مصر، القاهرة، ط ٢).

٢- آمال الأبرار وآلام الأشرار، للشيخ أحمد رضا خان (ط: المطبعة الحنفية بعظيم آباد، دون سنة الطبع).

٣- اتجاهات الأدب الصوفى، للدكتور على الخطيب (ط: دار المعارف، القاهرة، ١٤٠٤هـ).

٤- اتجاهات الهجاء فى القرن الثالث الهجرى، للأستاذ قحطان رشيد تميمى، (ط: دار المسيرة، بيروت، دون سنة الطبع).

٥- الاحتفال بالمولد النبوى الشريف بين المؤيدين والمعارضين، مناقشة وردود، للسيد أبى الحسنين عبد الله الحسينى المكى الهاشمى، (ط: ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م).

٦- الأدب السعودى فكرة ونص، للدكتور رزق مرسى أبو العباس على، (ط: مطبعة رفاعى، بالقاهرة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).

٧- الأدب العربى بين الزهد والتصوف، للدكتور عبد الفتاح السيد محمد الدمامصى، (ط: المطبعة العربية، القاهرة، ١٣٩٨هـ).

٨- الأدب الهندى المعاصر، للدكتور محى الدين الألوائى، (ط: دار العلم، القاهرة، دون سنة الطبع).

٩- الأزهر تاريخه وتطوره، تأليف اللجنة العليا للاحتفال بالعيد الألفى للأزهر (ط: الازهر ١٤٠٣هـ).

١٠- أسد الغابة فى معرفة الصحابة، للإمام عز الدين على بن محمد بن عبد الكريم الجزرى، (ط: المكتبة الإسلامية بطهران، دون سنة الطبع).

١١- أطيب النغم، للإمام ولى الله الدهلوى، (ط: مجتبائى، دلهى، دون سنة الطبع).

١٢- الأعلام، لخير الدين الزركلى (ط: دار العلم، بيروت، ١٩٨٦م).

١٣- أعلام الحجاز فى القرن الرابع عشر الهجرى وبعض القرون الماضية، للأستاذ محمد على المغربى (ط: مطبعة المدنى، القاهرة، ١٤٠١هـ).

١٤- الأغانى، للإمام أبى الفرج راغب الأصفهانى، (ط: مطبعة التقدم، بشارع محمد على، بمصر، دون سنة الطبع).

١٥- إقبال الشاعر الثائر، للدكتور نجيب الكيلانى (ط: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٠هـ).

١٦- إقبال العرب على دراسات إقبال، للأستاذ الدكتور ظهور أحمد أظهر، (ط: المكتبة العلمية، لاهور، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م).

١٧- الإمام أحمد رضا خان الحنفى البريلوى وشخصيته الموسوعية، للأستاذ كوثر النيازى، (ط: أكاديمية رضا، لاهور، ١٤١٦هـ).

١٨- الإمام أحمد رضا خان وأثره فى الفقه الحنفى، للشيخ مشتاق أحمد شاه، رسالة ماجستير مخطوطة بمكتبة رسائل الماجستير بكلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر، تحت رقم ٣١٥٩.

١٩- الإمام الأكبر المجدد محمد أحمد رضا خان و العالم العربى، للأستاذ حازم محمد المحفوظ (ط: رضا فاونديشن، لاهور، ١٤١٩هـ).

٢٠- الإمام عبد الحى اللكنوى، علامة الهند وإمام المحدثين و الفقهاء، للدكتور ولى الدين الندوى، (ط: دار القلم، دمشق، ١٤١٥هـ).

٢١- بحوث فى الأدب، للدكتور رزق مرسى أبو العباس على، (ط: مؤسسة أبو المجد للطباعة و النشر، القاهرة، ١٤١٠هـ).

٢٢- بردة المديح المباركة، للإمام شرف الدين محمد البوصيرى، شرح وتقديم دكتور أحمد عمر هاشم (ط: دار المقطم، القاهرة، ١٣١٧هـ - ١٩٩٦م).

٢٣- بساتين الغفران، للشيخ أحمد رضا خان، رتبه الأستاذ حازم محمد، (طبع بمشاركة أكاديمية رضا بمدينة ستاك بورت، إنجلترا، مجمع بحوث الإمام أحمد رضا كراتشى، ورضا دار الاشاعة، لاهور، ١٤١٨هـ).

٢٤- بين التصوف و الأدب، للدكتور محمد إبراهيم الجيوشى، (ط: مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، دون سنة الطبع).

٢٥- تاريخ الأدب العربى، للأستاذ أحمد حسن زيات، (ط: مكتبة نهضة مصر بالفجالة، القاهرة، دون سنة الطبع، الطبعة العشرون).

٢٦- تاريخ الإسلام فى الهند، للدكتور عبد المنعم النمر، (ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م).

٢٧- تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية وحضارتها، للدكتور أحمد محمود الساداتى، (ط: مكتبة الآدب، بالجماميز، دون تاريخ الطبع).

٢٨- تاج العروس من جواهر القاموس، للإمام محب الدين محمد مرتضى الزبيدى، (ط: المطبعة الخيرية، المنشأة بجمالية مصر، ١٣٠٦هـ).

٢٩- تبييض الصحيفة فى أخبار أبى حنيفة، للإمام جلال الدين السيوطى. (ط: مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد الدكن، الهند، ١٣٣٤هـ).

٣٠- تحرير التحبير فى صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، لابن أبى الإصبع المصرى (المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٣٨٣هـ).

٣١- ترتيب القاموس المحيط (للفيروز آبادى) على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة، للأستاذ طاهر أحمد الطرابلسى (ط: مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٩٥٩م).

٣٢- الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، للإمام عبد العظيم بن عبد القوى المنذرى، ضبط أحاديثه وعلق عليه الأستاذ مصطفى محمد عماره (ط: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى، ١٢٧٣هـ).

٣٣- التصوف الإسلامى فى الآداب والأخلاق، للدكتور زكى مبارك (ط: دار الكتاب العربى، بمصر ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م).

٣٤- التعريفات، للعلامة على بن محمد السيد الشريف الجرجانى، حققه الدكتور عبد المنعم الحفنى، (ط: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى، ١٣٥٧هـ).

٣٥- تيارات أدبية، للدكتور إبراهيم سلامة، (ط: مطبعة أحمد مخيمر، ١٩٥٢م).

٣٦- الثقافة الإسلامية فى الهند، للسيد عبد الحى اللكنوى، (ط: مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٤٠٣هـ).

٣٧- الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير، للإمام جلال الدين السيوطى (ط: دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٠هـ).

٣٨- جد الممتار على رد المحتار، للإمام أحمد رضا خان، (ط: المجمع الإسلامى بمباركفور، الهند، ١٣٩٩هـ).

٣٩- حزر الإمانى ووجه التهانى فى القراءات السبع، للإمام قاسم بن فيره الشاطى (ط: مكتبة دار الهدى، المدينة المنورة، ١٤١٥هـ).

٤٠- حسام الحرمين على منحر الكفر والمين، للشيخ أحمد رضا خان (ط: ليتهو بريس كانفور، الهند، ١٣٧٩هـ).

٤١- حقيقة باكستان الإسلامية، أكبر دولة إسلامية فى العالم، للدكتور محمد حسن الأعظمى، (ط: مكتبة سليم الحديثة، بالقاهرة).

٤٢- الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية، للدكتور محمد غنيمى هلال، (ط: مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٠م).

٤٣- دائرة المعارف الإسلامية، لمجموعة من المستشرقين، الترجمة العربية لصفوة من العلماء والمحققين، (ط: دار الشعب، القاهرة، ١٣٩١هـ).

٤٤- الدر المنثور فى التفسير بالمأثور، للإمام جلال الدين السيوطى، (ط: دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠هـ).

٤٥- الدعوة إلى الفكر، لمولانا محمد منشا تابش القصورى، ترجمه إلى العربية مولانا محمد عبد الحكيم شرف القادرى، (ط: منظمة الدعوة الإسلامية، لاهور، دون سنة الطبع).

٤٦- دور الشيخ أحمد رضا خان فى مقاومة البدع والرد عليها، للأستاذ الدكتور محمد مسعود أحمد (ط: أكاديمية رضا، لاهور، ١٤١١هـ).

٤٧- ديوان أبى تمام، تحقيق الشيخ محمد محى الدين عبد الحميد، (ط: محمد على صبيح بالقاهرة، دون سنة الطبع).

٤٨- ديوان أبى نواس (ط: دار صادر بيروت، دون سنة الطبع).

٤٩- ديوان ابن الفارض، شرحه وقدم له مهدى محمد ناصر الدين، (ط: دار الكتب، بيروت، لبنان، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م).

٥٠- ديوان الأعشى، (ط: دار صادر بيروت، دون سنة الطبع).

٥١- ديوان البحترى، حققه وشرحه وعلق عليه حسن كامل الصيرمى، (ط: دار المعارف بمصر، ١٩٧٣م).

٥٢- ديوان بشار بن برد، جمع وتحقيق وشرح الإمام محمد طاهر بن عاشور، (ط: الشركة التونسية، بالجزائر، ١٩٧٦م).

٥٣- ديوان جميل بثينه، جمع وتحقيق وشرح الدكتور حسين نصار، (ط: مكتبة مصر بالقاهرة، دون سنة الطبع).

٥٤- ديوان حسان بن ثابت الأنصارى، (ط: دار صادر، بيروت، دون سنة الطبع).

٥٥- ديوان حطيئه، تحقيق الأستاذ نعمان أمين طه (ط: مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر، ١٣٧٨م).

٥٦- ديوان الشيخ أصغر على الروحى، تحقيق الدكتور رانا ذوالفقار على، (ط: المجمع العربى الباكستانى، دون سنة الطبع).

٥٧- ديوان صفى الدين الحلى، (ط: دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ١٤٠٣هـ).

٥٨- ديوان الفيض، لمولانا فيض الحسن السهارنفورى، شرحه وحقق غوامضه وقدم له الدكتور ظهور أحمد أظهر (ط: المجمع العربى الباكستانى، لاهور، ١٤١٦هـ).

٥٩- ديوان كثير، قدم له وشرحه مجيد طراد (ط: دار الكتاب العربى، ١٤١٣هـ).

٦٠- ديوان المتنبى بشرح أبى البقاء العكبرى، (ط: شركة ومكتبة المصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر، دون سنة الطبع).

٦١- الرثاء، لمجموعة من العلماء (ط: دار المعارف القاهرة، دون سنة الطبع).

٦٢- رحلة الإمام الأكبر إلى الهند، للشيخ محمد مصطفى محمد جميعة، (ط: إدارة مجلة الأزهر، القاهرة، ١٤١٧هـ).

٦٣- الرسالة القشيرية، للإمام أبى القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى، (ط: مكتبة محمد على صبيح وأولاده، القاهرة، دون سنة الطبع).

٦٤- الرمز الشعرى عند الصوفية، للدكتور عاطف جوده، (ط: دار الأندلس، بيروت، ١٩٨٣م).

٦٥- الرمزية فى الأدب العربى، للدكتور درويش الجندى، (ط: النهضة المصرية بالقاهرة، دون سنة الطبع).

٦٦- رياض الصالحين، للإمام أبى زكريا يحيى بن شرف النووى، (ط: مكتبة الإيمان، القاهرة، ١٤٠٩هـ).

٦٧- الزلال الأنقى من بحر سبقة الأتقى، للشيخ أحمد رضا خان، (والمخطوط فى مكتبة مولانا محمد عبد الحكيم شرف القادرى، بمدينة لاهور).

٦٨- زهر الربيع فى المعانى والبيان والبديع، للشيخ أحمد الحملاوى، (ط: المطبعة الأميرية، ببولاق مصر المحمية، ١٣٢٣هـ).

٦٩- سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون لابن نباته المصرى، (ط: دار الفكر العربى، مطبعة مدنى، القاهرة، ١٣٨٣هـ).

٧٠- السلامية فى مدح خير البرية، للشيخ أحمد رضا خان، ترجمها إلى العربية نثرا الأستاذ حازم حمد، نظمها شعرا الأستاذ حسين مجيب المصرى، (تحت الإصدار).

٧١- سنن ابن ماجة، للإمام أبى عبد الله محمد بن يزيد القزوينى ابن ماجه، حقق نصوصه، ورقم كتبه، وأبوابه، وأحاديثه محمد فؤاد عبد الباقى (ط: عيسى البابى الحلبى وشركاه، دون سنة الطبع).

٧٢- سنن أبى داود، للإمام أبى داود سليمان بن الأشعث (ط: مطبعة السعادة، القاهرة، دون سنة الطبع).

٧٣- سنن الترمذى، للإمام أبى عيسى محمد بن عيسى الترمذى، (ط: شركة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر، ١٣٨٢هـ).

٧٤- السنن الكبرى، للإمام أبى بكر أحمد بن الحسين بن على البيهقى (ط: دار الفكر، بيروت، دون سنة الطبع).

٧٥- سير أعلام النبلاء، للإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبى (ط: مؤسسة الرسالة، ١٤١٠هـ).

٧٦- السيرة الحلبية فى سيرة الأمين المأمون، للعلامة على بن برهان الدين الحلبى (ط: دار المعرفة، بيروت، دون سنة الطبع).

٧٧- سيرة ميلاد الأمة، للدكتور اشتياق حسين القريشى، ترجمه إلى العربية الدكتور خليل جواد (ط: مؤسسة علا للطباعة والتوزيع بدمشق، ١٩٩٦م).

٧٨- السيرة النبوية، لأبى محمد عبد الملك بن هشام المعافرى، (ط: دار المنار، القاهرة، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م).

٧٩- السيرة النبوية، لابن كثير الدمشقى، تحقيق صدقى جميل العطـــار، (ط: دار الفكر، بيروت، ١٤١٨هـ - ١٩٧٧م).

٨٠- شرح قصيدة كعب بن زهير فى مدح سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لجمال الدين محمد بن هشام الأنصارى، ضبط وتحقيق ومراجعة الدكتـور محمود حسن أبو ناجي، (ط: مؤسسة علوم القرآن، دمشق، ١٩٨٤م).

٨١- الشعر الأردي منذ نشأته حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى، للدكتور ابتسام صالح الدين (ط: القاهرة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م).

٨٢- شفاء السقام فى زيارة خير الأنام - صلى الله عليه وسلم - للإمام تقى الديـن السبكى (ط: دار كنز السعادة، درب الأتراك، القاهرة، دون سنة الطبع).

٨٣- الشوقيات، (ط: دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ).

٨٤- شوقى وشعره الإسلامى، للدكتور ماهر حسن فهمى، (ط: القاهرة، دون سـنة الطبع).

٨٥- الشيخ أحمد رضا خان وشئ من حياته وأفكاره وخدماته، للأسـتاذ الدكتـور محمد مسعود أحمد، تعريب مولانا محمد عارف الله المصباحى، (ط: مؤسسة رضا، لاهور، ١٤١١هـ).

٨٦- صحيح البخارى، للإمام محمد بن إسماعيل البخارى، (ط: مطبعـة الفجالـة الجديدة، القاهرة، ١٣٧٧هـ).

٨٧- صحيح مسلم المسمى الجامع الصحيح، للإمام مسلم بن الحجاج القشيرى، (ط: مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر، ١٣٧٧هـ).

٨٨- طبقات فحول الشعراء، لمحمد بن سلام الجمحى، تحقيق محمود محمد شاكر، (ط: مطبعة المدنى، القاهرة، دون سنة الطبع).

٨٩- العلامة فضل حق الخير آبادى مع تحقيق كتابه الثورة الهندية، للدكتور قمر النساء، (ط: المكتبة القادرية، لاهور، ١٤٠٩هـ).

٩٠- العلامة محمد إقبال حياته وآثاره، للدكتور أحمد معوض، (ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٠م).

٩١- علماء العرب فى شبه القارة الهندية، للشيخ يونس الشيخ إبراهيم السامرائى، (ط: وزارة المعارف والشئون الدينية بالعراق، دون سنة الطبع).

٩٢- العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده، لأبى الحسين بن رشيق القيروانى، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد (ط: المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٣٧٤هـ).

٩٣- الغزل عند العرب، للدكتور حسان أبو طالب، (ط: مكتبة مصر بالقاهرة، ١٣٦٦هـ).

٩٤- فصول فى الشعر ونقده، للدكتور شوقى ضيف، (ط: دار المعارف، القاهرة، ١٩٧١م).

٩٥- الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى، للدكتور محمد البهى، (الطبعة الثانية ١٩٦٠م دون ذكر الطابع).

٩٦- فنون الشعر الفارسى، للدكتور إسعاد عبد الهادى قنديل، (ط: دار الأندلس، بيروت. ١٤٠٢هـ - ١٩٨١م).

٩٧- فهرس الفهارس، لأبى جعفر الكتانى، (ط: دار العرب الإسلامى، دون سنة الطبع).

٩٨- فى الأدب الصوفى، للدكتور نظمى عبد البديع محمد (الطبعة الأولى، دون ذكر الطابع وسنة الطبع).

٩٩- القائد الأعظم محمد على جناح، للعباس محمود العقاد، (ط: دار الهلال، القاهرة، ١٣٧٢هـ).

١٠٠- القصيدة اللامية، لمولانا أحمد بخش (المخطوط فى حوزة أولاد مولانا أحمد بخش بقرية تونسه المبجلة).

١٠١- كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، للعلامة إسماعيل بن محمود العجلونى، (ط: دار التراث، القاهرة، دون سنة الطبع).
١٠٢- الكشف شافيا فى حكم فوتوغرافيا، للشيخ أحمد رضا خان، (ط: رضا أكاديمى، مومبائى، الهند، ١٤١٨هـ).
١٠٣- كنز العمال فى سنن الأفعال والأقوال، للعلامة علاء الدين على المتقى، (ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٣هـ).
١٠٤- لزوم ما لا يلزم (اللزوميات) لأبى العلاء المعرى، (ط: دار صادر، بيروت، دون سنة الطبع).
١٠٥- لسان العرب، للإمام أبى الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، (ط: دار صادر، بيروت، سنة ١٩٧٤م).
١٠٦- اللغة العربية فى باكستان دراسة وتحقيق وتاريخ، للدكتور محمود محمد عبد الله المصرى، (ط: مجلة العرب، كراتشى، ١٤٠٤هـ).
١٠٧- اللغة العربية وأدباؤها فى الهند منذ دخول الإسلام إلى نهاية الاحتلال الإنجليزى، للدكتور حبيب الله خان، رسالة دكتوراه مخطوطة بمكتبة الرسائل العلمية بكلية اللغة العربية، جامعة الأزهر الشريف، تحت رقم ١٤٣٧.
١٠٨- محمد على جناح بانى باكستان، حياته وسياسته، للدكتور إحسان حقى، (ط: دار الفكر، دمشق، ١٤٠٧هـ).
١٠٩- المدائح النبوية، للدكتور زكى مبارك (ط: مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر، ١٣٥٤هـ).
١١٠- المدائح النبوية فى نهاية العصر المملوكى، للدكتور محمد سالم محمد، (ط: دار الفكر المعاصر، دمشق، ١٩٩٦م).
١١١- المدائح النبوية، للدكتور محمود على مكى، (ط: الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، القاهرة، ١٩٩١م).
١١٢- المديح النبوى بين الغلو والإنصاف، للدكتور محمد علوى المالكى، (ط: دار وهدان، للطباعة والنشر، القاهرة، دون سنة الطبع).
١١٣- مديح الرسول فى فجر الإسلام، للدكتور صلاح عيد، (ط: دار المعرفة، القاهرة، دون سنة الطبع).

١١٤- المختصر من كتاب نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر، للشيخ عبد الله مرداد أبو الخير (ط: عالم المعرفة، جدة، ١٤٠٦هـ).
١١٥- المرشد إلى فهم أشعار العرب، للدكتور عبد الله الطيب (ط: دار الفكر، بيروت، ١٩٧٠م).
١١٦- المستدرك، للإمام أبي عبد الله الحاكم النيسابوري، (ط: مكتبة ومطابع النهضة الحديثة، الرياض، دون سنة الطبع).
١١٧- مسند الإمام أحمد بن حنبل، (ط: دار صادر بيروت، دون سنة الطبع).
١١٨- مصابيح السنة، للإمام أبي محمد الحسن بن مسعود البغوي، تحقيق الدكتور يوسف عبد الرحمن المرعشلي، ومحمد سليم إبراهيم سمارة، وجمال حمدي الذهبي (ط: دار المعرفة، بيروت).
١١٩- معاهد التنصيص على شرح شواهد التلخيص، للشيخ عبد الرحيم أحمد العباسي. حققه وعلق عليه حواشيه، ووضع فهارسه الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد (ط: عالم الكتب، بيروت، ١٣٦٧هـ).
١٢٠- معجم المؤلفين، لعمر رضا كحاله، (ط: دار إحياء التراث العربي، دون سنة الطبع).
١٢١- معجم مصطلحات الصوفية، للدكتور عبد المنعم الحفني، (ط: دار السيرة، بيروت، ١٤٠٧هـ).
١٢٢- المفردات في غريب القرآن، للإمام أبي القاسم الحسين بن محمد راغب الأصفهاني، تحقيق وضبط محمد سيد الكيلاني (ط: شركة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٩٦١م).
١٢٣- مقدمة النحو العربي الفلسفي، للدكتور ويليام لايتنر (ط: المجمع العربي الباكستاني، لاهور).
١٢٤- ملامح الأدب والثقافة في العصر المملوكي، للدكتور رزق مرسي أبو العباس علي (ط: مصر للخدمات العلمية، القاهرة، ١٩٩٧م).
١٢٥- من الأدب المقارن، للأستاذ نجيب عفيفي (دون ذكر الطابع وسنة الطبع).
١٢٦- من عقائد أهل السنة، لمولانا محمد عبد الحكيم شرف القادري (ط: منظمة الدعوة الإسلامية، لاهور، ١٤١٥هـ).
١٢٧- من هو أحمد رضا، للشيخ شجاعت على القادري، (ط: منظمة الدعوة

الإسلامية، لاهور، ١٩٨٦م).

١٢٨- موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، للدكتور أحمد شلبى، (ط: مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٨٣م).

١٢٩- ميزان الذهب فى صناعة شعر العرب، للسيد أحمد الهاشمى، (ط: المكتبة التجارية الكبرى بمصر، دون سنة الطبع).

١٣٠- نخبة من اراء مفكرى العرب حول محمد إقبال، جمعه وقدم له الدكتور محمد السعيد جمال الدين، والدكتور أمجد حسن سيد أحمد (نشرة السفارة الباكستانية بالقاهرة، ١٩٩٨م).

١٣١- نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، للشريف عبد الحى اللكنوى، (ط: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد، الدكن، الهند ١٣٨٢هـ).

١٣٢- نصوص أدبية تذوق وإحساس، للدكتور رزق مرسى أبو العباس على، (ط: مطبعة الرفاعي بالقاهرة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).

١٣٣- نظرات فى الأدب، للأستاذ أبي الحسن على الندوى، (ط: دار القلم، دمشق، ١٤٠٨هـ).

١٣٤- نقد النثر، لقدامة بن جعفر، تحقيق الدكتور طه حسين، والأستاذ عبد الحميد العبادى (ط: مطبعة مصر، ١٩٣٩م).

١٣٥- نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز، للإمام فخر الدين الرازى، تحقيق الدكتور بكرى شيخ أمين (ط: دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٥م).

١٣٦- وظيفة الأدب، للدكتور محد النويهى، (ط: الرسالة، بالقاهرة، ١٩٦٧م).

١٣٧- الهجاء، لمجموعة من العلماء (ط: دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٨م).

١٣٨- الهجاء والهجاؤن فى الجاهلية، للدكتور محمد محمد حسين، (ط: مطبعة أحمد مخيمر، القاهرة، ١٩٤٧م).

١٣٩- هدية الحجاز، للدكتور محمد إقبال، قدم لها وشرحها وترجمها شعرا عن الفارسية الأستاذ الدكتور حسين مجيب المصرى، (ط: مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٥م).

١٤٠- هدية العارفين، اسماء المؤلفين وآثار المصنفين، لإسماعيل باشا البغدادى (ط: المكتبة الإسلامية بطهران، دون سنة الطبع).

ثانيا: المراجع غير العربية:

(الأردية)

١- الإجازة فى ذكر الجهر مع الجنازة، لمولانا محمد عمر الدين القـــادرى، (ط: مطبع كلزار حسين، بومبائى، ١٣١٥هـــ).

٢- اردوزبان وأدب مين مستشرقين كى علمى خدمــــات كـــا تحقيقـــى جـــائزة، (الاستعراض التحقيقى والنقدى لإسهامات المستشرقين فى تطور اللغة الأردية وادابها). للدكتور رضيه نـــور محمـــد، (ط: لائـــن آرط بريـــس، لاهـــور، ١٩٨٥م).

٣- اردومين نعت كوئى (المديح النبوى فى الأدب الأردى)، للدكتــــور ريـــاض مجيد. (ط: اقبال اكيدمى، لاهور ١٩٩٥م).

٤- إسلامى عقائد (العقائد الإسلامية)، للشيخ يوسف الشيخ هاشم الرفاعى، ترجمه إلى الأردية مولانا محمد عبد الحكيم شرف القادرى، (ط: مكتبـــــة قادريـــة، لاهور، ١٤١٠هـــ).

٥- إسلامى مجلس مذاكره علمية (الندوة الإسلامية للمناقشـــة العلميـــة)، للشـــيخ كرامت على الجونفورى، (ط: نولكشور، لكهنو بالهند، دون سنة الطبع).

٦- إعلام الأعلام بأن الهند دار الإسلام، للشيخ أحمد رضـــا خـــان (ط: حســـنى بريس، بريلى، دون سنة الطبع).

٧- أعلى حضرت كى شاعرى برايكـــ نظر (نظرة على شعر الحضرة العاليـــة)، للشريف نور محمد القادرى، (ط: مركزى مجلس رضا، لاهور، ١٤١٠هـــ).

٨- إقامة القيامة على طاعن القيام لنبى تهامة، للشيخ أحمد رضا خان، (ط: مكتبة قادرية، لاهور، ١٤١٩هـــ).

٩- اقبال اور علماء باك وهند (إقبال وعلماء شبه القارة الباكســـــتانية الهنديـــة)، للأستاذ إعجاز الحق القدوسى (ط: اقبال اكيدمى لاهور، ١٩٩٧م).

١٠- إقبال اور محبت رسول (إقبال وحب الرســـــول)، للدكتـــور محمـــد طـــاهر الفاروقى، (ط: إقبال اكيدمى، لاهور، ١٩٩٥م).

١١- إمام أحمد رضا اور رد بدعات ومنكرات (الإمام أحمـــد رضـــا ودوره فـــى

مقاومة البدع والمنكرات)، لمولانا يسين اختر المصباحى، (ط: مدنى كتب خانه، ملتان، ١٤٠٥هـ).

١٢- إمام أحمد رضا كانظريه تعليم (نظرية الإمام أحمد رضا التعليمية) لمولانا جلال الدين القادرى، (ط: مركزى مجلس رضا، لاهور، ١٩٨٤م).

١٣- إمام أحمد رضا كانفرنس ١٩٩٦ء (مؤتمر الإمام أحمد رضا ١٩٩٦م) مجموعة مقالات وخطابات العلماء والأدباء والمفكرين (ط: إدارة تحقيقات امام أحمد رضا كراتشى، ١٩٩٦م).

١٤- إمام أحمد رضا كانفرنس ١٩٩٨ء (مؤتمر الإمام أحمد رضا ١٩٩٨م) مجموعة مقالات وخطابات العلماء والأدباء والمفكرين (ط: إدارة تحقيقات إمام أحمد رضا كراتشى، ١٩٩٨م).

١٥- إمام أحمد رضا كے گياره عربى أشعار (أحد عشر بيتا عربيا للإمام أحمد رضا) لمولانا محمود أحمد القادرى (ط: الاصلاح پبلى كيشنز، ملتان، دون سنة الطبع).

١٦- إمام أحمد رضا كے نثرى شه پارے، النماذج النثرية [الأردية الرائعة فى أدب الإمام أحمد رضا] للشريف رياست على القادرى، (ط: إدارة تحقيقات إمام أحمد رضا، كراتشى، ١٤٠٥هـ).

١٧- أنوار رضا، لصفوة من العلماء (ط: ضياء القرآن پبلى كيشنز، لاهور، ١٩٨٦م).

١٨- بر صغير پاك وهندكى سياست مين علماء كاكردار (دور العلماء فى سياسة شبه القارة الباكستانية الهندية)، للأستاذ حبيب الله خان (ط: قومى إدارة برائى تحقيق وتاريخ وثقافت اسلام آباد، ١٩٨٥م).

١٩- پروفيسر مولوى حاكم على (الأستاذ المولوى حاكم على) للأستاذ محمد صديق (ط: مكتبة رضوية، لاهور، ١٩٨٨م).

٢٠- تاريخ اورينٹيل كالج (تاريخ الكلية الشرقية) للدكتور غلام حسين (ط: جديد

اردو نائب بريس، لاهور، ١٩١٢م).

٢١- تاريخ تعليم الهند (تاريخ التعليم فى الهند) للشريف نــور الله، (ط: ساوتهـــ ايشين ببلشرز، كراتشى، ١٩٨١م).

٢٢- تجلى اليقين بأن نبينا سيد المرسلين، للشيخ أحمد رضا خان، (ط: بروكريسو ببلشرز، لاهور، دون سنة الطبع).

٢٣- تحريك آزادىء هند اورالسواد الأعظم (حركة استقلال الهند وموقف الســواد الأعظم منها) للأستاذ الدكتور محمد مسعود أحمد (ط: ضياء القــرآن ببلــى كيشنز، لاهور، ١٩٨٨م).

٢٤- تحريك خلافت (حركة الخلافة) للدكتور ميم كمال اوكى، (ط: سنك ميل ببلى كيشنز، لاهور، ١٩٩١م).

٢٥- تحذير الإخوان، للشيخ اشرف على التانوى، (ط: نهانة بهون، الهند، دون سنة الطبع).

٢٦- تذكرة أكابر أهل سنت (ذكر أكابر أهل السنة) لمولانا محمــد عبــد الحكيـم شرف القادرى (ط: مكتبة قادرية، لاهور، ١٤٠٩هـ).

٢٧- تذكرة خلفاء أعلى حضرت (ذكر خلفاء الحضرة العالية) للأستاذ محمد صادق القصورى، والدكتور مجيد الله القادرى، (ط: إدارة تحقيقات إمام أحمد رضـا كراتشى، ١٤١٣هـ).

٢٨- تذكرة علماء أهل سنت (ذكر علماء أهل السنة) لمولانا محمود أحمد القــادرى (ط: سنى دار الاشاعت، فيصل آباد، باكستان، ١٩٩٢م).

٢٩- تذكرة محدث دكن (أحوال محدث الدكن) للدكتور عبــد الســتار خــان، (ط: الممتاز ببلى كيشنز، لاهور، ١٩٩٨م).

٣٠- ترجمان الوهابية (لسان حال الوهابية) للشيخ صديق حسن خان البوفالى، (ط: مطبع محمدى، لاهور، دون سنة الطبع).

٣١- جهان رضا (عالم الدراسات الرضوية) لمولانا مريد أحمد الجشتى، (ط: مركزى مجلس رضا، لاهور، ١٤٠١هـ).

٣٢- جود هويل صدى كے مجدد (مجدد القرن الرابع عشر الهجرى) لمولانا محمد ظفر الدين البهارى (ط: مركزى مجلس رضا، لاهور، ١٩٨٠م).

٣٣- حدائق بخشش (حدائق العطاء) للشيخ أحمد رضا خان، (ط: رضوى كتاب كهر، بهيوندى، الهند، ١٤٠٥هـ).

٣٤- حياة أعلى حضرت (حياة الحضرة العالية) لمولانا محمد ظفر الدين البهارى، (ط: المكتبة الرضوية، كراتشى، الطبعة الأولى، دون سنة الطبع).

٣٥- حياة صدر الأفاضل، لمولانا غلام معين الدين النعيمى، (ط: إدارة نعيمية رضوية، لاهور، دون سنة الطبع).

٣٦- حياة محمد على جناح، للأستاذ رئيس أحمد الجعفرى، (ط: كتب خانه آفس بومبائى، الهند، دون سنة الطبع).

٣٧- حياة ملك العلماء، للأستاذ الدكتور مختار الدين أحمد، (ط: إدارة معارف نعمانية، لاهور، ١٩٩٣م).

٣٨- حياة مولانا أحمد رضا خان، للأستاذ الدكتور محمد مسعود أحمد (ط: إدارة تحقيقات إمام أحمد رضا بومبائى، الهند، ١٤١٠هـ).

٣٩- رسائل رضويه (الرسائل الرضوية) للشيخ أحمد رضا خان / رتبه مولانا عبد الحكيم اختر شاهجها نفورى، (ط: مكتبة حامدية، لاهور، ١٣٩٦هـ).

٤٠- زنده رود (النهر الخالد) للدكتور جاويد إقبال (ط: شيخ غلام على و أبنائه، لاهور، دون سنة الطبع).

٤١- الزبدة الزكية لتحريم سجود التحية، للشيخ أحمد رضا خان (ط: نورى كتب خانه، لاهور، ١٣٣٠هـ).

٤٢- سبحان السبوح عن عيب الكذب المقبوح، للشيخ أحمد رضا خان، (ط: نورى كتب خانه، لاهور، ١٣٧٧هـ).

٤٣- سفينه بخشش (سفينة المغفرة) لمولانا اختر رضا خان الأزهرى، (ط: مكتبة سنى دنيا، بريلى الهند، دون سنة الطبع).

٤٤- سوانح إمام أحمد رضا (أحوال الإمام أحمد رضا) لمولانا بدر الدين القادرى (ط: مكتبة نوريه رضويه، سكهر باكستان ١٤٠٧هـ).

٤٥- شهريار علم (مدينة العلم) لمولانا محمد عبد الحكيم شرف القادرى، (ط: أكاديمية رضا بلاهور، ١٤١٧هـ).

٤٦- ضمان التكميل، للشيخ أشرف على تهانوى، (ط: مجتبائى، دلهى).

٤٧- العطايا النبوية فى الفتاوى الرضوية، للشيخ أحمد رضا خان (ط: شيخ غلام على ايندسنز، لاهور، دون تاريخ الطبع).

٤٨- فاضل بريلوى علماء حجازكى نظرمين (الفاضل البريلوى من منظور علماء الحجاز) للأستاذ الدكتور محمد مسعود أحمد، (ط: ضياء القرآن پبلى كيشنز، لاهور، ١٩٨٨م).

٤٩- فتاوى رضويه كى انفرادى خصوصيات (مزايا الفتاوى الرضوية) لمولانا محمد عبد الحكيم شرف القادرى (ط: رضا اكيدمى، لاهور، ١٤١٦هـ).

٥٠- فورت وليم كالج (كلية فورت ويليام) للأستاذ الدكتور وقار العظيم، (ط: الوقار پبلى كيشنز، لاهور، ١٩٩٥م).

٥١- قائد أعظم اوران كاعهد (القائد الأعظم وعصره) للأستاذ رئيس أحمد الجعفرى (ط: مقبول اكيدمى، لاهور، ١٩٦٢م).

٥٢- كارسان دتساى اوراس كى همعمر بهى خواهان اردو (غارسان دتاسى والمعاصرين له من المتعاطفين مع الأردية) للشريف محي الدين القادرى، (ط: سبب رس كتاب كهر، حيدر آباد دكن، ١٩٦١ م)

٥٣- كناه بى كناهى (جريمة البراءة) للأستاذ الدكتور محمد مسعود أحمد (ط: اكاديمية رضا، لاهور، ١٩٨٨م).

٥٤- كلستان سخن (حديقة الشعر) لميرزا قادر بخش صابر (ط: مجلس ترقى أدب، لاهور، ١٩٩٦م).

٥٥- مجموعة فتاوى (مجموعة الفتاوى) لمولانا عبد الحى اللكنوى الفرنجى محلى، (ط: مطبع يوسفى، لكهنو، دون سنة الطبع).

٥٦- مرحوم دهلى كالج (كلية دلهى المرحومة) للدكتور عبد الحق، (ط: انجمن ترقى اردو، دلهى، ١٩٨٩م).

٥٧- معارف رضا لصفوة من العلماء، ج ٧ (ط: إدارة تحقيقات إمام أحمد رضا، كراتشى، ١٤٠٨هـ).

٥٨- مقالات، للشيخ محمد كرم شاه الأزهرى، رتبها الأستاذ أحمد بخش (ط: ضياء القرآن ببلى كيشنز، لاهور، ١٩٩٠م).

٥٩- مقال العرفاء بإعزاز شرع وعلماء، للشيخ أحمد رضا خان، (ط: نورى كتب خانه، لاهور، ١٣٢٨هـ).

٦٠- مقالات يوم رضا، للأستاذ عبد النبى كوكب، (ط: مركزى مجلـــس رضـــا، لاهور).

٦١- مكتوبات إمام أحمد رضا [خطابات الإمام أحمد رضا] لمولانا محمود أحمـد القادرى (ط: مكتبه نبويه. لاهور، ١٩٨٦م).

٦٢- مكتوبات إمام أحمد رضا خان مع تنقيدات وتعاقبات [خطابات الإمام أحمـــد رضا مع آرائه النقدية] رتبه الأستاذ الدكتور محمد مسعود أحمد، (ط: مكتبـه نبويه، لاهور. ١٤٠٨هـــ).

٦٣- ملفوظات سديديه (خواطر سديدية) للأســـتاذ معيـــن النظـــامى، (ط: مكتبـــه سديديه، معظم آباد، سركودها، ١٤١٠هــ).

٦٤- مولانا محمد مصطفى رضا خان، للشريف شاهد على النورانـــــى (ط: إدارة معارف رضا، لاهور، ١٩٩٤م).

٦٥- مولانا نقى على خان، لمولانا محمد شهاب الديـــن الرضـــوى (ط: عـــالمى دعوت إسلامية، لاهور، ١٩٩٦م).

٦٦- هندؤں سے ترك موالاة (الامتناع عن الموالاة للهنادكة) للمنشى تـــاج الديـــن أحمد (ط: لاهور، ١٩٩٠م).

(الفارسية)

٦٧- أرمغان رضا (هدية رضا) للشيخ أحمد رضا خان، رتبه الأســـتاذ الدكتـــور محمد مسعود أحمد (ط: المختار ببلى كيشنز، كراتشى، ١٩٩٤م).

(الإنجليزية)

68- Both Ends of the Candle, By Sir Roos Densan (Febn Ltd. London 1931, AD).

69- Ulma in politic, By Ishtiaq Husain Qureshi (Ma'aref Limited Krachi, 1974 AD).

الملحق

والذى يشتمل على التالى :

(ا) صورة ضوئية لغلاف الرسالة

(ب) صورة ضوئية للبطاقة التى تحتوى على الدعوة للحضور فى مناقشة الرسالة

(ج) صورة ضوئية لتقرير لجنة المناقشة والحكم.

(د) صورة ضوئية لغلاف الديوان العربى للشيخ أحمد رضا خان.

(ه) صورة ضوئية لمظروف بريدى كتب عليه الشيخ أحمدرضاخان العنوان بحيث أصبح رأس جورج السادس إلى الأسفل.

جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
بنين - القاهرة
قسم اللغة العربية وآدابها
أدب ونقد

الشيخ أحمد رضا خان البريلوى الهندى شاعراً عربياً

بحث مقدم لنيل درجة التخصص الماجستير

إعداد الطالب

ممتاز أحمد سديدى بن محمد عبد الحكيم شرف القادرى

تحت إشراف

فضيلة الدكتور / رزق مرسى أبو العباس على

١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م

صورة ضوئية لغلاف الرسالة.

بسم الله الرحمن الرحيم

فضيلة الأستاذ/ ....

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد

فأتشرف بدعوة سيادتكم لحضور مناقشة رسالة التخصص (الماچستير) فى الأدب والنقد المقدمة إلى قسم اللغة العربية وآدابها كلية الدراسات الإسلامية والعربية (بنين) القاهرة جامعة الأزهر وموضوعها :ـ

«الشيخ أحمد رضا خان البريلوى الهندى شاعراً عربياً»

وتتكون لجنة المناقشة من السادة الأساتذه :ـ

١ ـ فضيلة الأستاذ الدكتور/ محمد السعدى فرهود — مناقشاً

٢ ـ فضيلة الأستاذ الدكتور/ القطب يوسف زيد — مناقشاً

٣ ـ فضيلة الأستاذ الدكتور/ رزق مرسى أبو العباس على — مشرفاً

وذلك فى مدرج الكلية فى تمام الساعة الحادية عشرة ظهر يوم الأحد ١٢ ربيع الثانى ١٤٢٠ هـ الموافق ٢٥ يوليو ١٩٩٩م .

ولكم جزيل الشكر

الباحث الباكستانى ممتاز أحمد سديدى

صورة ضوئية للبطاقة التى تحتوى على الدعوة للحضور فى مناقشة الرسالة

جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة
الدراسات العليا

قرار لجنة المناقشة والحكم على رسالة / التخصص الماجستير
المقدمة من الطالب / الباكستاني / ممتاز أحمد سديدي

اجتمعت اللجنة المكونة من :-
١- الأستاذ الدكتور / رزق مرسي أبو العباس أستاذ الأدب والنقد المساعد بالكلية مشرفاً
٢- " " / محمد السعدي فرهود " " " " عضواً
٣- " " / عبد اللطيف يوسف زيد " " " بكلية اللغة العربية بالمنصورة عضواً
٤- " " /
٥- " " /

في تمام الساعة ... من يوم الأربعاء الموافق ٢٥/٧/١٩٩٦م / ٢٠ ربيع الأول ١٤١٧هـ
بمدرج رقم (٢) بالدور الثاني بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة وذلك لمناقشة
رسالة التخصص الماجستير المقدمة من الطالب / ممتاز أحمد سديدي
وموضوعها (الشيخ أحمد رضا خان البريلوي الهندي شاعراً عربياً)

وقد استمرت المناقشة مدة ٣ ساعات تقريبا وبعد المناقشة خلت اللجنة للمداولة
وقررت اللجنة منح الطالب / ممتاز أحمد سديدي بن محمد عبد الحكيم شرف القادري
درجة التخصص الماجستير في الدراسات الإسلامية والعربية في اللغة العربية وآدابها أدب ونقد
بتقدير (ممتاز)
وأعلنت اللجنة هذا القرار على جمهور الحاضرين
والله ولي التوفيق

أعضاء اللجنة — التوقيع
الأستاذ الدكتور /
" " / رزق مرسي أبو العباس
" " / أ.د. محمد السعدي فرهود
" " / أ.د. عبد اللطيف يوسف زيد
" " /

يعتمد عميد الكلية
(أ.د / محمود السيد حسون)

صورة ضوئية لتقرير لجنة المناقشة والحكم.

"إن من الشعر لحكمة و إن من البيان لسحرا"

الدِّيوَانُ العَرَبِيّ

الموسوم بـ

بساتين الغفران

لمعالي فضيلة الإمام الأكبر المجدد إمام أهل السنّة والجماعة

محمد أحمد رضا خان رحمه الله تعالى

١٢٧٢هـ — ١٣٤٠هـ

جمعه ورتبه وضبطه وحققه وقدم له واردفه بملحق

الأستاذ حازم محمد أحمد عبد الرحيم المحفوظ

بكلية اللغات والترجمة . جامعة الأزهر الشريف . القاهرة . مصر

والأستاذ الزائر بجامعة بنجاب والجامعة النظامية الرضوية . لاهور . باكستان

طبع بمشاركة

اكاديمية رضا، ستاك بورت، بريطانية ٥ رضا دار الاشاعة لاهور

مجمع بحوث الامام احمد رضا، كراتشي باكستان

صورة ضوئية لغلاف الديوان العربي للشيخ أحمد رضا خان.

صورة ضوئية لمظروف بريدى كتب عليه الشيخ أحمدرضاخان العنوان بحيث أصبح رأس جورج السادس إلى الأسفل.

المحتويات

الموضـــــــــــــــوع	الصفحة
كلمة المؤلف	٥
كلمة الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومي	١١
كلمة الأستاذ الدكتور حسين مجيب المصري	١٥
كلمة الأستاذ الدكتور القطب يوسف زيد	٢١
كلمة الأستاذ الدكتور رزق مرسي ابو العباس علي........................	٣١
مقدمة البحث........................	٣٥
الباب الأول: أثر البيئة في الشاعر الشيخ أحمد رضا خان	٤٣
الفصل الأول: الوضع الثقافي والاجتماعي والسياسي لشبه القارة الهندية في عصره	٥١
المبحث الأول: الوضع الثقافي في عصره	٥٣
المبحث الثاني: الوضع الاجتماعي في عصره	٦٢
المبحث الثالث: الوضع السياسي في عصره	٦٩
المطلب الأول: حركة الخلافة	٧٢
المطلب الثاني: حركة عدم التعاون مع الإنجليز	٧٥
المطلب الثالث: حركة الهجرة	٨١
المطلب الرابع: حركة استقلال باكستان	٨٦
الفصل الثاني: موطنه، مولده، ووفاته	٩١
- اسمه، ومولده	٩٤
- أحوال أجداده	٩٤
- نشأته	١٠٠
- موطنه	١٠٣
- خلقه	١٠٥
- حياته الأسرية	١٠٩
- وفاته	١١٣
الفصل الثالث: ثقافته ومؤلفاته	١١٥
أولا: تعليمه	١١٨
ثانيا: رحلته إلى الحرمين الشريفين	١٢٢

ثالثا: شيوخه ١٢٦
رابعا: إقدامه على التدريس ١٣٣
خامسا: جلوسه للإفتاء ١٣٥
سادسا: قيامه بالتصنيف والتأليف ١٤٠
سابعا: موهبته الأدبية ١٤٣
الفصل الرابع: حال اللغة والأدب العربى بشبه القارة الهندية تحت الاحتلال الإنجليزى ١٥٧
تمهيد ١٥٩
المبحث الأول: جهود المسلمين فى نشر اللغة العربية ١٦٣
المبحث الثانى: دور الإنجليز فى نشر اللغة العربية ١٧٣
الباب الثانى: الأغراض الشعرية فى ديوان الشيخ أحمد رضا خان ١٨٧
تمهيد: التعريف بالديوان (للشيخ أحمد رضا خان) ١٨٨
الفصل الأول: المديح ١٩٩
تمهيد: التعريف بفن المدح والمديح النبوى الشريف ٢٠١
المبحث الأول: جهوده فى المديح النبوى الشريف ٢٢
المبحث الثانى: جهود شاعرنا فى مدح الأولياء الصالحين وعلماء الدين.. ٢٤٥
تمهيد ٢٤٧
المطلب الأول: مدحه لمولانا الشريف أبو الحسين أحمد النورى ٢٤٩
المطلب الثانى: مدحه لمولانا إسماعيل بن خليل وأخيه وأبيه ٢٥٦
المطلب الثالث: مدحه لمولانا صالح كمال المكى ٢٥٨
المطلب الرابع: مدحه لمولانا عبد القادر البدايونى ٢٦٥
المطلب الخامس: مدحه للشيخ عبد القادر الجيلانى ٢٦٤
المطلب السادس: مدحه لمولانا عبد المجيد البدايونى ٢٧٧
المطلب السابع: مدحه لمولانا فضل الرسول البدايونى ٢٨٢
المطلب الثامن: مدحه لمولانا محمد رضا على خان النقشبندى ٢٩٣
المطلب التاسع: مدحه لمولانا محمد نقى على خان القادرى ٢٩٦
المطلب العاشر: مدحه للشيخ معين الدين الجشتى الأجميرى ٣٠٠
المطلب الحادى عشر: مدح أثناء الهجاء ٣٠٥
الفصل الثانى: الرثاء ٣٢٣
تمهيد: فى التعريف بفن الرثاء ٣٢٥

المبحث الأول: قصائد شاعرنا فى الرثاء والتاريخ ٣٣٣
المطلب الأول: فى رثاء وتاريخ عام رحيل مولانا محمد إسماعيل القادرى ٣٣٥
المطلب الثانى: فى رثاء وتاريخ عام رحيل مولانا محمد عبد الغنى ٣٦٢
المطلب الثالث: فى رثاء وتاريخ عام رحيل مولانا محمد عبيد الله ٣٦٦
المطلب الرابع: فى رثاء وتاريخ عام رحيل مولانا محمد عمر الحنبلى الحيدر آبادى ٣٧٨
المبحث الثانى: مقطوعات شاعرنا ورباعيته وبيته فى الرثاء والتاريخ .. ٣٨٥
المطلب الأول: فى رثاء وتاريخ رحيل ابنه الشيخ الشريف آل رسول المارهروى ٣٨٧
المطلب الثانى: فى رثاء وتاريخ عام رحيل الشيخ آل رسول المارهروى ٣٨٩
المطلب الثالث: فى رثاء وتاريخ عام رحيل مولانا الحكيم حبيب على . ٣٩٣
المطلب الرابع: فى رثاء وتاريخ عام رحيل السيدة سكينه زوجة مولانا محمد عبد السلام الجبلفورى ٣٩٥
المطلب الخامس: فى تاريخ عام رحيل مولانا شفيع أحمد خان ٣٩٧
المطلب السادس: فى تاريخ عام رحيل الشريف حيدر ميان ٣٩٨
المطلب السابع: فى تاريخ عام رحيل مولانا القاضى عبد الوحيد ٤٠٠
المطلب الثامن: فى تاريخ عام رحيل مولانا الشريف مجتبى حسن ٤٠٢
المطلب التاسع: فى تاريخ عام رحيل مولانا محمد إسماعيل القادرى ٤٠٣
المطلب العاشر: فى رثاء وتاريخ عام رحيل مولانا عبد الكريم الحيدر آبادى ٤٠٥
المطلب الحادى عشر: فى رثاء وتاريخ عام رحيل الحكيم محمود أحمد خان ٤٠٨
الفصل الثالث: الهجاء ٤١١
تمهيد: فى التعريف بفن الهجاء ٤١٣
الوقفة الأولى: فى هجاء مولانا عبد البارى الفرنجى محلى ٤٢١
الوقفة الثانية: فى هجاء القائلين بإمكان كذب الله تعالى الله علوا كبيرا عما يقولون ٤٢٩
الوقفة الثالثة: فى هجاء اشخاص لم يذكرهم باسم ٤٣٣

الوقفة الرابعة: مقطوعته وشعره فى الفرق المخالفة لأهل السنة والجماعة ٤٤٢
الوقفة الخامسة: قصيدته فى الخارجين على إجماع أهل السنة والجماعة. ٤٤٦
الفصل الرابع في غير ذلك من الأغراض ٤٥٧
تمهيد ٤٥٩
المبحث الأول: المناجاة ٤٦١
المبحث الثانى: الغزل ٥٠١
المبحث الثالث: مشاعر دينية فياضة ٥٢٩
الباب الثالث: دراسة تحليلية نقدية لديوان الشيخ أحمد رضا خان ٥٤٧
الفصل الأول: الخصائص الأسلوبية واللغوية فى ديوانه العربى ٥٤٩
المبحث الأول: الخصائص اللغوية فى ديوان شاعرنا ٥٥١
المبحث الثانى: الخصائص الأسلوبية فى ديوان شاعرنا ٥٦٧
المبحث الثالث: بيت القصيد عند شاعرنا ٥٩٥
الفصل الثانى: شاعرنا بين شعراء العربية فى الهند ٦١١
الخاتمة وأهم نتائج البحث ٦٨٥
قائمة المراجع ٦٨٩
الملحق ٧٠٩

****